من نفائس ابن عثيمين

المحاضرات السنية في شرح العقيدة الواسطية

لشيخ الإسلام ابن تيمية

شرحه

سماحة الشيخ محمد الصالح العثيمين

مع تعليقات نفيسة

للعلامة الشيخ عبدالعزيز بن باز حفظه الله

حقق نصوصه وخرج أحاديثه واعتنى به

أبو محمد أشرف بن عبد المقصود بن عبد الرحيم

مكتبة طبرية

الرياض : ت ٢٣٢١٠٤٥١

الطبعة الأولى
١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

تنبيه : كل من أراد طبع هذا الكتاب وغيره من الهيئات الخيرية وأهل الخير لتوزيعه مجانًا فعليه الاتصال بنا ، ونحن خير من يعاونه فى ذلك بدون أى مقابل والله الموفق .

مكتبة طيبة - الرياض - النسيم - أول شارع الأربعين التجارى بجوار بنده
ت : ٢٣٢١٠٤٥ - ص.ب ٩١٦٦٧ لصاحبها/ على صنهات الحربي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةُ التَّحقِيق

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شُرور أَنفسنا ، وسَيِّئات أَعْمَالِنَا ، من يَهْدِه الله فَلا مُضِلّ لَهُ ، وَمَن يُضْلِل فَلا هَادِي لَهُ ، وأَشْهَدُ أَنَّ لا إله إِلَّا الله وَحْدَهُ لا شريك له وأشهد أَن محمدًا عبده ورسوله .

وصلاة الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه وإخوانه أجمعين إلى يوم الدين .

أما بعد :

فبين يَدَى القَارىء الكَريم هذا « المُعْتَقَدُ السَّلفي الجَيِّد »[١] ، وهذه « العَقِيدة السَّنِيّة السَّلَفِيَّة »[٢] عقيدة السَّلف الصَّالح .

ومؤلفها مَنْ ؟ إنَّه شيخ الإِسلام ابن تيمية الَّذى وَصَفَهُ الحافظ الذهبي بقوله : «ولقد نَصَر السُّنَّة المَحْضَة ، والطَّريقة السَّلفية ، واحْتَجَّ لها بِبَرَاهِين ومُقَدِّمات لم يُسْبَق إليها ، وأَطْلَق عِبَارَات أَحْجَم عنها الأَوَّلُون والآخِرون وهَابُوا ، وجَسَر هُو عَلَيها ، حتى قام عليه خَلْقٌ من علماء مصر والشَّام قيامًا لا مَزِيد عليه ، وبدَّعوه ، وَنَاظَرُوه وَكَابَرُوه ، وهو ثَابِتٌ لا يُدَاهِن ولا يُحَابِى ، بل يقول الحق المُر الذى أَدَّاه إليه اجتهاده ، وحِدّة ذِهْنه ، وسَعَة

---

(١) وصفها بذلك الحافظ الذهبى كما فى العقود الدرية لابن عبدالهادى ص (٢١٢) والكواكب الدرية للإمام مرعى الحنبلى ص (١٢٥) .

(٢) وصفها بذلك الحافظ ابن رجب كما فى الذيل على طبقات الحنابلة (٣٩٦/٢) .

دَائِرته فى السُّنن والأقوال مع ما اشتهر عنه من الوَرَع ، وكمال الفكر ، وسُرْعة الإدراك ، والخَوْف من الله والتَّعظيم لحرمات الله » ا.هـ[١] .

شيخ الإسلام ابن تيمية الذى يقول : « أَمَّا الإعتقاد : فلا يُؤْخَذُ عَنِّى ، ولا عَمَّن هو أَكْبَرُ مِنِّى ، بل يُؤْخَذُ عن الله ، وَرَسُوله ﷺ ، وَمَا أَجْمَعَ عَليه سَلَفُ الأُمَّة ؛ فما كان فى القرآن وَجَبَ اعتقاده ، وكذلك مَا ثَبَت فى الأَحَاديث الصَّحيحة ، مثل البخارى ومسلم »[٢] .

وهذا هو الشَّيخ الفاضل محمد الصَّالح العثيمين علامة القصيم يَقُوم بشرح هذا المعتقد المبارك ويميط اللِّثَام عن هذه العقيدة المباركة بأُسْلوبه المَعْرُوف من خلال دُرُوسه ومُحَاضَراته فى الجامع الكبير بعنيزة وبأُسْلُوبٍ سَهْلٍ وَأَبْحَاثٍ مُتَنَوِّعة وفَوَائد وَفَرَائِد مُتَكَاثِرة رَأَيْنا أَنْ نُطْلق عليها : « المُحَاضَرات السَّنية فى شرح العقيدة الوَاسِطية » .

● لماذا سميت العقيدة الواسطية بهذا الإسم وسبب تأليفها ؟

يُجِيب شيخ الإسلام ابن تيمية على هذا التَّساؤل إبَّان مُنَاظَرته للمُخَالفين له وذلك فى المناظرة التى عقدت بينهما فيقول : « ... ثم أَرْسَلْتُ مَنْ أَحْضَرهَا ، ومعها كراريس بِخَطِّى من المنزل ، فحضرت « العقيدة الوَاسطية » ، وقلت لهم : هذه كان سَبَبُ كتابتها أَنَّه قَدِمَ على من أرض وَاسِط بعض قُضَاة نَوَاحِيها شَيْخٌ يُقَالُ له : رَضِىُّ الدِّين الوَاسِطِي من أَصْحاب الشَّافِعى – قَدِمَ علينا حَاجًّا ، وكان من أهل الخير والدِّين ، وشكا مَاالنَّاسُ فيه بِتلك البِلاد ، وفى دولة التَّتر من غلْبة الجَهْل ، والظُّلم ، ودُرُوس الدِّين

---

(١) الذيل على طبقات الحنابلة (٣٩٤/٢) .

(٢) حكاية المناظرة فى الواسطية (١٦١/٣) ضمن مجموع الفتاوى .

والعلم ، وسألنى أَنْ أَكْتُب له عقيدة تكون عُمْدَة له وَلِأَهْل بَيْتِه ، فاسْتَعْفَيْتُ من ذلك وقلت : قد كَتَبَ النَّاس عقائد مُتَعَدِّدة ؛ فخذ بعض عقائد أئمة السُّنَّة ، فَأَلَحَّ فى السُّؤَال وقال : مَا أُحِبُّ إلا عَقِيدة تكتبها أَنْتَ ، فكتبت له هذه العَقِيدة وأَنَا قاعد بعد العصر ، وقد انتشرت بها نُسَخٌ كثيرة ؛ فى مصر والعِراق ؛ وغيرهما » ا.هـ

● وسَطِيَّة العقيدة الواسطية وأهميتها :

تتجلَّى أهمية هذا المعتقد السلفى وهذه العقيدة السَّنية فى الأمور الآتية :

أولاً : السَّبب الباعث على تأليفها : وقد تقدم أنَّ سَبب كتابتها أَنَّ أَحد قُضاة واسط شَكَىٰ لشيخ الإسلام ابن تيمية ما النَّاسُ فيه ببلادهم فى دولة التَّتر من غلْبة الجهل والظُّلم ، ودُرُوس الدِّين والعلم !!

والنَّاظر إلى أحوال المسلمين فى هذه الأَيَّام وقد تَدَاعَت عليهم الأُمَم من كل صَوْبٍ وما غرق فيه المسلم من الذَّوبان فى بَرَاثِن الأَفكار المَادِيّة المُعَاصرة وغيرها من العقائد الفاسدة ، وقِلَّة العلماء وطلبة العلم ، وانتشار الجهل بين النَّاس حتى غدا المنكر معروفًا والمعروف منكرًا والبدعة سُنَّة والسُّنَّة بدعة والشِّرك تَوْحيدًا والتَّوحيد شِرْكاً عَلِمَ يَقِينًا حاجة النَّاس إلى هذه العقيدة السَّلفية السَّمحة المُبَاركة .

ثانياً : شُمُولها لأهم قضايا العقيدة فى تَسَلْسُلٍ جَيِّد : فهو يبدأ أَوَّلاً ببيان موقف أهل السُّنَّة والجماعة من الإيمان بصفات الله جلَّ وعلا ، ثم يفرد فصلاً خاصًا لآيات الصِّفات فى القرآن الكريم ثم أحاديث الصِّفات ثم ينتقل بعد ذلك للحديث عن الإيمان باليوم الآخر وما يجرى فيه من أَحْداثٍ وأَهْوالٍ عِظَام ثم يدخل بعد ذلك فى الكلام على رُكن الإيمان بالقدر ومَرَاتبه والرَّد على المخالفين فيه . ثم يتحدَّث بعد ذلك عن حقيقة الإيمان عند أهل السُّنَّة والجماعة

وبيان حكم مرتكب الكبيرة ، وبعد ذلك يتحدث عن أصحاب رسول الله ﷺ والوَاجِب نحوهم ومكانتهم وفضائلهم والرد على المبتدعة والروافض فيما يقولونه فى حقّ أصحاب رسول الله ﷺ ثم يبين مذهب أهل السُّنَّة والجماعة فى كرامات الأولياء ويُبَيِّن صفات أهل السُّنَّة والجماعة و لم سُمُّوا بهذا الإِسم ثم يَعْقد فَصْلاً فى آخر العقيدة فى بيان مُكَمِّلات العقيدة من مكارم الأَخلاق ومَحَاسِن الأَعمال التى يَتحَلَّى بها أهل السُّنَّة مُشِيرًا بذلك إلى أَنَّ العقيدة لابد أن تتحول إلى سُلوك حَسَنٍ ، وَأَدَابٍ رفيعة .

فجاءت هذه العقيدة بحقّ جامعة لِشَتَات المَسَائِل بما احتوت عليه من المباحث المُتَنَوِّعة التى جَلَّاها لنا شيخ الإسلام بِأُسْلُوب وَاضِح .

ثالثاً : غَزَارة المادة القرآنية والحَدِيثية فيها : فالنَّاظر فى هذا المُخْتَصر اللَّطيف فى العقيدة يجد أن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قد دَعَّمه بالدَّلائل النَّقلية من الآيات القرآنية والأَحاديث الصَّحيحة بما لا مَزِيد تحته فانظر مثلاً مبحث آيات الصِّفات ، وأَحاديث الصِّفات ، وكذا دَعَّمَهُ بالدَّلائل العقلية القَوِيَّة انظر مثلاً : وهو يتحدَّث عن وُجُوب الإيمان باستواء الله على عرشه وعلوه على خلقه ومعيته لخلقه ، وأنه لا تنافي بينهما حيث يقول : « وَلَيْسَ مَعْنَى قوله : ﴿ وَهُوَ مَعَكُم ﴾ [الحديد : ٤] أَنَّه مختلط بالخلق فإِنَّ هذا لا تُوجبه اللُّغة وهو خلاف مَا أَجْمَع عليه سَلَفُ الأُمَّة ، وخلاف مَا فَطَر الله عليه الخَلْق بل القمر آية من آيات الله من أَصْغَر مَخْلُوقَاتِه وهو مَوْضُوعٌ فى السَّماء وهو مَعَ المُسَافِر وغير المُسَافِر أَيْنَما كان ... » ا.هـ

رابعاً : تَحَرِّى ألفاظ الكتاب والسُّنة فيها : فإِنَّ شيخ الإسلام رحمه الله قد حَرِص فى هذه العقيدة المباركة أن يعتمد على مَا وَرَدَ من ألفاظ فى كتاب الله وسُنَّة رَسُولِه و لم يلْتَفِت إلى مَا أُحْدِث من أَلْفَاظ فى باب الإعتقاد .

يقول شيخ الإسلام فى حكاية مناظرته مع المخالفين فى هذه العقيدة : « وذكرت فى غير هذا المجلس أنِّى عدلت عن لفظ التَّأْويل إلى لفظ التَّحريف ، لأَنَّ التَّحريف اسم جاء القرآن بِذَمِّه ، وأَنَا تَحَرَّيْتُ فى هذه العقيدة اتِّبَاعُ الكتاب والسُّنَّة ، فَنَفَيْتُ مَا ذَمَّهُ الله من التَّحريف ، ولم أذكر فيها لفظ التَّأْويل بِنَفْيٍ ولا إِثْبَات ، لأَنَّه لَفْظٌ له عِدّة معان كما بَيَّنْتُه فى موضعه من القواعد ... » ا.هـ

خامساً : أَنَّهما عُرِضت فى مقام التَّحدى مع المخالفين : فيحكى شيخ الإسلام فى مناظرته فى هذه العقيدة لما قيل له أنت صَنَفّت اعتقاد الإمام أحمد فتقول هذا اعتقاد أحمد ، يعنى والرَّجل يصنف على مذهبه فلا يُعْتَرض عليه فإن هذا مذهب مَتْبوع ...

قال شيخ الإسلام : « مَا جَمَعْتُ إِلَّا عقيدة السَّلف الصَّالح جميعهم ليس للإمام أحمد اخْتِصَاصٌ بهذا ، والإمام أَحْمد إنما هو مُبَلِّغ العلم الذى جاء به النَّبى ﷺ ولو قال أحمد من تلقاء نَفْسِه ما لم يجىء به الرَّسول لم نقبله ، وهذه عَقِيدة محمد ﷺ »

ثم قال : « وقلت مَرّات : قد أَمْهَلْتُ كل مَنْ خَالَفنى فى شىءٍ منها ثلاث سنين فإن جاء بِحَرْفٍ وَاحِدٍ عن أَحَدٍ من القُرون الثَّلاثة التى أثنى عليها النبى ﷺ حيث قال : « خير القُرون قَرْنى الَّذى بُعِثْتُ فِيه ، ثم الَّذين يَلُونَهم ثم الَّذين يَلُونهم » يُخَالِفُ مَا ذَكَرْتُه فأنا أَرْجِعُ عن ذلك ... » ا.هـ

ومما يدلُّ على قوة حجة شيخ الإسلام فى هذا المقام الذى تحدَّى فيه هؤلاء المخالفين أَنَّ هذه العقيدة كُتِبَت قبل المناظرة بسنوات طويلة . يقول شيخ الإسلام فى حكاية مناظرته : « ثم قلت للأَمِير والحَاضِرين : أَنَا أَعْلَمُ أن أقوامًا يَكْذِبُون على ؛ كما قد كذبوا علَّى غير مرَّة ، وإن أَمْلَيْتُ الاعتقاد من حِفْظى : ربما يقولون كتم بَعْضَه ، أو دَاهَن أو دَارَى ؛ فأنا أُحْضِر عَقِيدة مَكْتُوبة ؛

من نحو سَبْع سِنين قَبْل مَجِيء التَّتر إلى الشَّام ...» . وبعد أن جاءَت أشار الأمير بأن لايقرأها شيخ الإسلام دفعًا للريبة وأعطاها لكاتبه الشيخ كمال الدين ، فقرأها على الحاضرين حرفًا حرفًا ، والجماعة الحاضرون يَسْمَعونها ...

يقول الحافظ الذَّهبى : « ثم وقع الإتِّفَاقُ عَلَىٰ أَنَّ هذا مُعْتَقَدٌ سَلَفِيٌّ جَيِّد » .

سادساً : ما بيَّنه شيخ الإسلام ابن تيمية فى هذه العقيدة الغراء من أَنَّ أهل السُّنَّة والجماعة مُتَوَسِّطُون بين فريقى الإفراط والتَّفريط فهم وسط بين الفرق المنتسبة للاسلام كما أَنَّ الأمة الإسلامية وَسَطٌ بين الأمم ثم بَيَّن ذلك تَفْصِيلاً فقال : « فهم وَسَطٌ فى باب صِفَات الله سُبحانه وتعالى بين أَهْل التَّعْطِيل الجَهْمِيَّة وأهل التَّمْثِيل المُشَبِّهة ، وهم وَسَطٌ فى باب أَفْعَال الله بين الجَبْرية والقَدَرِية وغيرهم ، وفى باب وَعِيد الله بين المُرْجِئة والوَعِيدية من القَدَرية وغيرهم ، وفى باب أَسْمَاء الإيمان والدين بين الحرورية والمُعْتَزلة وبين المُرْجِئة والجَهْمِية ، وفى باب أَصْحَاب رَسُول الله ﷺ بين الرَّافضة والخوارج » ا.هـ

وما أَشار إليه شيخ الإسلام رحمه الله فى تفصيل وسطية أهل السُّنَّة والجماعة فى هذه الأمور الخمسة جَلَّاه بِأَحْسن عبارة وأَدَق تَفْصِيل فى محتوى هذه العقيدة السَّلفية المباركة .

فحقًا إنَّها عَقِيدةٌ وَسَطِيةٌ نَقِيَّةٌ !

● شــروح العقيدة الواســطية :

اهتم كثير من أهل العلم والدَّارِسين والباحثين بهذه العقيدة السَّلفية فقاموا بشرحها والتَّعليق عليها ما بين مُتَوَسِّط ومُخْتَصر فمن ذلك :

١ - الكواشف الجلية فى شرح العقيدة الوَاسِطِيَّة . للشيخ عبدالعزيز

المحمد السَّلمان .

٢ – الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الوَاسِطِيَّة . للشيخ عبدالعزيز المحمد السَّلمان .

٣ – مختصر الأسئلة والأجوبة الأُصولية على العقيدة الوَاسِطِيَّة . للشيخ عبدالعزيز المحمد السَّلمان .

٤ – التَّنْبيهات اللَّطيفة على ما حتوت عليه العقيدة الوَاسِطِيَّة من المباحث المُنيفة . للشَّيخ عبدالرحمن بن ناصر السَّعدى . وعليه تعليقات نفيسة للشيخ ابن باز حفظه الله وهى التى نقلناها على هذا الشَّرح المبارك أيضًا .

٥ – الروضة الندية شرح العقيدة الوَاسِطِيَّة . للشَّيخ زيد بن عبدالعزيز بن فياض .

٦ – التَّنْبيهات السَّنية على العقيدة الواسطية . للشيخ عبدالعزيز بن ناصر الرشيد .

٧ – شرح العقيدة الوَاسِطِيَّة . للشيخ صالح بن فوزان عبدالله الفوزان .

٨ – شرح العقيدة الوَاسِطِيَّة . للشيخ محمد خْليل هراس وبمراجعة الشيخ عبدالرّزاق عفيفى .

٩ – تعليقات على العقيدة الوَاسِطِيَّة . للشيخ محمد عبدالعزيز مانع .

١٠ – المنحة الإلهية فى شرح العقيدة الوَاسِطِيَّة . لعلي مصطفى الغرابى .

١١ – التعليقات المفيدة على العقيدة الوَاسِطِيَّة . تعليق عبدالله بن عبدالرحمن بن على الشريف .

١٢ – شرح مختصر للعقيدة الوَاسِطِيَّة . إعداد مصطفى العالم .

١٣ – شرح مختصر للعقيدة الوَاسِطِيَّة . للشيخ ابن عثيمين وهو مذكرة للمهم من مقرر السنة الثانوية فى المعاهد العلمية فى التوحيد .

* * *

● شَرْحُ ابن عُثَيْمِين للعَقِيدة الوَاسِطية ومَزَاياه :

أَلَّف الشيخ ابن عثيمين حفظه الله مختصرًا لطيفًا فى مُذَكِّرةٍ للمُهِم من مقرر السَّنة الثَّانية الثَّانوية فى المعاهد العلمية فى التوحيد على العقيدة الوَاسِطِيَّة لشيخ الإسلام صاغ فيه هذه العقيدة المباركة بأُسْلُوبٍ سَهْلٍ مختصر يتناسب مع من يُدَرّس لهم هذا الكتاب المبارك .

وشَرَعَ حفظه الله فى شَرْحٍ مُفصَّلٍ ، وبقَولٍ سَدِيدٍ ومَنْهج رَشِيد فى بيان مَا احتوت عليه هذه العقيدة من فوائد ومباحث متنوعة وذلك من خلال دروسه النَّافعة المُتَوَاصِلة بالجامع الكَبير بعنيزة .

وقد نهج الشَّيخ حفظه الله فى هذا الشَّرح النافع منهجًا متميزًا يتمثل فى :

(١) سُهولة العبارة والأَلْفَاظ : حَيْثُ ساعد على ذلك أَنَّ هذا الشَّرح عبارة عن مجالس أَمْلَاها الشَّيخ فى المسجد فكان ذلك سببًا فى تَسْهِيل العِبَارات والكَلمات ، وبذلك يَسْتَفِيدُ منه المُتَعَلِّم والمُتَخَصِّص والباحث ، ومع تساؤل طلبة العلم أَثناء هذا المجالس ساعد ذلك على بيان الغامض وَمَا يشكل عليهم فَهْمُه مما زاد فى إثراء الفوائد والمعلومات فى هذا الشَّرح .

(٢) المنهج المُتَمَيِّز فى شرح آيات الصِّفات حيث يقوم الشَّيخ حفظه الله بشرح الآية وبَيَان ما فيها من فوائد وأَسْرار وحِكَم لاسيما ما يَتَعَلَّق بِجانب الاعتقاد ، ثم يذكر الرَّد على المخالفين لأهل السُّنة والجماعة فى إثبات الصِّفة التى تشير إليها الآية ، ثم يذكر الآثار المَسْلَكية والتَّربوية المُسْتَفَادَة من الإيمان بهذه الصِّفة وهذا مبحث رائع قَلَّ من رأيته يتفَّطن له ، وهو بَيَانٌ واضح للرَّد على هؤلاء النَّفر الذين يقولون مَاذا نَسْتَفِيد من الكلام فى الأسماء والصفات وتعليم الناس ذلك ؟!

(٣) كثرة المَبَاحث والفَوَائد التى اشتمل عليها هذا الشَّرح النَّافع فى جميع مسائل الاعتقاد بحيث نستطيع أن نقول إنَّه بحق مَوْسُوعةٌ جَامِعة نافعة لِجُلِّ مسائل الإعتقاد فى ضوء الآيات القُرآنية والأَحاديث الصَّحيحة .

(٤) قوة الحجة والدَّليل فيما يُورده الشَّيخ حفظه الله من مَسَائل وَمَبَاحث وتَفْصِيلات رَائِعة مستخدمًا فى ذلك أدلة متنوعة فمن أَدِلَّة نَقْلية ، وعقلية ، وحسية ، وفطرية ، إلى غير ذلك ..

● منهج ترتيب الكتاب وإعداده :

ويَتلَخَّص عَمَلُنا فى الكتاب فى الآتى :

١ - قمت بِتَصْحيح الأَخْطاء فى النُّسخة التى اعتمدت عليها - والتى قام بنسخها من الشرائط أحد الطلبة جزاه الله خيرًا وراجعها الشَّيخ ابن عثيمين بعد ذلك ونقَّحها وهذَّبها وزاد فيها بعض العبارات والجمل والعبارات ، بل وَرَجَعْت إلى الشَّرائط فى مراجعة كثير منها على قدر الطَّاقة والاستطاعة .

٢ - ضبط مَا يُشْكل من اَلفَاظ وعِبارات كما قمت بضبط الآيات والأحاديث والآثار .

٣ - تنسيق الكتاب بحيث يستطيع القارىء استيعابه بسهوله ويتمثل ذلك فى :

(أ) وضعت المتن قبل الشرح وفصلت بينهما بكلمة « الشرح » .

(ب) وضعت عناوين مناسبة لكل فقرة مُتَنَاسقة .

(جـ) أحيانًا يقوم الشيخ بشرح الآثار المَسْلَكِيَّة لعدد من الصِّفات فى موضع واحد ، فقمت بِوَضْع كل أثر مسلكى لِصِفة فى آخر الصِّفة حتى يتسنى للقارىء استيعابها بكل يُسْر وسُهُولة .

(د) وضعت آيات المتن من المُصْحَف وكما إذا كُرِّرت فى الشَّرح أيضًا .

٤ - تخريج الآيات القرآنية ووضع التخريج بجوار الآية .

٥ - تخريج الأحاديث والآثار وبيان دَرَجَتها من حيث القبول أو الرَّد .

٦ - قمت بوضع تعليقات نفيسة للشيخ ابن باز حفظه الله كان قد كتبها على الواسطية .

٧ - وضعت ترجمة لشيخ الإسلام ابن تيمية مؤلف العقيدة الوَاسِطِيَّة ونبذة عن تصانيفه فى الإعتقاد وكذا نبذة مختصرة عن الشيخ ابن عثيمين مؤلف شرح العقيدة الواسطية ونبذة عن تصانيفه فى الإعتقاد .

٨ - قمت بعمل فَهَارس عَامَّة للكتاب للآيات والأَحَادِيث والآثار والموضوعات .

٩ - قدَّمت بِمُقَدِّمة بَيَّنْتُ فيها أهمية هذه العقيدة وسبب تَأْلِيفها وشُروحها وشرح ابن عثيمين لها ومَزَاياه .

١٠ - كما قمت بوضع المُنَاظرة الشَّهيرة لشيخ الإسلام فى هذه العقيدة فى آخر الكتاب نظرًا لأهميتها .

هذا وقد اجتهدت فى إعداد الكتاب وتَنْسِيقه حَسَب الطَّاقة والله تعالى يَغْفِر لِى زَلَلى وتَقْصِيرى ، ونحن نَسْتَغْفِرُ الله تعالىٰ من كل ذَنْبٍ ، زَلَّت به القَدَم ، أو طَغَى به القَلم ، ونَسْتَغْفِرُه من أَقْوَالِنا التى لا تُوَافِقُها أَعْمَالُنا ونَسْتَغْفِرُه من كل عِلْمٍ وَعَمَلٍ قَصَدْنَا به وَجْهه الكريم ثم خَالَطُه غيره ، ومن كل نِعْمَةٍ أَنْعَم بِها علينا فاستعملناها فى مَعْصِيةٍ ، ومِنْ كُلِّ تَصْرِيحٍ وتَعْرِيضٍ بِنُقْصَان نَاقِص ، وتَقْصِير مُقَصِّر كنا مُنْصِفِين به ، ومن كل خَطْرَةٍ دَعَتْنَا إلى تَصنُّع وَتكَلُّف تَزَيُّنًا للنَّاس فى كِتَابٍ سَطَرْنَاه أو عِلْمٍ أَفَدْنَاه أو اسْتَفَدْنَاهُ .

ونرجو بعد الاستغفار من جميع ذلك كُلِّه لنا ، أن نُكْرَم بالمغفرة والرَّحمة والتَّجاوز عن جميع السيئات ظاهرًا وبَاطِنًا وأَوّلاً وآخرًا إنَّ الله وَاسِعُ المغفرة ، وهو أهل التَّقْوَىٰ وأهل المَغْفِرة .

ولا حول ولا قوة إلا بالله وهو حَسْبُنَا ونِعْم الوَكِيل .

وسبحانك اللَّهُم وَبِحَمْدك أَشْهَدُ أَنَّ لا إله إلا الله .

أستغفرك وأَتُوب إليك .

الإسماعيلية فى يوم الثلاثاء ٢٦ من ذى القعدة ١٤١٣هـ

الموافق ١٨ مايو ١٩٩٣م

وكتب

أشرف عبد المقصود

ترجمة مؤلف العقيدة الواسطية «شيخ الإسلام ابن تيمية»

من تذكرة الحافظ ، ومعجم الشُّيوخ : للحافظ الذَّهبى

● قال الحافظ الذَّهبي فى تذكرة الحفاظ(*) :

« **ابن تيمية** : الشيخُ الإمام العلَّامةُ الحافظُ النَّاقد الفَقِيه المُجْتَهِدُ المُفَسِّرُ البارِعُ شَيْخُ الإسلام ، عَلَّم الزُّهّاد ، نادِرةُ العَصْر ، تقى الدِّين أبو العبَّاس أَحمد ابن المفتى شِهاب الدِّين عبدالحليم ابن الإمام المجتهد شيخ الإسلام مَجْد الدِّين عبدالسَّلام ابن عبدالله بن أبى القاسم الحَرَّانى .

○ **أَحَدُ الأَعْلام** . **وُلِدَ** فى ربيع الأَول سنة إِحْدَىٰ وستِّين وست مائة ، وقَدِمَ مع أَهْلِه سنة سَبْع ، فَسَمِع من ابن عبدالدَّائم ، وابن أبى اليُسر ، والكمال بن عبد ، وابن الصَّيْرَفى ، وابن أَبِى الخَيْر ، وخلق كثير . وعنى بالحَدِيث ، ونَسَخَ الأَجزاء ، ودَارَ على الشُّيوخ ، وخَرَّجَ ، وانتقى ، وبَرَع فى الرِّجال وعِلل الحَدِيث وفقهه ، وفى عُلوم الإِسلام وعلم الكَلَام وغير ذلك .

○ **كَانَ** من بُحُور العلم ، ومن الأَذْكِياء المَعْدُودين ، والزُّهاد الأَفْراد ، والشُّجعان الكِبَار ، وألكُرَمَاء الأَجْوَاد . أَثْنَىٰ عليه الموافِقُ والمُخالِفُ ، وسارت بِتَصَانِيفه الرُّكبان ، لعلّها ثلاث مائة مُجَلّد .

○ **حَدَّثَ** بدمشق ، ومصِر ، والثَّغر . وقد امتُحن وأُوذِىَ مرَّات ، وحُبس بِقَلْعة مِصر والقاهرة والإسكندرية ، وبِقَلْعة دمشق مرَّتيْن . وبها توفى

(*) تذكرة الحافظ رقم (١١٧٥) ص (١٤٩٦) بتحقيق المعلمى.ط. حيدر آباد الدكن .

فى العشرين من ذى القعدة سَنة ثمانٍ وعشرين وسَبع مائة ، فى قاعة ، مُعْتقلاً . ثم جُهِّز وأُخرج إلى جامع البلد ، فشهده أُمَمٌ لا يُحْصَوْن ، فحُرزوا بِستِّين أَلفًا . ودُفن إلى جانب أخيه الإمام شرف الدِّين عبدالله ، بمقابر الصُّوفية ، رحمهما الله تعالى .

○ **وَرُئِيَت** له مَنامات حَسَنة ، ورُثى بعِدّة قَصائِد . وقد انفرد بفتاوى نِيل من عَرْضه لِأَجْلها ، وهى مغمورة فى بَحْر عِلْمه . فالله تعالى يُسامِحُه ويَرْضَى عنه . فما رَأَيْتُ مِثْلَه . وكُلُّ أَحَدٍ من الأُمّة فَيُؤْخَذُ من قَوْله وَيُتْرَك . فكان مَاذَا ؟ » .

* * *

● وقال الذَّهبى فى معجم شيوخه(**) :

« **شيخنا وشَيْخُ الإسلام** وفريد العَصْر عِلْماً ومَعْرفةً وشَجاعةً وذَكاءً وتَنْويراً إلهيّاً وكَرَمًا ونُصْحًا للأمّة ، وأَمْراً بالمعروف . ونَهْياً عن المُنْكَر .

○ **سَمِع الحدِيث** ، وأكثر بنفسه من طلبه ، وكتب ، وخرّج ، ونظر فى الرِّجال والطَّبقات ، وحَصَّل ما لم يُحَصِّلُه غيره .

○ **وَبَرَع فى تَفْسير القُرآن** ، وغَاصَ فى دَقِيق مَعَانيه بَطبْع سَيَّال وخَاطِر وَقّاد ، إلى مواضع الإشكال ميَّال . واستنبط منه أشياءً لم يُسْبَق إليها .

○ **وبَرَع فى الحَدِيث** وحِفْظُه ، فَقَلَّ مَنْ يحفظُ من الحَدِيث معزوّاً إلى أُصوله وصَحَابته ، مع شِدَّة استحضار له وقت إقامة الدَّليل ، وفاق الناس فى معرفة الِفقْه ، واختلاف المَذَاهِب ، وفتاوى الصَّحابة والتَّابعين بحيث أَنَّه إذا أَفْتَى لم يلتزم بمذهب ، بل بما يقوم دليلُه عنده .

(**) نقلاً من شذرات الذهب لابن العماد (١٤٤/٨) . طبعة دار ابن كثير .

○ **وأَتْقَنَ العربيّة** أُصُولاً وفروعًا وتعليلاً واختلافًا ، ونظر فى العَقْلِيَّات وعَرَف أَقوال المُتَكَلِّمين ، وَرَدَّ عليهم ونبَّه على خَطَأَهم ، وحَذَّر ، ونَصَر السُّنَّة بأَوْضَحِ حُجَج وأَبْهر بَرَاهِين .

○ **وأُوذِى فى ذَاتِ الله** من المُخَالفين ، وأُخِيف فى نصر السُّنَّة المَحْضَة ، حتى أَعْلَىٰ الله مَنَاره ، وجَمَعَ قُلُوب أهل التَّقْوىٰ على مَحَبَّته والدُّعاء له . وكَبْتَ أَعْدَاءه ، وهدى به رجالاً كثيرة من أهل الملل والنِّحل ، وجَبَل قلوب الملوك والأُمرآء عَلَىٰ الانقياد لَهُ غَالبًا ، وعلى طَاعَته .

○ **وأحيا به** الشَّام بل الإسلام بعد أن كاد يَنْثَلِم ، خُصُوصًا فى كائنة التَّتار[١] وهو أَكْبَر من أَنْ يُنَبِّه على سِيرَته مِثْلى ، فَلو حَلَفْتُ بين الركن والمقام لَحَلَفْتُ أَنِّى مَا رَأَيْتُ بِعَيْنى مِثْلَهُ ، وَأَنَّه مَا رَأَىٰ مِثْل نَفْسِهِ » انتهى كلام الذَّهبى .

---

(١) وفى هذا ردٌّ على السَّفيه الكذَّاب حسن السَّقَّاف حيث يقول فى ص (٤٩) من نقده لكتاب منهج الأشاعرة فى العقيدة لسفر الحَوالى تحت عنوان « ابن تيمية لم يكن مجاهدًا قط خلافًا لم يشيعه المتمسلفون » يقول : « وهذا ما يقضى بالعجب العجاب حيث يدعون بأن ابن تيمية جاهد التتار » ثم يستدل هذا الأفاك المفترى على إفكه وكذبه بكذب آخر فيقول : « ثم المتتبع للتاريخ والوقائع فى مثل البداية والنهاية لابن كثير وهو ممن تتلمذ فترة على ابن تيمية لايجد ما يثبت أن ابن تيمية خاض فى يوم واحد من أيام حياته معركة وأمسك بيده سيفًا يقاتل به أعداء الله تعالى !! » ا.هـ

أقول : قَاتَل الله الحِقْدَ والحَسَد !! هل عَمِيَتْ عَيْنَاك يَا أَعْمَىٰ البَصِيرة عن قِراءة مَا سَطَرَهُ الحافظ ابن كثير فى البِداية والنِّهاية من الفُصُول الرَّائعة والصَّفحات النَّيِّرة من سِيرة شيخ الإسلام ابن تيمية وَجِهَاده مع التَّتَار وغيرهم ؟!

أم أَنَّك تكذب على بُسَطاء النَّاس ظنّاً منك أنهم لن يُرَاجعوا وَرَاءَك هذا الخِزى والعَار؟!=

= إنَّ المسلم المُنْصِف الذى لا يَغْتَر بِسَفَاهَتِك وَكذِبك وَخِدَاعك حينما يُطالع الجزء الرابع عشر من البداية والنهاية من الصَّفحات (٤ ، ٧ ، ٨ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٩ ، ٢٢-٢٦ ، ٣٣-٣٥) فى أحداث السنوات من (٦٩٨هـ : ٧٠٥هـ) يَتَحَقَّق من بَجَاحَتِك وَكَذِبك .

وقد جمع هذه النُّصوص الدكتور صلاح الدين المنجد فى كتابه الذى جمع فيه سيره ابن تيمية عند المؤرخين ص (٨٤ - ١٢٣) فَلْيُراجع مع غيره من المراجع الأخرى التى جمعها الدكتور فى كتابه وفيها جهاد الشَّيخ رحمه الله للتَّتار وغيرهم .

يقول الحافظ ابن كثير بعد أن ساق موقعة « شُقْحُب وكسر التَّتار فيها » وما قدَّمه شيخ الإسلام ابن تيمية من جهاد عظيم وبلاء حَسَن فيها كان سببًا فى نَصْر المسلمين يقول (٣٥/١٤) : « وقد حَصَل بسبب شُهود الشَّيخ هذه الغزوة خير كثير ، وأَبَانَ الشَّيخ عِلمًا وشجاعة فى هذه الغزوة ، وقد امتلأت قُلُوب أَعْدَائه حَسَدًا لَهُ وغمًّا »ا.هـ

قلت : مِثْلَما امتلأ قلب هذا الشَّاب المغمور حَسَدًا وحقدًا على أَيْدى من رَبُّوه على بُغْض أئمة الدِّين وعلماء السَّلف الأَكْرَمين فأَطْلَق لِسَانه البذىء بسَبِّهم وشتمهم وتضليلهم وَحُكْمِهِ على كثير منهم بالإلحاد والمروق من الدين ويدعى مع هذا أَنَّه من أهل بيت رسول الله ﷺ !!!

ولْيست موقعة شُقْحب فقط هى التى جاهَد فيها شيخ الإسلام التَّتار بل انظر إلى مايقوله صاحب الكواكب الدرية ص(٩٢): «وحدَّثوا أَنَّهم رَأَوا منه – أى شيخ الإسلام ابن تيمية – فى فتح عكة أُمُورًا من الشَّجاعة يَعْجز الوَاصِفُ عن وَصفِها . قالوا : ولقد كان السَّبب فى تَمَلُّك المسلمين إيَّاها بفعله ومَشُورته ، وحُسْن نَظَره » ا.هـ وراجع أيضًا فى ذلك البداية والنهاية (٣٢٠/١٣) .

ومن قصيدة لزين الدين عمر بن الحسام الشبيلى رحمه الله :

سَلْ عنه «غَازَانا» وسَلْ أُمَـراءه   لَمَّـا أَتَـوا بِطَلائـع الإسـراء
و«المُغْل» قد مَلَكُوا البِلاد وأَهْلها   كَمْ قدّمـن عـات بغير عَنَـاء

وللفضل برهان الدين ولد شهاب الدين التبريزى الحنفى :

فمن جاهد الأعداء فى الدين مثله   ومَنْ سلَّ سَيْف العزم فى وجه «غازان»

● وأمَّا ما جاء فى رسائل هذا المُتَهَوِّك الخَسْران من تَكْفِيرٍ صُرَاح لشيخ الإسلام ابن تيمية ومن جرأته ووقاحته زعمه ص (٨٠) من ردِّه على سفر الحوالى أن أَهْل الحديث متفقون على تكفير ابن تيمية وراجع تعليقه على دفع شبه التشبيه لابن الجوزى ص (٢٤٥) . فلا يُرَدُّ عليه إلا بما افتى به العلامة محمود بن أحمد العينى الحنفى حينما سئل عمن يُكَفِّر شيخ الإسلام ابن تيمية فأجاب بعد أن أثنى على الشيخ وعلمه ومعارفه بما هو أهله قال :

« فإذا كان الأمر كذلك ، يجب على ولاة الأمور ، أن يعاقبوا هذا الجاهل المفسد الذى قال فى حَقِّه : أَنَّه كان كافرًا ، بأنواع التَّعزيز من الضَّرب الشَّديد ، والحبس المديد . ومن قال لمسلم : يا كافر ، يَرْجع ما قاله إليه ، ولاسيما إذا اجترأ مثل هذا النجس وتكَلَّم به فى حق هذا العَالم ، ولاسيما وهو ميِّت ، وَوَرَدَ النَّهى من الشَّارع عن الكلام فى حَقِّ أَمْوات المسلمين والله يَأْخذ الحق ويظهره » ا.هـ من آخر كتاب الرد الوافر لابن ناصر الدين ص (٣٨٣ ، ٢٨٤) .

● وممَّا طفحت به رسائله من شَتْمٍ وَسَبٍ واعْتِداء : وَصْفُه – فى ردِّه على سفر الحوالي – للإمام الخلال ص (٢٦) « بالمجسم » ، وص (٧١) « بالمُخْتَل » ، وَوَصْفُه ص (٢١) للإمام ابن أبى العز الحنفى شارح الطحاوية « بالمبتدع » ، وَوَصْفُه ص (٢٠ ، ٢١) لشيخ الإسلام أبو إسماعيل الهروى الأنصارى بأنه « مارق من الدين قائل بالحلول والاتحاد والتشبيه والتجسيم » .

ولاتعجب مِمَّنَ هَذَا شَأْنُه ففى تَعْلِيقُه على دفع شبه التَّشبيه لابن الجوزى ص (٢٣٦) يَحْكُم عَلَى معاوية بن أبى سفيان بالنِّفاق وأنَّه ينطبق عليه قول الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَقْتُل مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُه جَهَنَّم خَالِدًا فيها وغَضِب الله عَلَيْه وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظيمًا ﴾ [النساء : ٩٣] .

● وأما اعتدائه على الصَّحيحين فحدِّث ولا حرج وذلك فى تعليقاته على دفع شبه التشبيه فقد حكم على أحاديث فيهما بالوضع والسُّقوط والبطلان والشذوذ... وغير ذلك ومن الظلم البيِّن والإجحاف السُّكوت عن الرَّد على هذا السَّفيه الكذاب واعتدائه على الصَّحيحين !!

● ولا يفوتنى أن أقول لهذا الشَّاب المَغْرُور الذى كل هِمَّته هى مُعَاداة الشَّيخ الألبانى والحقد والحسد لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، والطَّواف هنا وهناك بالبلدان بحثًا عن وَهْم فى كتب =

= الألبانى يَدُلُّه عليه مُخَالف للشَّيخ الألبانى فيظنُّ أنَّه أتَى بما لم يَأْتِ به الأوَائل !!

أقول له : إنَّ الحقد والحسد الذى يَنْطَوى عليه قلبك سيكون وبالاً عليك فى الدنيا والآخرة وما تفعله وما تُنْفِقُه فى نشر الأكاذيب والإفتراءات سيكون عليك حَسْرَةً بإذن الله

وإذَا أَرَادَ الله نَشْرَ فَضِيلةٍ طويت أَتَـــاحَ لَهَـــا لِسَان حَسُـــود

ومَا مِثْل وما تَفْتَرِيه على شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره من القِمم الكِبار من علماء السَّلف إلَّا مثل ذلك الرَّجل الذى قصد بئرًا عظيمة فبال فيها لِيَشْتَهر ويَبْعُد صِيتُه وقد قالوا قديمًا : « بُلْ فِى بِئْر زَمْزَم تَشْتَهِر » . وهَيْهات !! هَيْهات !!

● ومن تَفَاهَتِك وإسْفَافِك ونَشْرك للفَاحِشة فى الَّذين آمنوا ، وإضَاعَتِك لأموال المسلمين - السُّفهاء الذين يمولونك بها - ، وسُوء سُلوكك والتزامك بتعاليم الإسلام هو مَا قُمْتَ بتَأْلِيفه وَطَبْعه فى طباعة على وَرَقٍ من أَغْلَى أنواع الورق لتحكى فيه للنَّاس مشكلة مَادِيَّة بين مُؤَلِّفٍ وَنَاشر لست طرفًا فيها وتضيع أَوْقَات المُسْلمين فيما لا تَسْتَفيد منه إلا الذُّنوب والمَعَاصِى من وَرَاء الغَيْبَة والبهتان !

ماذا يستفيد المسلم أَيُّها التَّافه من رسالة كهذه ؟ ومِنْ أَجل مَاذَا كانت هذه الرِّسالة ؟

أَمِنْ أَجْل الإخلاص ، ونُصْرَةِ المُسْلمين فى البَلْقَان ؟!!

بدلاً من أَنْ تُضَيِّع الأَمْوال فى هذا الإسْفَاف أَرْسِلها لمسلمى البُوسَنة والهرسك فهم أَحْوج إليها!!

فإلى الله المشتكى وهو المُسْتَعان وهو حسبنا ونعم الوكيل .

وإن قال قائل لم القسوة فى الرد على هذا السَّفيه فإنى أنقل له ما قاله الحافظ ابن رجب فى رسالته « الفرق بين النصيحة والتعبير » ص (١٤) قال : « وَمَنْ عُرِفَ مِنْه أَنَّه أَرَاد بردِّه على العلماء التَّنقُّص والذَّم وإظْهَار العَيْب فإنَّه يَسْتَحِقُّ أَنْ يُقابل بالعقوبة لِيَرْتَدع هو ونظرائه عن هذه الرذائل المحرمة ، ويُعْرَفُ هذا القصد تَارَةً بإقْرَار الرَّاد واعْتِرَافه ، وتَارَةً بِقَرَائِن تُحِيطُ بِفِعْلِهِ وقوله » ا.هـ

قلت : وفيما سَطَرَته يَدُ هذا السَّفيه الأثيم على علماء السَّلف على ما آتاهم الله من فضله مَا يَدُلُّ على قِلَّة وَرَعِه وبَغْيه وعُدْوَانِه ولعلنا نُفْرِد لِأَبَاطِيلة فى العقيدة رَدّاً خاصًا نُبَيِّن فيه نُقُولَه المَبْتُورة وأَكَاذِيبه وافْتِراءاته على شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره من علماء السَّلف والله الموفق .

ترجمة شارح العقيدة الواسطية « الشيخ ابن عثيمين »

○ **نســـبه** :

هو أبو عبدالله محمد بن صالح بن محمد بن عثيمين الوهيبى التميمى(*) .

○ **مولـده** : ولد فى مدينة عنيزة فى ٢٧ رمضان المبارك عام ١٣٤٧ هـ .

○ **نشـــأته** : قرأ القرآن الكريم على جدِّه من جهة أُمِّه عبدالرحمن بن سليمان آل دامغ رحمه الله فحفظه ثم اتَّجه إلى طلب العلم فتعلَّم الخط والحساب وبعض فنون الآداب . وكان الشَّيخ عبدالرحمن السَّعدى رحمه الله قد أقام اثنين من طلبة العلم عنده ليُدَرِّسا الطَّلبة الصِّغار أحدهما الشَّيخ على الصالحى والثَّانى الشَّيخ محمد بن عبدالعزيز المطوِّع رحمه الله . قرأ عليه مختصر العقيدة الوَاسِطية للشيخ عبدالرحمن السَّعدى ومنهاج السَّالكين فى الفقه للشَّيخ عبدالرحمن أيضًا والأُجرومية والأَلفية . وقرأ على الشَّيخ عبدالرحمن بن على ابن عودان فى الفرائض والفقه .

● وقرأ على الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السَّعدى الذى يُعتبر شَيْخُه الأَوَّل حيث لاَزَمَهُ وقرأ عليه التَّوحيد والتَّفسير والحديث والفقه وأُصول الفقه والفرائض ومصطلح الحديث والنَّحو والصَّرف .

(*) راجع مقدمة المجموع الثمين من فتاوى فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين « الجزء الأول » فتاوى العقيدة ، نقلاً من كتاب علماؤنا ، إعداد فهد البدرانى وفهد البراك ص (٤٢) بتصرف وزيادات .

● وقرأ على سماحة الشَّيخ عبدالعزيز بن باز حيث يعتبر شيخه الثَّانى فابتدأ عليه قراءة صحيح البخارى وبعض رسائل شيخ الإسلام ابن تيمية وبعض الكتب الفقهية .

□ تقدمه فى العلم وجهوده فى مجال الدعوة :

● وفى عام ١٣٧١ هـ جلس للتَّدريس فى الجامع ، ولما فتحت المعاهد العلمية فى الرِّياض التحق بها عام ١٣٧٢هـ وبعد سنتين تخرَّج وعُيِّن مُدَرِّسًا فى معهد عنيزة العلمى مع مواصلة الدِّراسة انتسابًا فى كلية الشريعة مع مواصلة طلب العلم على يد الشيخ عبدالرحمن السَّعدى رحمه الله .

● ولما توفى فضيلة الشيخ عبدالرحمن السَّعدى رحمه الله تولَّى إمَامة الجامع الكبير بعنيزة ، والتَّدريس فى مكتبة عنيزة الوطنية بالإضافة إلى التَّدريس فى المعهد العلمى ثم انتقل إلى التدريس فى كُلِّيتى الشَّريعة وأُصول الدِّين بفرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالقَصِيم حتى الآن . بالإضافة إلى عضوية هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية .

● وللشَّيخ العثيمين نشاطٌ كبير فى الدَّعوة إلى الله عز وجلَّ وتبصير المسلمين فقد عرفه الناس من خلال دُروسه النَّافعة وخُطَبِه الرَّائعة بالمسجد الكبير بعنيزة بالقصيم ، وفى دُرُوسه بالمسجد الحرام أيام الاعتكاف فى شهر رمضان من كل عام ، ومن خلال فتاويه الرَّصينة لجماهير المسلمين فى مَشَارق الأرض وَمَغَاربها فى موسم الحج .. فى الصُّحف والمجلات .. فى برنامج نور على الدَّرب بالإذاعة .. فى مراسلاته مع كثير من طلبة العلم والقُرَّاء .. إلخ والتى تحمل ردّاً شافيًا كافيًا على الأسئلة التى ترد إليه يومياً .

□ **تصانيفه فى الاعتقاد :**

وللشيخ محمد الصَّالح العثيمين عدد كبير من المؤلفات القَيِّمة التى انتفع بها النَّاس فى العقيدة وفى الفقه وأُصوله وفى الوَعظ والإرشاد والدَّعوة . والتى يُدَرَّس عَدَدٌ كبير منها بوزارة المعارف بالمملكة العربية السعودية .

ونذكر هنا منها ما يتعلَّق بالعقيدة :

١ - فتح رب البريَّة بتلخيص الحموية وهو أَوَّل كتاب طبع له . وقد فرغ منه فى ٨ ذى القعدة سنة ١٣٨٠هـ وهو مطبوع ضِمن مجموع رسائل فى العقيدة طبعة مكتبة المعارف بالرياض .

٢ - تقريب التدمرية . طبع أولاً بدار الوطن بالرياض ثم أعيد طبعهُ محقّقاً بتحقيق أخونا الفاضل سيد عباس الجليمى بمكتبة السنة .

٣ - القواعد المثلى فى صفات الله وأسمائه الحُسْنَى : وهو أَروع ما كتب الشَّيخ العثيمين وقد قمنا بتخريجه والتعليق عليه وقد طبع والحمد لله . بمكتبة السنة بالقاهرة .

٤ - شرح لمعة الاعتقاد الهادى إلى سبيل الرشاد لابن قدامة : وهو هذا الكتاب وهو مقرر السنة الأولى الثانوية فى التوحيد فى المعاهد العلمية وقد قمنا بتخريجه والتعليق عليه وطبع والحمد لله بمكتبة طبرية بالرياض .

٥ - شرح العقيدة الوَاسِطية لابن تيمية : وهى مقرر السَّنة الثانية الثانوية فى المعاهد العلمية فى التوحيد . مطبوع متداول . وهو شرح مختصر غير الشرح الذى بأيدينا الآن .

٦ - المحاضرات السَّنية فى شرح العقيدة الواسطية (٢/١) وهو هذا الكتاب الذى بين أيدينا . طبعة مكتبة طبرية بالرياض .

٧ – نُبَذ فى العقيدة الإسلامية : شَرَح فيه أَركان الإيمان السِّت بطريقة مُبَسَّطة وتعتبر هذه الرِّسالة مقرر السَّنة الثالثة الثانوية فى المعاهد العلمية فى المملكة فى التوحيد . وهو مطبوع ضمن المجموع السَّابق بمكتبة المعارف بالرياض .

٨ – عقيدة أهل السنة والجماعة : ذكر فيها مُلَخّص ومجمل اعتقاد أهل السُّنة وهو من مطبوعات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .

٩ – تفسير آية الكرسى . ويعتبر هذا التَّفسير فصلاً رائعًا من كلام الشيخ فى الأسماء والصفات . مطبوع متداول .

١٠ – بالإضافة إلى فتاوى الشَّيخ فى العقيدة والتى طبعت أكثر من مرة ضمن كتب الفتاوى له وفى المجلات والصُّحف .

* * *

من نفائس ابن عثيمين

المحاضرات السنية في شرح العقيدة الواسطية

لشيخ الإسلام ابن تيمية

شرحه

سماحة الشيخ محمد الصالح العثيمين

وعلق عليه بتعليقات نفيسة

العلامة الشيخ عبد العزيز بن باز

حقق نصوصه، وخرج أحاديثه

أبو محمد أشرف بن عبد المقصود بن عبد الرحيم

الجزء الأول

مكتبة طبرية

الرياض: ت ٢٣٢١٠٤٥١

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقـــدِّمَةُ

بسم الله الرحمن الرحيم والصَّلاة والسَّلام على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين أما بعـــد :-

فإن هذا الكتاب الذى يُسَمَّى « العَقِيده الوَاسِطية » أَلَّفهُ حبر الأُمة فى زمانه . أبو العباس شيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسَّلام بن تيمية الحرانى رحمه الله . المتوفى سنة ٧٢٨هـ . ولهذا الرَّجل من المقامات التى يُشْكَرُ عليها والتى نرجو من الله له المَثُوبة عليها فله من المقامات فى الدِّفاع عن الحق ومُهَاجمة أهل الباطل ما يعلمه كلُّ من تَتَبَّع كُتُبه وَسَبَرَهَا . والحقيقه أَنَّه من نِعَم الله على هذه الأُمَّة لأنَّ الله سبحانه وتعالى كفَّ به أُمورًا عظيمة خطيرة على العقيدة الإسلامية .

هذا الكتاب : كتابٌ مختصر سَمَّاه « العقيدة الواسطية » ، لأَنَّه حَضَر إليه رجلٌ من قُضَاة « واسط » وشكى إليه ما كان النَّاس يُعَانُونه من المذاهب المنحرفة فيما يتعلَّق بأسماء الله وصِفَاته فكتب هذه العقيدة التى تعتبر زُبدة لعقيدة أهل السنة والجماعة فيما يتعلق بالأُمور التى خاض النَّاس فيها بالبدع وكثر فيها الكلام والقيل والقال(١) .

---

(١) وقد جَرَى بسبب هذه العقيدة مُنَاظرة لشيخ الإسلام مع القضاة الأُربعة قضاة المذاهب الأُربعة وغيرهم من نوابهم فى يوم الإثنين ثامن رجب المبارك عام ٧٠٥ هـ . كما حكى هو فى رِسَالَتِهِ حكاية مناظرة الواسطية كما سيأتي وقال الحافظ ابن رجب فى ذيل طبقات الحنابلة (٣٩٦/٢) : « ثم =

وقبل أن نبدأ الكلام على هذه الرِّسالة العظيمة نحب أَن نبيِّن أَن جميع رسالات الرُّسل من أَوَّلهم نوحٌ عليه الصَّلاة والسلام إلى آخرهم محمد ﷺ . كلُّها تدعو إلى التَّوحيد – قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّه لَا إِلَه إِلَّا أَنَا فَٱعْبُدُون ﴾ [الأنبياء : ٢٥] وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسولاً أَنِ اعْبُدُواْ الله وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل : ٣٦] وذلك أَنَّ الخلق خُلقوا لواحدٍ وهو الله عز وجل خُلقوا لعبادته لتتعلّق قلوبهم به تألُّهًا وتعظيمًا وخوفًا وَرَجَاءً وتَوكُّلاً وَرغْبةً وَرَهْبةً حتى ينسلخوا عن كل شيء من الدُّنيا لا يكون مُعِينًا لهم على توحيد الله عزَّ وجلَّ فى هذه الأمور . لأنك أَنت مخلوق لابد أن تكون لخالِقكَ قلبًا وَقَالِبًا فى كل شيء . ولهذا كانت دعوة الرُّسل عليهم الصَّلاة والسلام إلى هذا الأمر الهام العظيم : عبادة الله وحْدَهُ لا شريك له(١).

و لم يكن الرُّسل الذين أرسلهم الله عزَّ وجلَّ إلى البشر يَدعون إلى توحيد الرُّبوبية كما يدعون إلى توحيد الألوهية ؛ ذلك لأَنَّ مُنكرى توحيد الرُّبوبية قليلون جدًا وحتى الذين يُنكِرُونه هم فى قرارة نفوسهم لايستطيعون أن

امتحن سنة خمس وسبعمائة بالسُّؤال عن معتقده بِأَمْر السُّلطان فجمع نائبه القضاه والعلماء بالقصر ، وأُحْضِرَ الشَّيخ ، وسأله عن ذلك ، فبعث الشيخ من أحضر من داره « العَقِيدة الوَاسِطية » فقرأوها فى ثلاث مجالس وحَاققُوه ، وبَحَثُوا معه ، وَوَقع الإتفاق بعد ذلك على أَنَّ هذه عقيدة سُنِّية سلفية ، فمنهم من قال ذلك طَوْعًا ومنهم من قاله كَرْهًا » ا.هـ .

(١) قال الحافظ ابن كثير فى تفسيره (٥٦٨/٢ ، ٥٦٩) : «وكلهم – أى الرسل – يدعون إلى عبادة الله ، وينهون عن عبادة ما سواه ، فلم يزل سبحانه وتعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك منذ حدث الشرك فى بنى آدم فى قوم نوح الذين أُرْسِل إليهم نوح وكان أول رسول بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم بمحمد ﷺ الذى طبقت دعوته الإنس والجن فى المشارق والمغارب ..»

وراجع أيضًا فتح المجيد شرح كتاب التوحيد للشيخ عبدالرحمن بن حسن (٢٥/١) ومقدمة شرح ابن أبى العز للطحاوية (٢١/١) .

ينكروه . اللَّهُمَّ إلَّا أن يكونوا قد سُلبوا العقول المدْرِكة أَدنى إدراك فإنهم قد ينكرون هذا من باب المُكَابرة .

● **توحيد الرُّبوبية** : هو عبارة عن : إفراد الله سبحانه وتعالى فى أمور ثلاثة : فى الخلق والملك والتَّدبير .

دليل ذلك قوله تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ ﴾ [الأعراف : ٥٤] ووجه الدِّلالة من الآية : أَنه قدَّم فيها الخبر الذى من حقه التَّأخير . والقاعدة البلاغية : « أن تقديم ماحقُّه التأخير يُفيد الحصر » ثمَّ تأمل افتتاح هذه الآية بـ « ألا » الدَّالة على التنبيه والتَّوكيد ﴿ أَلَا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ ﴾ [الأعراف : ٥٤] لا لغيره فالخلق هذا هو والأمر الذى هو التَّدبير . أما الملك فمثل قوله تعالى : ﴿ وَلله مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْض ﴾ [الجاثية : ٢٧] فإنَّ هذا يدلُّ على انفراده سبحانه وتعالى بالمُلْك . ووجه الدِّلالة من هذه الآية كما سبق تقديم ماحقُّه التأخير .. إذًا فالربُّ عزَّ وجلَّ مُنْفَرِدٌ بالخلق والملك والتدبير .

فإن قلت : كيف تجمع بين ما قرَّرت وبين إثبات الخلق لغير الله مثل قوله تعالى : ﴿ فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون : ١٤] . ومثل قوله ﷺ فى المصورين يقال لهم : « أَحْيُوا ما خلقتم »(١) ومثل قوله تعالى فى الحديث القدسى : « ومَنْ أظلم مِمَّن ذَهَب يَخْلُق كخَلْقِى »(٢) فكيف تجمع بين قولك أن الله منفردٌ بالخلق وبين هذه النُّصوص ؟!

فالجواب : أن يُقَال : أن الخلق هو الإيجاد . أما تحويل الشَّىء من صورة إلى أُخرى فإنه ليس بخلق حقيقة وإن سُمى خلقًا باعتبار التكوين لكنه فى الواقع ليس بخلق تام فمثلاً : هذا النَّجار صنع من الخشب بابًا فيُقَال خَلَق

---

(١) رواه البخارى (٥٩٦١) ومسلم (٢١٠٧) (٩٦) من حديث عائشة رضى الله عنها .

(٢) رواه البخارى (٥٩٥٣) ومسلم (٢١١١) (١٠١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

لكن مَادّة هذه الصّناعة الذى خلقها هو الله عزَّ وجل . لا يستطيع الناس كلُّهم مهما بلغوا فى القدرة أن يخلقوا عود أَراك أبدًا ولا أن يخلقوا ذرَّة ولا أن يخلقوا ذبابًا واستمع إلى قول الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّها النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج : ٧٣] ﴿ الَّذِينَ ﴾ : اسم موصول يشمل كلّ ما يدعى من دون الله من شجر وحجر وبشر ومَلَك وغيره . كل الذين يُدْعون من دون الله ﴿ لَنْ يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَو اجْتَمَعُواْ لَهُ ﴾ [الحج : ٧٣] ولو انفرد كل واحد بذلك من باب أولى ﴿ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ [الحج : ٧٣] حتى الذين يُدعون من دون الله لو سلبهم الذُّباب شيئًا ما استطاعوا أن يستنقذوه من هذا الذباب الضعيف لو وقع الذباب على أقوى ملك فى الأرض ومصَّ من طيبه لا يستطيع هذا الملك أن يستخرج الطيب من هذا الذُّباب وكذلك لو وقع على طعامه فإذًا الله عز وجل هو الخالق .

فإن قلت :- إنَّ الله منفرد بالملك ولكن كيف تجمع بين قولك هذا وبين إثبات المُلْك للمَخْلُوقين مثل قوله تعالى : ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ ﴾ [النور : ٦١] ﴿ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَامَلَكتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ [المؤمنون : ٦] ؟

فالجواب : إن الجمع بينهما من وجهين :-

الأول : أن مُلك الإنسان للشَّيء ليس عامّاً شاملاً لأنَّنى أَمْلُك مَا تَحْت يَدى ولا أَمْلِكُ ما تحت يَدَك والكُلُّ مُلْكٌ لله عزَّ وجلَّ . فمن حيث الشُّمول ملك الله عز وجل أَشمل وأَوسع وهو مُلْكٌ تَامّ .

الثانى : أن ملكى لهذا الشَّيء ليس مُلْكًا حقيقيًّا أَتَصرَّف فيه كما أَشاء وإنما أَتَصرَّف فيه كما أَمَر الشَّرع وكما أذِنَ المَالِك الحَقِيقى وهو الله عزَّ وجلَّ

لو بعت درهمًا بِدِرْهَمين لا أَمْلك ولا يحل لى ذلك فإذًا مُلْكِى قَاصِر وأيضًا لا أملك فيه شيئًا من النَّاحية القدرية لأن التصرف لله . فلا أستطيع أن أقول لعبدى المريض : ابرأ فيبرأ ولا أستطيع أن أقول لعبدي الصحيح الشحيح : امرض لكن التَّصرف الحقيقى لله عزَّ وجل ، فلو قال له : ابْرأ بَرَأ ولو قال امرض مرض فإذًا لا أملك التَّصرف المطلق شرعًا ولا قدرًا فملكى هنا قاصر من حيث التَّصرف وقاصر من حيث الشُّمول والعُموم وبذلك يتبيّن لنا كيف كان انفراد الله عز وجل بالمُلْك .

التَّدبير :- للإنسان كذلك تدبير ، ولكن نقول هذا التَّدبير قاصر كالوجهين السابقين فى الملك . ليس كل شيء أملك التَّدبير فيه وإنما أَمْلُك تدبير ما كان تحت حيازتى ومُلكى وكذلك لا أملك تدبيره إِلَّا عَلَىٰ وفق الشَّرع الذى أَبَاحَ لِى هذا التَّدبير . وحينئذ يتبيّن أن قولنا : « إن الله عز وجل مُنْفردٌ بالخَلْق والمُلْكِ والتَّدبير » أن هذا القول كلية عامة مطلقة لا يُسْتثنى منها شيء لأَنَّ كل ما أَوردناه لا يُعارض ما ثبت لله عزَّ وجلَّ من ذلك .

توحيد الرُّبوبية :- قلنا إن الرُّسل عليهم الصَّلاة والسَّلام لم يأتوا لتحقيقه فقط لأنه لا ينكر حتى فرعون الذى قال لقومه : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ [القصص : ٣٨] والذى قال لهم ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات : ٢٤] يعترف بأَنَّ الله رب قال الله تعالى ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ﴾ [النمل : ١٤] لكن جحدوا بها ظلمًا وعلوًا وإلا فهم فى قرارة أنفسهم يعلمون أن فِرعون ما هو رَبٌّ ، ويعلمون أنَّ هناك رَبّاً سِوَاه . وقال له مُوسَىٰ وهو يُحاجُّه : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَٰؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ بَصَائِر ﴾ [الإسراء : ١٠٢] فما أنكر ولا قال ما علمت وأما إنكاره فى قوله ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء : ٢٣] فلأن قومه عنده وكان يقول هذا تمويهًا فهو لم ينكر . قال : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَاأَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبّ

السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء : ١٠٢] من كان بالله كان قويًا بالله يقول أمام هذا الطاغية الكَافر المستكبر : ﴿ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ ففرعون لايستطيع أمام هذه الآيات يتكلم إلا بطريق القوة ﴿ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا . وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِى إِسْرَائِيل اسْكُنُوا الْأَرْضَ ﴾ [الإسراء : ١٠٣ ، ١٠٤] .

فتوحيد الرُّبوبية ثابت بالعقول والفطر السليمة ولا أحد ينكره . الشَّىء الذى ضلَّ فيه كثير من النَّاس وبُعِثَت الرُّسل لِتَحْقِيقه هُو « توحيد الألوهية » فما هو تعريفه ؟

● **توحيد الألوهية** : هو إِفْرَادُ الله عزَّ وجَلَّ بالعِبَادة .

بألَّا تكون عبدًا لغير رَبِّك لا تَعْبُد ملكًا ولا نبيًا ولا وليًا ولا شيخًا ولا أُمًّا ولا أبا لا تعبد إلَّا الله وحده . فَتُفْرِد الله عزَّ وجل وَحْدَهُ بالتَّألُّه والتعبد ولهذا يسمَّى « توحيد الأُلوهية » ويُسمَّى « توحيد العبادة » فباعتبار إضافته إلى الله هو توحيد أُلوهية ، وباعتبار إضافته إلى العابد هو توحيد عبادة . والعبادة مبنيّة على أمرين عظيمين : هما المحبَّة والتَّعظيم الناتج عنهما ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ [الأنبياء : ٩٠] ففى المحبّة تكون الرَّغبة وبالتعظيم تكون الرَّهبة والخوف . ولهذا كانت العبادة أَوامر ونَواهى . أَوامر مبنيّة على الرغبة وطلب الوصول إلى الآمر . نواهى مبنيّة على التَّعظيم . والرَّهبة من هذا التَّعظيم . فإذا أَحْبَبْت الله عزَّ وجلَّ رَغِبْت فِيما عِنْده ورغبت فى الوصول إليه وطلبت الطَّريق المَوصِّل إليه وقمت بطاعته على الوجه الأكمل وإذا عظمته خفت منه كلما هممت بمعصية استشعرت عظمة الخالق عز وجل فَنَفَرْتَ ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ . كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ﴾ [يوسف : ٢٤] فهذه مِن نِعْمَةِ الله عليك .

﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران : ١٨] فهذا دليل واضح على أنه لا إله إلا الله عز وجل « أشهد أن لا إله إلا الله » وأنتم تشهدون « ألا إله إلا الله » . هذه الشَّهادة الحق . إذا قال قائل : كيف تقررونها مع أن الله تعالى يثبت آلهة غيره مثل قوله تعالى ﴿ وَلا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَٰهاً آخَرَ ﴾ [القصص : ٨٨] ومثل قوله : ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَٰهاً آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ ﴾ [المؤمنون : ١١٧]

ومثل قوله : ﴿ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتَهُم الَّتى يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [هود : ١٠١] ومثل قول إبراهيم ﴿ أئفكًا آلهة دُونَ الله تُرِيدُونَ ﴾ [الصَّافات : ٨٦] إلى غير ذلك من الآيات . كيف تجمع بين هذا وهذا ؟

فالجواب : أن أُلوهية ما سوى الله : أُلوهية باطلة مجرد تسمية ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ [النجم : ٢٣] فأُلوهيتها باطلة . هى وإن عُبدت وتأله إليها مَنْ ضَلَّ فإنها ليست أهلاً لأن تُعْبَدَ . فهى آلهة معبودة لكنها آلهة باطلة : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ ﴾ [لقمان : ٣٠] .

هذان النَّوعان من أقسام التوحيد لا يجحدهما ولا ينكرهما أحد من أهل القبلة المنتسبين إلى الإسلام لأَن الله تعالى مُوَحَّد بالربوبية والأُلوهية لكن حصل فيما بعد أن من الناس من ادَّعى ألوهية أحد من البشر كَغُلاة الرَّافضة مثلاً الَّذين يقولون أَن علياً إِله كما صَنَعَ زَعِيمهم عبدالله بن سبأ حيث جاء إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه وقال له : أَنت الله حقاً . لكن عبدالله بن سبأ أصله يهودى دخل فى دين الإسلام بدعوى التَّشيُّع لآل البيت ليُفْسدَ على أهل الإسلام دينهم كما قال ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله . وقال : « إن هذا كما صنع بُولص حين دخل فى دين النَّصارى ليفسد دين

إذا هَممْتَ بمعصية وجدت الله أَمامك فهبت وخفت وتَباعدت عن المعصية لأَنك تَعْبد الله رَغْبةً وَرَهْبةً . فما معنى العبادة ؟

العِبَــادَة :– تُطلق على أَمرين : على الفعل والمفعول . تطلق على الفعل الذى هو التَّعبُّد فيقال : عَبَدَ الرَّجُلُ ربَّه عِبادة وَتَعَبُّدًا . وإطلاقها عَلَىٰ التَّعبُّد من باب إطلاق اسم المصْدَر على المصدر ونُعَرِّفها باعتبار إطلاقها على الفعل :– بأنها التَّذلل لله عزَّ وجل بفعل أوامره واجتناب نَواهيه . وكل من ذَلَّ لله عزَّ بالله ﴿ وَللهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ ﴾ [المنافقون : ٨] وتطلق على المفعول أى المتعبّد به وهى بهذا المعنىٰ تُعرَّف بما عرَّفها به شيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال رحمه الله : « العبادة إسْمٌ جامع لكل ما يُحِبُّه الله وَيَرْضَاه من الأَقوال والأَعْمَال الظَّاهرة والبَاطنة »(١) هذا الشيء الذى تعبّدنا الله به يجب توحيد الله به لا اصرفه لغيره كالصَّلاة والصِّيام والزَّكاة والحج والدُّعاء والنَّذر والخَشْية والتَّوكل إلى غير ذلك من العبادات هذه لا يمكن أن أصرفها لغير الله عزَّ وجل لأَن توحيد العبادة هو إفراد الله عزَّ وجل بالعبادة :

فإن قلت : ما هو الدَّليل على أن الله منفردٌ بالألوهية ؟ هناك أدلة كثيرة منها قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ إِلَّا نُوحِى إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥] ، ﴿ وَلَقَدْ بعثنَا فى كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ ٱللهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوت ﴾ [النحل : ٣٦] وأيضاً قوله تعالى ﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلٰه إِلَّا هُوَ وَالملائِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ ﴾ [آل عمران : ١٨] لَوْ مَا يأتيكم من طلب العلم إلا هذه المنقبة حيث أن الله ما أخبر أحداً شهد بأُلوهيته إلا أولوا العلم نسأل الله أن يجعلنا منهم ﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلٰه إِلَّا هُوَ وَالْملائِكَةُ وَأُولُواْ الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران : ١٨] بالعدل ثم قرَّر هذه الشَّهادة بقوله :

---

(١) رسالة العبودية (١٤٩/١٠) ضمن مجموع الفتاوى .

النَّصارى »[1] . هذا الرَّجل عبدالله بن سبأ قال لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه : « أَنت الله حَقّاً » . وعلى بن أبى طالب ما يرضىٰ بهذا لا يَرْضى على ابن أبى طالب أن أحدًا يُنْزِلُه فوق مَنْزِلَتِه حتَّى هو رضى الله عنه من إنصافه وعدله وعلمه وخبرته كان يقول على منبر الكوفة : « خير هذه الأُمة بعد نبيِّها أبو بكر ثمَّ عمر »[2] يعلن فى الخُطبة . وقد تواتر النَّقل عنه بذلك رضى الله عنه . الذى يقول هكذا ويُقرُّ بالفَضْل لأهله من البَشر كيف يَرْضى أَن يقول له قائل : إنك أنت الله . ولهذا عَزَّرهم أَبْشَع تَعْزير : أَمَر بالأخاديد فَخُدَّت ثُمَّ مُلِئت حَطَباً ثم أُحرقت ثم أتى بهذا الرجل وأصحابه وقذفهم فى النَّار وأَحْرقهم بها لأن فِريتهم عظيمة – والعياذ بالله – وليست هيِّنة . ويقال : إن عبد الله بن سبأ هرب ولم يمسكوه . المهم أَنَّ على بن أبى طالب رضى الله عنه أحرق السبئية بالنَّار لأنهم ادَّعوا فيه الألوهية . فنقول :– كل من كان من أهل القبلة لا ينكرون هذين النَّوعين من التَّوحيد : وهما توحيد الرُّبوبية ، وتوحيد الأُلوهية وإن كان يوجد فى بعض أهل البدع من يؤلِّه أحدًا من البشر لكن الذى كثُر فيه النزاع هو القسم الثالث وهو :

---

(١) منهاج السُّنة النبوية لشيخ الإسلام ابن تيمية (٤٧٩/٨) وقال أيضًا (٤٢٨/٦) : « لكن لم يتأت له ما تأتى لبولص ، لضعف دين النصارى وعقلهم ، فإن المسيح ﷺ رفع ولم يتبعه خلق كثير يعلمون دينه ، ويقومون به علمًا وعملاً ، فلما ابتدع بولص ما ابتدعه من الغلو فى المسيح اتبعه على ذلك طوائف ، وأحبوا الغلو فى المسيح ، ودخلت معهم ملوك، فقام أهل الحق خالفوهم وأنكروا عليهم ، فقتلت الملوك بعضهم ، وداهن الملوك بعضهم وبعضهم اعتزلوا فى الصوامع والديارات . وهذه الأمة – ولله الحمد – لا يزال فيها طائفة ظاهرة على الحق ، فلا يتمكن ملحد ولا مبتدع من إفساده بغلو أو انتصار على أهل الحق ، ولكن يضل من اتبعه على ضلاله » ا.هـ .

(٢) **أثَرٌ صَحِيحٌ** : أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (١٠٦/١ ، ١١٠) وابنه عبدالله فى زوائده (١٠٦/١ ، ١١٠ ، ١٢٧) وأحمد فى فضائل الصحابة (٣٩٧) بأسانيد صحيحة وحسنه ، وكذا أخرجه ابن أبى عاصم فى كتاب السنة (١٢٠١) وصحّحه الألبانى فى تخريج السنة (٥٧٠/٢) .

● **توحيد الأسماء والصِّفات** : هذا هو الذى كَثُرَ فيه الخوض فانقسم الناس فيه إلى ثلاثة أقسام وهم :-

مكذِّبٌ،ومؤوِّل ، ومحقق .

والصَّواب أن نقول بدل مؤول: مُحَرِّف .

● وأوَّل بدعة ظهرت فى هذه الأُمَّة هى : « **بدعة الخوارج** » لأَنَّ زعيمهم خَرجَ عَلَى النَّبى ﷺ وهو ذو الخويصرة من بنى تميم حين قَسَّم النَّبى ﷺ ذُهَيْبَة جاءت فقسَّمها بين النَّاس ، فَقَالَ لَهُ هَذَا الرَّجُل : يَا مُحَمّد اعْدِلْ ![1] فكان هذا أول خروج خرج به على الشَّريعة الإسلامية ثم صارت بدعتهم فى عهد الصَّحابة . خرجوا علىٰ عثمان رضى الله عنه بل خرجوا لوشئنا أن نقول على أبى بكر وعلى عمر وعلى عثمان وعلى علي ومازالوا يَتَوَالَوْن .

● ثم بعد ذلك ظهرت : « **بدعة القدرية** » مَجُوسى هذه الأمة الذين قالوا إن الله سبحانه وتعالى لم يقدِّر أَفعال العباد وليست داخلة تحت مشيئته وليست مخلوقة له بل كان زعمائهم وغلاتهم يقولون : إنها غير معلومة لله ولا مكتوبة فى اللَّوح المحفوظ وأن الله لايعلم بما يصنع الناس إلا إذا وقع ذلك ويقولون إن الأمر أُنف أى مُسْتأنف ، وهؤلاء أدركوا آخر عصر الصَّحابة ، فقد أدركوا زمن عبدالله بن عمر رضى الله عنه ، وعبادة بن الصامت وجماعة من الصحابة لكنه فى أواخر عصر الصَّحابة .

● ثم ظهرت بعد ذلك : « **بدعة الإِرْجَاء** » وأدْركت زمن كثير من التَّابعين . الإرجاء هم الذين يقولون : « إنَّه لا تَضُرُّ مع الإيمان مَعْصية » . أنت مؤمن ؟ تقول نعم يقول لك لا تضُّرك المعصية مع الإيمان ، تزنى ،

---

(١) البخارى (٣٦١٠) ومسلم (١٠٦٤) (١٤٨) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

وتسرق ، وتشرب الخمر وتقتل ما دُمت مؤمنًا ! فأنت مؤمن كامل الإيمان وإن فعلت كل معصية !! هؤلاء خرجوا لمقابلة الخوارج أما الخوارج فيقولون الكبيرة تُخْرِج الإنسان من الإيمان إلى الكفر إذا زنى الإنسان فهو كافر يُستباحُ دمه وماله إذا سرق فهو كافر يُستباح دمه وماله هؤلاء أرادوا أن يقابلوهم ببدعتهم قالوا أبدًا إذا كان مؤمنًا بالله ورسوله واليوم الآخر وأصول الإيمان الستة فليعمل ماشاء . كل المعاصى وإن كُبرت ماعدا الكفر والشرك فإنها لا تنقص الإيمان ، فضلاً عن أن تَخْرج مِنه فالعَاصِي مؤمن كامل الإيمان .

● فجاء قومٌ من الأذكياء[1] والله أعلم هل هم أذكياء أم لا ؟ قالوا نجمع بين القولين ونقول : الذى يفعل الكبيرة ليس بمؤمن كما قاله المرجئة وليس بكافر كما قاله الخوارج بل هو فى منزلةٍ بين منزلتين كرجل سافر من مدينة إلى أخرى فصار فى أثناء الطريق فلا هو فى مدينته ولا فى التي سافر إليها بل فى منزلة بين منزلتين هم قالوا هكذا قالوا :- لا نقول فَاعِلُ الكبيرة كافر ولا مُؤمن فى منزلة بين منزلتين .

وماذا تَصْنَعُونَ بِهِ فى الآخرة ؟ قالوا : نقول إنه مخلّدٌ فى النَّار فهم يوافقون الخوارج فى الآخرة لكن فى الدنيا يُخَالِفُونَهم ظهرت هذه البدعة وانتشرت .

● ثم جاءت : « **بدعة الظُّلْمَة والجُهمَة** » وهى بِدْعة جهم بن صفوان

---

(١) يقصد الشيخ المعتزلة وسموا بهذا الإسم لما طرد الحسن عن مجلسه واصل بن عطاء لما قال : الفاسق لا مؤمن ولا كافر ، فانضم إليه عمرو بن عبيد ، واعتزلا حلقة الحسن فَسمُّوا المعتزلة .

راجع سير أعلام النبلاء (٤٦٤/٥) والملل والنحل للشهرستانى (٣٠/١) والفرق بين الفرق لعبد القاهر البغدادى ص (١٥) والتبصير فى الدين للإسفراييني ص (٦٤ ، ٦٥) وقول الشيخ : « الأذكياء » يشير إلى استخدام هؤلاء عقولهم فى كل شيء حتى فى نصوص الوحى . ورحم الله الحافظ الذهبى إذ يقول : « لعن الله الذكاء بلا إيمان ورضى الله عن البلادة مع التقوى » !!

وأتباعه **ويسمون** « **الجهمية** » جاءت هذه البدعة لا تتعلَّق بمسألة الأسماء والدين مؤمن أم كافر أم فاسق أم فى منزلة بين منزلتين بل تتعلق بذات الخالق انظر كيف وصلوا ! تَدَرّجت البدع المكفرة فى صدر الإسلام حتى وصلوا إلى الخالق جلَّ وعلا وجعلوا الخالق بمنزلة المخلوق يقولون كما شاءوا فيقولون هذا ثابت لله وهذا غير ثابت هذا يقْبل العقل أن يتَّصف الله به وهذا لايقبل العقل أن يتصف به فجاءت بِدْعة الجهمية والمعتزلة وهكذا ! فانقسموا فى أسماء الله وصفاته إلى أقسام متعدِّدة :

١ - **قسمٌ قالوا** : لا يجوز أبدًا أنْ نَصِف الله لا بوجود ولا بعدم . لا تقل موجود ولا معدوم .

سُبحانَ الله ! ماذا نقول ؟ قالوا :- إن قلت موجود شبَّهته بالموجودات وصار مثل زيد وعمرو الموجودين ، وإن قلت معدوم شبَّهته بالمعدومات فصار مثل الإنسان قبل أن يخلق . فلا مَفَرّ ! قالوا : قل : لا موجود ولا معدوم !!! - نعوذ بالله - قال لهم شيخ الإسلام ابن تيمية : « هذه القضية ممتنعة مستحيلة » يعنى أنه مستحيلٌ أن يكون الشىء لا موجودًا ولا معدومًا ؛ لأن تقابل العدم والوجود تقابل نقيضين . والنقيضان لايجتمعان ولا يرتفعان سلب وإيجاب . أحدهما لابد أن يكون . فإذا قلتم أنه لا موجود ولا معدوم سلبتم عنه النقيضين وشبَّهتموه بالممتنعات المستحيلات . فنحن إن قلنا إنه موجود شبَّهناه بالموجودات وهى ممكنة وَمَوْجُودة أو بالمعْدُومَات شبَّهناه بالمعدوم وهذا ممكن أيضًا ! لكن بشىء لا موجود ولا مَعْدوم مُمْتَنع . كل عقول بنى آدم تنكر هذا الشىء . ولا تَقْبَلُه . انظر كيف فروا من شىء فوقعوا فى أشرّ منه ! .

٢ - **جاء أناس آخرون** قالوا : صِفْهُ بالنفى ولا تصفه بالإثبات . يعنى إنهم يجوزون أن تسلب عن الله سبحانه وتعالى الصفات لكن لا تُثبت . يعنى لا تقول هو حى ! إذًا ماذا أقول ؟

قالوا : قل ليس بميِّت فلا يكون حيا لا تقل : عليم ولكن قل : ليس بجاهل وهكذا . لماذا ؟ قالوا : لو أَثْبَتَّ له شيئًا شبّهته بالموجودات ؛ لأنه على زعمهم كل الأشياء الموجوده مُتَشابهة فأَنت لا تُثبت له شيئًا وأما النفى فاملأ الدُّنيا كلها من النَّفى ، مع أن الموجود فى الكتاب والسُّنَّة فى صفات الله الإثبات أكثر من النفى بكثير . هم يقولون لا ، املأ السموات والأرض وما بينهما من النفى فيما تصف الله به ، ولكن لا تثبت له صفة واحدة . هؤلاء يصفون الله تعالى بالنفى دون الإثبات .

قيل لهم : إن الله قال عن نفسه « سَميع بصير » قالوا :- هذا من باب الإضافات بمعنى : نُسِبَ إليه السَّمع لا لأنه مُتَّصفٌ به ولكن لأن له مخلوقا يسمع فهو من باب الإضافات . فسميع يعنى ليس له سمع لكن له مسموع وجاء طائفة ثانية قالوا : هذه الأوصاف لمخلوقاته وليست له . أما هو لايثبت له صفة .

٣ - **ثم جاء قوم دون هؤلاء** ، فأثبتوا الأسماء دون الصفات ، وهذا أخذ به المعتزلة أثبتوا أسماء الله قالوا : إن الله سميعٌ بصير قديرٌ عليمٌ حكيم ... ، لكن ليس له صفة أبدًا ما معنى السميع ؟ فى اللُّغة العربية سميع له سمع ولكن هم قالوا : لا قل سميعٌ بلا سَمْع ، بصيرٌ بلا بَصر عليمٌ بلا عِلْم ، حكيمٌ بلا حِكمة . مثل ما نقول نحن الآن وزيرٌ بلا وزارة - انظر والعياذ بالله - هؤلاء يدَّعون أنهم عُقلاء ، وهؤلاء أهون من الأولين .

٤ - **جاءت طائفة رابعة** قالت : نثبت له الأسماء حقيقة ونثبت له صفات معيَّنة . دلَّ عليها العقل وننكر الباقى ماذا تثبتون له ؟ قالوا : نثبت له سَبع صِفات فقط والباقى ننكره تحريفًا لا تكذيبًا لأنَّهم لو أنكروه تكذيبًا كفروا لكن ينكرونه تحريفًا وهو ما يدّعون أنه « تأويل » .

الصِّفات السَّبع هى مجموعة فى قوله :

لَهُ الحَيَاةُ والكَلَامُ والبَصَر　　سمعٌ إرادةٌ وعلم واقتدر

هذه نثبتها لأن العقل دل عليها وبقيَّة الصِّفات ما دلَّ عليها العقل فنثبت ما دلَّ عليه العقل وننكر ما لم يدل عليه العقل وهؤلاء هم الأشاعرة آمنوا بالبعض وأنكروا البعض . فهذه أقسام الناس فى الأسماء والصفات وكلُّها متفرعة من بدعة الجهم : « ومَنْ سَن فى الإسْلام سُنَّة سَيِّئة فَعَلَيْه وزرُها وَوِزْرُ مَن عَمِل بِها إلى يَوم القِيامَة »[١] .

● ثم بعد هذه البدع جاءت « **بدعة الحلول والإتحاد** » وإنكار البعث وما أشبَه ذلك تفرَّعَت من بدعة الجهمية والمعتزلة ، لأنه جاء المتفلسفة الذين دَخلُوا فى الإسلام وأثَّرت فيهم فلسفة اليونان ، فأخذوا من فلسفة اليونان ما أخذوا ، وَضلُّوا به عن الطَّريق ، وأَضَلُّوا كثيرًا ، استنادًا إلى بدعة الجهمية والمعتزلة ؛ لأن الجهمية والمعتزلة كلهم يؤولون آيات الصِّفات وأحاديثها ، وأنا أعبِّر « بالتأويل » بناءً على دعواهم وإلا ففى الحقيقة أنهم يحرِّفونها حرَّفوها وقالوا : إنه لا يُراد بها ظاهرها لا يُراد بها إثبات الصِّفات وإنَّما يراد بها معانى هم عيَّنوها بعقولهم ، فجاء المتفلسفة أهل الحلول والاتحاد مثل الحلاج وغيره وأنكروا وجود الخالق والبعث والجنة والنار وقالوا : إن ماجاءت به الرُّسُل

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم (١٠١٧) (٦٩) من حديث جرير بن عبدالله البجلى رضى الله عنه .

من أمر الإيمان بالله واليوم الآخر ما هو إلا تخييل لا حقيقة له ، وتخييل ، يعنى : يُصَوِّرون للنَّاس أشياء يتخيَّلُونها بعُقُولهم أفاضها عليهم العقل الفيَّاض وما أشبه ذلك ، وصوَّروها للنَّاس وقالوا للنَّاس إن لكم ربّاً موصوفًا بالصِّفات وأنكم ستُبعثون وتُجازون وتَدخلون الجنَّة أو النَّار . وكل هذا لا حقيقة له . يعنى بمنزلة ما تقول الأمُّ لوليدها اسكت وإلا جاءَك البُعبُع(١) . وليس هناك بُعبُع ولا شىء هم يقولون هكذا : الرسُل خيَّلوا للنَّاس ولا حقيقة لذلك - ثم انقسموا فى الرُّسل أيضًا :

فقال بعضهم : إن الرُّسل لم يعلموا الحقيقة ولا علموا أن مَا دَعوا إليه ليس بواقع وأنهم جُهَّال بحقيقة الأمر .

وقسم آخر قالوا : إنَّ الرُّسُل يَعْلمون أنَّ مَا يَدْعُون إليه ليس بحقيقة . لكنهم أذكياء وعباقرة ودعوا النَّاس إلى ذلك وأَتَوا بهذه الأمور لأَنهم يعلمون أنَّ النَّاس لا تصلُح أحوالهم إلا إذا قيل ذلك . ولو جاءتهم الرُّسل ، وقالت : اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر مَاوَافَقُوا لكن إذا أُنْذروا ، وخُوِّفوا وَرُغِّبوا وبُشِّروا فحينئذ تستقيم حالهم .

فالطَّائفة الأولى : رمت الرُّسل بالجهل ، والثانية رمتهم بالكذب والخيانة - والعياذ بالله - لكن المهم أن هذه الطائفة موجوده : أهل الحلول والاتحاد ومنهم كثيرٌ من النُّصيريَّة وغيرهم ، يَرَوْنَ هذا الرأى - والعياذ بالله - المعتزلة قامُوا عليهم قالوا : إنَّ الرسل جاءت بإثبات هذا الأمر وبضرب الأَمثال له وبأنه أمرٌ ممكن وأمرٌ لابد منه . لابد من بعث وجزاء وجنة ونار والنُّصوص بين أيدينا واضحة . والشُّبهة التى تقول إنه لا يمكن أن يكون فاسدة ! أبطلها القرآن لما قال الخصم المبين ﴿ مَنْ يُحْيِ العِظَامَ وَهِىَ رَمِيم ﴾ [يسۤ : ٧٨] قال

---

(١) كلمة دارجة تعنى تخويف الطفل من شىء مرعب .

الله : ﴿ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّة ﴾ [يس : ٧٩] فالرُّسل جاءت بإثبات المعاد والجزاء والشُّبهة المانعة منه فاسدة فيلزمكم أن تقولوا بإثباته . فماذا قال لهم هؤلاء الفلاسفة ؟ قالوا :- الرُّسُل جاءت بإثبات الصفات لله عزَّ وجلَّ والشبهة التى تمنع من ثبوت الصِّفات لله فاسِدة . مَا المَانِع مِن أَن يَتَّصِف الله بالعِلْم والقُدْرة والحِكمة والرَّحمة وما أشبه ذلك من غير مُمَاثَلة ؟ فالرُّسل جاءت بإثبات الصِّفات والمانع منتفى ومع ذلك أنتم نفيتم الصِّفات كيف تحتجُّون علينا بشىء أنتم تصنعونه ؟ بل الذى أنكرناه نحن تقريره فى الكتاب والسُّنة أقلّ بكثير من تقرير أسماء الله وصفاته . يعنى : لو تدبّرت الكتاب والسنة لوجدت أن أكثر ما يتحدث الله سبحانه عن أسمائه وصفاته . لا تكاد تجد آية إلا وفيها شىءٌ من أسماء الله وصفاته بل كلُّ حرفٍ فى القرآن فهو من صفات الله لأنه كلام الله فهو صِفَته . كيف أنتم تنقمون منَّا أن نُنكر أمرًا تنكرون أنتم ما هو أعظم تحقُّقًا منه ؟ولذلك استطال عليهم المتفلسفة استطالوا على المعتزلة وعجز المعتزلة والجهمية وأتباعهم عن الجواب .

لكن جاء أهل السُّنة والجماعة ، وَمَنْ نَوَّر الله بَصيرتهم وَقَالوا : نحن نجيبكم ؟ نحن نقول : الكلُّ حق على حقيقته ولا نتناقض وبذلك قامت الحجَّة على الفلاسفة المتفلسفة وعلى المعتزلة والجهمية .

فالحاصل :- أنَّكم أيها الأخوة لو طالعتم فى كتب القوم التى تعتنى بجمع أَقاويل الناس فى هذا الأمر لرَأَيْتُم العجب العجاب . الذى تقولون : كيف يتفوَّهُ عاقل فضلاً عن مؤمن بمثل هذا الكلام ؟ ولكن :- من لم يجعل الله له نورًا فما له من نور !! الذى أعمى الله بصيرته كالذى أعمى الله بَصَره فكما أن أعمى البَصَر لو وقف أمام الشَّمس التى تكسِر نور البَصَر لم يرها فكذلك من أَعمى الله بصيرته ، لو وقف أَمام أنوار الحق ما رآه والعياذ بالله . ولهذا ينبغى لنا دائمًا أن نسأل الله تعالىٰ الثَّبات على الأمر ، وأن لا يزيغ قلوبنا

بعد إذ هدانا لأن الأمر خطير والشَّيطان يدخل على ابن آدم من كلِ صوب ومن كلِّ وجه ويُشككه ، فى عقيدته ، وفى دينه ، وفى كتاب الله وسنَّة رسوله ، فهذه فى الحقيقة البدع التى انتشرت فى الأمة الإسلامية ؛ ولكن ولله الحمد ما ابتدع أحدٌ بدعة إلا قيَّض الله له بِمَنِّه وكَرَمِه من يُبَيِّن هذه البدعة وَيُدْحِضها بالحق وهذا من تمام مدلول قول الله تبارك وتعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] هذا من حفظ الله لهذا الذكر وهذا أيضًا هو مقتضى حكمة الله عز وجل ؛ لأن الله تعالىٰ جعل محمدًا ﷺ خاتم النبيين والرِّسالة لابد أن تبقى فى الأرض وإلا لكان للنَّاس حجَّة على الله وإذا كانت الرِّسالة لابد أن تبقى فى الأَرض لزم أن يُقيِّض الله عزَّ وجلَّ بمقتضى حكمته عند كل بدعة من يُبَيِّن لها ويكشف عَوَرها . وهذا هو الحاصل ولهذا أقول لكم دائمًا احرصُوا على العلم لأننا فى هذا البلد فى مستقبل إذا لم نتسلَّح بالعلم المبنى على الكتاب والسُّنة فيوشك أن يحِلَّ بنا ما حلَّ فى غيرنا من البلاد الإسلامية وهذه البلاد الآن هى التى يركز عليها أَعداء الإسلام ويُسلِّطون عليها أضواءهم الكاشفة المكسوفة من أجل أن يُضلُّوا أهلها ، فلذلك تسلَّحوا بالعلم حتى تكونوا علىٰ بيِّنة من أمر دينكم ، وحتى تكونوا مجاهدين بألسنتكم وأقلامكم لأعداء الله سُبحانه وتعالى .

وكل هذه البدع حدثت بعد الصَّحابة فالصَّحابة رضى الله عنهم لم يكونوا يبحثون فى هذه الأمور ؛ لأنهم يتلقَّون الكتاب والسُّنة على ظاهرهما وعلى ما تقتضيه الفطرة والفطرة السليمة سليمة ، لكن جاء هؤلاء إمَّا لِقلَّة علمهم أو لقصور فهمهم أو لسوء قصدهم فأفسدوا الدُّنيا قاطبة بهذه البدع التى ابتدعوها ولكن كما قلنا إن الله تعالى بحكمته وحمده ومنته وفضله ما من بدعة خرجت إلَّا قيَّض الله لها من يُدحضها ويبيِّنها .

من جملة الذين بيَّنوا البدع وقاموا قيامًا تامًّا بدحضها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وأسأل الله لى ولكم أن يجمعنا به فى جنات النعيم .

هذا الرجل الذى نفع الله به ماآتاه من فضله ومنَّ على الأُمة بمثله أَلَّف هذه العقيدة كما قُلْتُ إجابة لطَلب أَحد قضاة واسط الذى شكى إليه ما كان النَّاس عليه من البدع وطلب منه أَن يُؤَلِّف هذه العقيدة فأَلَّفها .

* * *

شرح مقدمة ابن تيميـة

● يقول فيها رحمه الله « بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ » :

الشـــرح

والبداءة بالبسملة هى شأن جميع المؤلفين فى الإسلام إقتداءً بكتاب الله عزَّ وجلَّ فإن أول ما كتب الصَّحابة سورة الفاتحة كتبوا فيها ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحيم ﴾ واستنادًا إلى سُنَّةِ الرَّسول ﷺ .

وإعراب البسملة ومعناها : سبق لنا(١) وقلنا : إن أَحْسَنَ ما يُقَال فى تقديرها أَنَّها مُتَعَلِّقة بفعل محذوف مُتَأَخِّر مُنَاسب .

فإذا قدَّمتها بين يدى الأَكْل يكون التَّقدير : « بِسْمِ ٱللَّهِ آكُل » وَتُقَدِّمُها بين يَدَى القِراءة ، ويكون التقدير : « بسم الله أقرأ » ونقدِّره فعلاً ؛ لأَنَّ الأَصل فى العمل الأَفعال لا الأَسماء ولهذا : الأَفعال تعمل بلا شرط والأَسماء لا تعمل إلا بشرط لأَن العمل أصلٌ فى الأَفعال ، فرعٌ فى الأَسماء .

ونقدِّره متأخرًا لفائدتين :

الأولى : الحصر فإن « باسم الله أقرأ » بمنزلة : « لا أَقْرأُ إِلَّا باسْم الله » .

الثَّانية : تيمُّنًا بِالبَدَاءَة باسم الله سُبحانه وتعالى .

ونقدِّره خاصًّا ؛ لأَن الخاص أدلُّ على المقصود من العام إذ من الممكن أن أقول التَّقدير : باسم الله أبتدىء لكن « باسم الله أبتدىء بأى شىء » فصَار عامًّا . لكن باسم الله أقرأ خاص والخاص أدل على المعنى من العام .

﴿ الله ﴾ علم على نفس الله عز وجل ولا يُسَمَّى به غيره وهو مُشْتَقّ

(١) أى فى دروس أخرى .

على القول الرَّاجح لقوله تعالى ﴿ وَهُوَ اللهُ فِى السَّمَٰوَاتِ وَفِى الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾ [الأنعام : ٣] فإن ﴿ فِى السَّمَٰوَاتِ ﴾ متعلّق بلفظ الجلالة يعنى وهو المألوه فى السموات وَفِى الأرض .

وَأَمَّا ﴿ الرَّحمن ﴾ فهو ذو الرَّحمة الواسعة لأن فعلان فى اللُّغَة العربية تَدلّ على السِّعة والامتِلاء كما يُقَال : رجل غضبان إذا امتلأ غضبًا .

﴿ الرحيم ﴾ اسْمٌ يَدُلّ على الفعل لأَنَّه فعيل بمعنى فاعل فهو دالّ على الفعل.. فيجتمع من ﴿ الرَّحمن الرَّحيم ﴾ أن رحمة الله وَاسِعة وتُؤْخَذ من ﴿ الرحمٰن ﴾ وأنها واصِلةٌ إلى الخلق . وتؤخذ من « الرَّحيم » وهذا هو مَا رَمىٰ إليه بعضهم بقوله ﴿ الرحمن ﴾ رحمةٌ عامَّة و﴿ الرَّحيم ﴾ رحمة خاصَّةٌ بالمؤمنين(١) ولكن ما ذكرناه أَولى . الرحمن :- يدل على سعة الرحمة والرحيم يدل على وُصولِها إلى المرحوم لكن لما كانت رحمة الله للكافر رحمة خاصة فى الدُّنيا فقط فكأنها لا رحمة لأنهم فى الآخرة يقول تعالى لهم إذا سألوا الله أن يخرجهم من النار وتوسَّلوا إلى الله تعالى بفعله واعترافهم على أنفسهم : ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٠٧] فلا تدركهم الرحمة بل يدركهم العدل فيقول الله عز وجل لهم : ﴿ اخْسَؤُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون : ١٠٨] .

● « الحَمْدُ لله الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدَى وَدِينِ الحَقِّ ؛ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللهِ شَهِيدًا » .

الشـــرح

● قال : « **الحَمْدُ لله الذى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدَى وَدِينِ الحق** » الله تعالىٰ يُحْمدُ عَلَى كماله عزَّ وجلَّ وعلى إنعامه فنحن نحمد الله عزَّ وجلَّ لأَنَّه كامل

(١) راجع فتح المجيد (١٣/١) بتحقيقنا .

الصِّفات من كل وجه ، ونَحْمَدُه أَيضًا لأنه كامل الإنعام والإحسان : ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فَإِلَيْه تجْئَرُونَ ﴾ [النحل : ٥٣] وأكبر نعمة أنعم الله بها على الخَلْق إرسال الرُّسل الذى به هِدَاية الخَلْق ، ولهذا يقول المؤلف : « **الحمد لله الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدَىٰ وَدِين الحَقِّ** » والمراد « بالرسول » هنا الجنس فإن جميع الرُّسُل أُرْسِلُوا بالهدى ودين الحق ولكن الذى أكمل الله به الرسالة محمد ﷺ ؛ فإنَّه قد خَتَم الله به الأَنبياء وتمَّ به البناء كما وصف النَّبى ﷺ نفسه بالنسبة للرسل كَرَجُلٍ بَنَىٰ قَصْرًا وأَتَمَّه إلا مَوْضِعِ لَبِنَة فكَان النَّاسُ يَأْتُون إلى هذا القَصْر ويَتَعَجَّبُون مِنْهُ إِلَّا مَوْضِعُ هَذِهِ اللَّبنةِ يقول : « فَأَنَا اللَّبِنَة وَأَنَا خَاتَمُ النَّبيين »(١) عليه الصلاة والسَّلام .

وقوله : « **بالهُدَى** » الباءُ هنا للمُصَاحَبَة ، وَالهُدَىٰ : هو العِلم النَّافِع .

« **ودين الحق** » هو العمل الصَّالح ، لأَنَّ الدِّين هو العَمَل أَو الجزاء على العَمَل وكل عمل سوى الإسلام فهو باطل « والإسلام » هو دِينُ الحَقّ .

● قال : « **لِيُظهِرَهُ عَلَىٰ الدّينِ كُلِّهِ** » اللَّامُ للتعليل . ومعنى « **ليظهره** » أى يعليه لأَنَّ الظُّهور بمعنى العلو ومنه ظَهْر الدَّابة أعلاها وَمِنْهُ ظَهْرُ الأرض سَطْحُها كما قال تعالى : ﴿ وَلَو يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابةٍ ﴾ [فاطر : ٤٥] « ليظهره » الهاء فى « يظهره » هل هو عائد على الرسول أو على الدين ؟ إن كان عائدًا على « دين الحق » فكل مَنْ قاتل لدين الحق سَيكُون هو العَالى . لأن الله يقول : « لِيُظْهِرَهُ » يظهر هذا الدِّين على الدِّين كلِّه ، وعلى مَالَا دِينَ لَهُ فيظهره عليهم من باب أولى لأن من لا يدين أخبث ممن يدين بباطل . فإذًا :- كُلُّ الأَدْيَان التى يَزْعُم أَهْلُها أَنَّهم

---

(١) رواه البخارى (٣٥٣٥) ومسلم (٢٢٨٧) (٢٢) .

على حق سيكون دين الإسلام عليها ظاهرًا .

وإن قلنا إنَّه عائدٌ إلى الرَّسول عليه الصلاة والسلام فإنما يظهر الله رَسُوله لأَن معه دين الحق . وعلى كلا التَّقْديرين فإن من تمسَّك بهذا الذين الحق فهو الظَّاهر العالى . ومن ابتغى العِزَّة فى غيره فقد ابتغى الذُّل لأَنَّه لا ظُهُور ولا عِزَّة ولا كرامة إلَّا بالدِّين الحق ولهذا أَنا أَدْعُوكم مَعْشَر الإخوة إلى التَّمسُّك بدين الله ظاهرًا وباطنًا فى العبادة والسُّلوك والأَخلاق وفى الدَّعوة إليه حتى تقوم المِلَّة وتستقيم الأُمَّة .

● **قال** : « **وكَفَىٰ بِالله شَهِيدًا** » يقول أهل اللُّغة : إن الباء هنا زائدة ، لتحسين اللفظ والمبالغة فى الكفاية . وأَصْلُها « وكفى الله » و « شهيدًا » تمييز محوَّل عن الفاعل لأن أصلها « وكفت شهادة الله » . المؤلف جاء بالآية لو قال قائل : ما مناسبة « كفى بالله شهيدًا » لقوله « ليظهره على الدين كُلِّه » ؟

المُنَاسَبة ظاهرة ؛ لأَنَّ هذا النَّبى عليه الصَّلاة والسلام جاء يَدْعُو النَّاس ويقول : « مَنْ أَطَاعَنِى دَخَلَ الجَنَّة ، وَمَنْ عَصَانِى دَخَل النَّار » .

ويقول : « مَنْ أَطَاعَنِى سَالَمْتُه ، وَمَنْ عَصَانِى حَارَبْتُه »(١) ويحارب النَّاس بهذا الدِّين ويَسْتبيح دماءهم وأموالهم ونساءهم وذُرِيَّتهم ، وهو فى ذلك منصورٌ مؤزَّر غالب غير مغلوب . فهذا التمكين له فى الأرض أَى تمكين الله لِرَسُوله فى الأرض شهادة من الله عز وجل فِعْلِية بِأَنَّه صَادِقٌ وأنَّ دينه حقٌّ لأَنَّ كل من افترى على الله كذبًا فمآله الخُذْلَان والزَّوال والعَدَم وانظر إلى الذين ادَّعوا النُّبوة ماذا كان مآلهم ؟ أَنْ نُسُوا وأُهلِكُوا مُسَيْلمة الكذاب ،

---

(١) رواه البخارى (٧٢٨٠) من حديث أبى هريرة مرفوعًا بلفظ : « كلكم يدخل الجنة إلا من أبى ، قيل ومن يأبى يارسول الله ؟ قال : من أطاعنى دخل الجنة ومن عصانى فقد أبى » .
وأما اللفظ الآخر « من أطاعني سالمته ، ومن عصانى حاربته » فلم أعثر عليه .

والأسود العَنْسى وغيرهما ممن ادعوا النُّبوة كلُّهم تلاشوا ، وَبَانَ بُطْلان قولهم ، وحُرِمُوا الصَّواب والسَّداد لكن هذا النَّبى محمد ﷺ على العكس دَعْوَتُهُ إلى الآن والحمد لله باقية ونسأل الله أن يُثَبِّتنا وإيَّاكم عليها دعْوَتُه إلى الآن باقية وإلى أن تَقُوم السَّاعة ثابتة راسخة يُسْتباح بدعوته إلى اليوم دِمَاء من نَاوَأها من الكفار وَأَمْوالهم وَنِسائهم وَذُرِّيتهم . هذه الشَّهادة فِعْلِية مَاأَخذه الله ولا فضحه ولا كذَّبه ولهذا جاءت بعد قوله ليظهره على الدين كله : وَكَفَىٰ بالله شَهِيدًا .

● ثم قال : « وَأَشْهَدُ أَن لَا إِلَه إِلَّا الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ إِقرارًا وَتَوْحِيدًا » .

الشـــرح

« **أشهد** » : بمعنى أُقِرُّ بِقَلْبِى نَاطِقًا بِلِسَانِى لأن الشهادة نطقٌ وَإِخْبار عمَّا فى القلب . فأنت عند القاضى تشهد بحق فلان على فلان تشهد باللسان المعبر عمَّا فى القلب واختيرت الشهادة دون الإقرار ؛ لأن الشهادة أصلها من شهود الشىء . أى حضوره ورؤيته ، فكأنَّ هذا المُخْبِر عمَّا فى قَلْبه النَّاطق بِلِسانه كَأَنَّه يُشَاهِدُ الأَمْرَ بِعَيْنِهِ .

« **لَا إِلَه إِلَّا الله** » سبق تفسير معناها « **وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ** » وَحْدَهُ : هى من حيث المعنى توكيد للإثبات . « لا شَرِيكَ لَهُ » توكيد للنفى .

« **إقرارًا به وتوحيدًا** » **إقرارًا** :- هذه مصدر وإن شئت فقل إنه مفعول مطلق لأنه مصدرٌ معنوى لقوله « أشهد » وأهل النحو يقولون إذا كان المصدر بمعنى الفعل دون حروفه فهو مصدرٌ معنوى وإذا كان بمعناه وحروفه

فهو مصدر لفظى « فقمت قيامًا » لفظى ، « وقمت وقوفًا » مصدر معنوى ، و« جلست جلوسًا » لفظى ، و« جلست قعودًا » مصدر معنوى « أشهد إقرارًا » مصدر معنوى . فَقَوْلُ المُؤَلِّف « إقرارًا » هذه مفعول مطلق لأشهد وهى مصدر معنوى . وقوله « **وتوحيدًا** » : مصدر مُؤَكّد لقوله « لا إله إلا الله » .

● قال «وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسَلِّم تسليمًا مزيدًا »

الشــــرح

نقول فى « **أشهد** » ما قلنا فى « أشهد الأولى » و« محمد » هو ابن عبدالله بن عبد المطلب القرشى الهاشمى الذى هو من سلالة إسماعيل بن إبراهيم أشرف الناس نَسَبًا عليه الصَّلاة والسَّلام . هذا النَّبى الكريم هو عبد الله ورسوله . وهو أعبدُ النّاس لله وأشدُّهم تحقيقًا لعبادته « كان عليه الصَّلاة والسلام يقوم فى اللَّيل حَتَّى تَتورَّمُ قَدَماهُ . وَيُقَالُ لَهُ : كَيْفَ تَصْنَعُ هَذَا وَقَدْ غَفَرَ الله لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّر ؟ فيقول : أَفَلا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا »(١) ؛ لأَنَّ الله تعالى أَثْنَى عَلى العبْد الشَّكور حين قال عن نوح : ﴿ إِنَّه كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء : ٣] فأراد النَّبى عليه الصَّلاة والسلام أَنْ يَصل إلى هذه الغاية وأن يَعْبُد الله تعالى حَقَّ عِبَادته، ولهذا هو أتقى الناس وَأَخْشَى النَّاس لله ، وَأَشدُّهم رَغْبةً فيما عند الله تَعَالَى فهو عَبْدٌ ، ومُقْتَضَى عُبُودِيَّته أَنَّه لا يَمْلك لنفسه ولا لغيره نفعًا ولا ضرًا وليس له حقٌّ فى الرُّبوبية إطلاقًا بل هو عبدٌ محتاجٌ إلى الله مُفْتَقِرٌ له يسأله ويدعوه وَيَرْجُوه ويخافه .

---

(١) البخارى (٤٨٣٦) ومسلم (٢٨١٩) (٧٩) من حديث المغيرة بن شعبة رضى الله عنه .

بل إنَّ الله أمره أَنْ يُعلن وأمره أن يُبَلِّغ بَلاغًا خاصًّاً بأَنَّه لا يملك شيئًا من هذه الأمور فقال : ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِى نفْعًا ولَا ضرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيْرِ وَمَا مَسَّنى السُّوءُ ﴾ [الأعراف : ١٨٨] وَأَمره أَن يُعْلِنَ فيقول : ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدى خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَّى ﴾ [الأنعام : ٥٠] وَأَمَرَهُ أَنْ يُعْلِنَ فيقول : ﴿ قُلْ إِنِّى لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّاً وَلا رَشَدًا) ﴾ [الجن : ٢١] كما لا يملك ذلك لنفسه : ﴿ قُلْ إِنِّى لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّاً وَلا رَشَدًا قُلْ إِنِّى لَنْ يُجيرَنِى مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحدًا إِلَّا بَلاغًا ﴾ [الجن : ٢١-٢٣] إِلَّا : استثناء متقطع أى : لكن أُبلِّغ بلاغًا من الله وَرِسَالاته . فالحاصل أَنَّ محمدًا صلوات الله وَسَلامُه عليه عبدٌ وَمُقْتَضَىٰ هذه العُبُودِيَّة أَنَّه لا حَقَّ له فى شيء من شُئُون الرُّبوبية إطلاقًا ... وإذا كان محمدٌ رَسُول الله صلوات الله وسلامه عليه بهذه المثابة فما بَالُك بِمَنْ دُونه من عباد الله فإنَّهم لا يملكون لأَنْفُسِهم نَفْعًا ولا ضرًّاً ، ولا لغيرهم أبدًا .

وبهذا يتبين سَفَه أولئك القوم الَّذين يَدْعُون من يدعونهم أَوْلياء من دون الله عز وجل .. وقوله : « **وَرَسُوله** » هذا أيضًا وَصْفٌ لا يكون لأَحَدٍ بعد رسول الله ﷺ لأَنَّه خاتم النَّبيين فهو رسول الله الذى بَلَغَ مكانًا لم يبلُغه أحدٌ من البَشَر ، بل وَلَا مِن الملائكة فيما نَعْلم – اللَّهُم إِلَّا حملة العرش . وَصَلَ إلى مَا فوق السَّماء السَّابعة وَصَل إلى موضع سَمِعَ فيه صَرِيفُ أقلام القضاء الذى يقضى به الله عز وجل فى خلقه وما وصل أحدٌ فيما نعلم إلى هذا المستوى وكلَّمه الله عز وجل بدون واسطة وأرسله إلى الخلق كافة وأيَّده بالآيات العظيمة التى لم تكن لأحد من البشر أو الرسل قبله : وهو هذا القرآن العظيم فإن هذا القرآن لا نظير له فى آيات الأنبياء السَّابقين أبدًا ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّه قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ الله

وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ . أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ﴾ [العنكبوت : ٥٠، ٥١] هذا يكفى عن كل شيء ولكن لمن كان له قلبٌ أو أَلْقَى السَّمع وهو شَهيد أَمَّا المعرِض فسيقول كما قال من سبقه هذا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ .

الحاصل أن محمدًا رسول الله خاتم النبيين ختم الله به النبوة والرسالة أيضًا لأَنَّه إِذا انْتَفتِ النُّبوة وهى أعمُّ من الرِّسالة انتفت الرِّسالة التى هى أخصّ لأن انتفاء الأعم يستلزم انتفاء الأَخَصِّ . فرسول الله عليه الصلاة والسَّلام هو خاتم النبيين .

● **وقوله : « صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا مَزِيدًا »** .

ما معنى « صَلَّى الله عليه » ؟ أَحْسنَ ما قيل فيها ما قاله أبو العالية – رحمه الله –: قال : « صَلاة الله على رسوله ثَنَاؤُه عليه فى الملأ الأَعْلَى »(١) . وأَمَّا مَنْ فَسَّر صلاة الله عليه بالرَّحمة فقوله ضَعيف . لأَنَّ الرحمة تكون لكل أحد ولهذا أَجْمع العلماء على أَنَّك يجوز أن تقول : « فلان رحمه الله » ، واختلفوا هل يجوز أن تقول : « فلان صلى الله عليه ؟ » ، وهذا يدل على أن الصَّلاة غير الرَّحمة . وَأَيضًا ، فقد قال الله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِم وَرَحْمَةٌ ﴾ [البقرة : ١٥٧] .

والعطف يقتضى المُغَايرة . إِذًا : فالصَّلاة أخصُّ من الرَّحمة . فصلاة الله على رسوله ثَنَاؤُه عليه فى الملأ الأعلى وكذلك قوله : « **وعلى آله** » وآله أتباعه على دينه . هذا إِذا ذُكِرَتِ الآل وَحْدَها أو مَعَ الصَّحب فإنها تكون بمعنى أَتْبَاعه على دِينه مُنْذُ بُعِث إلى يوم القيامة . ويدل على أن الآل بمعنى

---

(١) البخارى (٨/٥٣٢) تعليقًا ، ووصله ابن أبى حاتم كما قال الحافظ فى الفتح ، وهو عند القاضى اسماعيل فى فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٩٥) .

وراجع : جلاء الإفهام ص (١١٩ : ١٣٣) وبدائع الفوائد (١/٢١٠) كلاهما لابن القيم .

الأتباع على الدين . قوله تعالى فى آل فرعون : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ [غافر : ٤٦] فأَتْباعُه على دِينه هم الآل .

أَمَّا إذا قُرِنت بالأَتْباع فقيل : آله وأتباعه فالآل هم المؤمنون من آل البيت أى بيت الرسول عليه الصلاة والسلام وهنا شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – لم يذكر الأتباع قال : « **آله وَصَحْبه** » فنقول آله : هم أتباعه على دينه . « **وَصحْبه** » كلُّ من اجتمع بالنَّبى ﷺ مُؤْمِنًا بِهِ وَمَات على ذلك(١) وعَطْف الصَّحب هنا على الآل من باب عطف الخاص على العام لأن الصحبة أَخصّ من مطلق الإتباع .

قوله : « **وَسَلِّم تَسْليمًا مَزِيدًا** » . « **سَلِّم** » فيها السَّلامة من الآفات وفى الصَّلاة حُصُول الخيرات فجمع المؤلف فى هذا الصِّيغة بين سؤال الله تعالى أن يُحَقِّق لِنَبِيِّه الخيرات وأخصُّها : الثَّناءُ عليه فى الملأ الأعلى وأن يزيل عنه الآفات وكذلك من اتبعه .

وقوله : « **مَزِيدًا** » بمعنى : زائدًا أو زيادة ، والمراد تسليمًا زائدًا على الصلاة فيكون منقبة أخرى أو دعاءً آخر بعد السَّلام .

والرسول عند أهل العلم : « من أُوحى إليه بشرع وأُمر بتبليغه »(٢) وقد أمر النبى ﷺ « باقرأ » وأرسل « بالمدثر » ففى قوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴾ ... إلى قوله : ﴿ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ١–٥] كان نَبِيًّا بهذه الآيات .

---

(١) راجع : الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى (٦/١) .

(٢) راجع : كتاب النبوات ص (٢٨١ : ٢٩٠) لشيخ الإسلام ابن تيمية وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز (١٥٥/١) ولوامع الأنوار البهية للسفارينى (٤٩/١) .

وَفى قوله : ﴿ يَا أَيُّها المُدَّثِّر . قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ [المدثر : ١، ٢] كان رَسُولًا عليه الصَّلاة والسلام .

● قال : « أَمَّا بَعْدُ : فَهَذا اعْتِقَادُ الفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ المَنْصُورةِ إلى قِيَامِ السَّاعة أَهْلُ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ »(*) .

الشـــرح

أَمَّا بعد : قالوا : أَمَّا هذه نَائِبةٌ عن اسم شرط وفعله وأن التَّقدير : مهما يَكُن مِن شَيء . قال ابن مالك : أَمَّا : كمهما يكن من شيء . وما يتلو تلوها وجوبًا ألفا فقولهم : أَمَّا بعد . التَّقدير : مهما يكن من شيء بعد فهذا . وعليه : فالفاء هنا رابطةٌ للجواب ، والجملة بعدها فى محل جزم جواب الشرط . ويحتمل عندى أن تكون : « أَمَّا بعد ، فهذا أى أن (أَمَّا) حرف شرط وتفصيل ، أو حرف شرط فقط مجرَّدٌ عن التفصيل ، والتقدير : أمَّا بعدَ ذكر هذا ، فأنا أذكر كذا وكذا . ولا حاجة أن نقدِّر فعل شرط ، ونقول : إن « أَمَّا » : حرف نَابَت مَنَاب الجملة .

وقوله : « فَهَذَا اعْتِقَادُ » فهذا : الإشارة لابد أن تكون إلى شيء مَوْجُود . أنا عندما أَقُول هَذَا فَأَنَا أُشِيرُ إلى شيء مَحْسُوس ظاهر وهنا المؤلف كتب الخطبة قبل الكتاب وقبل أَن يُبْرز الكتاب لِعَالم الشاهد فكيف ذلك ؟ أقول : إن العلماء يقولون : إن كان المؤلف كتب الكتاب ثُمَّ كتب المقدمة والخطبة فالمُشَار إليه موجودٌ وَمحسوس ولا فيه إشكال . وإن لم يكن فإن

(*) **قال الشيخ ابن باز** : « قوله : الفرقة الناجية : أهل السنة والجماعة فى الأسماء والصفات : هو إثبات ما جاء فى القرآن العظيم والسنة الصحيحة من أسماء الله وصفاته على الوجه اللائق بجلال الله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل عملًا بقول الله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] فنفى عن نفسه المماثلة وأثبت السمع والبصر فدل ذلك على أن مراده سَمْعٌ وبَصَرٌ لا يماثلان أسماع الخلق وأبصارهم » ا.هـ .

المؤلف يشير إلى ما قام فى ذِهْنِهِ عن المعانى التى سيكتبها فى هذا الكتاب وعندى فيه وجه ثالث : وهو أن المؤلف قال هذا حال المخاطب والمخاطب لم يخاطب بذلك إلا بعد أن برز الكتاب وصدر فكأنه يقول : » فهذا الذى بين يديك كذا وكذا » فهذه إذًا ثلاثة أوجه :

« **اعتقاد** » « افتعال » من العقد وهو الرَّبط والشَّد هذا من حيث التَّصريف اللَّغوى . وأما فى الاصطلاح عندهم : فهو حكم الذِّهن الجازم هذا هو الاعتقاد . اعتقدت كذا يعنى جَزَمت به فى قلبى . فهو حكم الذِّهن الجازم فإن طَابَقَ الوَاقِع فَصَحِيحٌ ، وإن خالف الواقع ففاسد ، اعتقادنا أن الله إلهٌ واحد صحيح ، واعتقاد النَّصارى أن الله ثَالِثُ ثَلاثة باطل ، لأنه مخالفٌ للواقع ووجه ارتباطه بالمعنى اللُّغوى ظاهر لأَنَّ هذا الذى حكم فى قلبه على شيء ما كَأَنَّه عَقَدَهُ عَلَيْه وشدَّه عليه بحيث لا يَتَفَلّت مِنْهُ .

وقول المؤلف « **الفِرقَة** » بكسر الفاء بمعنى الطَّائفة قال الله تعالى : ﴿ فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَة ﴾ [التوبة : ١٢٢] وأمَّا الفُرقة بالضم فهى مأخوذة من الإفتراق .

« **النَّاجِية** » اسم فاعل من نَجَىٰ إذا سَلِم . ناجيةٌ فى الدُّنيا من البدع سالمةٌ منها ، وناجيةٌ فى الآخرة من النَّار . ووجه ذلك أن النبى ﷺ قال : « وَسَتَفْترِقُ هذه الأُمَّة على ثلاث وَسَبْعِينَ فِرْقَة كُلُّها فِى النَّار إِلَّا وَاحِدَةٌ . قَالُوا : مَنْ هِى يَا رَسُولَ الله ؟ قال : مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِى »(١) هذا الحديث يُبيّن لنا معنى « النَّاجية » فمن كان على مثل ما عليه النبى ﷺ وأصحابه فهو ناجٍ من البدع . « وكلها فى النار إلا

(١) **حديث حسن**: رواه الترمذى (٢٦٤١) والحاكم (١/١٢٨ ، ١٢٩) بهذا اللفظ من **حديث عبدالله بن عمرو ، وفي إسناده ضعف ، وله شاهد فى مجمع الزوائد (٧/٢٦١) ولذا حسَّن الألبانى الحديث فى صحيح سنن الترمذى (٢/٣٣٤) .**

واحدة » إذًا هى ناجية من النار . فالنَّجاة هنا من البدع فى الدُّنيا ومن النَّار فى الآخرة .

وقوله : « **المنصورة** » إلى قيام الساعة : عبَّر المؤلف بذلك مُوافقةً للحديث حيث قال النبى ﷺ : « لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِن أُمَّتى عَلَى الحَقِّ مَنْصُورة »(١) والذى ينصرها هو الله وملائكته والمؤمنون والملائكة تؤيِّد المؤمن وتُثبته . قال الله تعالى . ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِى فى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ ﴾ [الأنفال : ١٢] فهى مَنْصُورة إلى قيام الساعة منصورة من الرَّب عز وجل ومن الملائكة ومن عباده المؤمنين حتى قد يُنصر الإنسان من الجن ينصره الجن وَيُرهبُون عَدوَّه .

وقوله : « **إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ** » ى : إلى يوم القيامة .. فهى مَنْصورة إلى قيام الساعة . وهنا يرد إشكال : وهو أن الرَّسول عليه الصَّلاة والسلام أخبر بأن السَّاعة تقوم على شِرَارِ الخَلق وأنها « لا تَقُومُ حَتَّى لَا يُقَال : الله — الله »(٢) .

« يُمحى الإسلام » فكيف نجمع بين هذا وبين قول المؤلف إلى قيام الساعة ؟ والجواب : أن يُقَال إن المراد إلى قُرب قيام السَّاعة أو إلى قيام السَّاعة أى ساعتهم وهو موتهم لقوله : « حَتَّى يَأْتِى أَمْرُ الله »(٣) لأن من مات فقد قامت قيامته لكن الأَوَّل أَقْربُ ! فهم مَنْصُورون إلى قُرب قيام السَّاعة وإنما لجأنا إلى هذا التأويل لدليل والتَّأويل بدليل جائز لأن الكُلَّ من عند الله .

---

(١) البخارى (٣٦٤١) ومسلم (١٠٣٧) (١٧٤) من حديث معاوية رضى الله عنه بنحوه وليس فيه كلمة « منصورة » .

وفى الباب عن المغيرة وجابر وثوبان وغيرهم وراجع الصحيحة (٢٧١) .

(٢) رواه مسلم (١٤٨) (٢٣٤) من حديث أنس رضى الله عنه .

(٣) جزء من حديث : « لاتزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله » تقدم تخريجه قبل حديث .

قال : « **أَهْلُ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ** » أَضَافَهُم إلى السُّنة لأنهم متمسكون بها . والجماعة لأنهم مجتمعون عليها . فإن قلت : كيف يقول : أهل السُّنة والجماعة ؟ لأنهم جماعة فكيف يُضَافُ الشَّيء إلى نفسه ؟ فالجواب : أَنَّ الأَصْل أن كلمة الجماعة بمعنى الإجتماع فهى اسم مَصْدر . هذا فى الأصل ، ثم نُقلت من هذا الأصل إلى القوم المُجْتَمِعين . وعليه فيكون معنى أهل السُّنة والجماعة أى : أهل السُّنة والإجتماع . سمُّوا أهل السُّنة لأنهم متمسِّكون بها ، وسمُّوا أهل الجماعة لأنهم مجتمعون عليها . فهم مُتَّصِفُون بهذا الوَصْف أهل السُّنة متمسِّكون بالسنة ظاهرًا وباطنًا . وجماعة مجتمعون عليها ولهذا لم تفترق هذه الفرقة كما افترقت أهل البدع . نجد أهل البدع كالجهمية متفرقين ، والمعتزلة متفرقين ، والرَّوافض متفرِّقين وغيرهم من أهل التَّعطيل متفرقين لكن هذه الفرقة مجتمعة على الحق وإن كان قد يَحْصُل بينهم خلاف لكنه خلافٌ لا يضر وَهُو خِلافٌ لا يُضلِّل أحدهم الآخر به . أى : أن صُدُورَهُم تَتَّسِع له وإلا فقد اختلفوا فى أشياء مِمَّا يتعلَّق بالعقيدة مثل : هل رأى النبى ﷺ ربَّه بعينه أم لم يره(١)؟ ومثله : هل عذاب القبر على البَدن والروح أو الروح فقط(٢)؟ ومثل بعض الأُمور يختلفون فيها لكنها مسائل تعتبر فرعية بالنِّسبة للأصول وليست من الأصول . ثم هم مع ذلك إذا اختلفوا لا يضلِّل بعضهم بعضًا بخلاف أهل البدع(٣) إذًا : فهم مجتمعون على السُّنة

---

(١) مثل ما جاء من نزاع بين أم المؤمنين عائشة وابن عباس فى ذلك وقد جمع أهل العلم بينهما فقالوا : إن عائشة أنكرت ونفت رؤية العين وابن عباس أثبت رؤية الفؤاد وراجع مجموع الفتاوى (٦/٥٠٧ ، ٥٠٨) .

(٢) راجع : الروح لابن القيم ص (٧٢) .

(٣) قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « ... وهذه حال أهل البدع : يبتدعون بدعة ويكفرون من خالفهم فى بدعتهم ، وأهل السنة والجماعة يتبعون الكتاب والسنة ويطيعون الله ورسوله ، فيتبعون الحق ، ويرحمون الخلق » ا.هـ. قاعدة أهل السنة والجماعة فى رحمة أهل البدع والمعاصى ص (٥) .

فهم أهل السنة والجماعة . وعُلِم من كلام المؤلف - رحمه الله - أنه لا يدخل فيهم من خالفهم فى طريقتهم فالأشاعرة مثلًا والماتريدية لا يعتبرون من أهل السُّنة والجماعة فى هذا الباب لأنَّهم مُخَالفون لما كان عليه النبى ﷺ وأصحابه فى إجراء صِفَاتِ الله سبحانه وتعالى على حقيقتها ولهذا يُخْطِىءُ من يقول إن أهل السُّنة والجماعة ثلاثة : سلفيّون وأشعريُّون وماتريديون . فهذا خطأ نقول : كيف يكون الجميع أهل سنة وهم مختلفون فماذا بعد الحق إلا الضلال !؟ وكيف يكونون أهل سُنَّة وكلٌّ واحد يَردُّ على الآخر هذا لا يمكن إلا إذا أمكن الجمع بين الضِّدين فنعم ! وإلا فلا شك أن أحدهم هو صاحب السنة فمن هو ؟ الأشعرية - الماترودية - السلفية ؟ ترى : من وافق السُّنة فهو صاحب السُّنة ومن خالف السنة فليس صاحب سنة فنحن نقول : السلف هم أهل السُّنة والجماعة ولا يَصْدُق الوصف على غيرهم أبدًا ، والكلمات تعتبر بمعانيها . لننظر كيف نُسَمِّى من خالف السُّنة أهل سُنَّة ؟ لا يمكن ! وكيف يمكن أن نقول هؤلاء ثلاث طوائف مختلفة ؟ نقول هم مجتمعون ، فأين الاجتماع ؟ فأهل السنة والجماعة إذًا هم السلف معتقدًا حتى المتأخر إلى يوم القيامة إذا كان على طريقة النَّبى ﷺ وأصحابه فإنه سلفى .

* * *

● قال ١ - « وَهُوَ الإيمانُ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرَسُولِهِ وَالبَعْث بَعْد المَوْت والإيمان بالقَدَرِ خَيْرِه وَشَرِّه » .

الشـــــرح

هذه العقيدة أصّلها لنا النبى ﷺ فى جواب جبريل خير الملائكة ، وقال للناس : « هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » ؛ لأن جبريل سأل النبى ﷺ : ما الإسلام ؟ ما الإيمان ؟ ما الإحسان ؟ متى الساعة ؟ فالإيمان قال له : « أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسلِهِ وَاليَوْمِ الآخِر وَالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّه »(١) .

الإيمان بالله : الإيمانُ فى اللُّغة : يقول كثير من النَّاس إنَّه فى اللغة ، التَّصديق فصدَّقت وآمَنْتُ مَعْنَاهُما لغةً واحد وقد سبق لنا فى التفسير أن هذا القول لا يَصِحُّ بأَنْ يُقَال إن الإيمان فى اللُّغة التَّصديق بل الإيمان فى اللغة : « الإقرار بالشَّىء عن تَصْدِيقٍ به » بدليل أنك تقول : آمَنْتُ بكذا وَأَقْرَرْتُ بكذا ... صدَّقت فلانًا ولا تقل آمنت فلانًا . إذا : فالإيمان يَتضمَّن مَعْنًى زائدًا على مجرد التَّصديق وهو الإقرار والإعتراف المستَلْزِم للقبول للأَخْبَار والإذعان للأحكام . هذا الإيمان أَمَّا مُجرد أن تؤمن بأنَّ الله موجود فهذا ليس بإيمان حتى يكون هذا الإيمان مُسْتَلْزِمًا للقبول فى الأخبار والإذعان فى الأحكام وإلَّا فليس إيمانًا .

الإيمان بالله يَتضَمَّن أَرْبَعَةَ أُمُور :

١ - الإيمان بوجوده سبحانه وتعالى .

٢ - والإيمان بربوبيته . أى : الانفراد بالربوبية .

٣ - والإيمان بانفراده بالألوهية .

---

(١) حديث جبريل المشهور رواه مسلم (٨) (١) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما .

٤ – والإيمان بأسمائه وَصِفاته .

لا يمكن أن يتحقَّق الإيمان إلَّا بذلك فمن لم يؤمن بوجود الله فليس بمؤمن . ومن آمن بوجود الله لا بانفِرادِه بالرُّبوبية فليس بمؤمن . ومن آمن بالله وانفراده بالرُّبوبية لا بالأُلوهية فليس بمؤمن . ومن آمَنَ بالله وانفراده بالرُّبوبية وبالأُلوهية لكن لم يؤمن بأسمائه وصفاته فليس بمومن . وإن كان الأخير فيه من يُسْلب عنه الإيمان بالكلِّية وفيه من يُسْلبُ عنه كمال الإيمان .

الإيمان بوجوده : إذَا قال قائل : مَا الدَّليل على وُجُود الله عزَّ وجل ؟ نقول : الدَّليل على وجود الله : العقل والحس والشرع . ثلاثة كلُّها تدلُّ على وجود الله وإن شئت فَزِد الفِطرة . فتكون الدَّلائل على وجود الله أربعة : « العقل والحِس – والفِطْرة – والشَّرع » وأَخَّرْنا الشرع لا لأنه لا يستحق التَّقْديم لكن لأَننا نُخَاطب من لا يؤمن بالشرع .

فَنُبَين له أَوَّلًا **بالعقل** : نقول له مثلًا : هل وجود هذه الكائنات بنفسها أوْ وجدت هكذا صدفة ؟ فإن قلت : وُجِدَت بنفسها فمُسْتَحِيلٌ عَقْلًا ما دامت هى مَعْدُومة . كيف تكون مُوجِدة وهى مَعْدُومة . المعدوم ليس بشىء حتى يوجد إذًا . لا يمكن أن تُوجد نفسها بنفسها وإن قلت : وُجِدت صُدْفة فنقول هذا يسْتحيل أيضا فأنت أيُّها الجاحد هل كل ما عندكَم من الطائرات والصواريخ والسَّيارات والآلات بأَنْوَاعها هل وجد هذا صدفة فيقول لا يمكن أن يكون . فكذلك هذه الأطيار ، والجبال ، والشمس والقمر النجوم والشجر والجمر والرِّمال ، والبِحَار ، وغير ذلك ، لا يمكن أن تُوجَد صُدفة أبدًا .

ويُقال : إنَّ طائفة من السُمنية جاءوا إلى أَبى حَنِيفة – رحمه الله – وهم من أَهل الهند فناظروه فى إثبات الخالق عز وجل وكان أبو حنيفة من أذكى

العلماء ، فوعدهم أن يأتوا بعد يوم أو يومين فجاءوا قالوا : ماذا قلت ؟ قال : أنا أُفكِّر فى سَفينة مملوءة من البَضَائع والأَرْزَاق جاءت تشق عباب الماء حتى أَرْسَتْ فى الميناء ونزلت الحُمُولة وذهبت وليس فيها قائدٌ ولا فيها حمَّالين . قالوا : تفكِّر بهذا ؟ قال : نعم . قالوا : إذا ليس لك عقل . هل يعقل أن سفينة تأتى بدون قَائد وَتنزل وتَنْصَرف ، هذا ليسَ معقول . قال : كيف لا تَعْقِلون هذا وتَعْقِلون أن هذه السموات والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب والناس كلُّها بدون صانع ، كيف تعقلون هذا ؟ فعرفوا أن الرجل خاطبهم بعقولهم !!

وقيل لأَعْرابى من البَادية : بم عَرَفت رَبّك ؟ فقال : الأَثَرُ يَدُلُّ عَلَى المَسِير والبَعْرة تدلُّ على البَعِير فسماءٌ ذَاتَ أَبْرَاج وَأَرْضٌ ذَات فِجاج وَبِحارٌ ذَات أَمْوَاج أَلَا تَدلُّ على السَّميع البَصير ؟

ولهذا قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ ﴾ [الطور : ٣٥] فإذًا يمتنع أن تكون وُجِدَت صُدفة إذًا : لابد لها من موجِد فمن الموجِد ؟ هو الله سبحانه وتعالى .

ولا أحد يَدَّعى أنه أَوْجَدَها إلا أن يقول الذى أَوْجَدها هو الله عزَّ وجلَّ . فحينئذ يكون العقل دالًا دلالة قطعية على وجود الله .

٢ - **الحِسُّ** : دالٌّ على وجود الله ومن دلالة الحس على وجود الله أن الإنسان يدعو الله عز وجل يقول : يارب ويدعو الشىء ثمَّ يُستجاب له هذه دلالة حسية ، هو نفسه لم يدع إلا الله واستجاب الله له حين يَراها رأى العين ، وكذلك نحن نسمع عمَّن سبق وعمَّن فى عصرنا أن الله استجاب له ، فالأعرابى الذى دخل والرسول ﷺ يخطب النَّاس يوم الجمعة قال : « هلكتِ الأموال وانقطعتِ السُبُل . فادعو الله يغيثنا . قال أنس : والله ما فى السماء

من سحاب ولا قزعة - أى قطعة سحاب - وما بيننا وبين سَلْعٍ من بيت ولا دار » - سلْع : جبل فى المدينة تأتى من جهته السُحُب - بعد دُعاء الرسول ﷺ فورًا خَرَجَت سحابة مثل التُرس وارتفعت فى السَّماء وانتشرت - وَرَعَدت وَبَرَقت ونزل المطر فما نزل الرسول ﷺ إلا والمطر يَتَحَادَرُ مِن لِحْيته عليه الصَّلاة والسَّلام(١).

وهذا أمرٌ واقع ! إذًا هذا يدلُّ على وجود الخالق دلالة حسِّية . وفى القرآن كثيرٌ من هذا مثل : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِىَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ﴾ [الأنبياء : ٨٣،٨٤] وغير ذلك من الآيات .

٣ - **أمَّا دِلالة الفِطرة** : فإن كثيرًا من النَّاس الذين لم تنحرف فِطرهم يؤمنون بوجود الله حتى البهائم العجم تؤمن بوجود الله وقصة النملة التى رويت عن سليمان عليه الصلاة والسلام خرج يَسْتسقى فوجد نملة مستلقية على ظهرها رافعةً قوائمها نحو السماء تقول : « اللَّهُمَّ أنا خلقٌ من خلقك فلا تمنع عنَّا سُقْيَاك » فقال : ارجعوا فقد سُقِيتُم بدعوة غيركم(٢) . فالفِطَر مَجْبُولة على معرفة الله عز وجل وتوحيده وقد أشار الله تعالى إلى ذلك فى قوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِى آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتهم وَأَشْهَدَهُمْ علىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ : بلىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُواْ يَوْمَ القِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِين . أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ [الأعراف : ١٧٢،١٧٣] فهذه الآية تدل على أن الإنسان مجبولٌ بفطرته على شهادته بوجود الله وَرُبُوبيته سواءً قلنا إن الله استخرجهم من ظهر آدم واستشهدهم أو قلنا إن هذا هو ما ركب الله تعالى فى فِطَرهم من الإقرار به فإن الآية تدلُّ على أن الإنسان يعرف ربَّه بفطرته . هذه أدلة أربعة تدل

---

(١) رواه البخارى (١٠٣٣) ومسلم (٨٩٧) (٨) .

(٢) راجع القصة وطرقها فى : اجتماع الجيوش الإسلامية ص (٣٢٨ ، ٣٢٩) .

على وجود الله سُبْحانه وتعالى .

« وَمَلَائِكَتِهِ » الملائكة جمع ملاك . وأصل مَلاك مألك لأنه من الأَلوكة والألوكة فى اللغة العربية الرِّسالة . قال الله تعالى : ﴿ جَاعِلِ الملائِكَةِ رُسُلاً أُوْلِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَىٰ ﴾ [فاطر : ١] فالملائكة نقول فى تعريفهم شرعًا : هم عَالمٌ غيبى خَلَقَهم الله عزَّ وجل من نُور وَجَعلهم طائعين له مُتَذَلِّلين لَهُ . ولكل منهم وظائف خصَّه الله بها . ونعلم من وظائفهم أَولًا : جبريل موكل بالوحى ينزل به من الله تعالى إلى الرسُل . ثانيًا : إسرافيل موكل بنفخ الصور وهو أيضًا أحد حملة العرش . ثالثًا : ميكائيل موكل بالقطر والنَّبات . وهؤلاء الثلاثة كلُّهم موكّلون بما فيه حياةٌ . فجبريل موكل بالوحى وَفيه حياة القُلوب وَمِيكائيل بالقَطْر والنَّبات وفيه حياة الأَرض وإسرافيل بنفخ الصُّور وفيه حياة الأجساد يوم المعاد . ولهذا كان النبى ﷺ يتوسَّل بربوبية الله لهم فى دعاء الاستفتاح فى صلاة اللَّيل فيقول : « اللَّهُمَّ رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشَّهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون . اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنَّك تَهْدى من تشاء إلى صراطٍ مستقيم » هذا الدعاء الذى كان يقوله فى قيام الليل متوسلًا بربوبية الله لهم(١) .

كذلك نعلم أن منهم من وُكِّل بِقَبْض أرواح بنى آدم أو بقبض روح كُلّ ذى روح : وهم : ملك الموت وأَعوانه ولا يسمى « عزرائيل » لأنه لم يثبت عن النبى عليه الصلاة والسلام أن اسمه هذا . قال تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الموْتُ توفَّتْهُ رُسُلُنا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ [الأنعام : ٦١] . وقال تعالى : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ المَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ [السجدة : ١١] . وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَتوفَّاكُم بِاللَّيْلِ ﴾ [الأنعام : ٦٠] . وقال

(١) أخرجه مسلم (٧٧٠) (٢٠٠) من حديث عائشة رضى الله عنها .

تعالى : ﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [الزمر : ٤٢] ولا مُنافَاة بين هذه الآيات الثَّلاث فإن الملائكة تقبض الرّوح إذ أن ملك الموت إذا أخرجها من البدن وإذا عنده ملائكة نزلوا إن كان الرَّجل من أهل الجنة . فيكون معهم حَنُوط من الجنة وكفن من الجنة يأخذون هذه الرّوح الطيبة ويجعلونها فى هذا الكفن ويَصْعَدون بها إلى الله عز وجل حتى تقف بين يدى الله ثم يقول : اكتبوا كتاب عبدى فى عليين وأَعِيدُوه إلى الأرض . فترجع الرّوح إلى الجسد من أجل الاختبار : مَنْ ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ إن كان الميت غير مؤمن والعياذ بالله فإنه ينزل ملائكةٌ معهم كَفَنٌ من النَّار وحَنُوطٌ من النار يأخذون الروح ويجعلونها فى هذا الكفن ثم يصعدون بها إلى السَّماء فتغلق أبواب السماء دونها ثم ترجع إلى الأرض وتلا قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ الرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج : ٣١] ثم يقول الله : اكتبوا كتاب عبدى فى سِجِّين(١) نسأل الله العافية !

هؤلاء مُوكلون بقبض الرّوح مِنْ مَلك الموت إذا قبضها وملك الموت هو الذى يُبَاشِرُ قبضها فلا مُنافاة إذن . والذى يأمر بذلك هو الله ، فيكون فى الحقيقة هو المتوفى .

وهناك أيضًا ملائكة سيَّاحون فى الأرض يلتمسون حلِق الذِّكر إذا وَجَدُوا حلقة العِلم والذكر جَلَسُوا . وكذلك فيه ملائكة يَكْتُبُونَ أَعْمال الإنسان : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾

---

(١) ورد ذلك ضمن حديث البراء بن عازب المشهور الجامع لأحوال الموتى عند احتضارهم وفى قبورهم أخرجه أحمد (٢٨٧/٤ ، ٢٨٨ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦) وأبو داود (٤٧٥٣) وقد ساقه الألبانى حفظه الله فى أحكام الجنائز وبدعها ص (١٥٦ : ١٥٩) ضاما إليه جميع الزوائد والفوائد التى وردت فى شىء من طرقه الثابتة فليراجع .

[الإنفطار : ١٠-١٢] ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [قٓ : ١٨]
دخل أحد أصحاب الإمام أحمد عليه وهو مريض - رحمه الله - فوجده يئن من المرض فقال له : يَا أَبا عبد الله تئن وقد قال طاووس : « إن الملك يكتب حتى أَنين المريض لأَنَّ الله يقول : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْه رَقِيب عَتِيد ﴾ [قٓ : ١٨] فجعل أبو عبد الله يتصبَّر وترك الأنين . لأن كلّ شيء يكتب : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ ﴾ من : زائدة لتوكيد العُموم أَىُّ قَوْلٍ تَقُوله يُكْتَبُ لكن قد تُجازى عليه بخيرٍ أو بشرٍّ هذا حسب القول الذى قِيل .

ومنه أيضًا : ملائكة يَتَعَاقبون على بنى آدم فى اللَّيل والنهار ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ ﴾ [الرعد : ١١] .

وهناك ملائكة رُكعٌ وسجَّد لله فى السماء قال النبى عليه الصلاة والسلام : « أطَّت السَّماء وحُق لها أن تَئِط » والأطيط : صرير الرَّحل أى شداد البعير إذا كان على البَعير حمل ثقيل تسمع له صرير من ثقل الحمل فيقول الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام : « أَطَّت السَّماء وحُقَّ لها أَن تَئط ، ما من موضع أربع أصابع منها إِلَّا وفيه مَلَكٌ قَائِمٌ لله أو رَاكِعٌ أو سَاجِدٌ »(١) وعلى سعة السماء فيها هذه الملائكة ولهذا قال الرَّسول ﷺ فى البيت المعمور الذى مرَّ به فى ليلة المعراج قال : « إِن هذا البَيْت المعمور يَطُوف به - أو قال يَدْخُله - سَبْعُون ألف ملك كلَّ يوم ثم لا يَعُودُون إليه آخر مَا عليهم »(٢) والمعنى : كلَّ يوم يأتى إليه سبعون أَلْف مَلك غير الذين أَتَوْهُ بالأَمْس

(١) **حَدِيثٌ حَسَنٌ : رواه أحمد (١٧٣/٥) والترمذى (٢٣١٢) وابن ماجة (٤١٩٠)** والحاكم (٥١٠/٢ ، ٥٤٤/٤ ، ٥٧٩) وصححه وأقره الذهبى ، وحسنه الألبانى فى الصحيحة (١٧٢٢) من حديث أبى ذر رضى الله عنه .

الأطيط : صوت الأقتاب ، وأطيط الإبل أصواتها وحنينها .

(٢) أخرجه مسلم (١٦٢) (٢٥٩) من حديث ثابت عن أنس فى قصة المعراج .

ولا يعودون له أبدًا يأتى ملائكة آخرون غير من سبق وهذا يدل على كَثْرة الملائكة ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر : ٣١] ومنهم ملائكة موكَّلون بالجنة وموكَّلون بالنَّار فخازن النار اسمه مالك . يقول أهل النار : ﴿ يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ [الزخرف : ٧٧] يعنى : ليهلكنا ويُمِتْنا فَهُم يَدْعُون الله أَن يُمِيتهم لأَنَّهم فى عذاب لا يُصْبر عليه . فيقول : ﴿ إنكم ماكثون ﴾ [الزخرف : ٧٧] ثُمَّ يُقال لهم : ﴿ لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ [الزخرف : ٧٨] المهم : أنه يجب علينا أن نُؤمن بالملائكة . كيف نؤمن بالملائكة ؟ نؤمن بأَنهم عالمٌ غيبى لا يشاهدون وقد يشاهدون إنَّما الأَصْلُ أنهم عالم غَيْبى مخلوقون من نُور مُكلَّفون بما كلَّفهم الله به من العِبَادات وهم خَاضِعون لله عزَّ وجل أتم الخضوع : ﴿ لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم : ٦] كذلك نؤمن بأَسماء من عَلِمْنا بأسمائهم ونؤمن بوظائف مَنْ عَلِمْنا بِوَظَائفهم ويجب علينا أَن نؤمن بذلك على ما عُلِّمنا .

لو قال قائل : أنا لم أَرهم ؟ فنقول : أخبرك عنهم من خَلَقَهُم وهو الله عز وجل . فإذا أُخبرك عنهم من خلقهم وهو الله وَجَبَ عَلَيْكَ أن تُؤْمن بهم . هل هم أجساد أو أرواح ؟ هم أَجساد بدليل : ﴿ جَاعِلِ الملَائِكَةِ رُسُلاً أُوْلِى أَجْنِحَةٍ ﴾ [فاطر : ١] ورأى النبى ﷺ جبريل على صُورَته التى خُلق عليها له سُتّمَائة جَناح قد سَدَّ الأُفق(١) فإذًا هم أَجْساد خِلافًا لمن قال إنهم أَرْوَاح .

---

(١) فقد روى الإمام أحمد فى مسنده (٣٩٥/١ ، ٣٩٨) عن عبدالله بن مسعود قال : رأى رسول الله ﷺ جبريل فى صورته وله ستمائة جناح ، كل جناح منها قد سدّ الأفق يسقط من جناحه التهاويل من الدر واليواقيت »

قال الحافظ ابن كثير فى البداية والنهاية (٤٧/١) : « إسناده جيد » .

* التهاويل : الأشياء المختلفة الألوان .

إذا قال قائل : هل لهم عقول ؟ نقول : هل لَكَ عَقْل ؟ ما يسأل عن هذا إلَّا رجل مجنُون ولهذا بعض الكُتَّاب المُعَاصِرين قال : إنَّ الملائكة أرواحٌ بلا أجساد وأنه لا عقول لها نعوذ بالله !! ﴿ لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم : ٦] نقول بلا عقل ويثنى عليهم هذا الثناء : ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٠] نقول : هؤلاء ليس لهم عقول . يأتمرون بأمِر الله ويفعلون ما أمر الله به ويُبَلِّغُونَ الوَحْيَ .. ونقول : ليس لهم عقول . أَحَقُّ من يُوصف بعدم العَقل من قال : إنَّه لا عقل لهم هو أحق من يوصف بعدم العقل . هؤلاء الملائكة كما أنهم أحيانًا يشاهدون فقد جاء جبريل مرَّةً إلى النبى ﷺ على صُورةِ رَجُلٍ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّياب شَدِيدُ سَواد الشَّعر قال الصَّحابة : « لا يرى عليه أَثَر السَّفر ولا يَعْرِفُه مِنَّا أَحَدٌ » فجلس إلى النبى ﷺ وأَسْنَدَ رُكْبَتَيْه إلى رُكْبَتَيْه وَوَضع كَفَّيه عَلى فِخذِيه وسأل الرسول عليه الصَّلاة والسَّلام(١) فصاروا مَوْجُودين . وأحيانًا بعض المحتضرين يُشَاهدون الملائكة الذين يأخذون الروح كما حدَّثنا بذلك كثيرٌ من النَّاس إنهم يُشَاهدون الملائكة التى حضرت لقبض أرواحهم وهذا كثير ! وعلى هذا فنقول : إن وُجود الملائكة أمرٌ واقع . ومن أنكر وجود الملائكة فهو كافر لأنه تكذيب للقرآن .

قال : « **وكُتُبِه** » الإيمان بالكتب : كُتُبه التى أَنْزَلها مع الرُّسل ولكل رسول كتاب . قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُم الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ ﴾ [الحديد : ٢٥] وهذا يدلُّ على أن كلَّ رسول معه كتاب لكن لا نعرف كلَّ الكتب بل نعرف منها : صحف إبراهيم وموسى - التوراة - الإنجيل - الزبور - القرآن ستة لأن صُحُف موسى بعضهم يقول :

---

(١) جزء من حديث جبريل المشهور فى الإسلام والإيمان والإحسان تقدم تخريجه ص (٣٥) .

هى التَّوراة وبعضهم يقول : غيرها ، فإن كانت التَّوراة فهى خمسة . وإن كانت غيرها فهى ستة ، ولكن مع ذلك نحن نُؤْمِنُ بِكُلِّ كتاب أنزله الله على الرسل وإن لم نعلم به نؤمن به إجْمَالًا .

قال : « **وَرسُله** » وهم الذين أَوْحى الله إليهم بالشَّرائع وأَمَرَهُم بتبليغها وأَوَّلهم نُوح وآخرهم محمدٌ ﷺ .

الدليل على أن أولهم نوح : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ [النساء : ١٦٣] يعنى وَحْيًا كإيحائنا إلى نوح والنَّبيين من بَعْدِه وهو وَحْىُ الرِّسالة : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ [الحديد : ٢٦] .

﴿ فى ذريتهما ﴾ والذى قبل نوح لا يكون من ذريَّتهما . وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ [الذاريات : ٤٦] قد نقول إن قوله : ﴿ مِنْ قَبْل ﴾ يدلُّ على ما سبق . إذًا من القرآن ثلاثة أدلَّة تَدُلُّ على أن نوحًا أوَّل الرُّسُل . ومن السُّنة : ما ثَبُت فى حديث الشَّفاعة : « أن أهل الموقف يقولون لِنُوح : أنت أَوَّلُ رَسُولٍ أرسله الله إلى أهل الأرض »[١] وهذا صريح . أما آدم عليه الصَّلاة والسَّلام فهو نَبِيٌّ وليس برسول . إدريس ذهب كثيرٌ من المؤرخين أو أكثرهم وبعض المفسرين أيضًا إلى أنه قبل نوح وأنه من أجداده لكن هذا قول ضعيف جدًا . والقرآن والسُّنة تَرُدُّه . والصَّواب ما ذكرنا . آخرهم محمد عليه الصَّلاة والسَّلام لقوله تعالى : ﴿ وَلَكِن رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ [الأحزاب : ٤٠] ولم يقل « وخاتم المرسلين » لأَنَّه إذا ختم النّبوة ختم الرِّسالة من باب أَوْلَى . ومن ثَم نعرف

---

(١) البخارى (٧٤٣٩) ومسلم (١٨٣) (٣٠٢) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

خطأً بعض النَّاس الذين يقولون : « محمد خاتم الرسُل » فالأفضل أن تقول « خاتم النَّبيين » وإن كان قد يَصِحُّ خاتم الرُّسل باعتبار أنه خاتم للجميع . وعلى كل حال فآخر الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ . فإن قلت : عيسى عليه الصَّلاة والسَّلام ينزل فى آخر الزَّمان(١) وهو رَسُول . فما الجواب ؟ نقول : هو لا ينزل بشريعة جديدة وإنما يحكم بشريعة النبى ﷺ . إذا قال قائل : من المتفق عليه أن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر(٢) وأنت تقول الآن أن عيسى يحكم بشريعة النبى ﷺ فيكون من أتباعه فكيف يَصِحُّ قولنا : إن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ؟ نقول : هذا من غير الرسُل ومعروف أن الرسول خير من الصَّحابى بلا شك .

قال المؤلف – رحمه الله –: « وَالبَعْث بَعْد المَوْتِ » البَعْثُ : بمعنى الإِخْرَاجُ يعنى : إِخْرَاجُ الناس من قُبورهم بعد مَوْتهم . هذا من معتقد أهل السُّنَّة والجماعة . وهذا ثَابتٌ بالكتاب والسُّنة وإجماع المسلمين بل إجماع اليهود والنصارى حيث يُقِرُّون بأن هناك يومًا يبعث الناس فيه ويجازون .

أما فى القرآن : يقول الله عز وجل : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَن لَن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ﴾ [التغابن : ٧] وقال عز وجل : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٥،١٦] .

---

(١) نزول عيسى عليه السلام ثابت بالكتاب والسنة وإجماع المسلمين .
قال تعالى : ﴿ وَإِن مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِننَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ [النساء : ١٥٩] أى موت عيسى وهذا حين نزوله كما فسره أبو هريرة بذلك .
وفى الحديث « وَاللهِ لَيَنْزِلَنَّ عِيسى بن مَرْيم حَكَمًا وَعَدلاً » الحديث رواه البخارى (٢٢٢٢) ومسلم (١٥٥) (٢٤٢) .
وقد أجمع المسلمون على نزوله . وراجع نزول عيسى عليه السلام للدكتور محمد خليل هراس فقد أجاد فى الرد على من طعن فى أحاديث نزول عيسى عليه السلام .

(٢) تقدم أنه من قول أمير المؤمنين على بن أبى طالب راجع ص (١١) .

وأما فى السنة : فثبتت الأحاديث المتواترة عن النبى ﷺ فى ذلك .

وأجمع المسلمون على هذا إجماعًا قطعيًا وأن النَّاس سيُبْعَثُون يوم القيامة ويُلاقُون ربَّهم ويُجَازَوْنَ بأعمالهم : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : ٧،٨] ﴿ يَا أَيُّها الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيه ﴾ [الإنشقاق : ٦] فَتذَكَّر هذا اللِّقاء حتى تعمل له خوفًا من أن تقف بين يدى الله عز وجل يوم القيامة وليس عندك شيء من العمل الصَّالح : ﴿ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيه ﴾ [الإنشقاق : ٦] . انظر ماذا عملت ليوم النقلة وماذا عملت ليوم اللقاء . فإن أكثر الناس اليوم ينظرون ماذا عملوا للدُّنيا مع العلم بأن هذه الدُّنيا التى عملوا لها لا يدرون هل يدركونها أم لا . قد يُخَطِّط الإنسان لِعَمَلٍ دنيوى يفعله غدًا أو بعد غد ولكنه لا يُدْرِك غدًا ولا بعد غد لكن الشَّيء المتيقن أن أكثر النَّاس فى غَفْلَة من هذا . قال الله تعالى : ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَٰذَا ﴾ [المؤمنون : ٦٣] وأعمال الدنيا يقول : ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴾ [المؤمنون : ٦٣] . أعمال الآخرة : ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ ﴾ مُنْغمِرة غافلة لكن أعمال الدنيا : ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴾ [المؤمنون : ٦٣] ليفيد الحصر : ﴿ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَٰذَا ﴾ [ق : ٢٢] يعنى يوم القيامة : ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيد ﴾ [ق : ٢٢] . هذا البعث الذى اتفقت عليه الأديان السماوية وكل متدين بدين هو أحد أركان الإيمان الستة وهو من معتقدات أهل السنة والجماعة ولا ينكره أحدٌ ممن ينتسب إلى مِلَّة أبدًا .

وقوله : « والإيمان بالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّه » هذا أيضًا الركن السَّادس « الإيمان بالقَدَر خيره وشَرِّه » القَدَرُ : هو تقدير الله عز وجل للأشْياء . وقد كتب الله مَقادير كلَّ شيء قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف

سنة[1] كما قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فى كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحج : ٧٠] . وقوله : « خَيْرِه وَشَرِّه » أما وصف القدر بالخير فالأمر فيه ظاهر . وأما وصف القدر بالشَّر فالمراد به شَرُّ المقدور لا شر القَدَر الذى هو فعل الله فإنَّ فعل الله عز وجل ليس فيه شَرٌّ كلُّ أفعاله خير وحكمة لكن الشر فى مفعولاته ومقدوراته . فالشرّ هنا باعتبار المقدور والمفعول . أما باعتبار الفعل فلا . ولهذا قال النبى عليه الصلاة والسلام : « والشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ »[2] فمثلًا نحن نجد فى المخلوقات المقدورات نجد شَرًّا فيه الحيَّات والعَقَارب والسِّباع والأمراض والفَقر والجدب وما أشبه ذلك وكلُّ هذه بالنِّسبة للإنسان شر لأنها لا تُلائمه .

وفيه أيضًا المعاصى والفجور والكفر والفسوق والقتل وغير ذلك وكلُّ هذه شَرٌّ ، لكن باعتبار نِسْبَتها إلى الله هى خير لأن الله عز وجل لم يُقَدِّرها إِلَّا لِحِكْمَةٍ بَالِغة عظيمة عَرِفَها مَنْ عرفها وَجَهِلَهَا مَنْ جَهلها وَعَلَى هذا يجب أن نعرف أن الشَّر الذى وُصِفَ به المقدر إنما هو باعتبار المقدورات والمفعولات لا باعتبار التَّقدير الَّذى هو تقدير الله .

ثم اعلم أيضًا أنَّ هذا المفعول الذى هو شَرٌّ قد يكون شَرًّا فى نفسه لكنَّه خير من جهة أخرى . قال الله تعالى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاس لِيُذيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم : ٤١] النتيجة طيبة وعلى هذا فيكون الشَّر فى هذا المقدور شرًا إضافيًا يعنى لا شرًّا حقيقيًا لأن هذا ستكون نتيجته خيرًا . ولنفرض حدّ الزَّانى مثلًا

---

(١) كما فى حديث عبدالله بن عمرو بن العاص مرفوعًا : « كتب الله مَقَادِيرَ الخَلَائِقِ قَبْل أَنْ يَخْلُق السَّمٰوات والأَرْض بِخَمْسِين أَلْف سَنَة ... » رواه مسلم (٢٦٥٣) (١٦) .

(٢) جزء من حديث على بن أبى طالب عن النبى ﷺ فى دعاء استفتاح الصلاة رواه مسلم (٧٧١) (٢٠١) .

إذا كان غير مُحْصَن أن يجلد مائة جلدة ويُسَفَّر عن البلد لمدة عام .. هذا لا شك أنه شرٌّ بالنسبة إليه . لكن هو خير حتى بالنِّسبة إليه هو خير لأنه يكون كفارة له ، فهذا خير ؛ لأن عقوبة الدُّنيا أهون من عقوبة الآخرة فهو خيرٌ له .

ثانيًا : رَدْعٌ لِغيره ونَكَالٌ لغيره فإن غيره لو همَّ أن يَزْنى وهو يَعْلَمُ أَنَّهُ سَيُفْعَلُ به مثل مَا فُعِلَ بهذا لارْتَدعَ بل قد يكون خيرًا له هو أيضًا باعتبار أنه لن يَعُود إلى مثل هذا العمل الذى سبَّب له هذا الشَّىء .

أمَّا بالنسبة للأمور الكونية القدرية فهناك شىء يكون شرًّا باعتباره مَقْدورًا كالمرض مثلًا : الإنسان إذا مرض لا شك أن المرض شرّ بالنِّسبة له لكن فيه خيرٌ له فى الواقع وخيره تَكْفِيرُ الذُّنوب قد يكون الإنسان عليه ذُنوب مَا كَفَّرها الاستغفار والتَّوبة لوجود مانعٌ مثلًا لعدم صدق نِيَّته مع الله عزَّ وجلَّ فتأتى هذه الأمراض والعقوبات فتكفر هذه الذُّنوب .

ثالثًا : فيه خيرٌ فى نفسه أيضًا بقطع النَّظَر عمَّا يكفر من الذُّنوب فإن الإنسان لا يعرف قدر نعمة الله عليه بالصِّحة إلَّا إذا مَرِض . نحن الآن أصحَّاء ولا ندرى ما قدر الصِّحَّة لكن إذا حصل المرض عرفنا قَدْر الصِّحة . فالصِّحة تَاجٌ على رؤوس الأصِحَّاء لا يعرفها إلا المرضى .. هذا أيضًا خير تعرف قدر النِّعمة .

رابعًا : قد يكون فى هذا المرض أشياء تقتل جراثيم فى البدن لا يقتلها إلا المرض يقول الأطباء : بعض الأمراض المعينة تقتل هذه الجراثيم التى فى الجسد وأنت لا تدرى .

فالحاصل أننا نقول :

أولًا : الشَّر الَّذى وُصِفَ به القَدَرُ هَل هو بالنِّسبة لتقدير الله أو بالنِّسبة لمقدوره ؟ لمقدوره ! أمَّا تقدير الله فكلُّه خير والدَّليل قول النبى ﷺ : « والشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ »(١) .

ثانيًا : هل الشَّر الذى فى المقدور شرٌّ مَحْضٌ أو لا ؟ لا ليس شَرًّا محضًا بل هذا الشَّر قد ينتج عليه أمور هى خير فتكون الشرية بالنسبة إليه أمرًا إضافيًا . هذا وسيتكلم المؤلف - رحمه الله - على القدر بكلام مبسوط يبين درجاته عند أهل السنة .

٢ - « ومن الإيمان بالله ، الإيمانُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسُه فِى كِتَابِهِ ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُه » .

الشـــرح

هذا من الإيمان بالله . وقوله : « ومن الإيمان » من : هنا للتَّبعيض ، لأنَّنا ذكرنا أنَّ الإيمان بالله يتضمَّن أربعة أمور : الإيمان بوُجُوده - وانفراده بالرُّبوبيّة وبالألوهية - وبالأسماء والصِّفات . إذًا : مِنْ : فى كلام المؤلف للتَّبعيض . يعنى : بعض الإيمان بالله : الإيمان بما وَصَفَ به نَفْسه . وقوله : « بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسُه فِى كِتَابِهِ » ينبغى أن يقال : « وَسَمَّى به نَفْسُه » بما وَصف وسمَّى به نفسه لكن المؤلف - رحمه الله - ذكر الصِّفة فقط . إما لأنه ما من إسم إلا ويتضمَّن صِفة أو لأنَّ الخلاف فى الأسماء خلافٌ ضَعيف لم ينكره إلَّا غُلَاة الجَهْمِيَّة والمعتزلة فالمعتزلة يُثْبِتُون الأسماء والأشاعرة والماتريدية يُثْبِتُون الأسماء . لكن يُخَالِفُون أهل السُّنَّة فى أَكْثَرِ الصِّفات فنحن الآن نقول : لماذا اقْتَصَرَ المؤلف على « مَا وَصف الله به نَفْسُه » ؟ نقول :

---

(١) **حَدِيثٌ صَحِيحٌ** : تقدم تخريجه ص (٤٧) .

لأَحَد أَمْرين . إمَّا لأَنَّ كل اسم يتضمَّن صِفة ، وإمَّا لأن الخِلاف فى الأَسْماء قَليل بالنِّسبة للمُنْتَسِبين للإِسلام .

● **وقوله : « بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسُه فِي كتابه »** كتابه : يعنى القرآن ، وَسمَّاه الله تعالى كتابًا لأَنَّه مكتوب فى اللَّوح المحْفُوظ ، ومكتوبٌ فى الصُّحُف التى بأَيْدِى السَّفَرة الكِرَامِ البَرَرة ، ومَكْتُوبٌ كذلك بين النَّاس يكْتُبُونه فى المَصَاحف ، فهو كتاب بمعنى مكتوب ، وأَضَافه الله إليه لأَنَّه كلامه سبحانه وتعالى فهذا القرآن كلام الله تَكَلَّم به حقيقةً ، فَكُلُّ حَرْفٍ منه ، فإنَّ الله قد تكلَّم به .

● **وقوله : « مِن الإِيمَانِ بِالله : الإِيمَانُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسُه »** – وَوَجْهُ ذَلك : أن الإيمان بالله كما سبق يتضمَّن الإيمان بأَسْمَائِهِ وَصِفَاته .

ثانيًا : أنَّ الأسماء والصِّفات هى من ذَاتِ الله عزَّ وجلَّ فإنَّ ذَاتِ الله تُسمَّىٰ بأَسْماء وتُوصَفُ بأَوْصَاف ، ووجود ذات مجرّدة عن الأَوْصَاف أمرٌ مُسْتَحيل ، فلا يمكن أن تُوجد ذات مجرَّدة عن الأَوْصاف أبدًا وليس بممكن ، وقد يَفْرض الذِّهن أَنَّ هناك ذاتًا مجرَّدة مِن الصِّفات فى ذِهْنِك لكن الفَرض ليس كالأَمر الشَّاهد فى الخارج أى أن المَفْرُوض ليس كالمَعْهُود فلا يوجد فى الخارج أى فى الواقع المُشَاهد ذَاتٌ ليس بها صِفَاتٌ أبدًا . أَمَّا ما يفرضه الذِّهن فهذا أَمرٌ ليس بعبرة . الذِّهن قد يفرض مثلًا شَيْئًا له ألف عين فى كل أَلف عين أَلف سواد وأَلف بياض وله أَلْف رِجْل فى كل رِجل ألف أُصْبع فى كل أُصبع ألف ظَفُر وله ملايين الشعر فى كل شعرة ملايين الشّعر . وهكذا يفرضه وإن لم يَكُن له واقع لكن الشَّىء الواقع لا يمكن أَن يُوجد شىء بدون صِفَة ، لهذا كان الإيمان بِصِفَات الله من الإيمان بالله . لو لم يكن من صفات الله إِلَّا أَنَّه موجود وَاجِبُ الوجود . وهذا باتِّفاق الناس وعلى هذا فلابد أن يكون له صِفة .

ثم اعلم أنَّ صفات الله عز وجل من الأُمور الغَيْبِيَّة والواجب على الإنسان نحو الأمور الغَيْبِيَّة أن يُؤْمن بها على ما جاءت دون أن يَرْجِع إلى شيء سوى النُّصوص . قال الإمام أحمد : « لَا يُوصَفُ الله إِلَّا بِما وَصَفَ بِهِ نَفْسُه ، أَوْ وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُه لا يُتَجَاوزُ القُرآن والحَدِيث »(١) . يعنى أننا لا نصف الله إلا بما وصف به نفسه . ويدلُّ لذلك القرآن والعقل :

● **ففى القرآن** : يقول الله عز وجل : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْىَ بِغَيْرِ الحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُواْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُواْ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٣] فإذا وَصَفْتَ الله بِصِفَةٍ لم يَصِف الله بها نفسه فقد قُلْت عليه مَا لا تَعْلَم وهذا محَرَّمٌ بنصِّ القرآن دليلٌ آخر : يقول الله عز وجل : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مسْئُولاً ﴾ [الإسراء : ٣٦] إذًا : لو وصفنا الله بما لم يَصِف به نفسه لكُنَّا قَفَوْنَا مَا لَيْسَ لَنَا به علم ، فَوَقَعْنَا فيما نَهَىٰ الله عنه .

● **أما الدَّليل العَقلى** : فلأن صِفَات الله عزَّ وجلَّ من الأُمور الغَيْبِيَّة ، ولا يمكن فى الأُمور الغيبية أن يُدركها العَقل . نحن الآن لا نُدرك مَا وَصَف الله به نَعيم الجنة مع أَنَّه مخلوق فى الجنة فاكهة ونخل وَرُمَّان وَسُرُر وَأَكْوَاب وحُور ، فنحن لا نُدرك حقيقة هذه الأَشياء . لو قال صِفْها لنا لا نستطيع وَصْفَها لقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِىَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة : ١٧] . ولقوله تعالى فى الحديث القدسى : « أَعْدَدْتُ لِعِبَادِى الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى

---

(١) راجع : الصَّواعق المنزلة لابن القيم (١/٢٦٥) ، ومختصر الصَّواعق المُرْسلة لابن الموصلى (٢/٢٥١) ، ومَنَاقب الإمام أحمد لابن الجوزى ص (١٥٦) ، وترجمة الإمام أحمد من تاريخ الإسلام للذَّهبى ص (٢٧) ، وشرح لمعة الاعتقاد لابن عثيمين ص (٣٥) بتحقيقنا .

قَلْبِ بَشَرٍ »[١] إذا كان هذا فى المخلوق الذى وُصِفَ بِصِفَاتٍ لا نعلم حقيقتها فكيف بالخالق ؟

مثلٌ آخر : الإنسان فيه روح لا يحيى إلا بها لولا أن الروح فى بدنك مَا حَيِيت ، لا تستطيع أن تَصِفَ الرّوح . لو قيل لك : مَا هذه الرّوح التى بك مَا هِى التى لو نُزِعَتْ مِنْكَ صرت جُثَّة ، وإذا بَقِيَتْ فأنت إنسانٌ تَعْقِل وتَفْهَم وتُدْرِك ؟ فيجلس ينظر بدنه ويفكر فلا يستطيع أن يصفها أبدًا مع أنها قريبة منه فى نفسه وبين جنبيه ويعجز عن إدراكها مع أنَّها حقيقة يعنى شىءٌ يُرى كما أخبر النبى عليه الصلاة والسلام بـ : « أن الرّوح إِذَا قُبِضَ تَبِعَهُ البَصَرُ »[٢] فالإنسان يرى نَفْسه وهى مقبوضة ولهذا تبقى العين مفتوحة عند الموت تشاهد الروح وهى قد خرجت ، وتؤخذ هذه الروح وتجعل فى كفن تجعل فيها حنوط ويصعد بها إلى الله[٣]، ومع ذلك ما تستطيع أن تَصِفْها ، وهى بين جنبيك فكيف تحاول أن تَصِفَ ربك بأمرٍ لم يَصِفْ به نفسه !

الخلاصة الآن : استفدنا من هذه الجملة « **بما وَصَفَ به نفسه** » أمرين :

الأمر الأول : ثُبوت الصِّفات لله ، دليل ذلك من السَّمع والعقل :

- أما السمع : فنُصُوص الصِّفات لا تُدْرك كَثْرة أو لا تُحصى كثرة .
- وأمَّا عقلًا : فلأنَّه ما من موجود فى الخارج إلَّا وله صِفَة ولابد إذًا :

---

(١) البخارى (٣٢٤٤) ، ومسلم (٢٨٢٤) (٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) جزء من حديث رواه مسلم (٩٢٠) (٧) من حديث أم سلمة رضى الله عنها .

(٣) كما فى حديث البراء بن عازب المشهور فى أحوال الموتى فى قبورهم وعند قبض أرواحهم . تقدم تخريجه ص (٤٠) .

تحقق ثبوت الصِّفات لله .

الأمر الثَّانى : إننا لا نصف الله تعالى بما لم يَصِف به نَفْسه . ودليل ذلك أيضًا من السَّمع والعقل .

● ذكرنا من السَّمع آيتين ، وأمَّا من العقل فقُلْنا إن هذا أمر غَيْبِىّ لا يمكن إدْرَاكُه بالعقل وضَربنا لذلك مَثَلَيْنِ .

تتضمن هذه الجملة أيضًا : وُجُوب إجْراء النُّصوص الوَارِدة فى كتاب الله وكذلك السُّنة على ظاهرها لا نتعدَّاها .

مثلًا : لما وصف الله نفسه بأن له عَيْنًا . هل نقول المراد بالعين الرؤية لا حقيقة العين ؟ لو قلنا ذلك ما وصفنا الله بما وصف به نفسه .

● وَصَفَ الله نفسَهُ بأنَّ له يَدَيْن : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسوطَتَانِ ﴾ [المائدة: ٦٤] لو قلنا : إن الله تعالىٰ لَيْسَ لَه يدٌ حقيقية بل المراد باليد مَا يُسْبِغُه من النِّعم على عباده . فهل وَصفْنَا الله بما وَصَفَ به نَفْسُه ؟ لا !

المبحث الرابع : عُموم كلام المُؤَلِّف يشمل كل ما وَصَفَ الله به نفسه من الصِّفات اللَّازمة ، والطَّارِئة ، والصِّفات المعْنَوية ، والصِّفات الخبرية .

(أ) **الصِّفات اللَّازمة** : التى لم يَزَلْ ولا يَزال مُتَّصِفًا بها مِثل : الحياة والعِلْم والقُدْرة والحِكْمة وَمَا أَشْبه ذلك ، وهذا على سَبيل التَّمثيل لا الحصر . فالله لم يَزَلْ حَيّاً ولا يزال حيّاً ، لم يزل عالمًا ولا يزال عالمًا ، لم يَزَلْ قَادِرًا ولا يَزَالُ قَادِرًا ، وهكذا ... يعنى مَا فِيه حياة تتجدد لله ما فيه قُدْرَة تتجدَّد ، ولا فيه سَمْع يتجدّد ، بل هو مَوْصُوف بهذا أَزَلاً وَأَبَدًا وَتجدُّد المَسْمُوع لا يَسْتَلْزِم تجدُّد السَّمع . فأنا مثلاً : عندما أَسْمَعُ الأَذَان الآن فهذا لَيْسَ معناه أنَّه حدث لى سَمْعٌ جديد عند سماع الأَذَان بل هو مُنْذُ خَلَقَهُ الله فِىَّ لكن

المَسْمُوع يتجدَّد وهذا لا أَثَرَ لَهُ فى الصِّفة . والصِّفات اللازمة : اصطلح العُلماء رحمهم الله على أن يُسَمُّوها « الصِّفات الذَّاتية » قالوا : لأَنَّها مُلازمة لِلذَّات لا تَنْفَكُّ عنها .

(ب) **الصِّفـات الطَّارئة** : هى الصِّفات التى لها أسباب مَقْرونة بها مثل : الرضى – رضَىٰ الله عز وجل – هذا صفة طارئة وذلك إِذا وجد سبب الرِّضىٰ رَضِيَ كما قال تعالى : ﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لعبَادِهِ الكُفْرَ وإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر : ٧] .

المحبة : من الصِّفات الطارئة .

الكَلَامُ : طارىءٌ باعتبار آحَادُه لكن باعتبار أصله لَازِم ؛ لأَنَّ الله لم يَزَلْ وَلَا يَزَالُ مُتَكلِّمًا لكنَّه يتكلَّمُ بِمَا شَاء متى شاء كما سيأتى فى بحث الكَلام إِنْ شَاء الله تعالىٰ اصطلح العلماء رحمهم الله أن يسمُّوا هذه الصفات « الصفات الفعلية » وهى الصفات الطارئة مثل : الرِّضىٰ ، والمحبَّة والكَراهة ، والبُغْضُ ، والاسْتُواء على العَرْش ، والنُّزول إلى السَّمَاء الدُّنيا ، والإِتيان للفَصل يوم القِيَامة ... وما أَشْبَه ذلك هذه تُسَمَّىٰ صِفَاتٌ فِعْلِية ، لأَنها من فعله سبحانه وتعالىٰ ولها أدلَّة كثيرة من القرآن مثل : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر : ٢٢] ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الملائِكَةُ أَوْ يَأْتِي رَبُّكَ ﴾ [الأنعام : ١٥٨] ﴿ رَضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ [المائدة : ١١٩] ﴿ وَلَٰكن كَرِهَ الله انبعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ ﴾ [التوبة : ٤٦] ﴿ أَن سَخِطَ الله عَلَيْهِمْ وَفِى الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ [المائدة : ٨٠] هذه تسمىٰ الصفات الفعلية لأَنها تتجدَّد وتحدث بحسب مقتضياتها . هل فى هذا نقص لله عز وجل ؟ أبدًا هذا من كماله أن يكون فاعلاً لما يُريد . وأولئك القوم المحرِّفون يقولون : هذا من النقص ، ولهذا ينكرون جميع الصِّفات الفِعْلية ، يقولون لا يجىء ولا يَرْضَىٰ

ولا يَسْخط ولا يكره ولا يحب ، ينكرون كلَّ هذه ويحرفون معناها .

(جـ) **الصِّفات الخبرية** : هي التي تُثْبَت عن طَرِيق الخَبَر وكل مَا ثَبَتَ من صِفَات الله فهو عن طريق الخَبَر لكن هذه مسمَّاها بالنِّسبة لنا « أجْزَاءٌ وَأَبْعَاض » اليد صِفَةٌ خبرية لثُبُوتِها عن طريق الخبر دون الفِعْل لكن مُسَمَّاها لنا أجزاءٌ وأبعاض فهل نقول أنها جزءٌ من الله أو بعض من الله ؟! لا !! أهل السُّنة يَتَحَاشُون هَذَا يقولون : لا يَجُوز أن نَصِف الله بأن له بَعْضَاً أو جُزءً لأن هذا مَا جَاء فى القُرآن . نَقُول بأَنَّ له يَدًا يَقْبِضُ بها وَيَبْسُطُهَا ، وإنَّ لَه قَدَمًا يَضَعُه عَلَىٰ جهنَّم وتقول : قط ! قط !(١) وَبِأَنَّ لَهُ عَيْنًا يُبْصِرُ بها . هذه تُسَمَّى عندهم « الصِّفات الخَبَرية » وضابطها : هى التى مسمَّاها أبعاضٌ وأجزاء بالنِّسبة إلينا .

(د) **الصِّفات المعنوية** : تدخل فى الصِّفات الذَّاتية وفى الصِّفات الفِعْلية فمثلاً : الرِّضَىٰ مَعْنَوى والسَّمع مَعْنَوى لكن اليد ليست صفة معنوية بل هى صفة خبرية مسمَّاها بالنسبة لنا « أبعاضٌ وأجزاء » .

---

(١) البخارى (٤٨٤٨) ، ومسلم (٢٨٤٨) (٣٨) من حديث أنس رضى الله عنه .

● وقد بلغ من تأويلهم الباطل لهذا الحديث أن منهم من قال : إن المراد بالقدم فى الحديث : قدم النبى ﷺ !! فهل هذا من تعظيم النبى ﷺ أن توضع قدمه فى النار أم ماذا يعنون ؟! مع أن الله تعالى يقول عن المؤمنين المتقين : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ﴾ [الأنبياء : ١٠٢] أى النار . وغير ذلك من التأويلات الباطلة التى ذكروها فى الكلام على هذه الصفة وقد ذكر الحافظ ابن حجر فى فتح البارى (٥٩٦/٨) طرفًا من هذه التأويلات الغريبة ثم قال : « وطريقة السلف فى هذا وغيره مشهورة : هو أن تمر كما جاءت ولا يتعرض لتأويله بل نعتقد استحالة ما يوهم النقص على الله » ا . هـ .

ومعنى : « تمر كما جاءت » : إبقاء دلالتها على ما جاءت به من المعانى اللائقة بالله تعالى ولو كانوا لا يعتقدون لها معنى لقالوا : « أمروا لفظها ولا تتعرضوا لمعناها » كما نبه على ذلك الشيخ ابن عثيمين مرارًا .

المَبْحَثُ الخامس : على قوله : « **مَا وَصَفَ بِهِ نفْسه فِى كِتَابِهِ** » :

إنَّ العقل لا مَدْخَلَ له فى باب الأَسْماء والصِّفات ؛ لأَنَّ مدار إثبات الأَسْمَاء والصِّفات أَو نَفْيها على السَّمع ، فَعُقُولنا لا تَحْكُم على الله أبدًا ، فالمدار إذًا على السَّمع ، خلافًا للأَشْعَريَّة ، والمعتزلة ، والجهميَّة ، وغيرهم من أهل التَّعطيل الذين جَعَلُوا المدار فى إثبات الصِّفات أَو نَفْيها على العَقْل فقالوا : مَا اقْتَضَىٰ العقل إِثْبَاتُه أَثْبَتْنَاهُ ، سواءً أَثْبَتَه الله لِنَفْسِهِ أَم لا ، وما اقتضىٰ نَفْيُه نَفيْنَاهُ وإِن أثبته الله ، ومَا لا يَقْتَضِى العَقْلُ إِثْبَاته ولا نَفْيُه فَأَكْثَرُهم نَفَاهُ ، وقال: إنَّ دِلالة العَقْل إيجابِيَّة فإنْ أَوْجَب الصِّفَة أَثْبَتْنَاها وَإِن لم يُوجبها نَفيْنَاها ومنهم من توقَّف فيه فلا يُثْبِتْها لأن العقل لا يُثبتها لكن لا يُنكرها، لأن العقل لا ينفيها ويقول: نَتَوقَّف ! لأَن دِلالة العَقْل عند هذا سَلْبية. إذا لم يوجب نتوقف ولم ينف فصار هؤلاء يحكِّمون العقل فيما يجب أَوْ يَمْتَنع على الله عز وجل فيتفرَّع على هذا : مَا اقْتَضَىٰ العقل وَصْفُ الله بِهِ وُصِفَ الله بِهِ وإِن لم يَكُنْ فى الكِتَابِ والسُّنة ومَا اقتضىٰ العقل نفيه عن الله نفوه وإن كان فى الكتاب والسُّنة ولهذا يقولون : الله ليس لَهُ عَيْنٌ ولا وَجْه ، وَلَا لَهُ يد ولا اسْتَوىٰ على العَرْش ولا ينزل إلى السَّماء الدُّنيا لكنهم يُحرِّفُون ويُسمُّون تحريفهم « تأويلًا » ولو أنكروا إنكار جحد كَفَرُوا لأَنَّهم كَذَّبوا لكنهم يُنكِرُونَ إنكَارَ مَا يُسمُّونه « تأويلًا » وهو عندنا « تحريف » إذًا : العقل لا مَجَال له فى باب أسماء الله وَصِفَاتِه . فإن قُلْتَ : قَوْلُك هذا يُنَاقِضُ القرآن لأَنَّ الله يقول : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا ﴾ [المائدة : ٥٠] والتَّفضيلُ بَين شىء وآخر مَرْجِعُه إلى العقل . وقال عزَّ وجل : ﴿ وَلِلهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ ﴾ [النحل : ٦٠] وقال : ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُق كَمَنْ لَا يَخْلُق أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ١٧] وأَشْبَاهُ ذلك مما يحيل الله به على العقل فيما يُثْبته لنفسه وما يَنْفيه عن الآلهة المُدَّعَاة ؟ فالجواب : أن نقول إن العقل يُدْرِكُ ما يجب لله سبحانه وتعالى

وَيَمْتَنع عليه على سَبِيلِ الإجْمَال ، لا عَلَىٰ سبيل التَّفْصيل . فمثلًا : العقلُ يُدْرِكُ بأنَّ الرَّب لابد أن يكون كامل الصِّفات . لكن هذا لا يعنى أن العقل يُثْبِتُ كل صِفَةٍ بِعَيْنِها . لكن يُثْبِتُ على سَبِيلِ العُموم أن الرَّب لابد أن يكون كامل الصِّفات . فمثلًا : يدرك بأنَّه لابد أن يكون الرَّب سميعًا بصيرًا قال إبراهيم لأبيه : ﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُد مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ ﴾ [مريم : ٤٢] ولابد أن يكون خالقًا لأن الله قال : ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ﴾ [النحل : ١٧] ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا ﴾ [النحل : ٢٠] يُدْرِكُ هذا ! يُدرِكُ بأنَّ الله سبحانه وتعالى يمتنع أن يكون حَادِثًا بعد العدم لأنه نَقص ولقوله تعالى مُحْتجّاً على هؤلاء الذين يَعبدون الأصنام : ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [النحل : ٢٠] إذًا يمتنع أن يكون الخالق حادِثًا بالعقل . العقل أيضًا يُدْرك بأنَّ كُلَّ صِفة نقص فهى مُمْتَنِعة على الله ، لأن الرَّب لابد أن يكون كامِلًا . فَيُدْرِكُ بأنَّ الله عز وجل مَسْلوبٌ عنه العَجز لأنه صِفَةُ نَقْص إذا كان الرَّبُّ عاجزًا وعُصِيَ وَأَرَادَ أن يُعَاقِب الذى عَصَاهُ وهو عاجز فلا يمكن إذًا : العَقْلُ يُدْرِكُ بأنَّ العَجْزَ لا يمكِنُ أن يُوصَفَ الله بِهِ . العَمى كَذَلِكَ . والصَّمم كذلك والجهلُ كذلك ... وهكذا ... على سبيل العموم نُدْرِكُ ذلك لكن على سبيل التَّفصيل .. لا يمكن أن ندركه فنتوقَّف فيه على السمع .

سؤال : هَل كُلّ مَا هُو كَمَالٌ فِينَا يَكونُ كمالًا فِى حقِّ الله وهل كلّ ما هو نَقْصٌ فينا يكون نَقْصًا فى حق الله ؟

الجواب : لا ؛ لأن المِقْيَاسُ فى الكَمَال والنَّقص ليس باعتبار ما يُضَافُ للإنسان لظُهور الفرق بين الخالق والمخلوق لكن باعتبار الصِّفة من حَيْثُ هِى صِفة ، فكُلُّ صِفة كَمَالٍ فهى ثَابتةٌ لله سبحانه وتعالى . فالأكل والشُّرب بالنِّسبة للخالق نَقْصٌ لأن سَبَبَهما الحَاجة والله تعالى غَنِّى عما سواه لكن هما

بالنِّسبة للمخلوق كَمَالٌ . ولهذا إذا كان الإنسان لا يأكُل يقولون هو اليوم مريض أو متغيِّر هذا نقص لكن بالنسبة للخالق كمال .

النَّوم : بالنِّسبة للخالق نَقْصٌ وللمخلوق كمال فظهر الفَرْق . التَّكبُّر : كمال للخالق ونقصٌ للمخلوق ؛ لأنه لا يتم الجلال والعظمة إلَّا بالتَّكَبُّر حتى تكون السَّيطرة كاملة ، ولا أَحد يُنَازِعُه .. ولهذا توعد الله تعالى من يُنَازِعُه الكِبْرياء والعَظمة قال : « مَنْ نَازَعَنِى وَاحِدًا مِنْهُما عَذَّبْتُه »(١) – فالمهم :– أَنَّه ليس كُلُّ كَمَالٍ فى المخلوق يكون كَمَالًا فى الخالق ولا كُلُّ نَقْصٍ فى المخلوق يكون نَقْصًا فى الخَالق .

هذه خَمْس مَبَاحِث فى قوله : « **ما وصف به نفسه** » وكلّها مباحث هامَّة وقدَّمناها بين يدى العقيدة لأنَّه سَيَنْبَنِى عليها مَا يأتى إن شَاءَ الله تعالى .

● يقول : « **وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُه** » وَوَصْفُ رَسُولِ الله ﷺ لربِّه ينقسم إلى ثلاثة أَقْسَام : إمَّا قول ، أو فعل ، أو إقرار .

(أ) **أما القول** : فَكَثِيرٌ مثل : « رَبَّنَا الله الَّذِى فِى السَّمَاءِ . تَقَدَّس اسْمُكَ . أَمْرُكَ فِى السَّمَاءِ وَالأَرْض »(٢) .

---

(١) رواه مسلم (٢٦٢٠) (١٣٦) من حديث أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة رضى الله عنهما .

(٢) **حَدِيثٌ ضَعِيفٌ** : وله إسنادان : الأول : من طريق زيادة بن محمد عن محمد بن كعب القرظى عن فضالة بن عبيد عن أبى الدرداء . أخرجه أبو داود (٣٨٩٢) ، والنسائى فى عمل اليوم والليلة (١٠٣٧) ، والحاكم (٣٤٤/١) ، والبيهقى فى الأسماء والصفات ص (٤٢٣) ، والدارمى فى الرد على الجهمية (٧٠) ، وابن قدامة فى العلو (١٨) وإسناده ضعيف جدًا ، فزياد بن محمد الأنصارى متروك كما فى : التقريب ، وذكر الحافظ الذهبى فى الميزان (٩٨/٢) أنه انفرد بهذا الحديث ، وعقَّب على تصحيح الحاكم لهذا الحديث بقوله : « زيادة قال فيه البخارى وغيره : منكر الحديث » وفى العلو ص (٢٧) : « زيادة لين الحديث » .

(ب) **وَأَمَّا وَصْفُ الرَّسُول رَبَّه بِالفِعْل** : فهو أقلَّ مثل : إشَارَتِهِ إلى السَّمَاء يَسْتَشْهِدُ الله عَلَى إقْرارِ أُمَّتهُ بِالبَلاغ وَهَذا فى حَجَّة الوَدَاع فى عَرَفة ، خطب الناس وقال : « ألا هل بَلَّغْتُ ؟ قالوا : نعم ! ثلاث مَرَّات . قَال : « اللَّهُمَّ اشْهد » يَرْفَعُ اصْبَعه إلى السَّماءِ وَينكتُها إلى النَّاس(١) . رفع اصبعه إلى السَّماء هذا وصفٌ لله تعالى بالعُلو عن طريق الفِعل .

– وجاءَهُ رَجُلٌ وهو يخطب النَّاس يوم الجمعة قال يا رسول الله : « هَلَكَتِ الأَمْوَالُ فَرَفَع يَدَيْهِ »(٢) وهذا أيضًا وَصْفٌ لله بالعُلو عن طريق الفِعْل وغير ذلك من الأحاديث التى فيها فِعْل النَّبى عليه الصَّلاة والسَّلام إذا ذكر صِفة من صِفَات الله .

– أحيانًا يذكر الرسول عليه الصَّلاة والسَّلام الصِّفة من صفات الله بالقول ويؤكدها بالفعل حينما أشَار إلى عَيْنِه وَأُذُنِه لما تلا قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [النساء : ٥٨] هذا إثبات للسَّمع والبصر بالقول والفعل وحينئذ نقول : إن إثبات الرسول عليه الصلاة والسلام للصِّفات يكون بالقول ويكون بالفعل .

(جـ) **ويكون بالإقرار** : وهو أيضًا قليل بالنِّسبة لما قبله مثل : إقْرارِهِ

= الثانى : رواه أحمد (٦/٢٠،٢١) من طريق أبى بكر بن أبى مريم عن الأشياخ عن فضالة ابن عبيد الأنصارى قال : علمنى رسول الله ﷺ رقية وأمرنى أن أرقى بها ... فذكره . وإسناده ضعيف ففيه جهالة وضعف : أما الجهالة ففى قوله : عن الأشياخ ، وأما الضعف فأبو بكر بن أبى مريم ضعيف مختلط .

(١) رواه مسلم (١٢١٨) (١٤) من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنهما .

(٢) رواه البخارى (١٠١٤) ، ومسلم (٨٩٧) (٨) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

الجارية التى سألها أين الله ؟ قالت فى السَّماء فأقرَّها وقال اعتقها(١) وكإقراره الحَبْر من اليهود الَّذى جاء وقال للرسول عليه الصَّلاة والسَّلام إنَّنا نجد أَنَّ الله يجعل السَّماوات على إصبع والأرضين على إصبع والثَّرى على إصبع ... إلى آخر الحديث »(٢) فضحك النَّبى ﷺ تصديقًا لقوله وهذا إقرار.

إذًا : مَا وَصَف الرَّسول بِه رَبَّه طُرُقُه ثَلاثة : القول ، والفعل ، والإقرار .

إذا قال قائل : مَا وَجْهُ وُجُوب الإيمان بما وَصَفَ الرسول به ربَّه أو مَا دَلِيلُه ؟ نقول : دَلِيلُه قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِالله وَرُسُلِهِ وَالكِتَابِ الَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالكِتَابِ الَّذِى أَنزَلَ من قَبْلُ ﴾ [النساء : ١٣٦] وكل آية فيها ذِكْرُ أن الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام مُبَلِّغ فهى دَالَّة على وُجُوب قَبُول ما أَخْبَر بِهِ من صِفَاتِ الله لأَنه أَخْبر بها وبلَّغها إلى النَّاس فكلُّ ما أَخبر به فهو تبليغ من الله ولأنَّ الرَّسول عليه الصلاة والسلام أَعْلَم النَّاس بالله . وأَنْصَح النَّاس لعباد الله وأَصْدَقُ النَّاس فِيما قال وأَفصح النَّاس فى التعبير فاجتمع فى حقِّه من صفات القبول أربع : العلم والنُّصح والصِّدق والبيان فإِذاً : يجب علينا أن نقبل كلّ ما أخبر به عن ربّه وهو والله أفصح وأنصح وأعلم من أُولئك القوم الَّذين تبعهم هؤلاء من المناطقة والفلاسفة ، ومع هذا يقول : « سُبْحَانَكَ لَا أُحْصِى ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنيتَ عَلَىٰ نَفْسِكَ »(٣) .

* * *

---

(١) رواه مسلم (٥٣٧) (٣٣) من حديث معاوية بن الحكم السُّلمى رضى الله عنه .

(٢) البخارى (٤٨١١) ، ومسلم (٢٧٨٦) (١٩) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

(٣) رواه مسلم (٤٨٦) (٢٢٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

● قال الإمام النووى فى شرح مسلم (٢٠٤/٤) : « اعتراف بالعجز عن تفصيل الثناء وأنه=

موقف أهل السنة والجماعة من الإيمان بصفات الله

٣ - مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلا تَمْثِيلٍ(*) .

الشـــــرح

أهل السُّنَّة والجماعة يُؤْمنون بذلك إيمانًا خاليًا من هذه الأُمور الأَربعة :- التَّحريف والتَّعطيل والتَّكييف والتَّمثيل .

قوله : « **من غير تحريف** » **التحريف** : إمَّا لفظى وإمَّا مَعْنوى فهم لا يُحرِّفون فى اللَّفظ . والغالب أن التَّحريف اللَّفظى لا يقع . وإذا وقع فإنما يقع من جاهل . التحريف اللَّفظى يعنى تَغْيير الشَّكل مثلًا : ما تجد أحدًا يقول : ﴿ الحمدَ لله رب العالمين ﴾ إلا إذا كان جاهلًا .. هذا الغالب ! لكن التَّحريف المعنوى هذا هو الَّذى وقع فيه كَثِيرٌ من النَّاس فأَهل السُّنَّة والجماعة إيمانُهم بما وَصَفَ الله به نَفْسه خَالٍ من التَّحريف يعنى تغيير اللفظ والمعنى ، وتغيير المعْنى : يُسَمِّيه القَائِلون به تَأْوِيلًا وَيُسمُّون أَنْفُسهم بأَهل التَّأويل لأجل أن يَصْبِغُوا هذا الكلام صِبْغة القَبُول ؛ لأَنَّ التَّأْويل لا تنفر منه النُّفوس ولا تَكْرَهُهُ لكن هو فى الحقيقة تحريف إلَّا أَنَّهم لا يستطيعون أن يقولوا تحريفًا ، لو قالوا تحريفًا لأَعْلَنُوا على أنفسهم بِرَفْض كلامهم ، لكن يقولون « أهل التأويل » فيصبغونه بِصِبغة القَبول ، وهو فى الحقيقة تحريف . ولهذا عبَّر المؤلف - رحمه الله - بالتَّحريف دون التَّأويل مع أن كثيرًا مِمَّن يتكلَّمون فى هذا الباب يُعَبِّرون بنفى التَّأويل يقولون « من غير تأويل » لكن ما عبَّر به المؤلف أَوْلَى لأُمور ثَلاثة :

=لا يقدر على بلوغ حقيقته ، ورد الثناء إلى الجملة دون التفصيل والإحصار والتعيين فوكل ذلك إلى الله سبحانه وتعالى المحيط بكل شيء جملة وتفصيلًا ، وكما أنه لا نهاية لصفاته لا نهاية للثناء عليه ؛ لأن الثناء تابع للمثنى عليه ، وكل ثناء أثنى به عليه وإن كثر وطال وبولغ فيه فقدر الله أعظم وسلطانه أعزُّ وصفاته أكبر وأكثر وفضله وإحسانه أوسع وأسبغ » ا . هـ .

(*) قال الشيخ عبدالعزيز بن باز حفظه الله :

« ● التحريف : معناه تغيير ألفاظ الأسماء والصفات أو تغيير معانيها كقول الجهمية فى ﴿ استوى ﴾ : استولى ، وكقول بعض المبتدعة إن معنى « الغضب فى حق الله » إرادة الانتقام ، وأن معنى « الرحمة » كذلك إرادة الإنعام . وكل هذا تحريف .

فقولهم فى استوى : استولى من تحريف اللفظ .

وقولهم : الرحمة : إرادة الإنعام والغضب إرادة الانتقام من تحريف المعنى والقول الحق أن معنى الاستواء : الارتفاع والعلو كما هو صريح لغة العرب وجاء به القرآن ليدلَّ على أن معناه الارتفاع والعلو على العرش على وجه يليق بجلال الله وعظمته وكذا الغضب والرحمة صفتان حقيقيتان تليقان بجلال الله وعظمته كسائر الصفات الواردة فى القرآن والسنة .

● **والتعطيل** : معناه سلب الصفات ونفيها عن الله تعالى وهو مأخوذ من قولهم : جِيدٌ مُعَطَّل أى خال من الحلى ، فالجهمية وأشباههم قد عطلوا الله عن صفاته فلذلك سموا بالمعطلة ، وقولهم هذا من أبطل الباطل إذ لا يعقل وجود ذات بدون صفات ، والقرآن والسنة متضافران على إثبات هذه الصفات على وجه يليق بجلال الله وعظمته .

● **والتكييف** : معناه بيان الهيئة التى تكون عليها الصفات فلا يقال : كيف استوى ؟ كيف يده ؟ كيف وجهه ؟ ونحو ذلك ؛ إذ القول فى الصفات كالقول فى الذات يحتذى حذوه ويقاس عليه ، فكما أن له ذاتا ولا نعلم كيفيتها فكذلك له صفات ولا نعلم كيفيتها إذ لا يعلم ذلك إلا هو مع إيماننا بحقيقة معناها .

● **وأما التمثيل** فمعناه : التشبيه فلا يقال : ذات الله مثل ذواتنا ، أو شبه ذواتنا ، وهكذا فلا يقال فى صفاته : إنها مثل صفاتنا أو شبه صفاتنا ، بل على المؤمن أن يلتزم قوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ [الشورى : ١١] و﴿ هل تعلم له سميا ﴾ [مريم : ٦٥] والمعنى لا أحد يساميه أى يشابهه .

فائدة : ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – قال : إذا قال لك نؤول معنى الغضب إرادة الانتقام ، والرحمة إرادة الإنعام فقل : وهل الإرادة تشبه إرادة المخلوق ، أم أنها إرادة تليق بجلاله وعظمته ؟ فإن قال الأول فقد شبه وإن قال الثانى فقل ، ولم لا تقل : رحمة وغضب يليقان بجلاله وعظمته ، وبذلك تحجه وتَخْصِمُهُ » ا . هـ .

الأمر الأول : إنَّه اللَّفظ الَّذى جاء به القرآن فإنَّ الله تعالى قال : ﴿ يُحرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِه ﴾ [النساء : ٤٦] فقال : ﴿ يُحَرِّفُونَ ﴾ والتَّعبير الذى عبَّر به القرآن أولى من غيره لأنه أدَلُّ على المعنى وأدَل على الحال وأقْرَبُ إلى العَدْل . فالمحرف المؤوِّل بغير دَليل ليس من العَدْل أن أُسمِيَهُ مُؤوِّلًا بل العَدْل أن أصِفُه بما يستحق وهو أن يكون محرِّفًا .

الأمر الثانى : أن التَّحريف أبلغ تَنْفِيرًا من التَّأْويل لأَن التَّحريف لا يَقْبَلُه أحَد لكن التَّأْويل ليِّن تَقْبَلُه النَّفس وتَستفْصل عن معناه أمَّا التَّحريف بمجرَّد ما نقول هذا تحريف ينْفُر الإنسان منه وإذا كان كذلك فإن استعمال التَّحريف فيمن خالفوا طريق السلف أَلْيق من استعمال التَّأْويل .

الوجه الثَّالث : أن التَّأْوِيل ليس مَذْمُومًا كُلُّه . قال النبى عليه الصَّلاة والسَّلام : « اللَّهُمَّ فَقِّههُ فى الدِّين وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيل »(١) . وقال الله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلهُ إِلَّا الله وَالرَّاسِخُونَ فى العِلْمِ ﴾ [آل عمران : ٧] فامتدحهم بأنهم يعلمون التَّأويل فليس التأويل كلَّه مذمومًا بخلاف التحريف .

والتَّأويل ليس كُلُّه مَذْمُومًا لأَن التَّأويل له مَعَانٍ مُتَعَدِّدة ، يكون بمعنى التَّفسير ويكون بمعنى العَاقِبة والمآل ويكون بمعنى صَرْف اللَّفظ عن ظاهره .

(أ) **يكون بمعنى التَّفسير** : كقول كثير من المُفَسِّرين عندما يُفَسِّرون الآية يقولون : « تأْويل قَوْله تعالى كذا وكذا » ثم يذكرون المعنى . وسُمِّى التَّفسير تَأْويلًا لأَنَّنا أَوَّلْنا الكلام أى جَعَلْنَاهُ مؤول إلى معناه المراد به .

(ب) **تأويل بمعنى عَاقبة الشيء** : وهذا إن وَرَدَ فى طلب فتأويله فعله إنْ كَان أَمْرًا وَتَرْكُه إن كان نهيًا وإن وَرَدَ فى خبر فتأويله وقُوعه يعنى إن

(١) رواه البخارى (١٤٣) ، ومسلم (٢٤٧٧) (٣٨) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما ، وقد دعا النَّبى ﷺ بهذا الدُّعاء له فصار « حبر الأمة وترجمان القرآن » .

وُصِفَ به الخبر فَتَأْوِيلُه وُقُوعه وإن وَرَدَ فى طلب فتأويله فِعْلُه والحقيقة أن فعله إيقاعٌ له لكن هكذا نقول . التَّأويل بالنِّسبة للخبر معناه وقوع المُخْبَر به . ومنه قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيله يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلِ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾ [الأعراف : ٥٣] إِذَنْ وَقَعَ مَا أُخبروا به . إذًا « هل ينظرون إلا عاقبة ومآل ما أخبروا به يوم يأتى ذلك المخبر به يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق » .

ومنه قول يوسف لمَّا خَرُّوا له سجَّدًا قال : ﴿ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَاىَ مِنْ قَبْلُ ﴾ [يوسف : ١٠٠] هذا وقُوع لأنه قال ذلك بعد أن سَجدوا لَهُ وقول صاحبى السجن : ﴿ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيله إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٣٦] أى تفسيره . إذًا : التَّأويل بمعنى التفسير والتأويل بمعنى العاقبة قلنا إنه إذاً كان خبرًا فتأويله ، وقوعه إذا كان طلبًا ، فتأويله فعله . قالت عائشة : « كان النَّبى ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُول فى رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ بعد أن أُنْزِلَ عليَهْ قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ ﴾ [النصر : ١] يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده :«سُبْحَانَكَ اللَّهُم رَبَّنا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لى يَتَأَوَّلُ القُرْآنَ »(١) أى يعمل به فتأويل الطلب امتثاله بمعنى تركه إن كَانَ نَهْيًا وَفِعْلُه إن كَانَ أَمْرًا وهذا التَّأويل مَحْمُود .

(جـ) **المعنى الثَّالث للتأويل** : أنه صَرْفُ اللَّفظ عن ظاهره هذا النوع ينقسم إلى محمود ومَذْمُوم فإن دلَّ عليه دليل فهو محمود ويكون من القسم الأَوَّل وهو التَّفسير وإن لم يدل عليه دَلِيل فهو مَذْمُوم ويكون من باب التَّحريف وليس من باب التَّأويل . وهذا الثَّانى هو الذى دَرَجَ عليه أهلُ التَّحريف فى صفات الله عز وجل . فالتَّأْويل صَرْفُ اللَّفظ عَنْ ظاهره مثلاً

---

(١) رواه البخارى (٤٩٦٧) ، ومسلم (٤٨٤) (٢١٧) من حديث عائشة رضى الله عنها .

﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [طه : ٥] ظاهر اللفظ أن الله تعالى اسْتَوى على العَرْش اسْتَقَرَّ عليه وعَلا عليه ، لكن إذا قال قائل : معنى استوى اسْتَوْلَى على العرش ، فنقول هذا تأويل عندك لأنَّك صَرَفْتَ اللَّفظ عن ظَاهره . لكن هذا تحريف فى الحقيقة لأنه ما دلَّ عليه دَلِيلٌ بل الدَّليل على خِلَافِه كما سيأتى إن شاء الله قرأ قارىء : ﴿أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل : ١] قال : معنى ﴿ أَتَى أَمْرُ اللهِ ﴾ يعنى سيجىء أمر الله فهذا مخالفٌ لظاهر اللَّفظ وعليه دليل : ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ إذًا : ما بعد جاء لو كان قد أتى ما صح أن يقال : ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ إذًا فيه دليل من الآية حينئذ يكون التأويل هنا محمودًا وصحيحًا لأنه تفسير الآية: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨] قال: « إذا قرأت » أى إذا أردت أن تقرأ الله يقول: ﴿إِذَا قَرَأْتَ﴾ يعنى إذا أكْمَلْتَ القراءة ، قل أعوذ بالله من الشَّيطان الرجيم هذا معنى ﴿ إِذَا قَرَأْتَ ﴾ وهذا ظاهر اللَّفظ لكن نقول معنى ﴿ إِذَا قَرَأْتَ ﴾ أى إذا أردت أن تقرأ قال : هذا تأويل نقول : نعم نوافق على أنَّه تأويل لكن عندنا دليل منفصل لأنَّنا علمنا من السُّنَّة أن النَّبى عليه الصَّلاة والسلام إذا أراد أن يَقْرأ اسْتَعَاذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم . فهنا عرفنا المعنى من السُّنَّة . فالتَّأويل صَحِيحٌ . قال أنس : كان النبى ﷺ إذَا دَخَلَ الخَلَاء قال : « أَعُوذُ بالله مِن الخُبُثِ وَالخَبَائِث »(١) ومعنى إذا دخل : إذا أَرادَ أن يَدْخُل لأن ذِكْر الله لا يَليق داخل المكان . فلهذا حَمَلْنَا قوله : « إذا دَخَل » عَلَى : « إذا أَرَادَ أن يدخل » هذا التَّأوِيلُ الَّذى دَلَّ عليه الدَّلِيلُ صَحِيحٌ ولا يُعَد أن يكون تفسيرًا . لذلك قلنا إنَّ التَعْبِيرَ بالتَّحريف أوْلى لأنه الذى جاء به القرآن . ولأنه ألصق بطريق المحرِّف . وأولى لأنَّه أشدُّ تنفيرًا عن هذه الطريقة المخالفة لطريق السَّلف أولى ؛ لأن التَّحريف كله مَذْمُوم بخلاف التَّأويل فإن مِنْه ما يكون

---

(١) رواه البخارى (١٤٢) ، ومسلم (٣٧٥) (١٢٢) من حديث أنس رضى الله عنه .

مذمومًا ومحمودًا . فيكون التَّعبير بالتَّحريف أَوْلَى من التَّعبير بالتَّمثيل من أربعة أوجه .

● قوله : « **ولا تعطيل** » التَّعطيل بمعنى التَّخْلِية والتَّرك كقوله تعالى : ﴿ وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ ﴾ [الحج : ٤٥] أى : مُخلَّاةً متروكة . والمراد بالتَّعطيل إنكار ما أَثْبَتَ الله لنفسه من الأسماء والصِّفات سواءً كان كُلِّيًا أم جُزْئِيًا وسَواءٌ كان ذلك بتحريف أو بجحودٍ هذا كلُّه يُسَمَّى تعطيلًا . فأهل السُّنَّة والجماعة لا يعطِّلون أى اسم من أسماء الله أو أَىَّ صِفة من صفات الله ولا يجحدونها بل يُقِرُّون بها إقرارًا كَامِلًا .

فإن قلت : مَا الفَرْقُ بين التَّعطيل والتَّحريف ؟ قلنا : التَّحريف فى الدَّليل والتَّعطيل فى المَدْلُول ، فمثلًا إذا قال قائل : مَعْنى قوله تعالى : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة : ٦٤] أى بل قُوَّتاه هذا محرِّف للدليل ومعطِّل للمراد الصَّحيح لأن المراد اليد الحقيقية . فقد عطَّل المعنى المراد وأَثْبَت مَعْنًى غير مُراد . وإذا قال : بل يداه مبسوطتان لا أَدْرِى ! أُفوض الأمر إلى الله لا أُثبت اليد الحقيقية وَلَا اليد المُحرف إليها اللَّفظ ، نقول هذا مُعطِّل وليس بمحرِّف لأنه أبقى اللَّفظ على مَا هُو عليه ولا فسَّره بغير مُرادِه لكن عَطل مَعنَاه الَّذى يُرَادُ به وهو إثبات اليد لله عز وجل ، أهل السُّنَّة والجماعة يَتَبَرَّؤُون من الطَّريقتين : الطَّريقة الأولى التى هى تحريف اللَّفظ بتعطيل مَعْنَاهُ الحقيقى المراد إلى معنىً غير مُراد . والطَّريقة الثَّانية : وهى طريقة أهل التَّفويض فهم لا يُفوِّضون ، بل يقولون نحن نقول « بل يداه » أى يداه الحقيقيتان مَبْسوطتان وَهُما غير القُوَّة والنِّعمة هؤلاء لم يُحرِّفوا ولم يُعَطِّلوا . إذًا : عقيدةُ أهل السنة والجماعة بريئةٌ من التَّحريف ومن التَّعطيل وبهذا نعرف ضَلال وَكذِب من قالوا : إن طريقة السَّلف هى التَّفويض . هؤلاء ضَلُّوا إن قالوا ذلك عن جهل بطريقة السَّلف وكذبوا إن قالوا ذلك عن عَمْدٍ . أو نقول : كذبوا على

الوجهين على لغة الحجاز لأن الكَذِب عند الحجازيين بمعنى الخطأ . وعلى كل حال لا شَكَّ أن الَّذين يقولون إن مذهب أهل السُّنة هو التَّفويض لا شك أنَّهم أَخْطأوا ، لأَن مذهب أهل السُّنة هو إثبات المعنى وتفويض الكيفية . وليُعلم أن القول بالتَّفويض كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية : من شرِّ أَقوال أهل البِدع والإلحاد[١] عندما يسمع الإنسان التَّفويض يقول هذا جيد . أَسْلم من هؤلاء وهؤلاء لا أقول بمذهب أَهل السلف ولا أَقول بمذهب أَهل التأويل أسلُك سبيلًا وسطًا وأَسْلَمُ من هذا كُلِّه وأقول « الله أعلم » ولا ندرى ما معناها لكن يقول شيخ الإسلام : هذا من شرِّ أقوال أهل البدع والإلحاد وصدق - رحمه الله - إذا تأمَّلته وَجَدْتُه تكذيبًا للقرآن وتجهيلًا للرَّسول ﷺ تكذيبًا للقرآن لأن الله يقول : ﴿ وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل : ٨٩] وأَيُّ بيان فى كلمات لا يُدرى ما معناها ، وهى من أكثر مَا يَرد فى القرآن وأكثر مَا وَرَد فى القرآن أسماء الله وصفاته إذا كنَّا لا ندرى مَا مَعْنَاها هل يكون القرآن تبيانًا لكل شيء ؟ ﴿ وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل : ٤٤] أَيْن البيان ؟ تجهيلًا للرسول ﷺ لأن هؤلاء يقولون إن الرسول ﷺ لا يدرى عن مَعَانى القرآن فيما يتعلَّق بالأسماء والصِّفات .. وإذا كان الرَّسول عليه الصلاة والسلام لا يدرى فغيره من باب أَوْلَى . وَأَعجب من ذلك : يقولون الرَّسول ﷺ يتكلَّم بالكلام فى صِفَات الله ولا يدرى مَا مَعْنَاه يقول : « رَبّنا الله الَّذِى فِى السَّمَاء »[٢] وإذا سُئِل عن هذا ! قال : لا أدرى وكذلك فى قوله : « يَنْزِلُ رَبُّنا إلى السَّمَاءِ الدُّنيا »[٣] وإذا سُئِل : مَا مَعنى ينزل ربنا ؟ قال : لا أدرى . وعلى هذا

---

(١) درء تعارض العقل والنقل لشيخ الإسلام ابن تيمية (١/١٢١) .

(٢) **حديث ضعيف** : تقدم تخريجه ص (٥٨) .

(٣) حديث النُّزول : رواه البخارى (١١٤٥) ، ومسلم (٧٥٨) (١٦) من حديث

فَقِسْ وهل هناك قَدْحٌ أَعْظم من هذا القَدح بالرسول ﷺ . بل هذا من أكبر القَدْحِ ! رسول من عند الله ليبين للنَّاس وهو لا يدرى مَا مَعْنَى آيات الصِّفات وَأَحاديثها وهو يتكلَّم بالكلام ولا يَدْرِى ذلك كلِّه ! فهذان وجهان تكذيب القرآن وتجهيل الرَّسول . فتحا الباب للزَّنَادِقة الذين تطاولوا على أهل التفويض وقالوا أَنْتُم لا تعرفون شيئًا بل نحن الذين نعرف وأَخذوا يُفَسِّرون القرآن بغير ما أراد الله . وقالوا : كوننا نُثْبت مَعَانى للنُّصوص خيرٌ من كوننا أُمِّيين لا نعرف شيئًا وجاءوا يتكلَّمُون بما يريدون من معنى كلام الله وَصِفَاته ولا يستطيع أهل التَّفويض أن يَرُدُّوا عليهم لأنهم يقولون نحن لا نعلم ماذا أراد الله جائز أن يكون الذى يريد الله هو مَا قُلْتُم ففتحوا باب شُرُور عظيمة ولهذا جاءت العبارة الكاذبة « طَرِيقة السَّلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم » . يقول شيخ الإسلام – رحمه الله – هذه قالها بعض الأَغْبياء وهو صحيح أن القائل غبى . هذه الكلمة من أكذب ما يكون نطقًا ومدلولًا « طريقة السَّلف أَسْلَم وَطَريقة الخَلف أَعْلَم وأَحْكَم » كيف تكون أعلم وأحكم وذى أسلم لا يوجد سلامة بدون عِلْم وحكمة أبدًا .

والَّذى لا يدرى عن الطريق لا يَسْلَم لأَنَّه ليس معه علم لو كان معه علمٌ لَسَلِمَ . فى الحكمة أيضًا : وهذا يَعْرف الطَّريق لكن قال : أنا سأذهب ولكن إذا انتصفت بالطَّريق رجعت وإذا وصلت بلدى رجعت وإذا أخذت ثلاث أرباع الطَّريق رجعت . وقال : من أجل أن أتعلَّم القوة هذا ليس بحكمة إذًا : لا سلامة إلَّا بعلم وَحِكْمة . إذا قلت : أن طريقة السَّلف أَسْلَم لزم أن تقول هى أَعْلَم وَأَحْكَمَ وإلا لكنت مُتَنَاقِضاً .. إذًا : فالعبارة الصَّحيحة « طريقة السَّلف أَسْلم وأَعْلَم وَأَحْكَم » وهذا مَعْلُومٌ . وطريقة الخلف مَا قَالَهُ

أبى هريرة رضى الله عنه . وقد أفرد شيخ الإسلام ابن تيمية هذا الحديث بالشرح فى كتابه العظيم « شرح حديث النُّزول » فراجعه فإنه مهم .

القائل(١) :

لَعَمْرِى لقد طُفْتُ المَعَاهِدَ كُلِّها ... وَسَيَّرتُ طَرْفِى بين تِلْكَ المَعَالِمِ
فلم أَرَ إِلَّا وَاضِعًا كُفَّ حَائِرٍ ... عَلَى ذِقْنٍ أو قَارِعًا سِنَّ نَادِمِ

هذه الطَّريقة التى يقول عنها إنَّه ما وجد إلا « وَاضِعًا كفَّ حائر على ذقن » ما العلم هذا ليس عنده علم أو آخر . « قَارِعًا سِنَّ نَادِمٍ » يقول أين الطَّريقة دِلُّونى ! هؤلاء ليس عندهم علمٌ وحكمة أبدًا والرَّازى وهو من كبرائهم يقول(٢) :

نِهَايَةُ إِقْدَامِ العُقُولِ عِقَالُ ... وَأَكْثَرُ سَعْى الْعَالَمِينَ ضَلَالُ
وَأَرْوَاحُنَا فِى وَحْشَةٍ مِن جُسُومِنَا ... وَغَايَةُ دُنْيَانَا أَذَىً وَوَبَالُ
وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِن بَحْثِنَا طُولِ عُمْرِنَا ... سِوى أَن جَمَعْنَا فِيهِ قِيلَ وَقَالُوا

ثمَّ يقول : « لقد تأمَّلت الطُّرق الكلامية ، والمَنَاهج الفلسفية فما رأَيْتُها تَشْفى عليلًا ولا تَرْوى غَلِيلًا وَوَجَدتُّ أَقْرَب الطُّرق طريقة القرآن أَقرأُ فى الإثبات : ﴿ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾ [طه : ٥] ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ [فاطر : ١٠] وأَقْرأُ فى النَّفى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : ١١] ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ [طه : ١١] . ومن جرَّب مثل تجربتى عَرِفَ مِثل مَعْرِفتى »(٣) هؤلاء نقول إنَّ طريقتهم أعلم وأحكم ؟!!

---

(١) الأبيات للإمام الشهرستانى كما فى مقدمة كتابه « نهاية الإقدام فى علم الكلام » ص (٣) . وراجع : درء تعارض العقل والنقل لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٥٩/١) ، وشرح الطحاوية لابن أبى العز (٢٤٥/١) .

(٢) هذه الأبيات للفخر الرَّازى كما فى كتابه « أقْسام اللذات » ذكرها عنه ابن كثير فى البداية والنهاية (٦٢،٦١/١٣) وذكر هناك رجوعه لمذهب السَّلف . وراجع : عيون الأنباء (٤٨/٢) ، ووفيات الأعيان (٢٥٠/٤) ، وطبقات الشَّافعية للسبكى (٩٦/٨) .

(٣) راجع : درء تعارض العقل والنقل (١٦٠/١) ، وطبقات الشافعية لابن قاضى شهبة =

الذى يقول : « إنى أَتَمَنَّى أن أَمُوتَ عَلى عَقيدة عجائز نيسابور »(١) والعجائز من عوام النَّاس يتمنَّى أَنَّه يعود إلى الأُمِّيَّات !

أَيْنَ العِلم الَّذى عِنْدَهُم ؟ فتبيَّن أَنَّ طريقة التَّفويض طريق خاطىء لأَنَّه يتضمَّن ثلاث مفاسد ! وأن الذين قالوا : إن طريقة السلف هى التَّفويض كَذَبُوا على السَّلف . بل هم يُثْبِتُون اللفظ والمعنى ويقرِّرونه ويشرحونه بأَوْفى شرح .

أهل السُّنَّة والجماعة لا يُحرِّفون ولا يُعَطِّلون . ويقولون بمعنى النُّصوص كما أراد الله : ﴿ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ العَرْشِ ﴾ بمعنى عَلَا عليه وليس معناه اسْتَوْلى .

« بيده » يَدٌ حقيقية ولَيْسَت القوة والنِّعمة ، فلا تحريف عندهم ولا تَعْطِيل .

قال : « **ومن غير تكييف** » تكييف : لم تَرِدْ فى الكتاب والسُّنَّة لكن ورد ما يدل على النَّهى عنها .

التَّكييف : هو أن تذكر كَيْفِيَّة الصِّفة ولهذا نقول : كَيَّفَ يُكَيِّف تكْيِيفًا أى : ذَكَر كَيْفِيَّة الصِّفة . التَّكييف يُسأل عنه بـ « كيف » فإذا قُلْتَ مَثَلًا كَيفَ جَاء زَيدٌ ؟ تقول راكبًا إذًا : كَيَّفت مجيئه . كيف لون السَّيَّارة ؟ أبيض فذكرت الكيفية .

أهل السُّنَّة والجماعة لا يكيِّفون صفات الله مُسْتَنَدين مِن ذلك إلى الدَّليل

=(٢/٨٢-٨٣) ، وشرح الطحاوية لابن أبى العز (١/٢٤٤) .

(١) يُشِيرُ إلى ما جاء عن أَبى المَعَالى الجوينى - رحمه الله - حينما قال عند موته : « لقد خُضْتُ البحر الخضمَّ ، وَخلَّيْتُ أهل الإسلام وعلومهم ، ودخلت فى الذى نَهونى عنه ، والآن فإن لم يَتَدَاركنى رَبِّى برحمته فالويل لابن الجوينى ، وَهَا أَنَا ذَا أَمُوتُ عَلَى عَقِيدة أُمِّى ، أو قال : عَلَى عَقيدة عَجَائِز نَيْسَابُور » ا.هـ. من شرح الطحاوية لابن أبى العز (١/٢٤٥) .

السّمعى ، والدَّليل العقلى :

● **أما الدَّليل السَّمعى** : فمثل قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْىَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُواْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُواْ عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٣] والشاهد فى قوله : ﴿ وَأَنْ تَقُولُواْ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ فإذا جاء رَجُل وقال : إن الله استَوى على العَرْش على هذه الكيفية وَوَصَفَ كيفيَّة معينة نقول : هذا قد قال عَلَى الله مَا لَا يَعْلَم هل أَخْبرَك الله بأنَّه استَوى على هذه الكيفية ؟ « لا » أخبرنا الله بأنَّه استوى و لم يخبرنا كيف استَوى .

فنقولُ هَذَا تكييف وقَوْلٌ على الله بغير علم ولهذا قال بعض السَّلف : « إِذَا قَالَ لَكَ الجهمى : إنَّ الله يَنْزل إلى السَّماء فكيف يَنْزِل ؟ فَقُل : إنَّ الله أخبرنا أنه ينزل و لم يخبرنا كيف ينزل » . وهذه قاعدة مفيدة .

– دليل آخر من السَّمع : قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئولاً ﴾ [الإسراء : ٣٦] لا تتبع ما ليس لَكَ به علم : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ [الإسراء : ٣٦] إن كيفية الشَّىء لا تُدْرك إلا بواحد من أمور ثلاثة : مشاهدته ، أو مُشاهدة نظيره ، أو خَبرُ الصَّادق عنه .

– إما أن تكون شاهدته أنت وعَرَفْتَ كيفيته أو شَاهَدت نَظيره كما لو قال واحد إن فلان اشترى سيارة دادسُن موديل ثمان وثمانين رقم ألفين فتعرف كيفيتها لأن عندك مثلها . أو خبر الصَّادق عنه . أتاك رجلٌ صادق قال : إن سيارة فلان كذا صِفَتُها كذا وكذا وَوَصَفها تَمامًا فَتُدرِك الكَيْفِيَّة الآن نأتى إلى كيفية صفات الله عز وجل : هل يَثْبُت بها واحدٌ من هذه الأمور الثلاثة ؟ لا ! لم نَرَ الله عزَّ وجلَّ وَلَيْسَ لَهُ نَظِير و لم يُخْبرنا عن كَيْفِيَّته . إذًا

لا يمكن أن نعرف الكيفية ولهذا أيضًا قال بعض العلماء جواب لطيف : إن معنى قولنا بدون تكييف لَيْس مَعْنَاهُ أَلا نعتقد لها كيفية بل نعتقد لها كيفية . لكن المنفى علمنا بالكيفية لأن استواء الله على العرش لا شك أن له كيفية لكن لا تعلم . نزوله إلى السَّماء الدُّنيا له كيفية لكن لا تعلم لأَنَّه ما من موجود إلَّا وَلَهُ كَيْفِية لكنها قد تكون مَعْلُومة وقد تكون مَجْهولة . سُئل الإمام مَالك - رحمه الله - عن قوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾ [طه : ٥] كيف اسْتَوى ؟ فأَطْرَقَ مَالك بِرَأْسه حتَّى عَلاهُ العَرَق ثم رَفَعَ رَأْسَهُ وقال : « الاسْتواء غَيْر مَجْهول » أى من حيث المعنى معلوم ؛ لأَن اللُّغة العَربية بين أيدينا كل المَوَاضِع التى وَرَدَتَ فيها اسْتَوى مُعَدّاةً بِعَلى مَعْنَاها العُلو . فقال : « الاسْتواءُ غَيْرُ مَجْهول والكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ » ؛ لأَن العقل مَا يُدْرِكُه . « والإيمانُ به واجب » لأَن الله أَخبر به عن نفسه فوجب تَصْدِيقُه « والسُّؤال عنه بِدْعة »(١) ؛ السُّؤَال عن الكيفية بدعة ؛ لأن مَنْ هُم أَحْرَصَ مِنَّا على العلم مَا سَألوا عنها وهم الصَّحابة لما قال الله : ﴿ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [الأعراف : ٥٤] عرفوا عظمة الله عز وجل ومعنى الاستواء على العرش وأنه لا يمكن أن تسأل كيف اسْتَوىٰ لأنك لن تُدْرك ذلك فنحن إذا سألنا فنقول هذا السُّؤال بدعة وكلام مالك - رحمه الله - ميزان لجميع الصِّفات قال لك مثلًا : إنَّ الله ينزل إلى السَّماء الدُّنيا كيف ينزل ؟ فالنُّزول غَيْر مَجْهُول والكَيْفُ غير مَعْقُول والإيمان به واجب والسُّؤَالُ عنه بدعة ،

---

(١) **أثَرٌ صَحِيحٌ** : أخرجه الذهبى فى العلو ص (١٤١،١٤٢) ، وأبو نعيم فى الحلية (٣٢٥/٦،٣٢٦) ، وعثمان بن سعيد الدارمى فى الرد على الجهمية ص (٥٥) ، واللالكائى فى شرح أصول إعتقاد أهل السنة (٦٦٤) ، وأبو عثمان الصابونى فى عقيدة السلف (٢٤-٢٦) ، والبيهقى فى الأسماء والصفات ص (٤٠٨) من طريق يقوى بعضها بعضًا ، وصحَّحه الذهبى فى العلو ، وكذا قوَّاه الألبانى فى مختصره للعلو ، وقال الحافظ فى الفتح (٤٠٦/١٣،٤٠٧) : « وأخرج البيهقى بسند جيد عن عبد الله بن وهب ... » فذكره .

والذين يسألون كيف يمكن النُّزول وثُلث اللَّيل يتنقل ؟ فنقول : السُّؤَال هذا بدعة كيف تسأل عن شيء مَا سَأَل عنه الصَّحابة وهم أَحْرَصَ مِنْك على الخير وعلى العِلْم بما يَجِبُ لله عزَّ وجلَّ ولَسْنَا بِأَعْلَم من الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام فهو لم يعلمهم .

فسؤالك هذا بدعة ولولا أننا نحسن الظن بك لقلنا ما يليق بك بأنك رجل مبتدع . الإمَامُ مَالك - رحمه الله - قال : « مَا أَرَاكَ إِلَّا مُبْتَدعًا » ثُمَّ أَمَرَ به فَأُخْرِج . لأن السَّلف يكرهون أهل البدع وكلامهم واعْتِراضاتهم وتَقْديراتهم ومُجَادلاتهم فَأَنت يا أخى عليك فى هذا الباب التَّسليم . إِذًا من تمام الإسلام لله عزَّ وجلَّ أَلَّا تبحث فى هذه الأُمور ولهذا أُحذِّركم دائمًا من البحث فيما يتعلَّق بِأَسْمَاء الله وَصِفَاته على التَّعَنُّت والتَّنطُّع والشيء الذى ما سأل الصَّحابة عنه . لأننا إذا فتحنا على أنفسنا هذه الأَبواب انفتحت علينا أبواب وتهدَّمت الأَسْوَار وعجزنا عن ضَبْط أَنْفُسنا . فَلِذَلك قل : سَمِعْنا وأَطَعْنَا وآمَنَّا وَصدَّقْنَا . آمَنَّا وَصَدَّقنا بالخبر وَأَطَعْنَا الطَّلب وسمعنا القول . حتى تسلم ! وَأَىُّ إنسان يسأل فيما يتعلَّق بِصِفَات الله عن شيء مَا سَأَل عنه الصَّحابة فقل كما قال الإمام مَالك فإنَّ لك سلفًا : « السؤال عن هذا بدعة » وإذا قُلْت ذلك لن يُلحَّ عليك وإذا ألحَّ فَقُل يا مُبْتَدِع السُّؤَال عنه بدعة . اسأل عن الأحكام التى أنت مُكلَّف بها أَمَّا تسأل عن شيء يتعلَّق بالرب عز وجل وبأسمائه وصفاته ولم يسأل عنه الصحابة فهذا لا نقبله منك أبدًا !! وهناك كلام للسَّلف يدل على أنهم يفهمون مَعانى ما أنزل الله عَلَى رَسُوله من الصِّفات كما نقل عن الأوزاعى وغيره نقل عنهم أنهم قالوا فى آيات الصِّفات وأحاديثها : « أَمِرّوها كَمَا جَاءَت بِلا كَيْف »(١) وهذا يدل على أنهم يُثْبِتُون

---

(١) راجع : القواعد المثلى لابن عثيمين ص (٤٣،٤٤) بتحقيقنا وكذا فتح رب البرية بتلخيص الحموية ص (٦٤) .

لها مَعْنًى من وجهين :

أولًا : أنهم قالوا : « أمِرُّوها كما جاءت » ومعلوم أنها ألفاظ جاءت لمعانى و لم تأت عبثًا فإذا أمررناها كما جاءت لَزِمَ مِن ذلك أن نُثْبِتَ لها مَعْنًى .

ثانيًا : قولهم : « بِلا كيف » لأن نفى الكيفية يدل على وجود أصل المعنى لأن نفى الكيفية عن شىء لا يوجد لغو وعبث إذًا هذا الكلام المشهور عند السَّلف يدلُّ على أنهم يُثْبِتُون لهذه النُّصوص مَعْنًى .

● **قوله** : « **ولا تمثيل** » يعنى : وَمِنْ غَيْرِ تَمْثِيل فأَهْلُ السُّنة يتبرءون من تَمْثِيل الله عزَّ وجلَّ بخلقه لا فِى ذَاتِهِ وَلَا فِى صِفَاتِهِ . والتَّمثيل : ذكر مُمَاثِل للشَّىء وبَيْنَهُ وبين التَّكييف عُمُوم وخُصُوصٌ مُطْلق ؛ لأن كلَّ مُمَثِّل مُكيِّف وليس كُل مكيّف ممثِّلا ؛ لأن التكييف ذكر كيفية غير مقرونة بمماثل فإن قُرِنت بِمُماثل صار تمثيلًا مثل أن أقول هذا القلم مثل هذا القلم ؛ لأنى ذكرت شيئًا مماثلًا لشىء ؛ وعرفت هذا القلم بذكر مُمَاثِله .

أهل السنة والجماعة يُثْبتون لله عزَّ وجلَّ الصِّفات بدون مُمَاثَلة يقولون : إنَّ الله عَزَّ وجل له حياة وليست مثل حَيَاتِنا ، له علم ولَيْس مِثِل عِلْمنا ، له بَصَر ولَيْس مِثْل بَصَرنا ، له وَجْه ولَيْس مِثل وُجُوهنا ، له يَدٌ وليست مثل أيدينا .. وهكذا جميع الصِّفات يقولون إن الله عزَّ وجلَّ لا يُماثلُ خلقه فيما وَصَفَ بِهِ نَفْسُه أبدًا ولهم على ذلك أدِلَّة سَمْعِيّة وأدلَّة عَقلية .

(أ) **الأدِلَّة السمعية** : تنقسم إلى قسمين : خبر وطلب .

● **فمن الخبر** : قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ ﴾ [الشورى : ١١] فالآية فيها نَفْىٌ صَرِيحٌ للتَّمثيل وقوله : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ فإن هذا وإن كان إنشاءً لكنَّه بمعنى الخبر لأنه خبرٌ بمعنى النَّفى . وقوله : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَهُ كُفُوًا

أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : ٤] آيات كلها تدلُّ على نفى المُمَاثلة وهى كلها خبرية .

● **وأما الطَّلب** : فقال الله تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُواْ للهِ أَنْدَادًا ﴾ [البقرة : ٢٢] وقال : ﴿ فَلَا تَضْرِبُواْ للهِ الأَمْثَال ﴾ [النحل : ٧٤] فمَنْ مَثَّل الله بخلقه فقد كذَّب الخبر وعصى الأمر ولهذا أطلق السَّلف القول بالتَّكفير لمن مثَّل الله بخلقه فقال نُعَيْم بن حماد الخزاعى شيخ البخارى – رحمه الله –: « مَنْ شَبَّه الله بِخَلْقِهِ فَقَد كَفَر »(١) ؛ لأنه جمع بين التَّكذيب بالخبر وعِصيان الطلب .

(ب) **الأَدِلَّة العقلية** : أن نقول : لا يمكن التَّماثل بين الخَالِق وَالمَخْلُوق بأَىِّ حَالٍ من الأَحوال لو لم يكن بينهما من التَّباين إلَّا أصل الوجود لكان كافيًا وذلك أن وُجُود الخالق واجب فهو أزلِّى أَبدى ووجود المخلوق ممكن مَسْبُوق بعدم ويَلْحقه فَنَاء فما كانا كذلك لا يمكن أن يُقال أنهما مُتَماثلان .

ثانيًا : نجد التَّباين العظيم بين الخالق والمَخْلُوق فى صِفَاته وفى أفعاله . فى صفاته يَسْمَعُ عز وجل كُلَّ صَوْتٍ مهما خَفِىَ وَمهما بَعُد لو كان فى قِعَار البحار لَسَمِعَهُ عزَّ وجلَّ ، أنزل الله قوله تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِى إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة : ١] تقول عائشة : « إنِّى لَفِى الحجرة وَإنه لَيخفَى عَلَىَّ بَعْض حَدِيثَها فَتَبَارك الَّذى وَسِع سَمْعه الأَصْوات »(٢) والله تعالى سَامعها من على عرشه وبينَه وبينها ما لا يَعْلَمُ مَدَاهُ إِلَّا الله عزَّ وجلَّ . ولا يُمكن

(١) **أثَرٌ صَحِيحٌ** : أخرجه الذَّهبى فى العلو بِإسنادٍ صحيح ، وصحَّحه الأَلْبانى فى مختصره للعلو ص (١٨٤) .

(٢) **حَدِيثٌ صَحِيحٌ** : رواه البخارى (١٣/٣٨٤) تعليقًا ووصله أحمد والنسائى وابن ماجه كما فى فتح البارى . وراجع تفسير ابن كثير (٤/٣١٨) .

أن يقول قائل : أن سَمْعَ الله مثل سَمْعِنا .

ثالثًا : نقول : نحن نَعْلَمُ أنَّ الله تعالى مُبَاين للخلق بذاته : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَات وَالأَرْض ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَة ﴾ [الزمر : ٦٧] ولا يمكن لأَحد من الخلق أَنْ يكون هكذا فإذا كان مُبَاينًا للخلق فى ذاته فالصِّفات تابعة للذَّات فيكون أيضًا مُبَاينًا للخلق فى الصِّفات عز وجل ولا يمكن التَّماثُل بين الخَالق والمَخْلوق .

رابعًا : نقول : إنَّنا نُشَاهِد فى المخلوقات أَشياء تَتَّفق فى الأَسماء وتختلف فى المسمَّيات يختلف الناس فى صِفاتهم : هذا قوى البصر وهذا ضَعِيفُه ، هذا قوى السَّمع ، وهذا ضَعِيف ، هذا قوى البَدن ، وهذا ضعيف ، وهذا ذَكَرٌ ، وهذه أُنْثى ، وهكذا التَّباين فى المخلوقات التى من جِنس وَاحِد فما بَالُك بالمخلوقات المختلفة الأجناس فالتَّباين بَيْنها أَظهر ، واحدٌ يقول : إنَّ لِى يدًا كَيَدِ الجمل . وقال الآخر : وَلِى يَد كَيَدِ الذرة فقال الثَّالث : كذَبْتُما لى يَد كَيَدِ الهِر ، فنقول كلهم كذبوا فعندنا الآن إنسان ، وجمل ، وذرّة ، وهِر . كل واحد له يَدٌ مختلفة عن الثانى مع أنها متفقة فى الاسم فنقول : إذا جَازَ التَّفَاوُت بين المُسَمِّيات فى المخلوقات مع اتِّفاق الاسم فجوازه بين الخالق والمخلوق من باب أولٰى بل نحن نقول : إنَّ التَّفَاوُت بين الخَالِق والمَخْلُوق ليس جَائزًا فقط بل هو وَاجِبٌ فعندنا أربعة وُجوه عقلية كلها تدلُّ على أن الخالق لا يُمكن أَن يُماثِل المخلوق بأَىِّ حَالٍ من الأَحْوَالِ . ربما نَقُول أيضًا هناك دَلِيلٌ فطرى ، وذلك لأَنَّ الإنسان بِفطرته بدون أَن يُلَقَّن يعرف الفرق بين الخالق والمخلوق ، ولولا هذه الفِطرة مَا ذهب يَدْعو الخالق . فتبين الآن أن التَّمثيل مُنْتَفٍ سمعًا وَعَقْلًا وفطرةً .

فإن قال قائل : إنَّ النبى ﷺ حَدَّثنا بأحاديث تَشْتَبهُ علينا هل هى تمثيل أو غير تمثيل ونحن نضعها بين أيديكم قال النبى ﷺ :

١ – « إِنَّكُم سَتَرَوْنَ رَبَّكُم كَمَا تَرَوْنَ القمر لَيْلَةَ البَدْرِ لَا تُضَامُّونَ فِى رُؤْيَتِه »(١) فقال : « كما » والكاف للتَّشْبيه . وهذا رسول الله ﷺ ونحن من قَاعِدتنا أن نُؤمن بما قال الرَّسول كما نؤمن بما قال الله . فأجيبوا عن هذا الحديث ؟

نقول : نجيب عن هذا الحديث وعن غيره بجوابين :

الجواب الأول : مجمل والثانى : مفصَّل .

الأول : المجمل : إنَّه لا يمكن أن يقع تَعَارُض بين كلام الله وكلام رَسُوله الذى صحَّ عنه أبدًا لأن الكُلّ حَقٌّ والحق لا يَتعارض والكل من عند الله وما عند الله تعالىٰ لا يَتَنَاقَض : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ الله لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ٨٢] . فَإِن وَقَع مَا يُوهِمُ التَّعارُض فى فَهمك فاعلم أنَّ هذا ليس بحسب النَّص ولكن باعتبار مَا عِنْدك(٢) فأَنْت إذا وَقَع التَّعارض عندك فى نُصوص الكتاب والسُّنة فإمَّا لِقلّة العِلْم وإمَّا لِقُصُور الفَهْم

---

(١) رواه البخارى (٥٥٤) ، ومسلم (٦٣٣) (٢١١) من حديث جرير بن عبد الله .

لا تضامون: بضم التاء وتخفيف الميم من الضيم ، وهو الظلم . قال الحافظ ابن حجر : وهو الأكثر ، وفى نسخة : بفتح التاء وتشديد الميم من التضام بمعنى التزاحم .

(٢) قال أبو جعفر الطحاوى فى شرح مشكل الآثار (١٥٩/١) : « والواجب على ذَوِى اللُّب أن يعقلوا عن رسول الله عليه السَّلام ما يُخاطب به أُمته ، فإنه إنما يخاطبهم به لِيُوقِفهم على حدود دينهم ، وعلى الآداب التى يَسْتعملونها فيه ، وعلى الأحكام التى يحكُمون بها فيه ، وأن يعلم أنه لا تضادَّ فيها ، وإن كُلَّ معنى منها يُخاطبهم به يخالف ألفاظه فيه الألفاظ التى قد كان خَاطَبهم فيما قبله من جنس ذلك المعنى ، وأن يَطْلبوا ما فى كل واحد من ذَينك المعنيين إذا وقع فى قلوبهم أن فى ذلك تضادًّا أو خلافًا ، فإنَّهم يجدونه بخلاف ما ظَنُّوه فيه ، وإن خفى ذلك على بعضهم فإنما هو لِتَقْصِير عِلْمِهِ عَنْهُ ، لا لأن فيه ما ظنَّه من تضاد أو خلاف ، لأن ما تولاه الله بخلاف ذلك كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِن عِندِ غَيْرِ الله لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ٨٢] » ا . هـ .

وإمَّا للتَّقصير فى البَحْث والتَّدبُّرِ . ولو بَحَثْتَ وتَدَبَّرْتَ لوجدت أن التَّعارض الذى تَوَهَّمْتَهُ لا أَصْلَ له .

يتفرع على هذا الجواب المجمل أَنه يَجِبُ عليك عند الاشْتِباه أن تَرُدَّ المُشْتَبه إلى المُحْكَم لأَن هذه الطَّريق طريق الرَّاسخين فى العِلم . قال الله تعالى : ﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ﴾ [آل عمران : ٧]ويَحْمِلون المُتَشَابِه على المُحْكَم حتى يَبْقى النَّصُّ كُلُّه محكمًا .

الجواب المفصَّل : أَن نُجِيب عن كل نَصٍّ بعينه فنقول : إنَّ قَوْلَ النَّبى ﷺ : « إِنَّكُم سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ لا تُضامُّون فِى رُؤْيَتِهِ »(١) ليس تشبيهًا للمَرْئى بالمرئ ولكنه تَشْبيه للرُّؤْية بالرُّؤْية « تَرَوْنَ كَما تَرَوْنَ » فالكاف فى « كما ترون » دَاخِلَةٌ على مَصْدر مُؤَوّل لأن « ما » مَصْدرية وتَقْدِيرُ الكلام : « كَرُؤْيَتِكُم القَمَر لَيْلَةَ البَدْرِ » وَحِينئذ يكون التَّشْبِيهُ للرُّؤْية بالرؤية ، لا المرئ بالمرئ ، والمراد أَنكم تَرَوْنَهُ رُؤْيَةً وَاضِحَةً كما تَرون القمر لَيْلَة البَدْر ولهذا أَعْقَبهُ بقوله : « لا تُضَامُّونَ فِى رُؤْيَتِه » أو لا تَضارُّون فى رؤيته فزال الإشكال الآن !

٢ – قال : قال النبى ﷺ : « إِنَّ ٱللهَ خَلَقَ آدم عَلَى صُورتِهِ »(٢) والصُّورة مُمَاثلة للأُخرى ولا يَعْقل صورة إلَّا مُمَاثِلة للأُخرى ولهذا أكتب

---

(١) **حَدِيثٌ صَحِيحٌ** : تَقَدَّم تخريجه ص (٧٧) .

(٢) رواه البخارى (٦٢٢٧) ، ومسلم (٢٦١٢) (١١٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

لك رسالة ثم تُدْخِلها الآلة الفوتوغرافيّة وتُخْرج الرِّسالة فَيُقال هذه صُورة هذه ولا فرق بين الحُروف والكَلِمات فالصُّورة مُطَابقة للصُّورة والقائل : إن الله خلق آدم على صورته الرسول عليه الصَّلاة والسلام أعلم وأصدق وأفصح الخلق ؟!

الجواب : نحمله على **الجواب المُجْمَل** ، فنقول لا يمكن أن يُنَاقض هذا الحديث قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : ١١] فإنْ يسَّر الله لك الجمع فاجمع وإلَّا لم يتيسَّر فَقُل : ﴿ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾ [آل عمران : ٧] وعقيدتنا أنَّ الله لا مَثِيل لَهُ فبهذا تسلم أمام الله عز وجل هذا كلام الله ، وهذا كلام رسوله والكُلُّ حَقٌّ ولا يمكن أن يُكَذِّبَ بَعْضه بعضًا لأنه كُلُّه خبر وليس حكمًا كَى يُنْسخ .

فأقول هذا نفىٌ للمماثلة وهذا صوره فالله أَعلم إذا كنت ما عندى جواب مفصّل : ﴿ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾ [آل عمران : ٧] وأَسْكُت ولا أَتكلَّم وهذا هو غاية ما تستطيع .

نأتى إلى **الجواب المفصّل** : نقول : إن الذى قال : « إنَّ الله خَلَق آدم على صُورَته » رسول الذى قال : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : ١١] والرَّسول لا يمكن أَن ينطق بما يكذب المرسل والذى قال : « خَلَق آدم على صَورَته » هو الذى قال : « إِنَّ أَوَّل زُمْرة تَدْخُل الجَنَّة عَلَى صُورةِ القَمَر »[١] فهل أنت تعتقد أن هؤلاء الذين يدخلون الجنة على صُورة القمر أو تعتقد أنهم على صورة البشر لكن فى الوضاءة والحسن والجمال واستدارة الوجه وما أشبه ذلك على صورة القمر ؟ فالجواب : الثانى ، فإنْ قُلْتَ بالأَوَّل

---

(١) رواه البخارى (٣٢٤٥) ، ومسلم (٢٨٣٤) (١٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

فمقتضاه دخلوا وليس لهم أَعْين وليس لهم آنَاف ولَيْسَ لهم أَفْوَاه . وإن شئنا قُلنا دخلوا وهم أحجار إذًا لا يلزم من كون الشيء على صورة الشيء أن يكون مُمَاثِلًا له .

فإن أَبَى فَهْمُك وتَقَاصَر عن هذا وقال أنا لا أفهم إلا أنَّه مُمَاثِل قُلْنا هناك : **جواب آخر** : وهو أن الإضافة هنا من باب إضافة المخلوق إلى خالقه صورة الله مثل قوله عزَّ وجل فى آدم : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحى ﴾ [صٓ : ٧٢] ولا يمكن أنَّ الله عز وجل أعطى آدم جزءً من روحه لكن روح الله يعنى الرَّوح التى خلقها الله عزَّ وجلَّ لكن إضافتها إلى الله بخصوصها من باب التَّشْريف كما نقول « عباد الله » يشمل الكافر والمسلم والمؤمن والشَّهيد و صِّدِيق والنَّبى ، لكننا لو قلنا محمد عبد الله هذه إضافة خاصَّة ليست كالعبودية السَّابقة فإذًا : صورة الله يعني صورة من الصُّور التى خلقها الله وصَوَّرها : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُواْ لِآدَمَ ﴾ [الأعراف : ١١] فالتصوير سابق على القول للملائكة ، إذًا فالمُصَوَّر آدم . إذًا فآدم صُورة الله يعنى إن الله هو الَّذى صَوَّرهُ عَلَى هَذِه الصُّورة التى تعتبر أحسن صُورة فى المخلوقات : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيم ﴾ [التين : ٤] فأَضَاف الله الصُّورة إليه من باب التَّشْريف كَأَنَّه عَزَّ وجل اعْتَنَى بهذه الصُّورة ومن أجل ذلك لا تضرب الوَجه فَيُقَبَّح حسّاً ولا تقبحه فتقول : قبّح الله وَجهَك وَوَجْه مَنْ أَشْبَه وَجْهُك فَتُعِيبُه مَعْنًى . فمن أجل أَنَّه الصُّورة التى صَوَّرها الله وأَضَافها إلى نفسه تَشْرِيفًا وَتكْرِيمًا لا تُقَبِّحها بِعَيْبٍ حِسِّى ولا بِعَيْبٍ مَعْنَوى إذًا : هل تعتبر هذا تأويلًا أم لَهَ نظير ؟ له نظير كما قلنا فى : بَيْت الله ، ونَاقَة الله ، وعبد الله ؛ لأن هذه الصُّورة مُنْفَصِلة بَائِنة من الله . « وكُلُّ شيءٍ أَضَافَه الله إلى نَفْسه وهو منفصل بائن عنه فهو من المَخْلُوقات » فحينئذ نخرج من الإشتباه ولكن إذا قال قائل : أَيُّما أَسْلَم المعنى

الأَوَّل أو الثَّانى ؟ فالمعنى الأَول أَسْلم مَا دُمنا نجد أن لظاهر اللَّفظ مساغًا فى اللُّغة العربية وإمكانًا فى العقل فالواجب حَمْلُ الكلام عليه ونحن وجدنا أن الصُّورة لا يلزم منها مماثلة الصُّورة الأُخرى وحينئذ يكون الأَسْلَم أَن نحمله على ظاهره .

فإذا قلت : ما هى الصُّورة التى تكون لله ويكون آدم عليها ؟ قُلْنَا : إن الله عز وجل لَهُ وَجْهُ وَلَهُ عَيْنٌ وَلَهُ يد وله رجل عز وجل لكن لا يَلْزم من أن تكون هذه الأَشياء مُمَاثلة للإنسان ! فهناك شَىْءٌ من الشبه لكنه ليس شيئًا من المماثلة كما أَن الزُّمْرة الأُولى من أَهْلِ الجَنَّة فيها شبه من القمر لكن بدون مُماثَلة وبهذا يَصْدُق مَا ذَهب إليه أَهْلُ السُّنة والجماعة من أن جميع صِفات الله سبحانه وتعالى ليست مُمَاثِلة لِصِفَات المَخْلُوقين مِن غير تَحْرِيفٍ ولا تَعْطِيلٍ ، وَمِن غير تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيل . نسمع كثيرًا فى الكتب التى نقرأها يقولون « تشبيه » يُعَبِّرون بالتَّشْبيه ، وهم يقصدون التَّمثيل ، فأيُّما أَوْلَى أن نُعبِّر بالتَّشْبيه ، أو نُعبِّر بالتَّمثيل ؟ نقول : بالتَّمثيل أَوْلى .

أولًا : لأَن القرآن عبَّر عنه : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ ﴾ [الشورى : ١١] ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا للهِ أَنْدَادًا ﴾ [البقرة : ٢٢] وما أَشْبه ذَلك وكُلُّ ما عبَّر به القرآن فهو أَولٰى من غيره لأَننا لا نجد أفصح من القرآن ولا أَدَلَّ على المعنى المراد من القرآن والله أعلم بما يُريده من كلامه فتكون مُوافقة القرآن هى الصَّواب فنعبِّر بنفى التَّمثيل .

ثانيًا : أن التَّشْبيه عند بعض النَّاس يعنى إثبات الصِّفات ولهذا يُسَمُّون أَهْل السُّنَّة « مُشَبِّهه » فإذا قلنا « من غير تَشْبِيه » وهذا الرَّجل لا يفهم من التَّشبيه إلَّا إثبات الصِّفات صَار كَأَنَّنا نقول له من غير إثبات صفاتٍ . فصار معنى التَّشْبيه يُوهم مَعْنًى فاسدًا فلهذا كان العدول عنه أَوْلَى .

ثالثًا : أن نفى التَّشْبيه على الإطلاق غير صحيح لأن ما من شَيئين من الأعيان ، أو من الصِّفات إلَّا وبينهما اشتراك من بعض الوُجُوه ، والاشتراك نوع تشابه ، فلو نفيت التَّشبيه مُطلقًا لكنت نَفَيْت كل ما يَشْتَرك فيه الخالق والمخلوق فى شيء ما . مثلًا الوجود يشترك فى أصله الخالق والمخلوق هذا نوع اشْتراك ونوع تَشَابُه لكن فرق بين الوجودين وجود الخالق وَاجب وَوُجُود المخلوق ممكن وكذلك السمع فيه اشتراك الإنسان له سمع والخالق له سمع لكن بينهما فرق لكن أصل وجود السمع مشترك ، فإذا قلنا « من غير تشبيه » ونفينا مطلق التَّشبيه صار فى هذا إشكال ، وبهذا عرفنا أنَّ التَّعبير بالتَّمثيل أَوْلَىٰ من ثَلاثَة أَوجه .

* * *

٤ - « بل يُؤْمِنُون بأنَّ الله سُبْحَانه : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] » .

الشــــرح

● **قوله : « بل يؤمنون ... »** أى : يُقِرُّون بذلك إقرارًا وتَصْديقًا بأنَّ الله ليس كمثله شىء كما قال عن نفسه : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] فهنا نفَى المُمَاثَلة ثُمَّ أَثْبَتَ فنفى العيب ثم أثبت الكمال لأن نفى العيب قبل إثبات الكمال ، ولهذا يقال : « التَّخْلِية قبل التَّحلية » فَنَفْىُ العُيوب يُبدأ به أَوَّلًا ، ثم يذكر إثبات الكمال ، وكلمة « شىءٌ » نكرة فى سياق النَّفى فَتَعمُّ كل شىء . ليس شىءٌ مثله أَبدًا عز وجل أَىُّ مخلوق وإن عَظُم فَلَيْس مُمَاثلًا لله عز وجل لأَنَّ مُمَاثلة النَّاقص نَقْص ، بل إن طلب المُفَاضلة بين النَّاقص والكَامل تَجْعَلُه ناقصًا كما قيل :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ السَّيْفَ يُنْقِصُ قَدْرَهُ ... إِذَا قِيل إِنَّ السَّيْفَ أَمْضَى مِن العَصَا

فهنا لو قلنا إنَّ لله مثيلًا لَزِم من ذلك تنقص الله عز وجل فلهذا نقول : نَفَى الله عَن نَفْسه مُمَاثلة المَخْلُوقين لأَنَّ مُمَاثلة المخلوق نَقْصٌ وَعَيْبٌ ، لأَن المخلوق ناقص وتمثيل الكامل بالناقص يجعله نَاقِصًا بل ذكر المفاضلة بينهما يجعله ناقصًا إلا إذا كان فى مقام التَّحدى أن امتناع التماثل كما فى قوله تعالى : ﴿ آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النمل : ٥٩] وقوله : ﴿ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ ﴾ [البقرة : ١٤٠] . وفى

● **قوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾** [الشورى : ١١] رَدٌّ صريح على الممَثِّلة الذين يثبتون أن الله سبحانه وتعالى له مَثِيل ، وحُجَّة هؤلاء يقولون أن القرآن عَرِبىٌّ وإذا كان عربيًّا فقد خَاطبنا الله تعالى بما نفهم ولا يمكن أَن يُخاطبنا

بما لا نفهم وقد خاطبنا الله تعالى فقال إنَّ له وَجْهًا وأن له عَيْنًا وأن له يَدَيْن وقدمًا ... وما أشبه ذلك ونحن لا نعقل بمقتضى اللُّغة العربية من هذه الأشياء إلا مثل ما نشاهد وعلى هذا فيجب أن يكون مدلول هذه الكلمات مماثلًا لمدلولهما بالنِّسبة للمخلوقات يَدٌ وَيد وعَيْنٌ وَعَين وَسَاقٌ وَسَاق وَقَدَمٌ وَقَدَم .. وهكذا فنحن إنَّما قلنا بذلك لأَن لَدَيْنا دليلًا .

ولا شك أن هذه الحجَّة واهِية ويُوهِّيها ما سبق من بيان أن الله ليس له مثيل ونقول إن الله خاطبنا بما خاطبنا به من صفاته لكننا نعلم علم اليقين أن الصِّفة بحسب الموصوف . ودليل هذا فى الشَّاهد فإنَّه يقال : للجمل يد ، وللذرَّة يد ولا أَحد يفهم من اليد التى أَضفناها إلى الجمل أَولًا أنها مِثْل اليد التى أُضفناها إلى الذرَّة . هذا وهو فى المخلوقات فكيف إذا كان ذلك من أوصاف الخالق فإن التَّباين يكون أُظهر وأَجْلى وعلى هذا فيكون قول هؤلاء الممثلة مردودًا بالعقل كما أَنَّه مردود بالسَّمع .

قال : ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] أُثبت لنفسه سبحانه وتعالى السمع والبصر لأَنَّ مَنْ سِوَاهُ مما يُعبد لا يَسْمَع ولا يُبْصر فالذين يُعْبَدُون من دون الله لا يَسْمَعُون ولو سَمِعُوا ما استجابوا ولا يُبْصرون كما قال الله عز وجل : ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَخْلُقُون شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْيَاء وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ [النحل : ٢٠، ٢١] فهم ليس لهم سمعٌ ولا عقل ولا بَصر ولو فُرض أن لهم ذلك ما استجابوا : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُواْ مِنْ دُونِ الله مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴾ [الأحقاف : ٥] لكن : ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] الله عز وجل سميع بصير فبالسمع يدرك المسموعات وبالبصر يُدرك المرئيات . أما السَّمع والبَصر فنترك الكلام عنه حتى يأتى فى كلام المؤلف – رحمه الله – لكن نفهم الآن السَّمع يعنى الذى يسمع كل مسموع وإن خَفِىَ . وقد سبق

ذكر قول عائشة رضى الله عنها : « تبارك الذى وسِع سمعه الأصوات إنى لفى الحجرة وإنه ليخفى علىّ بعض حديثها (تعنى المجادلة) »(١) والله عز وجل قال فى هذه المرأة : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِى إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ﴾ [المجادلة : ١] . أما البَصير فهو الذى يرى كل مُبْصَر وإن خفى وبعُد . قال الله تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى البر وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فى ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فى كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٥٩] وهو سبحانه وتعالى يُبْصر ما لا يمكن للمخلوق أن يبصره لأنه كامل البصر من كل وجه . فأهل السُّنة والجماعة يؤمنون بانتفاء المُمَاثلة عن الله لأنها عيب ويُثبتون له السَّمع والبصر لقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] وإيمان الإنسان بذلك يُثْمر للعبد أن يعظمه غاية التَّعظيم لأنه ليس مثله أحدٌ من المخلوقات فَتُعظم هذا الرب العظيم الذى لا يُمَاثله أَحدٌ وإلا لم يكن هناك فائدة من إيمانك بأنه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْء ﴾ [الشورى : ١١] إذا آمنت بأنَّه سميع فإنك سوف تحترز عن كل قولٍ يُغْضِبُ الله لأنك تعلم أنه يسْمعك فتخشى عِقَابه فَكُلُّ قَوْل يكون فيه مَعْصِية الله عز وجل فسوف تَتَحاشَاه لأنك تؤمن بأنَّه سميع وإذا لم يحدث لك هذا الإيمان هذا الشىء فاعلم أن إيمانك بأن الله سميع إيمان ناقص بلا شك .

إذا آمنت بأن الله سَمِيعٌ فلن تتكلم إلا بما يُرضيه ولا سيما إذا كنت تتكلم مُعبِّرًا عن شرعه وهو المفتى والمعلم فإن هذا أشد . والله سبحانه يقول : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام : ١٤٤] فإنَّ هذا من أظلم الظُّلم ولهذا قال : ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأحقاف : ١٠] وهذا من عُقوبة من يُفتى بلا علم أنه لا يُهدى

---

(١) **حَدِيثٌ صَحِيحٌ** : تقدَّم تخريجه ص (٧) .

لأنه ظالم . فحذارِ يا أخى المسلم أن تقول قولًا لا يُرضى الله سواءٌ قُلْتَهُ على الله أو على غير هذا الوجه .

وثمرة الإيمان بأَنَّ الله بصير أن لا تفعل شيئًا يغضب الله لإنك تعلم أنَّك لو تَنْظُر نظرة محرّمة لا يفهم الناس أنها نظرةٌ محرّمة فإن الله تعالى يرى هذه النظرة ويعلم ما فى قلبك : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى الصُّدُورُ ﴾ [غافر : ١٩] إذا آمنت بهذا لا يمكن أن تفعل فعلًا لا يرضاه أَبدًا استحى من الله كما تستحى من أقرب الناس إليك وأشدهم تعظيمًا .

إذًا : إذا آمنَّا بأنَّ الله بصير فسوف نتحاشى كل فعل يكون سببا لغضب الله عز وجل وإلا فإن إيماننا بذلك ناقص . لو أن أحدا أشر بأُصبُعه أو شفتِه أو بعينه أو برأسه لأمر محرم فالناس الذين حوله لا يعلمون عنه الله تعالى يَرَاهُ فليحذر هذا . لو أننا نؤمن بما تقتضيه أسماء الله وصفاته لوجدت الإستقامة كاملة فينا . فالله المستعان .

* * *

٥ – « فَلَا يَنْفُون عَنْهُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسه ولا يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عن مَوَاضِعِه » .

الشـــرح

● **قوله : « فلا ينفون عَنْه مَا وَصَفَ به نفسهُ »** كل ما وصف الله به نفسه يُثْبِتُونَهُ بتصديقٍ . فلا ينفون عن الله ما وصف به نَفْسه سواءٌ كان من الصِّفات الذَّاتية أو الفِعلية أو الخبرية .

– الصِّفات الذاتية : كالحياة والقدرة والعلم وما أشبه ذلك وتنقسم إلى ذاتية مَعْنوية وذاتية خبرية وهى التى مُسمَّاها أبعاض لنا وأجزاء كاليد والوَجْه والعين ، فهذه يُسَمِّيها العلماء ذاتية خبرية ، ذاتية : لأنها لا تنفصل ولم يزل الله ولا يزال مُتَّصفًا بها . خبرية : لأنَّها مُتَلَقَّاة بالخبر ، فالعقل لا يدلُّ على ذلك لولا أنَّ الله أخبرنا أنَّ لَهُ يدًا ما علمنا بذلك . لكنَّه أخبرنا بذلك بخلاف العلم والسَّمع والبَصر فإن هذا ندركه بِعُقُولنا مع دلالة السَّمع . لهذا نقول فى مثل هذه الصِّفات اليد والوجه وَمَا أَشْبهها أَنَّها ذاتية خبرية ولا نقول أَجْزاء وأَبْعَاض بل نتحاشى هذا اللفظ لكن مسمَّاها لنا أَجْزَاء وأَبْعَاض ، لأن الجزء والبعض ما جاز انفصاله عن الكل .

فالرَّب عز وجل لا يُتصوَّر أن شيئًا من هذه الصِّفات التى وصف بها نفسه كاليد أن تزول أبدًا لأنَّه موصوف بها أزلًا وأبدًا ولهذا لا نقول أَنَّها أَبْعَاضٌ وأجزاء .

والصِّفات الفعلية هى المتعلقة بمشيئته إن شاء فعلها وإن شاء لم يَفْعَلها وقد ذكرنا : أن هذه الصِّفات الفعلية منها ما نوعه ذاتى ومنها ما ليس نوعه ذاتيًا ومثال ما نوعه ذاتى : الكلام فإنَّ الله لم يَزَلْ وَلَا يَزالُ مُتَكلِّما . وما

ليس نوعه ذاتيًا : كالاستواء على العرش والنُّزول إلى السماء الدنيا ؛ لأن هذا ما صار إلا بعد وُجُود العرش والسَّماء . المهم أن أهل السُّنة والجماعة يُثْبتون كل ما وَصَفَ الله به نَفْسه ولكن حذارِ مما ذكر المؤلف وهو :

● **قوله : « ولا يحرفون الكلم عن مواضعه »** الكلِم : اسم جمع كلمة . ويُراد به كَلَام الله وكلامُ رسوله . « لا يحرفونه عن مواضعه » : أى : عن مَدْلولاته . فمثلًا : قوله تعالى : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة : ٦٤] يقولون : هى يدٌ حقيقية ثابتة لله من غير تكييف ولا تمثيل . والمحرِّفون يقولون « قوَّته أو نعمته » . أمَّا أهل السُّنة فيقولون : القوة شىء واليد شىء والنِّعمة شىء واليد شىء آخر ، فهم لا يُحرِّفون الكَلِم عن مَوَاضعه ، وقد سبق أن التَّحريف من صُنْع اليَهُود : ﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾ [النساء : ٤٦] فكل من حرّف نصوص الكتاب والسُّنة ففيه شبه من اليهود فاحذر هذا ! ولا تَتَشَبَّه بالمغضوب عليهم الذين جعل الله منهم القِرَدَة والخَنَازير وعَبَد الطاغوت . لا تحرِّف ! ابْن الكلام على مَا أَرادَ الله ورسوله . ومن كلام الشافعى ما يذكر عنه : « آمَنْتُ باللهِ وَبِمَا جَاءَ عَنِ اللهِ عَلَى مُرَادِ اللهِ . وَامَنْتُ بِرَسُولِ اللهِ وَبما جَاءَ عَنْ رَسُولِ اللهِ عَلَى مُرَادِ رَسُولِ اللهِ »(١) .

* * *

---

(١) نقله شيخ الإسلام ابن تيمية فى رسالته : الرسالة المدنية ص (٦ ، ٧) وقال : « أما ما قال الشافعى فإنه حق يجب على كل مسلم اعتقاده . ومن اعتقده ولم يأت بقول يناقضه ، فإنه سلك سبيل السلامة فى الدنيا والآخرة » ا . هـ .

٦ - « ولا يُلْحِدُون فى أَسْمَاءِ الله وَآيَاتِهِ »

الشـــرح

● **قوله** : « **يلحدون** ... » فعل مضارع من أَلْحَد والإلحاد فى اللُّغة : الميل ومنه سُمِّى اللّحد فى القبر لأنَّه مَائِلٌ إلى جانب منه(١) وليس متوسطا والمتوسط يسمى شقًّا . واللّحد أفضل من الشق . فهم لا يلحدون فى أسماء الله ولا يُلحدون أيضًا فى آيات الله فأفادنا المؤلف - رحمه الله - أن الإِلْحَادُ يكون فى موضعين : فى الأسماء ، وفى الآيات . ونقول : نعم هذا الذى يُفِيدُه كلام المؤلف قد دَلَّ عليه القرآن قال الله تعالى : ﴿ وَلله الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِها وَذرُواْ الذِينَ يُلْحِدُونَ فى أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨٠] فأثبت الله الإلحاد فى الأسماء . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذينَ يُلْحِدُونَ فِى آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ﴾ [فصلت : ٤٠] فَأَثْبَتَ الله الإِلْحَادُ فى الآيات .

إذًا كيف يكون الإلحاد فى الأَسماء ؟

قال العلماء : إن الإلحاد فى الأسماء : هو الميل فيها عما يجب . وهو أنواع :

النوع الأول : أن يُسمِّى الله بما لم يُسَمِّ به نفسه كما سمَّاه الفلاسفة : علة فاعلة ، أو تسمية النصارى له أَبًا وَعِيسى الإبن فهذا إلحادٌ فى أسماء الله وكذلك لو سمَّى الله بأى اسم لم يسمِّ به نفسه فهو مُلْحِدٌ فى أَسماء الله .

ووجه ذلك : أن أَسماء الله عز وجل تَوْقِيفيَّة فلا يمكن أن نُثْبت له إلا

---

(١) كما قال البخارى فى صحيحه (٢٥٢/٣) : « ... وسُمِّىَ اللَّحد ؛ لأنه فى ناحية وكلُّ جائر ملحد » ا . هـ .

مَا ثَبت بالنَّص فإذا سمَّيت الله بما لم يُسَمِّ به نَفْسهُ فقد ألْحَدْت وَمِلْتَ عن الوَاجب . وتَسْمية الله بما لم يَسَمِّ به نفسه ظُلْمٌ وعُدْوان على الله عز وجل ، فمع أنَّه سُوء أَدب فَهُو ظُلْمٌ وعُدوان ؛ لأنه لو أن أحدًا دعاك بغير اسمك وسمَّاك بغير اسمك فتعتبره اعتدى عَلَيْك وَظَلَمَك هذا فى المخلوق فكيف بالخالق ؟!

إذًا : ليس لك حق أن تُسَمِّى الله بما لم يُسَمِّ به نَفْسُه فإن فَعَلْتَ فأَنْتَ مُلْحدٌ فى أَسماء الله .

النَّوع الثَّانى : أن يُنكر شَيْئًا من أسمائه عكس الأول ، فالأَوَّل سمَّى الله بما لم يُسَمِّ به نفسه . وهذا جرَّد الله ممَّا سمَّى به نفسه فينكر الاسم ، سواء أنْكَر كل الأَسماء أو بعضها التى ثَبَتَت لله فإذا أنكرها فقد ألحد فيها . ووجه الإلحاد فيها أنَّه لما أثبتها الله لنفسه وَجَبَ علينا أن نثبتها له فإذا نفيناها كانَ إلحادًا وَمَيْلًا بها عَمَّا يجب فيها . وهناك من النَّاس من أنكر الأسماء كغلاة الجهمية . فقالوا : ليس لله اسم أبدًا قالوا : لأَنَّك لو أَثْبَتَّ له اسمًا شَبَّهته بالموجودات وهذا معروف أَنَّه باطل وسبق الكلام فى رَدِّه .

النَّوع الثَّالث : أن يُنكر مَا دلّت عليه من الصِّفات . فهو يثبت الاسم لكن ينكر الصِّفة التى يتضمَّنها هذا الاسم مثل أن يقول : إن الله سَمِيعٌ بلا سَمْع وَعَلِيمٌ بلا عِلم وَخَالِقٌ بلا خَلْق وَقادِرٌ بلا قُدْرَة ، وهذا غير معقول ثم هؤلاء يجعلون الأسماء أعلامًا مَحْضة فيقول السميع غير العَليم لكن كلها ليس لها معنى . السميع لا يدل على السمع والعليم لا يدل على العِلم لكن مجرد أعْلام .

وهنا آخرون يقولون : هذه الأسماء شيء واحد فهى عليم وسميع وبصير كلها واحد لا تختلف إلَّا بتركيب الحروف فقط فيجعل الأسماء شيئًا واحدًا

وكل هذا شيء غير معقول . ولذلك نحن نقول : إنَّه لا يمكن الإيمان بالأسماء حتى تثبت ما تضمَّنته من الصِّفات ولعلّنا من هنا نتكلم على دِلالة الاسم فالاسم له أنواع ثلاثة فى الدِّلالة : دلالة مطابقة ، ودلالة تضمن ، ودلالة التزام .

١ - **فدلالة المطابقة** : أن كل اسم دالٌّ على ذات الله والصِّفة المشتق منها هذا الاسم .

٢ - **ودلالة التَّضمُّن** هى دلالة هذا الاسم على الذات وحدها وعلى الصِّفة وحدها .

٣ - **ودلالة الإلتزام** : دلالته على شيء يُفْهم لا من لفظ الاسم لكن من لازمه ولهذا سميناه دلالة التزام .

مثل : كلمة الخالق اسم يدلُّ على ذات الله ويدلُّ على صِفة وهى الخلق إذًا فباعتبار دِلالته على الأمرين نسمى هذا النوع دلالة مطابقة لأن اللفظ والمعنى تَطَابَقَا . ولا شك أنَّك إذا قلت الخالق فإنك تفهم خَالِقًا وخَلْقًا .

دلالة التَّضمن : لأنه تضمَّن الذات ويتضمن الصِّفات فنحن الآن نريد أن نفصل المدلولين بعضهما عن بعض فنقول مدلولة ذات وصفة فَصار إن أردت دلالة اللفظ على كل المعنى مطابقة وعلى جزئه نضمن الالتزام .

لا يمكن خلق إلا بعلم وقُدْرة وَدِلالته على القدرة والعِلم دلالة التزام . ليتبيّن أن الإنسان إذا أنكر واحدًا من هذه الدِّلالة فهو ملحد فى الأسماء .

لو قال أنا أُومن بدلالة الخالق على الذات ولا أُومن بدلالته على الصِّفة فهو ملحدٌ فى الاسم .

لو قال أنا أُومن بأن الخالق تدل على ذات الله وعلى صفة الخلق لكن

لا تدلُّ على صفة العلم والقدرة قلنا هذا إلحادٌ أيضًا فلازم علينا أن نثبت كل ما دَلَّ عليه هذا الاسم فإنكار شيءٍ مما دلَّ عليه الاسم من الصِّفة إلحاد فى الاسم سواءٌ كانت دِلالته على هذه الصِّفة دلالة مطابقة أو تضمن أو التزام ولننظر إلى الدِّلالة الحسِّية وانطباق الدِّلالات الثَّلاث عليها . فمثلًا لو قلت : « لى بيت » كلمة بيت فيها الدِّلالات الثَّلاث . فتفهم من « بيت » أنَّها تدلُّ على كل البيت بسورة دلالة مطابقة وتدل كلمة « بيت » على مجلس الرجال وَحْدَهُ وعلى الحمَّامات وَحْدَها وعلى الصَّالة وَحْدَها دِلالة تضمُّن لأَنَّ هذه الأَشياء جزءٌ من البيت ودلالة اللَّفظ على جزء مَعْناه دِلالة تضمن . تدل كلمة « بيت » على أن هناك بَانِيًا بناه دِلالة التزام لأن كلمة « بيت » ليس فيها بانى لكن دَلَّت عليه بالالتزام لأنه مَا مِن بيت إلا وَلَهُ بانى .

النَّوع الرابع من أنواع الإلحاد فى الأسماء : أن يثبت الأسماء لله والصِّفات التى فيها لكن يجعلها دَالَّة على التَّمثيل أى دالة على بصر كبصرنا وَعِلْم كَعِلْمنا ومَغْفرة كمغفرتنا وَمَا أَشْبه ذلك فهذا إلحاد لأنه مَيْلٌ بها عمَّا يجب فيها .

النَّوع الخامس : أن ينقلها إلى المعبودات أو يشتق أسماء منها للمعبودات مثل أن يسمِّى شيئًا معبودًا بالإله فهذا إلحادٌ أو يشتق منها أسماءً للمعبودات مثل اللات من الإله ، والعُزَّى من العزيز ، ومناة من المنَّان فنقول هذا أيضًا إلحادٌ فى أسماء الله لأن الواجب عليك أن تجعل أسماء الله خاصة به ولا تتعدَّى وتتجاوز فتشتق للمعبودات منها أسماءً . هذه أنواع الإلحاد فى أسماء الله . فأهل السُّنة والجماعة لا يلحدون فى أسماء الله أبدًا بل يُجْرونها على ما أراد الله بها سبحانه وتعالى ويثبتون لها جميع أَنْواع الدّلالات لأَنهم يرون أَن ما خالف ذلك فهو إلحاد .

وقوله : « **ولا يلحدون فى آيات الله** » ما هى أقسام آيات الله ؟ فنقول أولًا : تعريف الآية : وهى العلامة المميزة للشّئ عن غيره والله عزَّ وجلَّ بعث الرُّسل بالآيات لا بالمعجزات ولهذا كان التَّعبير بالآيات أَحْسَنُ من التَّعبير بالمعجزات .

أولا : لأن الآيات هى التى يُعَبَّر بها فى الكتاب والسُّنة . ثانيا : أن المعجزات قد تقع من ساحر ومشعوذ وما أشبه ذلك تُعجز غيره . ثالثا : أن كلمة آيات أدل على المعنى المقصود من كلمة معجزات . آيات الله عز وجل هى العلامات الدَّالة على الله عز وجل وحينئذ تكون خاصّةً به وَلولا أنَّها خاصَّة ما صارت آية له .

وآيات الله عزَّ وجل تنقسم إلى قسمين :

آيات كونية وآيات شرعية .

والدليل على ذلك قوله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الَّلَيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ [فصلت : ٣٧] ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ [الروم : ٢٠] ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَات وَالْأَرْض وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ . وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السمَاءِ مَاءً فَيُحْيِى بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُون ﴾ [الروم : ٢٢-٢٥] .

● **هذه الآيات كونية** .. وهى تتعلّق بالتَّكوين والخلق وإن شئت فقل كوْنية قدرية ، وكانت آية لله لأنه لا يستطيع الخلقَ أن يفعلوها فمثلًا لا يستطيع أحدٌ أن يخلق مثل الشمس والقمر ولا يستطيع أن يأتى باللَّيل إذا جاء

النهار ولا بالنهار إذا جاء الليل فهذه آيات كونية ، والإلحاد فيها : أن ينسبها إلى غير الله استقلالًا أو مشاركة فيقول هذا من الولى الفلانى أو من النبى الفلانى .

ثانيًا : أو يعتقد أن لله مُشَاركًا أو معينًا فيها ولهذا قال الله تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فى السَّمٰوَاتِ وَلَا فى الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾ [سبأ : ٢٢] فنفى كل شيء يتعلق به المشركون بكون معبوداتهم لا تملك شيئا فى السموات والأرض استقلالًا أو مشاركة ولا معينة لله عز وجل ثم جاء بالرابع : ﴿ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ [سبأ : ٢٣] لما كان المشركون قد يقولون « نعم » ! هذه الأصنام لا تملك ولا تشارك و لم تعاون لكنها شفعاء قال : ﴿ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ فَقَطَع كل سَبَب يتعلّق به المشركون .

● **القسم الثّانى من الآيات : الآيات الشرعية** : وهى ما جاءت به الرّسل من الوحى كالقرآن العظيم وهو آية لقوله تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ ﴾ [البقرة : ٢٥٢] ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِن رَبِّه قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِم ﴾ [العنكبوت : ٥٠،٥١] فجعله آيات . ويكون الإلحاد فيها إمَّا بتكذيبها أو تحريفها أو مُخَالفتها .

● تكذيبها بأن يقول ليست من عند الله فيكذِّب بها أصلًا أو يُكَذِّب بما جاء فيها من الخبر فيقول مثلا قصةُ أصحاب الكهف ليست صحيحة وقصة أصحاب الفيل ليست صحيحة والله لم يرسل عليهم طيرًا أبابيل بل أصابهم بالجُدرى و« طيرًا أبابيل » عبارة عن مكروبات الجدرى(١) والحقيقة أن هذا

(١) وقد قال بهذا التفسير طائفة من أصحاب المدرسة العقلية الحديثة مثل الشيخ أحمد =

تحريف لكن مع ذلك قيل به . فالتكذيب أن يكذب أصل النُّزول مثل ما كذبت قريش الرَّسول ﷺ ﴿ فَقَالُوْا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر : ٢٤] أو يكذب ما فيها من خبر كأن يكذب بِقصَّة أصحاب الفيل وغيرها .

● الثانى : التَّحريف : فتحريف النّصوص إلحادٌ أى : بِصَرْفها عمَّا أُراد الله بها ورسوله فهذا مُلْحِد لأنه مَال عمَّا يجب فيها .

● الثالث : مخَالفتها بترك الأَوامر أو فِعل النَّواهى فإنَّ هذا إلحادٌ . قال الله تعالى فى المسجد الحرام : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الحج : ٢٥] فكلُّ المعاصى إلحادٌ لأَنها خروج بالآيات عمَّا يجب لها إذ الواجب علينا أن نمتثل الأوامر وأن نجتنب النَّواهى فإن لم نقم بذلك فهذا إلحاد .

فصار الإلحاد فى الآيات يَنْقَسم باعتبار انقسام الآيات إمَّا كونية وإمَّا شرعية .

أهل السنة والجماعة يتبرَّؤُون من ذلك لا يلحدون فى أسماء الله ولا فى آياته بل يَقُومون بالواجب عليهم فى ذلك وذاك .

* * *

= مصطفى المراغى فى تفسيره (٣٠/٢٤٣) ، ومحمد فريد وجدى فى المصحف المفسر ص (٨٢٢) ، ومحمد عبده فى تفسير جزء عم ص (١٥٥-١٥٦) . وراجع : منهج المدرسة العقلية الحديثة فى التفسير للدكتور فهد الرومى ص (٧١٩: ٧٢٩) .

٧ – « وَلَا يُكَيِّفُونَ وَلَا يُمَثِّلُونَ صِفَاتُه بصفاتِ خَلْقِه ، لأَنَّه سُبْحَانَه لا سَمِيَّ وَلَا كُفُو لَهُ ، وَلَا يُقَاسُ بِخَلْقِهِ سُبْحَانَهُ » .

الشـــرح

● **قال المؤلف : « ولا يكيفون »** وَسَبَق أن التكييف ذكر كيفية الصِّفة سواءٌ ذكرتها بِلِسَانك أو بِقَلْبك . فأهل السُّنة والجماعة لا يُكَيِّفُون أبدًا ، يعنى لا يقولون كيفية يَدُه كذا وكذا ، ولا كيفية وَجْهُه كذا وكذا ، فلا يكيفُون هذا باللسان . ولا بالقلب أيضًا يعنى نفس الإنسان لا يتصور كيف استوى الله عز وجل أو كيف ينزل ، أو كيف وجهه ، أو كيف يده ، ولا يمكن أن تتصور ذلك ولا يجوز أن تحاول ذلك أيضًا لأن هذا يُؤَدِّى بك إلى أحد أمرين :

إمَّا التَّمثيل وإمَّا التَّعطيل ولهذا لا يجوز للإنسان أن يحاول معرفة كيفية استواء الله على العرش أو يقوله بلسانه بل ولا يسأل عن الكيفية لأن الإمام مَالكًا – رحمه الله – قال : « السُّؤَالُ عَنْه بِدْعَة » لا تَقُل كيف استَوىٰ ؟ كيف ينزل ؟ كيف يأتى ؟ كيف وجهه ؟ إن فعلت ذلك قلنا أنك مُبْتدع .. وقد سبق ذكر الدَّليل على تحريم التَّكييف وذكرنا دليلين سَمْعِيّين وَدَليلين عقليين .

● **قال : « وَلَا يُمَثِّلُونَ صِفَاتُه بِصِفَاتِ خَلْقِهِ »** وهذا معنى قوله فيما سبق : « مِنْ غَيْر تَمْثِيلٍ » وسبق لنا امتناع التَّمثيل سمعًا وعَقْلًا وأن السمع فى التمثيل ورد خبرًا وطلبًا وفطرة . فهم لَا يُكَيِّفُونَ ولا يُمَثِّلُون .

● **قال المؤلف : « لأنه سُبْحانه »** سبحان : اسم مصدر سبّح والمصدر من سَبَّح تَسبيح فسبحان بمعنى تسبيح دَالَّة على المعنى لكنها بغير اللَّفظ وكل

مَا دلَّ على معنى المصدر وليس بلفظه فهو اسم مَصْدر كسُبْحان وكلام وسلام ومعنى « سبح » قال العلماء : معناها « نزّه » وأصلها من السبح وهو البعد كأنَّك تبعد صفات النَّقص عن الله عزَّ وجل فهو سبحانه وتعالى مُنَزَّهٌ عن كل نقص . لكن مَا إعرابها ؟ يقولون : إنها منصوبة دائمًا على المفعولية المطلقة وعاملها محذوف دائمًا .

● **قال** : « **لأَنَّه سُبْحَانَهُ لَا سَمِيَّ لَهُ** » دليل ذلك قوله تعالى : ﴿ رَبّ السَّمَاوَات وَالْأَرْض وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم : ٦٥] هل : استفهام لكنه بمعنى النَّفى ويأتى النَّفى بصيغة الاستفهام لفائدة عظيمة وهى التَّحدى لأَن هناك فرقًا بين أن أَقول : لا سَمِيَّ لَهُ أَو ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ لأن ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ مُتضمِّن للنَّفى وللتحدى أَيضًا فهو مشربٌ معنى التَّحدى وهذه قاعدة مهمة : « كلما كان الاستفهام بمعنى النَّفى فهو مشربٌ معنى التَّحدى » كأَنِّى أَقول : إن كنت صادقًا فَأْتنى بسَمِيٍّ لَهُ وعلى هذا فـ ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ أَبْلَغُ من « لا سَمِيَّ له » .

● **وقوله** : « **وَلا كفء له** » والدَّليل قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَهُ كُفُوًا أَحَد ﴾ [الإخلاص : ٤] « ولا ند له » الدليل قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُواْ لله أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٢] أى تعلمون أَنه لا ند له والنِّد بمعنى النَّظير . وهذه الثَّلاثة : السَّمى والكفء والنِّد معناها مُتقَارب جِدًّا لأن معنى الكُفء : الَّذى يكافأه ولا يكافء الشَّىء الشَّىء إلا إذا كان مِثله فإن لم يكن مِثْله لم يكن مكافئًا له إذًا : لا كُفء له : أى ليس له مَثِيل سبحانه وتعالى . وهذا النفى المقصود منه كمال صِفاته لأنه لِكَمَالِ صِفَاته لا أَحد يُمَاثِله .

● **قوله : « ولا يُقَاسُ بِخَلْقِهِ سُبحانه وتَعالى »** القياسُ ينقسم إلى ثلاثة أقسام : قياس شمول ، وقياس تمثيل ، وقياس أولوية . فهو سبحانه وتعالى لا يقاس بخلقه قياس تمثيل ولا قياس شمول .

١ - **قياس الشمول** : هو ما يُعْرفُ عندنا بالعام الشَّامل لجميع أفراده بحيث يكون كل فَرْدٍ منه دَاخِلًا فى مُسَمَّى ذلك اللَّفظ وَمَعْنَاه . فمثلًا إذا قلنا الحياة فإنه لا تُقَاسُ حَيَاةُ الله تعالى بحياة الخلق لأن الكُل يشمله اسم « حى » .

٢ - **قياس تمثيل** : بمعنى أن نجعل ما يُثْبَتُ للخَالق مثل ما يُثْبَتُ للمخلوق .

٣ - **قياس الأولوية** : وهذا يقول العلماء أنَّه مُسْتعملٍ فى حقِّ الله لقوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النحل : ٦٠] بمعنى كل صِفَةُ كَمَالٍ فلله تعالى أَعْلَاها . السَّمع والبصر والعلم والقدرة والحياة والحكمة وما أشبهها موجودة فى المخلوقات لكن لله أعلاها وأكملها . ولهذا أحيانًا نستدل بالدِّلالة العقلية من زاوية القِياس بالأُولى فمثلًا نقول : العلو صِفَةُ كمال فى المخلوق فإذا كان صفة كمال فى المخلوق فهو فى الخالق من باب أَوْلَى ، وهذا دائمًا نجده فى كلام العلماء . فقول المؤلف - رحمه الله -: « ولا يُقَاسُ بِخَلْقِه » بعد قوله : « لا سمى ولا كفء له ولا ند له » : يعنى القِياس المقتضى للمُسَاواة وهو قياس الشمول وقياس التمثيل إذًا : يمتنع القياس بين الله وبين الخلق للتَّباين بينهما . وإذا كنا فى الأحكام لا نقيس الواجب على الجائز أو الجائز على الواجب ففى باب الصِّفات بين الخالق والمخلوق من باب أَوْلَى . لو قال لك قائل : الله موجود والإنسان موجود ونقول وُجُود الله كوجود الإنسان بالقياس فنقول : لا يَصِح ، لأَن وُجُود الخالق واجب ووجود الإنسان ممكن .

فلو قال : أقيس سَمْعَ الخالق على سَمْع المخلوق نقول : لا يمكن سَمْع الخالق واجبٌ له لا يعتريه نَقْصٌ وهو شامل لكل شيء وسَمْعُ الإنسان ممكن إذ يجوز أن يولد الإنسان أصم . والمولود سَمِيعًا يَلْحَقُه نقص السمع . وسمعه محدود إذًا : لا يمكن أن يُقَاس الله بخلقه فكل صِفَات الله لا يمكن أن تُقَاس بصفات خلقه لظهور التَّباين العظيم بين الخالق وبين المخلوق .

* * *

٨ - « فَإِنَّه أَعْلَمُ بِنفسِهِ وَبِغَيْرِه وَأَصْدَقُ قِيلاً وَأَحْسَنُ حَدِيثًا مِن خَلْقِهِ » .

الشـــرح

قال المؤلف : هذا تَمهيدًا وتَوْطِئة لوُجُوب قَبول مَا دَلَّ عليه كَلَامه من صفاته وغيرها .

● يقول : « **أعلم بنفسه** ... » وسبق أن العلم من الصفات التى يتم بها مطابقة الخبر للمخبر عنه « **وأصدق قيلًا** » الوَصْفُ الثانى .. « **وَأَحْسَنُ حَدِيثًا** » هذا هو الوَصْف الثَّالث . وذكرنا فيما سبق أن الكلام يُوصف بِأَرْبَع صِفَات : العِلْم وَالصِّدق والبَلاغة والقَصْد .

● وقوله : « **فَإِنَّه أَعْلَمُ بِنفْسِه وَبِغَيْرِه** » قال تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْض وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبيينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [الإسراء: ٥٥] وهو أَعْلَمُ بنفسه أيضًا لقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٠] وهو قَدْ أَحَاطَ بِنَفْسِه عِلْمًا إِذًا : هو أَعْلَمُ بِنَفْسِه وَبِغَيْره مِن غيره فَهُو أَعْلَمُ بكَ مِن نَفْسِك لأَنَّه يعلم مَا سَيَكُون لك فى المستقبل وأَنت لا تَعْلَمُ ماذا تَكْسِب غدًا . كلمة « أَعْلَم » هنا اسم تفضيل ولقد تَحَاشَاهَا بَعْضُ العُلماء وفسَّر « أَعْلَم » بِعَالِم فقال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالمُهْتَدِين ﴾ [النحل : ١٢٥] أى هو عَالِمٌ بمن ضَلَّ عن سَبِيله ؛ قال : لأن « أَعْلَم » اسم تفضيل وهو يقتضى اشتراك المفضَّل والمفضَّل عليه ، وهذا لا يجوز بالنِّسبة لله لكن « عالم » اسم فاعل وليس فيه مُقارنة ولا تفضيل وفسِّر أعلم « بعالم » .

فنقول له : ما أجهلك بِلُغَتِك وما أجهلك بالقرآن ! الله يُعبِّر عن نفسه فيقول « أعلم » وأنت تقول « عالم » وإذا فَسَّرنا أَعْلَم بِعَالم فقد حَطَطْنَا من قَدْر عِلْم الله لأن « عالم » يشترك فيها غير الله لكن « أعلم » مقتضاه أن لا يُسَاويه أحدٌ فى هذا العلم فهو أعلم من كل عالم وهذا أكمل فى الصِّفة بلا شك . ونقول له : إن اللُّغة العربية بالنِّسبة لاسم الفاعل لا تمنع المُشَاركة فى الوصف لكن بالنِّسبة لاسم التَّفضيل تمنع المُشَاركة فيما دلَّ عليه . ونقول أيضًا : فى باب المقارنة لا بأس أن نقول « أعْلَم » بمعنى أن نأتى باسم التَّفضيل ولو فُرِضَ خُلو المُفضَّل عنه من ذلك المعنى كما قال الله تعالى : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ [الفرقان : ٢٤] فجاء اسم التفضيل مع أن المفضَّل عليه ليس فيه شىء منه إطلاقًا .

فى باب التنزُّل مع الخصم ومحاجَّته يجوز أَنْ نَأْتى باسم التَّفضيل وإن كان المُفَضَّل عليه ليس فيه شىء مِنه . قال الله تعالى : ﴿ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النمل : ٥٩] ومعلوم أن ما يشركون ليس فيها خير . وقال يوسف : ﴿ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [يوسف : ٣٩] والأَرْبَاب ليس فيها خير فالحاصل أن نقول : إن « أَعْلَم » الواردة فى كتاب الله يُرَاد بها معناها الحَقيقي . وَمَنْ فَسَّرها بِعَالم فقد أَخْطأَ من حيث المعنى ومن حيث اللُّغة العربية وَأَعْلَم فى قول المؤلف : « وهو أعلم بنفسه » على ظاهرها .

● يقول : « **وَأَصْدَقُ قِيلًا** » الله سُبحانه أَصْدَقُ قيلًا من كل قائل والصِّدق مُطَابقة الكَلام للواقع ولا شَىء من الكَلام يُطَابق الواقع كما يُطَابقه كلامُ الله سبحانه وتعالى فكلُّ ما أَخبر الله به فهو صِدق بل أَصْدَقُ من كل قول . قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾ [النساء : ١٢٢] .

● يقول : « **وَأَحْسَنُ حَدِيثاً مِنْ خَلْقِهِ** » أَحْسَن مِن حَدِيثنا لأن حُسْنه يَتَضمَّن الحُسْن اللَّفظى والمعنوى بخلاف الفصاحة فإنَّه قد لا يفهم منها إلا الحُسن اللفظى وإن كانت قد تشمل الحُسن المعنوى لكن إذا قلنا أحسن فهو أحسن . فنقول : أَحْسَن بدل أفصح لأجل أن يشمل البلاغة وحسن المعنى وغير ذلك فاجتمع فى كلامه عز وجل أربعة أوصاف : العلم والصِّدق والحُسْن والقَصْد وحسن القصد موجود فى كلام الله : ﴿ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا ﴾ [النساء : ١٧٦] ﴿ يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ [النساء : ٢٦] إذًا الله عز وجل أراد بكلامه البيان لخلقه فاجتمع فى كلام الله الأنواع الأربعة التى تُوجب قُبول الخبر . إذا كان كذلك فإنَّه يجب أن نقبل كلامه على ما هو عليه . ولهذا كان كلام المؤلف هذا توطئة لما سيأتى يجب أن نقبل كلامه وأن لا يلحقنا شَكٌّ فى مدلوله لأن الله لم يتكلَّم بهذا الكلام لِأجل إضلال الخلق بل لِيُبَيِّن لهم ويهديهم . وصدَّر كلام الله عن نفسه أو عن غيره عن أعلم العلم ولا يمكن أن يعتريه خلاف الصِّدق . ولا يمكن أن يكون كلامًا عييًا غير فَصِيح وكلام الله لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لما استطاعوا فإذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة فى الكلام وجب على المخاطب القبول على ما دلَّ عليه . مثال ذلك : قوله تعالى مخاطبًا إبليس : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ [ص : ٧٥] قال قائل : فى هذه الآية إثبات اليدين لله عز وجل يخلق بهما فنثبتهما لأن كلام الله عزَّ وجلَّ صَادِرٌ عن عِلْمٍ وَيَعْلم عزَّ وجلَّ أَنَّ له يدين وصدق وَكَلامه أَحْسن الكلام وأَفْصَحُه وأَبينهُ ولا يمكن أن يكون يعلم أَنَّه لَيْس لَهُ يدان لكن أَراد من النَّاس أن يعتقدوا ذلك فيه وليس فيه ولو فُرض هذا لكان مقتضاه أَن القرآن ضلال حيث جاء بِوَصْفِ الله بما ليس فيه وهذا ممتنع فإذا كان كذلك وجب عليك أن تؤمن بأن لله تعالى يَدَيْنِ اثنتين يخلق بهما خلق بهما آدم . وإذا قلت :

المراد بهما النِّعمة أو القُدرة قلنا : لا يمكن أن تقول هكذا إلَّا إذا اجْترأت على ربِّك وَوَصَفْت كلامه بأَحَد الأَوصاف الأَربعة التى هى ضِد ما قُلنا أو بها جميعًا فنقول : هل الله عز وجل حينما قال : ﴿ بِيَدَىَّ ﴾ عالم بأَنَّ له يدين ؟ فإذا قال : عالِم . فقل هل هو صادق ؟ فسيقول : هو صادق بلا شك ولا يستطيع أن يقول هوغير صادق ولا أن يقول عبّر بهما وهو يُريد غيرهما عِيًّا وعجزًا ولا أراد من خلقه أن يؤمنوا بما ليس فِيهِ من الصِّفات إضلالًا لهم إذًا ما الذى يمنعك أن تثبت لله اليدين ؟ أنت إذا قُلْت خلاف ذلك فَقَد وَصَفْت ربَّك بأَحد الأوصاف الأربعة المُضادة لما قلنا وهي الجهل أَو الكذب أو العى أو سوء الإرادة فاستغفر ربَّك وتُب إليه وقل آمنت بما أخبر الله به عن نَفْسه لأَنه أَعلم بنفسه وبغيره وأَصدق قِيلًا وَأَحْسن حَدِيثًا من غيره وَأَحْسن إرادة من غيره أيضًا .

● ولهذا المؤلف – رحمه الله – أَتى بهذه الأُمور الثلاثة ونحن نزيد الأمر الرابع : وهو « الإرادة » إرادة البيان للخلق وإرادة الهداية لهم وهذا مَوْجودٌ فى القرآن : ﴿ يُبَيِّنُ الله لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا ﴾ [النساء : ١٧٦] .

* * *

هذا ما أخبر الله به عن نفسه بكلامه الذى هو جامع للكمالات الأربع فى الكلام . أما ما أخبرت به الرُّسل فقال المؤلف :

٩ - « ثُمَّ رُسُلَهُ صَادِقُون مَصْدُوقُون بِخِلَافِ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَيْهِ مَا لَا يَعْلَمُونَ » .

الشـــرح

« **ثُمَّ رُسُلَهُ صَادِقُونَ مَصْدُوقون** »(*) الصَّادق : المُخْبِرُ بِما طَابَق الوَاقِع . كل الرسل « صَادقون » ولكن هنا مسألة : لابد أن يثبت السند إلى الرُّسُل عليهم السلام فإذا قالت اليهود : قال مُوسَىٰ كذا وكذا فلا نقبل حتى نَعْلم حجة سَنَدِه إلى مُوسى . إذا قالت النَّصارى : قال عيسى كذا وكذا . فلا نَقْبل حتى نعلم صِحَّة السَّند إلى عيسى . وإذا قال قائل : قال محمدٌ رسول الله كذا وكذا . فلا نقبل حتى نعلم صِحَّة السَّند . لكن إذا وصل إلى الرَّسول انتهى الأَمْرُ . فَرُسُلُهُ صَادِقون فِيما يَقُولون فكل ما يخبرون به عن الله وعن غيره من مَخْلُوقاته فهم صَادِقون فيه لا يكذبون أبدًا ولهذا أجمع العُلماء على أن الرُّسل عليهم الصلاة والسلام معصومون من الكذب « مَصْدُوقُون أو مُصَدّقُون » أمَّا على نسخة « مصدوقون » فالمعنى أن مَا أُوحى إليهم فهو صِدْقٌ والمَصْدُوق الذى أُخبر بالصِّدق . والصَّادق : الذى جاء بالصِّدق ومنه قول الرسول عليه الصَّلاة والسلام لأبى هريرة حين قال له الشَّيطان : إنك إذا قرأت آية الكرسى لم يَزَلْ عَلَيْكَ مِن الله حافظ وَلَا يَقْرَبُك شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبح . قَال لَهُ : « صَدَقَكَ وَهُو كَذُوبٌ » يعنى أَخبرك بالصِّدق . فالرُّسل مَصْدُوقُون . كل ما أُوحِيَ إليهم فهو صِدْقٌ ما كَذَّبهم الذى أَرسلهم ولا كَذَّبهم الذى أُرسل إليهم وهو جبريل عليه الصَّلاة والسلام ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ

(*) وفي نسخة : « مصدّقون » .

رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِى قُوَّةٍ عِنْدَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [التكوير : ١٩-٢١] « مصدَّقون » بمعنى أنه يجب على أممهم تصديقهم . وعلى هذا يكون مُصَدّقون شرعًا يعني يجب أن يصدّقوا شرعًا فمن كذّب بالرسل فهو كافر ويجوز أن يكون معنى مُصَدَّقون له وجه آخر أى أن الله تعالى صدّقهم ومعلوم أن الله تعالى صدَّق الرُّسل صدَّقهم بقوله وبفعله أمَّا بقوله فإنَّ الله قال لرسوله محمد عليه الصَّلاة والسلام : ﴿ لَكنَّ الله يَشْهَدُ بِمَا أُنزلَ إِلَيْكَ ﴾ [النساء : ١٦٦] وقال : ﴿ وَالله يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾ [المنافقون : ١] فهذا تَصْديق بالقَول .

أمَّا تصديقه بالفِعْل فبالتمكين له وإظهار الآيات فهو يأتى للنَّاس يدعوهم إلى الإسلام فإن لم يَقْبلوا فالجزية فإن لم يَقبلوا اسْتباح دماءهم ونساءهم وأموالهم والله تعالى يُمَكِّن له ويَفْتَح عليه الأرض أرضًا بعد أرض حتى بَلَغت رسالته مشارق الأَرْض وَمَغَارِبها فهذا تصديق من الله بالفِعل . كذلك أيضًا مَا يُجريه الله على يديه من الآيات تَصْدِيقٌ لَهُ سواءً كانت الآيات شرعية أم كونية فالشَّرعية كان دائمًا يُسئل عن الشَّىء وهو لا يعلمه فيُنزل الله الجواب : ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء : ٨٥] إذًا هذا تصديق بأنَّه رسول ولو كان غير رسول ما أجاب الله ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ الله وَكُفْرٌ بِهِ وَالمسْجِد الحَرَام وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ الله ﴾ [البقرة : ٢١٧] فالفتوى ﴿ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ ﴾ ... إلخ فهذا تصديق من الله عزَّ وجلَّ . والآيات الكونية ظاهرة جدًا وما أكثر الآيات الكونية التى أيّد الله بها رَسُوله سَوَاءٌ جاءت لسبب أو لغير سبب وهذا معروف فى السيرة .

فهمنا من كلمة « مُصَدَّقون » أنهم مُصَدَّقون من قبل الله بالآيات الكونية والشرعية . مصدَّقون من قبل الخلق أى يجب أن يُصَدَّقوا ، وقلنا ذلك

لأن من الناس من صدَّق ومن الناس من لم يصدق لكن الواجب التَّصديق . أمَّا مصدوقون فله معنى واحد فقط هو أنهم أُخْبرُوا بالصِّدق .

● قال : « **بِخِلافِ الَّذِينَ يَقُولُون عَلَيْه مَالَا يَعْلَمُونَ** » فهؤلاء كَاذِبُون أو نَقُول هَؤُلاء ضَالُّون لأنَّهم قالوا مَا لا يَعْلمون . وكأن المؤلف يُشير إلى أهل التَّحريف لأن أهل التحريف قالوا على الله ما لا يعلمون من وجهين : قالوا أنه لم يُرد كذا وأراد كذا فقالوا بالسَّلب والإيجاب ما لا يعلمون . مثلًا : قالوا لم يُرد بالوَجْهِ الوَجْهَ الحقيقى فهُنا قالوا على الله ما لا يعلمون بالسَّلب ، ثم قالوا : والمراد بالوَجه الثَّواب فقالوا على الله ما لا يعلمون فى الإيجاب فقالوا على الله ما لا يعلمون من وجهين . هؤلاء الَّذين يقولون على الله مَالَا يعلمون لا يكونون صَادِقين ولا مَصْدُوقين وَلا مُصَدّقين بل قامت الأدلة على أنهم كاذبون مكذوبون بما أوحى إليهم الشَّيطان .

* * *

١٠ - « ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الصافات : ١٨٠-١٨٢] »

الشـــرح

سبق معنى التَّسبيح وهو تنزيه الله عن كل ما لا يليق به .

● وقوله : « رَبِّكَ » أضاف الرُّبوبية إلى محمد ﷺ وهى رُبُوبية خاصَّة من باب إضافة الخالق إلى المخلوق . وقوله : « رب العزة » من باب إضافة الموصوف إلى الصِّفة . ومن المعروف أن كل مَرْبُوب مخلوق وهنا « رَبِّ العزة » عِزةً الله غير مخلوقة لأنها مِن صِفاته فنقول : هذه من باب إضافة المَوْصُوف إلى الصِّفة وعلى هذا فـ « رب » هنا معناها صاحب العِزّة كما يقال : ربُّ الدَّار : أى صاحب الدَّار .

● وقوله : « عَمَّا يَصِفُونَ » يعنى عمَّا يصفه المُشْرِكُون كما سيذكره المؤلف « **وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ** » : أى : على الرُّسل .

● ثم قال : « وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » حَمِدَ رَبَّه عز وجل بعد أن نزَّه نفسه لأن فى الحمد كمال الصِّفات وفى التَّسبيح : تنزيه عن العيوب فجمع فى الآية بين التَّنزيه عن العيوب بالتَّسبيح وإثبات الكمال بالحمد .

* * *

١١ - « فسَبَّح نَفْسَهُ عَمَّا وَصَفَهُ به المخالفون للرُّسل وَسَلَّم على المُرْسَلِين لِسَلَامَة مَا قَالُوه من النَّقص والعيب » .

الشـــرح

وبقى أن يقال : وحَمِدَ نفسه لكمال صفاته بِالنِّسبة لنفسه وبالنسبة لِرُسُله فإنَّه سبحانه محمود على كَمَال صفاته وعلى إرسال الرُّسل لما فى ذلك من رحمة الخلق .

* * *

١٢ - « وَهُو سُبْحَانَهُ قد جَمَعَ فِيما وَصَف وَسَمَّى بِهِ نَفْسَه بَيْنَ النَّفى وَالإِثْبَاتِ »(*) .

الشـــرح

أى أن صِفات الله عز وجل قسْمان : صفات مثبتة ، وصفات مَنْفيّة وعليه فنستفيد من كلام المؤلف أن الصِّفات قسمان :

١ - **صفات مُثْبتة** : وتسمَّى عندهم « الصِّفات الثُّبوتية » .

٢ - **وَصِفات منفيّة** : ويسمونها « الصِّفات السَّلبية » من السلب وهو النفى . ولا حرج من أن نسميها سلبية وإن كان بعض النَّاس توقف وقال : لا نُسمِّيها سلبية بل نقول منفيّة .

(*) **قال الشيخ ابن باز:** « طريقة الكتاب والسنة فى أسماء الله وصفاته : الإثبات المفصل والنفى المجمل ، فقد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفى المجمل مثل قوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ [الشورى : ١١] ، ﴿ لم يكن له كفوا أحد ﴾ [الإخلاص : ٤] ، ﴿ هل تعلم له سميا ﴾ [مريم : ٦٥] وكذلك قوله فى حديث أبى موسى : « إنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا » فى حكم النفى المجمل ، لأن الصمم والغيبة تتضمَّنان نفى نقائص كثيرة تلزم من صفتى الصمم والغيبة ، لأن الأصم هو الذى لا يسمع ولا يصلح أن يكون إلهًا لهذا النقص العظيم الذى يلزم منه عدم =

فنقول : ما دام السَّلب فى اللغة بمعنى النفى فالاختلاف فى اللفظ ولا يَضرُّ . فَصِفَاتُ الله عَزَّ وجل قسمان : ثبوتية وسلبية أو إن شئت فقل مُثبتَة وَمنفية والمعنى واحد .

فالمثبتة : كل ما أثبته الله لنفسه فهو صِفَةُ كمال ليس فيه نقص سواءٌ كانت الصِّفات معنوية أو خبرية أو فعلية ، ومن ذلك : أنه لا يمكن أن يكون دَالًا علي التمثيل لأن المماثلة للمخلوق نقصٌ وإذا فهمنا هذه القاعدة عَرَفْنا ضلال أهل التَّحريف الذين زعموا أن الصِّفات المثبتة تَسْتَلْزِم التَّمثيل ثمَّ أخذوا ينفونها فِرارًا من التَّمثيل . ومثاله : قالوا لو أثبتنا لله وجهًا لَزِمَ أن يكون مُمَاثلًا لأوجه المخلوقين وحينئذ يجب تأويل مَعْنَاهُ إلى مَعْنًى آخر لَا إلى الوَجه الحَقِيقى . فنقول لهم : كل ما أَثْبَت الله لنفسه من الصِّفات فهو صفة كمال ولا يمكن أبدًا أن يكون فيما أَثْبَتَهُ الله لِنَفْسِهِ من الصِّفات نَقْصٌ ولكن إذا قال قائل : هل الصِّفات توقيفية كالأَسْمَاء أَوْ هِى اجتهادية بمعنى أَنَّه يَصِحُّ لَنَا أَن نَصِف الله سبحانه وتعالى بشىء لم يَصِف به نفسه ؟

فالجواب أن نقول : إن الصِّفات توقيفية على المشهور عند أهل العلم كالأسماء فلا تصف الله إلَّا بما وَصَفَ به نَفْسه وَحِينئذ نقول الصِّفات تنقسم إلى ثلاثة أقسام : صفة كمال على الإطلاق ، وصِفَةُ كمال بقيد وَصِفَةُ نَقْصٍ .

● **أما صِفَةُ الكَمَال على الإطلاق** : فهى ثابتة لله عزَّ وجلَّ كالمتكلِّم والفعَّال لما يُريد والصَّانع وَغير ذلك .

● **أمَّا صفة كمال بقيد** : فهذه لا يُوصف الله بها على الإطلاق إلَّا مُقَيَّدًا مثل المكر والخِداع والإستهزاء وَمَا أَشْبَه ذلك فهذه صفاتُ كَمالٍ بقيدٍ إذا

= سماع دعاء الداعين وأصوات المحتاجين وغير ذلك من النقائص كما أن الغيبة يلزم منها عدم اطلاعه على أحوال عباده وعدم علمه بما ينبغى أن يعاملهم به ونحو ذلك » ا . هـ .

كانت فى مُقَابلة مَنْ يفعلون ذلك فهى كمال وإن ذُكرت مُطْلَقة فلا تَصِحُّ بالنِّسبة لله عزَّ وجلَّ ولهذا لا يَصِحُّ إطلاق وَصْفُهُ بالماكر أو المُسْتهزىء أو الخَادِع بل تُقَيَّد ، فتقول مَاكرٌ بالماكرين ، مُسْتهزىءٌ بالمُنافقين ، خادع للمنافقين كَائِد للكَافِرين فَتَقْيِّدُها لأنها لم تأت إلَّا مُقَيَّدة .

● **الثالث : مَا دلَّ على نَقْص** : فهذا لا يُوصف الله به مُطْلَقًا وَبأَىّ حَالٍ من الأحوال كالعَاجِزِ وَالخَائِنُ وَالأَعْمَىٰ والأَصَمُّ فهذا لا يُوصف الله به مطلقًا ؛ لأنه نَقْصٌ على الإطلاق فلا يُوصف الله به على الإطلاق وانظر إلىٰ الفَرق بين خادع وَخَائِن . قال الله تعالى : ﴿ إنَّ المُنافقينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُم ﴾ [النساء : ١٤٢] لكن قال : ﴿ وَإن يُرِيدوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنهُمْ ﴾ [الأنفال : ٧١] وَلَم يقل « فخانهم » لأن الخيانة خِداع فى مقام الإئتمان والخداع فى مَقَام الائتمان نَقْصٌ وَلَيْس فيه مَدْحٌ أبدًا ولهذا يُقَال الحرْبُ خُدْعة ، وذكروا عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنَّه لما خرج إليه عَمْرو بن وُد لِيُبَارزه صَاحَ به على فقال : ما خرجت لأُبارز شخصين أو قال رَجُلين فعمرو بن وُد ظن أن أحدًا من الناس لحقه فالتفت ولما التفت ضربه بالسَّيف حتى نزّل رأسه فهذا خداع فى مَقَام الخداع فما ائتمننى حتى أُئمنه .

فإذًا صفات النَّقص مَنْفية عن الله مُطْلَقًا . والصِّفات المأخوذة من الأسماء هى كمال بكل حال ويكون الله عزَّ وجلَّ قد اتَّصَفَ بمدلولها فالسَّمْعُ صِفَةُ كمال دَلَّ عليها السَّميع فكلُّ صِفَةٍ دَلَّت عليها الأسماء فهى صِفَةُ كَمَالٍ مُثْبَتَة لله على سبيل الإطلاق وهذه نجعلها قسمًا منفصلًا لأنَّه ليس فيها تفصيل . وغيرها تنقسم إلى الثلاثة أقسام التى سلف ذكرها . ولهذا لم يسمِّ الله نفسه بالمُتَكَلِّم مع أنه يَتَكَلَّم لأن الكلام قد يكون خيرًا وقد يكون شرًّا وقد لا يكون خيرًا ولا شرًّا . فالشَّرُّ لا يُنْسَبُ إلى الله واللَّغو كذلك لا يُنْسَب إلى الله لأنه سَفه والخير يُنْسَبُ إليه ولهذا لم يُسمِّ نفسه بالمتكلم لأن الأسماء

كما وصفها الله عز وجل : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ [الأعراف : ١٨٠] فليس فيها أى شىء من النقص ولهذا جاءت باسم التفضيل المطلق إذا قال قائل : فهمنا الصِّفات وأقسامها فما هو الطَّريق لإثبات الصِّفة مَا دُمنا نقول أَنَّ الصِّفات توقيفية ؟

فنقول : هناك عِدَّة طُرق لإثبات الصِّفة :

الطَّريق الأول : من خلال الأَسْمَاء ؛ لأَن كل اسم فهو متضمن لِصِفَة ولهذا قلنا فيما سبق : إن كل اسم من أسماء الله دَالٌّ على ذاته وعلى الصِّفة التى اشتُق منها .

ثانيًا : أن يُنصَّ على الصِّفة مثل الوَجْهُ وَاليَدَيْن والعَيْنَين ومَا أَشْبَه ذلك فهذه بنَصّ من الله عزَّ وجلَّ ، ومثل الانتقام ، فقال عنه تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾ [إبراهيم : ٤٧] ولهذا ليس من أسماء الله المُنْتَقم خلافًا لما يُوجد فى بعض الكتب لأن الانتقام مَا جَاءت إلَّا عَلَى سبيل الوَصْف أو اسم الفَاعل مُقيّدًا كقوله : ﴿ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ [السجدة : ٢٢] .

الطريق الثالث : أن تُؤْخَذَ من الفِعل مثل المُتَكَلِّم فَنَأْخُذُها مِن ﴿ كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً ﴾ [النساء : ١٦٤] .

هذه هى الطرق التى تُثبَتُ بها الصِّفة وَبِناءً على ذلك نقول الصفات أَعَمُّ لأَنَّ كل اسم مُتَضَمِّن لِصِفَةٍ ، وليس كل صِفة مُتَضَمِّنه لاسم .

● وقوله : « **بين النفى والإثبات** » : الصِّفات المنفيَّة عن الله عزَّ وجلَّ كثيرة ولكن الإثبات أكثر ؛ لأَن صفات الإثبات كلها صِفَاتُ كمال وكُلَّما تَعَدَّدت وَتَنَوَّعت ظهر من كَمال الموصوف ما هو أكثر . وصفات النفى قليلة وَلهذا نجد أَنَّ صفات النَّفى تَأْتِى أَحْيَانًا عامَّة غير مُخَصَّصة بِصِفة مُعَيَّنة ، والمخصَّص بِصفة مُعَيّنة لا يكون إلَّا فى إحدى حالين :

- إمَّا تكذيب المدَّعين لاتِّصاف الله بهذه الصِّفة التى نَفَاها عن نفسه .
- وإمَّا توهم هذه الصِّفة فيُدفع الوَهم .

فالقسم الأول : كقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] قال : ليس كمثلة شىء فى قُدْرته وسمعه وَبَصَره وَعِزَّته وَحِكْمَتِه وَرَحْمَته وغير ذلك من صفاته فلم يُفصِّل بل قال : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ ﴾ فهذا عام . وهذا النَّفى المجمل يَدُلُّ على كمال مُطلق ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ ﴾ فى كل كمال . أما إذا كان مُفَصَّلًا فلا تكاد تجده إلا فى حالين أن يكون رَدًّا وإنكارًا . لما ادّعاه الكافرون الملحدون كقوله : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ ﴾ [المؤمنون : ٩١] ردًّا لقول من قال إن لله ولدًا . وقوله : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ [الإخلاص : ٣] كذلك .

وأمَّا دفع التَّوهم : فمثل قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُغُوبٍ ﴾ [ق : ٣٨] لأنه قد يقول الذِّهن الذى لا يُقَدِّر الله حَق قَدْره هذه السموات العظيمة والأَرْضُون العظيمة إذا كان خلقها فى سِتّة أَيَّام فسيلحقه التَّعب فقال : ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُغُوبٍ ﴾ [ق : ٣٨] أى : من تَعب وإعياء . فعلَيْه نَقُول : إنَّ هذا التفصيل فى النَّفى لئلا يَتوهَّم وَاهمٌ بأن الله سبحانه وتعالى تعب وَأُعيى فنفى الله عز وجل ذلك . وهناك معنًى ثالثٌ : وهو تهديد الكافرين فى مثل قوله تعالى : ﴿ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة : ١٤٤] وما أَشْبَه ذلك . فَتَبَيَّن بهذا أَن النَّفى لا يَرِد فى صِفات الله عز وجل إلَّا على سبيل العُموم أو على سبيل الخصوص بسبب لأن صِفَات السَّلب لا تتضمن الكمال إلا إذا كانت متضمنة لإثبات ولهذا نقول الصِّفات السَّلبية التى نفاها الله عن نفسه متضمنة لثُبوت كمال ضِدِّها فقوله : ﴿ مَا مَسَّنَا مِن لُغُوبٍ ﴾ متضمن كمال القوة والقدرة ، وقوله :

﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٤٩] متضمن لكمال العدل : ﴿ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة : ٨٥] لكمال العلم والإحاطة وَهَلُم جرّا . فلابد أن تكون مُتَضَمِّنة لثبوت ، وذلك الثُّبوت ، هو كمال ضد ذلك المنفى وإلا لم تكن قَدْحًا . ولا يوجد فى الصِّفات المنفية عن الله نَفْىٌ مُجرَّد ؛ لأن النَّفى المجرَّد عَدَم ، والعَدَم لَيْس بشىء فلا يتضمَّن مَدْحًا وَلا ثَناءً ؛ لأنه قد يكون للعجز وقد يكون لِعَدم القَابِليَّة .

فمثاله للعجز قول الشاعر :

قَبِيلَــةٌ لَا يَغْــدُرُونَ بِذِمَّـــةٍ وَلَا يَظْلِمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلِ(١)

وَمثَاله لِعَدم القَابِلية : أن تَقُول إن جِدَارَنا لَا يَظْلم أحدًا .

والواجب علينا نحو هذه الصِّفات التى أثبتها الله لنفسه والتى نفاها أن نقول سَمِعنا وَصَدَّقنا وَآمنا . هذه هى الصِّفات فيها مُثْبت وفيها نَفْى . أما الأَسماء فكلها مُثْبتة . لكن أسماء الله تعالى المثبتة منها ما يدلُّ على معنًى إيجابى ، ومنها ما يدلُّ على معنًى سَلْبى وهذا هو مورد التَّقسيم فى النَّفى والإثبات بالنِّسبة لأسماء الله . فمثال التى مدلولها إيجابى كثير ومثال التى مَدْلُولها سلبى « السَّلام » . ومعنى السَّلام : قال العلماء معناه : السَّالم مِن كل عيب . إذًا فمدلوله سَلْبى بمعنى ليس فيه نقصٌ وَلَا عَيْبٌ . وكذلك القُدُّوس : قريب من مَعْنى « السلام » لأن معناه المُنَزَّه عن كل نَقْصٍ وَعَيْب . فَصَارت عبارة المؤلف سَليمة وصحيحة وهو لا يريد بالنسبة للأسماء أن هناك أسماءً منفية ؛ لأن الاسم المَنْفِى لَيْسَ بِاسْم لله ، لكن مُرَاده أن مَدْلُولات أَسْمَاء الله ثُبُوتية وَسَلْبية .

* * *

(١) البيت للنجاشى ، واسمه قيس بن عمرو بن مالك من قصيدة يهجو بها بنى العجلان . راجع : الشعر والشعراء ص (٣٢٩) .

١٣ - « فَلا عُدُول لأَهْلِ السُّنَّةِ وَالجماعة عَمَّا جَاءَ بِهِ المرسَلُونَ فإنَّه الصِّراط المُستقيم صِرَاط الَّذِينَ أَنعَم الله عَلَيْهِم من النَّبيِّين والصِّديقين والشُّهداءِ والصَّالحين » .

الشـــــرح

● قال المؤلف : « فَلا عُدُولَ لِأَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعة عَمَّا جَاءَ بِهِ المُرْسَلُونَ » العُدول : معناه الإنصراف والإنحراف ، فأهل السُّنة والجَماعة لا يمكن أن يَعْدلوا عمَّا جاءت به الرُّسل . وإنما جاء المؤلف بهذا النَّفى ليُبَيِّن أنَّهم لكمال اتِّباعهم رضى الله عنهم لا يمكن أن يَعْدِلُوا عمَّا جاءت به الرُّسل فهم مستمسكون تمامًا وغير مُنحرفين إطلاقًا عمَّا جاءت به الرُّسل بل طريقتهم أنهم يقولون سمعنا وأطعنا فى الأحكام وسمعنا وصدَّقنا فى الأخبار .

● وقوله : « عَمَّا جَاءَ بِهِ المرسَلُونَ » : مَا جَاءَ به محمد عليه الصَّلاة والسلام واضحٌ أننا لا نعدل عنه لأنه خاتم النَّبيين وواجب على جميع العِباد أن يتبعوه . لكن مَا جَاء عن غيره هل لأهل السُّنة والجماعة عدول عنه ؟ لا عدول لهم عنه لأنَّ مَا جَاء عن الرُّسل عليهم الصَّلاةُ والسَّلام فى بابِ الأخبار لا يختلف لأنهم صَادقون ولا يمكن أن يُنْسَخُ لأنه خبر فكلما أخبرت به الرُّسل عن الله عز وجل فهو مقبول وصدق ويجب الإيمان به . مثلًا : قال موسى لفرعون لما قال : ﴿ مَا بَالُ القُرُونِ الأُولَىٰ قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى فِى كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَىٰ ﴾ [طه : ٥١،٥٢] فنفى عن الله الجهل والنِّسيان فنحن يجب علينا أن نصدق بذلك لأنه جاء به رسول : ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ قَالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه : ٤٩،٥٠] فلو سألنا سائل : من أين علمنا أن الله أعْطى كل شىء خَلْقه ؟ فنقول : من كلام موسى

فنؤمن بذلك ونقول أعطى كل شيء خلقه اللَّائِق به فالإنسان على هذا الوجه ، والبَعير على هذا الوَجْه ، والبقرة على هذا الوجه ، والضَّأن على هذا الوجه ، ثم هدى كل مخلوق إلى مَصَالحه وَمَنافعه . فكل شيء يعرف مَصَالحه ومنافعه فالنملة فى أَيَّام الصَّيف تدَّخر قُوتَها فى جُحورها ، ولكن لا تَدَّخر الحب كما هو ، بل تُقطِّع رؤوسه لِئَلّا يَنْبت لأنه لو نَبَت لفَسَد عليها وكذلك لكى تأكله بسرعة ، وإذا جاء المطر وابتل هذا الحب الذى وضعته فى الجحور فإنها لا تبقيه يأكله العفن والرَّائحة بَل تَنْشُره خارج جُحرها حتى يَيْبَس من الشَّمس والرِّيح ثُم تدخله .

● وقول شيخ الإسلام – رحمه الله –: « **عَمَّا جَاءَ بِهِ المُرْسَلُون** » هل يشمل هذا الأحكام أو أن الكلام الآن فى باب الصِّفات ؟ إن نظرنا إلى عموم اللَّفظ قلنا يَشْمَلُ الإخبار عن الله وعن اليوم الآخر والأحكام وإن نظرنا إلى السِّياق قلنا القَرينة تقتضى أن الكلام فى باب العَقَائد وهى من باب الإخبار . ولكن نقول : إنْ كان كلام شيخ الإسلام – رحمه الله – خاصًّا بالعَقَائد فهو خاص وليس لنا فيه كلام وإن كان عامًّا فهو يشمل الأحكام ، والأحكام التى للرسل السَّابقين اختلف فيها العلماء : هل هى أحكام لنا إذا لم يَرِدْ شَرْعنا بخلافها أو ليست أحكامًا لنا ؟ والصَّحيح أنها أحكامٌ لنا وأن ما ثبت عن الأنبياء السَّابقين من الأحكام فهو لنا إلا إذا وَرَدَ شرعنا بِخِلَافِه فإذا وَرَدَ شرعنا بخلافه فهو على خِلَافِه فمثلًا : السُّجود عند التحية جائز فى شريعة يُوسُف وَيَعْقُوب وَبَنِيه . لكن فى شريعتنا محرَّم . كذلك الإبل حَرَامٌ على اليهود : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ﴾ [الأنعام : ١٤٦] ولكن فى شريعتنا حَلالٌ . فإذًا يمكن أن نحمل كلام شيخ الإسلام – رحمه الله – على أنه عام فى الأخبار والأحكام وأن نقول : ما كان فى شرع الأنبياء من الأحكام فهو لنا إلَّا بدليل ولكن يبقى النَّظر كيف نعرف أن هذا من شريعة الأنبياء السَّابقين ؟

نقول لنا فى ذلك طريقان : الطَّريق الأول : الكتاب ، والطريق الثَّانى : السُّنة . فما حكاه الله فى كتابه عن الأمم السَّابقين فهو ثابت . وَمَا حَكَاهُ النَّبى ﷺ فيما صَحَّ عنه فهو أيضًا ثابت . والباق لا نُصَدِّق ولا نُكَذِّب إلّا إذا وَرَدَ شرعنا بتصديق ما نَقَل أهل الكِتاب فإنَّنا نُصَدِّقه لا لِنَقْلِهم ولكن لِمَا جَاء فى شَرِيعتنا ، وإذا وَرَد شرعنا بتكذيب أهل الكتاب فإنَّنا نُكَذِّبه ، لأن شرعنا كَذَّبه . فالنَّصارى يزعمون بأنَّ المسيح ابن الله نقول كذب ، واليهود يقولون عزير بن الله نقول : هذا كذب .

إذًا : الأَوْلى أن نحمل كلام المؤلف على أنه عام .

● قال المؤلف – رحمه الله تعالى –: « **فَإِنَّه الصِّراط المُسْتَقِيم** » فإنه : الضَّمير يَعُود على مَا جَاءت به الرُّسل . ويمكن أن يعود على طريق أهل السُّنَّة والجماعة وهو الاتِّباع وعَدَم العدُول عَنْه فما جاءت به الرُّسل وما ذهب إليه أَهْلُ السُّنة والجماعة هو الصِّراط المستقيم .

صراط : على وزن فِعال بمعنى مصروط مثل فِراش بمعنى مَفْروش . وغِراس بمعنى مَغروس فهو بمعنى اسم المفعول . والصِّراطُ إنما يقال للطَّريق الواسع المستقيم مأخوذٌ من الزرط وهو التراجع ؛ لأن الطَّريق إذا كانَ واسعًا لا يكون فيه ضيق يتعثَّر الناس فيه ، فالصِّراط : يقولون فى تعريفه : كل طريق واسع ليس فيه صُعود ولا نُزول ولا اعوجاج . إذًا : الطَّريق الذى جاءت به الرُّسل هو الصِّراط المستقيم الذى ليس فيه عِوَج ولا أمن طريق مستقيم ليس فيه انحراف يمينًا ولا شِمالًا ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِى مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ ﴾ [الأنعام : ١٥٣] وعليه فيكون « المستقيم » صفة كاشفة على تَفْسيرنا الصِّراط بأنَّه الطَّريق الواسع الذى لا اعوجاج فيه لأن هذا هو المستقيم . أو يقال : إنها صفة مقيَّدة ؛ لأن بعض الصِّراط قد يكون غير مستقيم كما قال تعالى :

﴿ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الجَحِيمِ . وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴾ [الصافات : ٢٣،٢٤] وهذا الصِّراط المستقيم .

● قال المؤلف : « **صِرَاط الَّذين أَنْعَمَ الله عَلَيْهم مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقين وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحينَ** » صِراط الَّذين أَنعم الله عليهم : أى طَريقهم وأَضَافَهُ إِليهم لأنهم سَالِكُوه فهم الذين يمشون فيه كما أضافه الله إلى نفسه أحيانًا ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ الله الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ ﴾ [الشورى : ٥٢،٥٣] باعتبار أنه هو الذى شَرَعَه وَوَضعه لعباده وانه موصِل إليه . فهو صراط الله تعالى باعتبارين وصراط المؤمنين باعتبار واحد . صراط الله باعتبارين هما أنه وَضَعَه لعباده وأَنَّه موصل إليه . وصراط المؤمنين لأَنهم هم الذين يَسْلكونه وحدهم .

وقوله : «**الذين أنعم الله عليهم**» النّعمة : كل فضل وإحسان من الله عز وجل على عِبَاده فهو نِعْمة ، وكل مَا بِنَا مِن نِعمة فَهُو مِن الله ، وَنعم الله قِسْمَان : عَامّة وَخَاصَّة . والخاصَّة أيضًا قسمان: خَاصَّة أَخص، وخَاصّة أَعَمّ .

● فالعامّة : هى التى تكون للمُؤْمنين وغير المؤمنين . ولهذا لو سألنا سائل : هل لله على الكافر نِعْمة ؟ قلنا : نعم لكنها نعمة عامَّة وهى نعمة مَا تَقُوم به الأَبدان لا مَا تَصْلح بِه الأَدْيان مثل الطَّعام والشَّراب والكِسْوة والمسكن وَمَا أَشْبَه ذلك فهذه يدخل فيها المؤمن والكافر .

● والنعمة الخاصة : ما تَصْلُح به الأَدْيان من الإيمان والعِلم والعَمَل الصَّالح فهذا خاص بالمؤمنين .

فنعمة الله على النبيين والرسل نعمة هى أَخصُّ النعم من هذا الباب واستمع إلى قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ الله عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمَ وَكَانَ فَضْلُ الله عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾ [النساء : ١١٣] فهذه النِّعمة

التى هى أَخَصُّ لا يَلحق المؤمنون فيها النَّبيين بل هم دُونهم .

وقول المؤلف : « **صراط الذين أنعم الله عليهم** » هى كقوله تعالى : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة : ٦، ٧] فمن هم ؟ فسَّرها تعالى بقوله : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ﴾ [النساء : ٦٩] فالنبيون هنا : كل من أوحى الله إليهم وَنبَّأَهُم فهو داخل فى هذه الآية فيشمل الرُسل . والرُّسل أُولوا عزم ، وغير أُولى عزم على قول الجمهور فهنا نبيُّون وَرُسل وذووا عزم من الرُّسل . كلهم دَاخلون فى قوله تعالى : ﴿ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ ﴾ [النساء : ٦٩] لأن كل رسول نبى وليس كل نبى رسولًا . وعلى هذا فيكون النَّبيون شاملًا للرُّسل أولى العزم وغيرهم وَشاملًا أيضًا للنَّبيين الذين لم يُرسلوا وهؤلاء أعلى أصناف الخلق .

ثانيًا : الصديقين جمع صدِّيق على وزن فعِّيل كسكِّير وسكيت وما أشبه ذلك فهو صيغة مُبالغة فمن هو الصدِّيق ؟ أحسن ما يُفسَّر الصِّديق بقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِى جَاءَ بَالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ [الزمر : ٣٣] وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُواْ بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ﴾ [الحديد : ١٩] فمن حقَّق الإيمان ولا يتم تحقيق الإيمان إلا بالصِّدق والتَّصديق .

الصِّدق فى العقيدة والإخلاص وهذا أَصْعب ما يكون علينا حتى قال بعض السَّلف : « مَا جَاهَدْتُ نَفسى عَلَى شَىْءٍ مُجَاهَدَتُها عَلَى الإخْلَاص » فلابد من الصِّدق فى المقصد وهو العقيدة والإخلاص لله عز وجل .

صـدق فى المقال : لا يَقُول إلا مَا طَابق الوَاقع سَواءٌ على نَفسه أو على غَيْره فهو قائم بالقسط على نَفْسه وعلى غيره أبيه وأُمِّه وأَخيه وأخته .

صادق في الفِعال : وهي أن تكون أفعاله مطابقة لما جاء به النبي ﷺ وَمِن صِدْق الفِعال أن تكون نابعة عن إخلاص فإن لم تكن نابعة عن إخلاص لم تكن صَادقة ؛ لأن فعله يُخالف قوله . فالصِّدِّيق إذًا : مَنْ صَدَّق في معتقده وإخلاصه وإرادته وفي مقاله وفي فِعاله وأفضل الصِّديقين على الإطلاق أبو بكر رضي الله عنه لأن أفضل الأمم هذه الأُمَّة وأفضل هذه الأُمَّة أبو بكر رضي الله عنه .

الصِّديقية مرتبة تكون للرِّجال والنِّساء . قال الله تعالى في عيسى ابن مريم : ﴿ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ﴾ [المائدة : ٧٥] ويقال : الصِّديقة بنت الصِّديق عائشة رضي الله عنها والله تعالى يَمُنُّ على من يشاء من عباده .

أمَّا الشُّهداء : فهل هم الذين قُتِلوا في سبيل الله لقوله : ﴿ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ [الحديد : ١٩] أو أنهم العلماء لقوله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالمَلَائِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ ﴾ [آل عمران : ١٨] فجعل أهل العلم شاهدين بما شهد الله لنفسه ، ولأن العلماء يشهدون للرُّسل بالبَلاغ وعلى الأُمَّة بالتَّبليغ . لو قال قائل : اجعلوا الآية عامَّة لمن قُتِلوا في سبيل الله ومن وَفَّقهم الله للعلم ؟ فَنُوافقه عَلَى ذلك لأن اللفظ صالح للوجهين ولا يتنافيان فيكون شاملًا للذين قُتِلوا في سبيل الله وللعلماء الذين شهدوا لله بالوحدانية وشهدوا للنَّبي ﷺ بالبلاغ وَشَهِدوا على الأُمَّة بأنها بلَّغت .

أما الصَّالحون : فإنه يشمل كل الأنواع الثَّلاثة السَّابقة وَمَن دونهم في المرتبة ، فالأنبياء صالحون والصِّديقون صالحون والشُّهداء صالحون ، لكن المرتبة الأخيرة نقول هم صالحون ولا نقول شهداء ولا صدِّيقون ، فمن هم الصَّالحون ؟ هم الذين قَامُوا بحق الله وحق عباده ، لكن لا على المرتبة السَّابقة والنُّبوة والصِّديقية والشَّهادة فهم دُونهم في المرتبة هذا الصِّراط الذي جَاءَت

به الرُّسل هو صِراط هؤلاء الأَصْنَاف الأربعة فغيرهم لا يمشون على ما جاءت به الرُّسل .

* * *

فصـــل

آيـــات الصِّفـــات

١٤ - وَقَدْ دَخَلَ فِى هَذِهِ الجُمْلَةِ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسهُ فِى سُورةِ الإِخْلَاص الَّتى تَعْدِلُ ثُلُث القُرآن(*) حَيْثُ يقول: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ .

[الإخلاص : ١-٤] .

الشـــرح

● قوله : « **دخل فى هذه الجملة** » يحتمل أنه يُريد قوله : « وهو قد جمع فيما وَصَفَ وسمَّى به نفسه بين النَّفى والإثبات » . ويحتمل أن يعود على ما سبق من أن أهل السُّنة والجماعة يَصِفُون الله تعالى بما وَصَفَ به نَفْسهُ وَمَا وَصَفه به رَسُوله . وأيًّا كان فإن هذه السُّورة وَمَا بَعْدها داخلة فى ضمن ما

(*) **قال الشيخ عبدالعزيز بن باز حفظه الله :**

« وجه كون سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن : أن القرآن خبر وإنشاء والخبر ينقسم فى كلام الله إلى قسمين : خبر عن الله وعن أسمائه وصفاته وخبر عن خلقه من الجنة أو النار وأشراط الساعة ، وجميع ما تضمنه الكتاب من وعد ووعيد ، ومما كان أو سيكون ، وهذه السورة تمحَّضت للخبر عن الله سبحانه ، فكانت ثلث القرآن بهذا الاعتبار ، ولقد دلت هذه السورة على أصول عظيمة يستفاد منها إثبات جميع صفات الكمال لله ونفى جميع صفات النقائص والعيوب ، كما دلت على أنواع التوحيد الثلاثة توحيد الذات والصفات على سبيل المطابقة ، وعلى توحيد الربوبية وذلك على طريق التضمن وتوحيد العبادة بالالتزام ، إذا أن دلالة الشيء على كل معناه يسمى مطابقة ودلالته على بعضه يسمى تضمنًا وعلى ما يلزم من جهة الخارج يسمى التزامًا » ا.هـ .

سبق من أن الله تعالى جمع فيها بين النَّفى والإِثْبَات وأن أهل السُّنة يُؤْمنون بذلك .

● قوله : « **فى سُورة الإخلاص** » السُّورة : هى عبارة عن آيات من كتاب الله مسوّرة أى مُنفصلةٌ عمَّا قبلها وعمَّا بعدها كالبِناء الذى أحاط به السُّور . وقوله : « سورة الإخلاص » إخلاص الشَّىء بمعنى تَنْقِيَته يعنى التى نُقِّيت وحُرِّرت ولم يُشبهها شىء فما وجه تسميةُ هذه السُّورة بسورة الإخلاص ؟ قيل : لأنَّها تتضمَّن الإخلاص لله عزَّ وجلَّ وأن من آمن بها فهو مُخْلِص فتكون بمعنى مُخلِّصةٌ لقارئها أى أن الإنْسان إذا قرأها مُؤْمنًا بها فقد أَخْلَصَ لله عزَّ وجل . وقيل : لأنها مُخلَّصة - بفتح اللام - لأن الله تعالى أَخْلَصَها لِنَفْسه فلم يذكر فيها شيئًا من الأحكام ولا شيئًا من الأخبار عن غيره بل هى أخبار خَاصَّة بالله .

● وقوله : « **التى تَعْدِل ثُلُثَ القُرْآنَ** » الدَّليل قول النَّبى عليه الصَّلاة والسلام لأصحابه : « أَيَعْجَزُ أَحَدُكُم أَن يَقْرأَ ثُلُثَ القُرْآن فِي لَيْلَه ؟ قالوا : كيف يَا رَسُول الله ؟ قال : الله أَحَد . الله الصَّمد . تَعْدِلُ ثُلُث القُرآن »(١) فهذه السُّورة تعدل ثُلث القرآن فى الجزاء لا فى الإِجْزَاء . وذلك كما ثبت عن النَّبى ﷺ أن من قال : « لا إِله إِلَّا الله وَحْدَهُ لا شَرِيك لَهُ لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِير » عَشْرَ مرَّاتٍ فَكَأَنَّما أَعْتَقَ أَرْبع أَنْفُس مِنْ بَنِى إسْمَاعِيل »(٢) وهناك إنسان عليه أربع رقاب كَفَّارات : جَامَع فى نَهار

---

(١) رواه مسلم (٨١١) (٢٥٩) من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه .

(٢) رواه البخارى (٦٤٠٤) ، ومسلم (٢٦٩٣) (٣٠) من حديث أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه .

رَمضَانَ ، وَظَاهَر مِن زَوْجَته ، وَقَتل نَفْسًا مؤمنةً خطأً ، وَحَنَث في يَمينه وقال : هذا الذكر عَشْرُ مَرّات أَفَيُجزىء عنه ؟ فنقول له : لا يُجزىء . أمَّا فِي الجزاء فَتَعْدِلُ هذا كما قال النَّبى عليه الصَّلاة والسلام . فلا يَلْزَمُ من المُعَادَلة فى الجزاء المُعَادَلة فى الإجْزَاءُ .

وما وجه كونها تعدل ثُلث القرآن ؟

قال العلماء : لأن مَبَاحث القرآن خبرٌ عن الله ، وخبرٌ عن المخلوق ، وَأَحكام . فهذه ثلاثة :

١ - خبرٌ عن الله : قالوا إن : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَد ﴾ تتضمَّنه .

٢ - خبرٌ عن المخلوق : كالإخبار عن الأُمم السَّابقة والإخبار عن الحَوادث الحاضرة وعن الحوادث المُسْتقبلة .

٣ - والثالث : أحكام مثل : أقيموا ، آتوا ، لا تشركوا وما أشبه ذلك . هذا هو أحْسَن ما قيل فى كونها تعدل ثُلث القرآن .

● **قال المؤلف** : « **حيث يقول** : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ ﴾ » .

﴿ **قل** ﴾ الخطاب لكل من يصح خطابه ، وسبب نزول هذه السورة : « أَنَّ المُشْرِكين قَالُوا للرَّسُولِ عَلَيْه الصَّلاة والسَّلام : صِفْ لَنَا رَبَّكَ ؟ فَأَنْزَلَ الله هذه السورة »(١) وقيل : « بل اليَهُود هم الَّذين زَعَمُوا

---

(١) **إسْنَادُه ضَعِيفٌ** : أخرجه أحمد (١٣٣/٥،١٣٤) ، والترمذى (٣٣٦٤) ، وابن جرير (٢٢١/٣٠) ، وابن أبى عاصم فى السنة (٦٦٣) وفى إسناده محمد بن ميسر الصغانى وأبو جعفر الرازى ضعيفان إلا أن الصغانى توبع عند الحاكم (٥٤٠/٢) فبقيت العلة فى أبى جعفر الرازى .

أنَّ الله خُلِق من كذا وَمِنْ كذا مِمَّا يقولون من المَوَاد . فَأَنْزَلَ الله هذه السُّورة »(١) وسواءٌ صَحَّ السَّبب أم لم يَصِحُّ . علينا إذا سُئلنا أيَّ سؤال يليق بالله أن نقول : ﴿ الله أَحَد . الله الصَّمَد ﴾ .

● قوله : « قُلْ هُوَ الله أَحَد » هو : ضمير وأين مرجعه ؟ قيل : أنَّ مرجعه المسؤول عنه كأنَّه يقول الذى سألتم عنه الله . وقيل : هو ضمير الشَّأن ، و« الله » مبتدأ ، و« أحد » خبر المبتدأ ، وعلى الوجه الأول تكون « هو » مبتدأ ، « الله » : خبر المبتدأ ، « أحد » خبرٌ ثانى .

« الله » هو العلم على ذات الله المختصّ بالله عزَّ وجل لا يتسمَّى بِه غيره وكلَّ ما يأتى بعده من أسْماء الله فهو تابعٌ لَهُ إلَّا نادرًا . ومعنى « الله » الإله ، وإلَه بمعنَى مَألُوه : أى مَعْبُود لكن حُذِفت الهمزة تخفيفًا لكثرة الاستعمال . كما فى « النَّاس » وأصلها الأُناس وكما فى « هذا خيِّر من هذا » وأصله أخير من هذا ، لكن لكثرة الاستعمال حذفت الهمزة فالله عز وجل « أحدٌ » .

« أحد » لا تأتى إلَّا فى النَّفى ، أو فى الإثبات فى أيام الأُسبوع يقال : الأَحد . الإثنين ... أو فى النَّفى مثل ما فيها أحد . لكن تأتى فى الإثبات موصوفًا بها الرَّب عز وجل لأنه سبحانه وتعالى أَحدٌ أى متوحِّد فيما يختصُّ به فى ذاته وأسماءه وصِفَاته وأفعاله .

« أحدٌ » لا ثَانِى لَهُ وَلَا نَظِير لَهُ وَلَا نِدَّله .

---

(١) **إسْنَادُه ضَعِيفٌ** : أخرجه ابن أبى حاتم فى تفسيره كما فى سورة الإخلاص لابن تيمية (٢٢٢/١٧- مجموع الفتاوى) ، والبيهقى فى الأسماء والصفات ص (٣٥٣) ، وفى إسناده أبو عبد الله الحرشى - محمد بن موسى - لين الحديث ، وعبد الله بن عيسى ضعيف كما فى التقريب .

● قوله : ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ هذه جملة مُسْتأنفة بعد أن ذكر الأَحدية ذكر الصمدية وَأَتَى بها بجملة مُعَرَّفة فى طرفيها لإفادة الحَصْر : أى :.الله وَحْدَهُ الصَّمد فما معنى الصَّمد ؟

قيل : إن الصَّمد هو الكامل فى عِلْمه فى قدرته فى حكمته فى عزَّته فى سُؤْدُده فى كل صِفَاتِه . وقيل : الصَّمد الذى لا جَوْفَ لَهُ يعنى لا أَمْعَاءَ وَلَا بَطْن ، ولهذا قيل « الملائكة صَمَدٌ لأَنهم ليس لهم أَجْوَاف لا يَأْكلون ولا يَشْربون » هذا المعنى رُوىَ عن ابن عباس رَضى الله عنهما(١) ولا ينافى المعنى الأَوَّل لأَنَّه يَدُلُّ على غِنَاهُ بنفسه عن جميع خَلْقِه .

وقيل « الصَّمد » بمعنى المفعول أى المَصْمُودُ إليه : أى الذى تَصْمد إليه الخلائق فى حَوَائجها بمعنى تميل إليه وتنتهى إليه وتَرْفع إليه حوائجها فهو بمعنى الذى يحتاج إليه كل أحد .

هذه الأَقاويل لا يُنَافى بعضها بعضًا فيما يتعلق بالله عز وجل ولهذا نقول إن المعانى كلَّها ثابتة لِعَدَم المُنَافَاة فيما بينها . ونفسِّره بتفسير جامع فنقول : الصَّمد : هو الكامل فى صفاته الذى افتقرت إليه جميع مخلوقاته فهى صامدة إليه . وحينئذ يتبيَّن لك المعنى العظيم فى كلمة « الصَّمد » أَنَّه مُسْتَغْنٍ عن كل مَا سِواه ، كامِلٌ فى كل مَا يُوصف به ، وأَن جميع مَا سِوَاه مُفْتَقِرٌ إليه . فلو قال لك قائل : إن الله استوى على العرش : هل استواءه على العرش بمعنى أَنه مُفْتَقِرٌ إلى العرش بحيث لو أُزيل لَسَقط ؟

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم كما فى تفسير سورة الإخلاص لابن تيمية ص (٨) وفى إسناده حفص بن عمر العدنى ضعيف . وراجع : تفسير سورة الإخلاص لابن رجب ص (٩٢) .

كلا ! لأن الله صمدٌ لأنّه كامل وغير محتاج إليه فالعرش والسَّماوات والكرسى والمخلوقات كلها مُحْتاجة إلى الله والله فى غِنًى عنها فنأخذه من كلمة « الصَّمد » . لو قال لك قائل : هل الله يأكل أو يشرب ؟ أقول : كلا لأن الله « صمد » وبهذا نعرف أن « الصمد » كلمة جامعة لجميع صفات الكمال لله وَجَامِعة لجميع صِفَات النَّقص فى المخلوقات ، وأنَّها محتاجة إلى الله عز وجل .

- ثم قال ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ » هذا تأكيد للصَّمدية والوَحْدانية ، وقلنا توكيد لأننا نَفْهم هذا ممَّا سبق فيكون ذِكْرُه توكيدًا لمعنى ما سَبَق ، وتقريرًا له ، فهو لأحديته ، وصمديته ، لم يلد لأن الولد يكون على مِثل الوالد فى الخلقة ، فى الصِّفة وحتى الشَّبه « لما جاء مجزز المدلجى إلى زيد بن حارثة وابنه أُسامة وهما ملتحفان بِرِدَاء قد بَدَت أقدامهما نظر إلى القدمين فقال : إنَّ هَذِهِ الأَقْدَام بَعْضُها مِن بَعْض . فعرف ذلك بالشَّبه » فلكمال أحديته وكمال صَمَديتهِ لم يلد والوالد محتاجٌ إلى الوَلد بالخِدْمَة والنَّفقَة وَيُعينه عند العَجْز وَيبقى نَسْلُه ﴿ وَلَمْ يُولَد ﴾ لأنه لو وُلِد لكان مَسْبُوقًا بِوَالِد مع أنَّه جَلَّ وعلا هو الأَوَّل الذى ليس قبله شىء وهو الخَالِق وَمَا سِوَاه مخلوق فكيف يُولد ؟ وإنكار أنَّه وُلِد أَشَدُّ فى العُقول من إنكار أنه وَلد والله عز وجل يقول : ﴿ مَا اتَّخَذَ الله مِن وَلَدٍ ﴾ [المؤمنون : ٩١] حتى ولو بالتَّسَمِّى فهو لم يَلِد ولم يتَّخذ ولدًا بنو آدم قد يتخذ الإنسان ولدًا وهو لم يلده بالتَّبنى أو بالولاية أو بغير ذلك ، وإن كان التَّبنى غير مشروع . أَمَّا الله عز وجل فلم يَلِد ولم يُولد . لمَّا كان يَرِدُ على الذِّهن فرض أن يكون الشَّيء لا وَالِدًا ولا مَولودًا . لكنه مُتَوَلِّد نفى هذا الوَهْم الذى قد يَرِدْ فقال : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَهُ كُفُوًا أَحَد ﴾ وإذا انتفى أن يكون له كفوًا أحد لزم أن لا يكون مُتولِّد ﴿ لَمْ يَكُن لَهُ كُفُوًا أَحَد ﴾ فى جَمِيع صفاته .

هذه السُّورة فيها : صفات ثبوتية ، وصفات سلبية .

– الصِّفات الثُّبوتية ﴿ الله ﴾ التى تتضمَّن الأُلُوهِيّة ﴿ أحد ﴾ تتضمن الأحدية ﴿ الصَّمد ﴾ تتضمن الصَّمدية .

– والصِّفات السَّلبية : ﴿ لَمْ يَلِدْ . وَلَمْ يُولَد . وَلَمْ يَكُن لَهُ كُفُواً أَحَد ﴾ ثلاث أثبات وثلاث نفى هذا النفى يتضمن من الإثبات كمال الأحدية والصَّمدية .

أمَّا إعراب السورة ﴿ له كُفُوًا ﴾ له : جَار ومجرور مُتَعَلِّق بمحذوف حال من كُفُوًا ؛ لأنّ الجار والمجرور إذا تقدَّم على النّكرة صار حالًا منها يعنى : ولم يكن أحدٌ كفوًا حال كونه له ويجوز أن يتعلَّق بـ « كفوا » .

* * *

١٥ - وَمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسُه فِي أَعْظَمِ آيَةٍ فِي كِتَابه حَيْثُ يَقُولُ :
﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] .

الشـــرح

● قال المؤلف : « **وَمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسُه فِي أَعْظَم آيَة فِي كِتَابه** » هذه الآية تُسَمَّى آية الكُرْسِي لأنَّ فيها ذِكر الكرسى : ﴿ وَسِع كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَات والْأَرْض ﴾ [البقرة : ٢٥٥] وهى أعظم آية فى كتاب الله . والدَّليل على ذلك أن النبى ﷺ سأل أُبى بن كعب قال : أيُّ آية فى كتاب الله أَعْظَم ؟ فقال له : ﴿ الله لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الحَيُّ القَيّومُ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] فَضَرَب عَلَى صَدْرِهِ . وقال : لِيهنِك العِلْم أَبَا المُنْذِر »(١) يعنى أن النبى ﷺ أقرّه بأن هذه أعظم آية فى كتاب الله وأن هذا دليلٌ على علم أُبى فى كتابُ الله عزَّ وجل . وبناءً على هذا الحديث نأخذ أن القرآن يتفاضل كما دلَّ عليه أيضًا حديث سورة الإخلاص وهذا موضعٌ يجب فيه التَّفصيل . فإننا نقول : أَمَّا باعتبار المتكلِّم به فإنَّه لا يتفاضل لأَن المتكلم به واحد وهو الله عز وجل . وأما باعتبار مَدْلُولاته وَمَوْضُوعاته فإنَّه يتفاضل : فسورة الإخلاص التى فيها الثَّناء على الله عزَّ وجلَّ بما تَضَمَّنَتْه من الأسماء والصفات ليست كسورة المَسَد التى فيها بَيَان حال أَبى لهب من حيث الموضوع لا من حيث المتكلم .

---

(١) رواه مسلم (٨١٠) (٢٥٨) من حديث أُبى بن كعب رضى الله عنه .

كذلك يَتفَاضَل من حيث التَّأْثير والقُوَّة فى الأُسلوب فإن من الآيات ما تجدها آية قصيرة لكن فيها رَدْعٌ قوى للقلب وموعظة وتجد آية أخرى أطول منها بكثير لكن لا تشتمل على ما تشتمل عليه الأُولى فمثلًا قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ﴾ [البقرة : ٢٨٢] إلخ .. هذه آية موضوعها سهل والبحث فيها فى معاملات تجرى بين النَّاس وَليس فيها ذاك التَّأْثير الذى يُؤثره مثل قوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [آل عمران : ١٨٥] فهذه تحمل معانى عظيمة فيها زَجْرٌ وَمَوْعِظَةٌ وَتَرْغيب وَتَرْهيب ليست كآية الدَّين مثلًا مع إن آية الدَّين أُطْول منها . قال : **حيث يقول** : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ .. ﴾ [البقرة : ٢٥٥] فى هذه الآية يخبر الله بأَنَّه مُنْفردٌ بالأُلوهية وذلك من قوله : ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ لأن هذه جُمْلة تفيد الحَصْر وطريقة « النَّفى والاثبات » وهذا من أَقوى صيغ الحَصْر .

● وقوله : ﴿ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ الحىُّ أى : ذو الحياة وهو مِن الأسماء . وقوله : « الحَىّ » الـ : للإستغراق يعنى أَنّه ذو الحياة الكاملة المتضمِّنة لجميع صفات الكمال لم تسبق بعدم ولا يلحقها زوال و« الحىُّ » من أسماء الله وقد تطلق على غير الله . قال تعالى : ﴿ يُخْرِجُ الحى مِنَ الميِّتِ ﴾ [الأنعام : ٩٥] ولكن ليس الحى كالحى ، ولا يَلْزَم من الإشتراك فى الاسم التَّماثل فى المسمَّىٰ « القيُّوم » على وزن فيعول وهذه من صيغ المبالغة وهى مأخوذة من القيّام . ومعنى « القيُّوم » أى أنه القائم بنفسه ؛ فقيامه بنفسه يَسْتلزم استغناءه عن كل شىء لا يحتاج إلى أكل ولا شرب ولا غيرهما ، وغيره لا يقوم بنفسه بل هو محتاجٌ إلى الله عزَّ وجلَّ فى إيجاده وَإعداده وإمداده . ومن معنى القيّوم كذلك : أَنَّه قائم على غيره من قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا

كَسَبَتْ ﴾ [الرعد : ٣٣] والقيم محذوف تقديره : كمن ليس كذلك ، والقائم على كل نفس بما كسبت هو الله عز وجل ولهذا يقول العُلَماء : القيُّوم هو القائم بنفسه القائم على غيره ، وإذا كان قائمًا على غيره لَزِمَ أن يكون غيره قائمًا به ، قال الله تعالى : ﴿ وَمِن آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾ [الروم : ٢٥] فهو إذًا كامل الصِّفات وكامل الملك والأفعال . وهذان الاسمان هما الاسم الأَعظم الذى إذا دُعِي الله به أَجاب . ولهذا ينبغى للإنسان فى دُعاءِه أَن يتوسَّل به فيقول : « يا حيُّ يا قيوم » .

وقد ذُكرا فى الكتاب العزيز فى ثلاثة مواضع : هذا أحدها ، والثانى فى سورة آل عمران : ﴿ اللهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَىّ القَيُّومُ ﴾ [آل عمران : ٢] والثَّالث فى سورة طه : ﴿ وَعَنَتِ الوُجُوهُ لِلْحَىِّ القَيُّوم وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ [طه : ١١١] هذان الاسمان فيهما الكمال الذاتى والكمال السلطانى . الذَّاتى فى قوله «الحى » ، والسُّلطانى فى قوله « القيُّوم » لأَنَّه يقوم على كل شيء ويقوم به كل شيء .

● قال : ﴿ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ ولم يقل « لا ينام » لأَن النَّوم يكون باختيار والأَخذ يكون بالقَهر . والنَّوم من صفات النقص . قال النبى عليه الصَّلاة والسلام : « إِنَّ الله لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِى لَهُ أَنْ يَنَام »(١) وهذه صِفَة من صِفَات النَّفى وقد سبق أَن صفات النَّفى لابد أن تتضمَّن ثُبوتًا وهو كمال الضد . والكمال فى قوله : ﴿ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ كمال الحياة والقَيُّوميّة ؛ لأنه من كمال حياته أن لا يحتاج إلى النوم ومن كمال قيُّوميته أن لا يَنام ؛ لأَنَّ النوم إنما يحتاج إليه المخلوقات الحية لنقصها لأنها تحتاج إلى النوم من أجل الاستراحة من تعب سبق واستعادة القوة لعمل مستقبل . ولما كان أَهْل الجنة كاملى الحياة كانوا لا ينامون كما صحت بذلك الآثار . لكن لو قال

(١) رواه مسلم (١٧٦) (٢٩٣) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

قائل : النَّوم فى الإنسان كمال ولهذا إذا لم يَنَم الإنسان عُدّ مَرِيضًا ؟ فَنَقول : كالأكل فى الإنسان كمال ولو لم يأكل عُدّ مريضًا لكن هو كمال من وجه ونقص من وجه آخر . كمال لدلالته على صحة البدن واستقامته . ونقص لأن البدن محتاج إليه . وهو فى الحقيقة نقص . إذًا ليس كل كمال نسبى بالنسبة للمخلوق يكون كمالًا للخالق كما أنه ليس كل كمالٍ فى الخالق يكون كمالًا فى المخلوق فالتكبُّر كمالٌ فى الخالق نقصٌ فى المخلوق . والأكل والشرب والنوم كمال فى المخلوق نقص فى الخالق ولهذا قال الله تعالى عن نفسه : ﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ ولا يُطْعَمُ ﴾ [الأنعام : ١٤] لو قال قائل : هذه الصِّفة المنفية فما هى الصِّفة الثُّبوتية التى تَتَضَمنَّها ؟

قلنا : كمال الحياة والقيوميّة . السِّنة : مُقَدِّمة النَّوم وهى النُّعاس .

● قال : « ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ » له : خبر مقدم . و« ما » مبتدأ مؤخر . ففى الجملة حَصْرٌ طريقه : تقديم ما حقُّه التأخير وهو الخبر ، « له » اللام هذه للملك مُلْكٌ تَامّ بدون مُعَارض ﴿ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ ﴾ من الملائكة والجِنَّة وغير ذلك مِمَّا لا نَعْلمه ﴿ وَمَا فِي الْأَرْض ﴾ من المخلوقات كلّها الحيوان منها وغير الحيوان . وقوله ﴿ السَّمٰوات ﴾ تفيد أن السموات جَمْع وهو كذلك وقد نَصَّ القرآن على أنها سَبْع : ﴿ قُلْ مَن رَبُّ السَّمَٰوَات السَّبْع وَرَبُّ العَرْش العَظِيم ﴾ [المؤمنون : ٨٦] . الأَرضون أَشار القُرآن إلى أَنَّها سَبْع بدون تصريح وصرّحت بها السُّنَّة . قال الله تعالى : ﴿ الله الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق : ١٢] مثلهن فى العدد دون الصِّفة . وفى السُّنة قال النَّبى عليه الصلاة والسلام : « مَن اقْتَطَع شِبْرًا مِن الأَرْضِ ظُلْماً طوّقه الله بِهِ يَوْم القِيَامَةِ مِن سَبْعِ أَرْضِين »(١) .

● وقوله : ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] « من ذا » : اسم استفهام . أو نقول : مَن اسم استفهام و« ذا » : ملغاة ولا يصح

(١) رواه البخاري (٢٤٥٢) ومسلم (١٦١٠) .

أن تكون « ذا » اسْمًا موصولًا فى مثل هذا التَّركيب لأنَّه يكون معنى الجملة « من الذى الذى » وهذا لا يَسْتقيم . وقوله : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ ﴾ الشفاعة فى اللُّغَة : جعل الوتر شَفْعاً . قال تعالى : ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ [الفجر : ٣] . وفى الاصطلاح : هى التَّوسط للغير بِجَلْب مَنْفعة أُو دفع مَضَرَّة . فمثلًا : شفاعة النَّبى ﷺ لأهل الموقف أن يقضى بينهم هذه شفاعة بدفع مَضَرَّة ، وَشَفَاعَتِه لِأَهْل الجنَّة أن يدخلوها بجلب مَنْفَعة . وقوله ﴿ عنده ﴾ أى عند الله ﴿ إلَّا بِإِذْنه ﴾ أى إذن له وهذه تفيد إثبات الشفاعة لكن بشروط وَوَجْهُ ذلك : أَنَّه لولا ثبوتها لكان الاستثناء فى قوله ﴿ إِلَّا بِإِذْنِه ﴾ لغوًا لا فائدة فيه . وذكرها بعد قوله : ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَٰوَات ... ﴾ يُفيد أنَّ هذا الملك الذى هو خَاصٌّ بالله عزَّ وجلَّ أَنَّه مُلْكٌ تام السُّلطان بمعنى أَنَّه لا أَحَد يَسْتطيع أَن يتصرف ولا بالشَّفاعة التى هى خير إلا بإذن الله وهذا من تمام رُبُوبيته وسُلْطَانه عَزَّ وجل . وتُفِيد هذه الجملة أنَّ لله إذنًا والإِذْنُ فى الأَصل الإِعْلَامُ قال الله تعالى : ﴿ وَأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [التوبة : ٣] أى إِعْلَامُه . فمعنى « إذنه » أى إعلامه بأَنَّه راضٍ بذلك . وهناك شُروط أُخرى للشَّفاعة . منها أن يكون راضيًا عن الشَّافع وعن المَشْفُوع له . قال الله تعالى : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَن ارْتَضَىٰ ﴾ [الأنبياء : ٢٨] وقال : ﴿ يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَة إِلَّا مَن أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَن وَرَضِىَ لَهُ قَوْلًا ﴾ [طه : ١٠٩] وهناك آية تنتظم الشروط الثلاثة : ﴿ وَكَم مِن مَلَكٍ فِي السَّمَٰوَاتِ لَا تُغْنِى شَفَاعَتُهم شَيْئاً إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴾ [النجم : ٢٦] إذا قال قائل : ما فائدة الشَّفاعة إذا كان الله تعالى قد علِم أن هذا المشفوع له ينجو ؟

فالجواب : إن الله سبحانه وتعالى يأْذَنُ بالشَّفاعة وَيَأْذن لمن يشفع من أجل أن يكرمه وينال المقام المحمود .

ثم هل الأصنام والأوثان تشفع لأصحابها ؟ لا تشفع ولا تنفع وقد أبْطَل الله ذلك فى قوله : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُم وَلَا يَنفَعُهُم وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاءُنَا عِندَ اللهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْض سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس : ١٨] .

● وقوله : « ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ » العِلْمُ هو إدْرَاكُ الشَّىء على ما هو عليه إدْرَاكًا جازمًا والله عز وجل يعلم ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ المستقبل ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ الماضى وكلمة ﴿ مَا ﴾ من صيغ العموم تشمل كل ماض وكل مستقبل .

● قال : « ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ » : الضَّمير فى ﴿ يحيطون ﴾ يَعُودُ على الخلق الذى دلَّ عليهم قوله : ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ يعنى لا يُحيط مَن فى السَّموات والأرض بشىء من عِلْم الله إلَّا بما شاء . قوله : ﴿ مِنْ عِلْمه ﴾ يحتمل من علم ذَاتِه وَصِفَاته يَعْنى أنَّنا لا نعلم شيئًا عن الله وَذَاتِهِ وَصِفَاتِه إلَّا بِمَا شَاء مِمَّا علَّمنا إيَّاه . ويحتمل أن « علم » هنا بمعنى مَعْلوم . يعنى : لا يُحيطون بشىء من مَعْلُومه أى : مِمَّا يَعْلَمُه إلَّا بما شَاءَهُ ؛ وكلا المعنيين صحيح . وقد نقول إن الثَّانى أَعَمُّ ؛ لأَن مَعْلُومه يدخل فيه عِلْمُه بذاته وبصفاته . وقوله : ﴿ إلَّا بِمَا شَاء ﴾ يعنى إلَّا بما شاء مِمَّا علَّمهم إيَّاه . وقد علَّمنا الله تعالى أشياء كثيرة عن أسمائه وصِفَاته وعن أحكامه الكونية وأحكامه الشَّرعية ، ولكن هذا الكثير هو بالنِّسبة لمعلومه قليل كما قال الله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الروحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٨٥] .

● قال : « ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ » : وَسِعَ بمعنى شَمِل وهو محيط بالسَّماوات والأرض وأكبر منها لأنَّه لولا أنه أكبر ما وسِعها .

والكرسى : قال ابن عباس رضى الله عنهما : « أَنَّه مَوْضِعُ قَدَمى الله عَزَّ وَجَلَّ وليس هو العَرْشُ بل العَرْشُ أَكْبَرُ مِن الكرسى »(١) . وقد ورد عن النَّبى عليه الصلاة والسلام « أن السَّماوات السَّبع والأَرْضين السَّبع بالنِّسبة للكُرْسى كَحلَقَة أُلْقِيَتْ فى فَلَاةٍ من الأَرْضِ وَأَنَّ فَضْلَ العَرْشِ عَلَى الكُرْسِى كَفَضْلِ الفَلاة عَلَى هَذِهِ الحَلَقَة »(٢) . وهذا يَدلُّ على عِظم هذه المخلوقات وعِظم المخلوق يدلُّ على عِظم الخالق .

● قال : « ﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ ﴾ » يعنى لا يُثقله ويُكرِثه حفظ السَّماوات والأَرض وهذه من الصِّفات المنفية والصفة الثُّبوتية التى يدل هذا على كمال القدرة والعلم والقوة والرحمة .

● قال : « ﴿ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ » العلىُّ على وزن فعيل وهى صفة مشبَّهة لأَن عُلوّه عز وجل لازمٌ لذاته والفرق بين الصِّفة المشبهة واسم الفاعل أن اسم الفاعل طارىءٌ حَادِث يمكن زَوَاله والصِّفة المشبهة لازمة لا ينفك عنها الموصوف .

وعلو الله عز وجل قسمان : عُلو ذات ، وعلو صِفة .

● **فأَمَّا علو الذات** : فإن معناه أَنَّه فوق كلِّ شىء بِذَاته ليس فوقه شىء

---

(١) **إسنَادُه حَسَنٌ** : أخرجه محمد بن عثمان بن أبى شيبة فى كتاب العرش (٦١) ، وعبدالله ابن أحمد فى السنة (٤٠٧) ، والدارمى فى الرد على المريسى ص (٧١:٧٤) ، وابن خزيمة فى التوحيد ص (١٠٧،١٠٨) ، والطبرى فى التفسير (٥٧٩٢) ، والطبرانى فى الكبير (١٢٢٠٤) ، والدارقطنى فى كتاب الصفات (٣٦،٣٧) ، والحاكم فى المستدرك (٢/٢٨٢) بإسناد حسن . وراجع : تعليقنا على شرح لمعة الاعتقاد ص (٦٤) .

(٢) رواه ابن أبى شيبة فى كتاب العرش رقم (٥٨) من حديث أبى ذر وفى إسناده : إسماعيل بن مسلم المكى متروك والمختار بن غسان مجهول وللحديث طرق أخرى ولذا صحَّحه الألبانى فى السلسلة الصحيحة برقم (١٠٩) . وراجع أيضًا : النهج السَّديد ص (٢٨١) للدوسرى .

ولا حِذَاءَه شيء .

● **وأمَّا علو الصِّفات** : فهى ما دلَّ عليه قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ﴾ [النحل : ٦٠] يعنى أَن صفاته كلها عُلْيا ليس فيها نَقصٌ بوجه من الوُجوه .

أمَّا « العظيم » : فهى أيضًا صفة مُشَبّهة ومعناها ذو العظمة وهى القوة والكبرياء وما أشبه ذلك مِمَّا هو معروف من مدلول هذه الكلمة .

● **وهذه الآية تتضمن** من أسماء الله عِدَّة وهى : الله ، الحَىُّ ، القَيُّوم ، الإله ، العَلِىُّ ، العظيم .

● وتتضمَّن : من صِفَاتِ الله سِتُّ صِفات تضمَّنَتها هذه الأسماء .

● وتتضمَّن أيضًا : انتفاء السِّنة والنَّوم فى حقِّه .

● وتتضمن : عُمُوم مُلكه للسماوات والأرض فى قوله : ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ ﴾ .

● وتُفيد الآية : انفراد الله عزَّ وجلَّ بالملك وَنَأْخُذه من تقديم الخبر ومن الصِّفات التى تضمَّنتها الآية قوة السُّلطان وكماله من قوله : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ .

● ومنها أيضًا : إثبات العندية وهذا يدل على أنه ليس فى كل مكان .

● ومنها أيضًا : إثبات الإذن من قوله : ﴿ إِلَّا بِإِذْنِه ﴾ .

● وتدل هذه الآية من صِفات الله على العلم لقوله ﴿ يَعْلَمُ ﴾ وعلى إحاطته بكل شيء من قوله : ﴿ مَا ﴾ .

● وعلى أنَّه سبحانه وتعالى لا يَنْسَى ما عِلم ﴿ وَمَا خَلْفَهُم ﴾ ولا يجهل

ما يُستقبل من قوله ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ .

● وكذلك تدلُّ هذه الآية من صفات الله نقص الخلق بالنِّسبة لله عز وجل لقوله : ﴿ ولَا يُحِيطُونَ بِشَىءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ ونقص الخلق كمالٌ لله عزّ وجل لأن من عرف المخلوق ونقْصه استدل به على كَمال الخَالق لظهور التَّباين بينهما .

● ومن فوائدها : فيما يتعلَّق بصفات الله إثبات المَشِيئة لقوله : ﴿ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ .

● ومنها أيضًا : إثبات الكُرْسى وهو مَوْضع القَدَمين .

● ومنها : إثبات العَظَمة والقوَّة والقُدْرة لقوله : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيّه السَّمٰوَاتِ وَالأَرْض ﴾ ؛ لأن عظمة المخلوق تَدُلُّ على عظمة الخَالق .

● وتدل أيضًا فيما يتعلَّق بصفات الله على كمال قُدْرته وقُوَّته وعِلْمه وَرَحْمَته وحفظه من قوله ﴿ وَلَا يَؤُودُه حِفْظهما ﴾ .

● ومنها أيضًا : إثبات عُلُوِّ الله لقوله ﴿ وهو العَلِىُّ ﴾ ومذهب أهل السنة والجماعة أنَّ الله سبحانه وتعالى عَالٍ بذاته وأن علوّه من الصِّفات الذَّاتية الأَزلية الأَبدية وخالف أهل السنة فى ذلك طائفتان : طائفة : قالوا : إن الله بذاته فى كل مكان ، وطائفة قالوا : إنَّ الله ليس فوق العالم ولا تحت العَالم وَلَا فِى العالم وَلا يمين وَلا شِمال ولا مُنْفصل عن العَالم ولا مُتَّصل .

والذين قالوا بأنّه فى كل مكان استدلوا بقول الله تعالى : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُواْ ﴾ [المجادلة : ٧] واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِى ستَّةِ أَيَّام ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ

الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد : ٤]
وعلى هذا فليس عاليًا بذاته بل العُلو عُلو صِفة .

● أمَّا الذين قالوا إنَّه لا يوصف بجهة قالوا لأنَّنا لو وصفناه بذلك لكان جسمًا والأجسام مُتَماثلة وهذا يستلزم التَّمثيل وعلى هذا فننكر أن يكون فى أى جهة ولكننا نَردُّ على هؤلاء من وجهين :

الوجه الأول : إبطال احتجاجهم .

والثَّانى : إثْبَاتُ نقيض قولهم بالأَدِلَّة القاطعة .

أَمَّا الأَوَّل : فنقول لمن زعموا أن الله بذاته فى كل مكان دعواكم هذه دعوى باطلة يردُّها السَّمع والعقل .

● **أما السَّمع** فإن الله تعالى أثبت لنفسه أنُّه العَلى ونفس الآية التى ذكرتم لا تدل على ذلك لأن المعية لا تستلزم الحلول فى المكان ألا ترى إلى قول العرب « القمر معنا » ومحلّه فى السماء . ويقول الرجل : زوجتى معى وهو فى المشرق وهى فى المغرب . ويقول الضَّابط للجنود : اذهبوا إلى المعركة وأنا معكم وهو فى غرفة القيادة وهم فى ساحة القتال فلا يلزم من المعية أن يكون الصَّاحب فى مكان المُصَاحَب أَبدًا فى اللُّغة العربية . والمعيَّة يتحدَّد معناها بَحَسَب مَا تُضَاف إليه فنقول أحيانًا : هذا لبنٌ معه ماء ، وهذه المعيَّة اقتضت الإختلاط ، ويقول الرجل : مَتَاعى مَعى وهو غير متصل به ويقول : إذا حمل متاعه معه : متاعى معى ، فهذه كلمة واحدة لكن يختلف معناها بَحَسب الإضافة . فبهذا نقول معيَّة الله عز وجل لخلقه تَلِيقُ بجلاله سبحانه وتعالى كَسَائر صفاته فهى معيّة تامَّة حقيقية لكن هو فى السماء .

● **أمَّا الدَّليل العقلي** : على بطلان قولهم : فنقول : إذا قلت إن الله مَعَك فى كل مكان فهذا يَلْزَمُ عليه لوازم باطلة فيلزم عليه :

أوّلًا : إمَّا التَّعدد أو التجزُّأ وهذا لازم باطل بلا شك وبطلان اللازم يدلُّ على بُطْلان الملزوم .

ثَانيًا : نقول : إذا قُلْتَ إنَّه معك فى الأمكنة لزم أن يزداد بزيادة الناس وينقص بنقص الناس .

ثالثًا : يَلْزَمُ علي ذلك ألَّا تُنَزِّهُهُ عن المَوَاضع القَذرة فإذا قلت : إنَّ الله معك فيكون هذا أعْظَم قَدْح فى الله عزَّ وجلَّ . فتبين بهذا أن قولهم مُنَافِي للسَّمع ومنافِي للعقل وأنَّ القرآن لا يَدُلُّ عليه بأى وجه من الدِّلالات . لا دِلالة مُطَابقة ، ولا تضمُّن ولا التزام أبدًا .

أما الآخرون فنقول لهم :

- إن نفيكم للجهة يَسْتلزم نفى الرَّب عز وجل . إذ لا نعلم شيئًا لا يكون فوق العالم ولا تحته ولا يمين ولا شمال ولا مُتَّصل ولا منفصل إلا العدم ، ولهذا قال بعض العلماء : لو قيل لنا صِفُوا الله بالعدم مَا وَجَدنا أصدق وصفًا للعدم من هذا الوصف .

ثانيًا : قولكم إنه يَسْتلزم التجسيم ، نحن نناقشكم فى كلمة الجسم ! ما هذا الجسم الذى تُنَفِّرونَ النَّاس من إثبات صفات الله من أجله ؟ أتريدون بالجسم الشَّىء المكوّن من أشياء مفتقر بعضها إلى بعض لا يمكن أن يقوم إلَّا باجتماع هذه الأجزاء ؟ فإن أردتم هذا فنحن لا نقرُّه ونقول : إنَّ الله ليس بجسم بهذا المعنى . لكن مَنْ قال إن إثبات عُلُوّه يستلزم هذا الجسم ؟ إلَّا مجرَّد دعوى منكم ويكفينا أن نقول : لا قبول ! أمَّا إن أردتم بالجسم الذات القائمة بنفسها المُتَّصِفَة بما يليق بها فنحن نُثبت ذلك ونقول : إن لله تعالى ذاتًا قائمةً

بنفسها المُتَّصِفَة بصفة الكمال وهذا هو الذى يعلم به كل إنسان . وبهذا يتبيَّن بطلان قول هؤلاء الذين أثبتوا أن الله بذاته فى كل مكان أو أنَّ الله تعالى ليس فوق العالم ولا تحته ولا متصل ولا منفصل ونقول: هو على عرشه استوى عزَّ وجل . أما أدلَّة العلو التى تُثبت مَا قَالَهُ أهل السُّنة والجماعة فهى أدلة كثيرة لا تُحصر أفرادها وأمَّا أنواعها فهى خمسة : الكتاب والسنة والإجماع والعقل والفطرة .

● **أما الكتاب** : فتنوّعت أدِلّته على عُلو الله عزَّ وجل منها التصريح بالعلو والفَوْقِيّة وَصُعود الأشياء إليه ونُزولها منه ومَا أشْبَه ذلك .

● **وأمَّا السُّنة** : فكذلك تنوَّعت دِلالتها ، واتَّفقت السُّنّة بأصنافها الثلاثة على علو الله بذاته فثبت علو الله بذاته فى السُّنَّة من قول الرسول ﷺ ، وفِعْله ، وإقْراره .

● **وأمَّا الإجماع** : فقد أجمع المسلمون قبل ظهور هذه الطَّوائف المبتدعة على أن الله تعالى مُسْتو على عرشه فوق خلقه . قال شيخ الإسلام : « ليس فى كلام الله وَلَا رَسُوله ولا كلام الصَّحابة ولا التَّابعين لهم بإحسان ما يدلُّ لا نَصًّا ولا ظاهرًا على أن الله تعالى ليس فوق العرش وليس فى السَّماء كل كلامهم متفق على أن الله فوق كل شىء » .

● **وأمَّا العقل** : فإنَّنا نقول : كل يدرى أن العلو صفة كمال ، وإذا كان صفة كمال فإنّه يجب أن يكون ثابتًا لله لأن الله متّصف بصفات الكمال ولذلك نقول : إمَّا أن يكون الله فى أعلى أو فى أسفل أو فى محاذى الأسفل والمحاذى ممتنع ؛ لأن الأسفل نَقْص فى معناه والمحاذى نقص لمشابهة المخلوق ومُمَاثَلَتِه فلم يبق إلَّا العُلو وهذا وجه آخر فى الدَّليل العقلى .

● **أمَّا الفطرة** : فإننا نقول : مَا مِن إنسان يقول يارب إلا وجد فى قلبه

ضرورة بطلب العلو فتطابقت الأَدِلَّة الخمسة .

وأما علو الصِّفات : فهو محل إجماع من كل من يدين أو يَتَسمَّىٰ بالإسلام .

﴿ العَظِيم ﴾ منها إثبات العَظَمة لله عز وجل .

* * *

الجمع بين علوّه وقربه وأزليته وأبديته فى القرآن الكريم

١٦ – وقوله سبحانه : ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد : ٣] .

١٧ – وقوله سبحانه : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ .

[الفرقان : ٥٨] .

١٨ – وقوله : ﴿ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [التحريم : ٣][*] .

الشـــــرح

● **وقوله سبحانه :** ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد : ٣] .

هذه أربعة أسماء كلّها مُتقابلة فى الزّمان والمكان ، تفيد إحاطة الله سبحانه وتعالى بكل شىء أوّلا وآخرًا ، وكذلك فى المكان ، ففيه الإحاطة الزمانية والإحاطة المكانية .

● ﴿ **هو الأوّل** ﴾ **الأوّل : فسّره النّبى عليه الصّلاة والسّلام بقوله : « الذى لَيسَ قَبْلَه شىء »[1] وهنا فُسِّر الإثبات بالنّفى فجعل هذه الصّفة**

(*) فى نسخة : ﴿ وهو العليم الخبير ﴾ ولا يوجد فى القرآن آية بهذا اللفظ وإنما أقربها لهذا السياق قوله تعالى : ﴿ نبأنى العليم الخبير ﴾ [التحريم : ٣] ولذا أثبتها هنا . وفى نسخة : ﴿ وهو الحكيم الخبير ﴾ [سبأ : ١] .

(١) جزء من حديث أبى هريرة الذى رواه مسلم (٢٧١٣) (٦١) فيما كان يقوله النبى ﷺ إذا أوى إلى فراشه وفيه : « ... أنت الأول فليس قبلك شىء ، وأنت الآخر فليس بعدك شىء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شىء ، وأنت الباطن فليس دونك شىء ... » . وسيأتى فى كلام الشيخ ابن عثيمين .

الثّبوتية صفة سلبية وقد ذكرنا فيما سبق أن الصِّفات الثبوتية أكمل وأكثر فلماذا ؟

فنقول : فسَّرها النبى ﷺ بذلك لتوكيد الأَوَّلية يعنى أَوليّة ليست أوليّة إضافية . فيقال : هذا أَوّل باعتبار ما بعده وفيه شيء آخر قَبْله . فصار تفسيرها بأَمْرٍ سلبى أَدلُّ على العموم على أنها أَوَّلية مطلقة ولهذا قال : « لَيْسَ قَبْلَهُ شَىْءٌ » وهذا باعتبار التَّقدم الزَّمنى .

﴿ والآخر ﴾ فسَّره النبى عليه الصلاة والسلام بقوله : « الَّذى لَيْسَ بَعْدَهُ شَىْءٌ » ولا يُتوهَّم أَن هذا يدلُّ على غاية لآخريته ، لأَنَّ هناك أشياء أَبدية وهى من المخلوقات كالجنَّة والنَّار وعليه فيكون معنى « الآخِر » أنَّه محيط بكل شيء فلا نهاية لآخريته .

﴿ الظاهر ﴾ من الظُّهور وهو العلو كما قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ [التوبة : ٣٣] أى ليُعليه ومنه ظهر الدابة لأنه عالٍ عليها . ومنه قوله تعالى : ﴿ فَمَا اسْطَاعُواْ أَن يظْهَرُوهُ ﴾ [الكهف : ٩٧] أى يعلو عليه . وقال النبى عليه الصلاة والسلام فى تفسيرها : « الذى ليس فوقه شيء » .

﴿ البَاطن ﴾ فسَّره النبى عليه الصَّلاة والسَّلام قال : « الذى لَيْسَ دُونَهُ شَىْءٌ » وهذا كناية عن إحاطته بكُلِّ شيء . ولكن المعنى أنَّه مع علوه عز وجل فهو باطن فعلوه لا يُنَافى قُرْبه عزَّ وجل . فالباطن قريب من معنى « القريب » تأمَّل هذه الأَسماء الأَربعة تجد أَنَّها متقابلة ، وكلها خبر عن مبتدأ واحد لكن بواسطة حرف العطف والأخبار بواسطة حرف العطف أقوى من الأَخبار بدون واسطة حرف العطف فمثلًا ﴿ وَهُوَ الغَفُورُ الوَدُودُ ذُو الْعَرْشِ المَجِيدُ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾ [البروج : ١٤-١٦] فهذه أَخبار متعددة بدون حرف

العطف لكن أحيانًا تأتى واو العطف . وفائدتها أولا : توكيد السَّابق لأنك إذا عطفت عليه جعلته أُصلاً والأصل ثابت .

ثانيًا : إفادة الجمع : ولا يَسْتَلْزِم ذلك تَعَدُّد المَوْصُوف . أرأيت قوله تعالى : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى . الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأعلى : ١-٣] هذا الأول والذى خلق فسوَّىٰ هو الذى قدَّر فهدى . فإذا قلت : المعروف أن العطف يقتضى المغايرة ؟ فالجواب نعم لكن المغايرة تارة تكون بالأَعيان وتارة تكون بالأَوْصَاف . وهذا تغاير أوصاف . على أن التَّغاير قد يكون لفظيًا غير مَعْنوى ، مثل قول الشاعر :

« فَأَلْفَىٰ قَوْلَها كذبًا ومينا »

فَالمِين هو الكَذِب وَمع ذَلك عطفه عليه لتغاير اللَّفظ والمعنى واحد . فالتَّغاير امَّا عَيْنى أو مَعْنوى أو لفظى فلو قلت : جاء زيدٌ ، وعمرو ، وبكر ، وخالد ، فالتَّغاير عينى .

استفدنا من هذه الآية الكريمة إثبات أربعة أسماء من أسماء الله وهى : « الأول والآخر والظَّاهر والباطن » .

واستفدنا منها أربع صفات : الأُولية والآخرية والظَّاهرية والباطنية .

واستفدنا من مجموع الأسماء إحاطة الله تعالى بكل شيء زمنًا ومكانًا لأنه قد يحصل من اجتماع الأَوْصَاف زيادة صفة .

إذا قال قائل : هل هذه الأسماء مُتَلازِمة ؟ بمعنى أنك إذا قلت الأَوَّل فلابد أن تقول الآخِر أو يجوز فَصْل بعضها عن بعض ؟!

الظاهر أنه إذا قيل أنها متلازمة فإنك إذا قلت الأَوَّل فقل الآخر وإذا قلت الظَّاهر فَقُل البَاطن وَلَيْس بلازمٍ أن تذكرها مع الأَوَّل والآخر فلا تفصل

الظَّاهر عن الباطن لئلا تفوتنا صفة المُقَابَلة الدَّالة على الإحاطة .

● ثم قال : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيم ﴾ [الحديد : ٣] هذا إكمال لما سبق من الصِّفات الأربع . يعنى ومع ذلك « فهو بكل شىء عليم » . هذه من صيغ العموم التى لم يدخلها تخصيصٌ أبدًا . فنفصِّل هذا العموم من أفعاله وأفعال العباد الكُلِّيات والجزئيات . يعلم مَا يَقَعُ وَمَا سَيَقَعُ ويشمل الواجب والممكن والمُسْتحيل . فَعِلْمُ الله تَعَالىٰ وَاسعٌ شَاملٌ مُحيطٌ لا يستثنى منه شىء . فأمَّا عِلْمُه بالواجب فكعِلْمه بنفسه وَبِمَا لَهُ من الصِّفات الكاملة وَعِلْمُه بالمستحيل مثل قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلهَةٌ إِلَّا الله لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء : ٢٢] ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ الله لَنْ يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُواْ لَهُ ﴾ [الحج : ٧٣] علمه بالممكن كل ما تحدث الله به عن المخلوقات فهو من العلم بالممكن ﴿ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ [النحل : ١٩] إذًا : فَعِلْمُ الله تعالى محيطٌ بكل شىء . وتعريف العِلْم : هو إِدْرَاكُ الشَّىء على مَا هُو عليه بدون تردُّد وبدون شَك والثَّمرة التى ينتجها الإيمان بأنَّ الله بكل شىء عليم كمال مراقبة الله عزَّ وجل وخَشْيَتُه بحيث لا يَفْقِده حيث أمره ولا يَرَاهُ حيث نَهَاهُ .

* * *

● **وقوله سبحانه :** ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ [**الفرقان : ٥٨**] .

﴿ وَتوَكَّل ﴾ التَّوكل : مَأْخُوذ مِن وَكَّلَ الشَّىء أى فَوَّضَهُ إلى غيره .. فالتَّوكل بمعنى التَّفويض وعرَّفه بعض العُلماء بقوله : « صِدْقُ الاعتماد على الله بجلب المنافع ودفع المضار مع الثقة به سبحانه وتعالى »(١) .

وصِدْقُ الاعتماد أن تعتمد على الله اعتمادًا صادقًا بحيث لا تسأل إلَّا الله ولا تستعين إلَّا بالله ولا ترجو إلَّا الله ولا تخاف إلَّا الله . تعتمد على الله عز وجل بِجَلْبِ المَنافع ودفع المضَار . ولا يكفى هذا الاعتماد دون الثِّقة به وفعل السَّبب الذى أذن به بحيث أنك واثق بدون تردُّد مع فعل السَّبب الذى أذن فيه . فمن لم يعتمد على الله واعتمد على قوته فإنَّه يُخذل ودليل ذلك مَا وَقَعَ للصَّحابة مع نبيهم محمد ﷺ فى غزوة حنين حين قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ﴾ [التوبة : ٢٥] حيث قالوا : لن نغلب اليوم من قِلَّة ﴿ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ثُمَّ أَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ [التوبة : ٢٥، ٢٦] ومن توكَّل على الله ولكن لم يفعل السَّبب الذى أذِن الله فيه فهو غير صادق بل إن عدم فعل الأسباب سَفَهٌ فى العقل ونقصٌ فى الدِّين لأنه طعنٌ واضح فى حكمة الله . والتوكُّل على الله هو شطر الدِّين والدَّليل : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾

---

(١) يشير إلى ما قاله الحافظ ابن رجب فى جامع العلوم والحكم ص (٤٠٩) حيث قال : « وحقيقة التوكل هو صدق اعتماد القلب على الله عز وجل فى استجلاب المصالح ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة كلها ، وكِلة الأمور كلها إليه ، وتحقيق الإيمان بأنه لا يعطى ولا يمنع ولا يضر ولا ينفع سواه » ا . هـ .

وراجع ما كتبه الحافظ ابن القيم عن التوكل فى طريق الهجرتين ص (٣٢٩:٣٣٦) .

[الفاتحة : ٥] والاستعانة بالله تعالى هى ثمرة التَّوكل : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود : ١٢٣] ولهذا من توكّل علىٰ غير الله فإنه لا يخلو من ثلاثة أقسام:

أولًا : أن يتوكَّل توكل اعتماد وتعبد فهذا شِرْكٌ أكبر كأَنْ يعتقد بتوكله أن هذا هو الذى يجلب له كل خير ويدفع عنه كل شر . ولا فرق بين أن يكون هذا المتوكَّل عليه حيًّا أو مَيِّتًا .

ثانيًا : أن يتوكل على غير الله بشىء من الاعتماد لكن فيه إيمَانٌ بأنه سبب كتوكُّل كثير من الناس على الملوك والأُمراء فى تحصيل مَعَاشِهم فهذا نوع من الشِّرك الأَصغر .

ثالثًا : أن يتوكَّل على شخص على أَنه نَائب عنه وأن هذا المتوكِّل فوقه كتوكُّل الإنسان على الوكيل فهذا لا يُنَافى التَّوكل وقد وكَّل النبى ﷺ أصحابه فى قبض الصَّدقات وفى البيع والشِّراء وليس ذلك نقصًا فى توحيده عليه الصَّلاة والسلام . فتوكُّل العبادة لا يَصِحُّ إلَّا لله وهو الذى يُفوض الإنسان أَمره إليه تفويضًا كاملًا فى جَلْبِ المنافع ودفع المضار مع اقتران ذلك بالخشية والرَّجاء .

● وقوله : ﴿ عَلَىٰ الحَىِّ الَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان : ٥٨] يقولون إن الحكم إذا علِّق بوصف دل على عليه ذلك الوصف لو قال قائل : لماذا لم تكن الآية : « وتوكل على القوى العزيز » ؛ لأن القوة هى التى يحصل بها المطلوب ؟ فالجواب : أَنَّه لما كانت الأَصنام التى يعتمد عليها هؤلاء بمنزلة الأَموات . قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ الله لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ أَمْوَاتٌ غَيْر أَحْيَاء وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ [النحل : ٢٠، ٢١] فقال : توكَّل على من ليس صِفَتُه كَصِفَة هذه الأَصنام وهو الحى الذى لا يموت .

ووجه آخر : إن الحى اسم يتضمَّن جميع الصِّفات الكاملة فى الحياة ومن كمال حياته عز وجل أنه أهلٌ لأن يعتمد عليه . قال : ﴿الَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ هذه من الصِّفات السَّلبية لكمال حياته فيكون تعلُّقها بما قبلها المقصود به إفادة أن هذه الحياة كاملة لا يلحقها فناء .

فى هذه الجملة من أسماء الله « الحى » وفيها من صفاته الحياة وانتفاء الموت المتضمِّن لكمال الحياة ففيها : صفتان واسم .

* * *

● وقوله : ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [التحريم : ٢] .

قوله : ﴿ **وَهُوَ الْعَلِيمُ** ﴾ وسبق تعريف العلم وسبق أن العلم صفة كمال وسبق أن علم الله محيطٌ بكل شىء .

أمَّا ﴿ **الْحَكِيم** ﴾ هذه المادة « ح - ك - م » تدل على حكم وأحكام فعلى الأول يكون الحكيم بمعنى الحاكم وعلى الثانى يكون الحكيم بمعنى المحكِم إذًا يدلُّ هذا الاسم الكريم على أنَّ الحكم لله ويدلُّ على أن الله موصوف بالحكمة لأن الإحكام هو الاتقان والاتقان وضع الشَّىء فى موضِعه . ففى الآية إثبات حكم وإثبات حكمة . فالله عزَّ وجل وَحْدَهُ هو الحاكم ، وحُكْم الله إمَّا كَوْنى وإمَّا شَرْعى .

حكم الله الشَّرعى نافذٌ فيمن هَدَاهُ الله من عباده ، وحكم الله الكونى نافذٌ فى جميع العباد .

قال تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة : ٥٠] فالمرادُ من هذه الآية الحكم الشَّرعى بقرينة قوله : ﴿ أَفَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾ وقوله : ﴿ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ وقال تعالى: ﴿ كُلُّ

شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص : ٨٨] ففى هذه الآية يَشْمَل الحكمين الشَّرعى والكونى. وقول أحد إخوة يُوسف: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي ﴾ [يوسف : ٨٠] فهذا حُكْمٌ كَوْنى . وقال تعالى فى سورة الممتحنة : ﴿ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الممتحنة : ١٠] فهذا حكم شرعى .

ما الفرق بين الحكم الشَّرعى والكونى ؟

سبق أن الحكم الشَّرعى خاصٌّ بمن هَدَاه الله والحكم الكونى نافذٌ فى جميع الناس فالموت حُكْمٌ كَوْنى والصحة كذلك والصَّلاة حُكْمٌ شرعى وكذلك الزَّكاة والصِّيام وغيرها . فالله عز وجل حكيم بالحكم الكونى وبالحكم الشَّرعى وهو أيضًا محكِمٌ لهما فكلٌّ من الحكمين موافقٌ للحكمة(*) لكن من الحِكَم مانَعْلَمهُ ومن الحِكَم مَا لَا نَعْلَمُه لأن الله تعالى يقول : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ [الإسراء : ٨٥] فإن قال قائل : هل الحكم الشَّرعى صَلَاحٌ للأمة فى كل زمان وَمَكَان ؟ فنقول : نعم فلو قال مثلًا : الرِّبا فى الوقت الحاضر لا يقوم الإقتصاد إِلَّا به ؟ فنقول هذا كذب بل لا يَحْصُل الفَساد إِلَّا به وَمَا فسد اقتصاد النَّاس إِلَّا من أَجل الرِّبا وَمَا حَصل عندهم القَتْل والنَّهب والسَّرقة وفَسَاد الأَخلاق إِلَّا بالرِّبا . ويتفرع عن « الحكيم » بمعنى الحاكم كَونًا الحكم يعنى الذى مرجع التَّخاصُم إليه فالذى يقضى بين العباد هو الله عز وجل : ﴿ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ﴾ وهذا حكم فصل ومنه الحاكم الشرعى يفصل بين الخصوم .

(*) الحكم الكونى موافق للحكمة فما يُصيب النَّاس من أمراض ومجاعات وحُروب وغيرها فَلِحِكْمَة لقوله تعالى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاس لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم : ٤١] فهذه الحكمة .

● وقوله : ﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [التحريم : ٣][*] .

﴿ العَلِيمُ ﴾ سبق الكلام فيه . وفيه صفة العلم لله عز وجل وهو عالم بصفة العلم لأن المعتزلة يقولون ليس له صفة العلم بل عالم بذاته فلا يقولون أنه عليم بمعنى ذُو علم بل ذاته هى العلم . جمع الله عز وجل بين العليم ، والخبير ولو أتى اسم العليم لكان شاملًا لاسم الخبير ؛ لأن العليم عليمٌ بكل شيء الظَّاهر وَالبَاطن و﴿ الخَبِيرُ ﴾ هو العَليم ببواطن الأمور فيكون هذا وَصْفاً أَخصُّ بعد وَصْفٍ أعَم فنقول العليم بظواهر الأُمور وبواطنها وأكَّد الخبير ؛ لأَنَّ العلم بالظَّواهر دون العلم بالبواطن . لأجل أن يكون العلم ببواطن الأمور مُكَرَّرًا مرتين : مرّة بطريق العموم ومرّة بطريق الخُصوص وكما يكون هذا فى المعانى يكون فى الأعيان .

فمثلًا : ﴿ تَنَزَّلُ المَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا ﴾ [القدر : ٤] الرّوح جبريل وهو من الملائكة فنقول الملائكة ومنهم جبريل وخصَّ جبريل بالذِّكر تشريفًا له . إذًا نص على الخبير ؛ لأن العلم بالبواطن أعمق من العلم بالظَّواهر .

* * *

(*) راجع تعليق ص (١٤١) .

إحاطة علمه بجميع مخلوقاته فى القرآن الكريم

٢٠ - ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ [سبأ : ٢] .

٢١ - ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ [الأنعام : ٥٩] .

٢٢ - ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴾ [فاطر : ١١] .

٢٣ - ﴿ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق : ١٢] .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [الذاريات : ٥٨] .

الشـــرح

● قوله : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ [سبأ : ٢] ما : اسم موصول يُفيد العموم كل مَا يَلج فى الأرض مثل المطر والحبُّ يُبذر فى الأرض والموتى والدُّود والنَّمل وكثير ﴿ **وما يخرج منها** ﴾ هذا كثير ! الماء والزُّروع .. وما أشبه ذلك ﴿ **وما ينزل من السماء** ﴾ [سبأ : ٢] مثل المطر والوحى والملائكة وأمر الله عز وجل ﴿ **وما يعرج فيها** ﴾ الأعمال الصَّالحة والملائكة والأرواح والدُّعاء وهنا قال : ﴿ وما يعرج **فيها** ﴾ وفى سورة المعارج قال : ﴿ تَعْرُجُ المَلَائِكَةُ والرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ [المعارج : ٤] ونعلم أن العروج فعلٌ يُعدَّى بإلى فكيف يتلائم حرف الظرفية

فى مع فعل يكون حرفه غائيًا أى يُعدى بإلى ؟

فى مثل هذا التركيب اختلف نُحاةُ البصرة والكوفة فقال نُحَاةُ البضرة : أن الفعل يُضمّن معنًى يتلائم مع الحرف . وقال نحاة الكوفة : بل الحرف يُضمن معنًى يتلائم مع الفعل .

فعلى الرأى الأول : نقول ﴿ يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ متضمِّن ﴿ يَعْرُجُ ﴾ معنًى يتلائم مع « فى » والذى يتلائم مع « فى » الدُّخول فضمِّنت « يعرج » معنى يدخل فيصير المعنى « وما يعرج فيدخل فيها » وعليه يكون فى الآية دِلالة على أمرين : على عُروج ودُخول . أما على الرأى الثَّانى فنقول « فى » بمعنى « إلى » ويكون هذا من باب التَّناوب بين الحروف . لكن على هذا القول لا تجد أن فى الآية معنًى جديدًا . وليس فيها إلَّا اختلاف لفظ « إلى » إلى لفظ « فى » ولهذا كان القول الأوَّل أَصَحُّ وهو أن نُضمِّن الفعل مَعْنًى يتناسب مع الحرف . ولها نظير فى اللُّغة العربية قال الله تعالى : ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ ﴾ [الإنسان : ٦] والعين يشرب منها والذى يشرب به الإناء . فعلى رأى أهل الكوفة نقول « يشرب بها » الباء بمعنى « من » أى « منها » . وعلى رأى أهل البصرة يضمَّن الفعل « يشرب » معنًى يتلائم مع الحرف « الباء » والذى يتلائم معها « يروى بها » ومعلوم أنه لارَىَّ إلَّا بعد شُرب فيكون هذا الفعل ضُمِّن معنى غايته وهو الرِّى . وكذلك نقول فى ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ لا دخول فى السماء إلا بعد العُروج إليها فيكون الفعل ضُمِّن معنى الغاية . ففى الآية ذكر الله عزَّ وجل عموم علمه فى كل شىء بنوع من التَّفصيل . ثم فصَّل فى آية أُخرى تفصيلًا آخر فقال :

● قوله : ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ﴾ [الأنعام : ٥٩] .

﴿ عِنْدَهُ ﴾ خبر مقدَّم ﴿ مَفَاتِحُ ﴾ مبتدأ مؤخر ويفيد هذا التَّركيب الحصر والاختصاص عنده لا عند غيره مفاتح الغيب وأكد هذا الحصر بقوله : ﴿ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ ففى الجملة حصر بأن علم هذه المفاتح عند الله بطريقتين إحداهما : بطريقة التَّقديم والتأخير والثانية : طريقة النَّفى والإثبات .

كلمة ﴿ مَفَاتِحُ ﴾ قيل إنها جمع « مِفْتح » وقيل : إن الأصل أنها مفاتيح وأن مفاتيح قد تحذف منها الياء أحيانًا ونحن نعرف أن المفتاح ما يفتح به الباب لكن مِفْتح غير مفتاح . المفتح مكان الفتح ، وهى خزائن الغيب وقيل ﴿ مَفَاتِحُ الغَيْبِ ﴾ أى مبادئها لأن مفتح كل شيء يكون فى أوله فيكون على هذا ﴿ مَفَاتِحُ الغَيْب ﴾ أى مَبادىء الغيب فإنَّ هذه المذكورات مبادىء لما بعدها ﴿ الغَيْب ﴾ مصدر غَاب يَغِيبُ غَيْبًا والمراد بالغيب ما كان غائبًا . والغيب أمرٌ نسبى لكن الغيب المطلق خاصٌّ بالله هذه المفاتح سواءٌ قلنا إن المفاتح هى المبادىء أو هى الخزائن لا يعلمها إلَّا الله عز وجل فلا يعلمها مَلك ولا يَعْلمها رسول حتى إن أشرف الرُّسل الملكى وهو جبريل سأل أشرف الرسل البشرى وهو محمد عليه الصَّلاة والسَّلام قال : « أَخْبِرْنِى عن السَّاعة ؟ قَالَ : مَا المَسْؤولُ عَنها بِأَعْلَمَ مِن السَّائِل »(١) والمعنى : كما أنه لا عِلْم لك بها فلا عِلْمَ لى بها أيضًا – فمن ادَّعى علم السَّاعة فهو كافر ومن صدّقه فهو أيضًا كافر لأنَّه مُكَذِّبٌ للقرآن .

ما هذه المفاتح ؟ فسَّرها أعلم الخلق بكلام الله محمد ﷺ حين قرأ : ﴿ إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فى الأَرْحَام وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾

---

(١) جزء من حديث جبريل المشهور فى سؤاله عن الإسلام والإيمان والإحسان : رواه مسلم (٨) (١) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

[لقمان : ٣٤][1] فَعِلْمُ السَّاعة مبدأ مفتاح لحياة الآخرة . وسُمِّيت السَّاعة بهذا لأنها ساعة عظيمة يُهدد بها جميع النَّاس وهى الحاقّة والواقعة . والسَّاعة عِلْمُها عند الله : لا يدرى أحدٌ متى تقوم إلَّا الله عز وجل قال : ﴿ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ ﴾ الغيث : مصدر ومعناه إزالة الشدّة والمراد به المطر ؛ لأن بالمطر تزول شِدّة القَحْط والجَدْب . والمطر نزُوله مِفْتَاحٌ لحياة الأرض بالنَّبات . وبحياة النَّبات يكون الخير فى المرعى وجميع ما يتعلّق بمصالح العباد . وهنا نقطة : قال : ﴿ يُنَزِّلُ الغَيْثَ ﴾ ولم يقل « وينزل المطر » لأن المطر أحيانًا ينزل ولا يكون فيه نبات فلا يكون غيثًا ولا تحيى به الأرض ولهذا ثبت فى صحيح مسلم : « لَيْست السَّنة أَلَّا تُمْطروا إنَّما السَّنة أن تمطروا وَلا تُنْبِتُ الأَرْض شَيْئًا »[2] .

﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَام ﴾ أى أرحام الإناث ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴾ [فاطر : ١١] فهو عز وجل يعلم ما فى الأرحام أى ما فى بطون الأمهات من بنى آدم وغيرهم . كلمة ﴿ يَعْلَمُ مَا ﴾ متعلق العلم عامٌ بكل شىء فلا يعلم ما فى الأرحام إلَّا من خَلَقَها عز وجل . فإن قلت : يقال الآن إنهم صاروا يعلمون الذَّكَر من الأُنثى فى الرحم فهل هذا صحيح ؟ نقول : إن الأمر وقع ولا يمكن إنكاره وهم الآن يعلمون أن الذى فى البطن ذكر أو أُنثى لكن يعلمونه إذا كان قد حصَل وعَلق وهذا من الغيب النِّسبى الذى قد يعلمه البَشَر وعلى هذا فنقول : هم الآن لا يعلمونها إلَّا بعد تكوينها والذى قال : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَام ﴾ هو الذى أخبر عنه رسوله بأنَّه يبْعَث إلى النُّطفة ملكا فيخبره الله بأنه ذكر أو أُنثى فيكون الملك عالمًا بذلك . ولكن

(١) رواه البخارى (٤٧٧٨) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما .

(٢) رواه مسلم (٢٩٠٤) (٤٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

السَّنة : القحط .

هم لا يعلمون أشياء كثيرة فى الجنين فلا يعلمون متى ينزل وَلا يعلمون إذا نَزَل إلى متى يَبْقى حيًّا . ولا يعلمون هل يكون شَقِيًّا أم سَعيدًا . لا يعلمون هل يكون غنيًّا أم فقيرًا .

إذًا أكثر متعلِّقات العلم فيما يتعلَّق بالأجنة مجهول للخلق فصدق العموم فى قوله : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى الْأَرْحَام ﴾ ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ لكن لو قال قائل : أنا أعلم ما فى الغد سأذهب إلى المكان الفلانى أو أقرأ أو أزور أقاربى فنقول : الله يقول : ﴿ مَاذَا تَكْسِبُ ﴾ و لم يقل « ماذا تعمل » وقد تعمل ولا تكسب ويكون هناك موانع عن الكسب ونقول أيضا قد يجزم بأنه سيعمل ولكن يَحُول بينه وبين العمل مانع ولا تدرى نَفْسٌ ماذا يكسب غيرها أيضًا وهذا من باب أولى .

﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ ما تدرى هل تموت فى أرضك أو فى أرض أخرى فى أرض إسلامية أو أرض كافرٌ أهلها . ما تدرى هل تموت فى البرِّ أو فى البحر أو فى الجو وهذا شىء مُشَاهد !! ولا تدرى بأى ساعة تموت لأنه إذا كان لا يمكنك أن تدرى بأى أرض تموت وأنت قد تتحكَّم فى المكان فكذلك لا تدرى بأى زمن وساعة تموت .

علم ما فى الأرحام مفتاح لحياة الدُّنيا . ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ مفتاح للعمل المستقبل ﴿ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ مفتاح لحياة الآخرة ؛ لأن الإنسان إذا مات دخل عالم الآخرة . فتبيَّن أن هذه المفاتح كلُّها مبادىء لكل ما ورائها ﴿ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ ثم قال عز وجل : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ [الأنعام : ٥٩] هذا إجمال وتفصيل . من يحصى أجناس ما فى البرِّ ؟ كم فيها من عالم الحيوان والحشرات والجبال والأشجار والأنهار أمورٌ لا يعلمها إلَّا الله عز وجل . والبحر كذلك فيه من العوالم ما لا يَعْلَمُه

إلا خالقه عز وجل . يقولون : إنَّ فى البحر ثلاثة أرباع أكثر مما فى البر من الأجناس لأن البحر أكثر من اليابس . قال : ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾ [الأنعام : ٥٩] هذا تفصيل . فأى ورقة فى أى شجرة صغيرة أو كبيرة قريبة أو بعيدة تسقط فالله تعالى يعلمها ولهذا جاءت « ما » النافية و« مِن » الزائدة ليكون ذلك دالًا على العُمُوم . والورقة التى تخلق يعلمها من باب أولى ، لأنَّ عالم ما يسقط عالم بما يخلق عز وجل . انظر إلى سعة علم الله كل شيء يكون فهو عالم به حتى الذى لم يحصل وسَيَحْصُل فهو تعالى عالمٌ به قال : ﴿ وَلَا حَبَّةٍ فى ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ ﴾ [الأنعام : ٥٩] حبة صغيرة لا يدركها الطَّرف فى ظلمات الأرض يعلمها عز وجل . ظلمات : جمع ظلمة والظُّلمات : أولًا طين البحر . ثانيًا : مَاءُ البحر . ثالثًا : المطر . رابعًا : السحاب . خامسًا : الليل . والذى نعلم نحن خمس ظلمات من ظلمات الأرض ومع ذلك هذه الحبَّة يعلمها الله سبحانه وتعالى ويُبْصرها عز وجل قال : ﴿ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ ﴾ هذا عام فما من شيء إلا وهو إما رطب وإما يابس ﴿ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُّبِين ﴾ كتاب بمعنى مكتوب . مُبِين أى مظهرا وبيِّن لأن « أبان » تستعمل متعديًا ولازمًا فيقال : أبان الفجر بمعنى ظهر الفجر ويقال : أبان الحق بمعنى أَظْهرهُ والمراد بالكتاب هنا اللَّوح المحفوظ كل هذه الأشياء معلومة عند الله سبحانه وتعالى ومكتوبة عنده فى اللوح المحفوظ لأنَّ الله تعالى لما خَلَق القَلَم قال له : اكْتُب . قال القَلم : مَاذَا اكْتُب ؟ قال : « اكتب ما هو كَائِنٌ إلى يَوْمِ القِيَامَة »[1] فكتب فى تلك اللحظة ما هو كَائِنٌ إلى يوم القيامة . ثم جعل سبحانه فى أيدى الملائكة كتبًا تكتب ما يعمله

---

(١) **حَدِيثٌ صَحِيحٌ** : رواه أحمد (٥/٣١٧) ، وأبو داود (٤٧٠٠) ، والتِّرمذى (٢١٥٥، ٣٣١٩) وحسَّنه من حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه وإسناده حسن وللحديث شواهد من حديث ابن عباس وأبى هريرة وعبد الله بن عمرو وابن عمر رضى الله عنهم . وراجع : الصَّحيحة للألبانى (١٣٣) .

الإنسان . لأن الذى فى اللّوح المحفوظ قد كتب فيه ما كان يريد الإنسان أن يفعل . والكتابة التى يكتبها الملائكة هي التى يُجْزَى على ما فيها الإنسان ولهذا يقول الله عز وجل : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ المجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ ﴾ [محمد : ٣١] أما عِلْمُه بأن عبده فلانًا سَيَصْبِر أو لا يَصْبِر فهذا مسبوق من قبل لكن لا يترتب عليه الثَّواب والعِقاب .

● وقوله : ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ﴾ [فاطر : ١١] ﴿ ما ﴾ نافية . ﴿ أنثى ﴾ فاعل تحمل لكنه معرب بضمة مقدّرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بتقدير حركة حرف الجر الزائد وهنا إشكال : كيف تقول زائد وليس فى القرآن زائد ؟ فالجواب : إنَّه زائد من حيث الإعراب . أمَّا من حيث المعنى فهو مفيد وليس فى القرآن شيء زائد لا فائدة منه - ولهذا هو زائدٌ زائد - زائد بمعنى أنه لا يخل بالإعراب إذا حذف . زائد من حيث المعنى يزيد فيه .

● وقوله : ﴿ من أنثى ﴾ أىُّ أنثى سواءً آدمية أو حيوانية أخرى . الذى يحمل حيوانًا واضح أنه داخل فى الآية كبقرة وبعير وَشَاة .. وما أشبه ذلك ويدخل فى ذلك الذى يحمل البيض كالطُّيور لأن البيض فى جوف الطَّائر حمل ﴿ ولا تضع إلا بعلمه ﴾ فابتداء الحمل بعلم الله وانتهاؤه وخروج الجنين بعلم الله عز وجل .

● **وقوله** : ﴿ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق : ١٢] ﴿ **لتعلموا** ﴾ اللام للتَّعليل لأن الله قال : ﴿ الله الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُواْ أَنَّ الله عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِير ﴾ [الطلاق : ١٢] خلق هذه السَّماوات السبع والأرضين السبع وأَعْلَمَنا بذلك لنعلم ﴿ أَنَّ الله عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِير ﴾ وسبق

ان القدرة هى وصف يتصف به الفاعل يتمكن به من الفعل بدون عجز فهو على كل شىء قدير . يَقْدِرُ على إيجاد المعدوم وعلى إعدام الموجود فالسّماوات والأرض كانت معدومة فخلقها الله عز وجل وأوجدها على هذا النّظام البديع . ﴿ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ كل شىء الصَّغير والكبير والمتعلق بفعله أو بفعل عباده والماضى واللاحق والحاضر كل ذلك قد أحاط الله سبحانه به علمًا وذكر الله عز وجل العلم والقدرة بعد الخلق ؛ لأن الخلق لا يتم إلا بعلم وقدرة ودلالة الخلق على العلم والقدرة من باب دلالة التّلازم وقد سبق أن دلالات الأسماء على الصّفات ثلاثة أنواع .

● **وقوله : ﴿ لتعلموا أن الله على كل شىء قدير ﴾** ذكر صاحب الجلالين – عفا الله عنا وعنه – فى سورة المائدة قال : « وخصّ العقل ذاته فليس عليها بقادر » ونحن نناقش هذا الكلام من وجهين :

الوجه الأول : أنه لا حكم للعقل فيما يتعلق بذات الله وصفاته بل لا حكم له فى جميع الأمور الغيبية ووظيفة العقل فيها التّسليم التّام وأن نعلم أن ما ذكره الله من هذه الأمور ليس محالًا ولهذا يقال : « إن النُّصوص لا تأتى بمحال وإنما تأتى بمحار » أى بما تحيُّر العُقُول لأنها تسمع ما لا تدركه ولا تتصوَّره .

الوجه الثانى : قوله : « فليس عليها بقادر » : هذا خطأ عظيم كيف لا يقدر على نفسه وهو قادرٌ على غيره . فكلامه هذا يستلزم أنه لا يقدر أن يستوى ولا أن يتكلم ولا أن ينزل إلى السّماء الدنيا ولا يفعل شيئًا أبدًا – وهذا خطير جدًا – لكن لو قال قائل : لعلّه يريد « خصَّ العقل ذاته فليس عليها بقادر » يعنى لا يقدر على أن يلحق نفسه عيبًا قلنا : إن هذا لم يدخل فى العموم حتى يحتاج إلى إخراج وتخصيص لأن القدرة إنّما تتعلّق بالأشياء

الممكنة لأن غير الممكن ليس بشيء لا فى الخارج ولا فى الذِّهن فالقدرة لم تتعلّق بالمستحيل بخلاف العلم . فينبغى للإنسان أن يتأدب فيما يتعلّق بجانب الرُّبوبية لأن المقام مقام عظيم والواجب على المرء نحوه أن يستسلم ويُسَلِّم .

إذًا نحن نطلق ما أطلقه الله ونقول : إن الله على كل شيء قدير بدون استثناء .

● وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات : ٥٨] فى هذه الآية إثبات صفة « القوة » لله عزَّ وجلَّ . جاءت هذه الآية بعد قوله : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُون مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِن رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونَ إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّة المَتِين ﴾ [الذاريات : ٥٦-٥٨] فهم الذين يحتاجون إلى رزق أمَّا الله تعالى فإنه لا يريد منهم رزقًا ولا أن يطعموه . « الرزاق » : صيغة مبالغة من الرِّزق وهو العطاء . قال تعالى : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ القِسْمَةَ أُوْلُواْ القُرْبَىٰ وَاليَتَامَىٰ وَالمسَاكِين فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ ﴾ [النساء : ٨] والإنسان يسأل الله تعالى فى صلاته ويقول : اللَّهُمَّ ارزقنى .

وينقسم الرِّزق إلى قسمين : عام وخاص .

● فالعام : كل ما ينتفع به البدن سواءٌ كان حلالًا أو حرامًا وسواءً كان المرزوق مسلمًا أو كافرًا . ولهذا قال السفارينى[1] :

وَالرِّزْقُ مَا يَنْفَعُ مِن حَلَالِ ... أَوْ ضِدُّه فحُل عن المُحَالِ
لأنّه رَازِقُ كُلِّ الخَلْقِ ... وَلَيْسَ مَخْلُوقٌ بِغَيْرِ رِزْقِ

لأنَّك لو قلت : إن الرزق هو العطاء الحلال لكان كل الذين يأكلون الحرام لم يُرزقوا مع أن الله أعطاهم ما تصلح به أبدانهم لكن الرِّزق نوعان :

---

(١) الدرة المضية فى عقد أهل الفرقة المرضية ص (٣٨) بشرح ابن مانع .

طيب ، وخبيث ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ [الأعراف : ٣٢] ولم يقل « والرزق » ، أما الخبائث من الرزق فهي حرام .

● أمَّا الرزق الخاص : فهو ما يقوم به الدِّين من العلم النَّافع والعمل الصَّالح والرِّزق الحلال المعين على طاعة الله ولهذا جاءت الآية الكريمة : ﴿ الرَّزاق ﴾ ولم يقل « الرَّازق » لكثرة رِزْقه وكثرة من يَرْزُقه . الذى يرزقه الله عز وجل لا يحصى باعتبار أجناسه فضلًا عن أنواعه فضلًا عن آحاده ؛ لأنَّ الله تعالى يقول : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ [هود : ٦] ويُعطى الله الرِّزق بحسب الحال تجد بعض الحشرات تعرف الرِّزق بالرائحة . ولكن إذا قال قائل : إذا كان الله هو الرَّزَّاق فهل أسعى لطلب الرزق أو أبقى فى بيتى ويأتينى الرِّزْق ؟ فالجواب : نقول اسع لطلب الرزق كما أن الله غفور فليس معنى هذا أن لا تعمل وتتسبَّب للمغفرة . وأمّا قول الشاعر :

جُنُونٌ مِنْكَ أَنْ تَسْعَى لِرِزْقٍ وَيَرْزُقُ فِي غِشَاوَتِهِ الجَنِين

فهذا القول باطل . وأما استشهاده بالجنين فالجواب : أن يقال والجنين لا يمكن أن يوجه إليه طلب الرِّزق لأنه غير قادر بخلاف القادر ولهذا قال الله تعالى : ﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ﴾ [الملك : ١٥] فلابد من سَعْى وأن يكون هذا السَّعى على وِفْق الشَّرع .

● **قال : ﴿ ذو القوة ﴾** القوة : صفة يتمكَّن الفاعل بها من الفِعل بدون ضَعْف والدَّليل قوله تعالى : ﴿ اللهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ﴾ [الروم : ٥٤] وقال : ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي

السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيما قَدِيرًا ﴾ [فاطر : ٤٤] فالقدرة يُقابلها العَجْز والقُوَّة يُقَابلها الضَّعف والفرق بينهما : أن القُدْرة يُوصف بها ذو الشُّعور والقوة يوصف بها ذو الشعور وغيره . ثانيًا : أن القوَّة أخصُّ فكل قوى قادر وليس كل قادر قويًا . مثال ذلك : تقول الرِّيح قوية ولا تقول قادرة وتقول الحديد قوى ولا تقول قادر لكن ذو الشُّعور تقول : إنَّه قوى وإنَّه قادر ، لكن كل قوى فهو قادر ولا عكس . ولما قالت عادٌ : ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّة ﴾ قال الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ الله الَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّة ﴾ [فصلت : ١٥] .

● **وقوله : ﴿ المتين ﴾** : قال ابن عباس رضى الله عنهما : « الشَّديد » أى الشديد فى قوَّته . الشَّديد فى عِزَّته . الشَّديد فى جميع صِفات الجَبَرُوت عزَّ وجلَّ وهو من حيث المعنى توكيد للقوى . ويجوز أن نخبر عن الله بأنه شديد ولا نسمى الله بالشديد . بل نسميه « بالمتين » لأن الله سمى نفسه بذلك .

* * *

إثبات السمع والبصر لله سبحانه فى القرآن الكريم

٢٥ – وقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] .

٢٦ – وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء : ٥٨] .

الشـــرح

● **وقوله** : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] هذه الآية ساقها المؤلف لإثبات اسمين من أسماء الله وهما « السَّميع والبصير » ففيها رَدٌّ على المعطلة . وقوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ هذا نفى فهو من الصِّفات السلبية والمقصود به إثبات كماله يعنى : لكماله لا يُمَاثله شىء . وفى هذه الجملة ردٌّ على أهل التمثيل . قال : ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصيرُ ﴾ السَّميع له معنيان : أحدهما : بمعنى المُجيب . والثانى : بمعنى السَّامع للصَّوت .

أما السميع بمعنى المجيب مثلوا له بقوله تعالى عن إبراهيم : ﴿ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ الدُّعَاءُ ﴾ [إبراهيم : ٣٩] أى لمجيب الدُّعاء .

وأما السَّميع بمعنى إدراك الصَّوت فإنهم قسَّمُوه إلى عدّة أقسام :

سَمْعٌ يُراد به بيان عموم إدراك سمع الله عز وجل وأنه ما من صوت إلا ويسمعه الله .

الثانى : يُراد به النَّصر والتَّأْييد .

والثالث : يُرَادُ به الوَعيد والتَّهديد .

مثال الأوَّل : قوله تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ ﴾ [المجادلة : ١] فهذا فيه بيان إحاطة سمع الله تعالى بكل مَسْمُوع . ولهذا قالت عائشة رضى الله عنها : « تبارك الذى وَسِع سَمْعهُ الأَصْوَات والله إنِّى لفى الحجرة وإن حَدِيثها ليخفى على بعضه »(١) .

ومثال الثَّانى : كما فى قوله تعالى لموسى وهارون : ﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَا أَسْمَعُ وأرى ﴾ [طه : ٤٦] .

ومثال الثَّالث : الذى يُرَادُ به التَّهديد والوعيد قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف : ٨٠] فإن هذا يُراد به تَهديدهم وَوَعِيدهم حيث كانوا يُبيِّتُون مَا لا يَرْضَى من القول .

هل السَّمع بالمعنيين من باب الصِّفات الفعلية أو من باب الصِّفات الذاتية ؟

فالجواب : السَّمع بمعنى إدراك المسموع هذا من الصِّفات الذاتية .

والسَّمع بمعنى النصر والتَّأييد من الصِّفات الفعلية لأنه مقرون بسبب .

والسَّمع بمعنى الإجابة من الصِّفات الفعلية .

وقوله : ﴿ البَصِير ﴾ يعنى المُدْرِك لجميع المبصرات ويطلق البصير بمعنى العليم وبمعنى المبصِر لكل مَرْئى فالله سُبحانه وتعالى بَصِيرٌ يَرَى كل شيء وإن خَفِي وهو سبحانه « بصير » بمعنى عليم بأفعال عباده . قال تعالى : ﴿ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحجرات : ١٨] والذى نعمل بعضه مَرْئى وبعضه غير مَرْئى . فبصر الله إذًا ينقسم إلى قسمين . وكله داخل فى قوله :

---

(١) حِدِيثٌ صَحِيحٌ : تقدّم تخريجه ص : (٧٥)

﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] قال العلماء فى هذه الآية ردٌّ على طائفتين مُبْتدعتين : إحداهما : الممثلة فى قوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ ﴾ . والثَّانى : المعطِّلة فى قوله : ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] واعلم أن النُّحاة خاضُوا خَوْضًا كثيرًا فى قوله ﴿ كَمِثْلِهِ ﴾ حيث قالوا : الكاف داخلة على « المثل » وظاهره أن لله مِثلًا ليس له مِثل لأنه لم يقل « ليس كهو » بل قال ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ ﴾ فهذا ظاهر الآية من حيث اللَّفظ لا من حيث المعنى . لأَنَّنا لو قلنا هذا ظاهرها من حيث المعنى لكان ظاهر القرآن كفرًا وهذا مستحيل لهذا اختلفت عبارات النَّحويين فى تخريج هذه الآية على أقوال :

القول الأوَّل : الكاف زائدة وأن تقدير الكلام ليس مثله شىء وهذا القول مريح وزيادة الحروف فى النفى كثيرة كما فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ ﴾ [فاطر : ١١] وغيرها فيقولون : إن زيادة الحروف فى اللُّغة العربية للتوكيد أمرٌ مُطْرد .

القول الثَّانى : قالوا : العكس حيث أن الزَّائد « مثل » ويكون التَّقدير : « ليس كهو شىء » لكن هذا ضعيف يُضعفه أن الزيادة فى الأسماء فى اللُّغة العربية قليلة جدًا أو نادرة بخلاف الحروف . فإذا كنا لابد أن نقول بالزيادة فليكن الزَّائد الحرف وهى الكاف .

والقول الثالث : أن مِثْل بمعنى صِفة ، والمعنى : « ليس كصفته شىء » وقالوا أن المثل والمَثَل والشِّبه والشَّبه فى اللُّغة العربية بمعنى واحد . وقد قال الله تعالى : ﴿ مَثَلُ الجَنَّة الَّتِى وُعِدَ المُتَّقُونَ ﴾ [محمد : ١٥] أى صفة الجنة . وهذا أيضًا ليس ببعيدٍ من الصَّواب .

القول الرابع : قالوا إن هذا المثل على ما هو عليه لكن إذا قلت « ليس كمثل شىء » لزم من ذلك نفى المثل . وإذا كان ليس للمثل مثلٌ صار الموجود واحدا وعلى هذا فلا حاجة إلى أن نقدِّر . قالوا : وهذا قد وجد فى اللُّغة

العربية والحقيقة أن هذه البُحوث لو لم تعرض لكم لكان معنى الآية لكم واضحًا . ومعناه : أن الله ليس له مثيل . لكن المشكل أن هذا وجد فى الكتب والرَّاجح : أن نقول أن الكاف زائدة . والمعنى الأخير لمن تمكن من تصوره جيد .

● **وقوله** : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء : ٥٨] .

هذه الآية تَكْمِلَةٌ لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الله يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ ﴾ [النساء : ٥٨] فأمر عز وجل بأن نؤدى الأمانات إلى أهلها ومنها الشهادة للإنسان له أو عليه وأن نحكم إذا حكمنا بين النَّاس بالعدل . فبيّن الله سبحانه وتعالى أنَّه يأمرنا بالقيام بالواجب فى طريق الحكم وفى الحكم نَفْسه . وطريق الحكم الذى هو الشهادة تدخل فى عموم قوله : ﴿ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ والحكم : ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ ﴾ ثم قال سبحانه : ﴿ إِنَّ الله نِعِمَّا يَعِظُكم بِهِ ﴾ أصلها « نعم ما » ولكن أُدغمت الميم بالميم من باب الادغم الكبير لأن الادغام لا يكون بين جنسين إلا إذا كان الأول ساكنًا وهنا صار الإدغام مع أن الأوَّل مفتوح .

وقوله : ﴿ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ﴾ جعل الله سبحانه الأمر بهذين الشيئين أداء الأمانة والحكم بالعدل موعظة ، لأنه تصلح به القلوب وكل ما يُصْلح القلوب فهو موعظة والقيام بهذه الأوامر لا شك أنَّه يصلح القلب ثم قال : ﴿ إِنَّ الله كانَ سَمِيعًا بَصيرًا ﴾ وقوله « كان » هذه فعل لكنها مسلوبة الزمن فالمراد بها الدِّلالة على الحَدَث فقط أى أن الله متَّصف بالسَّمع والبصر ، وإنما قلنا أنها مَسْلوبة الزمن لأننا لو أبقيناها على دِلالتها الزَّمانية لكان هذا الشىء قد انتهى . كان فى الأول سَميعًا بَصيرًا أما الآن فليس كذلك . ومعلوم أن

هذا المعنى فاسد باطل . وإنما المراد أنَّه مُتَّصف بهذين الوَصفين السَّمع والبصر . وكان فى مثل هذا السِّياق يُراد بها التحقيق . وإلَّا فهى مَسْلوبة الزمن .

قوله : ﴿ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ نقول فيها كما قلنا فى الآية التى قبلها فيها إثبات السَّمع لله بقسميه وإثبات البصر بقسميه ؛ لأن البصير أيضًا يُطْلَق على العَليم مثل : ﴿ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحجرات : ١٨] ويُطْلق على البَصير بمعنى الرَّائى الذى يَرَى الأَشياء عز وجل ببصره . قرأ أبو هريرة هذه الآية وقال : إن الرسول ﷺ وضع إبهامه وسبَّابته على عينه وأُذنه . والمراد بهذا الوضع تحقيق السَّمع والبصر لا إثبات العين والأُذن . فإن ثُبوت العين جاءت فى أدلة أخرى والأذن عند أهل السنة والجماعة « لا تثبت لله ولا تنفى عنه » .

فإن قلت : هل لى أفعل كما فعل الرسول ﷺ ؟

جـ : من العلماء من قال « نعم » افعل كما فعل الرسول لست أهدى للخلق من رسول الله ﷺ ولست أشد تحرُّزًا من أن يُضَاف إلى الله ما لا يَليق به من الرسُّول ﷺ .

ومنهم من قال : لا حاجة إلى أن تفعل ما دمنا نعلم أن المقصود هو التَّحقيق فهذه الإشارة إذًا غير مقصودة بنفسها إنما هى مقصودة لغيرها وحينئذ لا حاجة إلى أن تُشِير لا سيما إذا كان يخشى من هذه الإشارة تَوهم الإنسان المثل . كذلك فيما إذا كنت إمام عامَّة من الخلق لا يفهمون الشَّىء على ما ينبغى فهذا ينبغى التَّحرز منه ولكلِّ مقام مقال .

وكذلك مَا وَرَد فى حديث عمر أن الرسول ﷺ جعل يهزُّ يده حين ذكر أن الله يقبض الأرضين بيده ويهزّهنَّ والسَّماوات ويهزهن فهذه يُقال فيها كما قيل فى هذه الآية .

* * *

إثبات المشيئة والإرادة لله سبحانه فى القرآن الكريم

٢٧ – وقوله : ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [الكهف : ٣٩] .

٢٨ – وقوله : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [البقرة : ٢٥٣] .

٢٩ – وقوله : ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ [المائدة : ١] .

٣٠ – وقوله : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الأنعام : ١٢٥] .

الشـــرح

يُعَنْوَنُ لهذه الآيات بـ « الإرادة والمشيئة » .

● **فالآية الأولى : قوله تعالى :** ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ **[الكهف : ٣٩]** .

﴿ لولا ﴾ بمعنى هلّا فهى للتَّحْضيض يعنى أنَّه يَحُثُّه ، لأَنَّ التَّحضيض بمعنى الحثّ بإزعاج وقوَّة ، يَحُثُّه على هذا القول : ﴿ لَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ الله ﴾ والجنَّة هى البُستان الكثير الأشجار سُمِّيت بذلك لأن

من فيها مُسْتتر بأشجارها وغُصُونها فهو مستجِنٌ فيها وهذه المادة « الجيم – النون » تدلُّ على الاستتار . ومنه الجنة التى يَتَتَرَّس بها الإنسان عند القِتال . ومنها : الجن لأنَّهم مُسْتترون .

وقوله : ﴿ لَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ ﴾ هذه مفرد والمعروف لدينا أن الله تعالى يقول : ﴿ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً . كِلْتَا الجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خلالهُمَا نَهراً وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا . وَدَخَلَ جَنَّتَهُ ﴾ [الكهف : ٣٢-٣٥] فما هو الجواب حيث كانت هنا مفردة مع أنهما جنتان ؟

فالجواب : أن يقال : إن المفرد إذا أُضِيف يعُم فيشمل الجنتين . أو أن هذا القائل أراد أن يقلِّل من قيمة الجنتين ؛ لأن المقام مقام وعظ وعدم إعجاب بما رزقه الله كَأَنَّه يقول هاتان الجنتان جنَّة واحدة تقليلًا لشأنهما . والوجه الأول أبْلَغ بمعنى أنَّه أقرب إلى قواعد اللُّغة العربية . قلت : جواب ﴿ لَوْلَا ﴾ قوله : ﴿ مَا شَاءَ الله لَا قُوَّة إِلَّا بِالله ﴾ « ما » يحتمل أن تكون موصولة ويحتمل أن تكون شرطية فإن جعلتها موصولة فهى خبرٌ لمبتدأ محذوف والتَّقْدير « هذا ما شاء الله » أى ليس هذا بإِرَادَتى وَحَوْلى وَقُوَّتى ولكنه بمشيئة الله أى هذا الذى شاءه الله . وإن جعلتها شرطية ففعل الشَّرط « شاء » وجوابه محذوف ، والتَّقدير « ما شاء الله كان » كلنا نقول « ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن » كان ينبغى لك أن تقول حين دخلت جنتك « ما شاء الله كان » لتتبرأ من حَوْلِك وَقُوَّتِك ولا تعجب بجنَّتِك . وقوله : « لا قوة إِلَّا بالله » . لا : نافية للجنس . وقوة : نكرة فى سياق النَّفى والقُوَّة صِفة يتمكَّن بها الفاعل من فعل ما يُريد بدون ضعف . ومعْنى ﴿ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِالله ﴾ هذا لا يعنى أنه ليس شىء من المخلوقات فيه قوة إلا الله لأن المخلوقات فيها

قوة ﴿ اللهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ﴾ [الروم : ٥٤] ﴿ قَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً . أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [فصلت : ١٥] ولم يقل « لا قوة فيهم » فأثبت للإنسان قوة . وبناءً على هذا نحتاج إلى الجواب عن قولنا إن « قوة » نكرة فى سياق النَّفى فتعُم ؟

فالجواب : أن نقول نعم هى عامَّة حتى القوة التى فى المخلوق كانت بالله عز وجل : ﴿ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ ﴾ يعنى ليس أحدٌ عنده قوة إلا الله عز وجل والقوة التى عند الإنسان مخلوقة لله فلا قوة فى الحقيقة إلَّا بالله وعليه فتكون الآية ظاهرة أنها للعموم وإن أردت أن تُفصِّل قوة المخلوق عن الخالق فإن المراد بقوله ﴿ لَا قُوَّةَ ﴾ أى لا قوة كاملة إلَّا بالله عز وجل وبناءً على هذا إذا جعلت المراد بـ ﴿ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ ﴾ قوة الله التى هى وَصْفُه تكون « الباء » بمعنى « فى » أمَّا إذا جعلنا القوة قوة المخلوق التى من الله « فالباء » هنا للسَّببيَّة يعنى لا قوة للمخلوق إلا بسبب من الله عز وجل . وعلى كل حال هذا الرجل الصَّالح أرشد صاحبه أَن يتبرأ من حَوْلِهِ وَقُوته ويقول هذا بمشيئة الله وبقوة الله وأنا لا قُوَّة لى على شيء وأنَّه لا قُوَّة لك على شيء إلَّا بالله عز وجل .

فى هذه الآية : إثبات المشيئة لله عز وجل وَمَشِيئة الله هى إرادته الكونية وهى نافذة فيما يُحِبُّه وَمَا لا يُحبه وَنافذة عَلَى جميع العِباد بدون تَفْصيل ولابد من وجود مَا شَاءَهُ بِكُلِّ حال فهى إذًا نَافِذة . فكل ما شاء الله وقع ولابد سواء كان فيما يُحِبُّه ويرضاه أوْلا .

● **الآية الثانية : قوله : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [البقرة : ٢٥٣] .**

« لو » : حرف امتناع لامتناع . وإذا كان جوابها منفيًا فإن الأفصح

حذف اللام وإذا كان مثبتا فالأكثر ثُبوت اللّام : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا ﴾ [الواقعة : ٦٥] فنقول الأكثر ، ولا نقول الأفصح ، لأنه وَرَدَ إثبات اللّام وحذفها فى القرآن الكريم : ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجاجاً ﴾ [الواقعة : ٧٠] .

وقولنا : أن الأفصح حذف اللّام فى المنفى ، لأنَّ اللام تُفِيد التوكيد والنَّفى يُنَافى التوكيد . ولهذا كان قول الشاعر :

ولو نعطى الخيار لما افترقنا .

خلاف الأفصح

والأفصح : ولو نعطى الخيار ما افترقنا .

وتتمة البيت : ولكن لا خيار مع اللَّيالى .

قوله : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلواْ ﴾ [البقرة : ٢٥٣] الضَّمير يَعُود على المؤمنين والكافرين لقوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَنْ كَفَرَ وَلَوَ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُواْ ﴾ [البقرة : ٢٥٣] وفى هذا ردٌّ واضح على القدرية الذين ينكرون تعلُّق فعل العبد بمشيئة الله لأن الله قال : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُواْ ﴾ وَضِدُّها « ولكنه شاء أن يقتتلوا فاقتتلوا » . ثمَّ قال : ﴿ وَلَٰكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ أى يفعل الذى يُريده والإرادة هنا إرادة كونية . ويفعل أى يُقَدِّر عز وجل أن يُفعل إذا كان بالنِّسبة للعباد . ويفعل إذا كان بالنِّسبة إليه يعنى إذا أراد شيئًا فعله .

وقد يُقال إن الآية مطلقة : يفعل ما يريد فيكون الفعل باعتبار ما يفعله سبحانه وتعالى بنفسه فعلًا مباشرًا . وباعتبار ما يقدِّره على العباد فعلًا غير مباشر وإلَّا فمن المعلوم أن الإنسان إذا صام وصَلَّى وزكَّى وَحَجَّ وَجَاهد فالفاعل الإنسان بلا شك ومعلومٌ أن فعله هذا بإرادة الله .

ولا يَصِحُّ أن ينسب فعل العبد إلى الله على سبيل المباشرة لأن المباشر للفعل الإنسان ، ولكن يَصحُّ أن ينسب إلى الله على سبيل التَّقدير والخلق . أما ما يفعله الله بنفسه كاستواءه على عرشه وكلامه ونزوله إلى السماء الدُّنيا وضحكه وما أشبه ذلك فهذا ينسب إلى الله تعالى فعلًا مباشرة .

﴿ مَا يُرِيدُ ﴾ الإرادة الكونية لا الشَّرعية لأَن الشَّرعية قد يُريد الله الشىء ولا يُفْعَل . يريد الله عز وجل من كل أحد أن يُؤْمن به ولكن لا يُؤْمن كُلّ أحد .

● **الآية الثالثة** : قوله : ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ [**المائدة : ١**] .

﴿ أُحِلَّت لَكُم ﴾ المُحِلُّ هو الله عزَّ وجل وكذلك النبى عليه الصَّلاة والسلام يُحِلُّ ويحرم لكن بإذن من الله عز وجل . قال النبى ﷺ : « أُحِلَّت لَنَا مَيْتَتَان وَدَمَان »(١) . وكان عليه الصَّلاة والسلام يقول : « إن الله يُحرِّم عليكم كذا يخبر أنه حُرِّم وربما يحرم تحريمًا يُضيفه إلى نفسه ولهذا قال : ﴿ أُحلَّت لكم ﴾ أى أحلّها الله لكم ﴿ بَهِيمَةُ الأَنْعَام ﴾ هى الإبل والبقر والغنم ، والأنعام جمع نَعَمْ كأسباب جمع سَبَبْ. وقوله : ﴿ بَهِيمَة ﴾ سمِّيت بذلك لأنها لا تتكلم عجماء . ﴿ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ إِلَّا الذى يتلى عليكم فى هذه السُّورة وهى المذكورة فى قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُم المَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الخِنْزِير وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ الله بِه ... ﴾ [المائدة : ٣] فالاستثناء هنا فيه منقطع وفيه متصل فبالنسبة للميتة مُتَّصل وبالنسبة للحم الخنزير منقطع لأَنه ليس من بهيمة الأَنعام ، وعلى هذا فنقول بهيمة الأَنعام إِلَّا مَا يُتلى عليكم فى

(١) **حَدِيثٌ صَحِيحٌ : رواه أحمد (٩٧/٢) ، وابن ماجه (٣٣١٤) ، والدارقطنى (٢٧١/٤، ٢٧٢) ، والبيهقى (٢٥٤/١، ٢٥٧/٩) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما وصحَّحه الألبانى فى الصحيحة (١١١٨) .**

هذه السُّورة وهى الميتة والدَّم ولحم الخنزير وما أُهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السَّبع وما ذُبح على النُّصُب ، فهذه محرّمة . وقوله : ﴿ غَيْرَ مُحلِّى الصَّيْد وَأَنْتُمْ حُرُم ﴾ « غير » : حال من الكاف فى « لكم » يعنى حال كونكم لا تحلُّون الصَّيد وأنتم حُرم وهذا الاستثناء منقطع أيضًا لأن الصَّيد ليس من بهيمة الأنعام . وقوله : ﴿ غَيْر مُحِلِّى ﴾ يعنى مستحلِّيه فى الإحرام لأن الذى يفعل الشىء معناه كالمحِل له . والصَّيد هو الحيوان البرى المتوحش المأكول هذا هو الصَّيد الذى حرِّم فى الإحرام .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ هذه الإرادة شرعية ، لأن المقام مقام تشريع ويجوز أن تكون إرادة شرعية كونية ، ونحمل الحكم على الحكم الكونى والشرعى فما أَرَادَهُ كونًا حكم به وأوقعه وما أَرَادَهُ شرعًا حكم به وشَرَعَهُ لِعباده .

● **الآية الرابعة** : وقوله : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [**الأنعام : ١٢٥**] .

قوله : ﴿ فَمَن يُرِد الله أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرهُ لِلْإِسْلَام ﴾ يعنى هداية توفيق فتجده منشرح الصَّدر فى شرائع الإسلام وشعائره يفعلها بفرح وسرور وانطلاق . فإذا عرفت من نفسك هذا فاعلم أن الله أراد بك خيرًا ، لأن الله يقول : ﴿ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرهُ لِلْإِسْلَام ﴾ أمَّا من ضاق به ذرعًا – والعياذ بالله – فإن هذا علامة على أن الله أراد به سوءً وأراد به ضَرًّا وإلَّا لانشرح صَدْرُه . ولهذا تجدون الصَّلاة التى هى أثْقَل ما يكون على المنافقين قُرّة عيون المُخْلصين . قال النبى ﷺ : « حُبِّبَ إِلَّى مِن دُنْياكُم

النِّساء وَالطِّيب وَجُعِلَتْ قُرّة عَيْنِى فى الصَّلاة »(١) .

ولا شك أَنَّ النَّبى ﷺ أَكْمَل النَّاس إيمَانًا فانشرح صدره بالصَّلاة وصارت قُرّة عَيْنه . فإذا علمت من نَفسك ذلك فاعلم أن الله أراد بك خيرًا فإذا قيل له هذا حلالٌ قَبِلَ وَإذا قِيل هَذَا حَرَام قَبِل لكن إذا ضاق به ذرعًا فإن هذا علامة على السُّوء . قيل له مثلًا : إنَّه يجب عليك أن تُصَلِّى مع الجماعة فى المسجد فضاق وصار فى نفسه حرج نقول هذا علامة على السوء لكن قيل له : إنه يجب عليك أن تصلى مع الجماعة فى المسجد فانشرح صدره وقال الحمد لله الذى شرع لى ذلك ولولا أن الله شرعه لكان بدعة وأقبل إليه ورضى به فهذا علامة على أن الله أراد أن يَهْديه وأراد به خيرًا .

قال : ﴿ يَشْرَحْ صَدْرهُ لِلْإِسْلَام ﴾ يشرح بمعنى يوسِّع ومنه قول موسى عليه الصلاة والسلام لما أرسله الله إلى فرعون : ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴾ [طه : ٢٥] يعنى وَسِّع لى صَدْرى فى مُنَاجَاة هذا الرَّجل وَدَعْوته لأَن فرعون كان جبّارًا عنيدًا . وقوله : ﴿ لِلْإِسْلَام ﴾ هذا عامٌ لِأَصْل الإسلام وفُروعه وَوَاجباته ، وليس المراد لِأَصل الإسلام إذا عرض عليه وهو كافر . وكلما كان الإنسان بالإسلام وشرائعه أشرح صدرًا كان أَدَلَّ على إرادة الله به الهداية .

وقوله : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السَّمَاءِ ﴾ من يُرد أن يُضِلّه يجعل صَدْرَهُ ضَيِّقًا حرجًا أى شديد الضِّيق ، ثم مثَّل قال : ﴿ كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِى السَّمَاءِ ﴾ يعنى كأَنَّه حين يعرض عليه الإسلام يتكلَّف الصُّعود إلى السَّماء ولهذا جاءت الآية « يَصَّعَّدُ » ولم يقل « يصعد » كأنَّه يتكلَّف الصُّعود بمشقَّة شديدة وهذا الذى يتكلَّف الصُّعود

(١) إسْنَادُه حَسَنٌ : أخرجه النَّسائى فى سننه : عشرة النساء (١) ، وأحمد (١٢٨/٣، ١٩٩، ٢٨٥) ، وأبو يعلى (٣٤٨٢، ٣٥٣٠) ، والبيهقى فى سننه (٧٨/٧) ، وقال الحافظ فى تلخيص الحبير (١١٦/٣) عن رواية النسائى : « إسناده حَسَن » .

لا شك أنَّه يتعب ويَسْأم ولنفرض أن هذا رَجُل طُلِبَ منه أن يَصْعَد جَبلًا رَفيعًا صَعْبًا فإذا قام يَصْعد هذا الجبل سوف يتكلَّف وسوف يضيق نَفَسُه ويرتفع وينتهب لأَنه يجد من هذا ضيقًا .

وعلى ما وصل إليه المتأخرون الآن يقولون أن الذى يَصَّعّد فى السَّماء كلما ارتفع وازداد ارتفاعه كثُر عليه الضغط وصار أشد حرجًا وضيقًا . وسواء كان المعنى الأوَّل أو المعنى الثَّانى فإن هذاالرَّجل الذى يعرض عليه الإسلام يجد الحرج والضِّيق كأَنَّما يصعَّد فى السَّماء .

نأخذ من هذه الآية الكريمة إثبات إرادة الله عز وجل . والإرادة المذكورة هنا إرادة كونية لا غير لأنه قال : « فَمن يُرد الله أَن يَهْدِيَهُ ، وَمَن يرد أن يُضِلّه » وهذا التَّقسيم لا يكون إلا فى الأُمور الكونيات .

أما الشرع . فالله يُريد من كل أحد أن يستسلم لشرع الله . فالإرادة هنا كونية . وفيها من السُّلوك والعبادة دليلٌ على أنه يجب على الإنسان أن يتقبل الإسلام كلّه أصله وفرعه وما يتعلَّق بحق الله وما يتعلق بحق العباد وأنه يجب عليه أن يشرح صدره لذلك فإن لم يكن كذلك فإنه من القسم الثَّانى الذين أراد الله إضلالهم . قال النبى ﷺ : « مَنْ يُرِدِ الله بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّين »(١) . والفِقْهُ فى الدِّين يقتضى قُبول الدِّين ، لأَن كل من فقه فى دين الله وعَرَفَه قبلَهُ وأَحبَّه . وقال تعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ [النساء : ٦٥] إقسام مؤكد « بلا » وإقسام بأخصّ رُبُوبية من الله عز وجل لعباده وهى رُبُوبية الله للرسول . إقسام بربوبية الله الخاصَّة لرسوله على نَفْى الإيمان عمن لم يقر بما جاء به هذا الرَّسول . قال : ﴿ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ ﴾

(١) رواه البخارى (٧١) ، ومسلم (١٠٣٧) (٩٨) من حديث معاوية رضى الله عنه .

أنت خاصة . فمن طلب التحاكم إلى غير الرسول ﷺ بل إلى غير الله ورسوله فإنه ليس بمؤمن فإما كافر كفرًا مُخْرِجًا عن المِلَّة وإما كافرا كفرًا دون ذلك .

الثاني : إذا حكَّموه لا يَجدُون فى أَنفسهم حَرَجًا مما قضى بل يجدون القبول والانشراح لما قضاه النَّبى ﷺ .

الثالث : يُسَلِّمون تَسْليمًا وأكَّد التَّسليم بمصدر يعنى تسليمًا كاملًا . فاحذر أيها المسلم أن يَنْتَفى عنك الإيمان . ولنضرب لهذا مثلًا : تَجَادَلَ رَجُلان فى حكم مسألة شرعية فاستدل أحدهما بالسُّنة فوجد الثَّانى فى ذلك حرجًا وَضيقًا كيف يريد أن يخرج عن متبوعه إلى اتباع هذه السُّنة ، وهذا الرجل ناقصٌ بلا شك فى إيمانه لأن المؤمن حقًا هو الذى إذا ظفر بالنَّص من كتاب الله وسُنَّة رسوله عليه الصَّلاة والسَّلام فكأنما ظفر بأكبر غنيمة يفرح بها ويقول : « الحمد لله الذى هَدَانى لهذا » وفلان الذى يتعصّب لرأيه ويُحاول أن يلوى أعناق النُّصوص حتى تتَّجه إلى مَا يُريده هو لا مَا يُريده الله وَرَسُوله فإن هذا على خطر عظيم .

الإرادة تنقسم إلى قسمين :

إرادة كونية : وهذه الإرادة مُرَادِفه تمامًا للمَشِيئة فأراد فيها بمعنى شاء . وهذه الإرادة تتعلق فيما يحبه الله وفيما لا يُحِبُّه . وعلى هذا فإذا قائل قال : هل أراد الله الكفر ؟ فقل بالإرادة الكونية نعم أرَادَهُ ولو لم يُرِدْه الله عز وجل ما صار .

ثانيًا : هذه الإرادة يَلْزم فيها وقوع المراد . يعنى أنَّ مَا أَرَادَهُ الله فلابد أن يَقَع ولا يمكن أن يتخلَّف فصار فيها بحثان : أنها عامة فيما يحبه الله وما لا يحبه ، وأنه يتَعَيَّن فيها وُقُوع المراد على كل حال سواء كان مِمَّا يُحِبُّه أوْ لَا .

وإرادة شرعية : وهى أولا : تختصُّ بما يُحِبُّه الله . فلا يُريد الله الكفر بالإرادة الشَّرعية ولا الفسق . ثانيًا : أنه لا يلزم فيها وقوع المراد بمعنى : أن الله يُريد شيئًا ولا يقع فهو سبحانه يريد من الخلق أن يَعْبُدوه فلا يلزم وقوع هذا المراد قد يعْبُدونه وقَدْ لا يَعْبُدونه بخلاف الإرادة الكَوْنية . فَصَار الفَرْق بين الإِرَادَتَيْن من وجهين :

١ - الإرادة الكونية يَلْزَم فيها وُقوع المُراد والشَّرعية لا يلزم .

٢ - الإرادة الشَّرعية تختص فيما يحبه الله والكونية عامَّة فيما يُحبُّه وما لا يحبه .

فإذ قال قائل : كيف يُريد الله تعالى كونًا ما لا يحبه بمعنى كيف يريد الكفر والفسق والعصيان وهو لا يحبه ؟

فالجواب : أن هذا محبوبٌ إلى الله من وجه مَكْرُوه إليه من وجه آخر .

فهو محبوبٌ إليه لما يتضمَّنه من المَصَالح العظيمة . مكروهٌ إليه لأنه معصيةٌ وَلا مَانع من أن يكون الشيء محبوبًا مكروهًا باعتبارين . فها هو الرَّجل يُقَدِّم طفله الذى هو فلذة كبده وثمرة فؤاده يُقَدِّمُه إلى الطَّبيب ليشق جِلده ويخرج المادة المؤذية فيه ، ولو يأتى أحدٌ من النَّاس يريد أن يَشُقَّه بظفره وليس بالمشرط قَاتَله لكن هو يَذْهب به إلى الطَّبيب لِيَشُقَّه وهو ينظر إليه وهو فرحٌ مَسْرور . يذهب به إلى الطَّبيب ليحمى الحديد على النار حتى تلتهب حمراء ثم يأخذها ويَكْوى بها ابنه وهو رَاضٍ بذلك لماذا يرضى بذلك وهو أَلَمٌ للابن ؟ لأنه مُرادٌ لِغَيْره للمصلحة العظيمة التى تترتَّب على ذلك .

فإذًا : المراد كونًا لابد أن يقع وقد يكون فيما يحبه الله وقد لا يكون فيما يُحِبُّه بخلاف المراد شرعًا فلا يكون إلَّا محبوبًا لله تعالى .

ولنضرب لهذا أمثلة : إيمان أبى بكر رضى الله عنه مُرادٌ شرعًا وكونًا مُراد شرعًا ؛ لأن الله يُحب الإيمان وكونًا ؛ لأنه وقع . فإذا قال قائل : إلى أين نرجع إذا أردنا أن نعرف أن هذه إرادة شرعية ؟ قلنا : إلى الكتاب والسُّنة من أين نعرف أن هذا مرادٌ كونًا ؟

بالوقوع . فما وقع علمنا أنَّه مرادٌ كونًا . مثال آخر : كُفْرُ أَبى طالب مُرادٌ كونًا لا شرعًا . إيمان أبى طالب مرادٌ شرعًا لا كونًا . إيمان أبى لهب : مرادٌ شرعًا لا كونًا . كفر المؤمن غير مراد لا كَونًا ولا شَرْعًا . لا شرعًا لأَنَّ الله لا يُحِبُّ من المؤمنين أن يكفروا . ولا كونًا لأن المؤمن لم يكفر باقٍ على إيمانه .

إذًا : الإرادة الشرعية مُرادفة للمحبة والكَوْنِية مرادفة للمشيئة . ولهذا جاء بها المؤلِّف على هذا التَّرتيب ذكر المشيئة ثم ذكر الإرادة التى يكون بعضها فى المشيئة وبعضها فى المحبة .

ماذا تفيد معرفتنا للإرادة من النَّاحية المسلكية ؟

تفيد أمرين :

الأَمْرُ الأَول : أن نُعَلِّق رَجَاءَنا وَخَوْفَنا وجميع أَحْوَالِنا وأعْمَالِنا بالله ؛ لأَن كل شيء بإرادَتِه وهذا يُحقِّق لنا التَّوكل .

الأَمْرُ الثَّانى : أَن نفعل ما يُريده الله شَرْعًا فإذا علمنا أَنَّه مرادٌ لله شرعًا ومحبوبٌ إليه فإن ذلك يقوى عزمنا على فعله .

هذا من فوائد معرفتنا بالإرادة من النَّاحية المسلكية . والأَوَّل باعتبار الإرادة الكَوْنية والثَّانى باعتبار الإرادة الشرعية .

* * *

إثبات محبّة الله ومودته لأوليائه فى القرآن الكريم

٣١ – وقوله : ﴿ وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

[البقرة : ١٩٥] .

٣٢ – ﴿ وَأَقْسِطُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات : ٩] .

٣٣ – ﴿ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

[التوبة : ٧] .

٣٤ – ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ .

[البقرة : ٢٢٢] .

٣٥ – وقوله : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾

[آل عمران : ٣١] .

٣٦ – وقوله : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾

[المائدة : ٥٤] .

٣٧ – وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [الصف : ٤] .

٣٨ – وقوله : ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴾ [البروج : ١٤] .

الشــــرح

ثم بدأ المؤلف – رحمه الله – بآيات المحبة . فقال :

● وقوله : ﴿ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ .

﴿ أَحْسِنُواْ ﴾ فعل أمر . والإحسان قد يكون واجبًا . وقد يكون مستحبًا مندوبًا إليه فما كان يتوقف عليه أداء الواجب فهو واجب وما كان زائدًا على ذلك فهو مستحب وبناءً على ذلك فإننا نقول : أحسنوا : فعل أمر مستعمل فى الواجب والمستحب .

الإحسان فى عبادة الله لا نجد أحسن من تفسير النّبى ﷺ له حين سَأَلَهُ جِبريل فقال : « مَا الإِحْسَان ؟ قال : أن تَعْبد الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ » وهذا أكمل من الذى بَعْده لأَنَّ الذى يعبد الله كَأَنَّه يَرَاه يَعْبُده عبادة طلب وَرَغْبة « فإنْ لَم تَكُن تَرَاهُ فَإِنَّه يَرَاك » أى فإن لم تصل إلى هذه الحال فاعلم أَنه يَرَاك والذى يعبد الله على هذه المرتبة يعبده عبادة خَوْف وَهَرَب ؛ لأَنه يخاف مِمّن يراه وهناك فرق بين هذا وهذا .

فالأول الذى يعبد الله كأنَّه يَرَاه أكمل من الَّذى لا يصل يَقِينُه إلى هذه المرتبة « فَإِنْ لَم تَكُن تَرَاهُ فَإِنَّه يَرَاك »(١) : أى فإن لم تعبده على المرتبة الأُولى فاعبده على المرتبة الثَّانية أنَّه يَرَاك وهذا هو مرتبة الخوف والهرب من معصيته .

هذا بالنسبة لمعاملة الخالق عزَّ وجلَّ . فما هو الإحسان بالنسبة لمعاملة الخلق ؟ يقولون فى تفسيره : « بذل النَّدى ، وكف الأَذى ، وَطَلاَقَة الوَجْه » .

– بَذْلُ النَّدى : أى المعروف سَواءً كان مَالِيًّا أَم بَدَنيًّا أم جَاهِيًّا .

– كَفُّ الأَذَى : أَن لا تُؤذى النَّاس بقولك ولا بفعلك .

---

(١) جزء من حديث جبريل المشهور الذى تقدم تخريجه .

– وَطَلاَقَةِ الوَجْه : أن لا تَكُون عَبُوسًا عند النَّاس لكن أحيانًا الإنسان يغضب ويعبِّس فنقول : هذا لسبب وقد يكون من الإحسان .

ولهذا الزَّانى إذا رجمناه أو جلدناه إحسان له . ويدخل فى ذلك إحسان المعاملة فى البيع والشراء والإجارة والنِّكاح وغير ذلك لأنك إذا عَامَلْتُهم بالطَّيب فى هذه الأُمور صبرت على العُسِر وأوفيت الحق بسرعة هذا يعتبر بذل النَّدى ، فإن اعتديت بالغش والكذب والتَّزوير فَأَنت لم **تكف** الأَذَى لأن هذا أذيَّة . أحسن فى عبادة الله وإلى عباد الله وقوله : ﴿ إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُحْسِنين ﴾ هذا تعليل للأمر . فهذا ثواب المحسن أن الله يُحِبُّه ومحبَّة الله مرتبة عالية عظيمة وَوَالله ! إنَّ محبة الله لَتُشْتَرى بالدُّنيا كلها وهى أعلى من أن تحب الله فكون الله يُحِبُّك أَعْلَى من أن تحبه أنت ولهذا قال تعالى : ﴿ **قُلْ إِنْ كُنْتُم تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونى يُحْبِبكم اللهُ** ﴾ [آل عمران : ٣١] ولم يقل : « فاتَّبعونى تصدقوا فى محبتكم لله » مع أنَّ الحال تقتضى هكذا ولكن قال : ﴿ يُحْبِبْكُمُ الله ﴾ فنحن نقول : نُحبُّ الله ، ولهذا قال بعض العلماء : « **الشَّأْنُ** كل الشَّأْن فى أن الله يُحِبُّك لَاأَنَّك تُحِبُّ الله » كُلٌّ يَدَّعى أنه يحب الله لكن الشَّأن الذى فى السَّماء عز وجل هل يحبك أم لا ؟ إذا أحبَّك الله عز وجل أحبَّتك الملائكة فى السَّماء ثم يوضع لك القبول فى الأرض فيحبُّك أهل الأرض ويَقْبلونك وَيقْبَلُون مَا جَاء مِنْك وهذه من عَاجِل بُشْرى المؤمن .

إذًا : الإحسان أمرٌ للإنسان أن **يفعله** لينال محبة الله ﴿ إنَّ اللهَ يُحبُّ المُحْسِنِين ﴾ فى عباداتهم ومُعاملاتهم للخلق .

● **قال** : ﴿ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴾ [الحجرات : ٩] أقسطوا : فعل أمر . والإقساط ليس هو القسط بل هو من فعل رباعى . فالهمزة فيه همزة النفى هذه الهمزة التى هى همزة النفى إذا دخلت على **الفعل** نفت معناه .

فإذا كان قسط أو يقسُط أو يقسِط بمعنى جار فإذا أدخلت عليه الهمزة « أقسط » بمعنى عدل فيسمون مثل هذه الهمزة همزه السلب مثل خطِأ وأخطأ خطِأ بمعنى ارتكب الخطأ عن عمد. وأخطأ ارتكبه عن غير عمد. « أقسطوا » أى اعدلوا وهذا واجب فالعدل واجب فى كل ما يَجب فيه التسوية يدخل فى ذلك العدل فى مُعَاملة الله عز وجل ينعم الله عليك بالنِّعم فمن العدل أن تقوم بشكره ، يبين الله لك الحق « فمن العَدْل أن تتَّبع هذا الحق » ويدخل فى ذلك العدل فى مُعَاملات الخلق ، أن تُعَامل الناس بما تُحِبّ أن يُعَاملوك به . ولهذا قال النبى عليه الصَّلاة والسلام : « مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَح عَن النَّارِ وَيَدْخُل الجنَّة فَلْتَأْته مَنِيَّتُه وَهُو يُؤْمِنُ بالله وَالْيَوْمِ الآخِر وَليأْتِ إلى النَّاس مَا يُحب أن يُؤْتَى إليه »(١) عامل النَّاس بما تحب أن يُعاملوك به مثلاً : إذا أردت أن تعامل شخصًا مُعَاملة فاعرضها أولًا على نفسك هل إذا عاملك إنسانٌ بها هل ترضى أم لا ؟ إن كنت ترضى فعامله وإلا فلا تعامله . ويدخل فى ذلك العدل بين الأولاد فى العطيّة . قال النبى ﷺ : « اتَّقُوا الله وَاعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُم »(٢) .

ويدخل فى ذلك العَدْلُ بين الأولاد فى الميراث فَتُعْطِى الذَّكر مِثْلُ حَظِّ الأُنْثيين .

ويدخل فى ذلك العدل بين الزَّوجات بأن تقسم لكل واحدة مثل ما تقسم للأخرى .

وعلى هذا فقِسْ : « كل شىء يجب فيه التوبة يجب فيه العَدْل » . وهنا يجب أن نعرف أن من الناس من يستعمل بدل العدل « المساواة » وهذا خطأ

(١) رواه مسلم (١٨٤٤) (٤٦) من حديث عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما .

(٢) رواه البخارى (٢٥٨٧) ، ومسلم (١٦٢٣) (١٣) من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه .

لا يقال مساواة لأن المساواة تقتضى التسوية بين شيئين الحكمة تقتضى التفريق بينهما . ومن أجل هذه الدَّعوة الجائرة إلى التَّسوية صاروا يقولون أىُّ فرق بين الذكر والأُنثى سوُّوا بين الذكور والإناث حتى إن الشُّيوعية قالت : أى فرق بين الحاكم والمحكوم لا يمكن أن يكون لِأَحد سلطة على أحد حتى بين الوالد والولد ليس للوالد سُلْطة على الولد . وهلُم جرا . لكنْ إذا قلنا بالعَدل وهو إعطاء كل أحد مَا يَسْتَحِقُّه زَال هذا المَحْذُور وصارت العبارة سَليمة . ولهذا لم يأت فى القرآن أبدًا : « إنَّ الله يأمر بالتَّسوية » لكن جاء ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ﴾ [النحل : ٩٠] ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ ﴾ [النساء : ٥٨] وكذَب على الإسلام من قال : إن دين الإسلام دين المساواة بل دين الإسلام دين العدل وهو الجمع بين المتَساويين والتفريق بين المفترقين .

أما أنَّه دين مُسَاواة فهذه لا يقولها من يعرف دين الإسلام بل الذى يَدُلُّك على بطلان هذه القاعدة أكثر ما جاء فى القرآن نفى المساواة : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٩] ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرِ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى الظُّلُمَاتُ وَالنُّور ﴾ [الرعد : ١٦] ﴿ لَا يَسْتَوِى مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُواْ مِن بَعْد وَقَاتَلُوا ﴾ [الحديد : ١٠] ﴿ لَا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْر أُوْلِى الضَّرَر وَالمجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ ﴾ [النساء : ٩٥] ما جاء ولا حرف فى القرآن يأمر بالمساواة أبدًا إنما يأمر بالعدل وكلمة العدل أيضًا تجدونها مقبولة لدى النفوس . فأنا أشعر أن لى فضلًا على هذا الرَّجل بالعلم ، أو بالمال ، أو بالورع ، أو ببذل المعروف ثم لا أرضى بأن يكون مساويًا لى أبدًا . كل إنسان يعرف أن فيه غضاضة ، إذا قلنا بمساواة ذكر وأنثى .

وأحببت أن أُنبه على هذا لِئلا نَكُون فى كلامنا إمَّعه لأن بعض الناس يأخذ الكلام على عواهنه فلا يفكر فى مدلوله وفيمن وَضَعه وفى مغزاه عند من وضعه .

وعندما نقول : لا سواء بين العالم والجاهل يقول : لماذا الإسلام دين المساواة حتى النبى عليه الصلاة والسلام قال : « خِيَارُكُم فى الإسْلَام خِيَارُكُم فى الجاهلية إذا فَقِهوا »(١) فجعل هناك مُفَاضَلة . والعَرب أشْرَفُ النَّاس نسبًا لا يوجد فى بنى آدم أحد أشرف منهم نسبًا . ويدلك لهذا قوله تعالى : ﴿ الله أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام : ١٢٤] والذى جعل فيهم الرِّسالة التى إلى الخلق عامَّة العرب فهم إذًا أشرف الناس نسبًا .

● ثم قال : ﴿ فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة : ٧] .

ما : شرطية وفعل الشَّرط ﴿ اسْتَقَامُواْ ﴾ وجوابه ﴿ فَاسْتَقِيمُواْ ﴾ أى مهما استقام لكم المعاهدون الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فاستقيموا لهم .

هذه الجملة الشَّرطية تقتضى بمنطوقها أنهم إذا استقاموا لنا وَجَبَ أن نستقيم لهم وأن نُوفى بعهدهم . وتدلُّ بمفهومها على أَنهم إذا لم يستقيموا لا نستقيم لهم .

﴿ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ﴾ [البقرة : ١٩١] والمُعَاهدون ينقسمون إلى ثلاثة أقسام :

– قسم استقاموا على عهدهم وأمنّاهم فيجب علينا أن نستقيم لهم .

---

(١) رواه البخارى (٣٣٥٣) ، ومسلم (٢٣٧٨) (١٦٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

- وقسم خانوا ونقضوا العهد فهؤلاء لا عهد لهم ﴿ فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ ﴾ [التوبة : ١٢] .

- قسم ثالث : يظهرون الإستقامة لنا لكننا نخاف من خيانتهم بمعنى أنه توجد قرائن تدل على أنهم يريدون الخيانة فهؤلاء قال الله فيهم : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ﴾ [الأنفال :٥٨] لا تبدأهم بالقتال ولا تتركهم .

﴿ انْبِذْ إِلَيْهِمْ ﴾ يعنى اطرح عهدهم وألْقِه إليهم وقل : لا عهد بيننا وبينكم . وهذا عدل !

فإذا قال قائل : كيف ينبذ العهد إليهم وهم مُعَاهدون ؟ قلنا : لخوف الخيانة هؤلاء لا نأمنهم الآن يمكن فى يوم من الأَيَّام يصبِّحوننا فهؤلاء ننبذ إليهم على سواء ولا نخونهم ما دام العَهْد قائمًا لأنه لو قال المسلمون : نحن نخاف منهم الخيانة سَنُبادرهم بالقتال قلنا هذا حرام : لا تقاتلوهم حتى تنبذوا إليهم العهد .

وقوله : ﴿ إِنَّ الله يُحِبُّ المتَّقين ﴾ المُتَّقُون : هم الذين اتخذوا وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نَوَاهيه . هذا من أحسن ما يقال فى تعريف التقوى .

● **قال** : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [**البقرة:٢٢٢**]

التوّاب : صيغة مُبَالغة من التَّوبة ، وهو كثير الرجوع إلى الله . والتَّوبة هى الرُّجوع إلى الله من معصيته إلى طاعته وسبق ذكر شروطها وهى خمسة . فالتَّوَّاب يُحبُّه الله عز وجل كثير التَّوبة . ومعلومٌ أن كثرة التوبة تستلزم كثرة الذَّنب ومن هنا نفهم بأنَّ الإنسان مهما كثر ذَنْبُه إذا أحدث لكل ذنب تَوْبَة

فإن الله تعالى يُحِبُّه . والتَّائب مرة واحدة من ذنب واحد محبوبٌ إلى الله عز وجل من باب أولى لأن من كثرت ذُنوبه وكَثُرت توبته يُحِبُّه الله فمن قَلَّت ذُنُوبه فأحبَّه الله بالتَّوبة من باب أولى فالله تعالى يحب التَّائب .

وقوله : ﴿ يُحِبُّ المتطهِّرين ﴾ الذين يتطهرون وهنا جمع بين طهارة الظاهر وطهارة الباطن طهارة الباطن بقوله : ﴿ التَّوَّابِين ﴾ والظاهر بقوله : ﴿ المتطهِّرين ﴾ أى الذين يُطَهِّرُون أبدانهم من الأحداث والأنجاس وَمَا يجب تطهيره وغير ذلك .

● **وقوله** : ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ** ﴾ [آل عمران: ٣١].

يُسَمِّى علماء السَّلف هذه الآية : آية المحنة . يعنى الامتحان ؛ لأن قومًا ادَّعوا أنهم يُحِبُّون الله فأمر الله نَبِيَّه أن يقول لهم : ﴿ إنْ كُنْتُم تُحِبُّونَ الله فَاتَّبِعُونى ﴾ وهذا تَحَدِّى لكُلِّ من ادَّعى محبَّة الله أن نقول : إن كنت صادقًا فاتَّبع الرَّسول فمن أحدث فى دين رسول الله ﷺ مَا ليس منه وقال : إنَّنى أُحبُّ الله ورسوله بما أَحْدَثْتهُ – قلنا له – هذا كذب لو كانت مَحَبَّتُك صادقة لاتَّبَعْتَ الرَّسول عليه الصلاة والسلام ولم تتقدَّم بين يديه بإدخال شىء ليس من دينه فكل من كان أتْبَع لِرَسُول الله ﷺ كان لله أحَب وإذا أحب الله وقام بعبادته فإنَّ الله تعالى يُحِبُّه بل إن الله عز وجل يُعْطيه أكثر مِمَّا عَمِل يقول تعالى فى الحديث القدسى : « مَنْ ذَكَرَنِى فى نَفْسِه ذَكَرْتُه فِى نَفْسِى »(١) وَنَفسُ الله والله أعظم من نفُوسنا : « وَمَنْ ذَكَرَنى فِى مَلأٍ ذَكَرْتُه فِى مَلأٍ خَيْرٌ مِنْه » . وفى الحديث أيضًا : « أَنَّ مَنْ تَقَرَّب إليه شِبْرًا تَقَرَّب الله إليه ذِرَاعًا وَمَنْ تَقَرَّب إليه ذِرَاعًا تَقَرَّب إليه بَاعَاً وَمَنْ أَتَى إلى الله

---

(١) رواه البخارى (٧٤٠٥) ، ومسلم (٢٦٧٥) (٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

يَمْشى أَتاهُ الله هرولَة »(١) إذًا فعطاء الله عز وجل أكثر من عملك .

● **وقوله : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ ﴾** [المائدة : ٥٤] .

الفاء : واقعة فى جواب الشرط ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَنْ دِينِهِ فسوْفَ يَأْتِى الله بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ أى إذا ارتددتم عن دين الله **فإنَّ ذلك لا يضر الله شيئا ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى الله بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ وهذا** كقوله : ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونواْ أَمْثَالكُمْ ﴾ [محمد : ٣٨] فكل من ارتد عن دين الله فإنَّ الله لا يعبأ به لأنه تعالى غنٌى عنه بل يزيله ويأتى بخير منه ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُواْ أَمْثَالَكُمْ ﴾ لا يكونوا أمثالكم بل خيرًا منكم ﴿ فَسَوْف يَأْتِى الله بِقَوْمٍ ﴾ بدل منهم ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ وإذا كانوا يحبون الله ويحبهم الله فسوف يقومون بطاعته ﴿ أَذِلةٍ عَلَى المؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ ﴾ [المائدة : ٥٤] أمام المؤمنين أذلّة يخفضون أجنحتهم للمؤمنين ويلينون لهم ويتطامنون ومع الكفار أعزّة أقوياء لا يظهرون الذُّل أمام الكافر أبدًا وقد علَّمنا الرسول عليه الصَّلاة والسلام كيف نعامل الكافر بالعِزة فقال : « لا تَبْدَأُوا اليَهُود والنَّصارَى بالسَّلام وإذا لَقِيتُموهُم فى طَرِيقٍ فَاضطروهم إلى أَضْيَقه »(٢) فإذا لاقاكَ اليهود والنَّصارى ولو كانوا ألفًا وأنتم عشرة نشُق هذا الجمع ولا نفسح لهم الطَّريق بل إلى أَضْيَقه فيريهم العز بِدِيننا لا بأنفسنا لأَننا نحن بشر وهم بشر حتى يتبيّن لهم أن دين الإسلام هو الظَّاهر وأن المتمسك به هو العزيز : ﴿ يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ الله وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِم ﴾ [المائدة : ٥٤] يجاهدون فى سبيل الله كل من قام ضد دين الله من كافر وفاسق وملحد ومارق يجاهدونه

---

(١) رواه مسلم (٢٦٨٧) (٢٢) من حديث أبى ذر رضى الله عنه .

(٢) رواه مسلم (٢١٦٧) (١٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وكل إنسان يُعْطونه من السلاح ما يليق به فمن قاتلهم بالحديد والنار قاتلوه بالحديد والنَّار . ومن قاتلهم بالجدال والخصوم الكلامى جادلوه بمثل ذلك . فهم يُجاهدون فى الله بكل نوع من أنواع الجهاد ﴿ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ لا يخافون نقد الناس عليهم يقولون الحق ولو كان على أنفسهم لكنهم يستعملون الحكمة فى هذا الجهاد ويرومون الوصول إلى الغاية ويجعلون السبب فى المرتبة الثَّانية . فإذا رأوا أن الدعوة تستوجب التأخر فى بعض الأمور تأخروا وإذا رأوا أن الدعوة تقتضى اللِّين فى بعض الأَحوال استعملوه ؛ لأنهم يريدون الوصول إلى غاية مُعَيَّنة ، والوسيلة حسب ما تقتضيه الحال ، ثم قال الله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة : ٥٤] .

● **وقوله** : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [الصف : ٤] .

هذه الآية فى سورة الصَّف وسورة الصَّف فى الحقيقة هى سورة الجهاد لأَنَّ الله تعالى بدأها بالثَّناء على المُقَاتلين فى سبيله ثمَّ دعا إلى الجهاد فى آخرها ثمَّ ذكر بين ذلك أن الله سيظهر دينه على كل الأَدْيان ولو كره المشركون ﴿ إِنَّ اللهَ يُحبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا ﴾ لا يتقدَّم أحد ولا يتأخر حتى فى الجهاد . والصَّلاة جهادٌ مُصَغَّر فيها قائد يجب اتِّباعه فإن لم تتبعه بَطُل جهادُك .

الإمام هذا قائد يجب اتِّباعه إن لم تَتَّبعه بطلت صلاتك : « أَمَا يَخْشَى الَّذى يَرْفَعُ رَأْسَهُ قبْلَ الإمام أَن يُحوِّل الله رَأْسَهُ رَأْسَ حِمَار أو يَجْعَل صُورَتَهُ صُورة حِمَار »(١) والصف فى الصَّلاة نظير الصَّف فى الجهاد وكان الرسول

---

(١) رواه البخارى (٦٩١) ، ومسلم (٤٢٧) (١١٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

عليه الصلاة والسلام يَصُفُّهم فى الجهاد كما يَصُفُّهم فى الصَّلاة « كأنهم بنيان » والبنيان كما قال الرَّسول عليه الصلاة والسلام : « يَشُدُّ بَعْضُه بعضًا »(١) يتماسك بعضه بعض . ولهذا إذا سقط الجدار سَقَط السَّقف وإن كان غير لاصق بالجدار لأن البِنَاء يَشُدُّ بعضه بعضًا ولهذا قال : ﴿ كَأَنَّهُم بُنْيانٌ مَرْصُوص ﴾ فليس كالمفرّق . فالمرصوص أَشدُّ تماسكًا فهؤلاء الَّذين علَّق الله المحبَّة بأعمالهم لهم عِدّة صِفات :

أولًا : « يُقَاتلون » فلا يركنون إلى الخلود والخمول والكَسَل والجُمود الذى يُضعِف البَدن .

ثانيًا : الإخلاص « فى سبيله » .

ثالثًا : « صفًّا » يَشُدُّ بعضهم بعضًا .

رابعًا : « بنيان » والبنيان حصن منيع .

خامسًا : « مرصوص » لا يتخلله ما يمزقه .

هذه خمس صفات علق الله المحبَّة لهؤلاء عليها .

● **وقوله** : ﴿ **وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ** ﴾ [البروج : ١٤] .

الغَفُور : السَّاتر لذنوب عباده المتجاوز عنها .

الوَدُود : مَأْخُوذ من الود وهو خالص المحبَّة وهى بمعنى وادَ وبمعنى مودود لأَنه عز وجل محِبٌّ ومحبوب ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى الله بَقوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [المائدة : ٥٤] فالله عز وجل واد ومَوْدُود سُبحانه وتعالى وَادٌّ

---

(١) جزء من حديث رواه البخارى (٦٠٢٦) ، ومسلم (٢٥٨٥) (٦٥) من حديث أبى موسى رضى الله عنه ولفظه : « المُؤمِنُ للمُؤْمِن كالبُنْيان يَشُدُّ بَعْضُه بَعْضًا ؛ ثم شبَّك بين أصَابِعه » .

لأوليائه وأَوْلياؤه يودونه يحبونه يحبون الوُصُول إليه وإلى جَنَّته وَرِضْوانه .

وأتمنى لو أَنَّ المؤلف أضاف آية ثالثة فى المحبة وهى الخُلَّة لقوله تعالى : ﴿ واتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيم خَليلاً ﴾ [النساء : ١٢٥] والخليل هو من كان فى أعلى المحبة فهى أعلى أنواع المحبة لأن الخليل هو الذى وصل حبه إلى سويداء القلب وتخلّل مجارى عرُوقه وليس فوق الخلة شيء من أنواع المحبة أبدًا . يقول الشاعر لمعشوقته(١) :

قد تَخَللتِ مَسْلَكَ الرّوح مِنى وَبذا سُمِّى الخَليل خَليلًا

النَّبى عليه الصَّلاة والسلام يحب أصحابه كلهم لكن ما اتَّخذ واحدًا منهم خليلًا أبدا .

قال النبى عليه الصَّلاة والسلام وهو يخطب الناس : « لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِى خَلِيلًا لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْر »(٢) إذًا أبو بكر هو أحب الناس إليه لكن لم يصل إلى درجة الخلة ، لأن الرسول ﷺ لم يتخذ أحدًا خليلًا لكن إخوة الإسلام ومودته . وأمَّا الخلة فهى بينه وبين ربه قال النبى ﷺ : « إن الله اتخذنى خليلًا كما اتَّخَذ إبْرَاهيم خَلِيلًا » والخُلّة لا نَعْلَم أَنَّها ثبتت فى أحد من البَشر إلا لاثنين هما : إبراهيم ، ومحمد عليهما الصَّلاة والسلام وهذه الخُلَّة صِفة من صِفات الله عز وجل لأنها أعلى أنواع المحبة وهى توقيفية فلا يجوز أن نثبت لأَحد من البَشَر أنه خليل إلا بدليل حتى الأنبياء عليهم الصَّلاة والسلام إلَّا هذين الرَّسولين الكريمين فهما خليلان لله عز وجل .

---

(١) راجع : روضة المحبين ص (٤٧-٤٩) لابن القيم ، وشرح الطحاوية لابن أبى العز (٣٩٦/٢) .

(٢) رواه مسلم (٢٣٨٣) (٣) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

هذه الآية هى التى استَشهد بها مَنْ قَتَل الجعد بن درهم رأس المعطلة الجهمية . أَوَّل ما أنكر قال : إنَّ الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا و لم يُكَلِّم مُوسى تكليمًا فقتله خالد بن عبد الله القسرى - رحمه الله - حيث خرج به موثقا فى يوم عيد الأضحى وخَطَبَ النَّاس وقال : أَيُّها النَّاس ضَحُّوا تَقَبَّل الله ضَحَايَاكُم فَإِنِّى مُضَحٍّ بالجعد بن درهم لأَنه زَعَم أن الله لم يتَّخذ إبراهيم خليلًا و لم يُكَلِّم مُوسَى تكليمًا ثم نزل فَذَبَحه ويقول ابن القيم فى ذلك(١) :

وَلأَجْل ذَا ضَحَّى بِجَعْدٍ خَالد   القَسْرى يَوْم ذَبَائح القُرْبَان
إذ قالَ إبراهيم لَيْس خَليله   كَلا ولا مُوسى الكَلِيم الدَّانى
شكر الضَّحية كل صَاحب سُنَّة   لله درُّك من أخى قربان

فلدينا الآن محبَّة ، وَوُد وَخُلَّة . فالمحبة والود مطلقة والخلة خاصة بإبراهيم ومحمد ويجب أن يكون اعتمادنا فى الأمور الغيبية على الأَدلة السَّمعية لكن لا مانع من أن نستدل بأَدِلَّة عقلية لإلزام من أنكر أن تكون المحبة ثابتة بالأَدِلَّة العقلية مثل الأشاعرة والمعتزلة يقولون : لا يمكن أن تثبت المحبة بين الله وبين العبد أبدًا . العقل لا يدل عليها وكل ما لا يدلُّ عليه العقل فإنَّه

---

(١) القصيدة النُّونية (٢٩/١) بشرح د. محمد خليل هراس .

تنبيه مهم : قصة ذبح الجعد بن درهم على يد خالد بن عبد الله القسرى : أخرجها البخارى فى خلق أفعال العباد ص (٦٩) ، والدَّارمى فى الرد على الجهمية ص (٧،١١٣،١١٤) ، والذهبى فى العلو ص (١٣٣،١٣٤- مختصر) وقوَّاها الألبانى لطرقها .

ومع ذلك فينبغى التَّنَبُّه إلى أن خالد بن عبد الله القسرى هذا قال عنه الذهبى فى ميزان الاعتدال (٦٣٣/١) : « صدوق لكنه ناصبىٌّ بغيض ظلوم . قال ابن معين : رجل سوء يقع فى على » ا . هـ .

فلا تغتر أيها المسلم به فتظن أنه بذبحه الجعد بن درهم على بدعته أنَّه على الصَّواب فى كل شىء يفعله . نسأل الله العفو والعافية .

يجب أن نُنَزِّه الله عنه . فنحن نقول : لا مانع من أن نثبت المحبَّة بالأدلة العقلية . كما هى ثابتة عندنا بالأدلة السمعية احتجاجًا على من أنكَر ثُبُوتها بالعقل . فنقول وبالله التوفيق : إثَابة الطَّائعين بالجنَّات والنَّصر والتَّأييد وغير ذلك هذا يدلُّ بلا شك على المحبَّة . ونحن نُشاهد بأعيننا ونسمع بآذاننا عمن سَبَق وعمَّن لحِق أن الله عز وجل أَيَّد من أَيَّد من عباده المؤمنين وَنصرهم وأَثَابهم وهل هذا إلَّا دَليلٌ على المحبَّة ؟ فبلا شك أن هذا دَليلٌ على محبَّة الله سُبحانه وتعالى لِمَنْ أَيَّدهم ونَصَرهُم وأَثَابَهم عزَّ وجلَّ .

● **هناك بحث ثالث فى الموضوع** : وهو كيف يَنَالُ الإنسان محبَّة الله عز وجل ؟

هذه هى التى يطلبها كل إنسان والمحبَّة عبارة عن أمر فِطْرى يكون فى الإنسان ولا يملكه ولهذا قال الرسول عليه الصَّلاة والسلام فى العدل بين الزَّوجات : « هذا قسمى فيما أَملك فلا تلمنى فيما لا أَملك »(١) ؟

فالجواب : أَنَّ المحبَّة لها أسباب كثيرة :

● **منها** : أن ينظر الإنسان مَن الَّذى خَلَقَهُ وَمَن الَّذى أَمَدَّه بالنِّعم مُنذ دَخلَتَ فيه الرَّوح ، ومن الَّذى أَجْرَى إليك الدَّم فى عُرُوقك قبل أن تنزل إلى الأرض إلا الله عزَّ وجلَّ ، من الذى دفع عنك النِّقم التى انعقدت أسبابها وكثيرًا ما تشاهدها بعينك آفات ونقم تهلكك فيرفعها الله عنك إذًا : هذا لا شك أنه يجلب المحبَّة ولهذا ورد فى الأثر : « أَحِبُّوا الله لِمَا يَغْذُوكُم بِهِ مِن

---

(١) **إسْنَادُه ضَعِيفٌ** : رواه أحمد (٦/١٤٤) ، وأبو داود (٢١٣٤) ، والتِّرمذى (١١٤٠) ، والنَّسائى (٧/٦٣،٦٤) ، وابن ماجه (١٩٧١) ، والحاكم (٢/١٨٧) من حديث عائشة رضى الله عنها ، وصحَّح النسائى والترمذى وابن أبى حاتم فى العلل (١/٤٢٥) إرساله . وراجع : إرواء الغليل للألبانى (٢٠١٨) .

النِّعَم »[١] وأعتقد لو أن أحدًا أهْدَى إليك قلمًا لَيسَ لَهُ قيمة فإنك تُحِبُّه إذا كان كذلك فأنت انظر نعمة الله عليك النِّعم العظيمة الكثيرة التى لا تُحصيها تحبُّ الله . ولهذا أحيانًا إذا جاءت النِّعمة وأنت فى حاجة شديدة إليها تجد قلبك يَنْشَرِح وتحب الذى أسداها إليك بخلاف النِّعم الدائمة . فأنت تذكر هذه النِّعم التى أعطاك الله وتذكر أيضًا أن الله فَضَّلَك على كثير من عباده المؤمنين إن كان الله مَن عليك بالعلم فقد فضّلك بالعلم أو بالعبادة فقد فضلك بالعبادة أو بالمال فقد فضَّلك بالمال أو بالأهل فقد فَضَّلك بِالأَهل أو بالقوت فقد فضَّلك بالقُوت ، وما من نعمة إلا وتحتها من هو دونها فأَنت إذا رأيت هذه النِّعم العظيمة شكرت الله وأحببته .

ثانيًا : محبَّة ما يُحِبُّه الله من الأعمال القولية والفعلية والقلبية تحب الَّذى يحبُّه الله فهذا يجعلك تحب الله لأن الله يُجازيك على هذا أن يضع محبَّته فى قلبك فتُحب الله إذا قمت بما يحب . وكذلك تُحِبُّ من يُحِب . والفرق بينهما ظاهر . الأخيرة من الأشخاص والأولى من الأعمال لأننا أتينا « بما » التى لغير العاقل من الأعمال والأماكن والأزمان وهذه « مَن » للعاقل من الأشخاص . تحب النَّبى عليه الصلاة والسَّلام تُحبُّ إبراهيم تُحبّ موسى وعيسى وغيرهم من الأَنبياء . تحب الصِّديقين كأَبى بَكْر والشُّهداء وغير ذلك مِمَّن يُحِبُّهم الله . هذا يَجْلب لَكَ مَحَبَّة الله وهو أيضًا من آثار محبَّة الله . هذا صار سببًا وأَثَرًا محبَّة من يُحِبُّه الله سَبَبُ أَنَّك تحب الله وأَثَرٌ من آثار محبّة الله لأنك ما أَحببت هؤلاء إلا بحبِّك الله سبحانه . فهذا أيضًا من أَسْبَاب محبَّة الله عز وجل .

ثالثًا : كَثْرةُ ذِكْره بحيث يكون دائمًا على بالك الله عز وجل حتى

---

(١) **حَدِيثٌ ضَعِيفٌ** : أخرجه الترمذى (٣٧٩٨) ، والحاكم (٣/١٥٠) ، وأبو نعيم فى الحلية (٣/٢١١) ، والخطيب فى تاريخه (٤/١٦٠) من حديث ابن عباس ، وضعفه ابن الجوزى والمناوى والألبانى كما فى تعليقه على فقه السيرة لمحمد الغزالى ص (٢٣) .

تكون كلما شاهدت شيئًا استدللت به عليه عزَّ وجل حتى يكون قبلك دائمًا مشغولًا بالله مُعْرِضًا عمَّا سِوَاه فهذا يجلب لك محبّة الله عز وجل هذه الأسباب الثَّلاثة هي عندى من أقوى أسباب محبَّة الله عز وجل .

البحث الرابع : ما هى الآثار المَسْلكية التى يَسْتلزمها مَا ذُكِر ؟

أولًا : قوله : ﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ **يقتضى أن** نُحْسِن وأن نحرص على الإحسان لأن الله يُحبه وكل شيء **يحبه الله فإننا نَحْرِص** عليه .

وقوله : ﴿ أَقْسِطُواْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات : ٩] يقتضى العَدْل . انظر إلى هاتين الآيتين يقتضيان أن نُعدِّل سُلوكنا إلى العدل والإحسان وَضدُّ ذلك الجُور والإسَاءَة إذا علمنا أن العدل والإحسان من أسباب محبَّة الله فإن الجُور والإساءة من أسباب بُغْض الله وكَرَاهَته . كذلك قوله : ﴿ إِنَّ اللهَ يُحبُّ المُتَّقِينَ ﴾ [التوبة : ٧] يقتضى ذلك أن نتَّقى الله عز وجل . لا **نتَّقى** المخلوقين بحيث إذا كان عندنا من نَسْتحى منه من النَّاس تركنا المَعَاصى . فالتَّقوى أن نَتَّقى الله عز وجل ولا يهمك النَّاس أَصْلح مَا بَيْنَك وبين الله يُصْلح الله ما بينك وبين النَّاس . انظر يا أخى إلى الشَّىء الذى بينك وبين رَبِّك ولا يهمك غير ذلك : ﴿ إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ [الحج : ٣٨] افعل ما يقتضيه الشَّرع وستكون لك العاقبة .

● **أيضًا** يقول : ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ المتطهِّرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٢٢] هذه تَسْتَوجب لى أن أُكْثِر التَّوبة إلى الله عز وجل أُكْثِر أن أَرجع إلى الله بِقَلْبى وقَالبى وَمُجرد قول الإنسان : « أَتُوب إِلى الله » هذا قد لا ينفع لكن تستحضر وأنت تقول : « أتوب إلى الله » إنَّ بين يديك مَعَاصى ترجع إلى الله منها وتتوب حتى تَنَال بذلك محبّة الله . والإنسان عندما يقول : « اللَّهُمَّ

إنى ظَلَمْتُ نَفْسى ظُلْمًا كثيرًا » فى التَّشَهد يَسْتَحضر أَوَّل مَا يَسْتَحضر إساءته فى تلك الصَّلاة كما أَسَاء فى غيرها ونحن الآن لا شك أَننا فعلنا فى صلاتنا نقصًا . فأنت تستحضر وأنت فى نفس العَمَل الذى تستغفر الله وأنت متلبِّس به قد أَسأْت فيه وحينئذ تنتفع من الاستغفار ومن التَّوبة .

● ﴿ المُتَطَهرين ﴾ : إذا غَسَلت ثوبك من النَّجاسة تحِسُّ بأنَّ الله يحبك ؛ لأن الله يحب المتطهرين . إذا توضأت تحس بأنَّ الله أَحبَّك ؛ لأنك تَطَهَّرت . إذا اغتسلت تَحِس أن الله أَحبَّك ؛ لأن الله يحب المُتَطهرين .. ووالله إنَّنا لغافلون عن هذه المعانى أكثر ما نستعمل الطهارة من النجاسة أو من الأحداث لأنها شرطٌ لصحة الصَّلاة خوفًا من أن تفسد صَلاتنا لكن يَغيب عنَّا كثيرًا أن نشعر بأن هذا قُرْبة وَسَببٌ لمحَبَّة الله لنا . لو كنا نستحضر عندما يغسل الإنسان نقطة بول أصابت ثوبه أن ذلك يجلب محبة الله له لحصَّلنا خيرًا كثيرًا لكنَّنا فى غَفْلة .

● **قوله** : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الله فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ الله وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبكُمْ ﴾ [آل عمران : ٣١] هذا أيضًا يستوجب أن نحرص غاية الحرص على اتِّباع النَّبى ﷺ بحيث نترسم طريقه لا نخرج منه ولا نُقَصِّر عنه . وشُعُورنا هذا يحمينا من البدع ويحمينا من التَّقصير ويحمينا من الزِّيادة والغُلو . ولو أننا نَشْعر بهذه الأُمور انظر كيف يكون سُلوكنا وآدابنا وأَخلاقنا وعباداتنا .

● وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُواْ مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِى الله بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [المائدة : ٥٤] نحذر به من الرِّدة عن الإسلام التى منها ترك الصَّلاة مثلًا فإذا علمنا أن الله يهدِّدنا بأننا إن ارْتَدَدنا عن ديننا أهلكنا الله وأتى بقوم يُحِبُّهم وَيُحبُّونه ويقومون بواجبهم نَحو رَبِّهم فإننا نُلازم طاعة الله والابتعاد عن كل ما يقرب للرِّدة .

● وقوله : ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ إذا آمنا بهذه المحبة فعلنا هذه الأسباب الخمسة التى تستلزمها وتوجبها القتال وعدم التَّوانى والإخلاص بأَنْ يكون فى سبيل الله . أن يشد بعضنا بعضا كأننا بنيان .. أن نُحْكِم الرَّابطة بيننا إحْكَامًا قويًّا كالبنيان المَرْصُوص . أن نصف وهذا يقتضى التساوى حسًّا حتى لا تختلف القُلوب وهو مما يُؤَكِّد الأُلفة . والإنسان إذا رأى واحدًا عن يمينه وَوَاحِدًا عن يَسَارِه يقوى على الإقْدَام لكن لو يحيطون به من جميع الجوانب فستشتد هِمَّته ! فصار فى هذه الآيات أربعة مباحث :

١ – إثبات المحبة بالأَدلَّة السَّمعية .

٢ – إثباتها بالأَدِلَّة العَقْلية .

٣ – أسباب جلبها .

٤ – الآثار المسلكية فى الإيمان بها وإثباتها .

– أما أهل البدع الذين أنكروها فليس عندهم إلا حُجَّة واهية : يقولون :

أولًا : إن العقل لا يَدُلُّ عليها . ثانيًا : إن المحبة إنما تكون بين اثنين متجانسين لا تكون بين رب ومخلوق أبدًا . ولا بأس أن تكون بين المخلوقات ونحن نرد عليهم فنقول : نجيبكم عن الأَوَّل وهو أن العقل لا يدل عليها بجوابين : أحدهما : بالتَّسليم والثانى : بالمَنْع .

التَّسليم : نقول سلَّمنا أن العقل لا يُدلُّ على المحبة فالسمع دَلَّ عليها وهو دليلٌ قائم بنفسه والله عز وجل يقول فى القرآن : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل : ٨٩] يُصدِّقون بهذا . إذًا إذا كان تبيانًا فهو دَلِيلٌ

قائم بنفسه فقد دلَّ عليه السَّمع « وانتفاء الدليل المعين لا يلزم منه انتفاء المدلول المعين » لأن المدلول قد يكون له أدلّة مُتعدِّدة سواءٌ الحسيات أو المعنويات . الحسّيات : مثل بَلَدٌ لَهُ عِدَّة طُرق تُوصل إليه إذا سَدَدنا طَريقًا ذهبنا مع الطَّريق الثانى . أما المعنويات : كم من حكم واحد يكون دَالّاً عليه عِدّة أدِلّة وجوب الطَّهارة للصَّلاة مثلًا فيه أدِلَّة متعددة فإذًا إذا قُلتم أن العقل لا يدلُّ على إثبات المحبة بين الخالق والمخلوق فإن السَّمع دلَّ عليه بأجلى دليل وأوضح بيان .

ثانيًا : **المنع** أن نمنع دعوى أن العقل لا يدل عليها ونقول بل العقل دلَّ على إثبات المحبة بين الخالق والمخلوق كما أشرنا إليه آنفا . وأما قولكم أن المحبة لا تكون إلا بين متجانسين فيكفى أن نقول : لا قبول !!! لأن المنع كافٍ فى رَدِّ الحجة إذ أن الأصل عدم الثُّبوت فنقول دعواكم أنها لا تكون إلا بين متجانسين ممنوع بل يكون بين غير المتجانسين . فالإنسان عنده سَاعة قديمة ما أَتْعَبَتْه بالصِّيانة وما أفسدت عليه قط فتجده يُحبها تأتيه ساعة تأخذ منه نصف وقته فى التَّصليح فتجده يبغضها . وأيضًا نجد أن البهائم تُحِب وتُحَب . فنحن ولله الحمد نثبت لله المحبة بَيْنَهُ وبَيْنَ عِبَادِه .

* * *

إثبات اتِّصافه بالرَّحمة والمغفرة سبحانه وتعالى في القرآن الكريم

٣٩ – وقوله : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ [النمل : ٣٠] .

٤٠ – ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ [غافر : ٧] .

٤١ – ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٤٣] .

٤٢ – ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف : ١٥٦] .

٤٣ – ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام : ٥٤] .

٤٤ – ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [يونس : ١٠٧] .

٤٥ – ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف : ٦٤] .

الشـــرح

بدأ المصنِّف في إثبات صفة الرَّحمة فقال :

● **وقوله** : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ [النمل : ٣٠] .

هذه آيةٌ أَتَى بها المؤلف لِيُثْبِتَ حُكْمًا ، وَلَيْست مُقَدِّمة لما بعدها . آيةٌ مُسْتَقِلّة يثبت بها رحمة الله تعالى ، وقد سبق لنا شرح هذه الآية فلا حاجة إلى إعادتها .

● **قوله** : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ [غافر : ٧] .

هذا يَقُولُه الملائكة : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَاتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ [غافر : ٧] .

ما أُعْظَم الإيمان ؟!

الملائكة حول العرش يَحْمِلُونه .. يدعون الله للمؤمن .

الملائكة تدعوا له يقولون : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَاتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [غافر : ٧ – ٩] .

قال : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ [غافر : ٧] فَكُلُّ شيء وَصَلَهُ علم الله وهو واصل لكل شيء ، فإن رحمته وصلت إليه ؛ لأن الله قرن بينهما فى الحكم ﴿ رَبَّنَا وَسِعتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ وهذه هى الرَّحمة العامَّة التى تَشْمَل جميع المخلوقات حتى الكفار ، لأن الله قَرَنَ الرَّحمة هذه مع العلم ، فكل مَا بَلَغَهُ عِلْمُ الله ، وَعِلْم الله بَالِغٌ لِكُلِّ شَيء فقد بَلَغَتْهُ رَحْمَتُه ، فكما يعلم الكافر يَرْحَم الكافر أيضًا . لكن رحمته للكافر رحمة جَسَدية بَدَنِيّة دُنْيَوية قَاصِرة غاية القصور بالنِّسبة لرحمة المؤمن ، فالذى يَرْزُق الكافر هو الله الذى يَرْزُقه بالطَّعام والشَّراب واللباس والمسكن والمنكح وغير ذلك .. هو الله هذه رحمته !!

أَمَّا المؤمنون فرحمتهم رَحْمَةٌ أَخصّ من هذه وأَعْظَمُ لأَنَّها رحمة إيمانية

ولهذا تجد المؤمن أَحْسنُ حالًا من الكافر حتى فى أمور الدُّنيا لأَنَّ الله يقول : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل : ٩٧] . الحياة الطيبة هذه مفقودة بالنِّسبة للكفار حياتهم كحياة البهائم إذا شبع رَوَّث وإذا لم يشبع جَلَس يَصْرُخ !

وهؤلاء الكفار إن شبعوا بَطروا وإلا جلسوا يَصْرخون ولا يستفيدون من دُنياهم ، لكن المؤمن إن أصابته ضَرَّاءَ صبر واحتسب الأجر على الله عز وجل وإن أصابته سرّاء شكَرَ فهو فى خير فى هذا وفى هذا وقلبه مُنْشَرِح مطمئن ماشٍ مع القَضاء والقَدَر لا جزع عند البلاء ، ولا بطر عند النَّعماء ، بل هو متوازن مستقيم معتدل .

فهذا فرق بين الرَّحمة هذه وهذه . حتى فى الدُّنيا يفرقون لكن مع الأسف الشديد أيها الأخوة إن منا أناسًا آلاف يُريدون أن يَلْحَقُوا بِرَكْبِ الكفار فى الدُّنيا حتى جعلوا الدُّنيا هى همهم إن أعطوا رضوا وإن لم يعطوا إذا هم يَسْخَطُون هؤلاء مهما بلغوا فى الرَّفاهية الدُّنيوية فهم فى جحيم لم يذوقوا لذة الدنيا أبدًا إنما ذاقها من آمن بالله .

ولهذا قال بعض السَّلف : « وَالله لَوْ يَعْلَمُ المُلُوك وَأَبْنَاءُ المُلُوك مَا نَحْنُ فِيهِ لَجَالَدُونَا عَلَيْه بالسُّيوف »(١) .

لأَنَّه حال بينهم وبين هذا النَّعيم مَا هُم عَلَيْه من الفُسُوق والعِصْيان وَالرُّكون إلى الدُّنيا وإنَّها أَكْبَرُ همهم ومَبْلَغُ عِلمهم .

قوله : ﴿ رَحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ رحمة : تمييز محول عن الفاعل وكذلك لأن الأصل : ربنا وَسِعَتْ رحمتك وعلمك كل شيء .

* * *

(١) ذكره الحافظ ابن القيم فى الداء والدواء ص (١٤٧) .

● **قال** : ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٤٣] .

﴿ بِالمؤْمِنِينَ ﴾ متعلِّق برحيم وتقديم المفعول يدلُّ على الحَصْر .

إذًا : كان بالمؤمنين لا غيرهم رَحِيمًا ، ولكن كيف نَجْمع بين هذه الآية والتى قبلها : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ وهنا يقول : ﴿ وَكَانَ بِالمُؤْمِنِينَ رَحِيماً ﴾ ؟؟

نقول : الرَّحمة التى هنا غير الرَّحمة التى هناك .

هذه رحمة خاصة مُتَّصلة برحمة الآخرة لا يَنالُها الكفار بخلاف الأُولى هذا هو الجمع بينهما ، وإلَّا فكلٌّ مرحوم ، لكن فرق بين الرَّحمة الخاصة والرَّحمة العامة .

* * *

● **يقول** : ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [الأعراف : ١٥٦] .

هذا مِن الله . وفى الآية التى سبقت من كلام الملائكة .

يقول جل جلاله مُتَمَدِّحًا مُثْنِيًا على نفسه : ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [الأعراف : ١٥٦] فأَثْنَى على نفسه عزَّ وجلَّ بأن رحمته وَسِعَت كل شىء من أهل السَّماء ومن أهل الأَرض . ونقول فيها ما قلنا فى الآية السَّابقة فليرجع إليه .

* * *

● **قال** : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام : ٥٤] .

﴿ كَتَبَ ﴾ : بمعنى أَوْجَبَ على نفسه الرَّحمة .

فالله عز وجل لكرمه وفضله وَجُوده أَوْجَب على نفسه الرَّحمة ، وجعل رحمته سَبَقت غضَبه : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّة ﴾ [فاطر : ٤٥] . لكن حِلْمُه وَرَحْمَتُه أَوْجَبَت أن يبقى الخلق إلى أجل مُسَمَّى . اقرأ ما بعدها : ﴿ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِه وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُور رَحِيم ﴾ [الأنعام : ٥٤] .

هذه مِن رَحْمته . و« سوء » نكرة فى سياق الشَّرط فتعمُّ كل سوء حتى الشِّرك : ﴿ بِجَهَالَةٍ ﴾ يعنى بِسَفَه وليس بِجَهْل عدم علم .

بِسَفَه : عدم حكمة ؛ لأن كل من عَصَى الله فقد عَصَاهُ بجهالة وسَفَه وعدم حكمة : ﴿ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإنه غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ فيغفر ذنبه ويرحمه ولم يختم الآية بهذا إلَّا سَيَنَال المغفرة والرَّحمة . هذا فى رحمته التى كتبها على نفسه وإلَّا لكان مقتضى العَدْل أن يُؤَاخِذه على ذنبه وَيَجْزيه على عمله الصَّالح .

هذا رجلٌ أَذْنَب خمسين يومًا ثمَّ تاب وأَصْلَح خمسين يومًا . فالعدل أن نُعَذِّبه عن خمسين يومًا ونجازيه بالثَّواب عن خمسين يومًا لكن الله عز وجل كتب على نفسه الرَّحمة كل الخمسين يومًا التى ذهبت من السُّوء تُمحى وتَزُول وَزِدْ على ذلك : ﴿ فَأُوْلَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَات ﴾ [الفرقان : ٧] .

السَّيئات الماضية تكون حَسَنَات ؛ لأن كل حَسَنة عنها تَوْبة وكل توبة فيها أجر إذًا : ظهر بهذا أَثَر قوله تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام : ٥٤] .

* * *

● **وقوله** : ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [يونس : ١٠٧] .

اللهِ عزَّ وجلَّ هو الغفور الرَّحيم جمع عز وجل بين هذين الإسمين ؛ لأن بالمغفرة سُقُوط الذُّنوب ، وبالرَّحمة حُصُول المطلوب . والإنسان مفتقر إلى هذا وهذا مُفْتَقِرٌ إلى نجاة يَنْجُوبها من آثامه ، وَمُفْتَقِرٌ إلى سعادة يَسْعَد بها برحمة الله عزَّ وجل .

﴿ الغَفُورُ ﴾ صيغة مُبالغة مَأْخُوذة من الغَفر ، وهو السَّتر مع الوقاية ؛ لأنه مأخوذ من المغفر ، والمغفر شيء يُوضع على الرَّأس فى القتال يقى من السهام .

هذا المِغْفَر حَصَل به فائدتان : هما سَتْرُ الرَّأس والوِقاية .

إذًا : الغفور أى الذى يَسْتُر ذُنُوب عباده ويقيهم آثامها بالعفو عنها .

ويدلُّ على هذا ما ثبت فى الصَّحيح : « أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يخلو يوم القِيامة بِعَبْدِه وَيُقَرِّره بِذُنُوبه يقول : عَمِلْت كذا ، وعَمِلت كذا حتى يُقر ، فيقول الله عز وجل له : قد سَتَرْتها عَلَيْكَ فى الدُّنيا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ اليَوم »(١) .

أَمَّا ﴿ الرَّحِيم ﴾ فهو ذُو الرَّحمة الوَاسِعة كما سبق .

* * *

● **قال :** ﴿ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف : ٦٤] .

قَالَهَا يَعْقُوب حين أَرْسَل مع أَبْنَائِه أَخَا يوسف الشَّقيق ، لأن يوسف عليه الصَّلاة والسَّلام قال : لا كَيْلَ لكم إذا رَجَعْتُم إلَّا إذا أَتَيْتُم بأخيكم فَبَلَّغُوا والدهم هذه الرِّسالة ، ومن أجل الحاجة أرسله معهم وقال لهم عند وَدَاعِه : ﴿ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْل ﴾ [يوسف : ٦٤]

---

(١) رواه البخارى (٢٤٤١) ، ومسلم (٢٧٦٨) (٥٢) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما بنحوه .

ولكن ماذا أَقُول : ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف : ٦٤] يعنى : لن تحفظوه ولكن الله هو الذى يحفظه .

﴿ خَيْرٌ حَافِظًا ﴾ حَافِظًا : قال العلماء إِنَّها تمييز كقول العرب : « لله دَرّه فارسًا » . وقيل إنَّها حال من فاعل خير . ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ ﴾ حال كونه حافظا .

الشاهد من الآية هنا : قوله : ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف : ٦٤] حيث أثبت لله عز وجل الرَّحمة ، بل بيَّن أَنَّه أرحم الراحمين .

لو جمعت رحمة الخلق كلهم ، بل رَحَمَات الخلق كلهم لكانت رحمة الله أشد وأَعْظَم .

أَرْحم ما يكون من الخلق بالخلق رحمة الأُم وَلَدَها ، فإِنَّ رحمة الأم ولدها لا يُسَاويها شيء من رحمة النَّاس أبدًا ، حتى الأب ما يرحم أولاده مثل أمهم .

جاءت امرأة فى السَّبى تَطْلُب وَلَدَها وتبحث عنه فلما رأته أخذته بشفقة وضمَّته إلى صدرها أمام النَّاس وأمام الرَّسول عليه الصلاة والسلام فقال النبى ﷺ : « أَتَرَوْنَ أَنَّ هذه المرأة تُلْقِى وَلَدَهَا فِى النَّار ؟! قالوا : لا وَالله يَا رَسُول الله مَا تُلْقِى وَلَدَهَا فى النَّار . قال : لله بِعِبَادِه أَرْحَمُ من هذه الوَالِدة بِوَلَدها »[1] .

جل جلاله ، وعزَّ مُلْكُه وَسُلْطَانه .

كل الرَّاحمين إذا جُمعت رَحَمَاتُهم كلهم فلَيْسَت بشىء عند رحمة الله .

---

(١) رواه البخارى (٥٩٩٩) ، ومسلم (٢٧٥٤) (٢٢) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

ويدلُّك على هذا أن الله عزَّ وجل خلق مِائة رَحْمَة وَضَع مِنها رَحمة واحدة يَتَرَاحَم بِها الخَلائِق فى الدُّنيا[1] .

كل الخلائق تَتَرَاحم : البهائم والعُقَلاء . ولهذا تجد البَعير الجموح الرّموح ترفع رجلها عن وَلَدها مخافة أن تُصيبه عندما يرضع حتى يرضع بسُهولة ويُسْر ، وكذلك تجد السِّباع الشَّرسة تجدها تحن على ولدها وإذا جاءها أَحَد فى جحرها مع أولادها ترمى نفسها عليه فتدافع عنهم حتى تَرُدُّه عن أَوْلَادها .

● **الأدلة العقلية على ثُبوت رحمة الله :**

هذه أدلة سمعية على ثُبوت الرَّحمة لله سبحانه وتعالى .

وبما أن هناك أَدِلَّة سمعية على ثُبوت رَحمة الله هل هناك أَدِلَّة عقلية ؟!

نقول : نعم هناك أَدِلَّة عقلية تثبت الرَّحمة لله عز وجل :

– ما نرى من الخيرات الكثيرة التى تجرى بأمر الله عز وجل .

وما نرى من النِّقم الكثيرة التى تَنْدَفع . كُلُّه دَال على إثبات الرَّحمة عقلًا فالنَّاس فى جَدْب وفى قحط . الأرض مجدبة والسَّماء قاحطة لا مطر ولا نبات فينزل الله المطر وتنبت الأرض وتَشْبع الأنعام ويسقى الناس .

هذا دليلٌ على رحمة الله عز وجل .

حتى العامِّى الذى لم يَدْرسُ لو سألته وقلت : هذا من أى أثر ؟

---

(١) ففى حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « إنَّ لله مائَة رَحْمة أَنْزَل منها رحمةً واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوامِّ ، فبها يَتَعَاطَفُون وَبِهَا يَتَرَاحَمُون وبها تعطف الوَحش على وَلَدها ، وَأَخَّر تِسْعًا وَتِسْعين رَحْمة يَرْحم بها عِبَاده يَوْم القِيامة » البخارى (٦٠٠٠) ، ومسلم (٢٧٥٢) (١٩) .

الهوام : الحشرات السَّامة .

فسيقول : هذا من رحمة الله ولا يشك أحد فى هذا أبدًا .

فرحمة الله عز وجل ثابتة بالدَّليل السَّمعى والدَّليل العقلى .

هذان بحثان :

الأول : الإيمانُ بأَنَّ لله رحمة .

والثانى : إثبات الرَّحمة بالدَّليل السَّمعى والعَقْلى .

● **الرد على المخالفين :**

والمبحث الثالث : أَنكر الأَشَاعِرة وغيرهم من أهل التَّعطيل أن يكون الله تعالى مُتَّصِفًا بالرَّحمة ، قالوا : لأَنَّ العقل لم يدل عليها . وثانيًا : لأن الرَّحمة رِقَّة وضَعْف وَتَطَامُن للمرحوم وهذا لا يَلِيق بالله عزَّ وجل ، لأَنَّ الله أعظم من أن يرحم بالمعنى الذى هو الرَّحمة ولا يمكن أن يكون لله رحمة !!

إذًا : هذه الآيات التى يُثْبت الله له بها الرَّحمة ؟

قالوا : نعم ! المراد بالرَّحمة إرادة الإحسان ، أو الإحسان نفسه . أى إما النعم أَو إرادة النعم .

فتأمَّل الآن : كيف سَلَبُوا هذه الصِّفة العظيمة التى كل مؤمن يَرْجُوها ويُؤَمِّلها كان إنسان لو سألته مَاذَا تُرِيد ؟ قال : أُرِيدُ رَحْمة الله ﴿ إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٦] .

هم أنكروا هذا . وقالوا : لا يمكن أن يُوصف الله بالرَّحمة .

ونحن نردُّ عليهم قولهم من وجهين : بالتَّسليم والمنع :

● **التَّسليم** : أن نقول : هب أَنَّ العقل لا يدلُّ عليها ولكن السَّمع دلَّ عليها فثبت بدليلٍ آخر . والقاعدة العامة عند الجميع : « الدَّليل المعين لا يمنع

وجود المدلول أو لا يستلزم انتفاء المدلول » .

أى هب أن هذا لم يَثْبُت بالعقل ، لكن ثبت بالسَّمع ، وكم من أشياء مَدْلولات تَثْبت بأدلة كثيرة .

● **أما المنع** : فنقول : إنَّ قولكم إنَّ العقل لا يدلُّ على الرَّحمة قول باطل ، بل العقل يدلُّ على الرَّحمة :

هذه النِّعم المشهودة والمَسْمُوعة ، وهذه النِّقم المَدْفُوعة ما سببها ؟!

إنَّ سببها الرَّحمة بلا شك . لو كان الله لا يرحم العِباد ما أَعْطَاهم النِّعم ولا دفع عنهم النِّقم ، وهذا أَمْرٌ مشهود يَشْهَدُ به الخاص والعام والعامِّى فى دكانه أَوْ سُوقه يعرف أن هذه النِّعم من آثار الرحمة .

والعجيب أن هؤلاء القوم أثبتوا صفة الإرادة عن طريق التِّخصيص : قالوا : الإرادة ثابتة لله تعالى بالسَّمع والعقل :

– بالسَّمع واضح . وبالعقل : قالوا : لأَنَّ التَّخصيص يدلُّ على الإرادة ومعنى التَّخصيص يعنى تخصيص المخلوقات بما هى عليه . يدلُّ على الإرادة كون هذه السَّماء سماء ، وهذه الأرض أَرْضًا وهذه النجوم وهذه الشمس .. هذه مختلفة بسبب الإرادة .

إرادة الله أَنْ تكون السَّماء سماء فكانت ، وأَنْ تكون الأرض أرضًا فكانت والنجم نجما فكان ... وهكذا .

قالوا : فالتخصيص يَدُلُّ على الإرادة ، لأَنَّه لولا الإرادة لكان الكل شيئا واحدًا نقول لهم : يا سبحان الله العظيم ! هذا الدَّليل بالنِّسبة لدلالة النّعم على الرحمة أيُّهما أقوى وأظهر ؟ دلالة النِّعم على ثُبوت الرّحمة أقوى بكثير وأَجْلَى وأظهر ؛ لأن دلالة النّعم على الرحمة يستوى فى علمها العام والخاص ،

وهذه لا يعرفها إلَّا الخاص من طلبة العلم .

فكيف تنكرون ما هو أَجْلى وتُثْبتون ما هو أخفى ؟!

وهل هذا إلَّا تَنَاقُض منكم ؟!

● **ما نستفيده من الناحية المسلكية فى هذه الآيات :**

ما هو الأمر المَسْلكِي الذى يُؤْخذ من هذه الآيات ؟

الأمر المسلكى : هو أن الإنسان ما دام يعرف أن الله تعالى رحيم فسوف يتعلق برحمة الله ويكون منتظرًا لها ، فيحمله هذا الاعتقاد على فِعْل كل سبب يُوصل إلى الرَّحمة : مثل الإحسان . قال الله تعالى فيه : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ المُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٦] . والتَّقوى : قال تعالى : ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٦] ومنها الإيمان : فإنَّه من أَسْبَاب رحمة الله كما قال تعالى : ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رحِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٤٣] . وكلما كان الإيمان أقوى لكانت الرَّحمة إلى صاحبه أَقْرب بإذن الله عزَّ وجل .

* * *

إثبات اتصافه بالرضىٰ سبحانه وتعالىٰ فى القرآن الكريم

٤٦ – وقولـه : ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ﴾ .

[المائدة : ١١٩] .

الشـــــرح

هذه من آيات الرِّضى ، فالله سبحانه وتعالى موصوف بالرِّضى وهو يَرْضَى عن العمل ، ويَرْضَى عن العَامِلِ .

يعنى أن رضى الله متعلِّق بالعمل وبالعامل :

أَمَّا بالعمل : فمثل قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر: ٧] أى يَرْضى الشُّكر لكم ، وكما فى قوله تعالى : ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] .

وكما فى الحديث الصَّحيح : « إنَّ الله يَرْضَى لَكُم ثَلَاثًا ، وَيَكْرَه لَكُم ثَلَاثًا »(١) .

هذا الرِّضى مُتَعَلِّق بالعمل :

– ويتعلق الرِّضى أيضًا بالعَامِل مثل هذه الآية التى ساقها المؤلف :

● ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ﴾ [المائدة : ١١٩] .

﴿ رَضِيَ الله عَنْهُمْ ﴾ صِفة ثابتة لله عزَّ وَجلَّ ، وهى فى نَفْسه وليست شيئًا منفصلًا عنه ، كما يَدَّعيه أهل التَّعطيل .

---

(١) رواه مسلم (١٧١٥) (١٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه

ولو قال لك قائل : فسِّر لى الرِّضى ؟ لم تتمكن من تَفْسيره ؛ لأَنَّ الرضى صفة فى الإنسان غريزية والغرائز لا يمكن لإنسان أن يُفسِّرها بأَجْلَّى وَأَوْضَح من لفظها فنقول : الرِّضى صفة فى الله عزَّ وجل وهى صفة حقيقية متعلِّقة بمشيئته فهى من الصِّفات الفعلية ، يَرْضَى عن المؤمنين وعن المتَّقين وعن المقسطين وعن الشاكرين ولا يَرْضَى عن القوم الكافرين ، ولا يَرْضَى عن القوم الفاسقين ، ولا يَرْضَى عن المنافقين . فهو سبحانه وتعالى يَرْضَى عن أُناس ولا يَرْضَى عن أُناس ، ويَرْضَى أعمالًا ويكره أعمالًا . وللرِّضى دَلِيلٌ سَمْعِىٌّ وهو قوله : ﴿ رِضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ﴾ [المائدة : ١١٩] .

وعن العمل : ﴿ وَإِنْ تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر : ٧] .

● الأدلة العقلية على ثبوت الرضى لله تعالى والرد على المخالفين :

وهل هناك دليلٌ عَقْلى ؟ نقول : نعم ! لَهُ دَلِيلٌ عقلى : كونه عز وجل يُثيب الطَّائعين ، ويجزيهم على أعمالهم وطاعاتهم يَدُلُّ على الرضى .

وعلى هذا فيكون الدَّليلان : السَّمعى والعَقْلى كلاهما دالّاً على ثُبوت الرِّضى لله عزَّ وجلَّ .

فإن قلت : استدلالك بالمَثُوبة على رِضَى الله عزَّ وجلَّ قد تَنَازع فيه ، لأن الله سبحانه قد يعطى الفاسق من النِّعم أكثر مِمَّا يُعطى الشَّاكر ؟

وهذا إيرادٌ قَوى ، ولكن الجواب عنه أن يقال : إِعْطَاؤُه الفَاسِق المقيم على معصيته استدراج كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [الأعراف : ١٨٢-١٨٣].

وقال النبى ﷺ : « إِنَّ الله لَيُمْلِي لِلظَّالم حَتَّى إِذَا أَخذَهُ لم يُفْلِتْهُ . وتلا قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ

أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود : ١٠٢] »[1] .

وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام : ٤٤ ، ٤٥] .

أَمَّا إذا جاءت المَثُوبة والإنسان مُقِيمٌ على طاعة الله فإنَّنا نعرف أن ذلك صادر عن رضى الله عنه .

كيف بالأَوَّل راضى والآن غير راضى ؟

هذه إنما تكون للحادث المخلوق .

وأيضا فإن الرِّضى عَرَض أى صِفة عرضية طارئة . والعَرَض لا يَقُوم إلَّا بجسم والأجسام مُتماثلة ولا يمكن أن يَتَّصف الله بالرِّضى ؟

إذًا : ما معنى رضى الله ؟

الله أثبت لنفسه الرِّضى . هل تنكرونه ؟!

فقالوا : لا . لكننا نؤوله فنقول : ﴿ رَضِيَ الله عَنْهُمْ ﴾ أى أثابهم .

انظر كيف يُفسِّرون الصِّفة بلازمها أو بأثرها .

والمانع ؟ قالوا : علمناك ما المانع . لا يمكن للعقل فبماذا نجيبهم ؟!

نجيبهم كما سبق بالمنع والتَّسليم .

نقول : هب أن العقل لا يدلُّ على ذلك لكنه لا يمنعه وسنبين أنَّه لا يمنعه فإذا كان العقل لم يدل عليه فالسَّمع قد دلَّ عليه .

---

(١) رواه البخارى (٤٦٨٦) ، ومسلم (٢٥٨٣) (٦١) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

ثم نقول : إن العقل قد دلَّ عليه ، لأن إثابة الله للطَّائعين يدلُّ على أنَّه رَاضٍ عنهم ، ولهذا لو أنَّ أحدًا أعطى ابنه شيئًا من الدَّراهم أو الكسوة لعدَّه الناس عَلَامَة على الرِّضى ، ولو أمسكت بواحد من النَّاس ثم أوجعته ضربًا بالعصا فقلت لماذا ؟ لا يمكن أن يقول أبدًا إنَّنى راضٍ عنه لكن لو تعطيه شيئًا من الدَّراهم والهدايا وغيرها على فعل فعله لقيل إن هذا الرَّجل راض عنه .

فمثوبة الطَّائعين تدل بلا شك على رضى الله عنهم : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ المؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَة ﴾ [الفتح : ١٨] ، ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المهَاجِرِينَ وَالأَنْصَار وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ [التوبة : ١٠٠] .

الثَّواب : دليل على ثُبوت الرِّضا .

أما أن تفسروا الرِّضى بالثَّواب أى بأثره فهذا خطأ .

● ثم نقول لهم : قولكم : إن الرِّضى حادث بعد أن لم يكن . ما الذى يمنع أن يكون الله عز وجل لكمال تَصَرُّفه فى ملكه يَرْضَى عن أقوام ويَسْخَط عن أقوام يرضى عن الشَّخص فى حال ، ويغضب عليه فى حال أخرى . ما المانع ؟

وهل هذا إلا من كمال رُبُوبيته أن يكون فعالًا لما يريد .

هذا لا شك أنه من كمال رُبُوبيته وكماله عزَّ وجلَّ .

● ثم قولكم : إن الحوادث لا تقوم إلَّا بحادث هذا ليس بصواب ؛ لأننا نرى أن الحوادث لا يلزم منها مقارنة المحدث .

ومعنى هذا : أنى أنا حادث الآن ، لا شك أَفْعَالى حَادِثة ، هل يلزم من هذه الحادثة أن تقارننى ؟

فإذًا لا يلزم من قيام الحوادث بالله عزَّ وجلَّ أن يكون هو محدثًا أو حادثًا ؛ لأن الحوادث لا يشترط فيها مقارنة المحدث بل المحدث على حوادثه ثم ما أحدثه أنا سابق علمه . أفعالى لم تقارنِّى .

كذلك أفعال الله من الرِّضى والغَضَب والسَّخط وغيرها لا يلزم أن تكون مقارنة لله وعليه فيمكن أن تكون حَادثة بعد أن لم تكن .

● وقولكم أيضًا : إنَّ الحوادث عرض والعرض لا يَقُوم إلَّا بجسم هذا غير صحيح !!

فالأَعْرَاض تقوم بغير الأجسام أيضًا يقال : لَيْلٌ طويل ، وشِتَاءٌ بَارِد ، ومَرَضٌ مُزْمِن أو شديد ، فتُوصف هذه الأشياء مع أنها ليست أجسامًا . وبهذا يتبيَّن أن كل تَعَالِيلهم عَلِيلة بل مَيِّتة .

كيف يدعون أن هذا هو العقل بمثل هذه العِلَل الوَاهِية ، ومع ذلك يدَّعون أنهم هم أصحاب العقول ، وأن السَّلف بمنزلة العجائز والشُّيوخ والأطفال ليس عندهم عقول وأن طريقتهم التَّفويض .

فيلزم على قولهم : أن السَّلف ليس عندهم لا معقول ولا منقول ، لأن النُّصوص عندهم غير معلومة ، فَسَلَبُوا عن السَّلف العلم بأسماء الله وصفاته بالسَّمع والعقل : نسأل الله العافية والسَّلامة .

* * *

ذكر غضب الله وسخطه وكراهيته فى القرآن الكريم

٤٧ - وقوله : ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾ [النساء : ٩٣] .

٤٨ - وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ ﴾ [محمد : ٢٨] .

٤٩ - وقوله : ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف : ٥٥] .

٥٠ - وقوله: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٦].

٥١ - وقوله : ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف : ٣] .

الشـــرح

● قال المؤلف : وقوله : ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾ [النساء : ٩٣] .

﴿ مَنْ ﴾ شَرْطية . ومَنْ هذه الشَّرطية كما مرَّ علينا تُفِيد العموم ، لكن لا شك أن المراد بها من كان بالغًا عاقلًا .

يعنى المراد بالقاتل البَالغ العاقل ، وعليه فهى عام أريد به خاص والذى أخرج غير البالغ والعاقل النُّصوص الأخرى الدَّالة علىٰ ذلك

ثم إن قوله ﴿ مُتَعَمِّدًا ﴾ يدل على إخراج الصَّغير و غير العاقل لأن هؤلاء ليس لهم قصد ولا عمد .

فالذى يقتل مؤمنًا متعمدًا جزاؤه هذا الجزاء العظيم .

﴿ جَهَنّم ﴾ وهى النَّار ﴿ خَالِدًا فِيها ﴾ أى ماكثًا فيها .

﴿ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْه ﴾ ، ﴿ وَلَعَنَه ﴾ فهذه أربعة .

خامسًا : ﴿ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ .

خمس عُقُوبات واحدة منها كافية فى الرَّدع والزَّجر لمن كان له قلب .

وهذا الجزاء ينبغى أن نُؤْمن به وأنه حق وأن هذا القتل سَبَبٌ لهذا الجزاء ولكن هذا السَّبب كغيره من الأسباب إذا وجد مانع فإنه يمنع منه .

فالمانع الذى يمنع الخُلد فى النَّار خُلودًا مُؤَبّدًا : الإيمان .

فلو أَنَّ رجلًا قتل مؤمنًا متعمِّدًا ومات بدون توبة ، ولكنه مؤمن ؛ فإنه لن يخلد فى النار أبدًا بل يُعَذَّب بقدر ذنوبه ثم يخرج ، مع أن الآية ظاهرها التخليد .

فإذا قال قائل : إذا قلتم هذا فأى فائدة لهذا الوعيد ؟

- قيل فى الجواب على ذلك : إن بعض الناس يقول إن هذه فى الكافر إذا قتل المؤمن ! لكن هذا القول ليس بشىء ؛ لأَنَّ الكافر جَزَاؤُه جهنم خالدًا فيها وإن لم يقتل المؤمن : ﴿ إِنَّ اللهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٦٤ ، ٦٥] .

- وقال بعضهم : إنَّ هذا فيمن اسْتَحلَّ القتل ، لأَنَّ الذى يستحل قتل المؤمن كافر وعجب الإمام أحمد من هذا الجواب . قال : كيف هذا إذا استحل قتله فهو كافر وإن لم يقتله ، وهو مخلد فى النَّار وإن لم يقتله .

إذًا : لا يستقيم هذا الجواب .

- وقال بعضهم : إنَّ هذه الجملة على تقدير شرط : « فجزاؤه جهنم خالدًا فيها إن جازاه » يعنى ويمكن الإيجازية . وفى هذا نظر :

فأى فائدة فى قوله : ﴿ جَزَاؤُهُ جَهَنَّم ﴾ مَا دَامَ أَنَّه جازاه ؟!

فنحن الآن نسأل : إذًا جازاه فهل هذا جزاؤه ؟

إذا قلتم هكذا معناه أنه صار خالِدًا فى النَّار . فتعود المشكلة مرة أخرى ولا نتخلص !!

بقى عندنا القول الأول الذى أشرنا إليه أَنَّ هذا سبب ، ولكن إذا وجد مانع لم ينفذ السبب . كما نقول : القَرابة سبب للإرث ، فإذا كان القريب رقيقًا لم يرث لوجود المانع وهو الرق .

نقول : هذا الفعل سبب للخلود ، وإذا كان الفاعل مؤمنًا فلا يخلد فى النار ولكن يَرِدُ علينا الإشكال : إذًا : ما الفائدة من هذا الوعيد ؟

نقول : الفائدة أن الإنسان الذى يَقْتُل مؤمنًا متعمدًا فقد فعل السَّبب الذى يخلد به فى النَّار . وحينئذ يكون وجود المانع محتملًا : قد يوجد ، وقد لا يوجد . فهو على خطر جدًا ولهذا قال النبى ﷺ : « لا يَزَالُ المُؤْمِنُ فِى فُسْحَةٍ مِن دِينِهِ مَا لَم يُصِب دَمًا حَرَامًا[(١)] » .

فإذا أصاب دَمًا حرامًا والعياذ بالله فإنَّه قد يضيق بدينه حتى يخرج منه .

وعلى هذا فيكون الوَعيد هنا باعتبار المآل ؛ لأَنَّه يخشى أن يكون هذا القتل سببًا لِكُفْرِه ، وحينئذ يَمُوت على الكفر فَيخلد .

فيكون إذًا هذه الآية على هذا التَّقدير فيها ذكر سبب السَّبب : القتل عمدا سبب لأن يموت الإنسان على الكفر والكفر سَبَبٌ للتَّخليد فى النار

(١) رواه البخارى (٦٨٦٢) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما .

وأظن هذا إذا تأمَّله الإنسان يجد أنه ليس فيه إشكال .

الرَّابع : أن المراد بالخلود المكْثُ الطويل ، وليس المراد به المكث الدَّائم ، لأَنَّ اللغة العربية يطلق فيها الخلود على المكث الطَّويل كما يقال : فلان خالد فى الحبس ، والحبس ليس بدائم . ويقولون : فلان خالد خلُود الجبال ، ومعلوم أن الجبال يَنْسِفُها ربى نسفا فيذرها قاعًا صَفْصَفًا . وهذا أيضًا جواب سهل لا يحتاج إلى تعب . فنقول : إنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يذكر التَّأْبيد لم يقل : « خالدًا فيها أبدًا » قال : ﴿ خالدًا فيها ﴾ والمعنى أَنَّه مَاكِث مكْثًا طويلًا .

الوجه الخامس : أَنْ يُقال أَنَّ هذا من باب الوَعِيد ، والوَعِيد يجوز إِخْلَافُه ، لأَنَّه انتقال من العَدل إلى الكرم ، والانتقال من العَدْل إلى الكرم كرمٌ وثناء وأنشدوا عليه قول الشاعر :

وإنِّـى وَإِنْ أَوْعَدْتُـه أَوْعدتــه ... لَمُخْلِفُ إيعَادِى وَمُنْجِز مَوْعِدى

أَوْعَدْتُه بالعقوبة مثلًا ، أَوْ وعدته بالثَّواب لمخلفٌ إيعادى ومُنجز مَوْعدى .

قال : وأنت إذا قلت لابنك : والله إن ذهبت إلى السُّوق لأضربنك بهذا العصا . ثم ذهب إلى السُّوق فلما رجع ضربته بيدك فهذا الكرم لابنه أهون فقالوا : إذا توعد الله عزَّ وجلَّ القَاتِل بهذا الوَعِيد ثمَّ أَخلف فهذا كرم . ولكن هذا فى الحقيقة فيه شيء من النَّظر !!

لأننا نقول : إن نفذ الوعيد . فالإشكال باقٍ وإن لم ينفذ فلا فائدة منه .

الوجه السَّادس : أن يكون هذا من باب ذكر السَّبب : أى أن قتل النَّفس عمدًا سبب للخلود فى النَّار سَواء قلنا إنَّه يكون سببًا ؛ لأنه إذا قتل

النَّفس والعياذ بالله ربما يزيغ قلبه كما جاء فى الحديث : « لا يَزَالُ المَرْءُ فِي فُسْحَةٍ مِن دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا »(١) فإذا زَاغَ قَلْبُه وَكَفَر استحق الخلود ، فيكون هذا المآل سبب ناتج عن سَبب ، أى سَبَب السَّبب فهو لقتله النَّفس المؤمنة عمدًا يزيغ قلبه فيكفر فيخلد فى النَّار ، وإذا كان كذلك فهذا يكون الله تعالى ذكر هذا السَّبب تحذيرًا وتخويفًا من السَّبب الآخر الذى يلزم منه .

الوجه السَّابع : يقول هذا سَبَبٌ مُبَاشر ليس سبب سبب ، لكن هذا السَّبب له مانع . فليس كل سبب يكون مؤثرًا لكن الأصل تأثيره إلا إذا وجد المانع ووجود المانع أمر ليس بمتيقّن .

قالوا : ونظير ذلك أن تقول : القَرابة سَبَبٌ للميراث فالإنسان الوالد يَرِثُ الولد . لكن قد يقوم به مانع كالرِّق والقتل فلا يرث . وهذا يكون كما ذكر فى الآية سببًا ؛ لكن إذا وجد مانع وهو الإيمان فإنَّه يمنع من الخلود فى النَّار .

هذه سبعة أوجه فى الجواب عن الآية ، وأَقْرَبها الأخير والذى قبله والرابع . وقد انقسم النَّاس فيها أولًا إلى قسمين :

القسم الأول : من أخذ بظاهرها وحجر ما سواها مما يرفع هذا الظاهر مثل الخوارج والمعتزلة ؛ لأَنَّ الخوارج والمعتزلة يقولون : إنَّ فاعل الكبيرة مخلد فى النَّار ، لكن الخوارج يقولون كافر ، والمعتزلة يقولون : فى منزلة بين المنزلتين . فعلى رَأْى هَؤُلاء وهو رَأْيٌ فَاسِد لا يبقى فى الآية إشكال لأنهم يقولون : نحن نقول بِمُوجِبها وأَنَّ القَاتِل قد فعل كبيرة من كبائر الذُّنوب وهو مخلد فى النار .

---

(١) رواه البخارى (٦٨٦٢) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما .

القسم الثَّانى : أهل السُّنة والجماعة ومن وَافَقَهم من أهل الإرجاء وغيرهم الذين قالوا : إنَّ القَاتِل لا يخلد فى النَّار . فقد اختلفت أجوبتهم فى الآية سبق ذكرها آنفا .

مسألة : إذا تاب القاتل هل يستحق هذا الوعيد ؟!

جـ : لا يستحق الوَعيد بنصّ القرآن لقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَات ﴾ [الفرقان : ٦٨-٧٠] وهذا واضح أن من تاب حتى من القتل فإن الله تعالى يبدل سيئاته حسنات والحديث الصحيح فى قصة الرَّجل من بنى إسرائيل الذى قتل تِسْعًا وتسعين نفسًا فألقى الله فى نفسه التَّوبة فجاء إلى عابد فقال له : إنَّه قتل تسعًا وتسعين نفسًا فهل له من توبة ؟! فالعابد استعظم الأمر وقال : ليس لك توبة ! فقتله ، فأتم به المائة . فدلَّ على عالم قال : إنّه قتل مائة نفس هل له من توبة ؟ قال : نعم ! ومَنْ يَحُولُ بَيْنَكَ وبَيْنَ التَّوبة ولكن هذه القرية ظالم أهلها فاذهب إلى القرية الفُلانية فيها أهل خير وصلاح ، فسافر الرجل وهاجر من بلده إلى بلد الخير والصَّلاح ، فوافته المنية فى أثناء الطريق فاختصمت فيه ملائكة الرَّحمة وملائكة العَذَاب حتى أنزل الله بينهم حكمًا وقال : قيسوا ما بين القَرْيتين فإلى أَيّتهما كان أقرب فهو من أهلها فكان أقرب إلى أهل القرية الصَّالحة فقبضته ملائكة الرحمة[1] .

انظر كيف كان من بنى إسرائيل فقبلت تَوْبَتُه مع أنَّ الله جعل عليهم

---

(١) القصة فى صحيح البخارى (٣٤٧٠) ، ومسلم (٢٧٦٦) (٤٦) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه . وراجع : شرح الشيخ لها فى شرحه لرياض الصالحين حديث رقم (٢٠) .

آصارًا وأغلالًا ، وهذه الأمة رفع عنها الآصار والأغلال ، فالتَّوبة فى حقها أسهل . فإذا كان هذا فى بنى إسرائيل فكيف بهذه الأمة .

فإن قلت : ماذا تقول فيما صحَّ عن ابن عباس رضى الله عنهما : أَنَّ القاتِل لَيْسَ لَهُ تَوْبة ؟!

فالجواب : من أحد وجهين :

١ - إما أن ابن عباس رضى الله عنهما استبعد أن يكون للقاتل عمدًا توبة ورأى أنه لا يوفق للتَّوبة ، وإذا لم يوفق للتَّوبة ، فإنه لا يسقط عنه الإثم بل يؤاخذ به .

٢ - وإمَّا أَن يُقَال : إن قصد ابن عباس رضى الله عنهما : أَنَّه لا توبة له فيما يتعلَّق بحق المقتول ؛ لأَنَّ القَاتِل عمدًا يتعلَّق به ثلاثة حُقوق : حَقّ الله ، وحق المقتول ، والثَّالث لأَوْلياء المقتول .

(أ) أما حق الله : فلا شك أن التَّوبة تُجْدى فيه لقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ﴾ [الزمر : ٥٣] . ولا إشكال فيه .

(ب) وأما حق أولياء المقتول : فيَسْقط إذا سلم الإنسان نفسه لهم .

أتى إليهم وقال : أنا قتلت صاحبكم ، واصنعوا ما شئتم . فهم إما أن يَقْتَصُّوا ، أو يأخذوا الدِّية أو يَعْفُو والحق لهم .

(جـ) بقى حق المقتول : كيف يتخلص منه ؟

لا سبيل إلى التخلص منه فى الدُّنيا فما يبقى إلا هو .

وعلى هذا يحمل قول ابن عباس : أَنَّه لا توبة له أى : بالنِّسبة لحق المقتول .

أما حق الله وحق أولياء المقتول فقد تَخْلُص مِنهم . على أَنَّ الذى يظهر لى أنه إذا تاب توبة نَصُوحًا فإنَّه حتى حق المقتول يَسْقُط لا إِهْدَارًا لِحَقِّه ، ولكن الله عز وجل بِفَضْله يتحمَّل عن القَاتِل ويُعْطِى المقتول رِفعة دَرَجات فى الجنة أو عفوًا عن السيئات ، لأن التوبة الخالصة لا تبقى شيئًا كما قال النَّبى عليه الصَّلاة والسَّلام : « التَّوْبَةُ تَجُبُّ ما قَبْلَهَا »(١) .

فإذا صدق الإنسان فى توبته ، فإنّ الله سبحانه وتعالى يتحمَّل رِضَاءَ المقتول إما بزيادة الثَّواب والدَّرجات فى الجنة ، وإمَّا بالعَفْو عن السَّيئات ولعل هذا يدخل فى عموم آية الفرقان : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَٰئِكَ يُبَدِّلُ الله سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَات ﴾ [الفرقان : ٧٠] .

* * *

● وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ ﴾ [محمد : ٢٨] .

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ المشار إليه مَا سَبق ، والذى سبق هو قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الملائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ذَٰلِكَ بَأَنَّهُم اتَّبَعُواْ مَا أَسْخَطَ الله وَكَرِهُواْ رِضْوَانَهُ ﴾ [محمد : ٢٧] .

يعنى : فكيف تكون حالهم فى تلك اللَّحظات إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأَدْبَارَهم عند الموت .

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أى ضرب الوُجُوه والأَدْبار .

﴿ بأَنَّهُمْ ﴾ أى بِسَبَب فالباء للسَّببية .

---

(١) أخرجه مسلم (١٢١) (١٩٢) من حديث عمرو بن العاص عن النبى ﷺ بلفظ : « الإسلام يهدم ما كان قبله ، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها ، وأن الحج يهدم ما كان قبله » .

﴿ اتَّبَعُواْ مَا أَسْخَطَ اللهَ ﴾ أى الذى أسخط الله . فَصَارُوا يفعلون كل ما به سخط الله عز وجل من عقيدة أَوْ قولٍ أَوْ فِعل .

أَمَّا ما فيه رِضى الله : ﴿ وَكَرِهُواْ رِضْوَانَهُ ﴾ فصارت عاقبتهم تلك العاقبة الوخيمة أنهم عند الوفاة تضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم .

وفى هذه الآية من صفات الله : إثبات السَّخط والرِّضى .

﴿ مَا أَسْخَطَ اللهَ ﴾ فيه دَلِيلٌ على أن هناك أشياء تسخط الله .

﴿ كَرِهُواْ رِضْوَانَهُ ﴾ فيه دَلِيلٌ على أن هناك أشياء ترضى الله .

ففيه إثبات السُّخط وإثبات الرِّضى .

* * *

● وكذلك فى قوله : ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [الزخرف : ٥٥] .

﴿ آسَفُونَا ﴾ يعنى أَغْضَبُونا وأَسْخَطُونا .

﴿ لما ﴾ هنا شرطية . فعل الشرط فيها ﴿ آسَفُونَا ﴾ وجوابه ﴿ انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ ونحن نعلم أن الشَّرط غير المُشْرُوط بل هو بَائِن منه ، لأنك إن قلت : إن قام زيد قام زيد . لم يكن له فائدة لو كان ﴿ آسَفُونَا ﴾ هنا معناها : لما انتقمنا منهم . لم يكن له فائدة .

فتغاير الشَّرط والمَشْرُوط أمر معلوم فى العقول واللغات كلها .

فنأخذ من هذه الآية الثانية أيضًا : إثبات الغَضَب ونأخذ منها الرَّد على من فسروا السّخط والغَضَب بالانتقام لأَنَّ أهل التَّعطيل من الأشعرية وغيرهم يقولون : إن المراد بالسّخط والغَضَب : الانتقام ، أو إرادة الانتقام ولا يُفَسِّرون السّخط والغضب بصفة من صفات الله يتَّصف بها هو نفسه

فيقولون : غضبه أى انتقامه ، أو غضبه : إرادة انتقامه .

ويُفَسِّرون بالإرادة ؛ لأنهم يُثْبتون الإرادة .

فهم إما أن يفسروا الغضب بالمفعول المنفصل عن الله وهو الانتقام . أو بالإرادة لأنهم يقرون بها .

ولا يُفَسِّرونَه بأنَّه صفة ثابتة لله على وجه الحقيقة تليق به .

ونحن نقول لهم : بل السَّخط والغضب غير الانتقام ، والانتقام نتيجة الغضب والسّخط كما نقول : إنَّ الثَّواب نتيجة الرِّضى .

فالله سبحانه وتعالى يَسْخَط على هؤلاء القوم ويغضب عليهم ثم ينتقم منهم إذا قالوا إن العقل يمنع ثُبوت السّخط والغضب لله عز وجل .

فإننا نجيبهم بما سبق فى صفة الرِّضى لأنَّ الباب واحد .

ونقول : بل العقل يدل على السّخط والغَضَب ؛ فإن الانتقام من المجرمين وتعذيب الكافرين دليل على السّخط والغَضَب وليس دليلًا على الرِّضى ولا على انتفاء الغضب والسّخط .

ونقول : هذه الآية : ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [الزخرف : ٥٥] ترد عليكم لأنه جعل الانتقام غير الغَضَب ؛ لأن الشَّرط غير المَشْرُوط .

مسألة : بقى أن يقال ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا ﴾ نحن نعرف أن الأسف هو الحزن والنَّدم على شيء مضى على النَّادم لا يستطيع رفعه فهل يُوصف الله بالحزن والنَّدم ؟

الجواب : لا . إذًا كيف نُجيب عن الآية ؟

نقول : إنَّ الأسف فى اللُّغة له معنيان :

المعنى الأول : الأسف بمعنى الحزن مثل قول الله تعالى عن يعقوب : ﴿ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ ﴾ [يوسف : ٨٤] .

– ويطلق الأسف على الغضب . فيقال : أسف عليه يأسف بمعنى غَضِب عليه .

والمعنى الأول : مُمْتَنِعٌ بالنِّسبة لله عزَّ وجلَّ .

والثانى : مثبت لله ؛ لأنَّ الله تعالى وصف به نفسه : ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ .

الغضب ، والسّخط ، والرِّضى من الصِّفات الفِعْلية لأنها تتعلَّق بمشيئته .

* * *

● **وقوله** : ﴿ وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ ﴾ [التوبة : ٤٦] .

يعنى بذلك المُنَافِقين الذين لم يخرجوا مع النبى ﷺ فى الغزوات ؛ لأن الله تعالى كره انبعاثهم لأن عملهم غير خالص له والله تَعَالى أغنى الشُّركاء عن الشِّرك ، ولأَنَّهم إذا خرجوا كانوا كما قال الله تعالى : ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً وَلَأَوْضَعُواْ خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ ﴾ [التوبة : ٤٧] .

وإذا كانو غير مُخْلِصين وكانوا مُفْسِدين فإنَّ الله سبحانه وتعالى يكره الفساد ويكره الشِّرك : فَـ ﴿ كَرِهَ الله انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ ﴾ يعنى جعل هممهم تنتقض عن الخروج للجهاد : ﴿ وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ [التوبة : ٤٦] .

قيل : يحتمل أن الله قال ذلك كونًا . ويحتمل أن بعضهم يقول لبعض : اقعد مع القاعدين .

منه فلان لم يخرج وفُلان لم يخرج ممن عذرهم الله عز وجل كالمريض والأَعمى والأعرج ويقولون : إذا قدم النَّبى ﷺ اعتذرنا إليه واستغفر لنا وكفانا .

ويمكن أن نقول : أننا نجمع بين القولين ، لأَنَّه إذا قيل لهم ذلك وقعدوا فهم ما قعدوا إلا بقول الله عز وجل .

وفى الآية هنا إثبات أن الله عزَّ وجل يَكْرَه . وهذا أيضًا ثابت فى الكتاب والسنة .

قال الله تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُواْ إِلَّاإِيَّاهُ ﴾ إلى قوله : ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سيِّئُه عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ [الإسراء : ٢٣-٣٨] .

وكما فى هذه الآية التى معنا: ﴿وَلَٰكِنْ كَرِهَ اللهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٤].

وقال النبى ﷺ : « إنَّ الله كَرِهَ لَكُم قِيلَ وَقَالَ »(١) .

فالكراهة ثابتة بالكتاب والسُّنة أنَّ الله تعالى يَكْره . وكراهة الله سبحانه وتعالى للشىء تكونُ للعمل كما فى الآية : ﴿ وَلَٰكِنْ كَرِهَ اللهُ انْبِعَاثَهُمْ ﴾ وكما فى قوله : ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ [الإسراء : ٣٨] .

وتكون أيضًا للعامل كما جاء فى الحديث : « إنَّ اللهَ تَعَالى إِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيل إِنِّى أَبْغَضُ فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ »(٢) .

فالله تعالى يبغض من يَسْتحق وما يستحقُّ البغض .

* * *

---

(١) رواه البخارى (٢٤٠٨) ، ومسلم (٥٩٣) (١٢) من حديث المغيرة بن شعبة رضى الله عنه .

(٢) رواه البخارى (٣٢٠٩) ، ومسلم (٢٦٣٧) (١٥٧) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه واللفظ له .

● وقوله : ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:٣].

﴿ كَبُرَ ﴾ بمعنى عظم . ﴿ مَقْتًا ﴾ : تمييز محوَّل عن الفاعل .

والمقت أشد البغض ، وفاعل كبر بعد أن حوِّل الفاعل إلى تمييز أن وما دخلت عليه فى قوله : ﴿ أَنْ تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ .

وهذه الآية تعليل للآية التى قبلها : ﴿ يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَالَا تَفْعَلُونَ كَبُر مَقْتًا عِنْدَ الله أَنْ تَقُولُواْ مَالَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف : ٢،٣] .

فإن هذا من أكبر الأمور أن يقول الإنسان مَا لَا يفعل .

ووجه ذلك أن يقال : إذا كنت تقول الشىء ولا تَفْعَله فأنت بين أمرين :

إمَّا كاذب فيما تقول ولكنك تُخَوِّف النَّاس ، فتقول لهم الشَّىء وليس كما قلت .

وإما أنك مستكبر عما تقول تأمر النَّاس به ولا تفعله وتنهى الناس عنه وتفعله .

* * *

● وهذه الآيات فيها إِثْبات صِفات متعددة : الرِّضى - والسّخط - والغَضَب - والكُرْه - والمَقْتُ . وكلها معانيها مُتَقاربة . لكن تختلف أحيانًا بالنوع لا بالحقيقة وإلا فإن السخط والغضب والمقت والكراهة والبغض كلها متقاربة المعنى لكن تختلف فى أنواعها شِدة وخفة فى هذا المعنى العام الذى يشمل جميعها . وقد ذكرنا الأدلة السَّمعية والعقلية على ثُبوت هذا الشَّىء .

الآداب المسلكية المستفادة من الإيمان بهذه الآيات :

● المبحث الثالث : ما نستفيده من الناحية المَسْلَكِيَّة :

نستفيد من هذه الآيات أنَّ كل شيء علَّق الله الكراهية به فإنه يجب علينا أن نبتعد عنه لئلا تُصِيبنا كراهة الله عز وجل وهذا هو مقتضى الطَّبيعة والفطرة . أَنَّ الإنسان يَبْتَعد عن كل ما يكرهه حبيبه .

أنت لو صادقت شخصًا مُصَادَقة صَادِقة لا يمكن أن تفعل ما يكرهه بل تنفر منه هكذا أيضًا إذا علمت أيها المؤمن بأَنَّ ربك يكره هذا الشَّيء فسوف تبتعد عنه ابتعادًا شاسعًا .

الذى يرضى بالعكس . إذا علمت أَنَّ هذا الشَّيء مِمَّا يَرْضَاهُ الله عز وجل فسوف تحرص عليه غاية الحِرْص وتقوم بكل وسيلة توصلك إلى رضى الله عز وجل .

* * *

إثبات اتصافه سبحانه وتعالى بالمجيء والإتيان في القرآن الكريم

٥٢ - ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ [البقرة : ٢١٠] .

٥٣ - وقوله : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ ﴾ [الأنعام : ١٥٨] .

٥٤ - ﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر : ٢١ ، ٢٢] .

٥٥ - ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴾ [الفرقان : ٢٥] .

الشـــرح

ثم قال المؤلف :

● وقوله : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ [البقرة : ٢١٠] .

قوله : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ ﴾ هل : استفهام بمعنى النَّفى يعنى « ما ينظرون » وكلما وجدت « إلَّا » بعد الاستفهام فالاستفهام يكون للنَّفى هذه قاعدة .

قال النبي عليه الصلاة والسلام : « هل أَنْتَ إِلَّا أصْبعٌ دَمِيت »[١] : أَي مَا أَنْت .

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ﴾ [الزخرف : ٦٦] أى ما ينظرون ومعنى ﴿ يَنْظُرُونَ ﴾ هنا يَنْتَظِرون ؛ لأنها لم تَتَعد بإلى فلو تعدّت بإلى لكان معناها النظر بالعين غالبًا .

أما إذا تعدت بنفسها فهى بمعنى « ينتظرون » أى ما ينتظر هؤلاء المكذبون إلا أن يأتيهم الله فى ظُلَلٍ من الغَمَام ، وذلك يوم القيامة يأْتِيهم الله فى ظُلل . و« فى » هنا بمعنى « مع » . فهى للمصاحبة وليست للظرفية قطعًا ، لأنها لو كانت للظرفية لكانت الظُّلل أَوْسَع من الله عزَّ وجل .

ومعلوم أن الله تعالى واسع عليم ولا يُحيط به شيء

فالمعنى ﴿ فِي ظُلَلٍ ﴾ أى مصحوبًا بها كما يقال : فلان فى القوم وليس فى وسطهم حتى ولو كان فى آخرهم ولكن مع القوم .

فـ ﴿ فِي ظُلَلٍ ﴾ أى مع الظُّلل ، فإنَّ الله عند نُزوله جلَّ وَعَلا للفَصْل بين عباده ﴿ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بالغَمَامِ ﴾ غمام أبيض ظلل عظيمة لمجيء الله تبارك وتعالى .

وقوله : ﴿ فِي ظُلَلٍ مِن الغَمَامِ ﴾ الغمام : قال العلماء أنَّه السّحاب الأبيض كما قال تعالى مُمْتَنًّا على بنى إسرائيل : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الغَمَامَ ﴾ [البقرة : ٥٧] لأن السَّحاب الأبيض غالبا يكون باردًا أَبْرَد من غيره .

---

(١) تمثل به النبي ﷺ فى بعض المشاهد وقد دَمِيت إصبعه . رواه البخارى (٢٨٠٢) ، ومسلم (١٧٩٦) (١١٢) من حديث جندب رضى الله عنه .

والسَّحاب الأبيض يُبْقى الجو مُسْتنيرًا بخلاف الأَسود والأَحمر فإنه تَحْصل به الظُّلمة .

وقوله : ﴿ وَالمَلاَئِكَة ﴾ الملائكة : بالرَّفع معطوف على لفظ الجلالة ﴿ الله ﴾ يعنى : أو تأتيهم الملائكة .

والملائكة : جَمْعُ مَالِك . ومالك مأخوذ من الألوكة وهى الرِّسالة ثم نقلت الهمزة من مكانها إلى ما بعد اللام فَصَارت ملئك ثمَّ حذفت الهمزة فصارت ملك هكذا يقول النحويون .

فنقول : الملائكة جمع ملك لكن إذا أردنا أن نعلل ونأتى بالأصل نأخذ ما سبق ذكره .

وقوله : ﴿ المَلاَئِكَة ﴾ تأتى يوم القيامة لأَنَّها تنزل فى الأرض ينزل اهل السَّماء الدُّنيا ثمَّ الثَّانية ثم الثَّالثة ثم الرَّابعة وهكذا .. إلى السابعة . يحيطون بالناس ، وهذا تحذير من هذا اليوم الذى يأتى على هذا الوجه فهو مَشْهَدٌ عظيم من مَشَاهد يوم القيامة يُحَذِّر الله به هؤلاء المكذِّبين .

* * *

● **وقوله** : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ﴾ [الأنعام : ١٥٨] .

نقول فى ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ ﴾ ما قُلْناه فى الآية السَّابقة : أى ما ينتظر هؤلاء إلَّا وَاحدة من هذه الأَحوال :

أولًا : ﴿ إِلَّا أَنْ تَأْتِيهمُ المَلاَئِكَةُ ﴾ أى لقبض أرواحهم ﴿ وَلَوْتَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الملاَئِكَةُ يضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيق ﴾ [الأنفال : ٥٠] .

ثانيًا : ﴿ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ ﴾ يوم القيامة للقضاء بينهم .

ثالثًا : ﴿ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ﴾ وهذه طلوع الشَّمس من مغربها فسَّرها بذلك النبى ﷺ(١) .

وإنَّما ذكر الله هذه الأحوال الثَّلاث ؛ لأن الملائكة إذا نزلت لقبض أَرْوَاحِهم لا تقبل منهم التَّوبة لقوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ ﴾ [النساء : ١٨] .

وكذلك أيضًا إذا طلعت الشَّمس من مغربها فإن التَّوبة لا تقبل وحينئذ لا يستطيعون خَلَاصًا مِمَّا هُم عليه . وذكر الحالة الثَّالثة بين الحالين لأنه وقت الجزاء وثمرة العَمَل فلا يَسْتَطِيعون التَّخلص مِمَّا عَمِلُوه فى تلك الحال

والغرض من هذه الآية والتى قبلها تحذير هؤلاء المكذبين من أَنْ يَفُوتهم الأَوَان ثمَّ لا يستطيعون الخَلَاصَ من أَعْمَالِهم .

* * *

● **وقوله** : ﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر : ٢١، ٢٢] .

﴿ كَلَّا ﴾ هنا للتنبيه مثل « إِلَّا » .

وقوله : ﴿ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾ هذا يوم القيامة ، وأَكَّد هذا الدَّك لعظمته لأَنَّها تدك الجبال والشِّعاب ، وكل شىء يُـدَكُّ حتى تكون كالأديم والأَديم هو الجلد : ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا

---

(١) رواه البخارى (٤٦٣٦) ، ومسلم (١٥٧) (٢٤٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون وذلك حين ﴿ لا ينفع نفسا إيمانها ﴾ ثم قرأ الآية » .

وَلَا أَمْتًا ﴾ [طه : ١٠٧ ، ١٠٨] ويحتمل أن يكون تكرار الدَّك تَأْسِيسًا لا تأكيدًا ويكون المعنى دَكًّا بعد دَك .

قال : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر : ٢٢] جاء رَبُّك يعنى يوم القيامة بعد أن تدك الأَرْضُ وتُسَوَّى ويُحْشَر النَّاس يأتى الله للقضاء بين عباده .

وقوله : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالمَلَكُ ﴾ الـ هنا للعموم . يعنى : وكل ملك فهى بمعنى كل يعنى الملائكة ينزلون فى الأرض ﴿ صَفًّا صَفًّا ﴾ أى صفًا من وراء صف كما جاء فى الحديث : « تَنْزِلُ ملائكة السَّماء الدُّنيا فَيُصَفُّون وَمِن وَرَائِهم مَلَائكة السَّماء الثَّانية ، وَمِن وَرَائِهم مَلائكة السَّماء الثَّالثة »(١) وهكذا .

* * *

● **وقوله :** ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴾ [الفرقان : ٢٥] .

يعنى : اذكر يوم تشقق السماء بالغمام .

وتَشَقَّق أَبْلَغ من تَنْشَق لأَنَّ ظاهرها تَشَقق يعنى شيئًا فشيئًا ويخرج هذا الغمام يَثُور ثَوران الدُّخان ينبعث شيئًا فشيئًا .

تشقق بالغمام : مثل مَا يُقَال : تنبت الأرض بالنَّبات : يعنى يخرج الغمام من السَّماء وَيثُور مُتَتَابِعًا وذلك لمجيء الله عزَّ وجلَّ للفصل بين عباده فهو يومٌ رَهيب عظيم .

---

(١) أورده الحافظ ابن كثير فى تفسيره (٣/٣١٦) من حديث ابن عباس موقوفًا عليه ومطولاً من رواية ابن أبى حاتم وابن جرير بنحوه ثم قال : مداره على علي بن زيد بن جدعان وفيه ضعف فى سياقاته غالبًا وفيه نكارة شديدة .

﴿ وَنُزِّلَ المَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا ﴾ ينزلون من السَّماوات شيئًا فشيئًا تنزل ملائكة السَّماء الدُّنيا ثم الثَّانية ثم الثَّالثة وهكذا ..

هذه الآية كما نُشاهد ليس فيها ذكر مَجىء الله ، لكن فيها الإشارة إلى ذلك ، لأَنَّ تشقق السَّماء بالغَمَام إنَّما يكون لمجىء الله بدليل الآيات السَّابقة .

* * *

● هذه الآيات التى معنا وهى أربع آيات ساقها المؤلف لإثبات صفة من صفات الله وهى « المجىء والإتْيَان » . وأهل السُّنة والجماعة يُثْبِتُون أنَّ الله يأتى بنفسه هو لماذا ؟

لأنَّ الله تعالى ذكر ذلك عن نفسه وهو سُبحانه أَعْلَمُ بنفسه وبغيره وأَصْدقُ قِيلًا من غيره وأَحْسَنُ حَديثًا فكلامه مُشْتَمِلٌ على أكمل العلم والصِّدق والبيان وذكرنا أمرًا رَابعًا وهو القَصْدُ والإرادة . فالله عزَّ وجل يُريد أن يُبَيِّن لنا الحق وهو أَعْلَمُ وأَصْدَقُ وَأَحْسَنُ حديثًا .

فذكر الله عن نفسه فى هذه الآيات أنه يأتى ويجىء وأضاف الفعل إلى نفسه . فيكون الذى يَجىءُ وَيَأْتِى هو نفسه عزَّ وجل وهذا أَمْرٌ معلوم ومعنى مَفْهُوم .

لكن يبقى سؤال آخر : هل نعلم كَيْفِيَّة هذا المجىء ؟

الجواب : لا نعلمه ؛ لأَنَّ الله سبحانه وتعالى أخبرنا أَنَّه يجىء و لم يخبرنا كيف يجىء ، ولأَنَّ الكيفية لا تعلم إلا بالمُشَاهدة أو مُشَاهدة النَّظير أو الخبر الصَّادق عنه وكل هذا لا يوجد هنا .

ولأَنَّه إذا جهلت الذَّات جهلت الصِّفات : أى كيفيتها .

فالذات مَوْجُودةٌ وحَقِيقة ونعرفها ونعرف مَا مَعنى الذَّات ؟ وما معنى النَّفْس ؟

وكذلك نعرف ما معنى المجيء ؟ لكن كيفية الذَّات أو النَّفْس وكيفية المجيء هذا غير مَعْلوم لنا .

إذًا نُؤمن بأنَّ الله يأتى حقيقة وعلى كيفية تَلِيقُ به مجهولة لنا .

لو سألنا سائل : كيف يجيء ؟

قلنا كما قال الإمام مالك : « السُّؤَالُ عَن هَذَا بِدْعَة ، وَالمَجِيءُ مَعْلُومٌ وَالكَيْفُ مَجْهُولٌ » فعلينا أنْ نُسلِّم .

لو قال قائل : هل مجيئه كمجيء الملك أَو الرَّئيس أَوْ الأَمير ؟

قلنا : لا . لأن عندنا دليلاً فى ذلك : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ ﴾ [الشورى : ١١] .

أما الكيفية لو قال : كيف ؟

فنقول : الله أعلم ؛ لأَنَّه لابد لصفاته من كيفية لكنها مجهولة لنا .

مخالفوا أهل السُّنة والجماعة والرد عليهم :

● هل خَالَف أَهْلُ السُّنة والجماعة فى هذه الصِّفة ؟

الجواب : نعم ! خالفهم أهل التَّحريف فقالوا : إنَّ الله لا يأتى وكيف يأتى الله ؟ إذا أثبت أن الله يأتى ثبت أَنَّه جِسْم والأجسام متماثلة !!

نقول : هذه دعوى وقياس باطل ؛ لأَنَّه فى مقابلة النَّص . وكل شيء يعود إلى النَّص بالإبطال فهو باطل . لماذا ؟

لقوله تعالى : ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

فإذا قلت : إنَّ هذا الَّذى عَادَ إلى النَّص بالإبْطَال هو الحق صَار النَّص باطلًا ولابد .

وإن قلت : إن النَّص هو الحق صَارَ هذا باطلًا ولابد !

فنقول : هذه الدَّعوى التى ذكرتم تَعُودُ إلى النَّص بالإبطال فتكون باطلة .

ثانيًا : نقول لهم : ما المانع من أن يأتى الله تعالى بنفسه على الكيفية التى يُرِيدُها ؟ هل هناك مانع ؟!

جـ : ليس هناك مانع .

يقولون : إنك إذا أثبت ذلك فأنت مُمَثِّل . نقول هذا خطأ . فإننا نعلم أن المجىء والإتْيَان يختلف حتى بالنِّسبة للمخلوق :

الإنسان النَّشيط الذى يأتى ويَضْرب بقدمه الأرض من نَشَاطه – لكنه ليس يمشى مرحًا ، وإن شئت فقل إنه يمشى مرحًا – هل هذا كالإنسان الذى يَمْشى على عَصَا ويَنْقُل رِجْلًا بعد تَعَب لا ينقل رجلًا من مكانها إلا بعد تعب .

والإتيانُ يختلف من جهة أخرى فإتيانُ إنْسان مثلًا من كُبَراءِ البَلَد أو من وُلَاةِ الأُمُور ليس كإتْيان إنسان فَقِير لا يُحْتَفَى به .

إذًا : فالإتيان مختلف فى حقيقته وفى آثاره ، وفى التَّأَهُّب له بالنِّسبة للمخلوق فكيف بالنِّسبة للخالق .

ماذا يقولون فى ﴿ يَأْتِى رَبُّك ﴾ ؟

يقولون : يأتى أمر ربك .

فنقول : هذا لا يستقيم . فيقول : هذا يستقيم ؛ لأَنَّ الله تعالى قال : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ الله فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل : ١] . فيجب أن نفسر كل إتيان أضافه الله إلى نفسه بهذه الآية . ونقول المراد : أَتَى أَمرُ الله .

نقول : إن هذا الدَّليل الذى استْدللت به هو دليلٍ عليك وليس لك . لو كان الله تعالى يُريد أَمْره فى الآيات الأخرى لقال : « أَمْره » ما الذى يَمْنَعه أن يقول أمره ؟

فلما أراد الأمر عبَّر بالأَمْر . وهذا فى الواقع دَلِيلٌ عليك لأَنَّ الآيات الأخرى ليس فيها إجمال حتى نقول إنَّها بينت بهذه الآية .

الآيات الأخرى واضحة وفيها تَقْسِيمٌ يمنع إرادة المجاز : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ المَلاَئِكَةُ أَوْ يَأْتِى رَبُّكَ أَوْ يَأْتِى بَعْضُ آيات رَبّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]. هل يستقيم لشخص أن يقول : ﴿ يَأْتِىَ رَبُّكَ ﴾ أَى أَمْرُه .

﴿ تَأْتِيَهُمُ المَلاَئِكَة ﴾ يَعْنى الملائكة . ﴿ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ آيَات رَبّكَ ﴾ يقولون : البعض يأتى . انظر كيف التَّحريف !!

إذًا : آية فيها ثلاثة أُمور : أَمْران يُحملان على مَا يَدُلُّ عليه اللَّفظ وواحد يخرج منهن . يعنى لو كانت الاثنتان مخرجتان من ظاهر اللفظ لقلنا يمكن الثَّالثة تبعهن .

لكن كيف تثبتون الحقيقة فى شيئين من الثَّلاثة وتنكرونه فى الثَّالث هذا لا شك أنه تحكم وردٌّ للدَّليل بالأهواء .

فنقول لهم : إذن يكون قوله تعالى : ﴿ أَتَى أَمْرُ اللهِ ﴾ [النحل : ١] فى الحقيقة حجة عليكم وليس لكم ولو كان الله تعالى يُريده لبيَّنه فى كل الآيات حتى لا يَحْصُل اشتباه وَلَبْسٌ .

فإذا قال قائل : إنَّ الله تَعَالى أَحْيانًا يأتى بالعَذَاب فهل تقولون إنَّ هذا الإتيان إتْيَانُ الله حقيقة أو إتْيَان عَذَابه .

جـ : نقول : إتيان عذابه ، لأَنَّ معنى يأتى بالعذاب يعنى يعذبهم فيكون العذاب آتيًا منه لأَنَّ العذاب الذى يَنْزِل فى هؤلاء يَنْزل من الله عز وجل فيكون الآتى فى الحقيقة هو العذاب .

وهذا أسلوب معروف فى اللُّغة العربية تقول : « أَتَيْتُهم بِعَذاب » يعنى : عَذّبتهم . « أَتَيْتُهم بِمَالٍ » يعنى : أَعْطيتهم مالًا وإن لم آت أنا فتبيَّن الآن : أَنَّ الإتيان إذا قُيِّد بِحَرْف جر مثلًا فالمُراد به ذلك المجرور . وإذا أُطلق وَأُضِيف إلى الله بِدُون قَيْد فالمراد به إتيان الله حقيقة .

الآداب المسلكية المُسْتَفادة من الإيمان بِصِفَة المَجِىء والإتيان لله تعالى :

● ما هى الآداب المَسْلَكِيَّة من الإيمان بهذه الصِّفة ؟

الثَّمرة هى الخوف من هذا المقام وهذا المَشْهد العَظِيم الذى يأتى فيه الرَّب عزَّ وجل للفصل بين عباده وتنزل الملائكة تَتَنزَّل ملائكة كل سماء تُحيط بالخلائق ولا يبقى أَمَامك مشهد إلا الرَّب عزَّ وجل والمخلوقات كلها ، فإن عملت خيرًا جُوزيت به وإن عملت سِوى ذَلك فإنَّك ستجزى به كما قال النَّبى عليه الصَّلاة والسلام : « إِنَّ الإِنْسَان يَخْلُو بِهِ اللهُ عَزَّ وَجل فَيَنْظُر أَيْمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ وَيَنْظُر أَشْأَمَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّم ، وَيَنْظُر تِلْقَاءَ

وَجْهِه فَلَا يَرَى إِلَّا النَّار تِلْقَاءَ وَجْهِهِ فَاتقُواْ النَّارَ وَلَوْ بِشِقِ تَمْرَة »[1] .

فالإيمان بمثل هذه الأَشياء العظيمة لا شك أَنَّه يُوَلِّد للإنسان رَهْبَة وخوفًا من الله سُبحانه وتعالى .

* * *

(١) رواه البخارى (٦٥٣٩) ، ومسلم (١٠١٦) (٦٧) من حديث عدى بن حاتم رضى الله عنه .

إثبات صفة الوجه لله سبحانه فى القرآن الكريم

٥٦ - ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٢٧] .

٥٧ - ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص : ٨٨] .

الشـــرح

قال المؤلف :

● **وقوله** : ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٢٧].

هذه مَعْطُوفة على قوله تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ [الرحمن : ٢٧] .

ولهذا قال بعض السَّلف : « يَنْبَغِي إِذَا قَرَأْتَ : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ أَنْ تَصِلَهَا بقوله : ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ حتى يتبيَّن لك نَقْص المخلوق ، وكمال الخالق وذلك للتَّقابل هذا فناء وهذا بقاء : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّك ذُو الجَلَالِ وَالإِكْرَام ﴾ [الرحمن : ٢٧] .

قوله تعالى : ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ أى لا يفنى . والوجْه معناه معلوم لكن كيفيته مجهولة لا نعلم كيف وجه الله عزَّ وجلَّ كسائر صِفاته لكننا نؤمن بأنَّ له وجهًا موصوفًا بالجلال والإكرام ، ومَوْصُوفًا بالبَهاء والعَظَمة والنُّور العظيم . حتى قال النبى عليه الصَّلاة والسلام : « حِجَابُه النُّور لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَت سُبُحَاتُ وَجْهِه مَا انْتَهى إِليه بَصَره مِن خَلْقِه »(١) .

---

(١) رواه مسلم (١٧٩) (٢٩٣) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

« سُبُحَاتُ وَجْهه » : يعنى بهاؤه وعظمته وجلاله ونوره .

« مَا انْتَهَى إليه بَصَره مِن خلقه » وبصره ينتهى إلى كل شىء ، وعليه فلو كشف هذا الحجاب - حجاب النُّور عن وجهه - لاحترق كل شىء .

لهذا نقول : هذا الوجه وَجْه عظيم لا يمكن أبدًا أن يُمَاثل أَوْجه المخلوقات .

وبناء على هذا نقول : أنَّنا نُثْبت أن لله وَجْهًا ونأخذه من ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ ونقول : بأن هذا الوجه لا يُماثل أَوْجه المخلوقين لقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : ١١] نُثْبت أَنَّنا نَجْهل كيفية هذا الوجه لقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٠] ونحن لم يُعْلِمنا الله عزَّ وجلَّ عن كَيْفِيَّة وَجْهه . إذًا : لم يشأ أن يعلمنا إياها ولو شاء أن يُعلمنا إيَّاها لعلمنا إياها ، فلما كان لم يُعْلِمنا إيَّاها عَلِمْنا أَنَّه لم يَشأ فعلمنا أنَّنا لا نحيط بها علما لقوله : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] .

وعلى هذا فلا يمكن أَن نعلم كَيْفِية وَجْه الله سبحانه وتعالى ، فإن حاول أحد أن يَتَصور هذه الكيفية بِقَلْبه أو أن يَتَحدَّث عنها بِلِسَانه قلنا إِنَّك مُبْتدع ضال قائل على الله مَا لا تَعْلم ، وقد حرَّم الله علينا أن نقول عليه ما لا نعلم : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٣] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ [الإسراء : ٣٦] .

وهنا قال : ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ [الرحمن : ٢٧] أَضَاف الرُّبوبية إلى محمد ﷺ ، وهذه الرُّبوبية أَخَصُّ ما يكون من أنواع الرُّبوبية ؛ لأن الرُّبوبية عامَّة وخَاصّة . والخاصَّة خاصّة أَخص ، وخاصَّة فوق ذلك يعنى فى العموم والشُّمول وإمَّا فى الأَفْضَلية والأهمية .

فالرُّبوبية الأَخَصُّ أَفْضل بلا شك .

قال : ﴿ ذُو الجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٢٧] .

﴿ ذُو ﴾ صفة لوجه . والدليل الرفع ، ولو كانت صفة للرب لقال « ذى الجلال » كما قال فى نفس السورة : ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِى الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٧٨] فلما قال : « ذُو الجَلَالِ » علمنا أَنَّه وَصْفٌ للوجه .

﴿ الجَلَال ﴾ معناه العَظَمة والسُّلطان .

﴿ الإِكْرَام ﴾ : هى مصدر من أكرم صالحة للمكرِم والمكرَم .

فالله سبحانه وتعالى مكرَم ، وإكرامه تعالى القيام بطاعته .

ومُكْرِم لمن يَسْتَحِقُّ الإِكرام من خلقه فهو لجلاله وكمال سلطانه وعظمته أهل لأن يكرم ويُثْنى عليه سبحانه وتَعَالى وإكرام كل أحد بحسبه . يأتى إليك إنسان من أَقارِبك فَتُقَدِّم إليه طَعَامًا عَاديًا . ويأتى إليك نَفَرٌ لهم جَاهٌ وَشَرَفٌ فتقدِّم لهم مَا يَلِيق بهم .

إكرام الله عز وجل ليس كهذا بل أن تقدِّره حقَّ قَدْره وأن تُعظِّمه حقّ تَعْظِيمه لا لاحتياجه إلى إكرامك ، ولكن لِيَمُنَّ عليك بالجزاء .

* * *

● **وقوله** : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [القصص : ٨٨] .

ما معنى قوله : ﴿ كُلّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [القصص : ٨٨] ؟

نقول أحسن مَا يُفَسَّر به القرآن القرآن .

﴿ كُلّ شَيْءٍ هَالِكٌ ﴾ يوازى ﴿ كُلّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ .

﴿ إِلَّا وَجْهَه ﴾ تُوازى ﴿ ويَبقى وَجْهُ رَبِّك ذُو الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ ﴾ .

فالمعنى : كل شىء فان وزَائل إِلَّا وَجْهُ الله عز وجل فإنَّه بَاق ولهذا قال : ﴿ لَهُ الحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص : ٨٨] فهو الحكم البَاقى الذى يَرْجع إليه النَّاس ليحكم بينهم . وقيل فى معنى الآية : ﴿ كُلّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ أى إِلَّا مَا أُريد به وجهه .

قالوا : لأَنَّ سِياق الآية يَدلُّ على ذلك : ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلٰهاً آخَرَ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ كُلّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص : ٨٨] كأَنَّه يقول : لا تَدْعُ مع الله إلهًا آخر فتشرك به ، لأَنَّ عملك وإشراكك تَالِفٌ إِلَّا ما أَخْلَصْته لوجه الله ، فإنه يبقى لأَنَّ العملَ الصَّالح له ثَواب باقى لا يَفْنَى فى جنات النَّعيم . ولكن المعنى الأول أَسد وأَقوى ، وعلى طريقه من يقول بجواز استعمال المُشْتَرك فى معنييه نقول : يمكن أن نحمل الآية على المَعْنَيَيْن إِذْ لا مُنَافاة بينهما فتحمل على هذا وهذا فيقال : كل شىء يفنى إلا وجه الله عزَّ وجلَّ ، وكل شىء من الأَعمال يذهب هباءً إِلَّا ما أُريد به وجه الله . على أى التَّقديرين ففى الآية دَلِيلٌ على ثُبوت الوجه لله ، وأن الله سبحانه وتعالى له موصوف بالجلال والإكرام .

مُناقشة : قلنا المراد بالوجه : وَجْهُ الله حقًا وهو وَجْهٌ ثَابت له على وجه الحقيقة لا يُماثل أَوْجُه المخلوقين ، لأَنَّ هذا هو ظاهر اللَّفظ ولا يمنع منه

العقل ، ومن له وجه بلا شك فهو أكمل مِمَّن ليس له .

فالوجه من الكمال ، والله سبحانه وتعالى جميل يحبُّ الجمال ، فالوجه ثابت لله تعالى بمقتضى النَّص وكذلك بمقتضى العقل لأنَّه من صفات الكمال .

من أى الصِّفات هو ؟

من الصِّفات الذَّاتية الخَبرية التى مُسَمَّاها بالنِّسبة إلينا أبعاض وأجزاء ولا نقول من الصِّفات الذَّاتية المعنوية ، ولو قلَنا بذلك لكُنَّا نوافق المحرفين . بل نقول : هى صِفات ذَاتية خَبَرية ولكن بالنِّسبة إلى الله لا نقول أنها بعض من الله أو جزء من الله لأن ذلك يوهم نقصًا لله سبحانه وتعالى .

● **مخالفوا أهل السُّنة والجماعة والرَّد عليهم :**

مسألة : هل أجمعت الأمة الإسلامية على هذا التَّفسير ؟

الجواب : لا . فإن أهل التَّحريف أبو إلا أن يَسْلكوا الطَّريق التى هم عليها من تحريف الكلم عن مَوَاضِعه وقالوا : لا يمكن أن يكون لله وجه وَحَاشَاه من أن يكون له وجه سبحان من ينزه عن الأَبْعَاض والأَغْراض والأَعْرَاض .

قالوا : المراد بالوجه فى الآية : الثَّواب . كل شىء يفنى إلا ثواب الله . ففسروا الوجه الذى هو صفة كمال فسَّروه بشىء مخلوق بائن عن الله قابل للعدم والوجود فهو حَادِثٌ بعد أن لم يكن وجائز أن يرتفع لولا وَعْدُ الله ببقائه لكان من حيث العقل جائزًا أن يرتفع - أعنى الثَّواب - فهل تقولون الآن : إنَّ وجه الله الذى وصف الله به نفسه ؟

هل تقولون أنه من باب الممكن أو من باب الوَاجِب ؟

إذا فسروا بالثَّواب صار من باب الممكن الذى يجوز وجوده وعدمه

ولكن نقول : كيف والله يقول : ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٢٧] ؟

ثم نقول : هو من الممكن لا . بل هو من الوَاجِب أَزَلًا وَأَبَدًا .

ثم نقول : يَرُدُّ قولكم :

أولًا : إنه مخالف لظاهر اللَّفظ فإنَّ ظاهر اللَّفظ أَنَّ هذا وجه خاص وليس هو الثَّواب .

ثانيًا : أنه مخالف لإجماع السَّلف فما من السَّلف أَحَدٌ قال إنَّ المراد بالوجه الثَّواب وهذه كتبهم بين أيدينا مَزْبُورة مَحْفُوظة . أخرجوا لنا نصًّا عن الصَّحابة أو عن أئمة التَّابعين ومن تبعهم بإحسان أن فَسَّروا هذا التَّفسير لن يجدوا إلى ذلك سبيلًا أبدًا .

ثالثًا : هل يمكن أن يُوصف الثَّواب بهذه الصِّفات العَظيمة : ﴿ ذُو الجَلَال وَالإِكْرَام ﴾ ؟ فهذا لا يمكن . لو قلنا مثلًا جزاء المُتَّقِين ذُو جلال وإكرام فهذا لا يَجُوز أبدًا . والله تعالى وَصَفَ هذا الوجه بأنه ذو الجلال والإكرام .

رابعًا : نقول : ما تقولون في قول الرَّسول ﷺ : « حِجَابُه النُّور لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَت سبحاتُ وَجْهِه مَا انْتَهَى إِلَيْه بَصَرُه مِن خَلْقه »[1] .

فهل الثَّواب له هذا النُّور الذي يحرق ما انتهى إليه بَصَر الله من الخلق ؟

أبدًا ولا يمكن . وبهذا عرفنا بطلان قولهم وأَنَّه قول باطل وأَنَّ الواجب علينا أن نُفَسِّر هذا الوجه بما أَرَادَهُ الله به وهو : وجه قَائِمٌ به تبارك وتعالى مَوْصُوفٌ بالجَلَال والإكرام .

---

(١) رواه مسلم (١٧٩) (٢٩٣) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

مسألة : فإن قلت : هل كل ما جاء من كلمة الوجه مُضَافًا إلى الله يُراد به وجه الله الذى هو صفته ؟

الجواب : هذا هو الأصل كما فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ [الأنعام : ٥٢] . ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِن نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ [الليل : ١٩-٢١] وما أَشْبَهَها من الآيات .

فالأَصْلُ أن المراد بالوَجه : وَجْهُ الله عزَّ وجل الذى هو صِفة من صفاته لكن هناك كلمة اختلف المُفسِّرون فيها وهى قوله تعالى : ﴿ ولله المَشْرِقُ وَالمغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ ﴾ [البقرة : ١١٥] .

﴿ أَيْنَمَا تُوَلُّوا ﴾ : يعنى إلى أى مكان تولوا وجوهكم .

﴿ فَثَمَّ ﴾ : أى فهناك وجه الله .

– فمنهم من قال : إنَّ الوجه بمعنى الجهة لقوله تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيها ﴾ [البقرة : ١٤٨] فالمراد بالوجه الجهة . أى فثمَّ جهة الله . أى فثم الجهة التى يقبل الله صَلاتكم إليها .

قالوا : لأنَّها نزلت فى حال السَّفر . إذا صلَّى الإنسان النَّافلة فإنَّه يُصلِّى حيث كان وجهه ، أو إذا اشتبهت القبلة فإنه يتحرى ويصلى حيث كان وجهه ولكن الصَّحيح أن المراد بالوجه هنا وجه الله الحقيقى إلى أى جهة تَتَوَجَّهُون فثمَّ وَجْهُ الله سبحانه وتعالى ، لأَنَّ الله مُحيطٌ بكل شيء ولأَنَّه ثبت عن النَّبى ﷺ أَنَّ المُصَلِّى إذا قام يصلى فإنَّ الله قِبَل وَجْهه ولهذا نَهى أَن يَبْصُق أمام وجهه لأَنَّ الله قِبَل وَجْهه(١) فإذا صليت فى مكان لا تدرى أين القبلة

(١) رواه البخارى (٧٥٣) ، ومسلم (٥٤٧) (٥٠) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما .

واجتهدت وتحرَّيت وَصلَّيت وَصَارَت القِبلة فى الواقع خلفك فالله يكون قبل وَجْهِك حتى فى هذه الحال .

وهذا معنى صحيح موافق لِظَاهر الآية والمعنى الأول لا يُخَالِفُه فى الواقع .

إذا قلنا : فثمَّ جهة الله وكان هناك دَلِيلٌ سَوَاءٌ كان هذا الدَّليل تفسير الآية الثانية فى الوجه الثَّانى أو كان الدَّليل ما جاءت به السُّنة فإنك إذا توجهت إلى الله فى صلاتك فهى جهة الله التى يقبل الله صَلاتك إليها فثم أيضًا وجه الله حقًا .

وحينئذ يكون المعنيان لا يَتَنَافَيَان .

واعلم أن هذا الوجه العظيم المَوْصُوف بالجلال والإكرام وجه لا يمكن الإحاطة به وَصْفًا ولا يمكن الإحاطة به تَصَوّرًا بل كل شيء تُقَدِّره فإنَّ الله تعالى فوق ذلك وأعظم كما قال تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٠].

ما المراد بالوَجْه فى قوله : ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [القصص : ٨٨] .

إنْ قلت : المراد بالوجه الذَّات فيخشى أن تكون حرَّفت ، وإن أَرَدْت بالوَجه نفس الصِّفة أيضًا وقعت فى محظور – وهو مَا ذَهب إليه بعض من لا يُقَدِّرُون الله حقَّ قَدْره حيث قالوا : إنَّ الله يَفْنى إلَّا وجهه – فماذا تَصْنع ؟

أقول : إن أردت بقولك : إلَّا ذاته يعنى إنَّ الله تعالى يبقى هو نفسه ذاته مع إثبات الوجه لله فهذا صَحِيحٌ ، ويكون هنا عبَّر بالوجه عن الذَّات لمن له وجه .

وإن أردت بقولك : « ذَاته » أنَّ الوجه عبارة عن الذَّات بدون إثبات

الوجه فهذا تحريف وغير مَقْبُول وعليه فنقول : ﴿ إِلَّا وَجْهَه ﴾ أى إلَّا ذَاته المُتَّصِفة بالوَجه وهذا ليس فيه شىء ؛ لأَنَّ الفرق بين هذا وبين أهل التَّحريف أن هؤلاء يقولون : إنَّ المراد بالوجه الذَّات ولا وجه له ، ونحن نقول : المراد بالوجه الذَّات لأَنَّ له وجهًا فعبِّر به عن الذَّات .

* * *

إثباتُ صِفَةُ اليَدَيْن لله تعالىٰ فى القرآن الكريم

٥٨ - وقوله : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص : ٧٥] .

٥٩ - وقوله : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ [المائدة : ٦٤] .

الشــــرح

ثم انتقل المؤلف إلى صفة أخرى يُؤْمن بها أهل السُّنَّة والجماعة وهى : صِفة اليَدَين لله سبحانه وتعالىٰ . حيث قال :

● **وقوله** : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص : **٧٥**] .

﴿ مَا مَنَعَكَ ﴾ الخطاب لإبليس . و﴿ ما ﴾ استفهام للتَّوبيخ :

يعنى : أَىّ شىء مَنَعَك أن تسجد .

وقوله : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ ولم يَقُل : « لمن خلقت » ؛ لأن المراد هنا آدم باعتبار وصفه الذى لم يشركه أحد منه . وهو خَلْقُ الله إِيَّاه بيده .

ولهذا أَراد إبليس التَّحقير قال : ﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ [الإسراء : ٦١] حيث أَراد نفس الشَّخص بقطع النَّظر عَمَّا لَهُ من صفة الكمال .

ونحن قد قرَّرنا قبل ذلك أَنَّه إذا عُبِّر بـ « ما » عما يَعْقِل فإنَّه يلاحظ فيه معنى الصِّفة لا معنى العين والشَّخص ومنه قوله تعالى : ﴿ فَانكِحُوا۟

مَا طَابَ لَكُم مِنَ النِّسَاءِ ﴾ [النساء : ٣] ولم يَقُل « مَنْ » لأنَّه ليس المُراد عين هذه المرأة ولكن المراد الصفة فهنا قال : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ ﴾ أى هذا الموصوف العظيم الذى أكرمته بِأَنَّنى خَلَقْتُه بيدى ولم يقصد لمن خَلَقْت أى لهذا الأدمى .

وقوله : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ هى كقول القائل : بَرَيْتُ بالقلم . والقلم آلة البرى وتقول : صَنَعْتُ هذا بيدى ، فاليد هنا آلة الصُّنع .

﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ : يعنى أَنَّ الله عز وجل خلق آدم بِيَدِه . وهنا قال : ﴿ بِيَدَىَّ ﴾ وهى صيغة تَثْنية وحُذِفَت النُّون من التَّثنية من أجل الإضافة كما يُحْذف التَّنوين . ولهذا قال الشَّاعر :

كأنى تَنْوينٌ وأَنْتَ إضَافةٌ فأَيْن تَرانى لا تَحلُّ مَكَانى

يعنى ما نجتمع أنا وإياك بمكان ، كما أن التَّنوين والإضافة لا تجتمعان .

نحن عندما نعرب المُثَنَّى وجمع المذكر السَّالم نقول : النون عِوَض عن التَّنوين فى الاسم المفرد ، والعِوَض له حكم المعَّوض ، فكما أن التَّنوين يحذف عند الإضافة فنون التَّثنية والجمع تحذف عند الإضافة .

فى هذه الآية توبيخ إبليس فى تَرْكِه السُّجود لما خلقه الله بيده وهو آدم عليه الصَّلاة والسَّلام .

وفيها : إثبات صِفة الخلق : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ ﴾ .

وفيها : إثبات اليَدَيْن لله سبحانه وتعالىٰ .

اليدين اللَّتين بهما يَفْعل كالخلق هنا .

اليدين اللتين بهما يَقْبض : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا

﴿ قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [الزمر : ٦٧] .

وبهما يَأْخذ . فإِنَّ الله تعالى يأخذ الصَّدقة فَيُرَبِّيها كما يُرَبى الإِنسان فَلوهُ .

وقوله : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ فيها أيضًا تشريف آدم عليه الصَّلاة والسلام حيث خلقه الله تعالى بيده . قال أهل العلم : « وكتب الله التَّوراة بيده ، وغَرَسَ جنَّة عَدن بِيَدِهِ » فهذه ثلاثة أشياء كلها كانت بيد الله تعالى ولعلنا بالمناسبة لا نَنْسَىٰ مَا مَرَّ من قول النَّبى عليه الصلاة والسلام : « إِنَّ الله خَلَقَ آدَم عَلَى صُورَتِه »[1] . وذكرنا أن أحد الوجهين الصَّحيحين فى تأويلها أنَّ الله خلق آدم على الصُّورة التى اختارها واعتنى بها ولهذا أَضافها الله إلى نفسه إِضافة تشريف وَتَكْرِيم كإضافة النَّاقة والبيت إلى الله ، والمَسَاجد إلى الله .

فإِذًا : يُؤْخذ من هذا أَنَّ الله سبحانه وتعالى شَرَّف آدم بكونه خلقه بيده ، وأَنَّه من أجل ذلك اسْتَحَقَّ أن تُؤْمر الملائكة بالسُّجود له .

* * *

● **قال : وقوله** : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ [**المائدة : ٦٤**] .

﴿ اليهود ﴾ : هم أتباع موسى عليه الصَّلاة والسلام . سمُّوا يهودًا : قيل : لأنهم قالوا : ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف : ١٥٦] .

وبناء على هذا فيكون الإسم عربيًا ، لأن هَاد ، يهود إذا رجع عربى .

---

(١) تقدم تخريجه ص (٧٨) .

وقيل : إن أصله يهوذا اسم أحد أولاد يعقوب ، واليهود من نسبوا إليه . لكن عند التَّعريب صارت الذَّال دَالًا فَقِيل يَهُود . وأيًّا كان لا يهُمُّنا أَنَّ أصله هذا أو هذا . ولكننا نعلم أن اليهود هم طائفة من بنى إسرائيل اتَّبعوا موسى عليه الصَّلاة والسَّلام . وهؤلاء اليهود من أَشدِّ الناس عُتوًا ونُفورًا ، لأَنَّ عُتُو فِرْعون وتَسَلُّطه عليهم جعل ذلك يَنْطَبع فى نُفُوسهم وصار فيهم العُتو على النَّاس بل وعَلَىٰ الخالق عزَّ وجلَّ .

فهم يصفون الله تعالىٰ بأوصاف العُيوب - قبَّحهم الله - وهم أهلها .

يقولون : ﴿ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ [المائدة : ٦٤] أَى محبوسة عن الإنفاق كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ [الإسراء : ٢٩] أى محبوسة عن الإنفاق . فهم يقولون : ﴿ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ يعنى مَحْبُوسة عن الإنفاق .

وقالوا : ﴿ إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ ﴾ [آل عمران : ١٨١] .

أما قولهم : إنَّ يد الله مغلولة ، فقالوا : نعم ! لولا أَنَّها مغلولة لكان النَّاس كلهم أغنياء ، فكَوْنُه يَجُود عَلَىٰ زيد ولا يَجُود على عمرو . هذا هو الغل وعدم الإنفاق !!

وقالوا : إنَّ الله فقير ؛ لأن الله قال : ﴿ مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ ﴾ [البقرة : ٢٤٥] فقالوا للرَّسول عليه الصَّلاة والسلام : يا محمد إن ربك افتقر . صار يَسْتَقْرِضُ مِنَّا . قَاتَلَهُم الله !!

وقالت اليهود أيضًا : إنَّ الله عاجز ، لأَنَّه حين خلق السمٰوات والأرض استراح يوم السَّبت وجعل العُطْلة محلّ عِيد فصار عِيدُهم يوم السَّبت . قاتلهم الله !!

هنا يقول الله عز وجل : ﴿ وَقَالَتِ اليَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَة ﴾ [المائدة : ٦٤] .

﴿ يد ﴾ : أفردوها لأَنَّ اليد الواحدة أقل عطاءً من اليدين الثّنتين ولهذا جاء الجواب بالتَّثنية والبَسْط فقال : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة : ٦٤] .

فذكر الله عز وجل أن هؤلاء اليهود لما وصفوا الله بهذا العيب عَاقَبهم الله بما قالوا . فقال : ﴿ غُلَّت أيديهم ﴾ [المائدة : ٦٤] أى مُنِعَت عن الإنفاق ، ولهذا كان اليهود أشدُّ النَّاس جمعًا للمال ومنعًا للعطاء ، فهم أبخل عِباد الله وأَشَدُّهم شُحًّا فى طلب المال ، ولا يمكن أَن يُنفقوا فلسًا إِلَّا وهم يَظنُّون أنهم سيكسبوا بَدَلَهُ دِرْهمًا ، ونَرَى نحن الآن لهم جمعيات كبيرة وعظيمة ، لكن هم يُريدون من وراء هذه الجمعيات والتَّبرعات أَكْثَرَ وَأَكْثَر يُريدون أن يُسَيْطروا عَلَى العالم .

فإذًا : لا تَقُلْ أيها الإنسان كيف نجمع بين قوله تعالى : ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ وبين الواقع اليوم بالنِّسبة لليهود ؟

نقول الآن : هؤلاء القوم يَبْذُلون ليربحوا أكثر . هذا هو مُرادهم !

﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ ﴾ أى طُرِدُوا وأُبْعِدُوا عن رحمة الله عز وجل لأَنَّ البلاء مُوَكَّل بالمَنطق فهم لما وَصَفوا الله بالإِمْسَاك طُرِدوا وأُبْعِدوا عن رَحْمته .

قيل لهم : إذا كان الله عز وجل كما قلتم لا ينفق فليمنعكُم رَحْمته حتى لا يُعْطِيكم من جُودِه فعُوقِبوا بأمرين :

١ – بتحويل الوَصْف إليهم بقوله : ﴿ غُلَّت أَيْدِيهِمْ ﴾ .

٢ – وبإلزامهم بمُقْتَضى قولهم بإِبْعَادِهم عن رحمة الله ، حتى لا يجدوا جُود الله وكرمه ، وفَضْله : ﴿ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ ﴾ الباء هنا للسَّببية :

أى بسبب . وعَلامة الباء التى للسَّببية أن يَصِحَّ أن يَلِيَها كَلمةُ « سبب » .

و« ما » هنا يَصِحُّ أن تكون مَصْدرية . ويَصِحُّ أن تكون مَوْصُولة .

فإن كانت مَوْصُولة فالعائد محذوف وتَقْديره بالَّذى قالوه ، وإن كانت مَصْدرية ، فالفعل يُحَوَّل إلى مصدر أى : بقولهم .

ثم أبطل الله سبحانه وتعالى دَعْوَاهُم فقال : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ .

﴿ بل ﴾ هنا للاضراب الإبْطَالى . وانظر كيف اختلف التَّعبير : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ ؛ لأَنَّ المقام مقام تَمَدُّح بالكرم والعَطَاءُ باليدين أكمل من العَطاء باليد الواحدة .

و﴿ مَبْسُوطتان ﴾ ضد قولهم : ﴿ مغلولة ﴾ فيد الله تعالى مَبْسُوطة واسعة كما قال النَّبى ﷺ : « يَدُ الله مَلْأَى سحَّاء – كثيرة العطاء – الليل والنهار . أَرَأَيْتم مَا أَنْفَقَ مُذْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ، فَإِنَّه لم يَغض مَا فِيه يَمِينِه »(١) .

مَنْ يُحْصِى ما أَنْفَق الله منذ خلق السَّماوات والأرض ؟

ما يحصيه أحد ! ومع ذلك لم يَغض ما فى يمينه . وهذا كقوله تعالى فى الحديث القدسى : « يَا عِبَادى ! لَو أَنَّ أَوَّلَكُم وَآخِرَكُم وَإِنْسَكُم وَجِنَّكُم قَامُوا فى صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِى فَأَعْطَيْتُ كُل إنسانٍ مَسْأَلَته مَا نَقَصَ ذَلك مِمَّا عِنْدِى إلَّا كما يَنقص المِخْيط إذا غُمِسَ فى البَحر »(٢) .

---

(١) رواه البخاري (٤٦٨٤) ومسلم (٩٩٣) (٣٧) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . سحاء : بمهملتين مثقلاً محدود . أى دائمة الصب . فتح البارى (١٣/٣٩٥) .

(٢) رواه مسلم (٢٥٧٧) (٥٥)

ولننظر إلى المخيط غُمِس فى البحر فإذا نَزَعْتُه لا ينقص البحر شيئًا أبدًا ومثل هذه الصِّيغة يُؤْتى بها للمُبَالغة فى عدم النَّقص ؛ لأنَّ عدم نقص البحر فى مثل هذه الصُّورة أَمْرٌ معلوم ، مُسْتحيل أَنَّ البحر ينقص فى هذا ، فمستحيل أيضًا أن الله عز وجل يَنْقُص مُلْكه إذا قام كل إنسان من الإنس والجن فقاموا وسأَلوا الله تعالىٰ فأعطى كل إنسان مَسْأَلته ما نَقَصَ ذلك من مُلْكه شيئًا .

لا تقل : نعم لا يَنْقُص من مُلْكه شيئًا لأنَّه انتقل من مُلْكِه إلى مُلْكِه لأَنَّه لا يمكن أن يكون هذا هو المُرَاد ، لأَنَّه لو كان هذا المراد لكان الكلام عَبَثًا وَلَغْوًا . لكن المعنى لو فرِض أن هذه العَطَايا العظيمة أعطيت على أنها خارجة عن مُلْك الله لم ينقص ذلك من مُلْكِه شيئًا . ولو كان المعنى هو الأوَّل لم يكن فيه فائدة . فمعروف أَنَّه لو كان عندك عَشْرة ريالات أخرجتها من الدّرج الأيمن إلى الدّرج الأيسر وقال إنسان : إن مَالَكَ لم ينقص لَقِيلَ هذا كَلَام مَجنون أم كلام عاقل ؟!

أحد يتصور أو يتوهم أن هذا ينقص ؟!

المهم : أن المعنى لو أَنَّ هذا الَّذى أعطيه السَّائلين خارج عن مُلْكِه فإِنَّه لا ينقصه سبحانه وتعالى .

إذًا : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ للإنفاق لَيْلًا ونهارًا ، وما أَعْظم ما يَجْرى من إنفاق الله عزَّ وجل !!؟

وليس إنفاق الله تعالى بما نحصل من الدَّراهم ، بل كُلُّ مَا بِنَا من نِعْمة فهو من الله تعالىٰ .

ذرَّات المطر من إنفاق الله علينا ، حَبَّاتُ النَّبات من إنفاق الله .

أفبعد هذا يُقَال كما قالت اليهود - عليهم لعائن الله -: ﴿ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ ؟!! لا والله ! بل يُقال إنَّ يدى الله عز وجل مَبْسُوطتان بالعَطَاء والنِّعم التى لا تُعَدُّ ولا تُحْصَىٰ .

لكن إذا قالوا : لماذا أَعْطَىٰ زَيْدًا ولم يُعْط عمرو ؟

قلنا : لأَنَّ الله تعالى له السُّلطان المُطْلق والحكمة البالغة ولهذا قال ردًّا على شُبهتهم : ﴿ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ [المائدة : ٦٤] فمن الناس من يُعطيه كثيرًا ، ومنهم من يُعْطيه قليلًا ، ومنهم من يُعْطِيه وَسَطًا تبعًا لما تقتضيه الحكمة على أَنَّ هذا الذى أعطى قليلًا هل هو مَحْرُوم من فضل الله وعطائه من جهة أخرى أم لا ؟

أبدًا ؛ فالله أعطاه صِحَّة وسَمْعًا وبَصَرًا وعقلًا وغير ذلك من النِّعم التى لا تُحْصىٰ ، ولكن لطُغْيان اليهود وعُدْوانهم ، وأنهم لم ينزهوا الله عن صفات العَيْب قالوا : ﴿ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ .

فالآيتان السَّابقتان فيهما إثبات صفة اليدين لله عزَّ وجل .

ولكن قد يقول قائل : إنَّ لله أكثر من يَدَيْن لقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا ﴾ [يسٓ : ٧١] . فأيدينا هنا جمع ، فلنأخذ بهذا الجمع لأننا إذا أخذنا بالجمع أَخذنا بالمُثَنَّى وَزِيادة ، وإذا أخذنا بالمثنى أَخذنا بالإفراد وزيادة ، لأَنَّ فيه آيات فيها الإفراد : ﴿ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [المؤمنون : ٨٨]﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ [الملك : ١] وما أَشْبَهها فما هو الجواب ؟!

فالجواب : أن يقال : أَمَّا اليد التى جاءت بالإفراد ؛ فإنَّ المفرد المُضَاف يُفيد العُموم فيشمل كل ما ثَبت لله من يَد ؛ لأن الله تعالى يقول :

﴿ وَإن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصوهَا ﴾ [إبراهيم : ٣٤] . نعمة الله مُفرد مُضَاف فهى تشمل كثيرًا لقوله : ﴿ لَا تُحْصُوهَا ﴾ . إذًا : فما هى واحدة ولا ألف ولا مليون ولا ملايين .

﴿ يَدُ اللهِ ﴾ : نقول هذا المفرد لا يمنع التَّعدد إذا ثبت ؛ لأنَّ المفرد المُضَاف يُفيد العموم أما المُثَنَّىٰ والجمع فنقول : إن الله ليس له إلا يدين اثنتان كما ثبت ذلك فى الكتاب والسُّنة :

● **الكتاب** : ﴿ لِمَا خَلَقْت بِيَدَىَّ ﴾ [ص : ٧٥] . والمقام مقام تَشْريف ولو كان الله خلقه بأكثر من يد لَذَكَرَهُ ؛ لأَنَّه كلما ازدادت الصِّفة التى بها صَنَعَ الله هذا الشَّىء ازْدَادَ تعظيم هذا الشَّىء .

وأيضًا : فى سورة المائدة قال : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة : ٦٤] فى الرَّد على من قالوا : يَدُ الله بالإِفراد ، والمقام مقام يَقْتَضِى كثرة النِّعم ، وكلما كَثُرت وَسِيلةُ العَطَاء كَثُر العَطَاء فلو كان لله تعالىٰ أكثر من اثْنَتَيْن لذكرهما الله ؛ لأَنَّ العطاء باليد الواحدة عطاء ، فباليدين أكثر وأكمل من الواحدة وبالثَّلات لو قُدِّر كان أَكثر فلو كان لله تعالى أكثر من اثْنَتَيْن لذكرهما .

● **أَمَّا السُّنة** : فإن الرَّسول عليه الصلاة والسلام يقول : « يَطْوِىْ الله تعالىٰ السَّماوات بيمينه والأَرْض بِيده الأخرى »(١) .

ويقول ﷺ : « كِلْتَا يَدَيْه يَمِين »(٢) . ولم يذكر أَكْثر من اثْنتين .

● **وأجمع السَّلف** على أَنَّ لله يَدَيْن اثنتين فقط بدون زيادة .

---

(١) رواه البخارى (٤٨١٢) ، (٧٣٨٢) ، ومسلم (٢٧٨٧) (٢٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه بنحوه وفى الباب عن ابن عمر رضى الله عنهما عند البخارى (٧٤١٢) ومسلم (٢٧٨٨) (٢٤) .

(٢) رواه مسلم (١٨٢٧) (١٨) من حديث عبدالله بن عمرو رضى الله عنهما .

فعندنا النص من القرآن والسُّنة والإجماع على أنَّ لله تعالى يدين اثنتين كيف نجمع بين هذا وبين الجمع ﴿ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا ﴾ [يس : ٧١] فنقول : الجمع على أحد وجهين :

١ - فإما أَن نقول بما ذهب إليه بعض العلماء من أَنَّ أَقل الجمع اثنان ، وعليه فأَيدينا لا تدلُّ على أكثر من اثنتَين . يعنى : لا يلزم أَن تدلَّ على أكثر من اثنين . وحينئذ تُطَابق التَّثنية : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة : ٦٤] ولا إشكال فيه .

فإذا قلت : ما دليل قول هؤلاء أنَّ الجمع أَقلُّه اثنان ؟!

فالجواب : استمع : ﴿ إِن تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ [التحريم : ٤] وهما اثنتان : ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ وهذا جمع والمراد به قَلْبَان فقط لقوله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ ﴾ [الأحزاب : ٤] ولا لامرأة كذلك .

وقالوا أيضًا : اقرأ قول الله تعالى : ﴿ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُس ﴾ [النساء : ١١] وبماذا تَحْجِب الأُم من الثُّلث إلى السُّدس ؟

جـ : بأخوين . إذًا : « إخوة » جمع والمراد به اثنان .

جماعة الصَّلاة تَحْصُل باثْنَيْن ، ولكن جمهور أهل اللُّغة يقولون : إنَّ أقل الجمع ثلاثة وإنَّ خُرُوج الجمع عن الإثنين فى هذه النُّصوص لِسَبَب ، وإلَّا فإن أقل الجمع فى الأَصل ثلاثة .

إذًا : نحتاج إلى الجمع بين قوله : ﴿ لِمَا خَلَقْت بِيَدَىَّ ﴾ [ص : ٧٥] وقوله : ﴿ مِمّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا ﴾ [يس : ٧١] .

فيقال : إن المراد بهذا الجمع التَّعظيم . تعظيم هذه اليد وليس المُراد أَنَّ لله تعالى أكثر من اثْنَتَيْن ثم إنَّ المراد باليد هنا نفس الذَّات التى لها يد .

وقد قال الله تعالى : ﴿ ظَهَرَ الفَسَادُ فِى البَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاس ﴾ [الروم : ٤١] ، ومَا كَسَبت أَلْسُن النَّاس ، وأَعْين الناس وآذان الناس وأَرْجُل النَّاس يُؤَاخَذُونَ عليه ، لكن يُعَبَّر بمثل هذا التَّعبير عن الفاعل نفسه ولهذا نقول : إنَّ الأَنعام التى هى الإبل لم يَخْلُقُها الله تعالى بيده وفَرْقٌ بين قوله : ﴿ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا ﴾ وبَيْنَ قوله : ﴿ لِمَا خَلَقْت بِيَدَىَّ ﴾ فـ : ﴿ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا ﴾ كأنَّه قال مِمَّا عَمِلْنا ؛ لأَنَّ المراد باليد ذَاتُ الله التى لها يد . هذا هو الجمع .

ويَدُلُّ لهذا أيضًا : أَنَّه لما أُضِيفَت إلى « نا » . الدَّالة على الجمع صار الأَنسَب أَن نجمع لأَنَّ مَا أُضيف إلى مُتَعَدِّد فالأفصح فيه الجمع كما فى قوله : ﴿ إن تَتُوبَا إلَى الله فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبكُمَا ﴾ [التحريم : ٤] .

وبهذه الوجوه يَزُول الإشكال فى صفة اليد التى وَرَدَت بالإفراد والتَّثْنية والجمع .

فَعُرِفَ الآن : أن الجمع بين المفرد والتَّثنية سهل وهو لأن هذا مفرد مضاف فيعمّ أو يشمل كل ما ثبت لله من يد .

وأما بين التَّثنية والجمع : فمن وجهين :

أَحَدُهما : أَنَّه لا يُراد بالجمع حقيقة مَعْنَاه – وهو الثَّلاثة فأكثر – بل المراد به التَّعظيم كما قال الله تعالى : ﴿ إنَّا ﴾ ﴿ ونحن ﴾ ﴿ وقُلْنا ﴾ وما أَشبه ذلك ، وهو واحد لكن يقول هذا للتَّعظيم .

أو يقال : إن أقل الجمع اثنان . فلا يحصل هنا تَعارُض .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ﴾ [الذاريات : ٤٧] .

فالأَيْدُ هنا بمعنى القوة . فهى مَصْدر : آد يَئِيدُ بمعنى قَوِىَ(١) ، وليس المراد بالأَيْد صِفة الله . ولهذا ما أَضافها الله إلى نفسه ما قال : « بأيدينا » بل قال : ﴿ بأَيْدٍ ﴾ أى بقوة .

ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ [القلم : ٤٢] فإن لعلماء السَّلف فى قوله : ﴿ عَن سَاقٍ ﴾ قَوْلين :

القول الأَوَّل : أَنَّ المراد به الشِّدة .

والقول الثَّانى : أَنَّ المراد به سَاقُ الله عزَّ وجل .

– فمن نظر إلى سياق الآية مع حديث أبى سعيد(٢) قال : إنَّ المراد بالسَّاق هنا سَاقُ الله .

– ومن نظر إلى الآية بمُفْرَدِها قال : المراد بالسَّاق الشِّدة .

والمهم : أنَّ قوله : ﴿ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ﴾ لم تُضف إلى الله حتى يقال : إن من فسَّر الأيد بالقوة فقد حرَّف .

إذا قال قائل : أنتم تثبتون أن لله تعالى يدًا حقيقة ونحن لا نعلم من الأيد إلا أَيادى المخلوقين ، فيلزم من كلامكم تَشْبيه الخالق بالمخلوق ؟

الجواب : أن نقول : لا يلزم من إثبات اليد لله أن نمثل الخالق بالمخلوقين ؛ لأن إثبات اليد جاء فى القرآن والسُّنة وإجماع السَّلف ، ونفى مماثلة الخالق للمخلوقين يَدُلُّ عليه الشَّرع والعقل والحس :

(١) راجع : لسان العرب (١/١٨٨) أيد .

(٢) يشير إلى حديث أبى سعيد الخدرى الطويل فى الشفاعة وقد أخرجه البخارى (٧٤٣٩) ومسلم (١٨٣) (٣٠٢) .

● أَمَّا الشَّرع : فقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] .

● وأَمَّا العقل : فلا يمكن أن يُمَاثل الخالق المخلوق فى صفاته ؛ لأن هذا يُعَدُّ عيبا فى الخالق .

● وأما حسًّا : فكل إنسان يُشَاهد أَيْدى المخلوقات مُتَفَاوتة ومُتَبَاينة من كبير وصغير وضخم ودقيق ... إلخ .

وإن قال : نعم : هى متماثلة فى الأجسام ، ومُتَبَاينة !! فقد قامت عليه الحُجَّة فيلزم من تَبَاين أَيْدى المخلوقين وتفاوتهم اختلاف يد الله تعالىٰ عن أيدى المخلوقين وعدم مُمَاثَلَتِه لهم سبحانه وتعالى .

مُخَالِفُو أَهل السُّنة وَالجماعة :

خالف أَهل السُّنة والجماعة قوم وهم أَهل التَّعطيل من المُعْتزلة والجهمية والأشعرية ونحوهم . وقالوا : لا يمكن أَن نُثْبت لله يدًا حقيقية بل المُراد باليد أَمْرٌ مَعْنوى لا أَمْرٌ حَقِيقى .

قلنا : ما هو ؟

قالوا : المراد باليد « القوة » !! أَو المراد باليد « النِّعمة » لأَنَّ اليد تُطْلق فى اللُّغة العربية على القوة وعلى النِّعمة ففى الحديث الصَّحيح حديث النَّواس ابن سمعان الطَّويل : « أَنَّ الله يُوحِي إلِى عِيسى أَنِّى أَخْرجت عِبَادًا لِى لا يَدَانُ لِأَحَدٍ بِقِتَالِهم »[(١)] والمعنى : لا قوَّة لِأَحد بقتالهم . وهم يأجوج ومَأْجُوج .

وأَمَّا اليد بمعنى النِّعمة فكثير ومنه قول رَسُول قريش لأَبِى بكر : « لَوْلا يَدٌ لَكَ عِنْدى لَم أَجْزُكَ بِها لأَجَبْتُكَ » يعنى : نعمة .

(١) رواه مسلم (٢٩٣٧) (١١٠) .

وقول المُتَنَبِّى :

وَكَم لِظَلَام اللَّيْل عِنْدَك مِن يَدٍ   تُحَدِّثُ أَنَّ المَانَوِيَّة تَكْذِبُ(١)

والمانوية : فرقة من المَجُوس الَّذين يَقُولون : إِنَّ الظُّلمة تَخْلُق الشَّر ، والنُّور يَخْلُق الخير .

فالمتنبِّى يقول : إنَّك تُعْطى اللَّيل العَطايا الكثيرة التى تدلُّ على أنَّ المانوية تكذب ؛ لأنَّ لَيْلك يأتى بخير .

فالمراد بيد الله : النِّعمة وليس المراد باليد اليد الحقيقية لماذا ؟

– قال : لأَنَّك لو أَثْبَت لله يَدًا حقيقية لَزِمَ من ذلك التَّجسيم أن يكون الله تعالى جسمًا والأجسام مُتَمَاثلة وحينئذ تقع فيما نهى الله عنه فى قوله : ﴿ فَلَا تَضْرِبُواْ للهِ الْأَمْثَال ﴾ [النحل :٧٤] .

ونحن أسْعَد بالدَّليل منك أَيُّها المُثْبِتُ للحقيقة !!

نحن نقول : سبحان من تَنَزَّه عن الأَعْرَاض والأَبْعَاض والأَغْرَاض . لا تجد مثل هذه السَّجعة لا فى الكتاب ولا فى السُّنة ! ما جوابنا على هذا ؟

جوابنا على هذا من عِدَّة وجوه :

أَوَّلًا : أَنَّ تَفْسير اليد بالقوة أَو النِّعمة مُخَالف لظاهر اللَّفظ وما كان مُخَالفًا لظاهر اللَّفظ فهو مَرْدُود إلا بدليل .

ثانيًا : أَنَّه مُخَالف لإجماع السَّلف حيث أَنهم كُلُّهم مُجْمِعُون على أَنَّ المراد باليد « اليد الحقيقية » لو قال لك قائل : هات لى كلمة واحدة عن أبى بكر ، أو عمر ، أو عثمان ، أو على تقول : إنَّ المراد بيد الله اليد الحقيقيَّة ؟!

(١) ديوان المتنبى بشرح أبى البقاء العكبرى (١٧٨/١) من قصيدة يمدح بها كافورًا سنة ٣٤٦ هـ .

وعنده : « تخبر » بدل « تحدِّث » .

أقول له : ائت لى بكلمة واحدة عن أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وغيرهم من الصَّحابة والأئمة مِن بَعْدِهم تقول : إنَّ المراد باليد القُوَّة أو النِّعمة فلا يستطيع أن يأتى بذلك .

إذًا : فلو كان عندهم معنًى يُخَالف لظاهر اللَّفظ لكانوا يقولون به .

فلمَّا لم يَقُولوا به عُلِمَ أنهم أَخَذُوا بظاهر اللَّفظ وأَجْمَعُوا عليه .

وَحِينئذ لا يمكنه أَن يَرُد ما ادَّعيناه من الإجماع لأنَّه لو قال لنا هذا القول . كان بعض الناس قد يتوقَّف ويقول : الحقيقة مَا مرَّ علىَّ أَنَّ أَبا بكر وعمر وعثمان وعليًّا قالوا : إنَّ المراد باليد اليد الحقيقية .

ما وجدت ذلك . نقول : لا يحتاج أن تجد هذا .

طالبهم هم بالدَّليل .

فقل : هاتِ لى دَلِيلًا على أَنَّ المُرَاد باليد القُوَّة أَو النِّعمة !!

فإذا لم يكن لديك دليل فإن إبقاء النَّص على مَا هُو عليه هو طريقتهم ولو كانوا فسَّروه بخلاف الظَّاهر لنُقِل إلينا لأَنَّه عقيدة يجب الاعتناء بها ونَقْلها .

ثالثًا : أَنَّه يمتنع غاية الامتناع أَن يُراد باليد النِّعمة أَو القوة فى مثل قوله : ﴿ لِمَا خَلَقْت بِيَدَىَّ ﴾ [ص : ٧٥] وَوَجْهُه أَنَّه يمتنع غاية الامتناع : لأَنَّه يَسْتلزم أن تكون النِّعمة نعمتين فقط . ونِعَمُ الله لا تُحْصىٰ .

ويستلزم أن القوة : قوتان ، والقوَّة بمعنى واحد لا يتعدَّد ! فهذا التركيب يمنع غاية المنع أن يكون المراد باليد القوة أو النعمة .

هب أنَّه قد يمكن لقوله : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة : ٦٤] أن يراد بهما النِّعمة على تأويل . لكن لا يمكن أن يُراد بقوله : ﴿ لِمَا خَلَقْت بِيَدَىَّ ﴾ النعمة أبدًا .

أمَّا القوة فيمتنع أن يكون المراد باليَدَين القوَّة فى الآيتين جميعًا فى قوله : ﴿ بَلْ يَدَاهُ ﴾ وفى قوله : ﴿ لِمَا خَلَقْت بِيَدَىَّ ﴾ لأَنَّ القوة لا تتعدَّد .

الوجه الرَّابع : أَنَّه لو كان المراد باليد : القوةِ ما كان لآدم فَضْلٌ على إبليس بل ولا على الحمير والكِلاب لأَنَّهم كلهم خلقوا بقُوَّة الله .

ولو كان المراد باليد القوة ما صَحَّ الاحتجاج على إبليس إذ أَنَّ إبليس سيقول : « وأَنَا يارب خَلَقْتَنى بِقُوَّتك فما فَضْلُه عَلَّى » !!

الوجه الخامس : أن يُقَال إنَّ هذه اليد التى أَثْبَتها الله جاءَت على وجوه متنوعة يَمْتَنع أَن يُراد بها النِّعمة ، أو القوة فجاء فيها ذكر الأَصَابع والقبض والبَسْط والكف واليَمين وكل هذا يَمْتَنِع أن يُرَاد بها القوة . لأَنَّ القوة لا تُوصف بِهَذِهِ الأَوْصَاف .

فتبيَّن بهذا أنَّ قول هؤلاء المُحرِّفين - الذين قالوا : المراد باليد القُوَّة - باطلٌ من عِدَّة أَوْجه(١)

وقد سبق أَنَّ صفات الله عزَّ وجل من الأُمور الخبرية الغَيْبية التى ليس للعقلِ فيها مَجَال وما كان هذا سبيله فإِنَّ الواجب علينا إِبْقَاؤه على ظَاهِره مِن غَيْر أَن نَتَعرَّض لَهُ .

* * *

● ما الذى تستفيده من النَّاحية المَسْلكية لإثبات الْيَدان لله عز وجل ؟!

نستفيد كمال الله عزَّ وجلَّ بأن له يَدَيْن يُنْفِقُ كيف يشاء(٢)

(١) راجع : الكلام باستفاضة على بطلان هذا القول من عشرين وجهًا للحافظ ابن القيم كما فى مختصر الصواعق المرسلة للموصلى ص (٣٢٢ : ٣٣٥) .

(٢) فندعوه سبحانه أن يفيض علينا من خزائنه وأن نثق بما عند الله .

إثبات العَيْنين لله تعالىٰ فى القرآن الكريم

٦٠ – وقوله : ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ .
[الطور : ٤٨]

٦١ – ﴿ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ [القمر : ١٣، ١٤]

٦٢ – ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾ . [طه : ٣٩]

الشــــرح

● **قال : وقوله :** ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور : ٤٨] .

الخطاب هنا للنَّبى عليه الصَّلاة والسَّلام ، وقد مرَّ علينا أن الخطاب المُوَجَّه للرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام مُوَجَّهٌ لَهُ وَلِلأُمَّة ؛ لأَنَّه إِمَامُها ، والخطاب المُوَجَّه للإمام مُوَجَّهٌ للتَّابع .

وقوله : ﴿ وَاصْبِرْ ﴾ الصَّبر : بمعنى الحبس ، ومنه قولهم : « قُتِل صَبْرًا » أى قُتِل وقد حُبِسَ للقتل . إذا حُبِس الإنسان وأُمْسِك ثم قُتل . قيل : قتل صبرًا .

فالصَّبر فى اللُّغة : بمعنى الحَبْس .

وفى الشَّرع : قالوا إنَّه : « هو الصَّبر على أَحْكَام الله ، أَو الصَّبر لِأَحْكَام الله »(١)

---

(١) راجع الكلام على الصبر وأنواعه وأقسامه فى كتاب عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين للحافظ ابن القيم .

يعني : حبس النَّفس لأَحكام الله . هذا هو الصَّبر .

وأحكام الله عزَّ وجل شرعية وكونية :

والشَّرعية : أوَامِر ونَوَاهى .

فالصَّبر على طاعة الله : هذا صَبْرٌ على الأَوَامر ، والصَّبر عن مَعْصِيته : هذا صبر عن النَّواهى .

وعلى أقداره : صَبْرٌ على الأقدار .

والأَقْدَار والأَوَامر والنَّواهى كلها من أَحْكَام الله ، لكن الأَقدار أَحكام كونية ، والأَوَامِر والنَّواهى أَحكام شرعية .

فقوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ [الطور : ٤٨] يتناول الأَقسام الثَّلاثة :

١ - الصَّبر على طاعة الله . ٢ - وعن مَعْصِيَة الله . ٣ - وعلى أَقدار الله .

أى : اصْبر لحكم رَبِّك الكَوْنى والشَّرعى .

وبهذا نعرف أن التَّقسيم الذى ذكره العلماء وقالوا : إنَّ الصَّبر ثلاثة أقسام : صَبْرٌ على طاعة الله ، وصَبْرٌ عن معصية الله ، وصَبْرٌ على أقدار الله أنّه دَاخِلٌ فى هذه الكلمة : ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ [الطور : ٤٨] .

وَوَجْهُ الدُّخول : أَنَّ الحكم إمَّا كونى ، وَإمَّا شرعى ، والشَّرعى أَوَامِرَ وَنَوَاهى .

والنَّبى عليه الصَّلاة والسَّلام أَمَرَهُ الله عز وجل بِأَوَامِر ونَهَاهُ عن نواهى وقَدَّر عليه مَقْدُورات .

– فالأَوَامِر: مِثل : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيّ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧] ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ [النحل : ١٢٥] وهذه أَوامِر عَظِيمة .

يعنى لو قِيل لإنسان : اعْبُد ربك فإِنَّه يتمكَّن من العِبادة ؛ لكن الدَّعوة والتَّبليغ أَمرٌ صَعْب ؛ لأَنَّه لا يَزَال فى مُعَاناة الآخرين وَجِهادهم فيكون صَعْبًا .

– وأما النَّواهى : فقد نهاه عن الشِّرك . قال : ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ١٤] ، ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر : ٦٥] . وما أشبه ذلك .

وأما الأحكام القدرية : حَصَل عليه أَذًى من قَوْمه أَذًى قَوْلى وأَذًى فِعْلى لا يَصْبِر عليه إِلَّا أَمثال الرسول عليه الصَّلاة والسَّلام .

– آذوه بالقول : بالسُّخرية والاستهزاء والتَّهجين وتنفير النَّاس عنه .

– وآذوه بالفعل : كان ساجدًا تحت الكعبة فى آمن بقعة من الأرض ، سَاجدًا لِرَبِّه فذهبوا وأَتوا بِسَلَى النَّاقة وَوَضَعُوه عَلَىٰ ظهره وهو سَاجد(١) . ليس هناك أبلغ من هذه الأَذِيّة ، مع العلم بأَنَّه لو يدخل كافر مُشرك إلى الحرم لكان عندهم آمنًا ، لا يؤذونه فيه بل يُكرمونه ويُطْعمونه النَّبيذ ويَسْقُونه ماء زمزم .

ومحمد عليه الصَّلاة والسَّلام سَاجدًا لله يُؤْذُونه هذا الأَذَىٰ . كانوا يأتون بالعَذْرة والأَنْتان والأَقْذَار يَضَعُونه عند عَتَبَةِ بَابه !! وخرج إلى أهل الطَّائف ومَاذا صَار ؟!

صار الإيذاء العظيم – صَفّ سُفَهاؤهم وَغِلْمَانهم على جَانبى الطَّريق وجَعَلوا يرمونه بالحجارة حتى أَدْموا عَقِبه فلم يُفِق إِلَّا فى قَرْن الثَّعالب ، فصبر

(١) راجع : البخارى (٣٢٢١) ومسلم (١٧٩٥) (١١١) من حديث ابن مسعود رضى الله عنه .

على حكم الله ، ولكنه صَبْرَ مُؤْمن يُؤْمن بأَنَّ العاقبة له ، لأَنَّ الله قال له : ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فإِنَّكَ بَأَعْيُننا ﴾ [الطور : ٤٨] .

هذا الإعتناء والحَفَاوة أَكْرَم شَىء يُكْرَمُ به الإِنسان .

أن تقول له : أَنْت بعينى ، أنت بقلبى ، وما أَشبه ذلك .

أنت بعينى معناه : أَنا أَلاحِظُك بِعَيْنى . وهذا تعبير معروف عند الناس تمام الحراسة والعِناية والحفظ بمثل هذا التَّعبير : « أنت بعينى » .

إِذًا : قوله : ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُننا ﴾ [الطور : ٤٨] يعنى فإِنَّك مَحْرُوسٌ غاية الحراسة مَحْفُوظٌ غَايَة الحِفظ . بأى شىء ؟

﴿ بِأَعْيننا ﴾ : أَعْيُننا معك تَحْفَظُك وتَرْعَاك وتعتنى بك .

فى الآية الكريمة إِثْبَاتُ العَين لله عزَّ وجل ، لكنها جاءت بصيغة الجمع لما سنذكر إنْ شاء الله تعالى .

العين من صفات الله تعالى . وأى الصِّفات ؟

من الصفات الذاتية الخبرية :

الذَّاتية : لأَنَّه لم يَزل ولا يَزَالُ مُتَّصِفًا بها .

خبرية : لأَنَّ مُسَمَّاها بالنِّسبة إلينا أَجْزَاءٌ وَأَبْعَاض .

فالعين بَعْضٌ من الوَجْه والوَجْهُ بَعْضٌ من الجسم .

لكنها بالنِّسبة لله : لا يجوز أن نقول : إِنَّها بَعْضٌ من الله ؛ لأَنَّه سبق لنا أَنَّ هذا اللَّفظ لم يَرِدْ ، وأَنَّه يَقْتَضِى التَّجزئة فى الخالق .

وأنَّ البَعْضَ أو الجُزْء هو : ما يَصِحُّ بَقَاءُ الكُلِّ بِفَقْدِه ويجوز أن يُفْقَد وصفات الله لا يجوز أن تُفْقَد أَبَدًا بل هى بَاقِية .

إِذًا : نؤمن بأَنَّ لله عينًا لكن العين هنا كما ترون جُمِعت فهل نُثْبِت أَنَّ لله أَعْيُنًا كثيرة أَمْ ماذا ؟!

نقول : لا نُثْبت أنَّ لله أعينًا كثيرة . ولهذا لم يَأْت عن السَّلف حَرْفٌ وَاحِد يفيد هذا المعنى .

والجمع هنا نَظِيرُه الجمع فى ﴿ أَيْدِينا ﴾ أَى أَنَّه للتَّعظِيم .

وقد دلَّ الحديث الصَّحيح عن رسول الله ﷺ أنَّ لله عينين اثنتين فقط حين وَصَفَ الدَّجال وقال : « إِنَّه أَعْور وإن ربَّكُم لَيْسَ بِأَعْوَر » . وفى لفظ : « أَعْوَرُ العَيْن اليُمْنى »(١) .

وأَتينا بهذا اللَّفظ لأن بعض الناس يقول « أَعور » أى مَعِيب وليس من عوَرِ العَيْن !!

– وهذا لا شك أَنَّه تحريف وتَجَاهُل للَّفظ الصَّحيح الذى فى البُخَارى وَغَيْره : « أَعْورُ العَيْن اليُمنى كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِية »(١) وهذا واضح .

– ولا يقال أيضًا : أَعْور باللغة العربية إِلَّا لِعَوَر العين ، أَما إذا قيل : عَوَر أَو عُوَار فربما يُراد به مُطْلق العَيْب .

وهذا الحديث يَدُلُّ على أنَّ لله تعالى عينين اثنتين فقط :

---

(١) رواه البخارى (٣٠٥٧) ومسلم (١٦٩) (٩٥) من حديث ابن عمر رضى الله عنه واللفظ الثانى عند البخارى (٧٤٠٧) ومسلم (١٦٩) (١٠٠) .

(٢) رواه البخارى (٧٤٠٧) ومسلم (١٦٩) (١٠٠) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما .

ووجه الدِّلالة : أَنَّه لو كان لله أكثر من اثنتين لكان البيان به أوضح من البيان بالعور ؛ لأنه لو كان لله أكثر من عَيْنين لقال : إنَّ رَبَّكُم له أَعْيُن ؛ لأَنَّه إذا كان له أعين أكثر من ثِنْتين صَار وُضُوح أَنَّ الدجال ليس بِرَبّ أَبْيَن .

– وأيضًا : لو كان لله عز وجل أَكْثَر من عينين لكان فى تَرْكِ ذكره تَفْويتًا للثَّناء على الله ؛ لأَنَّ الكثرة تَدُلُّ على القُوَّة والكمال والتَّمام ، فلو كان لله أكثر من عَيْنَين لبيَّنَها الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام لِئَلَّا يَفُوتنا اعتقاد هذا الكمال وهو الزَّائد على العَيْنَيْن الثِّنْتَيْن .

وذكر ابن القيم – رحمه الله – فى كتابه « الصَّواعق المُرْسلة » حَدِيثًا لكنه ضَعيف لانقطاعه وهو : « إِذَا صَلَّى أَحَدُكُم فَإِنَّه بَيْنَ عَيْنَى الرَّحْمَن » .

« عَيْنى » : هذه تَثْنِية ؛ لكن الحديث ضَعِيف ، واعتمادنا فى عقيدتنا هذه على الحديث الصَّحيح : حديث الدَّجال ، لأَنَّه واضح لمن تأَمَّلَهُ .

ولقد أثبت ذلك عثمان بن سعيد الدَّارمى – رحمه الله – فى ردِّه على الكافر العَنِيد وكذلك أيضًا : ذكره ابن خزيمة فى كتاب التَّوحيد ، وذكر أيضًا : إجماع السَّلف : أَبو الحسن الأشعرى – رحمه الله –، وأبو بكر البَاقلَّانى ، والأمر فى هذا وَاضح .

وشيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم كذلك نَقَلُوا مَا نَقَلُوه عن هؤلاء وَأَقَرُّوه ولم ينكروه .

فعقيدتنا التى ندين لله بها : أن لله تعالى عَيْنَين اثْنَتَين لا زيادة ولكن يبقى أن يُقال : إنَّ من السَّلف من فسَّر قوله تعالى : ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنا ﴾ [القمر : ١٤] قال : « بِمَرْأَى مِنَّا » فسَّره بذلك أئمة سَلفِيُّون مَعْروفون ، وأنتم تقولون إنَّ التَّحريف مُحَرَّم وممتنع فما الجواب ؟

الجواب : هم أبْقَوها ولم ينكِروها ، لكن فَسَّروها باللازم مع إثبات الأصل وهى العَيْن .

وأهل التَّحريف يقولون : هو بمرأىً مِنَّا بدون عين .

يقولون : ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنا ﴾ [القمر : ١٤] يعنى : تجرى بمرأى منا لكن بدون عين .

وأهل السُّنة والجماعة يقولون : تجرى بأعيننا بمرأى منا مع إثبات العين ؛ لكن هذا أبْلغ من قوله : تجرى بِمَرْأًى مِنَّا ، لكن ذكر العين هنا أشد توكيدًا وعناية من ذكر مُجَرّد الرؤية ولهذا قال : ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنا ﴾ [القمر:١٤].

قالت الأَشَاعرة : أَجْلَبْتُم علينا بالخَيل والرَّجل فى إنكاركم علينا التَّأويل وَأَنْتُم أَوَّلْتُم فَأَخرجتم الآية عن ظَاهِرها ، فالله يقول : ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ [القمر : ١٤] فخذوا بالظَّاهر ، وإذا أخذتم بالظَّاهر كفرتم ، وإذا لم تأخذوا بالظَّاهر تَنَاقَضتُّم ، فمرَّة تقولون يجوز التَّأويل ، ومرَّة تقولون لا يجوز التَّأويل وتُسَمُّونه تحريفًا وهل هذا إلَّا تحكم بدين الله ؟

قلنا : نأخذ بالظَّاهر ، وعلى العين والرَّأس ، وهو طريقتنا ولا نُخالِفه .

قالوا : الظَّاهر من الآية أن محمدًا ﷺ بعين الله ، وسط العين .

﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾ أى فى وسطها كما تقول زَيْدٌ بالبيت ، زَيْدٌ بالمسجد أين يكون ؟

جـ : داخل المسجد . إذًا ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَـا ﴾ [القمر : ١٤] أى داخل العين . تَقُولون بهذا ؟!

إذا قلتم بهذا كفرتم ؛ لأنَّكم جعلتم الله محلًّا للخلائق فَأَنتم حُلُولية ، وإن لم تقولوا به تَنَاقَضتُّم ؟!

● نقول لهم : مَعَاذ الله ثم مَعَاذ الله ثمَّ مَعَاذ الله ! أن يكون مَا ذَكَرْتُموه كفر وأنتم إن اعتقدتم أن هذا ظاهر القرآن كفرتم ، لأَنَّ من اعتقد أن ظاهر القرآن كفْرٌ وضَلال فهو كافر ضَالٌّ ، فأنتم تُوبوا إلى الله من قولكم : أن هذا هو ظاهر اللَّفظ ، واسألوا جميع أهل اللُّغة من الشُّعراء والخطباء : هل يقصدون بمثل هذه العبارة أَنَّ الإنسان المنظور إليه بالعين حَالٌّ فى جفن العَين ؟ اسألوا من شئتم من أهل اللُّغة أحياءًا وأمواتًا !!

فأنت إذا رأيت أساليب اللُّغة العربية عرفت أنَّ هذا المعنى الذى ذكروه وَأَلْزمُونا بِه لا يَرِدُ فى اللُّغة العربية ، فضلًا من أَنْ يكون مُضَافًا إلى الرَّب عز وجل . فإضافته إلى الرَّب منكر ، وهو مُنكر لُغَةً وشَرْعًا وعَقلًا .

إذًا : فكيف تُفسِّرون الباء فى قوله : ﴿ بِأَعْيُنِنا ﴾ ؟

جـ : نُفسِّرها بالمُصَاحبة ، إذا قلت : أنت بعينى . يعنى أن عينى تصحبك وتنظر إليك لا تنفك عنك ، فالمعنى : أن الله عز وجل يقول لنبيِّه : اصبر لحكم الله فإنَّك مَحُوطٌ بِعِنَايَتِنَا ، وَبِرُؤْيَتنا لك بالعين حتى لا ينالك أَحَدٌ بِسُوء .

هناك وجه آخر : أن نقول : الرَّسول ﷺ خُوطِب بهذا الخطاب وأين مكانه ؟

جـ : مَكَانُه فى الأَرض .

إذًا : إن قلتم إنَّ الآية معناها : أَن الرَّسول – وحاشا – فى عين الله .

صَارَت دِلَالة القُرآن كَذِبًا ، لأَنَّ الرَّسول فى الأرض ، وليس بعين الله أَبدًا ، وهذا وجه آخر .

* * *

● **قال** : ﴿ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾
[**القمر : ١٣، ١٤**] .

﴿ حَمَلْنَاهُ ﴾ : الضَّمير يَعُود عَلَىٰ نُوح عليه الصَّلاة والسَّلام .

وقوله : ﴿ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسر ﴾ [القمر : ١٣] أَى على سفينةٍ ذَاتِ أَلْواح وَدُسُر .

وهذه السَّفينة كان عليه الصَّلاة والسَّلام يَصْنَعُها ، وكان يمرُّ به قومه فيَسْخَرُون منه فيقول : ﴿ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾
[هود : ٣٨] .

صَنَعَها بأمر الله ، وَرِعاية الله وَعِنَايته ، وقال الله له : ﴿ وَاصْنَعِ الفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ [هود : ٣٧] .

فالله تعالىٰ ينظر إليه وهو يصنع الفلك ويُلْهِمه كيف يَصْنعها .

وَوَصَفَها الله هنا فى قوله : ﴿ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ [القمر : ١٣] .

ذات : بمعنى صاحبة . والألواح : الخشب . والدُّسر : ما يُرْبَطُ به الخشب كالمَسَامِير وَالحِبال وما أَشْبه ذلك . وأكثر المفسرين على أن المراد بها المَسَامِير التى تُرْبط بها الأخشاب .

﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ هذا الشَّاهد

﴿ تَجْرِى ﴾ أَى ذات الأَلواح . والدُّسر بأَعين الله عز وجل ، والمُراد بالأعين هنا عَيْنَان فقط كما مرَّ . ومعنى تجرى بها : أى مَصْحُوبة بنظرنا بأَعْيُننا ، فالباء هنا للمُصَاحبة . تجرى على الماء الذى نزل من السَّماء ونبع من الأَرض ؛ لأَنَّ نُوحًا عليه الصَّلاة والسَّلام دعا ربه : ﴿ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴾ [القمر : ١٠] . قال الله تعالى : ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ

مُنْهَمِرٍ وفجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ [القمر : ١١،١٢] . فكانت هذه السَّفينة تجرى بعين الله عز وجل .

قد يقول قائل : لماذا لم يَقُل : وحملناه على سفينة أو حملناه على فلك بل قال : على ذات ألواح ودسر ؟

والجواب على هذا أن نقول : عَدَلَ عن التَّعبير بالفلك والسَّفينة إلى التَّعبير بذات ألواح ودُسُر مُراعاة للآيات وفَواصِلِها فلو قال : حَمَلْنَاهُ على فُلْك ما تَنَاسب هذه الآية مع مَا بَعْدَها ولا مَا قَبْلَها ، ولو قال : عَلى سَفِينة . كذلك لكن من أجل تَنَاسُب الآيات فى فَوَاصِلِها وفى كَلِمَاتها قال : ﴿ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ [القمر : ١٣] .

الوجه الثَّانى : من أجل أن يَتَعَلَّم الناس كيف يَصْنَعُون السُّفن ، وأنها من الألواح والمسامير ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَد تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُدَّكِرٍ ﴾ [القمر : ١٥] فأبقى الله تعالى عِلْمُها آيَةً للخَلْق يصنعون كما ألهم الله تعالى نُوحًا .

فإذا قلت : لماذا لم يَقُلْ : وحَمَلْنَاهُ على سَفِينة ذات أَلْواح وَدُسُر ؟

قلنا : من أجل مُراعاة تركيب هذِهِ السَّفينة وَمَوادِّها وأَنَّها من الأَلْواح والدُّسر .

فَرُوعِى التَّركيز على مَادَّتُها وكيفية صَنْعَتها ، ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ ﴾ [سبأ : ١١] ولم يقل : دُرُوعًا سَابِغات ، من أجل العِنَاية بفائدة هذه الدُّروع ، وهى أن تكون سَابغة تامة ، فهذه مثلها .

وقوله : ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ [القمر : ١٤] نقول فيها ما قُلْناه فى قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور : ٤٨] .

* * *

● **قال : وقوله :** ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾ [**طه : ٣٩**] .

الخطاب لموسى عليه الصَّلاة والسَّلام .

قال الله تعالى : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً منِّى ﴾ [طه : ٣٩] اختلف المُفَسِّرون فى معناها :

فمنهم : من قال : ﴿ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً منِّى ﴾ [طه : ٣٩] يعنى أَنِّى أَحْبَبْتُك .

ومنهم من قال : أَلْقَيْتُ عليك محبَّة من النَّاس ، والإلقاء من الله أى أَنَّ : مَنْ رَآك أحبك . وشاهد هذا أَنَّ امرأة فرعون لما رَأَتْهُ أَحَبَّتْهُ وقالت : ﴿ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ [القصص : ٩] .

لو قال قائل : أَيُمْكِنَكُم أن تَحْملوا الآية على المعنيين ؟

قلنا : نعم ! بناءً على القاعدة ، وهو أن الآية إذا كانت تَحْتَمِلُ مَعْنَيَيْن لا مُنَافاة بينهما ، فإنَّها تُحْمل عليهما جميعًا . فموسى عليه الصَّلاة والسَّلام مَحْبُوبٌ من الله عز وجل ، ومُوسى عليه الصلاة والسلام إِذَا رَآه النَّاس أَحَبُّوه . والواقع أَنَّ المعنيين مُتلازِمَان ؛ لأَنَّ الله تعالى إذا أَحب عبدًا ألقى فى قُلوب العِباد مَحَبَّته .

ثم قال : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِى ﴾ [طه : ٣٩] الصَّنع : جَعْل الشَّىء على صِفة مُعَيَّنة كَصَنْعِ صَفَائح الحديد قُدورًا ، وصَنْعِ الخَشَب أَبْوابًا ، وصَنْعِ كُلِّ شىء بِحَسَبِهَ .

فَصِناعة البيت : بِنَاءُ البيت . وصِنَاعَة الحديد : جَعْلُها أَوانى مثلًا أَو مُحَرِّكات . وصَنْع الآدمى : مَعْنَاهُ التَّربية البدنية والعقلية .

تَرْبيته البدنية بالغذاء ، وتَرْبِيَتُه العقلية بالآداب والأخلاق وَمَا أَشْبه ذلك .

ومُوسى عليه الصَّلاة والسَّلام حَصَل له ذلك ؛ فإنه رُبِّى على عَيْن الله لما التقطه آل فرعون حَمَاهُ الله عزَّ وجل من قَتْلهم من أَنَّهم كانوا يقتلون أبناء بنى إسرائيل فقال الله تعالى بقوله الكونى : هذا الذى تَقْتل الناس من أجله سيتربى فى أَحْضَانك ، فالنَّاسُ يُقْتَلُون من أجله وهو يَصِير فى آل فرعون يَتَربَّى فى أحضانهم . انظر إلى هذه القدرة العظيمة !!

ومن تَرْبية الله له أَنَّه عُرِض على المراضع – النساء اللاتى يرضعنه – ولكنه ما رضع من أى واحدة ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ ﴾ [القصص : ١٢] فما وضع من امرأة قط ، وكانت أخته قد انْتَدَبت من قِبل أُمِّه فَرَأَتهم وقالت : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ [القصص : ١٢] . قالوا : نعم ! نحن نَوَدُّ هذا . فقالت : اتْبعُونى فَتَبِعُوها قال تعالى : ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾ [القصص : ١٣] ولَمْ يَرْضَع من امْرأة قَطّ مع أَنَّه رضيع لكن هذا من كمال وَعْدِ الله عزَّ وجلَّ وصِدْق وَعْدِه ؛ لأَنَّ الله عز وجل قال لها : ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص : ٧] .

الأم شفقتها على ابنها لا أَحَد يَتَصَوَّرها .

قيل لها : اجْعَلى ابنك فى صندوق وأَلْقِيه فى البحر وَسَيأْتى إليك .

لولا الإيمان الَّذى مع هذه المرأة ما فعلت هذا الشَّىء ، تُلْقى ابنها فى البحر ! لو أَنَّ ابنها سَقَط فى تَابُوته فى البحر لجرَّته فكيف وهى التى تُلْقيه ؟

لكن لثقتها بالرَّب عز وجل وَوَعْدِه . قال الله تعالى : ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ ﴾ [القصص : ١٣] هذا من صُنْع الله إيَّاه على عَيْنه . وكذلك ما جرى له بعد هذا من عِناية الله تعالى به حتى وصل إلى الرِّسالة .

هنا قال : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِى ﴾ [طه : ٣٩] بالإفراد فهل تُنَافى ما سبق من ذكرها بالجمع ؟

الجواب : لا تَنَافى ؛ وذلك لأنَّ المفرد المضاف يعُم فيشمل كل ما ثَبَت لله من عين وَحِينئذٍ لا مُنَافاة بين المفرد وبين الجمع أو التَّثنية .

إذًا : يبقى النظر بين التَّثنية والجمع كيف نجمع بينهما ؟

الجواب أن نقول : إن كان أقل الجمع اثنين فلا مُنَافاة لأننا نقول هذا الجمع دَالٌّ على اثنتين فلا يُنَافِيه ، وإن كان أقل الجمع ثلاثة فإنَّ هذا الجمع لا يُراد به الثَّلاثة وإنَّما يراد به التَّعظيم والتَّناسب بين ضمير الجمع وبين المُضَاف إليه ولهذا قيل ﴿ بَأَعْيُننا ﴾ .

● **مخالفوا أهل السُّنة والجماعة :**

فسَّر أهل التحريف والتعطيل العين بالرؤية بدون عين وقالوا ﴿ بِأَعْيُننا ﴾ برؤية منا بغير عين . والعين لا يمكن أن تُثْبَت لله عزَّ وجل أبدًا لماذا ؟

قالوا : لأَنَّ العين جزء من الجسم ، فإذا أَثْبَتنا العين لله تجزئة وجسمًا وهذا شيء مُمْتَنع فلا يجوز ، ولكنه ذكر العين من باب تأكيد الرُّؤية .

يعنى كأنما نَرَاك ولنا عين ، والأمر ليس كذلك !!

فنقول لهم : هذا القول خطأ من عِدَّة أَوْجه :

الوجه الأول : أَنَّه مُخَالف لظاهر اللَّفظ .

الثَّانى : أَنَّه مخالف لإجماع السَّلف .

الثَّالث : أَنَّه لا دَلِيل عليه . أى أَنَّ المُراد بالعين مُجرد الرُّؤية .

الرَّابع : أننا إذا قلنا بأَنَّها الرُّؤْية ، وأَثبت الله لنفسه عَيْنًا ، فلازم ذلك أَنَّه يَرَى بِتِلْك العَين ، وحينئذ يكون فى الآية دَلِيلٌ عَلَى أَنَّها عَيْنٌ حَقِيقية .

* * *

إثْبَاتُ السَّمع والبَصَر لله تعالى فى القرآن الكريم

٦٣ - ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ . [المجادلة : ١]

٦٤ - وقوله : ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾ . [آل عمران : ١٨١]

٦٥ - ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ . [الزخرف : ٨٠]

٦٦ - وقوله : ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ . [طه : ٤٦]

٦٧ - وقوله : ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ . [العلق : ١٢]

٦٨ - ﴿ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الشعراء : ٢١٨-٢٢٠]

٦٩ - ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَۖ ﴾ . [التوبة : ١٠٥]

الشـــرح

ثم انتقل المؤلف إلى ذكر صِفَةٍ جديدة وهى السَّمع .

قال : وقوله : ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة : ١]

﴿ قد ﴾ هنا للتَّحقيق . والمجادلة هى التى جاءت إلى النبى ﷺ تشتكى زوجها حيث ظاهر منها فقال : « أنت منى كظهر أمى » . وكان الظِّهار فى الجَاهِلية طَلاقًا بائِنًا فجاءت تَشْتكى إلى رسول الله ﷺ وتُبيِّن له كيف يُطَلِّقُها هذا الرَّجل ذلك الطَّلاق البَائن وهى أُمُّ أولاده ، وكانت تُحاور النَّبى ﷺ أى تُراجِعُه الكلام فَأَفْتَاها الله عز وجل بما أَفْتَاها به فى الآيات المذكورة .

والشَّاهد من هذه الآيات قوله : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَادِلُكَ ﴾ [المجادلة : ١] ففى هذا إِثْبَاتُ السَّمع لله سبحانه وتعالىٰ ، وأَنَّه يَسْمَعُ الأَصْوات مَهْما بَعُدَت ومَهْمَا خفيت .

قالت عائشة رضى الله عنها : « تَبَارَك - أو قالت : الحمد لله - الَّذى وَسِع سَمْعُه الأَصْوَات إِنِّى لفى نَاحِية البَيْت ، وإِنِّى ليخفى علَىَّ بَعْضُ حَدِيثها » هذا معنى حديثها[(١)] .

والسَّمع المُضَاف إلى الله عز وجل ذَكَرَ العلماء أَنَّه ينقسم إلى قسمين :

١ - سَمْعٌ يَتَعلَّق بالمَسْمُوعات ، فيكون معناه إِدْرَاك الصَّوت .

٢ - وسَمْعٌ بمعنى الاستجابة ، فيكون معناه أَنَّ الله يُجيب مَنْ دَعَاه ؛ لأَنَّ الدُّعاء صَوْتٌ - صَوْتٌ ينطلق من الدَّاعى -، وسَمِع الله دُعَاءَهُ يعنى : استجاب دُعَاءه وليس المراد سَمِعَهُ مُجَرّد سَمَاع فقط ؛ لأَنَّ هذا لا فائدة منه بل الفَائِدة أَن يَسْتجيب الله الدُّعاء .

السَّمع الذى بمعنى إدراك الصَّوت . قال العلماء إنه ثلاثة أقسام :

---

(١) **حَدِيثٌ صَحِيحٌ** : رواه البخارى تعليقًا فى كتاب التوحيد (٧٣٨٥) ووصله أحمد (٤٦/٦) والنسائى فى تفسيره (٥٩٠/٢) وفى المجتبى (٣٤٦٠) وابن ماجة (١٨٨) ، (٢٠٦٣) بإسناد « صحيح » من حديث عائشة رضى الله عنها .

أحدها : ما يُقْصَدُ به التَّهديد .

والثَّاني : ما يقصد به التَّأْييد .

والثَّالث : ما يقصد به بيان إحاطة الله سُبحانه وتَعالىٰ .

١ - أَمَّا ما يَقْتَضي التَّهديد : فكقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ﴾ [الزخرف : ٨٠] وَقَوْلِهِ : ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء ﴾ [آل عمران : ١٨١] .

٢ - وأَمَّا التَّأْييد : فَكَقوله تعالى لموسى وهارون : ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه : ٤٦] أَراد الله عزَّ وجل أن يُؤَيِّد موسى وهارون بذكر كونه يَسْمَعُ وَيَرَىٰ .

٣ - وأَمَّا الذى يُرَادُ به بَيان الإحَاطة : فمثل هذه الآية وهى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِى إِلَى اللهِ ﴾ [المجادلة : ١] .

* * *

● **ثم قال : ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾ [آل عمران : ١٨١] .**

﴿ لقد ﴾ جملة مُؤَكَّدة باللام ، وقَد ، والقَسَم المُقَدَّر ، فهى مؤكدة بثلاثة مُؤَكِّدات ، والذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء هم اليهود قَاتَلهم الله فهم وَصَفوا الله بالعَيْب قالوا : ﴿ إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ ﴾ [آل عمران : ١٨١] قالوا : ﴿ يَدُ اللهِ مَغْلُولَة ﴾ [المائدة : ٦٤] قالوا : ﴿ عُزَيْر ٱبْنُ اللهِ ﴾ [التوبة : ٣٠] .

قالوا : إن الله اسْتَراح يوم السَّبت حيث تَعِب من خلق السَّماوات والأرض فهم - والعياذ بالله - أعداء أَلِدّاء لله سبحانه وتعالى وَصَفُوه بِكُلِّ عَيْب .

وقد ذكر الله تعالى مَا وَصَفُوه به فى القرآن .

* * *

● **وقوله : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾** [**الزخرف** : ٨٠] .

﴿ أم ﴾ فى مثل هذا التَّركيب يقولون إنَّها مُتَضَمِّنه معنى « بل » ، والهمزة يعنى : بل أيحسبون ففيها اضراب ، وفيها استفهام . أى : بل أيحسبون أنا لا نسمع سِرهم وَنَجواهم .

والسِّر : ما يُسِرُّه الإنسان إلى صَاحبه .

والنَّجوىٰ : ما يُنَاجِى به صاحبه ويُخاطبه فهو أَعْلَىٰ من السِّر .

والنِّداء : ما يَرْفع به صَوْتَهُ لِصَاحبه .

فها هنا ثلاثة أشياء : سِرٌّ ومُنَاجاة وَنِدَاء .

– فمثلًا إذا كان شخص إلى جانبك وَسَارَرْتَهُ أَى كَلَّمته بكلامٍ لا يَسْمَعُه غَيْره نُسَمِّى هذا مُسَارَّه .

– وإذا كان الحديث بين القوم يَسْمَعُونه كلهم ويتجاذبونه سُمِّى مُنَاجاة .

– وأما المناداة : فتكون من بعيد : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ [مريم : ٥٢] .

هؤلاء يُسِرُّون ما يَقُولونه من المَعَاصِى وَيَتَناجون بها فيقول الله عز وجل : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ ﴾ [الزخرف : ٨٠] .

وَبَلَىٰ : حَرْف إيجاب يَعْنى : بَلَىٰ نسمع وَزِيادة على ذلك : ﴿ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف : ٨٠] أى عندهم ، والمراد بالرُّسل هنا الملائكة لقوله تعالى : ﴿ جَاعِلِ المَلائِكَةِ رُسُلًا ﴾ [فاطر : ١] ففى هذه الآية : إثبات أَنَّ الله تعالى يَسْمَعُ سِرَّهم ونَجْواهم .

والغرض من ذلك : التَّهديد يعنى أَنَّ الله يَعْلَمُ سِرَّهم ونَجواهم فَيُهدِّدهم ؛ لأَنَّه سوف يُحَاسِبهم على هذا .

* * *

● **وقال** : ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه : ٤٦] .

الخطاب لموسى وهارون عليهما الصَّلاة والسَّلام يقول الله سبحانه وتعالىٰ لهما : ﴿ إِنَّنى مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه : ٤٦] . أَى أَسْمَعُ مَا تَقُولون ، وأَسْمَعُ ما يُقَالُ لكم . أَرَى مَا تَفْعَلُون ، وأَرَى ما يُفْعَلُ بِكم ، لأَنَّه إِمَّا أَن يُسَاءَ إِليهما بالقَول أَو بالفعل .

- فإن كان بالقول فهو مَسْمُوعٌ عند الله .
- وإِن كان بالفعل فهو مَرْئِيٌّ عند الله .

وهذا السَّمع يُرَادُ به النَّصر والتَّأييد ، وكذلك هذه الرُّؤية يُرادُ بها النَّصر والتَّأييد .

يعنى أَنَّ المقصود والغرض : بيان أَنَّ الله سبحانه وتعالى يَحْفَظُهما ويَكْلأهما ، ويُؤَيِّدهما .

* * *

● **قال** : ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ [العلق : ١٤] .

الضَّمير فى ﴿ أَلَمْ يَعْلَمْ ﴾ يَعُود إلى من يُسىء إلى النَّبى ﷺ : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِى يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ . أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ . أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَىٰ ﴾ [العلق : ٩-١٤] .

وفى هذه الآية : إثبات صِفَةُ الرُّؤية لله عزَّ وجلَّ ، والله سبحانه وتعالى يَرَىٰ .

والرؤية المُضَافة إلى الله لها معنيان :

المعنى الأَوَّل : بمعنى العلم .

والثَّانى : بمعنى رُؤْية المُبْصرات . يعنى إدراكها بالبصر .

فمن الأول : قوله تعالى عن يوم القيامة : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴾ [المعارج : ٦] .

فالرُّؤْية هنا رُؤْية العلم ؛ لأَنَّ اليوم ليس له جِسم يُرَاء ، وأيضًا هو لم يكن بَعْد .

فمعنى : ﴿ نَرَاهُ قَرِيبًا ﴾ أى نعلمه قريبًا .

وأما قوله : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَىٰ ﴾ [العلق : ١٤] . فهى صَالحة لأَنْ تكون بمعنى العلم ، وبمعنى الرُّؤية البصرية .

وإذا كانت صالحة لهما ولا مُنَافاة بينهما وَجَبَ أن تُحمل عليهما جميعًا فيقال إنَّ الله يَرَىٰ . أى يعلم ما يَفعله هذا الرَّجل ومَا يقوله ، ويَرَاهُ أيضًا .

لكن الذى يظهر من سِياق الآية أنَّها رُؤْية العلم لِقَوله : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِى يَنْهَىٰ ﴾ [العلق : ٩] والنَّهى يكون بالقول ، والقول لا يُرَىٰ بالعَيْن .

● وقال تعالى : ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الشعراء : ٢١٨:٢٢٠] .

قبل هَذه الآية قوله : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ الَّذِى يَرَاكَ حِينَ تَقُوم وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٧-٢١٩] والرُّؤْية هنا رُؤْية البَصَر لأَنَّ قوله : ﴿ الَّذِى يَرَاكَ حِينَ تَقُوم ﴾ [الشعراء : ٢١٨] لا تَصِحُّ أَن تكون بمعنى العِلْم لأَنَّ الله يَعْلَم به حِين يَقوم وقَبل أَنْ يقوم ، وأَيضًا يقول : ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٩] وهو يُؤَيِّد أَنَّ المُراد بالرُّؤية هنا رُؤْية البصر .

﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيم ﴾ [الشعراء : ٢٢٠] إِنَّه : أَى الله الذى يَرَاكَ حين تقوم : هو السَّميع العليم وفى الآية هنا ضَمير الفصل : ﴿ هُوَ السَّمِيع ﴾ .

وقد مَرَّ علينا أن من فوائده الحصر فهل الحصر هُنَا حَقِيقى بمعنى أَنَّه حصر لا يوجد شيء من المحصور فى غير المَحْصُور فيه أَوْ هُو إِضافى ؟

الجواب : هو إِضافى من وجه حقيقى من وجه لأن المراد بالسَّميع هنا : ذو السَّمع الكامل المُدْرِك لكل مسموع ، وهذا هو الخاص بالله عزَّ وجل .

أَمَّا مُطلق السَّمع فقد يكون من الإنسان كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [الإنسان : ٢] فَسمىٰ الله تعالى الإنسان سَميعًا بصيرًا .

وكذلك العليم : فإنَّ الإنسان عَلِيم كما قال الله تعالى : ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ [الذاريات : ٢٨] لكن العلم المُطْلق أى الكامل هذا خاصٌّ بالله سُبحانه وتعالىٰ .

* * *

● قال : ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة : ١٠٥] .

والَّذى قبل هذه الآية : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ والمؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة : ١٠٣-١٠٥] .

فى هذه الآية يقول : ﴿ فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالمؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة : ١٠٥] .

والرُّؤية هنا شَامِلة للعِلْمية والبَصَرية ؛ لأَنَّ عِلْمنا بما عَمِل غيرنا قد يكون عن رُؤْية ، وقد يكون عن عِلْم من غَيْرنا يعنى أَعْلَمَنَا أَحَدٌ بأَنَّه يعمل .

ففيها إذًا : إثبات الرُّؤية بِمَعْنَيها : الرُّؤْية العِلمية والرُّؤْية البصرية .

المؤلف – رحمه الله – أدمج فى هذه الآيات صفة الرُّؤْية مع صفة السَّمع .

وسبق أن ذكرنا : أن السَّمع ينقسم إلى قسمين وذكرنا أن إدراك الصوت له ثلاثة أقسام ، وكذلك الرُّؤية تنقسم إلى قسمين : رؤية بمعنى العلم ، ورُؤْية بمعنى إِدْرَاك المُبْصَرَات وكلاهما ثابت لله عَزَّ وجل فهو عالم بالأُمور وَرَاءٍ لهَا ، ومن الممكن أَن نقول إنَّ الرُّؤْية التى معناها إدراك المرئى تنقسم إلى قسمين :

١ – قسم يقتضى التأييد مثل : ﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه : ٤٦] .

٢ – وقسم يُرادُ به الإحاطة والعِلْم مثل : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالمؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة : ١٠٥] .

– وَرُبَّما يقتضى أحيانًا التَّهديد : مثل : مَا إذا عُلِّقت الرُّؤْية بفعل إجرامى أو ظُلم فالمراد به التَّهديد .

قوله : ﴿ الَّذِى يَرَاكَ حِينَ تَقُوم ﴾ [الشعراء : ٢١٨] المراد به الإحاطة مع العِناية لأنَّه قال : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ الَّذِى يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ [الشعراء : ٢١٧،٢١٨] .

* * *

● ما الذى نستفيده من النَّاحية المَسْلكية ؟

● أما العينان : فَنَسْتَفيد من الإيمان بهما من النَّاحية المَسْلكية : الخَوف والرَّجاء .

الخوف : عند المعصية ؛ لأَنَّ الله يَرانا[1] .

والرَّجاء : عند الطَّاعة ؛ لأَنَّ الله يَرَانا ، فكما أنَّ الله يرانا عند طاعته

---

(١) من هنا كان تذكير السَّلف بمراقبة الله تعالى من الأُمور المهمة التى تبنى قواعد الخشية فى نفوسهم فمن ذلك : قال رجل لوهيب بن الورد عظنى فقال : « اتَّق الله أَنْ يَكُون أَهْوَنَ النَّاظِرين إليك » . وَرَأى محمد بن المنكدر رَجُلاً وَاقِفًا مع امْرأة يُكَلِّمها فقال : « إنَّ الله يَرَاكُما سَتَرَنَا الله وإيَّاكما » . راجع جامع العلوم والحكم ص (١٦١) .

وَرَاوَدَ بعض الناس اعرابية عن نفسها ذات يوم وقال لها : « مَا يَرَانَا إِلَّا الكَوَاكِب فَقَالت فَأَيْن مُكَوْكِبَها » راجع تحقيق كلمة الإخلاص لابن رجب ص (٣٨) .

وكان الإمام أحمد رحمه الله دائمًا يتمثل بقول القائل :

إذَا مَا خَلوت الدَّهر يومًا ... فلا تَقُلْ خلوت ولكن قُلْ عَلَىَّ رَقِيبُ
وَلَا تَحْسَبَنَّ الله يَغْفل سَاعَةً ... وَلا أَنَّ مَا تُخْفِى عَلَيه يَغِيبُ

لا شك أنَّه سَيُثِيبَنَا على هذا ، فَتَتَقَوَّى عَزَائِمُنا بطاعة الله ، وتَضْعُف إِرَادَتُنا لمعصيته .

● أما السَّمع : فالأمر فيه ظاهر ؛ لأَنَّ الإنسان إِذَا آمَن بِسَمْع الله استلزم إيمانه كمال مُراقبة الله تعالى فيما يقول خوفًا ورجاءً .

خوفًا : فلا يقول ما يَسْمَع الله تعالى منه من السُّوء .

وَرَجاءً : فيقول الكلام الذى يُرْضى الله عَزَّ وجل .

والقول كذلك فى الرُّؤية إذا علم الإنسان أنَّ الله يَرَاه ، فإِنَّه يَسْتلزم إيمانه بذلك أَن يَخْشى الله تعالى بحيث لا يَفْقِده تعالى حيث طَلَبَه ، ولا يَرَاه حيث نَهَاه فيكون عَمَله دَائِرًا بين الخوف والرَّجاء .

* * *

إثبات المكر والكيد لله تعالىٰ على ما يليق به في القـرآن الكـريم

٧٠ – وقوله : ﴿ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾ [الرعد : ١٣] .

٧١ – وقوله : ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٥٤] .

٧٢ – وقوله : ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل : ٥٠] .

٧٣ – وقوله : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾ [الطارق : ١٥ ، ١٦]

الشـــرح

هذه ثلاث صفات مُتقَاربة : المِحَال والمَكْر والكَيْد .

– أَمَّا المحال : فهو الأَخْذُ بالعُقُوبة .

● **فقوله** : ﴿ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾ [**الرعد** : **١٣**] .

أَى شَدِيدَ الأَخْذِ بالعُقوبة ، وقيل إِنَّ المحال بمعنى المكر : أَى شديد المَكْر ، وكأَنَّه على هذا التَّفسير مأخوذٌ من الحِيلة وهى أَن يتحيَّل بِخَصْمه حتى يُوقِعَ به .

والمكر : قال العلماء فى تفسيره : إنَّه التَّوصل بالأسباب الخَفِيَّة إلى الإيقاع بالخَصم . يعنى أن تَفْعَلَ أَسْبابًا خَفِيَّة فَتُوقِعَ بِخَصْمك وهو لا يَحس ولا يَدْرِى ولكنها بالنِّسبة لك مَعْلُومة مُدَبَّرة .

والمَكْرُ : لو سَأَلَنا سَائِلٌ : هل هو صِفَةُ مَدْحٍ أو صِفَةُ ذم ؟

قلنا : يكون فى موضع مدحًا ، ويكون فى موضع ذمّاً :

- فإن كان فى مُقَابلة من يَمْكُر بِكَ فهو مَدْح ، لأَنَّه يقتضى أنك أنت أقوى منه .

- وإن كان فى غير ذلك فهو ذَمٌّ .

ولهذا لم يَصف الله نَفْسَهُ به إلَّا عَلَى سَبِيل المُقَابَلة والتَّقْيِيد ﴿ وَمَكَرُوا مكْراً وَمَكَرْنَا ﴾ [النمل : ٥] ، ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ الله ﴾ [الأنفال : ٣٠] ولا يُوصف الله سبحانه وتعالىٰ به على الإطلاق . فلا يُقَال : إنَّ الله مَاكِرٌ لا عَلَىٰ سَبِيل الخَبَر ، ولا على سَبيل التَّسمية ، ولا يُقَال : إنَّه كَائِدٌ لا على سَبِيل الخَبر ، ولا على سَبيل التَّسمية ، ذلك لأَنَّ هذا المعنى يكون مدحًا فى حال ، ويكون ذمّاً فى حال . فلا يمكن أن نَصِف الله بِهِ على سَبيل الإطلاق .

إذاً : مَاذَا نَقُول ؟ نقول : ﴿ خَيْرُ المَاكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٥٤] هذا كمَالٌ ، وَلِهذَا لم يَكُن تَعْبير القرآن أَمْكَر المَاكِرين بل قال ﴿ خَير المَاكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٥٤] . فلا يكون مَكْرُه إلَّا خَيْراً . أَو نَقُولُه : فى سبيل المُقَابلة مُقَابَلة من يَمْكُر به فنقول : إنَّ الله تعالى مَاكِرٌ بمن يَمْكُر بِهِ ، أَو بِالمَاكِرين لقوله تعالى ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ الله ﴾ [الأنفال : ٣٠] ، ﴿ وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مكراً وَهُم لا يَشْعُرونَ ﴾ [النمل : ٥٠] .

* * *

● قوله : ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران : ٥٤]

هذه نزلت فى عيسى بن مريم عليه الصَّلاة والسَّلام مَكَر به اليهود ، ولكن كان الله تعالىٰ أَعْظَمُ مِنهم مَكْراً ، رَفَعَه الله وَأَلْقَىٰ شَبَهَهُ عَلَىٰ أَحَدِهم على الذى تَوَلَّى كِبْره ، وَأَرَاد أن يَقْتُله فَرَفَعَهُ الله عَزَّ وجلَّ ؛ لأَنَّه لما دخل عليه هذا الذى يُريد القتْل وَإِذا عِيسىٰ قَد رُفِع فدخل النَّاس فقالوا : أَنْتَ عِيسىٰ !

قال : لَسْتُ عِيسىٰ !

فقالوا : أَنْتَ هو ! .

لأَنَّ الله تعالى أَلْقَىٰ عليه شبهه فَقُتِل هذا الرَّجل الذى كان يُريد أَن يَقْتُل عيسىٰ بن مريم ، فكان مَكْرُه عَائِداً عَلَيْه ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ الله وَالله خَيْرُ ٱلمَاكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٥٤] .

* * *

● **وقوله** : ﴿ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ [النمل : ٥٠]

هذا فى قوم صَالح : كَانَ فى المدينة التى كان يدعو النَّاس فيها إلى الله تِسْعَة رَهْطٍ أَى أَنْفار ﴿ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّه لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَه ﴾ [النمل : ٤٩] يعنى : نقتلنه بالليل ﴿ ثُمّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصادِقُونَ ﴾ [النمل : ٤٩] يعنى : قتلوه باللَّيل ما يُشَاهِدُونه .

لكن مَكَرُوا وَمَكَر الله !

قالوا : إِنَّهم لما خَرَجُوا لِيَقْتُلوه أَمْطَرت السَّماء فلجؤوا إلى غار اتِّقَاء

المَطَر فانطبق فانطبق عليهم الغَار فَأَهْلَكَهُم ، وَصَالِح وَأَهْلُه لم يَمَسُّهم سُوء فَيَقُول الله ﴿ وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً ﴾ [النمل : ٥٠] .

وَمَكْراً : فى الموضعين مُنَكَّرة للتَّعظيم . أى مَكَروا مَكْراً عَظِيماً ، وَمَكَرْنا مَكْرًا أعظم .

* * *

● **وقوله** : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾ [الطارق : ١٥ ، ١٦] .

إِنَّهم – أى كُفَّار مكة – يَكِيدُون للرَّسول ﷺ كيداً لا نَظِير له فى التَّنفِير مِنه ومِن دَعْوته ، ولكن الله تعالى يَكِيدُ كَيْداً أَعْظَم وَأَشَدُّ .

﴿ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾ [الطارق : ١٥] يَعْنى : كَيْدًا أَعْظَم من كَيْدهم ، وَمِن كَيْدهم وَمَكْرهم ما ذكره الله فى سورة الأنفال : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِين كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلوك أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ [الأنفال : ٣٠] . ثلاثة آراء(١) .

١ – ﴿ يُثْبِتُوك ﴾ : يَعْنى يَحْبِسُوك .

٢ – ﴿ يَقْتُلوك ﴾ : يعنى يَعْدِمُوك .

٣ – ﴿ يُخْرِجُوكَ ﴾ : يَطْردوك .

وكان رَأْىُ القَتْل أَفضل الآراء عندهم بِمَشُورة إِبْلِيس ؛ لأَنَّ إبليس جاءهم بصورة شيخ نجدى وقال لهم : انتخبوا عَشْرة شُبَّان من عَشْر قبائل من قُريش وَأَعْطُوا كُلَّ واحِدٍ سَيْفًا ثمَّ يَعْمدون إلى محمّدٍ فَيَقْتُلونه قِتْلَةَ رَجُلٍ وَاحد ، فَيَضِيع دَمُه فى القبائل فَلا تَسْتَطِيعُ بَنُو هَاشم أَن تَقْتل وَاحدًا من هؤلاء الشُّبَّان ، وحينئذ يَلْجَؤُونَ إلى الدِّية فَتَسْلَمُون منه .

---

(١) راجع تفسير الماوردى المسمى بالنكت والعيون (٣١٦/٢) .

فقالوا : هَذا الرَّأى !!

وأَجمعوا علي ذلك . ولكِنَّهم مَكَرُوا مَكْراً والله تعالى يَمْكُر قال ﴿ وَيَمْكُرونَ وَيَمْكُر الله وَآلله خَيْرُ المَاكِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٣٠] فما حَصَلَ لهم الَّذى يريدون ! بل إنَّ الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام خرج من مَنَامِه يَذُرُّ على رُؤُوسهم التُّراب على رؤوس العَشَرة هؤلاء . ويقرأ ﴿ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِم سَدّاً وَمِن خَلْفِهم سَدّاً فَأَغشيناهُم فَهُم لاَ يُبْصِرونَ ﴾ [يسٓ : ٩] . هؤلاء ينتظرون الرَّسول عليه الصلاة والسلام يخرج فَخَرج من بَيْنِهم و لم يَشْعُروا به .

إِذًا : صار مَكْرُ الله عَزَّ وجل أَعْظم من مَكْرِهم ، لأَنَّه أَنْجَىٰ رَسُولَهُ مِنهم وَهَاجَر . هنا ﴿ يَكِيدُونَ كَيْداً وَأَكِيدُ كَيْداً ﴾ [الطارق : ١٥ ، ١٦] . نقول فيها مَا قُلْنَاهُ فى : ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً ﴾ [النمل : ٥٠] يعنى : أَنَّ التَّنكِير فيها للتَّعظِيم ، وكان كيد الله عَزَّ وجل أَعْظَم من كَيْدهم .

وهَكَذَا يَكِيدُ الله عزَّ وجل لِكُلِّ من انتصر لِدينه ، فإِنَّه يَكِيدُ لَهُ وَيُؤَيِّده قال الله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ كِدنَا لِيُوسُفَ ﴾ [يوسف : ٧٦] يعنى : عَمِلْنا عملاً حَصل به مقصوده دُون أَنْ يَشْعُر مَنْ كَانَ عِنْده وهذا مِن فَضْل الله عزَّ وجل على المرء أن يَقِيه شَرَّ خصْمه عَلَى وَجْه الكَيْد وَالمَكْرِ على هذا الخِصم الَّذى أَرَادَ الإِيقاع .

فإِن قلت : ما هو تعريف المَكْر والكَيْد والمِحَال ؟

فإِن تعريفه عند أهل العلم : أَنَّه التَّوصل بالأَسْباب الخفية إلى الإِيقاع بالخَصم . يعنى أَن تُوقع بِخَصْمِك بأَسْبابٍ خَفِيّة مَا يَدْرى عنها .

هذا هو الكَيْد . وهو فى مَحَلِّه صِفَةُ كَمال ، وفى غير مَحَلِّه صِفَةُ

نَقْص ، لكنَّه فى غير مَحَلِّه له اسْمٌ آخر ، وهو الخِيانة ، وهو صِفَةُ مَدْحٍ فى مَحَلِّه ويُذْكَرُ أَنَّ على بن أَبى طالب رضى الله عنه لما بَارَزَ عَمرو بن وُدّ ، والفائدة من المبارزة أَنَّه إذا غَلَبَ الَّذى مِنّا انكسرت قُلوب الآخرين ، قالوا : هَذا صَاحِبُنا الذى اخترناه للمُبَارَزة وهو أَشجعنا غَلَبَ .

لاشك أن قلوبهم تنكسر وتضعف شوكتهم . بَارَزَهُ عَمرو بن وُدّ لما خرج صرخ عَلِىٌّ : مَا خَرَجْتُ لِأُبارِزَ رَجُلَيْن . عمرو بن وُدّ التفت ظنَّ أَنَّ هناك واحدًا خرج معه فلما التَفَتَ ضَرَبهُ عَلِىٌّ رضى الله عنه عَلَى رَقَبَتِه حتى أَطاح برأسه !

هذا خِدَاعٌ ، لكنه جائز ، ويُحْمَد عَلَيه ؛ لأَنَّه فى مَوْضِعه فإِنَّ هذا الرَّجل مَا خَرَجَ لِيُكْرِم على بن أبى طالب ويُهَنِّئه ولكنَّه خَرَج لِيَقْتُله فقال عَلِىٌّ : أنا عندى ما هو أَعظم من قَتْلك ففعل هذه الفعلة المهم : أَنّ المكر والكَيْد والخِداع فى مَحَلِّه مَدْحٌ .

الخُلاصة : أَن نقول : إِنَّ المكر والكيد والخداع والمحال من صِفات الله الفِعْلية التى لا يُوصف بها على سبيل الإِطلاق لأَنَّها تكون مَدْحًا فى حَال ، وَذمًّا فى حَال .

يُوصف بها حين تكون مَدْحًا ، ولا يُوصف بها إذا لم تَكُن مَدْحًا .

نقول : « الله خَيْرُ المَاكِرين » ، « خَيْر الكَائِدين » أو تقول : « الله مَاكِرٌ بمن يَمْكُر به ، خَادِعٌ لمن يُخَادِعُه » والاستهزاء من هذا الباب لا يَصحُّ أن نخبر عن الله بأنه مُسْتَهْزِىءٌ على الإِطلاق ؛ لأَنَّ الاستهزاء نوع من اللَّعِب ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَات وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴾ [الدخان : ٣٨] لكن فى مُقَابلة من يَسْتَهزىء بِه يكون كَمالاً ﴿ وَإِذا لَقُواْ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذا

خَلَوا إلى شَيَاطِينِهم قَالُوا إنَّا مَعَكُم إنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ﴾ [البقرة : ١٥] قال الله : ﴿ آللّه يَسْتَهْزِىءُ بِهِم ﴾ [البقرة : ١٥] فأهل السُّنة والجماعة يُثْبِتُون .

● **مُخَالِفُواْ أَهْلِ السُّنة والجماعــة :**

● هذه المعانى لله عزَّ وجل على سبيل الحَقِيقة لكن أَهْل التَّحريف يقولون : لا يمكن أن يُوصف الله بها أبدًا لا على سَبِيل الحقيقة ، ولا على سَبِيل المُقَابلة لكن ذكر مكر ومكر من باب المُشَاكَلة مثل : ﴿ رَضِيَ اللّه عَنْهُم وَرَضُوا عَنْه ﴾ [المائدة : ١١٩] .

لا يُوصف بالرِّضى عندهم . لكن هذا من باب المُشَاكَلة يُسَمُّونه « المجاز بالمشاكلة » يعنى : أَنَّه فِعل جاء عَلَى شَكْل فِعْل آخر لكن لا حقيقة له .

ونحن نقول لهم : هذا خِلاف ظاهر النَّص وخِلاف إجماع السَّلف .

وقد قلنا سابقًا : إِذَا قال قائل : ائت لنا بقول لأَبى بكر أَو عمر أَو عثمان أو على يقولون فيه : أَنَّ المراد بالمكر والكيد والاستهزاء والخداع الحقيقة ؟ فنقول لهم : نعم ! هم قرأوا القرآن وآمَنُواْ بِهِ ، وكَونهم لم يَنْقِلوا هذا المعنى المُتَبَادر إلى معنى آخر يَدُلّ على أَنَّهم أَقرُّوا به وأَنَّ هذا إجماع ولهذا يكفينا أن نقول فى الإجماع : لم يُنْقَل عن واحدٍ منهم أَنَّه فسَّر الرِّضىٰ بالثَّواب أَوْ الكيد بالعُقوبة .

وحينئذ نقول : لمَّا لم يُنْقَل ذلك وكان معنى هذه الكَلِمات باللُّغة العربية وَاضحًا فإِنَّه يَدُل على أنهم كانوا يُقِرُّون بما تَدُلّ عليه هذه الأَلْفَاظ على ظاهرها .

وهذه الشُّبهة رُبَّما يُورِدُها علينا أحد من الناس يقولون : أَنتم تقولون :

هذا إجماع السَّلف أين إجماعهم ؟

نقول : عدم نَقْلُ مَا يُخَالف ظَاهِرها عَنهم دَلِيلُ الإجماع .

● **ما نستفيده من الناحية المسلكية :**

المكر : يستفيد به الإنسان بالنِّسبة للأمر المَسْلَكى مُرَاقبة الله سُبحانه وتعالى وَعَدَم التَّحَيُّل على مَحَارِمه ومَا أَكْثر المُتَحَيِّلين على المحارم فهؤلاء المُتَحَيِّلُون على المحارم إذا عَلِموا أَنَّ الله تعالى خَيرٌ مِنهم مَكْراً وَأَسْرَعُ منهم مكراً ، فإنَّ ذلك يَسْتَلزم أن يَنْتَهوا عن المَكْر .

رُبَّما يفعل الإنسان شيئاً فيما يَبْدُو للنَّاس أَنَّه جائز لا بأس به لكنه عند الله لَيْس بجائز ، فيخاف ويَحْذَر ، وهذا له أمثلة كثيرة جداً فى البيوع والأَنْكِحة وغيرهما .

● مثال ذلك فى البُيوع : رجل جاء إلى آخر وقال : أَقْرِضنى عشرة آلاف درهمًا قال : لا أُقْرِضُك إلا باثنى عشر ألفاً وهذا رِباً وحرام سَيَتَجَنَّبه لأَنَّه يعرف أَنَّه رِبا صَرِيح .

لكن باع عليه سِلْعة باثْنى عشر ألفاً مُؤَبَّدة إلى سَنَة بَيِّنا تَامًّا وكتبت الوَثِيقة بينهما ثم إنَّ البائع أَتَى إلى المُشْتَرى وقال بِعْنِيه بِعَشَرة آلاف . فقال : بِعْتُكَ إيَّاه . وكَتبوا بَيْنهما وَثِيقة بالبيع ظاهر هذا البَيْع الصِّحة . ولكن نقول هذه حِيلة فإنَّ هذا لَمَّا عَرِف أَنَّه لا يجوز أن يُعْطِيه عشرة باثْنى عَشَر أَلْفاً قال : أَبيع السِّلعة عليه باثنى عشر وأَشْتَريها نَقْداً بِعَشرة .

رُبَّما يَسْتَمر الإنسان فى هذه المُعَامَلة لأَنَّها أَمَام النَّاس مُعَاملة ليس فيها شىء ، لكنَّها عند الله تَحيُّل على مَحَارمه . وقد يُملى الله تعالى لهذا الظَّالم حتَّى إذا أَخَذَه لم يُفْلِته . يعنى يتركه يَتَرَبَّى مَالُه ويَزْدَادُ ويَنمو بهذا الرِّبا .

لكن إذا أَخَذَهُ لم يُفْلِته تكون هذه الأشياء خَسَارة عليه فيما بَعد ، ومآله إلى الإفلاس ومن الكلمات المَشْهورة على ألسِنة النَّاس : « مَنْ عَاشَ فِى الحِيلَة مَاتَ فَقِيرًا » .

● مثال فى الأنكحة : هناك تَحَيُّل : امرأة طَلَّقها زَوْجُها ثلاثًا فلا تَحِلُّ له إلا بعد زَوْجٍ . فجاء صديق له فَتَزَوَّجها بِشَرْط : أَنَّه متى حَلَّلها - يعنى متى جامعها طَلَّقها - ففعل . تَزَوَّج بِعَقْد وشُهُود وَمَهْر وَدَخَل عليها وجَامَعها ثمَّ طَلَّقها ، ولما طَلَّقها أَتَت بالعِدّة !!

فإنَّها ظاهرًا تحل للزَّوج الأَوَّل ، لكنها بَاطِنًا لا تَحِلُّ .

لأنَّ هذه حيلة .

فمتى علمنا أن الله أَسْرَعَ مكرًا وأَنَّ الله خير الماكرين أَوْجَب لنا ذلك أن نَبْتَعِد غَايَة البُعْد عن التَّحيُّل على مَحَارِم الله .

* * *

وصف الله بالعفو والمغفرة والرَّحمة والعزة والقدرة فى القرآن الكريم

٧٤ – وقوله تعالى : ﴿ إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ [النساء : ١٤٩] .

٧٥ – ﴿ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور : ٢٢] .

٧٦ – وقوله : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ ﴾ [المنافقون : ٨] .

٧٧ – وقوله عن إبليس : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [صۤ : ٨٢] .

الشـــرح

● وقوله: ﴿ إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ [النساء : ٤٩] .

يعنى : إن تفعلوا خَيْراً فَتُبْدُوه أى تُظْهِرُوه للنَّاس ﴿ أَوْ تُخْفُوهُ ﴾ يعنى : عن الناس فإنَّ الله تعالى يعلمه ولا يَخْفَى عَلَيْه شىء .

وفى الآية الثانية : ﴿ إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوه فَإِنَّ ٱللّٰه كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٥٤] وهذا أَعَمّ يشمل الخَيْر والشَّر ومَا لَيسَ بِخَيْر ولا شَرٍّ .

وقوله : ﴿ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ ﴾ [النساء : ١٤٩] .

العفو : هو التَّجاوز عن العُقوبة فإذا أَسَاء إليك إنسان فَعَفَوْتَ عنه فإن الله سبحانه وتعالى يَعْلَمُ ذلك .

وقد سبق لنا أَنَّ العفو يُشْتَرط للثَّناء على فاعله أَن يَكُون مَقْرُونًا بالإصلاح لقوله تعالى : ﴿ فَمَن عَفَا وَأَصْلَح فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ ﴾ [الشورى : ٤٠] .

وسَبَق لنا بناء على هذه القاعدة أَنَّ العفو قد يكون سَبَبًا للزِّيادة فى الطُّغْيان والعُدْوان وقد يكون سببًا للانتهاء عن ذلك ، وقد لا يَزِيد المُعْتَدِى ولا يُنَقِصُه .

١ – فإذا كان سببًا للزِّيادة فى الطغيان كان العَفْوُ هنا مَذْمُومًا ، وَرُبما يكون مَمْنُوعًا ، مثل أَن نعفوا عن هذا المجرم ونعلم – أَوْ يَغلب على الظَّن – أَنَّه يذهب فيُجْرم إجْرامًا أَكْبر ، فهنا لا يمدح العَافِى عنه بل يُذَمُّ .

٢ – وقد يكون العفو سَبَبًا للانتهاء عن العُدوان : بحيث يخجل ويقول : هذا الَّذى عفا عنى لا يمكن أن أعْتدى عليه مرَّة أخرى ، ولا على أحد غيره ، فيخجل أن يكون هو من المُعْتدين ، وهذا الرَّجل من العَافِين .

فهنا نقول : العفو محمود ومطلوب ، وقد يكون واجبًا .

٣ – وقد يكون العَفْو لا يُؤَثِّر لا ازديادًا ولا نقصًا : فهو أَفْضَل لقوله تعالى : ﴿ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [البقرة : ٢٣٧] . هنا يقول : ﴿أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ [النساء : ١٤٩] يعنى إذا عَفَوْتُم عن السُّوء عَفَا الله عنكم ويُؤْخَذُ هذا الحكم من الجواب : ﴿ فَإِنَّ اللهَ كَانَ عَفُواً قَدِيرًا ﴾ [النساء : ١٤٩] يعنى فيعفو عنكم وجمع الله تعالى هنا

بين العَفُوّ والقَدِير ، لأَنَّ كَمَالَ العفو أن يكون عن قُدْرَة .

أَمَّا العفو الذى يَكُون عن عَجْز : فهذا لا يُمْدَحُ فَاعِلِه ، لأَنَّه عَاجِزٌ عن الأَخْذ بالثَّأر .

وأمَّا العفو الذى لا يكون مع قدرة : فقد يُمدح لكنه ليس عفوًا كاملاً بل العَفْو الكامل ما كان عن قُدْرَة ، ولهذا جمع الله تعالى بين هذين الإسمين « العَفُوُّ والقَدِير » .

- العَفُو : فيه إِثْبَات صِفَة العَفْو لله وهو التَّجاوز عن سَيِّئات عِباده .

- والقدرة : سبق أَنَّها صفة يَتَمَكَّن بها الفَاعِل من الفِعْل بِدُون عجز .

هذان الإسمان يَتَضَمَّنَان صِفَتَيْن وهما العفو والقُدْرة ولهما حكم :

فالعفو : الحكم فيه أنَّ الله يَعْفُو ، والقَدِير : أنَّ الله يَقْدِر على كل شيء إذاً : فيهما إِثْبَات إسمين من أَسماء الله وصِفَتَيْن من صفاته .

الإسمان : العَفُوّ والقَدِير ، والصِّفتان : العفو والقدرة .

* * *

● **وقوله :** ﴿ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور : ٢٢] .

هذه الآية نَزَلَت فى أبى بكر رضى الله عنه ، وذلك أَن مِسْطَح بن أُثاثة رضى الله عنه كان ابن خالة أَبى بكر ، وكان مِمَّن تَكَلَّمُوا فى الإِفك (١) .

(١) راجع حديث الإفك فى صحيح البخارى (٤٧٥٠) (٤٧٥٧) ، ومسلم (٢٧٧٠) (٥٦) .

قوله : ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ﴾ قال ابن المبارك : « هَذِه أَرْجَى آية فى كِتَاب الله » . =

وقِصَّة الإفك : أَنَّ قومًا من المنافقين تَكَلَّموا فى عِرْض عائشة رضى الله عنها وليس والله قصدهم عائشة ! لكن قَصْدهم رَسُول الله ﷺ أَن يُدَنِّسُوا فِراشه وأَن يُلْحِقُوه العَار - والعِياذ بالله ! ولكن الله - ولله الحمد - فَضَحَهم وقال : ﴿ وَٱلَّذِى تَوَلَّى كبره مِنْهم لَهُ عَذَابٌ عَظِيم ﴾ [النور : ١١] تَكَلَّمُوا فيها وكان أَكْثَر مَن تَكَلَّم فِيها المُنَافِقُون ، وَتَكَلَّم فيها نَفَرٌ من الصَّحابة رضى الله عنهم المعروفون بالصَّلاح ، ومنهم مِسْطح بن أُثَاثَة فلما تكَلَّم فيها وكان هذا من أكبر القطيعة قَطِيعة الرَّحم أن يتكلَّم إنسان فى قريبه بما يَخْدِش كَرَامَتَهُ . لاسيما وأَنَّ ذلك فى أمِّ المؤمنين زَوْجة رسول الله ﷺ .

أَقْسم أَبُوبكر أَلَّا يُنْفق عليه وكان أبوبكر هو الَّذى يُنْفِق عَلَيْه . فقال الله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولواْ الفَضْلِ مِنْكُم وَالسَّعةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِى القُرْبَىٰ وَالمَسَاكِينَ وَالمُهَاجِرينَ فِى سَبِيل الله ﴾ [النور : ٢٢] وكل هذه الأَوْصاف ثَابِتَةٌ فى حَقِّ مِسْطَح فهو قريب ، ومِسْكين ، ومُهَاجر ﴿ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُواْ أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ الله لَكُم وَالله غَفُورٌ رَحِيم ﴾ [النور : ٢٢] فقال أبوبكر رضى الله عنه . بَلَىٰ والله ! نُحِبُّ أَن يَغْفِر الله لنا ! فردَّ عليه النَّفَقَة .

هذا هو ما نَزَلَت به الآية .

أَمَّا تفسيرها : فقال ﴿ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُواْ ﴾ اللَّام لام الأمر وَسُكِّنَت لأَنَّها أَتَت بَعْد الواو ، ولَامُ الأَمر تُسكَّن إذا وَقَعت بعد الوَاو كما هنا ، أو بعد الفَاء أَو بَعْد ثُمَّ . قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْه رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ ٱلله ﴾ [الطلاق : ٧] وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ﴾ [الحج : ٢٩] . هذا

= قال الحافظ فى الفتح (٣٣٦/٨) : « وإلى ذلك أشار القائل :

فإن قدر الذنب من مسطح … يحط قدر النجم من أفقه
وقد جرى منه الذى قد جرى … وعوتب الصديق فى حقه

إذا كانت لام أمر ، أمَّا إذا كانت لام تعليل فإنَّها تَبْقى مَكْسُورة لَا تُسَكَّن وإن وَلِيَتْ هذه الحُرُوف قوله ﴿ وَلْيَعْفُواْ ﴾ يعنى يَتَجَاوزوا عن الأَخْذ بالثَّأر .

﴿ وَلْيَصْفَحُواْ ﴾ يعنى يُعْرِضُوا عن هذا الأمر ، ولاَ يتكَلَّموا بِهِ إطلاقًا .

مَأْخُوذ من صَفْحة العُنُق وهى جانبه لأن الإنسان إذا أعرض فالذى يبدوا منه صفحة العنق ، والفرق بين العَفو والصَّفح أن الإنسان قد يعفو ولا يَصْفح بل يَذْكُر هذا العُدْوَان وهذه الإسَاءة لكِنَّه لا يأْخذُ بالثَّأر .

أَمَّا إذا عَفَا وَصَفَح فهو أَعْظَم مما إذا عَفَا فقط ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللهُ لَكُم ﴾ [النور : ٢٢] ؟ . ﴿ أَلَا ﴾ : للعرض . والجواب : بلىٰ نُحِبُّ ذلك ، فإذا كنَّا نُحِبُّ أن يغفر الله لنا فلنَتَعرَّض لأَسباب المغفرة . ثم قال ﴿ وَٱللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النور : ٢٢] .

﴿ غَفُورٌ ﴾ : هذه إمَّا أن تكون اسم فاعل للمُبَالغة ، وإمَّا أن تكون صِفَةً مُشَبَّهة ، فإذا كانت صِفة مُشَبَّهة فهى دَالَّةٌ على الوصف اللَّازم الثَّابت . هذا هو مُقْتَضىٰ الصِّفة المُشبَّهة ، وإن كانت اسم فاعل مُحوَّلاً إلى صِيغة التَّكْثِير كانت دَالَّةً على وقُوع المَغْفِرة من الله بِكَثْرة .

وبعد هذا نقول : إنَّها جامِعَةٌ بين الأمرين فهى صِفةٌ مُشَبَّهة ؛ لأَنَّ المغفرة صفة دائمة لله عز وجل ، وهى أيضًا فِعْلٌ يقع بكثرة فما أكثر مَغْفرة الله عز وجل ومَا أَعْظَمها ؟!

وقوله : ﴿ رَحِيمٌ ﴾ هذه أيضًا اسم فاعل مُحَوَّل إلى صيغة المُبَالغة ، وأَصل اسم الفاعل من رَحِم رَاحِم لكن حُوِّل إلى رَحِيم لِكَثْرة رَحمة الله عزَّ وجلَّ وكثرة من يَرْحَمهم الله عزَّ وجل ، والله سبحانه وتعالى يَقْرن بين هذين

الإِسمين لأَنَّهما دَالَّان على مَعْنىً مُتَشَابه . ففى المغفرة زَوَالُ المكروب وآثار الذَّنب وفى الرَّحمة حُصُول المطلوب كما قال الله تعالى للجنة : « أَنْتِ رَحْمَتِى أَرْحَمُ بِكِ من أَشَاء »[1] .

نثبت فى هذه الآية : المَغْفرة والرَّحمة .

* * *

● وقوله : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون : ٨] .

● وقوله عن إبليس : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [صٓ : ٨٢] .

فى هاتين الآيتين الكريمتين إثبات العِزَّة لله سبحانه وتعالى . وقد دلَّ عليها اسم الله العزيز ، وذكر أهل العلم أَنَّ العِزَّة تنقسم إلى ثلاثة أقسام : عِزَّة القَدْر ، وعِزَّة القَهْرِ ، وعِزَّة الامتناع :

١ - قالوا : فعِزَّة القَدْر : معناه أَنَّ الله تعالى ذُو قَدْرٍ ، عَزِيز يَعْنى لا نَظِير له ومرَّ علينا فى المصطلح : أَنَّ من أقسام الخبر : العَزِيز ، وأَنَّ بعضهم قال : إِنَّما يُقَال لَه عَزِيز لِقِلَّتِه ونَدْرته فى الحديث[2] .

فمعنى عزَّة القدْر : يعنى أَنَّ الله ذو قدْر عظيم لا نظير له .

٢ - عِزَّة القَهْر : هى عِزَّة الغَلَبَة يعنى أَنَّه غَالِبٌ كُلَّ شىء قاهِرٌ كُلَّ شىء ومنه قوله تعالى ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى الْخِطَابِ﴾ [صٓ : ٢٣] يعنى : غلبنى فى الخطاب ، فالله سُبْحانه عَزِيزٌ لا غَالِبَ له بل هو غَالِبُ كُلِّ شىء .

---

(١) رواه البخارى (٤٨٥٠) ، ومسلم (٢٨٤٦) (٣٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) راجع : تدريب الراوى للسيوطى (١٨١/٢) .

٣ - أَمَّا عِزَّة الامتناع : فمعناها أَنَّ الله تعالى يَمْتَنِع أن يَنالَهُ سُوءٌ أَو نَقْص ، فهو مَأْخُوذٌ من القُوَّة والصَّلابة ، ومنه قولهم : أَرْضٌ عَزَازٌ : يعنى قَوِيّةٌ شَدِيدة .

هذه معانى العِزَّة التى أَثْبَتَها الله تعالى لِنَفْسه وهى تَدُلّ على كمال قَهْره وسُلْطانه ، وعَلى كَمَال صِفَاته ، وعلى تَمام تَنَزُّهه عن النَّقص .

تدلُّ على كمال قهره وسلطانه . إذا قلنا أنها من عزة القهر .

وعلى تمام صفاته وكمالها وأنه لا مثيل لها فى عزة القَدْر .

وعلى تمام تَنَزُّهه عن العَيْب والنَّقص فى عزة الامْتناع .

● **وقوله : ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾** [المنافقون : ٨]حتى الرَّسول ﷺ لَهُ عِزَّة وللمؤمنين أيضًا عزة وغلبة ، ولكن يجب أَن نَعْلم أَنَّ العِزَّة التى أثبتها الله لِرَسُوله وللمؤمنين لَيْست كَعِزَّة الله فإِنَّ عِزّة الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام والمؤمنين قد تُغْلَب أحيانًا لِحِكْمةٍ يُريدها الله عز وجل فَفِى أُحُد : لم يَحْصُل لهم تَمَامُ العِزَّة ؛ لأَنَّهم غُلِبُوا فى النّهاية .

وكذلك فى حنين ، وَلَّوا مُدْبِرين ولم يَبْق مع النَّبى ﷺ من اثنى عشر ألفًا إِلَّا نحو مائة رجل . هذا أيضًا فَقْد لِلعِزَّة .

أَمَّا عِزَّة الله عز وجل : فلا يمكن أبدًا أن تُفْقَد ، وبهذا عرفنا أَنَّ العِزَّة التى أَثْبَتَها الله لرسوله وللمؤمنين لَيْست كالعِزَّة التى أثبتها لنفسه .

وهذا أيضًا يمكن أن يؤخذ من القاعدة العامة وهى أَنَّه : « لا يَلْزَم من اتِّفَاق الإسمين أن يَتَّفق المُسَمَّيَان » .

فقد يكون الإسمان متفقين ولكن المُسَمَّى لا يَتَّفق وهذا كثير .

● **قال وقوله عن إبليس ﴿ فِبعزتك لأغوينهم أجمعين ﴾** [صٓ : ٨٢] .

الباء هنا : للقسم ، لكنه اختار القَسَم بالعِزَّة دون غيرها من الصِّفات لأَنَّ المقام مَقَام مُغَالَبة ، فكأَنَّه قال : بِعِزَّتك التى تَغْلِب بها مَن سِوَاك لأُغْوين هَؤُلاء وأُسَيْطِر عَلَيْهم . يعنى بنى آدم .

﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [صٓ : ٨٢] : يُسْتَثْنَى من هذا عِبادَ الله المُخْلَصُون فإن إبليس لا يَسْتطيع أن يُغْويهم .

وقوله ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [صٓ : ٨٢] .

فهذا من إبليس حين آيس من رحمة الله من أجل استكباره عن السُّجود لآدم الذى أَمَرَهُ الله بِه أَقْسَم بعزة الله أن يُغْوى بنى آدم والإغواء : هو الإخراج عن الحق إلى الباطل ، والغَىّ ضد الرُّشد وهذا هو ما يُريده الشَّيطان من كل واحد من بنى آدم إلَّا أَنَّه قال : ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُم المُخْلَصِين ﴾ [صٓ : ٨٣] .

إذاً : فى هاتين الآيتين إثبات العِزَّة لله .

وفى الآية الثَّانية : إثبات أَن الشَّيطان يُقِرُّ بصِفاتِ الله فكيف نجد من بنى آدم من يُنكِر صِفات الله أو بعضها أَيكُون الشَّيطان أعلم بالله وأَعْقَل مَسْلكًا من هؤلاء النُّفاة ؟!

* * *

● ما نستفيده من الناحية المسلكية :

– **فى العفو والصَّفح** : هو أَنَّنا إذا عَلِمنا أَنَّ الله عَفُوٌّ وأَنَّه قَدِيرٌ أَوْجَب لنا ذلك أَن نَسأَله العَفْو دَائمًا، وأَن نَرْجُواْ منه العَفْو عَمَّا حَصَل مِنَّا من التَّقصير فى الوَاجب .

- **أمَّا العِزَّة أيضًا** : نقول : إذا علمنا أنَّ الله عزيز فإنَّنا لا يمكن أن نفعل فعلاً نُحارب الله فيه. مثلاً: الإنسان المُرَابِى مُعَامَلته مع الله المُحاربة : ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [البقرة : ٢٧٩] . إذا علمنا أنَّ الله ذو عزة لا يُغْلَب ، فَإِنَّه لا يُمْكِنُنا أَنْ نُقْدِم عَلَى مُحَاربة الله عزَّ وجلَّ .

قَطْعُ الطَّرِيق مُحَارَبة : ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُون الله وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّن خِلاَفٍ أَوْ يُنْفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ﴾ [المائدة : ٣٣] .

فإذا علمنا أَنَّ قَطْع الطريق مُحَاربة لله ، وأنَّ العِزَّة لله امتنعنا عن هذا العمل ، لأنَّ الله هو الغَالب .

- ويمكن أن نقول فيها فائدة من النَّاحية المَسْلَكِية أيضًا : وهى أَنَّ الإنسان المؤمن ينبغى له أن يكون عَزِيزًا فى دِينه بحيث لا يَذلُّ أَمَام أَحَدٍ كائنًا من كان إلا على المؤمنين فيكون عزيزًا على الكافرين ذَلِيلاً على المؤمنين ومُنَاسَبة نزُول قوله تعالى : ﴿ وَلله العِزَّة وَلِرَسُوله وَلِلمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون : ٨] . نزلت حين قال عبدالله بن أبىّ رَأس المُنَافقين ﴿ لَئِن رَجَعْنَا إلى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ ﴾ [المنافقون : ٨] . ويعنى بالأَعَزّ : نَفْسه ، وبالأَذَلّ : النَّبى ﷺ وأصحابه فقال الله عز وجل : ﴿ وَلله العِزَّةُ وَلِرَسوله وَلِلمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون : ٨] ومُقْتَضى قاعدة عبدالله بن أُبىّ الخبيث أَنَّ الذى يُخْرجه هو الرَّسول ﷺ والمؤمنون لأَنَّ العِزَّة لهم ، والمُنَافق لَيْسَ له حَظٌّ من العِزَّة ويَدُلُّ لذلك أن المنافقين أَذِلَّة يَحْسَبُون كل صَيْحة عَلَيْهم ، كل واحد منهم يَخَافُ على نفسه ، فإذا رأى المؤمنين قال خوفًا منهم : آمَنّا . وإذا ذَهَب إلى شَيَاطِينه قال : إنه معهم . فهل هذا إلا غاية الذُّل ؟!

المؤمنون : يقول الله تعالى : ﴿ فإن تَوَلَّوا فَقُولُوا اشْهَدُوا بأَنَّا مُسْلِمُون ﴾ [آل عمران : ٦٤] يُعْلِنُوها صَرِيحة بأَنهم مُسْلمون ومُؤْمنون ولا يخافون ، لكن المنافقين لا يستطيعون أن يُعْلِنوا ما هم عليه من الكُفْر لأَنَّهم خائِفُون . فصارت العِزَّة لَيْست لعبدالله بن أُبيّ وأصحابه ، ولكن لله ولرسوله وللمؤمنين .

إثبات الإسم لله ونفى المِثل عنه فى القرآن الكريم

٧٨ – وقوله : ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾

[الرحمن : ٧٨]

٧٩ – وقوله : ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾

[مريم : ٦٥]

٨٠ – ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص : ٤] .

٨١ – ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٢] .

٨٢ – ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾

[البقرة : ١٦٥] .

الشـــرح

● **قال المؤلف: وقوله** ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾

[الرحمن : ٧٨] .

﴿ تَبَارَكَ ﴾ قال العلماء : معناها تَعَالَى وَتَعَاظَم إن وصف بها الله تعالى ، وإن وصف بها اسم الله كان معناها أن البركة تكون باسم الله . أى أن اسم الله إذا صاحب شيئًا صَارَت فيه البَركَة ولهذا جاء فى الحديث : « كُلُّ أَمْرٍ ذِى بال لا يُبْدأُ فيه بِبِسْمِ الله فهو أَبْتَر »(١) . أَى نَاقِص البركة .

---

(١) **إسناده ضعيف جدًا** : أخرجه بهذا اللفظ الخطيب فى الجامع لأخلاق الراوى (١٢١٠) ، والسَّمعانى فى أدب الإملاء والاستملاء ص (٥١) وسنده ضعيف جدًا ففيه ابن الجندى : شيعى=

بَل إنَّ التَّسمية تُفيد حِلَّ الشيء الذى يُحرم بدونها ؛ فإنه إذا سمى الله على الذَّبيحة صارت حلالاً وإذا لم يسم صَارت حرامًا وَمَيْتة ، وهناك فَرْقٌ بين الحلال الطَّيب الطَّاهر والميتة النَّجسة الخَبِيثة .

– وَإذا سَمَّى الإنسان على طهارة الحدث صحَّت وإذا لم يُسم لم تَصِحُّ على أَحد القولين .

– وإذا سمى الإنسان على طعامه لم يأكل معه الشَّيطان وإن لم يسَمِّ أَكَل معه .

– إذا سمَّى الإنسان على جِمَاعِهِ وقال : « اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطان وَجَنِّب الشَّيْطَان مارَزَقْتَنَا »[1] ثم قُدِّر بينهما ولد لم يَضُرُّه الشَّيطان أبدًا ، وإن لم يفعل فالولد عرضة لضرر الشيطان .

وعليه فنقول إن ﴿ تَبَارَكَ ﴾ هنا ليست بمعنى تَعَالَى وتَعَاظم بل يَتَعَيَّن أن يكون معناها : حَلَّت البركة باسم الله .

تبارك اسمه : يعنى أَنَّ اسْمُه سَبَبٌ للبركة إذا صَحِبَ شيئًا .

وقوله : ﴿ ذِى الجَلالِ وَالإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٧٨] ﴿ ذى ﴾ بمعنى صَاحِب ، وهى صفة لِرب . لا لاسم ؛ لو كانت صفة لاسم لكانت ذو . والجلال والإكرام سبق معناهما . الجلال بمعنى العظمة ، والإكرام بمعنى التَّكْريم وهو صالح لِأَنْ يكون الإكرام مِن الله لمن أَطَاعَهُ وَمِمَّن أَطَاعَهُ لَهُ .

* * *

= اتهمه ابن الجوزى بالوضع كما فى تنزيه الشريعة لابن عراق (١/٣٣) وضعفه الحافظ ابن حجر كما فى الفتوحات الربانية (٣/٢٩٠) .

(١) رواه البخارى (٣٢٧١) (٣٢٨٣) ، ومسلم (١٤٣٤) (١١٦) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما .

● ثم قال : **وقوله** : ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾
[مريم : ٦٥]

شرع المؤلف رحمه الله بالصِّفات السَّلبية : أى صفات النَّفى .

وقد مرَّ علينا فيما سبق أنَّ صفات الله عزَّ وجل : ثُبوتية ، وَسلْبية – أى مَنْفِيّة – ؛ لأَنَّ الكمال لايتحقَّق إِلَّا بالإثبات والنَّفى .

إثبات الكمالات ونفى النَّقائص .

يقول : ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ﴾ [مريم : ٦٥] الفاء مُفَرَّعة على ما سبق والذى سبق هو قوله ﴿ رَبُّ السَّمٰوٰتِ وَٱلأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ ﴾ [مريم : ٦٥] فذكر سبحانه وتعالى ما تَثْبُتُ به الرُّبوبية ﴿ ربُّ السَّمٰوٰتِ وَٱلأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ [مريم : ٦٥] . وفَرَّع على ذلك وجُوب عبادته لأَنَّ كل من أقرَّ بالرُّبوبية لَزِمَهُ الإقرار بالعبودية والأُلوهية وإِلَّا صَارَ مُتَنَاقِضًا .

﴿ فاعْبُدْهُ ﴾ أى تَذَلَّل له مَحَبَّةً وتعظيمًا . وسبق أَنَّ العِبادة يُرادُ بها : المُتَعَبَّد به ويُراد بها : التَّعَبُّد الَّذى هو فِعْل العَبْد .

قال : ﴿ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ﴾ [مريم : ٦٥] . اصْطبر : أصلها فى الُّلغة ٱصْتبر فأُبْدلت التَّاء طاء لِعلَّة تصريفية ، والصَّبر : حبس النَّفس ، وكلمة اصْطَبِر أَبْلَغُ من اصبْر لأَنَّها تدلُّ على مُعَاناةٍ ، فالمعنى ٱصْبر وإن شَقَّ عليك ذلك واثْبُت ثَبَات القَرين لِقَرِينه فى القِتال .

وقوله : ﴿ ٱصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ﴾ [مريم : ٦٥] قيل إن اللام بمعنى « على » أى اصطبر عليها كما قال تعالى : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَٱصْطَبِر عَلَيْهَا ﴾ [طه : ١٣٢] .

وقيل : بل اللَّام على أصلها أى اصْطبر لها أى كُن مُقَابلاً لها بالصبر كما يقابل القرين قرينه في مَيْدان القِتال .

قال : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم : ٦٥] . الاستفهام بمعنى النَّفى يكون مُشْرَبًا مَعْنَى التَّحدى . يعنى إن كنت صَادِقًا فَأَخْبرنا : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم : ٦٥] والسَّمى : الشَّبيه والنَّظير يعنى هل تَعْلَمُ لَه مُسَامِيًا أَو نَظيرًا يَسْتَحِقُّ مثل اسمه ؟ والجواب : لا .

فإذا كان كذلك فالواجب أَن تَعْبُدَه وَحْدَه .

وفيها من الصِّفات قوله : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم : ٦٥] وهى من الصِّفات السَّلبية .

فما الذى تتضمَّنه من صفات الكمال ؟ لأننا ذكرنا فيما سبق أَنَّ الصِّفات السَّلبية لابد أن تتضمن ثُبوتًا فما هو الثُّبوت الذى تَضَمَّنه النفى هنا ؟

جـ : الكمال المطلق فيكون المعنى : هل تعلم له سَمِيًا لثُبوت كماله المطلق الذى لا يُساميه أحدٌ فيه .

* * *

● **قال : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص : ٤] .**

تقدم الكلام عليها . أَى ليس له أحد يُكَافِئه : ﴿ أَحَدٌ ﴾ نكرة في النَّفي فتعمُّ و﴿ كُفُوًا ﴾ فيها ثلاث قراءات : كُفُوًا ، وكُفْئًا ، وَكُفُؤًا .

فهى مع الهمزة ساكنة الفاء ومَضْمومتها ، وبالواو مضمومة الفاء لا غير ، وبهذا نعرف خطأ الذين يقرأون بتسكين الفَاء مع الواو « كُفْوا » .

هذه الآية أيضًا فيها نفى الكُفء لله عزَّ وَجَلَّ ، وذلك لكمال صفاته . لا أَحد يُكَافِئُه لا فى عِلْمه ولا سَمْعِه ولا بَصَره ولا قُدرته ولا عِزَّته ولا حِكْمَته ولا غير ذلك من صِفَاته .

* * *

● **ثم قال : ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾** [البقرة : ٢٢] .

هذا أيضا مُفَرَّع على ماسبق : ﴿ يَا أَيُّها ٱلنَّاسُ ٱعْبُدواْ رَبَّكُم الَّذِى خَلَقَكُم وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ . الَّذى جَعَلَ لَكُم الأَرْض فِرَاشًا وَٱلسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَل مِن ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِن ٱلثَّمراتِ رِزْقًا لَكُمْ ﴾ [البقرة : ٢١] .

وكل هذا من توحيد الرُّبوبية . ثم قال : ﴿ فَلَا تَجْعَلُواْ لله أَنْدَادًا ﴾ [البقرة : ٢٢] .

يعنى فى الأُلوهية ؛ لأَنَّ أولئك القوم المُخَاطبين لم يجعلوا لله أندادًا فى الرُّبوبية إِذًا : فلا تجعلوا لله أَنْدادًا فى الأُلوهية كما أنكم تُقِرُّون أَنَّه ليس له أَنْدَادٌ فى الرُّبوبية .

وقوله : ﴿ أَنْدَادًا ﴾ جمع نِد . وَنِدُّ الشَّىء ما كان مُنَادًا أَى مُكَافِئًا ومُشَابهًا ، وما زال النَّاس يقولون : هذا نِدٌّ لهذا . أى مُقَابل له ومُكَافِىء له .

وقوله : ﴿ وَأَنْتُم تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٢] الجملة هنا حالية وصاحب الحال هى الواو فى قوله : ﴿ لَا تَجْعَلُواْ ﴾ والمفعول مَحْذُوف يعنى وأنتم تعلمون أنه لا نِدَّ له .

الجملة الحالية هنا صِفة هل هى صفة كاشفة أَو صِفة مُقَيَّدة ؟

جـ : إذا قلت أَنَّها صفة مُقَيّدة : فكأَنَّك تقول : لا تجعل لله نِدًّا وأنت تعلم أَنَّه ليس له ند ، فإن كنت لا تعلم فاجعل له ندًّا . وهذا لا يستقيم .

إذًا فهى كاشفة ، والصِّفة الكاشفة كالتَّعليل للحكم فَكَأَنَّه قال : لا تجعلوا لله أَنْدادًا لأنكم تعلمون أَنَّه لا نِدَّ له ، فإذا كنتم تعلمون ذلك فكيف تجعلونه فَتُخَالفون عِلْمَكُم ؟

هذه أيضًا صفة سَلْبية وذلك من قوله : ﴿ فَلَا تَجْعَلُواْ لله أَنْدَادًا ﴾ [البقرة : ٢١] ؛ لأَنَّه لا نِدَّ لَهُ ، وحينئذ تكون من باب الصِّفات السَّلبية فليس له أَنْدَادٌ لكمال صِفَاته .

* * *

● **ثم قال : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة : ١٦٥] .**

﴿ مِنَ ﴾ : تبعيضية ، والميزان لـ « مِنَ » التبعيضية أن يَحِلَّ مَحَلَّها : بعض .

يعنى : وبعض الناس ﴿ مَنْ يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱلله أَنْدَادًا ﴾ [البقرة : ١٦٥] يتخذهم أندادًا يعنى فى المحبة فسَّره بقوله : ﴿ يُحِبُّونَهُم كَحُبِّ ٱلله ﴾ [البقرة : ١٦٥] ويجوز أن نقول : أن المراد بالأَنْداد ما هو أَعمُّ من المحبة يعنى أَندادًا يعبُدُونهم كما يَعْبدون الله وينذرون لهم كما ينذرون لله ، لأَنَّهم يحبونهم كحب الله .

يحبون هذه الأنداد كحب الله عزَّ وجل . وهذا إِشْرَاكٌ فى المحبة بحيث تجعل غير الله مثل الله فى محبته .

وينطبق ذلك على من أحبَّ رسول الله كحب الله ؛ لأنَّه يجب أن تحب رسول الله ﷺ محبّة ليست كمحبة الله ، لأنَّك إنما تُحِبُّ الرسول ﷺ تَبَعًا لمحبَّة الله عزَّ وجلَّ ، لا عَلى أنَّه مُنَادٌّ لله ، فكيف بمن يُحِبُّون الرَّسول ﷺ أكثر مما يحبُّون الله ؟!!!

لأن هناك أناسًا يحبون الرَّسول ﷺ أكثر مما يحبون الله ، ومع ذلك يدَّعون أنهم مُتَّبعون لرسول الله ﷺ موحِّدون لله .

وهنا يجب أن نعرف الفرق بين المحبة مع الله والمحبَّة لله .

- المحبة مع الله : أن تجعل غير الله مثله فى محبته أو أكثر . وهذا شِرْكٌ .

- والمحبة فى الله أو لله : هى أن تُحِبَّ هذا تبعًا لمحبة الله عزَّ وجل(1) .

الشاهد من هذا قوله : ﴿مَنْ يَتَّخِذُ مِن دُونِ الله أَنْدَادًا﴾ [البقرة : ١٦٥] .

والآية سِيقَت مَسَاق الذَّم لا مَسَاق المَدْح . وعلى هذا فلا يَحِلُّ لنا أن نجعل لله أَنْدَادًا فى المحبة ؛ لأَنَّه سبحانه وتعالى لا نِدَّ لَهُ ولا شَبِيه له .

* * *

(١) قال الحافظ ابن القيم فى الكلام على الشرك بالله فى المحبة والتعظيم : « وقال أصحاب هذا الشرك لآلهتهم وقد جمعهم الجحيم : ﴿ تا لله إن كنا لفى ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين ﴾ [الشعراء : ٩٧،٩٨] ومعلوم أنهم ما سووهم به سبحانه فى الخلق والرزق والإماتة ، والإحياء ، والملك ، والقدرة ، وإنما سووهم به فى الحب والتأله والخضوع والتذلل لهم ، وهذا غاية الجهل والظلم . فكيف يسوى التراب برب الأرباب ؟ وكيف يسوى العبيد بمالك الرقاب ؟ » ا هـ الجواب الكافى ص (٢٣٥،٢٣٦) .

● **والذى نستفيده من الناحية المسلكية فى هذه الآيات :**

– أَوَّلًا : فى قوله : ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِى الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٧٨] إذا علمنا أَنَّ الله تعالى مَوْصُوف بالجلال ، فإن ذلك يستوجب أن نُعَظِّمه ، وأن نُجِلّه .

وإذا علمنا أنه مَوْصُوفٌ بالإكرام فإن ذلك يَسْتوجب أن نَرْجُواْ كَرَمه وَفضله . وبذلك نعظمه بما يَسْتَحِقُّه من التَّعظيم والتكريم .

– وأما قوله : ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ﴾ [مريم : ٦٥] .

فالفوائد المَسْلكية فى ذلك : هو أن يعبد اللهَ الإنسان ، ويَصْطبر للعبادة لا يَمَل ولا يَتْعب ولا يَضْجر بل يَصْبر عليها صَبْر القرين على قرينه فى المبارزة فى الجهاد .

– وأما قوله : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم : ٦٥] ﴿ وَلَم يَكُن لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ . [الإخلاص : ٤] ، ﴿ فَلَا تَجْعَلُواْ للهِ أَنْدَادًا ﴾ [البقرة : ٢٢] ففيها تنزيه لله عزَّ وجل ، وأن الإنسان يَشْعر فى قَلْبه بأَنَّ الله تعالىٰ مُنَزَّه عن كل نقص وأَنَّه لا مَثِيل له ، ولا نِدّ لَهُ ، وبهذا يُعَظِّمه حَقَّ تَعْظِيمه بقدر اسْتِطاعته .

– وأما قوله : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَنْدادًا﴾ [البقرة : ١٦٥] .

فمن فوائدها من النَّاحية المَسْلكية : أَنَّه لا يجوز للإنسان أن يتخذ أحدًا من النَّاس محبوبًا كمحبة الله ، وهذه تُسَمَّى المحبة مع الله .

الذى يُحِبُّ أحدًا كمحبة الله نقول هذا أحبَّ مع الله لا لله ، ولا فى الله .

* * *

نفى الشريك عن الله تعالى فى القرآن الكريم

٨٣ - ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾ [الإسراء: ١١١].

٨٤ - ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التغابن : ١] .

٨٥ - ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان : ١ ، ٢] .

٨٦ - ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [المؤمنون : ٩١ ، ٩٢] .

٨٧ - ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ٧٤] .

٨٨ - ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٣] .

الشـــرح

● ثم قال : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ

﴿ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ [الإسراء : ١١١] .

﴿ قُلِ ﴾ الخطاب للرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام ، أو من يَتَأَتَّى خِطَابُه .

– إن كان للرَّسول ﷺ فغَيْره تبعًا له .

– وإن كان عاماً فهو يشمل الرَّسول ﷺ وغيره .

﴿ ٱلْحَمْدُ لله ﴾ سَبَق تفسير هذه الجملة ، وأَنَّ الحمد : هو وَصْفُ المحمود بالكمال مع المحبة والتَّعظيم .

وقوله : ﴿ لله ﴾ اللام هنا للاستحقاق والاختصاص :

١ – للاستحقاق : لأَنَّ الله تعالى يُحْمَدُ وهو أَهْلٌ للحَمْد .

٢ – والاختصاص : لأَنَّ الحمد الذى يُحْمَدُ الله به ليس كالحمد الذى يُحْمَدُ به غيره بل هو أَكْمَلُ وأعظم .

وقوله : ﴿ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ [الإسراء : ١١١] هذا من الصِّفات السَّلبية ﴿ لَمْ يَتَّخِذ وَلَدًا ﴾ لكمال صِفَاته ، وكمال غِنَاهُ عن غيره ، ولأَنَّه لا مَثِيل له فلو اتَّخذ وَلَدًا لكان الولد مثله .

لو كان له ولد لكان مُحْتَاجًا إلى الولد يُسَاعِدُه ويُعِينه .

لو كان له ولد لكان ناقصًا ؛ لأَنَّه إذا شَابهه أَحَدٌ من خلقه فهو نَقْصٌ .

وقوله : ﴿ وَلَدًا ﴾ : يشمل الذَّكر والأُنْثى . ففيه ردٌّ على اليهود والنَّصارىٰ والمشركين :

١ – اليهود : قالوا لله ولد وهو عُزَير .

٢ – والنصارى : قالوا لله ولد وهو المسيح .

٣ - والمشركون : قالوا لله وَلَد وهم الملائكة .

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ ﴾ هذا مَعْطُوف على قوله : ﴿ لَم يَتَّخِذ وَلَدًا ﴾ يعنى والَّذى لم يكن له شريك فى المُلك ، لا فى الخلق ولا فى المُلك ولا فى التَّدبير .

كل ما سوى الله فهو مَملُوكٌ لله مَخْلُوقٌ لَه يُدَبِّره كما يشاء .

ولم يُشَارِكه أحد فى ذلك : ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِين زَعمتم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى السَّمَٰوَاتِ وَلَا فِى ٱلأَرْضِ وَمَا لَهُم فِيهما مِن شِرْكٍ ﴾ [سبأ : ٢٢] على سبيل الشُّيوع : ﴿ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ لم يُعَاوِنه أحد فى هذه السَّماوات والأَرض : ﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَن أَذِنَ لَهُ ﴾ [سبأ : ٢٣] وبهذا تَقَطَّعت جميع الأسباب التى يتعلَّق بها المشركون فى آلهتهم .

فالآلهة هذه لا تملك ، ولَيْست شريكة لله ولا مُعِينة ولا شَافِعة . يقول : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ ﴾ [الإسراء : ١١١] .

وقد مرَّ علينا فيما سبق اعتراض وجواب : وهو أن الله تعالى أَثْبَتَ هذا المُلْك للخَلْق بقوله : ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَفَاتِحَهُ ﴾ [النور : ٦١] ، ﴿ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِم أَوْ مَا مَلَكَت أَيْمَانُهُم ﴾ [المؤمنون : ٦] ؟!

وأجبنا على ذلك : بأنَّ هذا الملك قَاصِرٌ من حيث الشُّمول والعُمُوم ومن حيث السُّلطة :

- من حيث الشمول والعموم : لأن مُلْك الإنسان قَاصِر والله تعالى يَمْلك الجميع .

- أيضًا قاصر من حيث السُّلطة : فليس للإنسان أَن يَتَصَّرف فى مُلْكِه

كما شاء بل لا يتصرَّف إلَّا على حَسَب الإذن الشَّرعى .

أرأيتم لو أَن رَجُلًا مريضًا مرض الموت وَوَهَب نصف مَالِه لغيره ! فهذا لا يَجُوز ، ولو كان له الملك المُطْلق لجَازَ ، ولو جمع جميع ما عنده من الدَّنَانِير وقال : سَأُضْرِمُ عليها النَّار ! أُريد أَن أنظر إذا ماع الذَّهب ماذا سيصير ؟ فهذا يُمْنع ، لأَنَّ هذا سَفَه !!

إذًا مُلْكنا قَاصر . فالله هو الذى له المُلْك المُطْلق .

قال : ﴿ وَلَم يَكُن لَهُ وَلِىٌّ مِن الذُّلِّ ﴾ [الإسراء : ١١١] لم يكن لَهُ وَلِىٌّ لكنه قَيَّد بقوله : ﴿ مِن آلذُّلِّ ﴾ [الإسراء : ١١١] . و﴿ من ﴾ هنا للتَّعليل ؛ لأنَّ الله تعالى له أُولياء : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ آللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِم وَلَا هُم يَحْزَنُون ﴾ [يونس : ٦٢] .

وقال تعالى فى الحديث القدسى : « مَنْ عَادَىٰ لِى وَلِيًّا فَقَد آذَنْتُه بِالْحربِ ... »[١] .

فللَّه أَوْلِياء لكن هل هؤلاء الأَوْلياء أَوْلِياءٌ لله يَنْصُرونه عند ذُلِّه ؟!

الجواب : لا . فهو لا يحتاج إلى أحد كما قال تعالى فى الحديث القدسى : « يَا عِبادى لو أَنَّ أَوَّلكُم وَآخِرَكُم وإِنْسَكُم وجِنَّكم كَانُوا عَلَى أَفْجَر قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ منكم مَا نَقَصَ ذَٰلكَ مِن مُلْكِى شَيْئًا » . ولا يضر الله شيئًا .

﴿ وَمَن كَفَر فَإِنَّ الله غَنِىٌّ عَنِ العَالَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٧]

﴿ عَنِ العَالَمِين ﴾ حتَّى المُسْلمين . الله تعالى غَنِىٌّ عنهم فلهذا يقول : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَهُ وَلِىٌّ مِن الذُّلِّ ﴾ [الإسراء : ١١١] أما من غير الذُّل فللَّه أَوْلياء .

---

(١) رواه البخارى (٦٥٠٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

الأصنام المعبودة من دون الله لها أَوْلياء يُدَافعون عنها ويُنابِذُون دُونها وهى لا تنتصر لِنَفْسِها كما قال تعالى : ﴿ وَهُم لَهُم جُنْدٌ مُحْضَرُون ﴾ [يس : ٧٥] هؤلاء جند لهذه الأَصْنَام ولكن الأَصنام لا تَنْفَعُهم لا يستطيعون نَصْرهم وهم أى العَابدون : ﴿ لَهم جُنْدٌ مُحْضَرون ﴾ [يس : ٧٥] .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ [الإسراء : ١١١] يعنى كَبِّر الله عز وجل تكبيرًا بلسانك وَجَنَانِك وتعتقد فى قلبك أَنَّ الله أكبر من كُلِّ شىء وأَنَّ له الكِبْرِياء فى السَّماوات والأَرض .

وكذلك بلسانك تُكَبِّره تقول : الله أكبر !

وكان من هَدْى النَّبى ﷺ وأَصْحابه أَنَّهم يكبرون كلما عَلَوا نشزًا[1] وهذا فى السَّفر ؛ لأَنَّ الإِنسان إذا علا فى مكانه قد يَشْعر فى قلبه أَنَّه مُسْتَعْلٍ على غيره . فيقول : الله أكبر من أجل أن يُخَفِّف تلك العَلْياء التى شعر بها حين علا وارتفع .

وكانوا إذا نزلوا شيئًا قالوا : سبحان الله ؛ لأن النُّزُول سُفُول فتقول : سبحان الله : أى أُنَزِّهه عن السُّفُول الذى أنا الآن فيه .

وقوله : ﴿ تَكْبِيرًا ﴾ هذا مصدر مؤكد يُراد به التعظيم . أى كبِّره تكبيرًا عظيمًا .

(١) ففى حديث جابر رضى الله عنه قال : « كُنَّا إِذَا صَعَدنا كبَّرنا ، وإذا نَزَلْنا سَبَّحنا » رواه البخارى (٢٩٩٣) . وفى حديث ابن عمر قال : « كان النبى ﷺ وجيوشه إذا علوا الثنايا كبروا ، وإذا هبطوا سبَّحوا » رواه أبو داود (٢٥٩٩) ، وصحَّحه النووى فى الأذكار (٥٩٦) .

وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : « كنا مع النبى ﷺ فكُنَّا إذا أشرفنا على وادٍ هلَّلنا ، وكبَّرنا ... » الحديث رواه البخارى (٦٣٨٤) .

● **والذى نستفيده من النَّاحية المسلكية فى هذه الآية :**

ففيها من الفوائد أَنَّ الإنسان يَشْعُر بكمال غنى الله عزَّ وجل عن كل أَحد يَتَّخذ ولدًا ، وانفراده بالملك وتَمَام عِزَّته وسُلْطَانه ، وحينئذ يُعَظِّم الله سبحانه وتعالى بما يَسْتَحِقّ أن يُعَظَّم به بقدر استطاعته .

– وكذلك يستفيد الإنسان بها من النَّاحية المسلكية كراهة أُولئك الذين اتَّخذوا من دون الله أَندادًا ، والَّذين اتَّخذوا لَهُ ولدًا .

* * *

● **قال المؤلف :** ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [**التغابن : ١**] .

﴿ يُسَبِّحُ ﴾ : بمعنى يُنَزِّه ، والتَّسْبِيح بمعنى التَّنزيه وَسَبَّح تَتَعَدى بنفسها وتتعدَّىٰ باللام :

١ – أَمَّا تَعَدِّيها بنفسها : فمثل قوله تعالى : ﴿ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوه بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفتح : ٩] .

٢ – وَأَمَّا تَعَدِّيها بالَّلام : فهى كثيرة كُلّ السُّور المبدوءة بهذا مُتَعَدِّية باللام .

قال العلماء : وإذا أُريد مُجَرّد الفعل تعدَّت بنفسها ﴿ تُسَبِّحُوه ﴾ فمعنى تسبِّحوه : أى تقولوا : سبحان الله !

وإذا أُريد بيان القصد والإخلاص تَعَدَّت باللام سبح لله، أى سبحوا إخلاصًا لله واستحقاقًا .

فاللام هنا تبيِّن كمال الإرادة من الفاعل وكمال الاستحقاق من المُسَبِّح

وهو الله فتكون أبلغ من قوله : « سَبَحَ الله » .

قوله : ﴿ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ [التغابن : ١] عامٌّ يَشْمَل كل شيء لكن التَّسبيح نوعان :

تَسْبِيحٌ بلسان المَقَال ، وتَسْبِيحٌ بلسان الحال .

١ - أمَّا التَّسبيح بلسان الحال : فهو عام : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بحمدِه ﴾ [الإسراء : ٤٤] .

٢ - وأمَّا التَّسبيح بلسان المقال : فيخرج منه الكافر ، فإن الكافر لم ينزه الله بلسانه ولهذا يقول تعالى : ﴿ سُبْحانَ ٱللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الحشر : ٢٣] ، ﴿ سُبْحَانَ الله عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الصافات : ١٥٩] فهم لم يُسَبِّحوا الله تعالى ، لأنَّهم أشركوا به والشِّرك ينافى التَّسبيح يعنى ينافى التَّنزيه .

والخلاصة : هل تَسْبِيح ما فى السَّمٰوات والأَرْض عَامٌّ أَوْ يخرج منه شيء ؟

نقول : أمَّا بلسان الحال فهو عام ، وأمَّا بلسان المقال فيخرج منه الكافر فإنَّه لم يُسبح الله حيث وَصَفه بالعَيْب ، وأَشْرك بِهِ مَعَهُ غيره .

لسانُ الحال : يعنى أَنَّ حال كل شيء فى السَّمٰوات والأَرض تدلُّ على تنزيه الله سبحانه وتعالى عن العَبَث وعن النَّقص . حتى الكافر إذا تأمَّلت حاله وَجدتَّها تَدُلُّ على تنزه الله تعالى عن النَّقص والعَيْب .

قال : ﴿لَهُ المُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن : ١] .

هذه الصِّفات الأخيرة صِفَاتٌ ثُبوتية ، لكن ﴿ يُسَبِّحُ لله ﴾ صفة سَلْبِية ، لأَنَّ معناها : تَنْزيهُه عمَّا لا يليق به .

وسبق الكلام على قوله : ﴿ لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِير ﴾ .

* * *

● **قال : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾**
[الفرقان : ١] .

﴿ تَبَارَكَ ﴾ : بمعنى تَعَالَىٰ وتَعَاظَم ، وحلَّت البركة به بذكر اسْمِه وغير ذلك . والذى نزَّل الفُرقان على عبده : هو الله عزَّ وجلَّ .

وقوله : ﴿ الفُرْقَانَ ﴾ يعنى به القرآن ؛ لأنَّه يُفرِّق بين الحق والباطل ، وبين المسلم والكافر ، وبين البر والفاجر ، وبين الضَّار والنَّافع ، وغير ذلك مما فيه الفُرْقان فكلُّه فُرْقان .

يقول : ﴿ عَلَىٰ عَبْدِهِ ﴾ : محمد عليه الصَّلاة والسَّلام وقال : ﴿ عَلَىٰ عَبْدِهِ ﴾ فوصَفَهُ بالعبودية فى مقام التَّحدُّث عن تنزيل القرآن عليه ، وهذا المقام من أشْرف مَقَامات النَّبى ﷺ ولهذا وصفه الله تعالى بالعُبوديّة فى مقام تنزيل القرآن عليه كما هنا وكما فى قوله : ﴿ الحَمْدُ لله الَّذِى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الكِتَابَ ﴾ [الكهف : ١] ، ووصفه بالعبودية فى مقام الدفاع عنه والتحدى : ﴿ وَإِن كُنْتُم فِى رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ [البقرة : ٢٣] ، ووصفه بالعُبُوديّة فى مقام تكريمه بالمعراج فقال : ﴿ سُبْحَان الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِن المَسْجِد الحَرَامِ ﴾ [الإسراء : ١] وقال فى سورة النجم : ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلى عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾ [النجم : ١٠] مما يدل على أن وصف الإنسان بالعبودية لله يُعْتَبَرُ كمالًا ؛ لأنَّ العبودية لله هى حقيقة الحرية ، فمن لم يَتَعَبَّد له كان عابدًا لغيره .

قال ابن القيم – رحمه الله –:

هَرَبُوا مِن الرِّق الَّذِى خُلِقُوا لَهُ وَبُلُوا بِرِقِّ النَّفس والشَّيْطَانِ (١)

والرِّق الذى خُلِقُوا له : عبادة الله عزَّ وجل .

وبُلوا بِرقّ النَّفس والشَّيطان : حيث صاروا أَرقّاء لنُفُوسهم ، وأَرِقَّاء للشَّيطان فما من إنسان يَفرُّ من عبودية الله إلَّا وَقَع فى عبودية هَوَاه وشيطانه : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَن اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ [الجاثية : ٢٣] .

قوله : ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ١] اللام هنا للتَّعليل والضَّمير فى ﴿ يَكُونَ ﴾ عائد على النبى عليه الصَّلاة والسَّلام ، لأَنَّه أَقرب مذكور ، ولأن الله تعالى قال : ﴿ لِتُنْذِرَ بِهِ ﴾ [الأعراف : ٢] . وقال تعالى : ﴿ لِأُنْذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغ ﴾ [الأنعام : ١٩] فالمنذر : الرسول عليه الصَّلاة والسَّلام .

وقوله : ﴿ لِلْعَالَمِين ﴾ يشمل الجن والإنس .

وقوله : ﴿ الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّماوَاتِ وَٱلأَرْضِ ﴾ [الفرقان : ٢] وإلى الآن ونحن فى الصِّفات الثُّبوتية .

وقوله : ﴿ وَلَم يَتَّخِذ وَلَدًا ﴾ هذا من الصِّفات السَّلبية ﴿ وَلَمْ يَكُن لَهُ شَرِيكٌ فِى المُلْكِ ﴾ [الفرقان : ٢] صفة سلبية ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْء ﴾ [الفرقان : ٢] ثبوتية ﴿ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان : ٢] ثبوتية .

﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان : ٢] . قال بعض العلماء إنَّ هذه الآية على التَّقديم والتَّأخير ؛ لأَنَّ التَّقدير قبل الخلق .

---

(١) الكافية الشافية لابن القيم بشرح هراس (٢/٣٢٨)

وقال بعضهم : بل هى على التَّرتيب . والمراد بالتَّقدير هنا : جعله على قدر معين ، فهو بمعنى التَّسوية . قالوا : ويدلُّ لذلك قوله تعالى : ﴿ الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ [الأعلى : ٢] وهذا أصح .

فى هذه الآيات من الصِّفات السَّلبية قوله : ﴿ وَلَم يَتَّخِذ وَلَدًا ﴾ [الفرقان : ٢] والعلة كمال غناه . لا يتخذ الولد إلا من كان محتاجًا له .

﴿ وَلَم يَكُن لَهُ شَرِيكٌ فِى المُلْكِ ﴾ [الفرقان : ٢] لكمال سلطانه وملكه .

● **نستفيد من هذه الآيات من الناحية المسلكية :**

– أنه يجب علينا أن نعرف عظمة الله عز وجل وتَنَزُّهه عن كُلِّ نَقْص ، وإذا علمنا ذلك ازْددنا محبَّة لَهُ وتعظيمًا .

– وفى آية الفرقان نَسْتَفيد منها بيان هذا القرآن العظيم وأَنَّه مَرْجع وأن الإنسان إذا أراد أن تَتَبيَّن له الأُمور فليرجع إلى القرآن لأنَّ الله سَمَّاه فرقانًا : ﴿ نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ﴾ [الفرقان : ١] .

– ونستفيد أيضًا من النَّاحية المسلكية التَّربوية أن تَتَأَكَّد مَحَبَّتُنا لرسول الله ﷺ حيث كان عبدًا لله ، ونحن كلما كان الإنسان أَعْبَد لله كان أحب إلينا . لأننا نُحِبُّ من يعبد الله عزَّ وجل .

– ونستفيد أيضًا أن النبى عليه الصلاة والسلام آخر الرُّسل فَلا نُصَدق بأى دَعْوى للنُّبوة من بعده لقوله : ﴿ للعَالَمِين ﴾ ولو كان بعده رسول لكان تنتهى رِسَالته بهذا الرَّسول ، ولا كانت للعالمين كلهم .

* * *

● ثم قال : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ .. ﴾ [المؤمنون : ٩١]

﴿ مِنْ ﴾ : هذه زائدة فى الإعراب لكنها تَزِيدُ فى المعنى لأَنَّها تدلُّ على تأكيد النَّفى .

﴿ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ ﴾ لا عزيرًا ولا المسيح ، ولا الملائكة ولا غيرهم ؛ لأَنَّه لم يلد ولم يولد .

﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِن إِلَهٍ ﴾ نقول فى ﴿ إِلَه ﴾ كما قلنا فى ﴿ مِن وَلَدٍ ﴾ .

وقوله : ﴿ مِن إِله ﴾ إله بمعنى مَأْلُوه مثل : بناء بِمعنى مَبْنِى ، فِراش بمعنى مَفْرُوش فالإله بمعنى المَأْلُوه أى المعبود المُتَذَلَّل لَهُ ، والمراد بالنَّفى هنا : الإله الحق .

يعنى : ما كان معه من إله حق ، أَمَّا الآلهات الباطلة فهى موجودة ، لكن لكونها باطلة كانت كالعَدَم فصحَّ أَن نقول : مَا كان مع الله من إله .

إذًا : يعنى لو كان معه إله يُماثله ﴿ لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُم عَلَىٰ بَعْض ﴾ [المؤمنون : ٩١] . لو كان هناك إله آخر يُسَاوِى الله عز وجل لكان يَصير له مُلْك خَاص ، ولله ملك خاص يعنى : لا نفرد كل واحد منهم بما خَلَق .

قال : هذا خَلقى لى ، وكذلك الآخر ، وحينئذ يُريد كل منهما أن يُسَيْطر على الآخر كما جرت به العَادة . فملوك الدُّنيا الآن كل واحد منهم يُريد أن يُسَيْطر على الآخر وتكون المملكة كُلُّها له .

وحينئذ إما أن يَتَمَانَعا ، فَيَعْجز كل واحد منهما عن الآخر وإذا عجز كل واحد منهما عن الآخر مَا صَحَّ أَن يَكُونا إلهين ؛ لأَنَّ الإله لا يكون عاجزًا .

وإمَّا أن يعلو أحدهما على الآخر : فالعالى هو الإله ، فترجع المسألة إلى أنه لابد أن يكون للعالم إله واحد ، ولا يمكن أن يكون للعالم إلهان أبدًا، لأنَّ القضية لا تخرج من هذين الاحتمالين .

كما أننا أيضًا إذا شاهدنا الكون علويَّه وسُفليه وَجَدنا أَنَّه كونٌ يصدر عن مُدَبِّر واحد وإلَّا لكان فيه تَنَاقُض .

يكون أحد الإلهين يقول : أَنَا أُريد الشَّمس تخرج من المغرب والثانى يقول : أُريدها تطلع من المشرق ، لأنَّ اتفاق الإرادتين بعيد جدًا ، ولاسيما وأن المقام مقام سُلْطة فكل واحد يُريد أَن يَفْرض رَأْيه . ومَعْلُومٌ أَنَّنا لا نُشَاهد الآن الشَّمس تَطْلُع يومًا مع هذا ويَومًا مع هذا ويومًا تتأخر ، لأنَّ الثَّانى منعها يومًا ، تتقدم لأن الأَول أمر الثَّانى بإخراجها فلا نجد هذا .

نجد الكون كله واحد مُتَنَاسب مُتَنَاسق مما يَدُلُّ دلالة ظاهرة على أَنَّ المُدَبِّر له واحد وهو الله عزَّ وجلَّ . فبيَّن الله سبحانه وتعالى بدليل عقلى أَنَّه لا يمكن التَّعَدُّد ، إذ لو أمكن التَّعـدد لحصل هذا . لانفصل كل واحد عن الثَّانى وذهب كل إله بما خلق وحينئذ إما أن يعجز أحدهما عن الآخر ، وإما أن يَعْلُو أحدهما الآخر فإن كان الأول لم يَصْلُح أَى واحد منهما للألوهية ، وإن كان الثَّانى فالعالى هو الإله وحينئذ يكون الإله واحدًا . ثم قال تعالى : ﴿ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون : ٩١] أى تنزيهًا لله عز وجل عما يَصفه به الملحدون المشركون : ﴿ عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ [المؤمنون : ٩٢] الغَيْب : مَا غَاب عن النَّاس ، والشَّهادة : مَا شَهده الناس .

﴿ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [المؤمنون : ٩٢] . هنا قال : ﴿ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون : ٩١] لأَنَّهم يقولون بأفواههم فنزّه نفسه عنهم . أَمَّا هنا قال : ﴿ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [المؤمنون : ٩٢] لأَنَّهم يقولون يَجْعَلُون له

شركاء : هذا الصَّنم وهذا الصَّنم فقال : ﴿ تَعَالَىٰ ﴾ يعنى تَرَفَّع وتَقَدَّس وتَنَزَّه عن هذه الأَصْنَام .

* * *

● **ما نستفيده من هذه الآية من الناحية المسلكية :**

أنها تحمل الإنسان على الإخلاص لله عزَّ وجل .

* * *

● **قال :** ﴿ فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [**النحل : ٧٤**] .

يعني لا تجعلوا لله مثلًا فتقولون : مَثَلُ الله كَمَثَلِ كذا وكذا : ﴿ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُم لا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ٧٤] يعنى أَنَّه سبحانه وتعالى يَعْلَمُ بأَنَّه ليس له مِثْل وقد أَخبركم بأَنَّه لا مِثْلَ له فى قوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِه شَىْءٌ ﴾ [الشورى : ١١] ، ﴿ لَم يَكُن لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : ٤] ، ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم : ٦٥] وما أَشبه ذلك .

فالله يعلم وأَنتم لا تَعْلمون . وقد يُقال : إِنَّ هذه الجملة بها الدَّليل الواضح على أَنَّه ليس لله نِدًّا وأَنَّها كَضَرْب المَثَل فى امْتِناع المِثْل لأَنَّنا نحن لا نعلم والله يعلم ، فإذا انتفى العِلم عنَّا وثَبَتَ لله تَبَيّن أَنَّ لا مُمَاثَلة ، ويَدُلُّك على نقص علمنا : أَنَّ الإنسان لا يعلم ما يفعله فى اليوم التَّالى : ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ [لقمان : ٣٤] . وأَنَّ الإِنسان لا يعلم نفسه التى بين جَنْبيه : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِن أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء : ٨٥] .

ومَا زَال الفلاسفة والمُتَفَلْسِفَة وغيرهم يبحثون عن حقيقة هذه الرُّوح ولم يَصلوا إلى حقيقتها مع أَنَّها هى مادة الحياة ، وهذا يدلُّ على نقصان العِلم

قال الله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم من العِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٨٥] .

فإن قلت : كيف تجمع بين هذه الآية : ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لله الأَمْثَال إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُم لَا تَعْلَمُون ﴾ [النحل : ٧٤] وبين قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُواْ لله أَنْدَادًا وَأَنْتُم تَعلَمُون ﴾ [البقرة : ٢٣] ؟!

فالجواب : أنه هناك يخاطب الَّذين يُشركون به فى الألوهية فيقول : ﴿ لَا تَجْعَلُوا لله أَنْدَادًا ﴾ [البقرة : ٢٣] فى العِبَادة والأُلوهية : ﴿ وَأَنْتُم تَعْلَمُون ﴾ [البقرة : ٢٣] أَنَّه لا نِدّ له فى الرُّبوبية ، والآية هى : ﴿ يَا أَيُّها النَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُم ٱلَّذِى خَلَقَكُم وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم لَعَلَّكُم تَتَّقُون . ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاء بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِن الثَّمَراتِ رِزْقًا لكم فلا تَجْعَلُوا لله أَنْدَادًا وَأَنْتُم تَعلَمُون ﴾ [البقرة : ٢١، ٢٢] .

أما هنا ففى باب الصِّفات : ﴿ لا تَضرِبوا لله الأَمْثَال ﴾ [النحل : ٧٤] فتقولوا مثلًا : إنَّ يَد الله مثل يَدِ كذا ، وَجْه الله مثل وَجه كذا ، وذَاتَ الله مثل الذَّات الفُلانية ، وما أَشْبَه هذا ..؛ لأَنَّ الله تعالى يعلم وأنتم لا تعلمون ، وقد أَخبركم بأَنَّه لا مَثِيل له .

وهذه الآية تتضمَّن من الكمال : كمال صفات الله عز وجل حيث إِنَّه لا مثيل له .

* * *

● **أما الفائدة المسلكية التى تؤخذ من هذه الآية :**

فهى : كمال تَعْظيمنا للرَّب عز وجل ؛ لأَنَّنا إذا عَلِمنا أَنَّه لا مَثِيل له تَعَلَّقنا به رَجَاءً وخوفًا وعَظمناه وعَلِمنا أَنَّه لا يمكن أن يُمَاثله سُلطان ولا ملك

ولا وَزِير ولا رَئِيس مَهما كانت عظمة مِلكيَّتهم وَرِئَاستهم وَوزارتهم ، لأن الله سبحانه ليس له مِثْل .

* * *

● وقال : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [**الأعراف : ٣٣**] (١)

﴿ قُلْ ﴾ الخطاب للنَّبى ﷺ .

﴿ حَرَّمَ ﴾ بمعنى منع وأَصل هذه المادة (ح . ر . م) تدلُّ علىٰ المنع ومنه : حريم البئر ؛ للأرض التى تَحْميه حوله ، لأنه يمنع من التَّعدى عليه .

﴿ الفَوَاحِشَ ﴾ جمع فاحشة وهى الذَّنب الذى يُسْتَفْحش مثل الزِّنىٰ واللُّواط .

– الزِّنىٰ : قال الله فيه : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّه كَانَ فَاحِشَةً ﴾ [الأعراف : ٨٠] .

– وفى اللواط : قال لوطٍ لقومه : ﴿أَتَأْتُونَ الفَاحِشَةَ﴾ [الأعراف : ٨٠] .

ومن الزِّنىٰ أن يتزوج الإِنسان امرأة لا تَحِلُّ له لقرابة أو رضاع أو مصاهرة قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَح ءَابَاؤُكُم مِن النِّسَاءِ إِلَّا مَا

---

(١) (*) **قال الشيخ ابن باز حفظه الله:** «وجْهُ سياق هذه الآية ضمن إثبات آيات الصفات للدلالة على أن القول على الله بلا علم من أعظم المحرمات ، بل إنه يأتى فى مرتبة أعلى من مرتبة الشرك ، حيث رتب المحرمات فى هذه الآية من الأدنى إلى الأعلى ، والقول على الله بلا علم يشمل القول عليه فى أحكامه وشرعه ودينه كما يشمل القول عليه فى أسمائه وصفاته وهو أعظم من القول عليه فى شرعه ودينه ، فسياق الآية الكريمة هنا للتنبيه على هذا والله أعلم . ا هـ » .

قَد سَلَفَ إِنَّه كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ [النساء : ٢٢] بل إِنَّ هَذَا أَشَدُّ من الزِّنى لأَنَّه وَصفَه بثلاثة أَوْصَاف : فاحشة . ومَقْت . وَسَاء سَبيلا . وفى الزِّنى وَصفَه الله بِوَصْفَين : ﴿إِنَّه كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء : ٣٢] .

وقوله : ﴿ مَا ظَهَر مِنْهَا وَمَا بَطَن ﴾ [الأعراف : ٣٣] . قيل : إِنَّ المعنى ما ظهر فُحْشُه ومَا خَفِى ، وقيل : المعنى ما ظهر للنَّاس وما بطن عنهم باعتبار فِعْل الفَاعل لا باعتبار العَمل . أى مَا أَظْهره الإنسان للنَّاس وما أَبْطَنه .

ثانيًا : قال : ﴿ وَالإِثْمَ وَالبَغْى بِغَيْر الحَقِّ ﴾ [الأعراف : ٣٣] . يعنى حرَّم الإثم والبغى بغير الحق .

والإثم : المراد به ما يكون سببًا له من المعاصى .

والبغى : العدوان على الناس : ﴿ إِنَّما السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى الأَرْضِ بِغَيْر الحَق ﴾ [الشورى : ٤٢] .

وفى قوله : ﴿ وَالبَغْى بِغَيْر الحَقِّ ﴾ [الأعراف : ٣٣] إشارة إلى أَنَّ كل بَغْى فهو بغير حق وليس المراد أَنَّ البغى ينقسم إلى قسمين : بَغْى بِحَقٍّ ، وبغى بغير حق ؛ لأَنَّ البغى كُلَّه بغير حق .

وعلى هذا فيكون الوَصْف هنا من باب الوَصف الكَاشف ويُسَمِّيها العلماء صفة كاشفة أى مُبَيِّنة ، وهى التى تكون كالتَّعليل لموصوفها قال : ﴿ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّل بِهِ سُلْطَانًا ﴾ [الأعراف : ٣٣] هذه مَعْطوفة على ما سبق يعنى : وَحَرَّم ربى أن تشركوا بالله ما لم يُنَزِّل به سلطانًا يعنى أن تجعلوا له شريكًا لم ينزل به سلطانًا أى حجة وسُمِّيت الحجة سُلْطانًا لأَنَّها سلطة للمحتج بها . وهذا القَيْد : ﴿ مَا لَمْ يُنَزِّل بِهِ سُلْطَانًا ﴾ [الأعراف : ٣٣] نقول فيه كما قلنا فى : ﴿ البَغْى بِغَيْر الحَقِّ ﴾ [الأعراف : ٣٣] أى أَنَّه قَيْدٌ

كاشف ؛ لأَنَّ كُلَّ من أَشرك بالله فَليس له سلطان .

قال : ﴿ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى الله مَا لَا تَعْلَمُون ﴾ [الأعراف : ٣٣] .

أيضًا : هذا مِمَّا حرَّم الله علينا أن نقول عليه ما لا نعلم فى ذَاتِه أو فى صِفَاته أو فى أَفْعَاله أَوْ فى أحكامه فحرام علينا أن نقول على الله ما لا نعلم سواء كان فى ذَاتِه أو أَسْمَائِه أَو صِفاته أَو أَفْعَالِه أَو أَحكامه .

خمسة أشياء لا يجوز علينا أَن نقول عليه فيها ما لا نعلم .

إذا قال قائل : أين الصِّفة السَّلبية فى هذه الآية ؟

هى : ﴿ أَنْ تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَىٰ ٱللَّهِ مَالَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٣] .

فالثِّنتان جميعًا من باب الصفات السلبية : ﴿ أَنْ تُشْرِكُوا ﴾ يعنى لا تجعلوا لله شريكًا لكماله : ﴿ وَأَنْ تَقُولُواْ عَلَى ٱللهِ مَا لَا تَعْلَمُون ﴾ [الأعراف : ٣٣] كذلك لكماله فإنَّه من تمام سُلْطَانه أن لا يقول عليه أَحَدٌ ما لا يعلم .

* * *

● **الفائدة المَسْلَكِيّة من هذه الآية :**

هو أَن نَنْفر غاية النُّفور من هذه الأشياء الخمسة التى صَرَّح الله تعالى بتحريمها .

وقد قال أهل العلم : إنَّ هذه المحَّرمات الخمسة مما أَجْمَعت الشَّرائع على تحريمها إذا حرَّف الإنسان نُصوص الصِّفات مثل أن يقول : المراد باليدين النّعمة فقد قال على الله ما لا يعلم من وجهين :

الوجه الأول : أَنَّه نَفَى الظَّاهر .

والثَّاني : أَثْبَتَ لله خلافه بغير دَلِيل فهو يقول : لم يُرد الله كَذا وأَرَادَ كذا ، فنقول : هات الدَّليل على أَنَّه لم يُرِدْ كذا وعلى أَنَّه أَرَادَ كذا ، فإن لم تَأْتِ بالدَّليل فإِنَّك قد قُلْتَ على الله مَا لا تَعْلَم .

* * *

إثبات استواء الله عَلَىٰ عَرْشه فى القرآن الكريم .

٨٩ – ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ فى سبعة مواضع :

٩٠ – فى سورة الأعراف : قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [الأعراف : ٥٤].

٩١ – ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [يونس : ٣] .

٩٢ – ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [الرعد : ٢] .

٩٣ – ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه : ٥] .

٩٤ – ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [الفرقان : ٥٩] .

٩٥ – ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [السجدة : ٤] .

٩٦ – ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [الحديد : ٤] .

الشـــرح

● **وقوله : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه : ٥] فى سبعة مواضع .**

كلام المؤلف ظاهره فيه شيء من النظر ، لأنها لم تتكرر بهذا اللفظ فى سبعة مواضع ؛ وإنما جاءت فى موضع واحد ، لكن المؤلف - رحمه الله - يعتذر عنه بأنه قالها على سبيل المعنى دون اللفظ كأنه قال وقوله : بأنه استوى على عرشه فيكون المراد المعنى وإنَّما قال فى سَبْعة مَواضع لِيُؤَكِّد ثُبوت الاستواء لله وأنه لا يمكن أن يراد به خلاف الظاهر إذ لم يأت فى موضع منها مُبَيَّنًا فيه خلافُ الظَّاهِر يعنى لو أن المواضع السَّبعة هذه جاءت فى موضع واحد يقول : استوى : اسْتَولى ، لحملنا بَقيَّتها عليه لكن لم يأت بهذا اللَّفظ أبدًا .

● **يقول : الموضع الأول : فى سورة الأعراف قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ .**
[الأعراف : ٥٤].

﴿ ٱللهُ ﴾ خبر إنَّ .

﴿ خَلَقَ السَّمَاوَات ﴾ أَوْجَدها .

﴿ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ ومدة هذه الأَيَّام كَأَيَّامِنَا التى نَعْرف ؛ لأَنَّ الله سبحانه وتعالى ذكرها مُنكَّرة فَتُحْمَل على مَا كَان مَعْرُوفًا .

وأوَّل هذه الأيَّام يَوْمُ الأحد وَآخِرها يوم الجُمُعة .

منها أربعة أَيَّام للأَرْض ، ويَوْمان للسَّماء كما فصَّل الله ذلك فى سورة فُصِّلت :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُم لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَق الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ ، وَتَجْعَلونَ لَهُ

أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ العَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيها أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِين ﴾ [فصلت : ١٠] فصارت أربعة .

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلى السَّمَاءِ وَهِى دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْها قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِين . فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت : ١١،١٢] .

وقوله : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ العَرْش ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

﴿ ثُمَّ ﴾ للتَّرتيب .

﴿ اسْتَوَىٰ ﴾ بمعنى عَلَا .

و﴿ العَرْش ﴾ هو ذلك السَّقف المحيط بالمخلوقات ، ولا نعلم مَادَّة هذا العرش ؛ لأَنَّه لم يَرِد عن النَّبى ﷺ حَدِيثٌ صَحِيحٌ يُبَيِّن من أين خُلِقَ هذا العَرْش لكننا نعلم أَنَّه أكبر المخلوقات التى نعرفها .

وأَصْلُ العرش فى اللُّغة : السَّرير الذى يختَصُّ به الملك ، ومَعْلُومٌ أَنَّ السَّرير الذى يختَصُّ به الملك سيكون سَرِيرًا عظيمًا فخمًا لا نظير له .

فى هذه الآية من صفات الله تعالى عِدّة صفات لكن المؤلف سَاقها لإثبات صفة واحدة وهى : الاستواء على العرش .

وأَهْلُ السُّنة والجماعة يؤمنون بأَنَّ الله تعالىٰ مُسْتوٍ عَلَىٰ عَرْشه استواءً يَليق بجلاله ولا يُمَاثل اسْتُواءَ المخلوقين .

فإن سألت : ما مَعنىٰ الإستواء عندهم ؟

فمعناه العلو والاستقرار ، وقد وَرَدَ عن السَّلف فى تفسيره أربعة معانى :

الأَوَّل : علا . والثَّانى : ارتفع . والثَّالث : صَعِد . والرَّابع : استقر .

لكن : علا وارتفع وصَعِد ، معناها وَاحد ، وأَمَّا : استقر ، فهو يختلف عنها .

ودَلِيلهم فى ذلك أَنَّها فى جميع مَوَارِدها فى اللُّغة العربية لم تأت إلا لهذا المعنى .

قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَن مَعَكَ عَلَىٰ ٱلفُلْكِ ﴾ [المؤمنون : ٢٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِن الفلك وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ لِتَسْتَوُواْ عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُروا نِعْمَةَ رَبِّكُم إِذَا اسْتَوَيْتُم عَلَيه ﴾ [الزخرف : ١٣] فهذا هو معنى الاستواء على الشَّىء .

● مخالفو أهل السُّنة والجماعة والرَّد عليهم :

وفسَّره أهل التَّعطيل بأنَّ المراد به الاستيلاء . وقالوا : معنى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوىٰ عَلَى العَرْش ﴾ [الأعراف : ٥٤] يعنى ثم استولى عليه .

واستدلوا لتحريفهم هذا بِدَليلٍ مُوجب ، وَبدليل سَالب .

(أ) أما الدَّليل الموجب فقالوا : إننا نستدل بقول الشَّاعر :

قد اسْتَوَىٰ بِشْرٌ عَلَى العِرَاقِ   مِن غَيْرِ سَيْفٍ أَوْ دَمٍ مِهْرَاقِ (١)

« بِشْر » بن مَرْوان : « اسْتَوى » يعنى اسْتَولى على العراق .

قالوا : وهذا بَيْت من رجل عربى ، ولا يمكن أن يكون المُراد به اسْتَوَىٰ على العراق : يعنى عَلَا على العِراق . لا سيما أَنَّه فى ذلك الوقت لا طَائرات يُمْكن أن يَعْلُو على العِراق بها .

---

(١) راجع : نقض الاستدلال بهذا البيت من وجوه كثيرة فى مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم ص (٣٠٦ ، ٢١٣ ، ٣١٢) .

(ب) أما الدَّليل السَّلبى : فقالوا : لو أَثْبَتْنا أَنَّ الله عزَّ وجل مُسْتَوٍ على عرشه بالمعنى الذى تقولون ، وهو العلو والاستقرار لَزِمَ من ذلك أن يكون مُحتاجًا إلى العرش . وهذا مَحْذُور !!

ثانيًا : لزم من ذلك أَن يكون جسمًا ؛ لأَنَّ اسْتواء شَىء عَلَى شىء بمعنى عُلُوِّه عليه يعنى أَنَّه جسم .

ثالثًا : لَزِم أن يَكون مَحْدُودًا ؛ لأَنَّ المُسْتَوى على الشَّىء يكون محدودًا إذا استويت على البَعِير فأنت محدود فى منطقة معينة محصور بها وعلى محدود أيضًا .

هذه الأشياء الثَّلاثة التى زعموا أَنَّها تَلْزَم من إثبات أَنَّ الاستواء بمعنى العُلو والارتفاع .

فبماذا نُجيبهم ؟ نقول لهم :

أَوَّلًا : تَفْسِيركم هذا مُخَالف لِتفْسير السَّلف الذى أَجْمَعُوا عليه وَالدَّليل أَنَّه لم يُنْقَل عنهم أَنَّهم قالوا به وخَالَفوا الظَّاهر ، ولو كانوا يرون خلاف ظاهره لنُقِل إلينا ، فما منهم أَحَدٌ قال : إنَّ اسْتَوىٰ بمعنى اسْتَولىٰ أبدًا .

ثانيًا : أَنَّه مُخَالف لِظَاهر اللَّفظ لأننا وجدنا أَنَّ مادة الاستواء إذا تَعَدَّت بِعَلَى فهى بمعنى العُلُو والاسْتِقرار . هذا ظاهر اللَّفظ وهذه مواردها فى القرآن وفى كلام العرب [1] (*)

---

(١) (*) **قال الشيخ ابن باز حفظه الله:** «إثبات علو الله على خلقه واستوائه على عرشه ، وإقرار العقول بذلك أمر فطرى فطر الله عليه العباد ، وأما الإستواء فأثبته السمع من كتاب الله وسنة رسوله ، وليس فى العقول ما يخالف ذلك .

وحقيقته لغة : الارتفاع والعلو ، وأما عن الكيفية فذلك مما اختص الله بعلمه ، وأما تفسير الإستواء بالاستيلاء فهو باطل من وجوه كثيرة منها : أنه يتضمن أن الله جل وعلا كان مغلوبًا على =

....

=عرشه ثم غلب وهذا باطل ؛ لأنه تعالى لم يزل قاهرًا لجميع خلقه مستوليًا على العرش **فما** دونه ، وأما بيت الأخطل الذى يستدلون به على أن معنى ﴿ استوى ﴾ استولى ، فلا حجة فيه والبيت هو :

قد استوى بشر على العـراق من غير سيف أو دم مهراق

لأن استعمال ﴿ استوى ﴾ بمعنى استولى غير معروف فى لغة العرب ، **ولأن ذلك** لو وجد فى اللغة لم يجز استعماله فى حق الله ، وأما المخلوق فيكون غالبًا ومغلوبًا ، كَبِشْرٍ هذا فإنه كان مغلوبًا على أمر العراق ثم غلب .

فائدة نفيسة : ما ورد فى الكتاب والسنة من أسماء الله وصفاته أقسام :

– منها ما ورد بلفظ الاسم على وجه التسمى به كالعزيز الحكيم والغفور وشبه ذلك ، فهذا القسم يوصف به الرب ويسمى به ، ويشتق له منه فعل ، ويثبت له منه مصدر كالعزة والحكمة والمغفرة .

– ومنها ما ورد بلفظ الاسم على وجه الإضافة ، فهذا يطلق على الله بلفظ الإضافة ، ولفظ الفعل ، ولا يشتق له منه اسم ، مثل قوله تعالى : ﴿ يخادعون الله وهو خادعهم ﴾ فيجوز أن يقول : الله خادع المنافقين ، ويخدع من خدعه ، ونحو ذلك ، ولا يجوز أن نعد من أسمائه الخادع ، لعدم وروده ؛ ولأن إطلاق الخادع يحتمل الذم والمدح فلا يجوز إطلاقه فى حق الله .

– ومنها ما ورد بلفظ الفعل فقط : كالكيد والمكر ، فهذا لا يطلق على الله إلا بلفظ الفعل كقوله سبحانه وتعالى : ﴿ إنهم يكيدون كيدًا وأكيد كيدًا ﴾ . وقوله : ﴿ ومكروا ومكر الله ﴾ ولا يجوز أن يُعَدّ من أسمائه سبحانه الكائد والماكر لما تقدم ؛ وإنما جاز وصف الرب بالخداع والمكر والكيد فى الآيات المشار إليها لأنه فى مقابل خداع أعدائه وكيدهم ومعاملتهم بمثل ما فعلوا من مدح وعدل يستحق عليه المدح والثناء .

فائدة أخرى ذكرها شيخ الإسلام وغيره : وهى أن صفات الرب القولية والفعلية قديمة النوع حادثة الآحاد : كالكلام والخلق والرزق والنزول وأشباه ذلك ، ونحو ذلك ، فجنس الكلام والخلق والرزق والنزول قديم وأنواعه تحدث شيئًا فشيئًا على حسب حكمة الرب سبحانه كما فى قوله تعالى : ﴿ ما يأتيهم من ذكر من رَبِّهم مُحْدَثٍ ﴾ الآية ، وكخلق آدم بعد أن لم يكن مخلوقًا ، وغير ذلك ، وهكذا الرزق والكلام .

وأما صفات الذات كاليد والقدم والسمع والبصر فهى صفات قديمة كالذات » ا هـ .

ثالثًا : أَنَّه يَلْزَم عليه لوازم باطلة :

١ – يَلْزَم أَن يكون الله عَزَّ وجل حين خَلَق السَّماوات والأرض لَيْس مستوليًا على عرشه ؛ لأَنَّ الله يقول : ﴿ خَلَقَ السَّمٰوات وَالأَرْضَ فِى سِتَّة أَيَّام ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى العَرْش ﴾ [الأعراف : ٥٤] . وقبل ذلك لغيره على زعمهم .

٢ – أَنَّ الغالب من كلمة استَولى أَنَّها لا تكون إِلَّا بعد مُغَالبة ولا أحد يُغَالب الله .

أَيْنَ المَفَرُّ وَالإِلَهُ الطَّالِبُ والأَشْرَمُ المَغْلُوب لَيْسَ الغَالِبُ

٣ – من اللوازم الباطلة أَنَّه يَصِحُّ أَن نقول أَنَّ الله استوى على الأرض لأَنَّه مُسْتولٍ عليها .

نقول : إذا كانت اسْتَوىٰ بمعنى استولى إذًا قولوا إنه استوى على الأرض ، واسْتَوىٰ على الجمل ، واستوىٰ على الإنسان ، وهذه لوازم باطلة .

وبُطْلان اللَّازم يَدُلُّ على بطلان المَلْزُوم .

هذه الأَدِلَّة لنا هُجُومِيّة ، نأتى بالأدلة الدِّفاعية لأَنَّهم هجموا علينا بدليل إيجابى ودَلِيل سَلْبى .

● **فنقول فى الدَّليـل – دليلهم الإيجابى –** وهو استدلالهم بالبيت :

١ – أَثبتوا لنا سَنَد هذا البَيْت ، وهم لم يَفْعَلُوا هذا .

٢ – إذا جاءوا به قُلْنَا : نُطَالِبكم بِثقة الرِّجال .

٣ – من هذا القَائِل ؟ أَفَلا يمكن أَن يكون قَالَه بعد تغير اللِّسان ؟

لا ندرى وأنا الآن ممكن أن أخبر بأنه استوى على العراق فنقول : بيِّنوا هذا الشَّاعر ؛ لنعرف هل كان قبل تغيُّر اللِّسان أو بَعْد تَغَيُّر اللِّسان لأَنَّ كل قول يُسْتَدَلُّ به على اللُّغة العربية بعد تَغَيُّر اللغة العربية فإنَّه ليس بِدَلِيل ، لأَنَّ العربية بدأت تَتَغَيَّر حين اتَّسَعت الفُتوح ودخل العجم مع العرب فاختلف اللِّسان ، وهذا فيه احتمال أنه بَعْد تَغَيُّر اللِّسَان .

٤ - إنَّ تَفْسِيركم اسْتَوى بشر على العراق باستولى تَفْسير يُعَضِّده اللَّفظ ، لأَنَّه من المُتَعَذِّر أنَّ بشرًا يَصْعَدُ فوق العراق فيَسْتَوى عليه كما يَسْتَوى على السَّرير أو على ظهر الدَّابة - مُسْتَحيل - فلهذا نلجأ إلى تفسيره باسْتَوْلَىٰ .

هذا نقوله من باب التَّنَزُّل وإلَّا فعندنا جواب آخر : أن نقول : الاستواء بمعنى العلو . والعُلُوّ نوعان :

١ - علو حسى كاستوائنا على السَّرير .

٢ - وعلو معنوى بمعنى السَّيطرة والغلبة .

فيكون معنى : استوى بِشْرٌ على العراق . يعنى عَلا عُلُو غلبة وقَهر ، وحينئذ تتفتت أَعْضَادهم ولا يستطيعون حمل سِلاحهم فضلًا عن أن يَرْمُونا به .

● **ونقول فى الدَّليل السَّلبى** : أَمَّا قولكم أَنَّه يَلْزَم من ذلك أَنْ يكون جِسْمًا .

نقول : كُلُّ شيء يَلْزَم من كتاب الله وسُنَّة رَسُوله ﷺ فهو حَقٌّ ويجب علينا أن نَلْتَزِمَ به ولكن الشَّأْن كُلُّ الشَّأن أن يكون هذا من لازِم كلام الله وَرَسُوله لأَنَّه قد يُمْنَع أن يكون لازِمًا فإذا ثَبَت أَنَّه لازِم فَلْيَكُن ولا حَرَجَ عَلَيْنا إِذَا قُلْنا به .

فنقول لهم : ماذا تَعْنُون بالجسم المُمْتَنِع إن أردتم به أَنَّه ليس لله ذات تَتَّصِف بالصِّفات اللَّازمة لها اللائقــة بها .

– إنْ أردتم هذا المَعْنَى فقولكم باطل ؛ لأَنَّنا نقول إنَّ لله ذَاتا حقيقية مُتَّصِفة بالصِّفات وإنَّ له وجهًا وَيدًا وعَيْنًا وقَدمًا ، وقُولوا ما شِئتم من اللَّوازم التى هى لازِمٌ حَقٌّ .

– وإن أَرَدتم بالجسم الذى قُلْتم يمتنع أن يكون الله جِسْمًا الجسم المركب من العظام واللَّحم والدَّم وما أَشْبه ذلك فهذا ممتنع على الله وليس بلازم من استواء الله على العرش أن يكون جسمًا كهذا .

فصار جَوَابُنا على هذا بالتَّفصيل ، والتَّفصيل أن نقول ماذا تُريدون بالجسم ؟ أَتُرِيدونَ أن الله تعالى ليس له ذات مُتَّصِفة بالصِّفات اللائقة بها الذَّاتية والفِعْلية الخبرية والمَعْنَوية ؟!

– إن أردتم ذلك فإن هذا باطل ، بل لله عزَّ وجل ذات مُتَّصِفَةٌ بِصفات ذاتية معنوية ، وذاتية خَبرية وفِعْلِية .

– وإن أردتم بالجسم الذى ادَّعيتم أَنَّه من لازم تفسير الاستواء بالعلو الجسم المركب من عِظَام ولحم ودَم وعُروق وما أَشْبَه ذلك فهذا مُمْتَنع . ونمنع أن يكون لازمًا لاستواء الله على العرش .

● **وقولهم** : إنَّه يلزم أن يكون مَحْدُودًا فجوابه أن نقول : بالتَّفصيل : ماذا تعنون بالحَدِّ ؟

– إن أَرَدتم أن يكون محدودًا أى أن يكون مُبَاينًا للخلق منفصلًا عنهم كما تكون أَرْضٌ لِزيد ، وأرض لعمرو ، فهذه محدودة مُنفصلة عن هذه ، وهذه منفصلة عن هذه . فهذا حق ليس فيه شيء من النقص .

– وإن أردتم بكونه محدودًا أَنَّ العرش مُحِيطٌ به فهذا باطل وليس بلازم فإنَّ الله تعالى مُسْتَوٍ على العرش وإن كان عزَّ وجل أكبر من العَرش ومن غير العرش ولا يَلْزَم أن يكون العرش مُحِيطا به بل لا يمكن أن يكون مُحيطًا به لأن اللهِ سبحانه وتعالى أعظم من كل شيء وأكبر من كل شيء . السَّماوات مَطْويَاتٌ بيمينه والأرض جميعًا قَبْضته يوم القيامة .

– إذا قالوا : يَلْزم أن يكون مُحتاجًا إلى العرش فنقول لا يلزم ، لأَنَّ معنى كونه مُسْتَوِيًا على العرش أَنَّه فوق العرش لكنه عُلُوٌّ خاص وليس معناه أن العرش يُقِلُّه أبدًا . فالعرش لا يُقلُّه والسَّماء لا تقلّه ، وهذا اللَّازم الذى ادَّعيتموه ممتنع ؛ لأَنَّه نقصٌ بالنسبة إلى الله عز وجل ليس بلازم من الاستواء الحقيقى لأَننا لسنا نقول إن معنى ﴿ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ يعنى أَنَّ العرش يُقِلُّه ويَحْمِلُه ، فالعرش مَحمول : ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهم يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١٧] وتحمله الملائكة الآن لكنه ليس حَامِلًا لله عز وجل ، لأن الله سبحانه وتعالىٰ ليس محتاجًا إليه ولا مفتقرًا إليه ، وبهذا تَبْطُل حُججُهم السَّلبية .

وَخُلاصة رَدِّنا لكلامهم من عِدَّة أوجه :

الأَوَّل : أَنَّ قولهم هذا مُخالف لظاهر النَّص .

ثانيًا : مُخالف لإجماع الصحابة ، وإجماع السَّلف قاطبة .

ثالثًا : أَنَّه لم يَرِد فى اللغة العربية أَنَّه بمعنى اسْتَولى .

رابعًا : أَنَّه يَلْزَم عليه لوازم باطلة :

(أ) منها : أَن يكون العرش قبل خلق السَّمٰوات والأرض مُلْكًا لغير الله .

(ب) أَنَّ كلمة استولى تُعْطى فى الغَالِب أَنَّ هناك مُغَالبة بين الله وبين غيره ، فاستولى عليه وغَلَبَه .

(جـ) أَنَّه يَصِحُّ أَنْ نقول على زعمكم : أَنَّ الله استوىٰ على الأَرض والشَّجر والجبال والإنسان والبَعير . وهذا لا يقول به أحد ؛ لأَنَّه استولىٰ على هذه الأشياء ، فإذا صحَّ أن نُطْلق كلمة اسْتَولىٰ على شيء صحَّ أَنْ نُطْلق اسْتَوَىٰ على ذلك الشَّىء لأَنَّهما مُتَرادفان على زعمهم .

– فبهذه اللَّوازم الباطلة يَتَبَيَّن أن تَفْسِيرهم باطل .

ولما كان أبو المعالى الجوينى – عفا الله عنه – كان يُقَرِّر مَذْهب الأَشَاعرة وينكر استواء الله على العَرْش ، بل وينكر علو الله بِذَاتِه قال : « كان الله تعالىٰ ولم يكن شىء غيره ، وهو الآن على مَا كَانَ عليه » وهو يُريد أن يُنكر اسْتِواء الله على العَرش . يعنى كان ولا عرش وهو الآن على ما كان عليه . إذًا : لم يَسْتَو على العرش . فقال له أبو العلاء الهمذانى : يا أُستاذ ! دَعْنَا من ذِكْر العَرْش والاستواء على العرش – لأَنَّ دليله سَمْعى ، لولا أَنَّ الله أخبرنا به ما علمناه – أخبرنا عن هذه الضَّرورة التى نجد فى نفوسنا : مَا قَال عَارِفٌ قَطُّ يا الله إِلَّا وَجَدَ من قَلْبه ضَرُورةً بِطَلَب العُلو . فَبُهِت أبو المعالى ، وجعل يضرب على رَأْسه : حَيَّرنى الهمذانى . حَيَّرنى الهمذانى ؛ لأَنَّ هذا دليل فطرى ما أَحد يُنْكِره .

* * *

ثم استطرد المؤلف رحمه الله بذكر الايات فقال :

● **وقال فى سورة يونس** ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [يونس : ٣] .

نقول فيها ما قُلْنَا فى الآية الأولى .

* * *

● **وقال فى سورة الرعد** : ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [الرعد : ٢] .

﴿ رَفَعَ السَّمٰوات ﴾ : السَّبع بغير عَمَدٍ هل يعنى ليس لها عَمد مُطْلقاً أو بغير عمد تَرَوْنَها فلها عَمد غير مَرْئية ؟

فيه خلاف بين المفسرين فمنهم من قال : إن جملة ﴿ تَرَوْنَهَا ﴾ صفة لِعَمد أى بغير عمد مَرْئيةٍ لكم ، ولها عَمَد غير مَرْئية .

ومنهم من قال : إنَّ جملة ﴿ تَرَوْنَهَا ﴾ جملة مُسْتَأْنَفَة معناها تَرَوْنَها كذلك بغير عمد ، وهذا الأَخير أَقْرَب ؛ فإِنَّ السَّماوات ليس لها عَمَدٌ مَرْئية ولا غير مَرْئية ، ولو كان لها عَمَد لكانت مَرْئية فى الغالب ، وإِن كان الله تعالى قد يحجب عنا بعض المخلوقات الجِسْمِية لحكمة يُرِيدها .

وقوله : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [الرعد : ٢] هذا الشَّاهد .

* * *

● **وقال فى سورة طه** : ﴿ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾ [طه : ٥] .

قدَّم ﴿ عَلَى العَرْش ﴾ وهو معمول لـ ﴿ اسْتَوَىٰ ﴾ لإِفادة الحَصْر

والتَّخصيص وأنَّه سبحانه وتعالى لم يَسْتو على شيء سوى العرش .

* * *

● **وقال فى سورة الفرقان :** ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ [الفرقان : ٥٩] .

﴿ الرحمن ﴾ هذه فاعل استَوىٰ .

* * *

● **وقال فى سورة الم السَّجدة :** ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [السجدة : ٤] .

نقول فيها مثل ما قلنا فى آيتى الأعراف ويُونس ، لكن هنا فيه زِيادة ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ يعنى بين السَّماء والأرض ، والذى بينهما مَخْلُوقات عظيمة استحقت أن تكون مُعَادِلَةً للسَّماوات والأَرض ، وهذه المَخْلُوقات العظيمة منها ما هو معلوم لنا ، ومنها ما هو مجهول إلى الآن .

* * *

● **وقال فى سورة الحديد :** ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [الحديد : ٤] .

فهذه سبعة مواضع كلها يذكر الله تعالى فيها الاستواء بلفظ مُعَدًّى بِعَلَىٰ .

وبعد : فقد قال العلماء : إن أصل هذه المادة تدلُّ على الكمال ﴿ الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ [الأعلى : ٢] . أى أَكْمَلَ مَا خَلَقَه . فأَصل السِّين والواو واليَاء تدلُّ على الكمال . ثم هى على أَربعة أوجه فى اللُّغة العربية مُعَدَّاة بإلى ومُعَدَّاة بِعَلَى ، ومَقْرُونَة بالوَاو ، ومجردة .

١ - معدّاة بعَلَىٰ : مثل ﴿ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ العَرْش ﴾ [الحديد : ٤] .

ومعناها : عَلا واسْتَقَر .

٢ - معدَّاة بإلى : مثل قوله تعالى ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ إلى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوات ﴾ [البقرة : ٢٩] ، ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إلى السَّماء وهى دُخَانٌ ﴾ [فصلت : ١١] فهل معناها كالأُولى المعدَّاة بعلى ؟

فيها خلاف بين المفسرين : منهم من قال : إن مَعْنَاهما واحد ، وهذا ظاهر تفسير ابن جرير رحمه الله ﴿ اسْتَوَىٰ إلى السَّمَاء ﴾ اى ارتفع إليها .

ومنهم من قال : بل الاستواء هنا بمعنى القصد الكامل فُمعنى اسْتَوىٰ إليها أَى قصد إليها قصدًا كاملاً وأَيَّدوا تَفْسيرهم هذا بأَنَّها عُدِّيت بما يَدُلُّ عَلَىٰ هذا المعنى وهو ﴿ إلى ﴾ . وأَنَّ ﴿ إلى ﴾ للغاية ، فإذا قلنا اسْتَوىٰ إليها وجعلنا غاية عُلُوِّه السَّماء كان فى الأُول تحت السَّماء . اسْتَوىٰ إليها : يعنى صَعِدَ إليها .

إذًا : هو بالأول تحت السَّماء بخلاف على السَّماء فهو عال عليها وإلى هذا ذهب ابن كثير رحمه الله ففسَّر قوله ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إلى ٱلسَّمَاءِ ﴾ [فصلت : ١١] أى قَصَد إليها .

٣ - أن تكون مَقْرُونَة بالواو كقولهم : اسْتَوىٰ الماء والخَشَبة .

فتكون استوى هنا بمعنى تَساوى الماء والخشبة .

٤ – أن تكون مجردة فتكون بمعنى الكمال ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَٱسْتَوَىٰ ﴾ [القصص : ١٤] .

تنبيه : إذا قلنا اسْتَوىٰ على العرش بمعنى عَلَا فههنا سؤال : وهو أَنَّ الله خلق السَّماوات ثم استوى على العرش فهل يستلزم أنه قبل ذلك ليس عاليًا ؟

فالجواب : لايستلزم ذلك ! نعم ! يدلُّ على أنه حين خلق السموات والأرض ليس مُسْتويًا على العرش والاستواء على العرش أَخَصُّ من مُطْلق العلو ؛ لأَنَّ الاستواء على العرش علو خاص ، والعلو شَامِل على جميع المخلوقات .

فعلوه عز وجل ثَابِتٌ له أَزَلاً وأبداً لم يَزَل عاليًا على كل شيء قبل أَن يَخْلق العرش .

إذًا : لا يَلْزم من عَدَم استواءه على عرشه عَدَم عُلُوِّه بل هو عَالٍ ثم بعد خلق السَّماوات والأرض عَلَا عُلُوّاً خاصّاً على العرش .

فإن قلت : نفهم من الآية الكريمة أَنَّه حين خلق السَّماوات والأرض ليس مُسْتويًا على العرش لكن هو قبل خلق السَّماوات والأرض هل هو مُسْتوٍ على العرش أَوْ لَا ؟

نقول : الله أَعْلم .

مسألة : هل العرش مخلوق قبل السَّماوات والأرض أَوْ بعدها ؟

جـ : قبل السَّماوات والأرض كما قال الله تعالى : ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى ٱلْمَاءِ ﴾ [هود : ٧] حين خلق السَّماوات والأرض .

* * *

إثبات علو الله على مخلوقاته فى القرآن الكريم

٩٧ – وقوله : ﴿ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾
[آل عمران : ٥٥]

٩٨ – ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ ﴾ [النساء : ١٥٨] .

٩٩ – ﴿ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ ﴾
[فاطر : ١٠]

١٠٠ – ﴿ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ ﴾ [غافر : ٣٦ ، ٣٧]

١٠١ – ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ﴾ [الملك : ١٦ ، ١٧]

الشرح

ثم شَرَعَ المؤلف بآيات العلو فقال رحمه الله :

● **وقوله** : ﴿ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ [آل عمران : ٥٥] .

الخطاب لعيسى بن مريم الَّذى خَلَقَهُ الله من أُمٍّ بلا أَب ولهذا يُنْسَبُ إلى أُمِّه يقول الله ﴿ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ ﴾ [آل عمران : ٥٥] ذكر العلماء فيها ثلاث معان :

الأول : مُتَوفِّيك : بمعنى قَابِضُكَ ، ومنه قولهم : تَوَفَّى حَقَّه : أى قَبَضَه من الوفاء .

القول الثَّانى : مُتَوفِّيك : مُنِيمُكَ ، لأَنَّ النوم وفاة كما قال تعالى : ﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لم تَمُت فِى مَنَامِهَا ﴾ [الزمر : ٤٢].

وقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُم بِالَّلِيلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ﴾ [الأنعام : ٦٠] .

القول الثَّالث : أَنَّه وَفَاةُ مَوْت . مُتَوفِّيك : مُمِيتُك ومنه قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ المَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُم ﴾ [السجدة : ١١] وقوله : ﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [الزمر : ٤٢] .

والقول بأن مُتَوفِّيك بمعنى مُمِيتك بعيد ؛ لأَنَّ عيسى لم يَمُتْ وسينزل فى آخر الزَّمان قال الله تعالى : ﴿ وَإِن مِن أَهْلِ الكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ [النساء : ١٥٩] .

وعلى أحد التَّفسيرين : أَى قبل مَوت عيسى وذلك إِذا نزل . وقيل قبل مَوْت الواحد يعنى ما من أحد من أهل الكتاب إِلَّا إِذا حَضَرَتْهُ الوَفَاة آمن بِعِيسىٰ حتى وإِن كان يهوديًا وهذا القول ضَعِيف .

بقى النَّظر بين وفاة القَبْض ، وَوَفاة النَّوم فنقول : إِنَّه يمكن أن يُجْمع بينهما فيكون قابضًا له حال نَوْمه أى أَنَّ الله تعالى أَلْقى عليه النوم ثم يَرْفعه ولا مُنافاة بين الأمرين[1] .

قوله : ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ [آل عمران : ٥٥] الشَّاهد هنا ؛ فإِن ﴿ إِلَىَّ ﴾ تُفيد الغاية وقوله : ﴿ رَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ [آل عمران : ٥٥] يدلُّ على

---

(١) راجع : نزول عيسى وقتله الدجال للشيخ محمد خليل هراس

أَنَّ المرفوع إليه فوق وهذا يدلّ على علو الله عزَّ وجل .

فلو قال قائل : المراد : رافعك منزلة كما قال الله تعالى ﴿ وَجِيهًا فِى الدُّنْيا وَالآخِرة وَمِن المُقَرَّبِينَ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِى المَهْدِ وَكَهْلاً ﴾ [آل عمران : ٤٥ ، ٤٦] ؟

قلنا : هذا لا يستقيم ، لأَنَّ الرفع هنا عُدِّى بحرف يختصُّ بالرَّفع الذى هو الفوقية رَفْع الجسد ، وليس رَفْع المنزلة .

وعلو الله عز وجل ينقسم إلى قسمين : عُلُو معنوى ، وعُلُو ذاتى .

١ – أما العلو المعنوى : فهو ثابت لله بإجماع أهل القبلة – أى بالإجماع من أهل البدع ، وأهل السُّنة – كلهم يؤمنون بأن الله تعالى عال علوًا معنويًا .

٢ – وأما العلو الذَّاتى : فهو ثَابِتٌ عند أهل السُّنة ، غير ثَابِتٍ عند أهل البدعة يقولون : إن الله تعالى ليس عاليًا علوًا ذاتيًا .

فنبدأ أولاً بأدلة أهل السُّنة على علو الله سبحانه وتعالى الذَّاتى فنقول : إنَّ أَهل السُّنة استدلوا على علو الله تعالىٰ علواً ذاتيًا بالكتاب والسُّنة والإجماع والعقل والفطرة :

● **فالكتاب** : تنوَّعت دِلالته على علو الله فتارةً بذكر الفَوقية وتارةً بذكر العُلو وتارةً بذكر نزول الأشياء من عنده ، وتارةً بذكر صُعُودها إليه ، وتارةً بكونه فى السَّماء .

(أ) فالعلو : مثل قوله ﴿ وَهُو العَلِّىُّ العَظِيم ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، ﴿ سَبِّح اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَىٰ ﴾ [الأعلىٰ : ١] .

(ب) والفوقية : ﴿ وَهُوَ القَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ [الأنعام : ١٨] ، ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهم مِن فَوْقِهِم وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمرون ﴾ [النحل : ٥٠] .

(جـ) ونُزُول الأَشياء منه : مثل قوله : ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِن السَّمَاءِ إِلى الأَرْضِ ﴾ [السجدة : ٥] ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ﴾ [الحجر : ٩] وما أشبه ذلك .

(د) وصُعود الأشياء إليه : مثل قوله ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيب والعَمَلُ الصَّالِح يَرْفَعُه ﴾ [فاطر : ١٠] ومثل قوله ﴿ تعرجُ المَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيه ﴾ [المعارج : ٤]

(هـ) كونه فى السَّماء : مثل قوله : ﴿ أَأَمِنْتُم مَن فِى السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُم الأَرْض ﴾ [الملك : ١٦] .

● **وأَمَّا السُّنَّة** : فقد تواترت عن النَّبى ﷺ من قوله وفِعْله وإقراره :

(أ) أما قول الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام : فجاء بذكر العُلُو والفَوقية . ومنه قوله ﷺ : « سُبْحَان رَبِّى الأَعلىٰ »(١) . وقوله لما ذَكَر السَّماوات قال : « والله فَوْقَ العَرْشِ »(٢) .

---

(١) رواه مسلم (٧٧٢) (٢٠٣) من حديث حذيفة رضى الله عنه .

(٢) **صحيح موقوفًا** : الحديث بهذا اللفظ صح موقوفًا من حديث ابن مسعود رضى الله عنه وهو فى حكم المرفوع لأنه مما لا يقال بالرأى ومن الأمور الغيبية وقد أخرجه الطبرانى فى الكبير (٢٨٨/٩) ، وعثمان الدارمى فى الرد على الجهمية (٨١) ، والنقض على المريسى ص (٧٣،١٠٥) ، وابن خزيمة فى التوحيد (١٤٩ ، ١٥٠)، وأبو الشيخ فى العظمة (٢٧٩) ، والبيهقى فى الأسماء والصفات ص (٤٠١) ، والذهبى فى العلو ص (٦٤) ، واللالكائى فى شرح أصول إعتقاد أهل السنة (٦٥٩) من طرق عن عبد الله به وعزاه ابن القيم فى إجتماع الجيوش ص (١٠٠) لسنيد ابن داود بإسناد صحيح ، وقال الذهبى فى العلو ص (١٠٣) : رواه عبد الله بن أحمد فى السنة له وأبو بكر بن المنذر وأبو أحمد العسال وأبو القاسم الطبرانى وأبو الشيخ وأبو القاسم اللالكائى وأبو عمرو الطلمنكى وأبو بكر البيهقى وأبو عمر بن عبدالبر فى تواليفهم وإسناده صحيح» ا.هـ وجوّد إسناده الألبانى فى مختصر العلو للذهبى ص (١٠٤) .

وجاء ذكر أن الله فى السَّماء مثل قوله ﷺ : « أَلَا تَأْمَنُونِى وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِى السَّمَاء »[١] .

وجاء أيضا ذكر ذلك فى قوله : « إِلَّا كَانَ الَّذِى فى السَّمَاءِ سَاخِطًا عَلَيْها »[٢] .

هذا فى الزَّوجة إذا خَالفت زوجها وأَسْخَطته .

إلى غير ذلك من الأحاديث .

(ب) وجاء إثبات العلو من فعل الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام : وذلك حين رفع أصبعه إلى السَّماء ، وهو يخطب النَّاس فى أكبر جمع وذلك فى يوم عرفة عام حجة الوداع ، فإن الصَّحابة لم يجتمعوا اجتماعًا أكبر من ذلك الجمع إذ أن الَّذى حجَّ معه بلغ نحو مائة أَلْف ، والذين مات عنهم نحو مائة وأربعة وعشرين ألفًا . يعنى عامَّة المسلمين حضروا ذلك الجمع فقال عليه الصَّلاة والسَّلام : « أَلَا هَل بَلَّغْت ؟ قالوا : نعم . أَلَا هَلْ بَلَّغْت ؟ قالوا : نعم . أَلَا هَلْ بَلَّغْت ؟ قالوا : نعم . وكان يقول : اللَّهُمَّ اشْهَد يُشِير إلى السَّماء بأَصْبُعه وَينكُتُها إلى النَّاس »[٣] .

وهذا إثبات للعُلو بالفعل .

- ولما جاء الرَّجل دخل عليه وهو يخطب يوم الجمعة وقال : هَلَكَت الأَمْوالَ وانْقَطَعت السُّبل فَادْعُو الله يُغِيثُنا رَفَع يَدَيْه فقال :

---

(١) رواه البخارى (٤٣٥١) ، ومسلم (١٠٦٤) (١٤٤) من حديث طويل لأبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

(٢) رواه مسلم (١٤٣٦) (١٢١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٣) رواه مسلم (١٢١٨) (١٤) من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنهما .

اللَّهُمَّ أغثْنَا »(١) .

فرفع يديه إلى السَّماء التى فيها من يَدْعوه .

(جـ) وأما التَّقرير : فإنَّه قد جاء معاوية بن الحكم رضى الله عنه بجارية يُريد أَنْ يُعْتقها ، فقال لها النَّبى ﷺ أَيْنَ الله ؟ قالت فى السَّماء ؟ فقال : من أَنَا ؟ قالت : رسول الله . قال : اعْتِقْهَا فإِنَّها مُؤْمِنَة »(٢) .

فهذه جارية لم تتعلَّم ، والغالب على الجوارى الجهل ، لاسيما وهى أَمَة غير حرة لا تملك نفسها ، تعلم أَنَّ ربها فى السَّماء ، وضُلَّال بنى آدم يُنْكِرون أَنَّ الله فى السَّماء ويقولون : أَمَا أَنَّه لا فوق العالم ولا تحته ولا يمين ولا شمال أو أَنَّه فى كل مكان .

فهذه من أدلة الكتاب والسُّنة .

● **وأَمَّا دِلالة الإجماع** : فقد أجمع السَّلف على أَنَّ الله تعالى بذاته فى السَّماء من عهد الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام إلى يومنا هذا .

إن قلت كيف أجمعوا ؟

نقول : إمْرَارِهم هذه الآيات والأَحاديث مع تِكْرَار ذلك العلو فيها والفوقية ونُزُول الأَشْياء منه ، وصُعُودها إليه دون أن يأتوا بما يُخَالفها هذا إقرار منهم على إثْبَاتِها .

ولهذا لَمَّا قال شيخ الإسلام : « إنَّ السَّلف مُجْمِعون على ذلك » . قال : « ولم يَقُل أَحَدٌ منهم إنَّ الله ليس فى السَّماء أَو إنَّ الله فى الأرض أو إنَّ الله لا داخل العالم ولا خارجه ولا متصل ولا مُنْفَصِل ، أو أَنَّه لا تجوز

(١) رواه البخارى (١٠١٤) ، ومسلم (٨٩٧) (٨) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

(٢) رواه مسلم (٥٣٧) (٣٣) من حديث معاوية بن الحكم السُّلمى رضى الله عنه .

الإشارة الحِسِّية إليه » .

● **وَأَمَّا دِلالة العقل** : فنقول لاشك أن الله عزَّ وجل إما أن يكون فى العلو أو فى السُّفل ، وكونه فى السُّفل نَقْصٌ ؛ لأَنَّه يستلزم أن يكون فوقه شيء من مخلوقاته فلا يكون له العلو التَّام والسَّيطرة التَّامة والسُّلطان التَّام ، لأَنَّ العلو من فوق فيه تمام السيطرة ، حتى فى الميادين العسكرية الحربية إذا كان الأمر من فوق يكون السَّيطرة على الأسفل أكثر وأَقوىٰ .

فنقول : إما أن يكون الله فَوق أو تَحت ، والثَّانى مُمْتَنع ، وإذا امْتَنَع الثَّانى تعيَّن الأول .

وهناك تقرير عقلى آخر ، وهو أن نقول : إنَّ العُلُو صِفَةُ كَمال باتِّفاق العُقَلاء وإذا كان صِفَة كمال وَجَبَ أن يكون ثَابتًا لله ؛ لأَنَّ المَعْرُوف أنَّ كُلَّ صِفَة كمال مُطْلَقة فهى ثابتة لله .

وقولى « مُطْلَقة » احترازًا من الكمال النِّسبى الذى يكون كمالاً فى حَال دُون حَال ، فالنَّوم مثلاً : نَقْصٌ ولكنَّه لمن يَحْتَاجُ إليه ويَسْتَعِيد قُوته به : كَمَال .

● **وأَمَّا دِلالة الفطرة** : التى لا يمكن المُنَازَعة فيها ولا المكابرة ، فكل إنسان مَفْطُور على أن الله فى السماء ، ولهذا عندما يَفْجَؤُك الشَّيء الذى لا تَسْتطيع دَفْعَه وإنما تتوجَّه إلى الله تعالى بدفعه فإن قلبك يَنْصَرف إلى السَّماء حتى الذين يُنْكرون علو الذات لا يقدرون أن يُنَزِّلُوا أَيديهم إلى الأَرْض .

وهذه الفطرة لا يمكن إنكَارها حتى إنهم يقولون : إنَّ بعض المخلوقات العَجْماء تعرف أَنَّ الله فى السَّماء كما فى الحديث الَّذى يَروى أَنَّ سليمان بن داود عليه الصَّلاة والسَّلام وعلى أَبيه – خرج يَسْتَسْقى ذات يوم بالنَّاس ،

فلما خرج رأى نملة مُسْتَلْقِيةً على ظهرها رَافِعة قوائمها نحو السَّماء تقول : « اللَّهُمَّ إنَّا خَلْقٌ من خَلْقِك ليس بِنَا غنىً عن سُقْيَاكَ » فقال ارجعوا فقد سُقِيتُم بدعوة غيركم(١) . وهذا إلهامٌ فطرى .

ويُقَال : إنَّ البقر إذا طُرِدَ وعَجَزَ ، فإنَّه يقف ويرفع رَأْسه إلى السَّماء .

فالحاصل أَنَّ : كون الله فى السَّماء أَمْرٌ مَعْلُومٌ بالفِطْرة ، والله ! لولا فَسَادُ فِطْرة هؤلاء المُنْكِرين لَعَلِموا أَنَّ الله فى السَّماء بدون أن يُطَالِعُوا أى كتاب ؛ لأَنَّ الأمر الذى تَدُلُّ عليه الفطرة لا يحتاج إلى مُراجعة الكُتُب .

إذًا : أدلة علو الله العلو الذاتى خمسة أَنْواع : الكِتاب والسُّنة والإجماع والعقل والفطرة .

والذين أنكروا عُلُو الله عزَّ وجل بذاته يقولون : لو كان فى العلو بذاته كان فى جِهة ، وإذا كان فى جِهَةٍ كان مَحْدُودًا وجِسْمًا .

وهذا ممتنع !

إذًا : فما هو العُلُو عندكم ؟

قالوا : العُلُو عندنا هو العُلُو المَعْنَوى .

فنقول : هناك آيات تمنع مَا ذَكَرْتُم مثل : ﴿ وَهُو القَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ [الأنعام : ١٨] .

قالوا : هذه فوقية مَعْنَوية .

: ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِن السَّمَاءِ إلى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ [السجدة : ٥] .

قالوا : لا يمنع أن يُدَبِّر من السَّماء ، وهو ليس فى السَّماء وأن ﴿ يَعْرُجُ

---

(١) راجع القصة وطرقها فى اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم ص (٣٢٨،٣٢٩) .

إِلَيْه ﴾ يعنى يعود إليه ويَرْجع .

فنقول : لو كان هذا معنى الآية لكان معنى مُسْتَكْرهًا بعيدًا من اللَّفظ .

والآية بظاهرها وأُسْلُوبها تدلُّ على أنَّ الله فى السَّماء يُدَبِّر الأمر من السَّماء فيأتى من عنده إلى الأرض ثم يَعْرُج إليه صاعدًا .

والجواب عن قولهم : إنَّه يَلْزَم أن يكون مَحْدودًا وجِسمًا ؟

نقول : أولاً : لا يجوز إبطال دلالة النُّصوص بمثل هذه التَّعْليلات ، ولو جاز هذا لأمكن كل شخص لا يريد ما يَقْتَضِيه النَّص أن يُعَلِّله بمثل هذه العِلَل العَلِيلة .

إذا كان الله أثبت لنفسه العلو ، ورسوله ﷺ أَثْبَت له العلو ، والسَّلف الصَّالح أثبتوا له العلو فيأتى شخص ويقول : لا يمكن أن يكون علو ذات ؛ لأنه لو كان علو ذات لكان كذا وكذا .

ثانيًا : نقول : إن كان ما ذكرته لازِمًا لإثبات العُلو لُزومًا صحيحًا فلنَقُلْ بِهِ ؛ لأَنَّ لازم كلام الله وَرَسُوله حق ، إذ أَنَّ الله تعالى يعلم ما يلزم من كلامه وما لا يلزم ، ولهذا علم عز وجل ما يلزم من كلامه من الوهم الفاسد بيَّنه ففى الحديث القدسى الصَّحيح : « يَا آبْنَ آدَم اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَم تُطْعِمنى وَمَرِضتُّ فَلَم تَعُدنى ... » فهذا ظاهره أن الله عز وجل هو الذى احتاج إلى الطَّعام ، وأن الله هو الذى مَرِض « قال : يَارَب ! كيف أُطْعِمك وأَنْتَ رَبُّ العَالَمِين ؟ كيف أَعُودُكَ وأَنْتَ رَبّ العالمين ؟ قال : أما علمت أَنَّه اسْتَطْعَمَكَ عبِدى فُلان ، فلم تُطعِمه ، أَمَا عَلِمت أَنَّ عَبْدى فُلانًا مَرِضَ فَلَم تَعُدْه »(١) .

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦٩) (٤٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

فالله عزَّ وجل لو كانت نصوص العلو تَسْتَلْزِم مَعْنًى فَاسِدًا لبَيَّنه .

* * *

● **قال : وقوله :** ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ ﴾ [النساء : ١٥٨] .

﴿ بَلْ ﴾ للإضراب الإبطالى ، لإبطال قولهم ﴿ إنا قَتَلْنَا المَسِيح عِيسى ابن مَرْيم رَسُولَ الله. وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلٰكِن شُبِّه لَهُم وَإِنَّ الَّذِين اخْتَلَفُوا فِيه لَفِى شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِن عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّن وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَل رَفَعَهُ الله إِلَيه وَكَانَ الله عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء : ١٥٧ ، ١٥٨] .

نحن نقول : إنَّ اليهود مَا قَتَلوه لكنهم باؤُوا بإِثْمه ؛ لأَنَّهم يعتقدون أَنَّهم قَتَلُوه . ويقولون ذلك وفعلاً الرَّجل الَّذى ألقى عليه شبهه قتلوه .

فنقول : المسيح عليه الصَّلاة والسَّلام عُصِمَ منهم ﴿ وَمَا قَتَلُوه يَقِينًا ﴾ [النساء : ١٥٧] لكن إثم قتلهم إِيَّاه مكتوب عليهم .

﴿ بَل رَفَعَهُ الله إِلَيْه ﴾ [النساء : ١٥٨] يعنى بل قطعًا مَا قَتَلُوه وَرَفَعَهُ الله إليه والشَّاهد قوله ﴿ رَفَعَهُ ٱلله إِلَيْهِ ﴾ فإِنَّه صريح بأَنَّ الله تعالى فوق .

* * *

● **قال : وقوله :** ﴿ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ ﴾ [فاطر : ١٠]

﴿ إِلَيه ﴾ إلى الله عزَّ وجلَّ .

﴿ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّب ﴾ : و﴿ الكَلِم ﴾ هنا اسم جمع مُفْرده كلمة وجمع كلمة كلمات ، والكلم الطَّيب يشْمل كل كلمة يُتَقَرَّب بها إلى الله

كالقرآن ، والذكر والعلم والأمر بالمعروف والنَّهى عن المنكر . كل كلمة تُقَرِّب إلى الله عزَّ وجلَّ فهى كلمة طيبة تَصْعد إلى الله عزَّ وجل وتَصِل إليه ، والعَمَلُ الصَّالِح يَرْفَعُه الله إليه أيضًا .

فإذاً : الكلمات تَصْعد ، والعمل الصَّالح يُرْفع إليه ، وهذا يدلُّ على أنَّ الله فوق .

* * *

● قال : وقوله : ﴿ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ﴾ [غافر : ٣٦ ، ٣٧] .

القائل لهامان فرعون ، وهامان وَزيره . قال ﴿ ابْنِ لِى صَرْحًا ﴾ أى بناء عاليًا ﴿ لَعَلِّى أَبْلُغُ الأَسْبَاب . أَسْبَابَ السَّمٰوات ﴾ يعنى لعلى أَبلغ الطُّرق التى توصل إلى السماء ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسىٰ ﴾ يعنى أَنظر إليه وأصل إليه مباشرة ، لأَنَّ موسى قال له : إِنَّ الله فى السَّمَاء ، فموَّه فرعون على قومه ويحتمل أَنَّه موَّه لأجل أن يَرْقَى على هذا الصَّرح العَالِى ثم يقول لم أجد أحدًا .

ويحتمل أنَّه قاله على سبيل التَّهكم يقول : إنَّ موسى قال: إن إلٰهه فى السماء اجعلونا نرقى لنراه تهكمًا وأيّاً كان قال ﴿ وَإِنِّى لَأَظُنُّه كَاذِبًا ﴾ للتَّمويه على قومه وقد قال له موسى : ﴿ لَقَد عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوات وَالأَرْض بَصَائِر ﴾ [الإسراء : ١٠٢] فلم يقل ما علمت بل أقَرَّه على هذا الخبر المؤكد باللام وقد والقسم . والله عزَّ وجل يقول فى آية أخرى : ﴿ وَجَحدُواْ بِهَا واسْتَيْقَنَتْهَا أَنفسهُم ظُلْمَاً وَعُلواً ﴾ [النمل : ١٤] .

الشَّاهد من هذا : أَنَّ موسى ﷺ كان قال لفرعون وآله : إن الله فى السَّماء . فيكون علو الله تعالى ذَاتى ، قد جاءت به الشَّرائع السَّابقة .

* * *

● قال : وقوله : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾ [الملك : ١٦] .

والذى فى السَّماء هو الله عزَّ وجل لكنه كنَّى عن نفسه بهذا ؛ لأَنَّ المقام مَقَام إِظهار عظمة وأَنَّه فوقكم قادر عليكم مسيْطر عليكم ، مُهَيمن عليكم ؛ لأَنَّ العَالى له سُلْطة على مَنْ تَحْته ﴿ فَإِذَا هِى تَمُور ﴾ أى تضطرب ؟!

والجواب : لا نأمن والله ! بل نخاف على أَنفسنا إِذا كثرت مَعَاصِينـا أن تُخْسَفَ بنا الأرض .

والإِنهيارات التى يُسَمُّونها الآن إِنهيار أَرْضى ، وانهيار جبلى وما أَشْبه ذلك هى نفس التى هدَّد الله به هُنا ، لكن يأتون بمثل هذه العِبَارات لِيُهَوِّنوا الأمر على البسطاء من النَّاس .

● ﴿ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ﴾ [الملك : ١٧] .

﴿ أَمْ أَمنتُم ﴾ : يعنى بل أأمنتم و﴿ أَمْ ﴾ هنا بمعنى بل والهمزة .

﴿ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُم حَاصِبًا ﴾ : الحاصب عذاب من فوق ، والخَسْف من تحت . فالله عز وجل هَدَّدنا من فوق ، ومن تحت .

﴿ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُم حَاصِبًا ﴾ كما أرسل على قوم لوط وكما أَرْسل على أَصحاب الفِيل ﴿ أَرْسَلَ عَلَيْهم طَيراً أَبَابِيل تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِن سِجّيل ﴾ [الفيل : ٣ ، ٤] حتى قال المؤرخون : إِن الحجر وهو صغير يضرب الواحد منهم على هَامَتِه ويخرج من دُبُره ، والله على كل شىء قدير .

قال الله تعالى ﴿ فَكُلّاً أَخذْنَا بِذَنْبه فَمِنْهُم مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْه حَاصِبًا وَمِنْهم

مَن أَخَذَتْهُ الصَّيحة وَمِنهم مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْض وَمِنهم مَنْ أَغْرَقْنَا ﴾ [العنكبوت : ٤٠] . أربعة أنواع من العذاب . وهنا ذكر الله نوعين منها الحاجب والخسف والشَّاهد من هذه الآية هو قوله ﴿ مَنْ فِي السَّمَاء ﴾ [الملك : ١٦] .

والذى فى السَّماء هو الله عزَّ وجلَّ ، وهو دليلٌ على عُلُو الله بذاته ، لكن هَهُنَا إشكال وهو أَنَّ ﴿ فِى ﴾ للظَّرفية . فإذا كان الله فى السَّماء ، و﴿ فى ﴾ للظَّرفية فإن الظَّرف مُحِيطٌ بالمَظْرُوف . أَرَأَيت لو قلت : الماء فى الكأس ، فالكأس مُحِيطٌ بالماء وَأَوْسَعَ من الماء . فإذا كان الله يقول : ﴿ أَأَمِنْتُم مَنْ فِي السَّمَاءِ ﴾ [الملك : ١٦] فهذا ظَاهِرُه أَنَّ السَّماء مُحيطة بالله وهذا الظَّاهر لا شك أَنَّه ظاهر باطل ، وإذا كان الظَّاهر باطلاً فإنَّنا نعلم علم اليقين أَنَّه غَيْرُ مُرَاد لله ، لأَنَّه لا يمكن أن يكون ظاهر الكتاب والسُّنة كفرًا وباطلًا :

إذًا : ما هو المَخْرَج على حَسَب قواعد اللُّغة العَربية من هذا الإشكال ؟

قال العلماء : إن المخرج أَنْ نَسْلُكَ أَحَد طريقين :

١ - فإما أن نجعل السَّماء بمعنى العُلُوِّ ، والسَّماء بمعني العُلُوِّ وَارِدٌ فى اللغة بل فى القرآن قال تعالى : ﴿ أَنْزَلَ مِن السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَت أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها ﴾ [الرعد : ١٧] .

والمراد ﴿ مِن السَّمَاءِ ﴾ من العلو ؛ لأَنَّ الماء يَنْزِل من السَّحاب وقد قال الله تعالىٰ : ﴿والسَّحَابِ المُسَخَّر بَيْن السَّمَاءِ وَالأَرْض﴾ [البقرة : ١٦٤] فيكون ﴿ مَنْ فِي السَّمَاءِ ﴾ [الملك : ١٦] أى مَنْ فى العُلو .

ولا يوجد إشكال بعد هذا ، فهو فى العلو ليس يُحاذِيه شيء ولا يكون فَوْقَه شيء : العُلو المُطْلَق .

٢ - أو نجعل ﴿ فى ﴾ بمعنى على ، ونجعل السَّماء هى السَّقف المحفوظ المرفوع يعنى الأجرام السَّماوية . وإذا جعلنا السَّماء هى الأَجرام السَّماوية فإننا نجعل ﴿ فى ﴾ بمعنى عَلَىٰ . وتأتى ﴿ فى ﴾ بمعنى عَلَىٰ فى اللغة العربية ، بل فى القرآن الكريم : قال فرعون لقومه السَّحرة الذين آمنوا : ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُم فى جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ [طه : ٧١] أى عَلَىٰ جُذُوع النَّخل .

وقال عزَّ وجلَّ : ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى الأَرْضِ ﴾ [الأنعام : ١١] يعنى على الأرض فيكون معنى ﴿ مَنْ فِى السَّمَاءِ ﴾ [الملك : ١٦] : أى مَنْ عَلَى السَّماء .

فتطابقت الآية مع مدلولها اللُّغوى الذى ليس فيه نَقْص بالنِّسبة لله عز وجل .

فإن قلت : كيف تجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى فِى السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِى الأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ [الزخرف : ٨٤] ، وقوله : ﴿ وَهُو الله فى السَّمٰوات وَفِى الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُم وَجَهْرَكُم ﴾ [الأنعام : ٣] ؟!

فالجواب : أن نقول :

- أَمَّا الآية الأُولى فإن الله يقول : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فى السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وفى الأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ [الزخرف : ٨٤] فالظَّرف هنا لِأُلوهيته . يعنى أَنَّ أُلوهِيَّته ثابتة فى السَّماء وفى الأَرض ، كما تقول : فُلانٌ أَميرٌ فى المدينة ، ومكة ، فهو نَفْسه فى واحدة منهما ، وفيهما جميعًا بإمارته وسلطته ، فالله تعالى أُلوهيته فى السماء وفى الأرض ، أَمَّا هو عزَّ وجل ففى السَّماء .

- أما الآية الثَّانية : ﴿وَهُوَ الله فِى السَّمَاوَاتِ وَ فى الأَرْضِ﴾ [الأنعام : ٣] نقول فيها كما قلنا فى التى قبلها : ﴿ وَهُوَ الله ﴾ أى وهو الإله الذى ألوهيته

في السَّماوات وفى الأرض . أمَّا هو نفسه ففى السَّماء ، ولهذا جاءت بالجمع ﴿ السَّمَاوات ﴾ .

فنقول المعنى : وهو المَألُوه فى السَّمَاوَات ، المَألُوه فى الأَرض فألوهيته فى السَّماوات وفى الأرض .

وقيل المعنى : ﴿ وَهُوَ اللهُ فِي السَّماوَاتِ ﴾ [الأنعام : ٣] وتَقف ثم تقول : ﴿ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُم وَجَهْرَكُم ﴾ [الأنعام : ٣] . أى ويَعْلَم سِرَّكم وجهركم فى الأرض فليس كونه فى السَّماء مع عُلُوِّه بمانع من عِلمه بِسركم وَجَهْركم فى الأرض . وهذا المعنى فيه شيء من الضَّعف لأنه يقتضى تفكيك الآية وعدم ارتباط بعضها ببعض ، والصواب الأَوَّل أن نقول : ﴿ الله فى السَّمَاوَات وفى الأَرْض ﴾ [الأنعام : ٣] يعنى أَنَّ أُلوهيته ثَابِتَةٌ فى السَّماوات وفى الأَرض .

* * *

● **ومن الفوائد المَسْلَكِيّة فى هذه الآيات :**

أن الإنسان إذا علم بأن الله تعالى فوق كل شيء ، فإنَّه يعرف مِقْدار سُلْطانه وسَيْطرته على خلقه ، وحِينئذ يَخَافُهُ وَيُعَظِّمُه ، وإذا خَافَ الإنسان رَبّه وعظَّمه فإنَّه يتَّقِيه ويقوم بالواجب ويَدَع المُحَرَّم .

* * *

إثبات مَعِيّة الله لخلقه فى القرآن الكريم

١٠٢ - وقوله : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد : ٤] .

١٠٣ - وقوله : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ . [المجادلة : ٧] .

١٠٤ - وقوله : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ ﴾ [التوبة : ٤٠] .

١٠٥ - ﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه : ٤٦] .

١٠٦ - ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل : ١٢٨] .

١٠٧ - ﴿ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٤٦] .

١٠٨ - ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤٩] .

الشـــرح

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ

﴿ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد : ٤]

ثم شرع المؤلف بِسوْق أدِلّة المعية : أى أدلة مَعِية الله تعالى لخلقه (*) . وناسب أن يذكرها بعد العلو ، لأنَّه قد يبدو للإنسان أن هناك تَنَاقُضًا بين كَوْنه فوق كل شيء ، وكونه مَعَ العِباد . فكان من المناسب جدًا أن يذكر الآيات التى تثبت مَعِيّة الله للخلق بعد ذكر آيات العلو .

ومعيّة الله عزَّ وجل تنقسم إلى قسمين : عامَّة ، وخاصَّة .

والخاصَّة تنقسم إلى قسمين : مُقَيَّدة بشخص ، ومُقَيَّدة بِوَصْف .

● **أما العامَّة** : فهى التى تشمل كل أَحد من مُؤْمن وكافر ، وبَرٍّ وفَاجِر فإنَّ الله تعالى مع كُلِّ أَحد كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُم أَيْنَما كُنْتُم ﴾ [الحديد : ٤]

● **أما الخاصة** : (أ) **المقيَّدة بوصف** : فمثل قوله تعالى : ﴿ وَٱصْبِرُواْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ الصَّابِرِين ﴾ [الأنفال : ٤٦] ، ﴿ إِنَّ الله مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُم مُحْسِنُون ﴾ [النحل : ١٢٨] وهى أخصُّ من الأولى لأنها مُقَيَّدة بأَوْصَاف محبوبة إلى الله .

(ب) وأَمَّا المقيدة بشخص مُعَيَّن : فمثل قوله : ﴿ لَا تَحْزَن إِنَّ الله مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠] .

(*) **قال الشيخ ابن باز حفظه الله**: «المعية صفة من صفات الله وهى قسمان : معية خاصة : لا يعلم كيفيتها إلا الله كسائر صفاته وتتضمن الإحاطة والنصرة والتوفيق والحماية من المهالك . ومعية عامة : تتضمن علم الرب بأحوال عباده ، واطلاعه على جميع أحوالهم وتصرفاتهم الظاهرة والباطنة ولا يلزم منها الاختلاط والامتزاج ؛ لأنه سبحانه لا يقاس بخلقه ، فعُلوه على خلقه لا ينافى معيّته لعباده ، بخلاف المخلوق فإن وجوده فى مكان وجهه يلزم منه عدم إطلاعه على المكان الآخر والجهة الأخرى ، والرب ليس كمثله شيء لكمال علمه وقدرته » ا هـ .

وقال لموسى وهَارُون : ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه : ٤٦] وهذه أَخَصُّ من التى قبلها فهى دَرَجات عامة مطلقة وَخاصَّة مُقَيَّدة بِوَصف ، ومُقَيَّدة بشخص فأَخصُّ أَنْواع المعيَّة : مَا قُيِّد بشخص ، ثم مَا قُيِّد بِوَصْف ، ثم ما كان عامًّا .

وهذه المعيَّة التى أثبتها الله لنفسه هل هى حقيقية أَوْ هى كِنَاية عن عِلم الله عز وجل وسَمْعِه وبَصَرِه وقُدْرَتِه وسُلْطَانه وغير ذَلك من مَعَانى رُبُوبيته .

أكثر عبارات السَّلف - رحمهم الله - يقولون : إِنَّها كناية عن العِلم وعن السَّمع والبصر والقدرة وما أَشْبه ذلك . فيجعلون معنى قوله : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ أى وهو عالمٌ بكم سَمِيعٌ لأقوالكم بَصِيرٌ بأعمالكم ، قادر عَليكم حَاكِمٌ بينكم ، وهكذا ... فيُفَسِّرونها بلازمها واختار شيخ الإسلام - رحمه الله - فى هذا الكتاب أَنَّها على حَقِيقَتِها وأَنَّه مَعَنَا حَقٌّ على حَقِيقته لكن هى مَعِيّة خَاصّة بالله عز وجل ليس كمعية الإنسان للإنسان التى يمكن أن يكون الإنسان مع الإنسان فى مكانه لأَنَّ معية الله عز وجل ثابتة له وهو فى علوه ومَعَنا ، وهو عال عَلَى عَرْشِه فوق كل شيء ولا يمكن بأَى حَالٍ من الأَحوال أَن يكون مَعَنَا فى الأَمْكِنة التى نحن فيها ، وعَلَىٰ هذا فإنَّه يحتاج إلى الجمع بينها وبين العلو .

والمؤلف عقد لها فصلًا خاصًا سيأتى بيانه إن شاء الله تعالى[١] ، وأَنَّه لا مُنَافاة بين العلو والمعية ؛ لأَنَّ الله تعالى لَيْس كَمِثْله شيء فى جميع صِفاته فهو عَلِيٌّ فى دُنُوِّه قَرِيبٌ فى عُلُوِّه ، وضَرَب شيخ الإسلام - رحمه الله - لذلك مثلًا : بالقَمَر قال : إنَّه يُقَال : مَا زِلْنَا نَسِيرُ وَالقَمَرُ مَعَنا ، وهو موضوع فى السَّماء وهو من أَصْغَر المَخْلُوقات فكيف لا يكون الخَالق عَزَّ وجل مع الخلق

(١) راجع ص (٥١٠)

الذى الخلق بالنِّسبة إليه لَيْسُوا بشىء وهو فوق سَمَاوَاته .

وما قاله – رحمه الله – فيه حجة على بعض أهل التَّعطيل حيث احتجوا على أهل السنة فقالوا : أنتم تمنعون التَّأويل ، وأنتم تُؤوِّلون فى المعيّة . تقولون : المعيّة بمعنى العلم والسَّمع والبَصر والقُدرة والسُّلطان وما أَشْبه ذلك .

وكلٌّ يعرف أَنَّه ليس معنى « أَنَّه مَعَنا » يعنى أَنه عَالِمٌ بنا ولا يستقيم أَنْ نقول إنَّه مَعَنا بِعِلْمه ، لأَنَّ العِلم صفة فى العَالِم لا يمكن أن يَنْفصل العلم عن العالم الذى ينفصل عن العالم هو المَعْلُوم .

المعلوم فى الأَرض ، وفى السَّماء لكن علم الله وَصْفٌ فى ذَاتِه .

فالمسألة فيها التَّجوز الَّذى يقوله لنا أهل التَّأويل .

أما إذا قلنا بما اختاره شيخ الإسلام فى المعيَّة ، لكنها ليست على المفهوم الذى فَهِمَهُ هؤلاء بأَنَّه مع النَّاس فى كل مكان فإِنَّه يَبْقَىٰ الكلام عَلَىٰ حقيقته ولا حُجَّة لِأَحَدٍ على أَهْل السُّنة .

● المبحث الثانى : هل المعيّة من الصِّفات الذَّاتية أو من الصِّفات الفِعْلية ؟

فيه تفصيل ! أَمَّا المعيَّة التى مُقْتَضاها الإِحاطة فهى ذَاتِية ؛ لأَنَّ الله لم يَزَل ولا يَزَالُ مُحِيطًا بالخلق عِلْمًا وقُدْرةً وَسُلْطَانًا .

– وأَمَّا المعيّة الخاصَّة فهى صِفَةٌ فِعْلِية ؛ لأَنَّ كل صفة مَقْرُونة بسبب فهى من الصِّفات الفِعْلِية . فقد سبق لنا الرِّضى من الصِّفات الفِعْلِية لأَنَّه مَقْرُونٌ بِسَبَب إذا وجد السَّبب الذى به يَرْضى الله وُجِدَ الرِّضىٰ .

كذلك المعية إذا وُجِدَت التَّقوىٰ من الإنسان صَارَ الله مَعَه .

- إذا وُجِدَ الصَّبر صَارَ الله مَعَه .
- إِذَا وُجِدَ الإِحسان صَارَ الله مَعَه سبحانه .

● المبحث الثَّالث فى المعيّة : هل هى حقيقية أو لا ؟

ذكرنا ذلك . وأن من السلف من فسرها باللازم وهو الذى لا يكاد يرى الإنسان سواه . ومنهم من قال : هى على حقيقتها لكنها معية تَلِيقُ بالله خَاصَّة به ، لا يمكن أن يكون الله مع الإِنسان فى الأَرض بخلاف مَعِيّة المخلوق للمخلوق فقد يجتمعان فى مكان وقد يَفْترقان . يقال فُلانٌ زَوْجته معه ، وهو فى مكة وهى فى الرياض .

● المبحث الرَّابع فى المعية : هل بينها وبين العلو تناقض ؟

الجواب : لا تَنَاقُض بينهما لوجوه ثلاثة :

الوجه الأَوَّل : أَنَّ الله جمع بينهما فيما وَصَفَ به نفسه ، ولو كانا يَتَنَاقَضان ما صحَّ أن يَصِفَ الله بهما نفسه .

الوجه الثَّانى : أن نقول ليس بين العلو والمَعِيّة تَعَارُض أَصْلًا ، إذ من الممكن أن يكون الشَّىء عاليًا وهو مَعَكَ ومِنه ما يقوله العَرب : القمر معنا ونحن نسير ، الشَّمس مَعَنا ونحن نَسِير ، القُطْب مَعَنا ونحن نَسِير ، ومكانه فى السَّماء وهو معك فإذا أمكن اجتماع العلو والمعية فى المخلوق فاجتماعهما فى الخالق من باب أَوْلَى .

الوجه الثَّالث : أَنْ نقول لو فرضنا أَنَّ بينهما تَنَاقُضًا فى المفهوم باعتبار المخلوق ، فإِنَّ ذلك لا يَلْزَم باعتبار الخالق لظُهُور التَّباين بين الخالق والمخلوق أَرَأَيْتَ : لو أَنَّ إنسانًا عَلَى جَبَلٍ عالٍ ، وقال للجنود : اذهبوا إلى مكان بعيد فى المعركة وأَنَا معكم ، وهو وَاضِعٌ المِنْظَار عَلَى عَيْنَيْه ينظر إليهم من بعيد

فصار معهم ، لأَنَّه الآن يُبْصِرهم كأنهم بين يديه وهو بعيد عنهم ، فالأَمْرُ ممكن فى حق المخلوق ، كيف لا يمكن فى حقِّ الخالق ؟

بل لو قلت : إنَّه يَتَعَذَّر فى حقِّ المخلوق لم يكن متعذِّرًا فى حقِّ الخالق ، لأَنَّ الله أَعْظَم وَأَجل ، ولا يمكن أَن تُقَاس صفات الخالق بصفات المخلوقين .

والرَّسول ﷺ يقول فى سفره : « اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِى السَّفَر وَالخَلِيفَةُ فِى الأَهْل »(١) . فجمع بين كونه صاحبًا له وخَلِيفةً لَهُ فى أهله مع أَنَّه بالنسبة للمخلوق غير مُمْكِن . وثَبُتَ فى الحديث الصَّحيح(٢) : أن الله عز وجل يقول : « إِذَا قَال المُصَلِّى : ﴿ الحَمْدُ لله رَبّ العَالَمِين ﴾ [الفاتحة : ٢] حمدنى عبدى » .

كم من مُصَلٍّ يقول : ﴿ الحَمْدُ لله رَبّ العَالَمِين ﴾ [الفاتحة : ٢] ؟! لا يحصون .

وكم من مُصَلِّين أَحَدُهما يقول : ﴿الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِين﴾ [الفاتحة : ٢] والثَّانى يقول : ﴿ إِيَّاك نَعْبُد وَإِيَّاك نَسْتَعِين ﴾ ؟ وكُلُّ واحد منهما له رَدٌّ . الذى قال : ﴿ الحَمْدُ لله رَبّ العَالَمِين ﴾ يقول الله له : « حَمَدَنى عَبْدى » . والذى يقول : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُد وَإِيَّاك نَسْتَعِين ﴾ يقول : « هذا بينى وبين عبدى نِصْفَين » .

فهذا ثابت لله تعالى . دل عليه الحديث ، لكن بالنِّسبة لنا غير ممكن .

إذًا : لماذا لا نقول : يمكن أن يكون الله مَعَنَا حَقًّا وهو على عَرْشِه فى السَّماء لا يفهم أحد أنهما يَتَعَارَضَان إِلَّا من أراد أن يُمَثِّل الله بخلقه ويجعل

---

(١) رواه مسلم (١٣٤٢) (٤٢٥) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما .

(٢) رواه مسلم (٣٩٥) (٣٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

مَعِيّة الخالق كمعية المخلوق .

أَمَّا إذا قُلْنا هذا شيء فوق عُقُولنا والواجب علينا أَن نُثْبِت ما أَثْبَتَه الله لنفسه .

قال الله تعالى : ﴿ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلعَرْشِ ﴾ [الحديد : ٤] وقال : ﴿ وَهُوَ مَعَكُم ﴾ [الحديد : ٤] . نؤمن بهذا لكننا نَصُونُه عن الظُّنون الكاذبة . والظَّن الكاذب هنا أن نظن أنَّ الله معنا فى الأَرض ، لأَنَّ ظَنَّ كَوْنِه فى الأَرْض باطل بالنِّسبة لله عز وجل ، إذ أَنَّنا لو قلنا إن الآية تدلُّ على أَنَّ الله فى الأرض ، صارت مع الآية التى تثبت العلو مُتَنَاقِضة ، وصَارَ يُنَافى عُلُوَّه الذى هو من صِفَاتِه الذَّاتية فحينئذ نقول : نؤمن بأَنَّ الله معنا وهو فى السَّماء على عرشه .

فإذا قال قائل : كيف يمكن ذلك ؟

نقول : لا تقل كيف يمكن ! أنت قل : آمنت بالله وَرَسُوله وصدِّق بما قال الله عن نفسه ، ولا تَقُل : كيف يمكن ؟!

إذا قلت : كيف يمكن ؟ نقول : سُؤَّالك هذا بِدْعة ، عليك أن تُصَدِّق ولا تقل كيف ، لأَنَّه من المستحيل أَن تَقِيس الخالق عزَّ وجل بالمخلوق .

فيجب أن نُنَزِّه الخالق عن مُمَاثَلة المخلوق وأن نقول : آمنَّا بالله .

(**تنبيه**) : تأمل فى الآيات كل الضَّمائر تعود على الله سبحانه وتعالى مثل : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ ﴾ [الحديد : ٤] ، ﴿ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ [الحديد : ٤] ، ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ ﴾ [الحديد : ٤] ، ﴿ وهو معكم ﴾ [الحديد : ٤] فيجب علينا أن نؤمن بظاهر الآية الكريمة ونعلم علم اليقين أنَّ هذه المعيّة لا تقتضى أن يكون الله معنا فى الأرض ، بل هو مَعَنا

مع استوائه عَلَىٰ العرش .

هذه المعيَّة إذا آمنَّا بها تُوجب خَشْية الله عزَّ وجل وتَقْوَاه ولهذا جاء فى الحديث : « أَفْضَلُ الإيمَان أَنْ تَعْلَم أَنَّ الله مَعَكَ حَيْثُما كُنْتَ »(١)

أما أهل التعطيل فقالوا : إنَّ الله معنا فى أَمْكِنتنا إن كنت فى المسجد فالله مَعَك فى المسجد ، والَّذين فى السُّوق الله معهم فى السُّوق ، والذين فى الحمَّامات الله معهم فى الحمَّامات . مَا نَزَّهوه عن الأَقذار والأنتان وأماكن اللهو والرفث .

قالوا : معنا بذاته .

فنحن نبطل هذا القول فأولًا نقول : ما شُبْهَتُهم ؟ وما الرَّد عليهم ؟

شُبْهَتُهم : يقولون : معنا ظاهر اللفظ : ﴿ وَهُوَ مَعَكُم ﴾ وكل الضمائر تَعُود على الله : ﴿ هُوَ الَّذى خَلَق ﴾ ، ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ ﴾ ، ﴿ يَعْلَمُ ﴾ ، ﴿ وَهُوَ مَعَكُم ﴾ وإذا كان معنا فنحن لا نفهم من المَعِيَّة إِلَّا المُخَالطة أَو المُصَاحبة فى المكان !!

- ونُجِيبهم عن ذلك : بأَنَّ ظاهرها ليس كما ذَكرتم . لو كان الظَّاهر

---

(١) **إسناده ضعيف** : أخرجه أبو نعيم فى الحلية (١٢٤/٦) ، والبيهقى فى الأربعون الصغرى برقم (٢٤) من طريق نعيم بن حماد ثنا عثمان بن كثير بن دينار عن محمد بن مهاجر عن عروة عن عبد الرحمن بن غنم عن عبادة بن الصامت به وقال أبو نعيم : « غريب من حديث عروة لم نكتبه إلا من حديث محمد بن مهاجر » اهـ .

وفى إسناده : نعيم بن حماد صدوق يخطىء كثيرًا والحديث عزاه الهيثمى فى المجمع (٦٠/١) للطبرانى فى الأوسط والكبير ثم قال : « تفرد به عثمان بن كثير ولم أر من ذكره بثقة ولا جرح » وعزاه السيوطى فى الجامع الصغير (٤٩/١) للطبرانى ، وأبو نعيم وضعَّفه ، وكذا ضعَّفه الألبانى فى ضعيف الجامع (١١٠٠) ، وأورده ابن رجب فى نور الاقتباس ص (٥٤) وعزاه للطبرانى .

كما ذكرتم لكان فى الآية تَنَاقُض : أن يكون مُسْتويًا على العرش ، وهو مع كل إنسان فى أى مَكَان ، والتَّنَاقُض مَمْنُوع .

ثانيًا : قولكم إنَّ المعيَّة لا تُعْقَل إلَّا مع المُخَالطة أو المُصَاحبة فى المكان هذا ممنوع ، فالمعيَّة فى اللُّغة العربية اسْمٌ لِمُطْلَق المُصَاحبة ، وهى أَوْسَع مَدْلُولًا مما زعمتم ، قد تَقْتَضِى الاختلاط ، وقد تَقْتَضى المصاحبة فى المكان وقد تَقْتَضى مُطْلق المُصَاحبة وإن اختلف المكان . هذه ثلاثة أشياء :

١ – مثال المعيَّة التى تَقْتَضى المُخَالطة : أن نقول : سقونى لَبَنًا مع ماء . أى مَخْلُوطًا بماء .

٢ – ومثال المَعِيّة التى تَقْتَضى المُصَاحبة فى المكان قَوْلَك : وَجَدت فلانًا مع فلانًا يَمْشيان جميعًا ويَنْزلان جميعًا .

٣ – ومثال المعية التى لا تَقْتَضى الاختلاط ولا المُشَاركة فى المكان : أَن يُقَال : فلان مع جُنُوده ، وإن كان هو فى غُرْفَة القِيادة لكن يوجههم .

إذًا : هذا ليس فيه اختلاط ولا مُشَاركة فى مكان .

ويقال : زَوْجة فلان معه وإن كانت هى فى المَشْرق وهو فى المَغْرب .

فالمعية إذًا كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – كما هو ظاهر من شواهد اللغة مَدْلُولها مُطْلق المُصَاحبة ، ثم هى بحسب ما تُضَاف إليه : فإذا قيل : ﴿ إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ ﴾ [النحل : ١٢٨] فلا يَقْتضى ذلك . لا اختلاطًا ولا مشاركة فى المكان بل هى مَعِيّة لَائِقة بالله .

فدعواكم أَنَّ المعيَّة فى قوله : ﴿ وَهُوَ مَعَكُم أَيْنَما كُنْتُم ﴾ [الحديد : ٤] تَقْتَضِى الاختلاط هذه دَعْوَى باطلة :

أولًا : لأَنَّ هذا ليس لازمًا فى اللُّغة العربية .

وثانيًا : لأَنَّ هذا محال بالنِّسبة إلى الله عزَّ وجل ، إذًا فليس ظاهر الآية ما زعموا .

ثالثًا : نقول زَعمكم هذا والعياذ بالله ! من أَبْطَل البَاطل وأَشَد التَّنَقُّص لله عزَّ وجلَّ والله عزَّ وجل ذكرها هنا عن نفسه مُتَمَدِّحًا أنَّه مع علوه على عرشه فهو مع الخلق وإن كانوا أسفل منه ، لكن على زعمكم هذا غاية التنقص لله عز وجل ، لأَنَّه إذا جعلتم الله فى الأرض فهذا نقص .

إذا جعلتم الله نفسه معكم فى كل مكان ، وأنتم تدخلون الكُنُف هذا أعظم النَّقص ، ولا تستطيع أن تقوله وَلَا لِملك من مُلوك الدُّنيا « إنَّك أَنت فى الكَنِيف » لكن كيف تقوله لله عز وجل ؟!!

وهل هذا إلا أعظم النَّقص والعياذ بالله !!

رابعًا : يلزم على قولكم هذا أحد أمرين لا ثالث لهما وكلاهما ممتنع :

إمَّا أَنْ يكون الله متجزءً أو متعددًا .

إمَّا أن يكون مُتعددًا : يعنى كل إلٰه مِنه فى جهة .

وإمَّا أن يكون مُتَجَزءً أجزاء ، جُزء من هنا ، وجُزء من هناك .

إمَّا أن يكون واحدًا فهذا لا يمكن مع تَعدُّد الأمكنة ، لأن تَعَدُّد المكان يَسْتلزم تَعَدُّد الأماكن ، كيف يكون المكان مُتعدِّدًا وأَنت وَاحد .

خامسًا : أَنْ نقول : قولكم هذا أيضًا يَسْتَلْزِم أَحَد أَمْرين :

١ – إما أَن يكون الله حالاً فى الخلق .

٢ – أو الخلق حَالٌ فيه أى فى الله ؛ لأَنَّه إذا كان الخلق حَالاً فى الله

صار كل مكان فى الخلق فالله تعالىٰ فيه ، وهذا صَار سُلّمًا لقول الحُلُولية فأَنْتَ تَرَىٰ أَنَّ هذا القول باطل ومُقْتَضَى هذا القول : الكُفر . ولهذا نرى أَنَّ من قال : إِنَّ الله مَعَنَا فى الأَرْض فهو كَافِر يُسْتَتَابُ وَيُبَيَّن له الحق فإن رَجَعَ وإلا وَجَبَ قَتْلُه .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُم أَيْنما كُنْتُم ﴾ [الحديد : ٤] هذا من المَعِيّة العامَّة لأَنَّها تَقْتَضى الإِحاطة بالخلق عِلْمًا وقُدرة وسُلْطَانًا وسَمْعًا وبَصرًا وغير ذَلك من مَعَانى الرُّبوبية .

* * *

● **وقوله** : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [**المجادلة : ٧**]

قوله : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَجْوَىٰ ﴾ يكون تامَّة يعنى : ما يوجد

وقوله : ﴿ مِن نَجْوَىٰ ثَلاثَةٍ ﴾ قيل : إِنَّها من باب إِضافة الصِّفة إلى الموصوف وأَصْلها من ثلاثة نجوى ، ومعنى نجوى : أى مُتَنَاجِين .

وقوله : ﴿ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُم ﴾ ولم يقل إِلَّا هو ثَالِثهم ، لأَنَّه من غير الجنس وإِذا كان من غير الجنس فَإِنَّه يُؤْتَىٰ بالعدد التَّالى .

أَمَّا إذا كان من الجنس فإِنَّه يؤتى بنفس العدد . انظر إلى قوله تعالى عن النَّصارىٰ : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ ٱللهَ ثَالِثُ ثَلاثة ﴾ [المائدة : ٧٣] ولم يقولوا ثالث اثنين لأَنَّه من الجنس على زعمهم فعِنْدَهم كل الثَّلاثة آلهة فلما كان من الجِنس على زَعْمِهم قالوا : فيه ثَالِثُ ثلاثة .

وفى أصحاب الكهف : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُم كَلْبُهُم ﴾ [الكهف : ٢٢] لم يقل أربعة رابعهم كلبهم ، لأن الكلب لَيس منهم .

قوله : ﴿ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهم ﴾ ذكر العدد الفردى ثَلاثة وخمسة وسكت عن العدد الزَّوْجى لكنه ذكر فى قوله : ﴿ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَلك ﴾ الأدنى من ثلاثة اثنان ﴿ وَلَا أَكْثَرَ ﴾ من خمسة ، ستة فما فوق ما من اثنين فأكثر يَتَنَاجيان بأَىِّ مكان من الأرض إِلّا والله عز وجل معهم . وهذه المعيّة عامّة لأَنَّها تشمل كل أحد : المؤمن والكافر والبر والفاجر ، ومُقْتَضَاها الإحاطة بِهِم عِلمًا وقُدْرَة وسَمْعًا وبَصَرًا وسُلْطَانًا وتَدْبيرًا وغير ذلك .

ثمّ قال : ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ القِيَامَة ﴾ [المجادلة : ٧] يعنى أَنَّ هذه المعية تقتضى إحصاء مَا عَمِلُوه فإذا كان يوم القِيامة نَبَّأَهم بما عَمِلوا يعنى أَخْبَرهم به وحِسَابُهم عليه ، لأَنَّ المراد بالإِنْبَاء لازِمُه وهو المُحَاسبة لكن إن كانوا مؤمنين فإن الله تعالى يحصى أعمالهم ثم يقول : « سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِى الدُّنيا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ اليوم »(١) .

ثم قال عز وجل : ﴿ إِنَّ الله بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيم ﴾ [المجادلة : ٧] .

كل شىء موجود أَوْ مَعْدوم جائز أو وَاجب أَو ممتنع كل شىء فالله عَلِيمٌ به وقد سبق لنا الكلام على صفة العِلم ، وأن علم الله يتعلّق بكل شىء حتى بالوَاجب والمستحيل ، والصَّغير والكبير .

* * *

(١) رواه البخارى (٢٤٤١) ، ومسلم (٢٧٦٨) (٥٢) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما .

● **وقوله** : ﴿ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ ﴾ [التوبة : ٤٠] .

هذه آية ذِكر هجرة النَّبى عليه الصلاة والسلام قال : ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوه فَقَد نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِين كَفَرُواْ ثَانِى اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى الغَار إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبه لا تَحْزَن إِنَّ الله مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠] .

نَصَرَهُ حين الإخراج و﴿ إِذْ هُمَا فِى الغَار ﴾ يعنى عند الخروج ثانيًا : وعند المكث فى الغار . ثالثًا : عند الشدة حينما وقف المشركون على فم الغار : ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبه لَا تَحْزَن ﴾ فهذهِ ثلاثة مَوَاقع بيَّن الله تعالى فيها نصره لنبيه ﷺ وهذا الثَّالث حين وقف المشركون عليهم يقول أبو بكر : « يا رسول الله ! لَو نَظَرَ أَحَدُهُم إلى قَدَمِه لأَبصَرَنا »(١) .

يعنى : إنَّنا على خطر كقول أصحاب موسى لما وَصَلُوا إلى البحر : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [الشعراء : ٦١] . فقال : ﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِى رَبِّى سَيَهْدِين ﴾ [الشعراء : ٦٢] . وهنا قال : ﴿ لَا تَحْزَن إِنَّ الله مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠] .

وهذا أَبْلَغ من قِصة مُوسَى ؛ لأَنَّ موسى لم يَقُل لا تحزنوا بل قال : ﴿ إِنَّ مَعِى رَبِّى سَيَهْدِين ﴾ [الشعراء : ٦٢] .

وهنا قال : ﴿ لا تَحْزَن ﴾ فطَمْأنه وأدخل الأمن فى نفسه ، وعلَّل ذلك بقوله : ﴿ إِنَّ الله مَعَنَا ﴾ وقوله هنا : ﴿ لَا تَحْزَن ﴾ هل المراد لا تخف مِمَّا سَيَقع أو لا تحزن على مَا وَقَع ؟

يحتمل معنيين :

١ - إمَّا أَنَّ المعنى لا تحزن يعنى لا تَخَف على المستقبل .

---

(١) رواه البخارى (٣٦٥٣) ، ومسلم (٢٣٨١) (١) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

٢ – أو لا تحزن على مَا حَصل فإنّنا مَنْصُورون .

﴿ إِنَّ اللهَ مَعَنَا ﴾ وهذه المعية خاصة مُقَيَّدة بالنَّبى ﷺ وأبى بكر هذه المعية تَقْتَضِى مع الإحاطة التى هى المعيَّة العامة : النَّصر والتَّأْييد ولهذا وقَفوا على الغار وقالوا : ليس فيه أحد !!

أَعْمَى الله أَبْصَارهم ، وأَمَّا قول من قال : إنَّ العنكبوت نَسَجت على الغار والحمامة وَقَعت على باب الغَار ، فلما جاء المشركون وإذا على الغَار حَمَامة وعِشَّ عنكبوت فقالوا : لَيْسَ فيه أحد فانصرفوا .

فهذا باطل !! الحِماية الإلهية ، والآية البَالغة ، أَنْ يكون الغار مَفْتوحًا صافيًا ليس فيه مانع حِسِّى ، ومع ذلك لا يرون من فيه ، هذه هى الآية !! أما أن تأتى حمامة وعنكبوت تُعَشِّش فهذا بعيد وخلاف ظاهر الحديث الذى يقول : « لَوْ نَظَر أَحَدُهُم إلى قَدَمِه لأَبْصَرَنا »(١) .

المهم : أنَّ بعض المؤرخين – عفى الله عنهم – يأتون بأشياء غريبة شاذة منكرة لا يَقْبَلها العقل ، ولا يَصِحُّ بها النقل .

* * *

● **قال: وقوله :** ﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه : ٤٦] .

هذا الخطاب لموسى وهارون لما أَمَرَهما الله عزَّ وجل أن يَذْهَبَا إلى فرعون قال : ﴿ اذْهَبَا إِلى فِرْعَونَ إِنَّه طَغَىٰ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّه يَتَذكر أَوْ يَخْشَىٰ قَالَا رَبَّنا إِنَّنا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِى مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه : ٤٣–٤٦] .

---

(١) **حديث صحيح** : تقدم تخريجه قبل قليل ص (٣٧٣) .

هذه جملة استئنافية لبيان مُقْتَضَى هذه المَعِيَّة وهو السَّمع والرُّؤْية وهذا سمع ورؤية خَاصَّان تَقْتَضيان النَّصر والتَّأْييد والحماية من فرعون الذى قالا عنه : ﴿ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ ﴾ [طه : ٤٥] .

● **قال : وقوله :** ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل : ١٢٨] .

هذه جاءت بعد قوله : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُم فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ [النحل : ١٢٦] .

عقوبة الجانى بمثل ما عُوقب به من باب التَّقوىٰ ، وبأَكْثر ظُلْم وعُدوان والعفو إحسان : ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُم ﴾ لهذا قال : ﴿ إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَٱلَّذِينَ هُم مُحْسِنُونَ ﴾ [النحل : ١٢٨] .

المعيَّة هنا خاصَّة مُقَيَّدة بصفة كل من كان من المتقين المحسنين فالله معه .

● **هذا يُثْمر لنا بالنِّسبة للحالة المَسْلكية:** الحِرْص على الإحسان والتَّقوى فإن كل إنسان يَجب أن يكون الله مَعَه .

إذا أردت أن يكون الله مَعَك فَكُن مُتَّقِيًا ومُحْسِنًا .

* * *

● **قال :** ﴿ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٤٦] .

سبق لنا أن الصَّبر : حَبْسُ النفس على طاعة الله ، وحَبْسها عن معصية الله ، وحَبْسها عن التَّسخط على أَقْدار الله . سواء باللِّسان أو بالقلب أو بالجوارح .

والأَفضل : الصَّبر على طاعة الله ، ثم عن مَعْصية الله – لأن فيهما

اختيارًا : إن شاء الإنسان فعل المأمور وإن شاء مَا فَعل وإن شاء تَرَك المحرَّم وإن شاء ما تركه – ثم على أقدار الله لأن أقدار الله واقعة شئت أم أبيت ، فإمَّا أن تَصْبر صَبْر الكِرام وَإمَّا أن تَسْلُو سُلُوَّ البَهَائم .

والصَّبر درجة عالية لا تُنَال إلا بِشَيءٍ يُصْبَرُ عليه ، أَمَّا من فُرشت له الأرض وُرُودًا وَصَار الناس يَنْظُرون إلى مَا يُريد فإنَّه لابد أَنْ يناله شيء من التَّعب النَّفسى أو البدنى الدَّاخلى أو الخارجى ثم يصبر ، ولهذا جمع الله لنبيه عليه الصَّلاة والسلام بين الشُّكر والصَّبر .

– الشُّكر كان يقوم حتى تتورم قدماه فيقول : « أَفَلا أحب أن أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا »(١)

– والصَّبر : صَبَرَ على مَا أُوذى فقد أُوذى مِنْ قَوْمه ، ومن غيرهم من اليهود والمُنَافقين وَمَع ذلك فهو صَابِر .

* * *

● **قال** : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةَۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤٩] .

﴿ كَمْ ﴾ خبرية تُفيد التَكْثِير يعنى فئات قليلة غَلَبَت فِئة كثيرة عِدَّة مرات لكن لا بحولهم ولا بِقُوَّتهم بل بإذن الله أى بقدره ، ومن ذلك : أَصْحاب طالوت غَلَبوا عَدُوِّهم وكانوا كثيرين ، ومن ذلك : أَصْحاب بدر غَلَبُوا قريشًا وهم كثيرون .

أَصْحَابُ بدر خرجوا لِغَيْر قِتال ، بل لأَخْذ عِير أَبِى سُفيان وأبو سفيان

---

(١) رواه البخارى (٤٨٣٦) ، ومسلم (٢٨١٩) (٧٩) من حديث المغيرة بن شعبة رضى الله عنه .

لما علم بهم أَرْسَل صَارِخًا إلى أهل مكة يقول : انْقِذُوا عِيرَكُم محمد وأصحابه خرجوا إلينا يُريدون أخذ العِير ، والعِير فيها أَرْزاق كَثِيرة لِقُرَيْش فخرجت قريش بأَشْرَافها وأَعْيَانِها وخُيلائها وبَطَرِهم يُظهرون القـوة والفخر والعِزَّة حتى قال أبو جهل : والله لا نَرْجع حتى نَقْدُم بَدْرًا فنقيم فيها ثلاثًا نَنْحَر الجُزور ونَسْقى الخُمور وتَعزف علينا القِيان وتَسْمَعُ بنا العرب فلا يَزالُون يهابوننا أبدًا .

فالحمد لله غَنَّوْا على قتله هو وَمن معه ! كان هؤلاء القوم ما بين تِسعمائة وألف كل يوم يَنْحرون من الإبل تِسْعًا إلى عَشر والنَّبى عليه الصَّلاة والسَّلام هو وأصحابه ثلاثمائة وأربعة عَشر رَجُلًا معهم سَبْعون بَعِيرًا وفَرَسَان فقط يَتَعَاقبونها ومع ذلك قَتلوا الصَّناديد العُظَماء لقريش حتى جِيفوا وانْتَفَخُوا من الشَّمس وسحِبوا إلى قَلِيب من قُلب بَدْر خَبِيثة . وقف النَّبى عليه الصلاة والسلام عليهم يدعوهم بأسمائهم وأَسْمَاء آبائهم : يا فُلان بن فلان . يا فُلان ابن فلان هل وَجدتم مَا وَعَدَ رَبُّكُم حَقًّا فَإِنِّى قد وَجدتُّ مَا وَعَدَنِى رَبِّى حَقًّا . قالوا : يا رسول الله ! كيف نُكلِّمهم وهم جِيف ؟ قال : « مَا أَنْتُم بِأَسْمَع لِما أَقُول مِنهم »(١) . يَسْمَعُون توبيخ الرَّسول ﷺ لهم وأَنه وَجَدَ مَا وَعَدَهُ رَبُّه حقًا وأنتم وجدتم مَا وَعد رَبُّكم حقًا . فـ ﴿ كَمْ مِن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَة كَثِيرَةً بِإِذْنِ الله ﴾ [البقرة : ٢٤٩] ؛ لأَنَّ الفئة القليلة صَبَرت : ﴿ وَالله مع الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤٩] صَبَرت : كل أَنواع الصَّبر على طاعة الله ، وعن مَعْصية الله ، وعلى مَا أَصابها من الجهد والتَّعب والمَشَقَّة فى تحمّل أَعْباء الجهاد : ﴿ وَٱلله مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ .

---

(١) رواه البخارى (٣٩٧٦) ، ومسلم (٢٨٧٥) (٧٨) من حديث أبى طلحة رضى الله عنه .

انتهت آيات المعية وسيأتى للمؤلف - رحمه الله - فصلٌ كامل فى تقريرها[1]

● ما نستفيده من الآثار المسلكية من الإيمان بهذه الصفة :

ولكن ما هى الثَّمرات التى نستفيدها بأن الله معنا ؟

أَوّلًا : الإيمان بإحاطة الله عَزَّ وجل بكل شىء وأَنَّه مع علوه فهو مَعَ خلقه لا يغيب عنه شىء من أَحْوَالِهم أبدًا .

ثانيًا : أَنَّنا إذا عَلِمْنا ذلك وآمنا به فإنَّ ذلك يُوجب لنا كمال مُرَاقبته بالقيام بِطَاعَتِه وتَرْك مَعْصِيته بحيث لا يَفْقدنا حيث أَمَرَنَا ولا يَجِدْنا حَيْثُ نَهَانَا ، وهذه ثمرة عظيمة لمن آمن بهذه المعيَّة .

* * *

(١) راجع ص (٤٦٤ ، ٥٠٤) .

إثبات الكلام لله تعالى

١٠٩ - وقوله : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء : ٨٧] .

١١٠ - وقوله : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ [النساء : ١٢٢].

١١١ - وقوله : ﴿ وإذ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾

[المائدة : ١١٦]

١١٢ - وقوله : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾

[الأنعام : ١١٥]

١١٣ - وقوله : ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء : ١٦٤] .

١١٤ - وقوله : ﴿ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة : ٢٥٣] .

١١٥ - وقوله : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾

[الأعراف : ١٤٣]

١١٦ - وقوله : ﴿ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا ﴾

١١٧ - وقوله : ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

[الشعراء : ١٠] .

١١٨ - وقوله : ﴿ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ ﴾

[الأعراف : ٢٢] .

١١٩ – وقوله : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص : ٦٥] .

١٢٠ – وقوله : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة : ٦] .

١٢١ – وقوله : ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ ﴾ [البقرة : ٧٦] .

١٢٢ – وقوله : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ ﴾ [الفتح : ١٥] .

١٢٣ – وقوله : ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ [الكهف : ٢٧] .

١٢٤ – وقوله : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [النمل : ٧٦] .

الشـــرح

ثم انتقل المؤلف رحمه الله تعالى إلى : « صفة الكلام » والكلام كَمالٌ لا نَقْص ولهذا قالت الأشاعرة : أَنَّه من لازم كمال الله عزَّ وجلَّ أن يكون مُتَكَلِّمًا لكنهم مع الأسف فَسَّروا الكلام على خلاف حقيقته كما سيأتى .

● **يقول المؤلف** : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء : **٨٧**] .

: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ [النساء : **١٢٢**] .

﴿ مَنْ ﴾ اسم استفهام بمعنى النفى وإتيان النفى بصيغة الاستفهام أَبْلغ من اتيان النَّفى مُجَرّدًا أَو بصورته الحقيقية لأَنَّه يكون بالاستفهام مشربًا معنى

التحدى كأنه يقول : لا أحد أصدق من الله حديثًا ، وإذا كنت صادقًا فأت بذلك .

وقوله : ﴿ حديثا ﴾ تمييز لـ ﴿ أصْدَقُ ﴾ لا أَحد أصدق من الله حديثًا..

أين صفة الكلام فى هاتين الآيتين ؟

جـ : قوله ﴿ أَصْدَقُ ﴾ ، لأَنَّ الصدق يُوصف به الكلام .

وقوله : ﴿ حَدِيثًا ﴾ ففيها إثبات أن الله عز وجل يتحدث وله حديث هو أَصْدَقُ الحَديث .

يقول : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِن الله قِيلاً ﴾ [النساء : ١٢٢] .

﴿ قِيلاً ﴾ يعنى قولاً وهى كالأَوَّل ، والقول لا يكون إلا باللَّفظ ففيهما إثبات الكلام لله عزَّ وجلَّ وأَنَّ كلامه حَقٌّ وَصدق لَيس فيه كذب بِوجه مِن الوُجوه .

* * *

● **وقوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة : ١١٦] .**

قال : ﴿ يَا عِيسَىٰ ﴾ مقول القول وهى جملة من حُروف ﴿ يا عيسى بن مريم ﴾ وفيه أيضًا بقية الآية ﴿ أَأَنْتَ قُلْتَ للنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّى إِلَهَيْن مِن دُونِ الله قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِى أَن أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ﴾ [المائدة : ١١٦] . ففى هذا إثبات أَنَّ الله يَقُول وأَنَّ قوله مَسْمُوع فيكون بِصَوْت وأَنَّ قوله كَلِماتٌ وَجُملٍ فيكون بِحَرْف ولهذا يقول أهل السُّنة والجماعة : نحن نُؤمن بأَنَّ الله يَتَكَلَّم بكلام حقيقى مَتَى شَاء ، كَيْف شَاءَ ، بِما شَاء ، بِحَرْفٍ وَصَوْتٍ لا يُمَاثل أَصْوَات المخلوقين .

- مَتى شاء : باعتبار الزَّمن .

- بما شاء : باعتبار الكلام يعنى موضوع الكَلام من أَمْرٍ أَوْ نَهْى أو غير ذلك .

- كَيْفَ شَاء : يعنى على الكَيْفِية والصِّفة التى يُريدها سبحانه وتعالىٰ .

- قلنا : إنَّه بحرفٍ وصَوْتٍ لا يُشبه أَصْوات المخلوقين .

الدَّليل على هذا من الآية الكريمة ﴿ إِذْ قَالَ الله يَا عِيسىٰ بن مَرْيم ﴾ [المائدة : ١١٦] هذا حروف وَبِصَوت : لأَنَّ عيسى يَسْمع ما قال .

- لا يُمَاثل أَصْوات المَخْلوقين : لأَنَّ الله ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِير ﴾ [الشُّورى : ١١] .

* * *

● **وقوله : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام : ١١٥] .**

﴿ كَلِمَةُ ﴾ بالإفراد وفى قراءة ﴿ كَلِمَات ﴾ بالجمع . ومعناهما وَاحد ، لأَنَّ كلمة مفرد مُضاف فَيَعُمّ . تمت كلمات الله عزَّ وجل على هذين الوَصْفين : الصِّدق ، والعدل ، والذى يناسب الصِّدق الخبر ، والعَدل الحُكْم ولهذا قال المُفَسِّرون : صِدْقًا فى الأخبار ، عَدْلاً فى الأَحكام .

فكلمات الله عزَّ وجل فى الأخبار صِدْق لا يَعْتريها الكَذب بِوَجْهٍ من الوُجُوه وفى الأحكام عَدْلٌ لا جَوْرَ فيها بِوَجْه من الوُجوه .

هنا وصفت الكلمات بالصِّدق والعدل . إذًا فهى أَقوال ؛ لأَنَّ القول هو الذى يُقال فيه كَاذِب أَوْ صَادِق فتمت كلمة الله فى صِدْقها وَعَدْلِها ؛ لأَنَّه عَزَّ وجل ليس فى أَخباره كَذِب ، وَلا فِى أَحْكَامه جَوْر .

* * *

● **وقوله : ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾** [النساء : ١٦٤] .

﴿ الله﴾ فاعل ، فالكلام وَاقِعٌ منه .

﴿ تَكْلِيمًا ﴾ مصدر مُؤَكِّد ، والمصدر المؤَكِّد قال العلماء أَنَّه يَنْفى احتمال المجاز .

أَرأيت لو قلت : جَاءَ زَيْدٌ فَيُفْهَم أَنَّه جاء هو نفسه ، ويحتمل أن يكون المعنى جَاءَ خَبَرُ زَيْد ، وإن كان خلاف الظَّاهر لكن إذا أَكدت فقلت : جاء زَيْدٌ نَفْسُه أَو جَاء زَيْدٌ زَيْد انتفى احتمال المجاز .

فقوله ﴿كَلَّمَ الله مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء : ١٦٤] لما قال ﴿تَكْلِيمًا﴾ أَكَّد الفعل فدلّ ذلك على أَنَّه كَلاَمٌ حَقِيقى لأَنَّ المصدر ينفى احتمال المجاز .

كلام الله عزَّ وجل لموسى كلام حقيقى سمعه ، ولهذا جرت بينهما محاورة كما فى سورة طه وغيرها . وحينئذ نقول : إنَّ كلام الله بحرفٍ وصَوت .

● **مخالفوا أهل السنة والجماعة فى صفة الكلام والرد عليهم :**

وخالف أهل السُّنة فى كلام الله طوائف بَلَغت أقوالهم إلى سبعة أَقْوال أو ثمانية نذكر منها قولين لِشُهرتهما : وهما قول المعتزلة ، وقول الأشاعرة .

● فالمعتزلة يقولون : إنَّ الله يتكلَّم بحرف وصَوت مَسْموع لكن كلامه مخلوق كسائر المخلوقات فيقال تكلَّم مثل خلق . فَتَكْلِيم الله لموسى ليس معناه أَنَّ الكلام خَرَج مِن الله ، لكن الكلام خُلِقَ فى الشَّجرة ، خُلِقَ فى جَانِب الطُّور ، خُلِقَ فى الهواء فَسَمِعَه مُوسى وَلَيْسَ الكَلام صِفَة من صِفَاته .

وحينئذ عَطَّلوا الله من صِفات الكمال ، لأَنَّ الكلام كمال ، وهم يقولون : الكلام مُسْتَحِيل على الله فَعَطَّلوا الله من هذه الصِّفة الكاملة بِمُجَرَّد

عقولهم الفاسدة .

لكنهم يقولون : بِحَرْف وصَوْت مُتَعَلِّق بمشيئته ، ويخالفون أهل السُّنة فى أَنَّه ليس صفة من صِفات الله بل مَخلوق ، وأهل السُّنة والجماعة يقولون صفة غير مَخْلوق .

● أَمَّا الأشاعرة فيقولون : إن كلام الله عز وجل لَيْس بحرف ولا صَوْت ولا يتعلق بِمَشِيئته بل هو معنى قائم بنفسه لَازِمٌ له كَلُزوم الحَياة والعِلْم .

نقول : كيف يكون من صِفَاته اللَّازمة ، وهو يُسْمَعُ أَحْيَانًا وَأَحْيَانًا لا يُسْمع ؟

قالوا : الَّذى يُسْمَع أَصْواتٌ يَخلقها الله ، وحُروف يَخْلُقها الله لِتُعَبِّر عمَّا فى نفسه أَمَّا أَنَّها كلامه فلا !

فهؤلاء خالفوا أَهل السُّنة فى عدة أوجه :

أَوَّلًا : قالوا إِنَّ الكلام مَعْنًى لا بحرف ولا صوت .

ثانيًا : قالوا إِنَّه لازم لحياته لا يَتَعَلَّق بِمَشِيئته بل هو لَازِمٌ له كَلُزُوم الحياة والعِلم .

ثالثًا : أَنَّ مَا يُسْمَع مَخْلوق من المخلوقات ، وأَهْل السُّنَّة والجماعة يقولون مَا يُسْمَع هو صفة الكَلام .

وعلى قول الأَول : يكون الَّذى فى المصاحف يقرأه الناس عبارة عن كلام الله خَلَقَهُ الله لِيُعَبِّر عَمَّا فى نفسه .

والمعتزلة يقولون : الَّذى نقرأ فى المَصَاحف كلام الله ، فصار موافقة المعتزلة لِأَهْل السُّنة أَكْثَر من مُوَافَقة الأَشَاعِرة لأهل السُّنة .

قال بعض المحققين منهم : الواقع أَنَّه لا فرق بيننا وبين المعتزلة لأَنَّنا اتفقنا جميعًا على أَنَّ الموجود بيننا من كلام الله مخلوق ، لكن المعتزلة يقولون هو كلام الله . ونحن نقول عِبارة عن كلام الله .

سؤال : ما الذى أَوْجَب للمعتزلة أن يقولوا إنَّ الكلام مَخْلوق ؟

جـ : لأَنهم لا يُؤْمنون بِصفات الله ، يُثْبتون الأَسْمَاء دُون الصِّفات فـإذا لـم يكن لله صِفة لا سَمْع ولا بَصَر ولا كَلام ولا غيره صار هذا الذى يُسْمَع لَيْس صِفة فيبقى مَخْلوقًا من المخلوقات .

وأَمَّا الأَشاعرة : فالذى أَوْجَب لهم أن يقولوا : إن الكلام لا يَتَعَلَّق بالمَشِيئة لأَنَّهم يُنْكِرون قِيام الأَفعال الاختيارية بالله .

يقولون : لو قلنا أَنَّه يتكلَّم بمشِيئته لَزِم حُلول الحَوادِث بِه وَمَا تَحِلُّ به الحوادث فهو حَادِث .

إذًا : الكلام لا يتعلَّق بمشيئته بل هو صِفَةٌ لازمة له .

وحقيقة الأمر عند الأَشاعرة : أَنَّ كلام الله ليس كَلام الله بل هو عِلْمُ الله ؛ لأَنَّه هو مَا فِى نَفْسِه .

القول السَّليم : هو ما عليه أهل السُّنة والجماعة أَنَّ الكلام صِفة من صفاته ليس شيئًا بَائِنًا منه مَخلوقًا ، وأَنَّ كلامه مُتَعَلِّق بمشيئته يتكلَّم مَتى شاء ، بِمَا شَاء ، كَيْف شَاء بِحَرْفٍ وَصَوْت لا يُشْبه أَصْوات المَخْلوقين . هذا هو الحق !

قلنا : « يتكلم بما شاء » : والمراد بما شَاء أى بِأَىِّ مَوْضُوع يَتَكَلَّم به بل يمكن أن نقول : وَيَتَكلَّم أيضًا بِأَىِّ لُغة شَاء ، وَنجعل « بما شاء » من حيث اللُّغة ، ومن حيث موضوع الكلام فهو يخاطب عيسى بلغته السِّريانية

وموسى كذلك بلغته العِبْرية ، ومحمد عليه الصلاة والسلام بلغته العَربية .

المعتزلة بأى شيء يَرُدُّون الآية : ﴿ وَكَلَّم اللهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء : ١٦٤] ؟

يقولون : إنَّ الكَلْمَ فى اللُّغة العربية بِمَعنى الجَرْح كما فى قوله ﷺ : « مَا مِنْ مَكْلُومٍ يُكْلَمُ فى سَبِيل الله إلا جَاءَ يَوم القِيامة وَجُرْحُه يَثْعُب دَمًا »(١) والكلم بمعنى الجرح ومعنى « كلم موسى » جرَّح مُوسى . يعنى أَنَّ مُوسى أَلَذّ ما يكون عنده تلك السَّاعة التى كان الله يُنَاجيه فيها وهم يقولون : « جَرَّح » ويقولون : « جرَّح » ليس معناه أن يأتى بالسَّكاكين ويجرحه فيها معناه : جرَّحه بمخالب الحكمة ! وهذا كلام سخيف !!

والله عَزَّ وجل يقول فى آية أخرى : ﴿ وَلَمَّا جاءَ مُوسَىٰ لِميقَاتِنَا وَكَلَّمَه رَبُّه قَالَ رَبِّ أَرِنى أَنْظُر إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِى ﴾ [الأعراف : ١٤٣] فالله يُحاوره .

وبعضهم قال : (وَكلم اللهَ موسى تكليمًا) فحرَّف الشكل ليكون الكلام من موسى والله مكلَّم .

قال له بعض العلماء : أنْت تقول كذا فما تقول فى قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنا وَكَلَّمه رَبُّه ﴾ [الأعراف : ١٤٣] فلا يمكن أن تجعل الهاء فاعلًا فالمُكَلِّم إذًا مُوسَىٰ .

* * *

(١) رواه البخارى (٢٨٠٣) ، ومسلم (١٨٧٦) (١٠٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

* يَثْعَبُ : بسكون المثلثة ، وفتح العين المهملة وموحدة ، أى يجرى منفجرًا أى كثيرًا .

● **وقوله** : ﴿ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة : ٢٥٣] .

﴿ مِنْهُم ﴾ أي من الرُّسل من كلَّمه الله .

* * *

● **قال** : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ [الأعراف : ١٤٣] .

أفادت هذه الآية أن الكلام يتعلّق بمشيئته ، وذلك لأنَّ الكلام صار حين المجيء لا سابقًا عليه فدل هذا على أن كلامه يتعلق بمشيئته .

* * *

● **قال** : ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴾ [مريم : ٥٢] .

﴿ نَادَيْنَاهُ ﴾ ، ﴿ نَجيًّا ﴾ : المناداة للبعيد بِصَوْت مُرْتفع ، والمناجاة بصوت منخفض .

كون الله عزَّ وجل يتكلَّم بكلام مُرْتفع وكلام مُنْخفض داخل فى قولنا : « كَيْف شاء » فهذه الآية مِمَّا يَدُلُّ على أنَّ الله يتكلم كيف شاء .

* * *

● **وقوله** : ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الشعراء : ١٠] .

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ ﴾ : يعنى واذكر إذ نادى ، والشَّاهد قوله : ﴿ رَبُّك مُوسَىٰ ﴾ فسَّر النِّداء بقوله : ﴿ أَن ائْتِ القَوْمَ الظَّالمين ﴾ فالنداء يدلّ على أنه بصوت ، و﴿ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظالمين ﴾ يدل على أَنَّه بحرف .

* * *

● ﴿ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ ﴾ [الأعراف : ٢٢] .

﴿ نَادَاهُمَا ﴾ ضمير المفعول به يَعُود عَلَىٰ آدم وحواء . ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عن تِلْكُمَا الشَّجرة ﴾ يُقَرِّر أَنَّه نَهَاهُما عن تِلْكُما الشَّجرة . وهذا يدلُّ على أَنَّ كلام الله بِصَوْت وحَرْفٍ ويَدُلُّ على أَنَّه يتعلق بِمَشِيئته لقوله : ﴿ أَلَم أَنْهَكُمَا ﴾ . إذًا : هذا القول بعد النَّهى فيكون مُتَعلقًا بالمشيئة .

* * *

● وقوله ﴿ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ [القصص : ٦٥].

الشاهد قوله : ﴿يُنَادِيهم﴾ ، وقوله : ﴿ أَيْنَ شُرَكائى ﴾[القصص : ٦٢] هذا حروف فيدلُّ على أنَّ كلام الله بحرف فى قوله : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهم فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِي الَّذِين كُنْتُم تَزْعُمون ﴾ [القصص : ٦٢] الإتيان بالآيتين يبيّن أن الناس يسألون عن معنى لا إله إلا الله وعن الرسالة . ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِي ﴾ هذا بجانب التَّوحيد ﴿ مَاذَا أَجَبْتُم المُرْسَلِين ﴾ [القصص : ٦٥] بجانب الرِّسالة .

وهذه الآيات تدلُّ على أَنَّ الله يتكلَّم بكلام حَقِيقى مَتَى شَاء بِما شاء كَيْف شَاء بحرف وصَوْت مَسْمُوع لا يُشْبه أَصْوات المخلوقين .

هذه هى القاعدة فى إيماننا بكلام الله عزَّ وجل .

ثم بدأ المؤلف – رحمه الله – بإثبات أن القرآن مُنَزَّل غير مخلوق. والكلام وقع فيه النِّزاع الكثير بين المعتزلة وأهل السُّنة وحَصَل فيه شَرٌّ كثير على أهل السُّنة وممن أُوذِى فى الله فى ذلك الإمام أحمد بن حنبل – رحمه الله – إمام أَهل السُّنة الذى قال فيه بعض العلماء[1] : « إنَّ الله سُبحانه وتعالى حَفِظ

(١) يقصد الإمام المحدث الشهير على بن المدينى فيما رواه الخطيب فى تاريخه (٤/٢١٨) ، وابن الجوزى فى مناقب الإمام أحمد ص (١٤٩) ، وعبد الغنى المقدسى فى محنة الإمام أحمد ص (٣١) .

الإسلام – أَو قَال نَصَرَهُ – بأَبى بكر يوم الرِّدة ، وبالإمام أحمد يوم المحنة » .
والمحنة : هو أَنَّ المأمون – عفا الله عنا وعنه – أَجبر النَّاس على أَن يقولوا بخلق القرآن حتَّى إنَّه صار يمتحن العلماء ويقتلهم إذا لم يجيبوا ، وأَكْثَر العُلَماء رأوا أنهم فى فُسْحَة من الأَمر ، وصَارُوا يَتَأَوَّلون .

إمَّا يتأَوَّلون بأَنَّ الحال حَال إكراه ، والمُكْره إذا قال الكفر وقلبه مُطْمئن بالإيمان فإنَّه مَعْفوٌ عنه .

وإمَّا يَتَأَوَّلون فيقولون مثلًا : القرآن والتَّوراة والإنجيل والزَّبور هذه مخلوقة ، وهو يتأَوَّل أَصَابعه .

أَمَّا الإمام أحمد ، ومحمد بن نوح – رحمهما الله – فأَبَيا ذلك وقالا : القرآن كلام الله مُنَزَّل غير مخلوق ، ورأيا أَنَّ الإكراه فى هذا المقام لا يُبرر لهما أن يقولا خلاف الحق ؛ لأَنَّ المقام مَقَام جِهَاد ، والإكراه يَقْتَضى العَفو إذا كانت المسألة شخصية بمعنى أن تكون على الشَّخص نفسه .

أَمَّا إذا كانت المسألة لحفظ شَريعة الله فالواجب أن يتبرَّع الإنسان برقبته لحفظ شريعة الله عز وجل ، لو قال الإمام أحمد فى ذلك الوقت : إنَّ القرآن مخلوق ولو بتأْوِيل أَو لِدَفْع الإكراه لقال النَّاس كلهم القرآن مخلوق وحينئذٍ يتغيَّر المجتمع الإسلامى من أجل دفع الإكراه لكنه صَمَّم والحمد لله بعد الصَّبر والاحتساب والإيذاء فى الله صارت العاقبة له .

المهم : أَنَّ القول فى القرآن جُزْءٌ من القول فى كلام الله على العُموم لكن لما وَقَعَت فيه المحنة وصَار مَحَك النِّزاع بين المعتزلة وأهل السُّنة صار النَّاس يُفْرِدُون القول فى القرآن بكلامٍ خاص .

والمؤلف – رحمه الله – من الآن ساق الآيات الدَّالة عَلَى ذلك فقال :

* * *

● ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾

[التوبة : ٦] .

﴿ أَحَدٌ ﴾ هذه اسم ، والنُّون أَداة الشَّرط ، والاسم إذا ولى أداة الشَّرط فقد ولى أداة لا يليها إِلَّا الفعل .

فاختلف النَّحويون فى هذا فقال بعضهم : إنَّه فاعل لفعل محذوف يُفَسِّره ما بعده وعليه يكون ﴿ أَحَدٌ ﴾ فاعل لفعل محذوف ، والتَّقدير : « وإن استجارك أَحَدٌ من المشركين فَأَجِرْه » . ومثلها : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّت ﴾ [الانشقاق : ١] فالسَّماء فاعل لفعلٍ محذوف ، والتَّقدير : إذا انشقت السَّماء .

القول الثَّانى : وهو قول الكوفيين – وهم فى الغالب أَسْهل من البصريين – يقول : أن أَحَدٌ فاعل مُقَدَّم ، والفعل استجار مُؤَخَّر ، ولا حاجة للتقدير .

والقول الثَّالث : يقول إن وُرُود هذا فى القرآن كثير . أَى وُرُود الأَسماء بعد أدوات الشَّرط يدلُّ على عدم امتناعه ، وعلى هذا القول يكون الاسم الواقع بعد أداة الشرط مبتدأ إذا كان مرفوعًا فيقولون ﴿ أَحَدٌ ﴾ مبتدأ و﴿ اسْتَجَارَكَ ﴾ خبر المبتدأ .

والقاعدة عندى : أن ما كان أَسْهَل من أقوال النَّحويِّين فهو الرَّاجح .

قوله : ﴿ وَإِن أَحَدٌ مِن الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ ﴾ [التَّوبة : ٦] : أى طلب جوارك . والجوار : بمعنى العِصْمة والحماية .

﴿ حَتَّى يَسْمَعَ ﴾ حتَّى : للغاية . والمعنى : إن أَحَدٌ استجارك لِيَسْمَع كلام الله فأجره حتى يسمع كلام الله . أى القرآن وهذا بالاتفاق ، وإنما قال : ﴿ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ﴾ [التوبة : ٦] ؛ لأن سماع كلام الله عز وجل مؤثر .

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُو شَهِيدٌ ﴾ [ق : ٣٧] وكم من إنسان سَمِعَ كلام الله فآمَنَ لكن بشرط أن يكون يفهمه تمامًا .

قوله : ﴿ كَلَام الله ﴾ أضاف القرآن إلى نفسه فقال : ﴿ كَلَام الله ﴾ فدلَّ هذا على أنَّ القرآن كلام الله وهو كذلك .

وعقيدة أهل السُّنة والجماعة فى القرآن يقولون : « إنَّ القُرآن كلام الله مُنَزَّل غَيْر مَخْلُوق مِنْهُ بَدَأَ وَإِلَيْه يَعُود »(١) .

قولهم : « كلام الله » يستدلون لذلك بقوله تعالى هنا : ﴿ فَأَجِرْهُ حَتّى يَسْمَع كَلَام الله ﴾ [التوبة : ٦] وبما يأتى من الآيات :

« **مُنَزَّل** » يقولون لأنَّ الله قال : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ القُرْآن ﴾ [البقرة : ١٨٥] ، ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَة القَدْر ﴾ [القدر : ١] ، ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ روحُ القُدُسِ مِن ربِّك بالحق ﴾ [النحل : ١٠٢] .

قولهم : (**غَيْر مَخْلُوق**) الدَّليل : لأَنَّ الله قال : ﴿ أَلَا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْر ﴾ [الأعراف : ٥٤] فجعل الخلق لله ، والأمر لله ، وجعل الخلق شيئًا ، والأمر شيئًا آخر .

والقرآن من الأمر . الدَّليل : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِن أَمْرِنا مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِى بِهِ مَن نَشَاء مِن عِبَادِنَا ﴾ [الشورى : ٥٢] . فإذا كان القرآن أَمرًا وهو قَسِيم للخلق صار غير مخلوق ؛ لأنه لو كان مخلوقًا ما صحَّ التقسيم وهذا دليل سمعى .

---

(١) راجع : العقيدة السلفية فى كلام رب البرية لعبد الله بن يوسف الجديع وهو من أنفس ما أُلف فى هذا الموضوع .

أَمَّا الدَّليل العَقْلى فنقول : القرآن كلام الله ، والكلام ليس عينًا قائمة بنفسها حتى يكون بائنًا من الله ، لو كان عينًا قائمة بنفسها بائنة من الله ، قلنا إنَّه مخلوق ، لكن الكلام صفة للمتكَلِّم به ، فإذا كان صفة للمتكلِّم به وكان صفة لله صار غير مخلوق ، لأَنَّ صفات الله عز وجل كلها غير مخلوقة .

(**مِنْهُ بَدَأَ**) أَى هو الَّذى ابتدأَ به ، وتكلَّم به أَوّلاً . والقرآن أُضِيف إلى الله وإلى جبريل وإلى محمد ﷺ .

مثال الأَوَّل : قول الله عز وجل : ﴿ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ﴾ [التوبة : ٦] فيكون « مِنْهُ بَدَأَ » أَى من الله جلَّ جلاله و« مِنْه » حرف جر وضمير ، مقدمة لفائدة الحصر والاختصاص .

ومثال الثَّانى : إضافته إلى جبريل قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِى قُوَّةٍ ﴾ [التكوير : ١٩] .

ومثال الثَّالث : إضافته إلى محمد عليه الصَّلاة والسَّلام قوله تعالى : ﴿ إِنَّه لَقَولُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ﴾ [الحاقة : ٤٠] لكن أضيف إليهما لأَنَّهما يبلِّغانه ، ولكنه أَوّلاً مُضَاف إلى الله جَلَّ وعَلا فمنه بدأَ .

(**وَإِلَيه يَعُود** » : فى معناه وجهان :

الأول : أنه كما جاء فى بعض الآثار(١) أَنَّه يُسْرَىٰ فى المَصَاحف والقرآن فَيُصْبح الناس ليس بَيْنَ أَيْدِيهم قرآن لا فى صُدُورهم ولا فى مَصَاحفهم

---

(١) كما فى حديث حذيفة مرفوعًا : « ... وليسرى على كتاب الله عز وجل فى ليلة فلا يبقى فى الأرض منه آية ... » الحديث . رواه ابن ماجه (٤٠٤٩) ، والحاكم (٤/٤٧٣) وقال : صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبى وقال الألبانى فى الصحيحة (٨٧) وهو كما قالا .

وكذا صحَّ موقوفًا من حديث أبى هريرة وابن مسعود . وراجع لذلك العقيدة السلفية فى كلام رب البرية ص (١٧٣،١٧٤) .

يَرْفعه الله عزَّ وجلَّ وهذا حينما يعرض عنه النَّاس إعْرَاضًا كلِّيًا لا يَتْلُونه لفظًا ولا عقيدة ولا عملًا فإنَّه يُرْفع ؛ لأَنَّ القرآن أشرف من أن يَبْقى بين يَدَى أُناس لا يَعْرفونه ويُعْرضون عنه ، وهذا والله أعلم نظير هَدم الكعبة فى آخر الزَّمان(١) حيث يَأْتى رجل من الحبشة قَصير أَفْحَج أَسْود يأتى بِجنُوده من البحر إلى المَسجد الحرام ويَنقضُ الكعبة حَجَرًا حَجَرًا كلما نَقَضَ حجرًا مَدَّه للَّذى بعده وهكذا يَتَمَادُّون الأَحجار إلى أن يَرْمُوها فى البحر ، والله عزَّ وجل يمكنهم من ذلك ، مع أَنَّ أَبْرهة جاء بِخَيْله وَرَجِله وَفِيله فَقَصَمَه الله قبل أَن يَصِل إلى المسجد ، لأَنَّ الله عَلِمَ أَنَّه سَيُبْعث هذا النَّبى وتُعَاد إلى المسجد هيْبَتُه وعَظَمَتُه ولكن فى آخر الزَّمان لن يُبْعث نَبِّى بَعْد محمد عليه الصَّلاة والسَّلام وإِذَا أَعْرَض النَّاس عن تعظيم هذا البيت نهائيًا فإنَّه يُسَلِّط عليه هذا الرَّجل من الحبشة ، فهذا نَظِير رَفْع القرآن .

الوَجْه الثانى : فى معنى قولهم : « وَإِليه يَعُود » أَنَّه يَعُودُ إِلى الله وَصْفًا أى أَنَّه لا يُوصف بِهِ أَحَدٌ سِوى الله فيكون المتكلِّم بالقرآن هو الله عزَّ وجلَّ .

ولا مانع من أَن نَقُول إِنَّ المَعْنَيين كلاهما صَحِيح .

هذا كلام أهل السُّنة والجماعة فى القرآن الكريم .

يَرَىٰ المعتزلة أن القرآن مخلوق وليس كلام الله ويَسْتدلون لذلك بقول الله تعالى : ﴿ الله خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُو عَلَى كُلِّ شَىْءٍ وَكِيل ﴾ [الزمر:٦٢] .

فيقولون لنا : أتقولون أَنَّ القرآن شىء ؟

سنقول : نعم ! فيقولون : إذن فما الَّذى يخرجه من هذا العموم ؟

---

(١) راجع : نهاية البداية والنهاية لابن كثير ص (١٢٥:١٢٨) فى ذكر تخريب الكعبة شرفها الله على يدى ذى السويقتين الأفحج الحبشى قبَّحه الله .

يقولون أيضًا : هل تقولون إنَّ القرآن هو الله ؟

فنقول : لا .

إذًا : هو دَاخِلٌ فى قوله : ﴿ خَالِقُ كُلِّ شَىءٍ ﴾ ، لأَنَّه ما ثم إلَّا مَخْلوق وخالق فأنتم تقولون : القرآن شيء ، وليس خالقًا ! إذًا هو مخلوق !

فنقول : أَوّلًا : لدينا آية مُخَصِّصَة لهذه الآية وهى قوله تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ ﴾ [الأعراف : ٥٤] والقرآن من الأمر لقوله تعالىٰ : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إليكَ رُوحًا مِن أَمْرِنَا ﴾ [الشورى : ٥٢] وقد جَعَله الله فى هذه الآية قِسِيمًا للخلق . وقسيم الشَّىء غيره :

ونقول : ثانيًا : إنَّ القرآن ليس عَيْنًا قائمة بنفسها حتى يكون مخلوقًا بل هو صفة لمن تكلَّم به ، وهو الله عزَّ وجلَّ .

ونقول : ثالثًا : أَنَّ مثل هذا العموم : ﴿ كُلّ شَىء ﴾ قد يُراد به الخاص وهذا موجود فى القرآن قال الله تبارك وتعالىٰ عن بلقيس ملكة سبأ قال : ﴿ وَأُوتِيت مِن كُلِّ شَىء ﴾ [النمل : ٢٣] . قالوا : ﴿ مِنْ ﴾ للتَّبعيض ﴿ مِنْ كُلِّ شَىءٍ ﴾ ولا يعنى أَنَّها أُوتيت كل شيء فنقول : ﴿ مِنْ كُلِّ شَىء ﴾ .

﴿ مِنْ ﴾ للتَّبعيض داخلة على كل شيء .

إذًا : أُوتِيت من كُلِّ شيء بَعْضه . هذا مدلول السِّياق فهل أوتيت من مُلْك سُلَيْمَان شَيئًا .

لا . وكذلك لم تُؤْت من مُلْك البِلاد الأخرى شَيْئًا . إذًا : العُموم « كُل شيء » يمكن أن يُراد به الخصوص .

وأيضًا نقول لهم : إنَّ رِيح عاد قال الله عزَّ وجل عنها : ﴿ تُدَمِّر كُلَّ شَىْءٍ بِأَمْرِ رَبِّها ﴾ [الأحقاف : ٢٥] . ولم تُدمِّر السَّماوات ولا الأَرْض بل هى ما دمَّرت ولا المساكن ، وهم صاروا كأَعْجَاز نَخْلٍ خَاوِية ، ومَسَاكنهم موجودة ، كأنَّ الرِّياح تدخل عليهم وتخرجهم من البيوت وترفعهم فى السَّماء ويرجعون والبيوت باقية : ﴿فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنَهُم﴾ [الأحقاف : ٢٥] فتبيَّن بُطْلان استدلالهم بهذه الآية .

إذا قال قائل : هل هناك فَرْقٌ كبير لقولنا إنَّه مُنَزَّل أَو قولنا إنَّه مخلوق ؟

الجواب : إذا قلنا إنَّه مُنَزَّل فهذا ما جاء به القرآن قال الله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ ﴾ [الفرقان : ١] .

وإذا قلنا : إنَّه مخلوق لَزِم من ذلك تكذيب للقُرآن ؛ لأَنَّ الله يقول : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِن أَمْرِنا ﴾ [الشورى : ٥٢] فجعله الله تعالى مُوحَى به إلى الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام ، ولو كان مخلوقًا ما صَحَّ أن يكون مُوحى . فإذا كان وَحْيًا لَزِم ألا يكون مخلوقًا لأن الله هو الذى تكلَّم به ، وإذا قلنا مَخْلُوق ؛ فإنَّه يلزم على ذلك إبطال الأَمر والنَّهى ، لأَنَّه لو لم يكن كلامًا لله عزَّ وجلَّ لبطل الأمر والنهى الذى فيه لأنه يكون مخلوقًا ، فإذا كان مخلوقًا فمعناه أَنَّ الله خلق حَرْفًا صُورته « قل » . وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَٱعْبُدواْ ٱللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالوَالِدَينِ إِحْسَانًا ﴾ [النساء : ٣٦] .

إذا لم نقل إنه كَلَامٌ من الله وَجَّهَهُ إلينا بَطُل كَوْنه أَمرًا ونَهيًا إذ أَنَّه يكون مخلوقًا عَلَىٰ صفة ﴿ اعْبُدُواْ ﴾ أَو على صفة ﴿ لا تُشْرِكُوا ﴾ كما خلق الشَّمس على هذا الوجه والنَّجم على هذا الوجه والقمر على هذا الوجه وهو لا يتغيَّر كُله مخلوق . كأَنَّه صور ونقوش لا تفيد شيئًا ، لأَنَّه لولا أَنَّ هذه صدرت من الله لم تكن أَوَامِر ولا نَواهى صارت صُورًا وحُروفًا مخلوقة لا مَعنىٰ

لها ولهذا قال ابن القيم فى النونية[1] : أن هذاالقول يبطل به الأمر والنَّهى ، لأَنَّ الأمر كأَنَّه شيء خلق على هذه الصُّورة دُون أن يعتبر مَدْلُوله ، والنَّهى خلق على هذه الصُّورة دُون أن يُقْصَد مدلوله .

وهذا يحتاج إلى تأمُّل .

وإذا قلنا : إن الكلام المُضَاف إلى الله مخلوق لأَنَّه خلقه لصحَّ أن نقول كل كلام فى الوجود فهو كلام الله ؛ لأَنَّ كل كلام من الخلق فهو مخلوق فإذا قلتم ذلك حينئذٍ وافقتم أَهْلَ الحُلول والاتِّحاد الذين سلَّموا بذلك قالوا : ما دام أنكم أَنتم الجَهْمية والمُعْتزلة تقولون إنَّ هذا كلام الله ؛ لأَنَّ الله خَلَقَه .

إذًا : فكلام الآدمى كَلامُ الله لأَنَّه خلقه ، ولهذا يقول قائلهم :

وَكُلُّ كَلَامٍ فى الوجود كلامه ... سَوَاءٌ عَلَيْنا نَثْرُهُ وَنِظَامُه

وهذا اللازم باطل ، وإذا بطل اللَّازم بَطل المَلْزُوم .

فهذه ثلاثة أُوجه تبطل القول بأنه مخلوق .

والوجه الرَّابع : أن نقول : إذا جَوَّزتم أن يكون الكلام وهو معنى لا يقوم إلا بِمُتَكَلِّم مخْلُوقًا لَزِمَكُم أَن تجوِّزوا أن تكون جميع صفات الله مخلوقة إذ لا فرق ، فقولوا إذًا : سَمْعُه مَخْلُوق وبَصَرُه مَخْلُوق وهكذا ، فإن أَبَيْتُم إِلَّا أن تقولوا : إن السَّمع مَعْنًى قائم بالسَّامع لا يُسْمع مِنه ولا يُرَى بِخلاف الكلام فإِنَّه جائز أن الله يخلق أَصْوَاتًا فى الهواء فَتُسْمَع !!

---

(١) الكافية الشافية بشرح هراس (٢/١٣٧ - ١٣٩) .

قلنا لكم : لو خلق أَصْواتًا فى الهواء فَسُمِعت لكان المَسْمُوع وَصْفًا للهواء ، وهذا أَنتم بأنفسكم لا تقولونه فكيف تُعِيدون الصِّفة إلى غير مَوْصُوفها .

هذه وجوه أَرْبَعة كلها تدلُّ على أن القول بخلق الله ليس بالهيِّن .

لو لم يكن منه إلا إبطال الأَمْر والنهى ؛ لأَنَّه يبقى هذا الشَّىء مخلوقًا على هذه الصُّورة كغيره من المخلوقات لا يَدُلُّ على أَمْرٍ ولا على نَهْيٍ لكان ذلك كافيًا .

* * *

● **قال المؤلف : ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾** [البقرة : ٧٥] .

هذا فى سِيَاق قوله تعالى : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُم﴾ [البقرة : ٧٥] يعنى لا تَطْمعوا أَن يؤمنوا لكم فالاستفهام هنا للنَّفى : ﴿ أَفَتَطْمَعُون أَن يُؤْمِنُوا لَكُم ﴾ [البقرة : ٧٥] أى : اليهود ، أو بِعبارة أَعم أَهل الكتاب ﴿ يَسْمَعُونَ كَلَامَ الله ﴾ [البقرة : ٧٥] يعنى القرآن ، فأَضافه إلى نفسه ، والكلام صفة المتكلِّم وليس شيئًا بائنًا منه فَوَجَب أَن يَكُون القرآن كلام الله : ﴿ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوه وَهُم يَعْلَمُون ﴾ [البقرة : ٧٥] يُحَرِّفُونه : أَى يُغَيِّرون معناه ، وربما يغيرون أيضًا لفظه ، لأن أهل الكتاب يُحَرِّفون الكَلم عن مَوَاضِعه لفظًا وَمعنًى وقوله : ﴿ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُم يَعْلَمُون ﴾ [البقرة : ٧٥] هذا أَشَدُّ فى قُبح عملهم وجرأتهم علىٰ الله سبحانه وتعالى أن يُحَرِّفوا الشَّىء من بعد مَا عَقَلُوه ووصل إلى عقولهم وهم يعلمون أَنَّهم مُحَرِّفُون له ؛ لأَنَّ الذى يحرف المعنى عن جهل أهون من الذى يُحَرِّف بعد العقل والعلم .

* * *

● وقوله : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ ﴾ [الفتح : ١٥] .

فى هذه الآية إثبات أَنَّ القرآن كَلَامُ الله لقوله : ﴿ يُرِيدونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَام الله ﴾ [الفتح : ١٥] والضمير يعود على الأعراب الذين قال الله فيهم : ﴿ سَيَقُولُ المُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُم إِلَى مَغَانِم لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُم يُرِيدون أَن يُبَدِّلُوا كَلَام الله قُلْ لَن تَتَّبِعُونَا كَذلِكُم قَالَ الله مِن قَبْل ﴾ [الفتح : ١٥] .

هؤلاء أرادوا أن يُبَدِّلوا كلام الله فيخرجوا مع الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام ، ولكن الله تعالى إِنَّما كتب المغانم لقوم مُعَيَّنين للذين غَزو فى الحديبية ، وأَمَّا من تَبِعوه لِأَخْذ الغَنَائم فَقَط فلا حقَّ لهم فيها .

وفى الآية أيضًا : إثبات القول لله تعالى لقوله : ﴿ كَذَلِكُم قَالَ الله مِن قَبْلُ ﴾ [الفتح : ١٥] .

* * *

● وقوله : ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ ﴾ [الكهف : ٢٧] .

قوله : ﴿ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ ﴾ يعنى القرآن ، والوَحْى لا يكون إِلَّا قولًا فهو إِذًا غير مخلوق .

وقوله : ﴿ مِن كِتَابِ رَبِّك ﴾ أَضافه إِليه سبحانه وتعالى ؛ لأَنَّه هو الذى تكلَّم به أَنْزَله على محمد ﷺ بواسطة جبريل بخلاف التَّوراة ، فإِنَّ الله كتبها فى الأَلْواح بيده ﴿ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ يعنى لا أحد مبدل يبدل كلمات الله . أَمَّا الله عزَّ وجل فإِنَّه له أن يبدل آية مكان آية وأَمَّا غيره فلا يستطيع أحد أن يبدِّل كلام الله .

وقوله : ﴿ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ يشمل الكلمات الكونية ، والشَّرعية :

● أما الكونية : فلا يستثنى منها شيء ، لا يمكن لِأَحدٍ أَن يُبَدِّل كلمات الله الكونية .

إذا قضَى الله على شخصٍ بالموت ما استطاع أَحد أَن يُبَدِّل ذلك .

إذا قضى الله تعالىٰ بالفقر ما استطاع أحد أن يُبَدِّل ذلك .

إذا قضى الله تعالىٰ بالجدب مَا اسْتطاع أَحَدٌ أَن يُبَدِّل ذلك .

وكل هذه الأُمور التى تحدث فى الكون فإِنَّها لقوله تعالى : ﴿ إِنَّما أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فيكون ﴾ [يس : ٨٢] .

● أما الكلمات الشَّرعية : فإنها قد تُبَدَّل من قبل أهل الكفر والنِّفاق فيبدلون الكلمات إمَّا بالمعنى وإِمَّا باللَّفظ إن استطاعوا .

* * *

● **وقوله : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾** [النمل : ٧٦] .

الشَّاهد قوله : ﴿ يَقُصُّ ﴾ والقَصَصُ لا يكون إِلَّا قولًا ، فإذا كان القرآن هو الذى يَقُصُّ فهو كلام الله ، لأن الله تعالى هو الذى قصَّ هذه القصص . قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ [يوسف : ٣]

وحينئذ يكون القرآن كلام الله عزوجل

* * *

إثبات تنزيل القرآن من الله تعالى

١٢٥ - وقوله : ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ ﴾ [الأنعام : ١٥٥] .

١٢٦ - وقوله : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر : ٢١] .

١٢٧ - وقوله : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل : ١٠١-١٠٣] .

الشـــرح

● قال المؤلف : **وقوله** : ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ ﴾ [الأنعام : ١٥٥] .

الشاهد قوله : ﴿ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ فإنه يدلُّ على أَنَّ القرآن منزل .

وقوله : ﴿ مُبَارَكٌ ﴾ أى : من كل الوجوه :

- فهو شِفَاءٌ لما فى الصُّدور إذا قرأه الإنسان بتدبُّر وتَفَكُّر فإنَّه يَشْفى القلب من المرض ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِن القُرْآنِ مَا هُو شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلمُؤْمِنِين ﴾ [الإسراء : ٨٢] .

- مُبَارَكٌ فى اتِّباعه ؛ إذ به صَلاحُ الأَعْمال الظَّاهرة والباطنة .

- مُبَارَكٌ فى الآثار العَظِيمة التى اجتاحت بلاد الكُفر فإن الله يقول :

﴿ وَجاهِدْهُم به جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان : ٥٢] . والمسلمون فتحوا مَشَارِق الأَرْض ومغاربها بهذا القرآن حتى ملكوها ، ولو رجعنا إليه لملكنا مَشَارِق الأَرض ومَغَارِبها ونسأل الله ذلك .

- مُبَارَكٌ في أنَّ من قرأه فله بكل حرف عشر حسنات[1] .

فكلمة ﴿ قال ﴾ مثلاًفيها ثلاثون حسنة .

وهذا من بركة القرآن . فنحن نُحَصِّل خيرات كثيرة لا تُحْصَىٰ بقراءة آيات وجيزة من كلام الله عَزَّ وجل .

والحاصل : أَنَّ القرآن كتاب مُبَارَكٌ ، فكُلُّ أَنْوَاع البَركة حَاصِلة بهذا القرآن العظيم .

* * *

● قال المؤلف : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر : ٢١] .

الجبل : من أقسى ما يكون ، والحجارة التي منها تتكون الجبال هي مَضْرب المثل في القَسَاوة قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة : ٧٤] .

لو نُزِّلَ هذا القرآن على جبل لرأيت هذا الجبل خاشعًا متصدعًا من خشية الله ، خاشعًا أي : ذليلاً ، ومن شدة خشيته لله يكون مُتَصَدِّعًا يَتَفَلَّق ويتفتق . وهو ينزل على قلوبنا ، وقلوبنا إلا أن يشاء الله : تَضْمُر وتقسو

(١) ففي حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ : « من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول آلم حرف ، ولكن أَلِفٌ حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » رواه الترمذي (٢٩١٠) وقال : حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه . وهو كما قال .

لا تتفتح ولا تتقبل .

فالذين آمنوا إذا نزلت عليهم الآيات زادتهم إيمانًا والَّذين فى قلوبهم مرض هذه الآيات تزيدهم رِجْسًا إلى رجسهم والعياذ بالله !

ومعنى ذلك : أن قلوبهم تَتَصَلَّب وتَقْسُو أكثر وتزداد رِجسًا إلى رجسها نعوذ بالله من ذلك !

وهذا القرآن لو أُنْزِل على جبل لتصدَّع الجبل وخَشَع لعظمة ما أنزل عليه من كلام الله . وفى هذا دليلٌ على أنَّ للجبل إحْساسًا لأنَّه يخشع ويَتَصَدَّع والأمر كذلك . قال النبي ﷺ فى أحد : « هَذَا أُحُد جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّه »(١) .

وبهذا نعرف الرَّد على المثبتين للمجاز فى القرآن ، والَّذين يرفعون دائما عَلَمَهُم مستدلين بهذه الآية ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنْقَضَّ ﴾ [الكهف : ٧٧]

يقول : كيف يُريد الجدار ؟! هل الجدار له إرادة ؟!

فنقول يا سبحان الله ! رَبُّ العباد يقول : ﴿ يُرِيدُ أَن يَنْقَضَّ ﴾ وأنت تقول : لا يريد ، أهذا معقول ؟

فليس من حقك أن تقول : كيف يُريد !! فهذا الجدار له إرادة !! لأَنَّ رب العباد يقول « يريد » وهو سبحانه قادر على ذلك :

وهذا يجعلنا نسأل أنفسنا هل نحن أُوتينا علم كل شيء ؟

فنجيب بالقول بأننا ما أُوتينا من العلم إلا قليلاً .

---

(١) رواه البخارى (٤٤٢٢) ، ومسلم (١٣٩٢) (٥٠٣) من حديث أبى حميد السَّاعدى رضى الله عنه . وفى الباب عن أنس رضى الله عنه رواه مسلم أيضا (١٣٩٣) (٥٠٤) .

فقول من يعلم الغيب والشَّهادة ﴿ يُرِيدُ أَن يَنْقَضَّ ﴾ [الكهف : ٧٧] لا يُسوغ لنا أن نعترض عليه فنقول : لا إرادة للجدار ، ولا يُريد أن ينقض .

وهذا من مَفَاسد المجاز لأنه يلزم منه أن نُنْكِرُ هذه الآيات .

أليس الله تعالى يقول : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمٰوَاتُ السَّبْعَ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِن من شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلٰكِن لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُم ﴾ [الإسراء : ٤٤] هل تُسَبِّح بلا إرادة ؟! يقول : ﴿ تُسَبِّح لَهُ ﴾ اللام للتخصيص ، إذًا هى مُخْلِصة ، وهل يتصور إخلاص بلا إرادة ؟ لا يتصور ، إذًا هي تريد ، وكل شيء يُريد ؛ لأَنَّ الله يقول ﴿ وإنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ ﴾ [الإسراء : ٤٤] وأظنه لا يخفى علينا جميعًا أَنَّ هذا من صِيغ العُموم .

فـ ﴿ إنْ ﴾ نافيه ، و﴿ مِنْ شَيْءٍ ﴾ نكرة فى سياق النفى ﴿ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِه ﴾ فيعم كل شيء .

المهم أن الآية الكريمة وهى قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِن خَشْيَة الله ﴾ [الحشر : ٢١] . تدلُّ على أن للجبل إحساسًا ، وأنه لو نزل عليه القرآن العظيم لخشع وتصدَّع من خشية الله . وانظر إلى الجبل ماذا حصل له وذلك فى قوله تعالى : ﴿ قَالَ مُوسَىٰ رَبِّ أَرِنى أنظر إليك قَال لَن تَرَانى وَلٰكِن انْظُر إِلَى الجَبَلِ فَإِن اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِى فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّه للجَبَلِ ﴾ [الأعراف : ١٤٣] ومعنى : ﴿ تجلَّى ﴾ أى : ظهر .

قال بعض العلماء : إنَّه لم يظهر منه إلَّا شيء بسيط يسير جدًا .

لكن لما تجلى ربه للجبل بدون أن يتكلم سبحانه وتعالى ماذا صار ؟

جـ : قال تعالى : ﴿ جَعَلَهُ دَكّاً ﴾ . هذا الجبل الصلب الذى يتكون من الحصى انْدَكَّ : وصَارَ تراب !

ولما رأى موسى ما رَأَى عجز أن يبقى على طبيعته فخرَّ صَعِقًا ، لأنَّه رأى أمرًا عجز أن يتحمَّل البقاء على حاله من أَجْل مَا رَأى .

يقول الله : ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا القُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِن خَشْيَةِ اللهِ ﴾ [الحشر : ٢١] .

فيا أخي المسلم : إذا رأيت قلبك لا يَتَأَثَّر بالقرآن فاتَّهم نفسك . لأَنَّ الله يقول إن هذا القرآن لو نزل على جبل لتصدع ، وقلبك يتلى عليه القرآن ولا يتأثر - أسأل الله أن يعينني وإياكم - .

قلوبنا ينزل عليها القرآن ولا تتصدَّع بل ربما تَزْداد صَلاَبة و كل ذلك بسبب تقصيرنا من جهة ومن أجل قُصُورنا من جهة أخرى .

- بسبب تَقْصيرنا ؛ لأننا لا نحاول أن نتدبر القرآن أو نتأمَّله .

- ومن أجل قُصُورنا : لأَنَّنا لا نعلم ما في هذا القرآن من البلاغة العظيمة والزَّجر ، والمواعظ التي تُؤَثِّر في كل من قرأه بتدبُّر ، وأسأل الله أن يجعل أقوالنا مُصَدِّقة لأفعالنا .

فالشَّاهد من الآية ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا القُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ ﴾ [الحشر : ٢١] فهي تُفيد أَنَّ هذا القرآن مُنَزَّل .

* * *

● وقول المؤلف : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرِۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل : ١٠١ - ١٠٣] .

قوله عز وجل : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَة ﴾ [النمل : ١٠١] .

قوله : ﴿ بَدَّلْنَا ﴾ : أى : جعلنا آية مكان آية ، وهذا إشارة إلى النسخ المذكور فى قوله تعالى : ﴿ مَا نَنسَخ مِن آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها ﴾ [البقرة : ١٠٦] .

فالله سبحانه إذا نسخ آية جعل بدلها آية ، سواء نسخها لفظًا ، أو نسخها حكمًا وقوله : ﴿ وَٱللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ [النمل : ١٠١] هذه جملة اعتراضية وهى من أحسن ما يكون فى هذا الموقف . والمعنى أن تبديلنا للآية بدل الآية ليس سَفَهًا وعَبَثًا ، بل هو صَادِرٌ عن عِلْمٍ بِمَا يُصْلِح الخلق ، فنبدل آية مكان آية لِعِلْمِنا أن ذلك أَصلح للخلق وأنفع لهم ولهذا قال ﴿ وَٱللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ .

* وفيها أَيضًا فائدة أخرى وهى : أن هذا التبديل ليس من عمل الرسول عليه الصلاة والسلام ، بل هو من الله أنزله بعلمه ، وأبدل آية مكان آية بعلمه وليس منك أيها الرسول قال تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِم آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قال ٱلَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْت بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْه ﴾ [يونس : ١٥] فماذا كان الجواب ؟: كان الجواب بأن أجاب عن شيء من كلامهم وترك شيئًا فقال تعالى : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِى ﴾ [يونس : ١٥] ولم يقل : ولا أتى بقرآن غيره لماذا ؟ لأنه قد يأتى بآية مكان آية لكن يأتي بتبديل من عنده لا يمكن قال تعالى : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أُبَدِّلُه مِن تِلْقَاءِ نَفْسِى إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَّى وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِين إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيم ﴾ [يونس : ١٥] .

فالمهم : أن الذى يبدل آية مكان آية سَوَاء لَفْظِها أَوْ حُكْمها هو الله سبحانه قوله : ﴿ قَالُوا إِنَّما أَنْتَ مُفْتَر ﴾ [النحل : ١٠١] قوله : «إنما أَنْت» : الخطاب فيها لمن ؟ الخطاب هنا لمحمد ﷺ . قوله : «مُفْترٍ» : أَى كَذَّابًا ،

بالأمس تقول لنا كذا واليوم تقول لنا كذا ، هذا كذب إنما أنت مفتر !!

لكن هذا القول الذى يَقُولونه إزاء إتْيَانِه بآيةٍ مكان آية ، هو قَوْل سَفه ، ولو أنَّهم أمعنوا النَّظر لعلموا علم اليقين ، أنَّ الذى يأتى بآية مكان آية هو الله سبحانه ، وذلك يَدُلُّ على صِدْقه ﷺ لأن الكذاب يَحْذَر غاية الحذر أن يأتى بكلام غير كلامه الأوَّل أو مُنَاقِض له ، لأنه يخشى أن يُطَّلع على كذبه ، فلو كان كاذبًا كما يَدَّعُون ، أنَّ ذلك من علامة الكَذِب ، ما أَتَى بشىء يخالف الأول ، لأنه إذا أتى بشىء يخالف الأول على زعمهم تبيَّن كَذِبُه ، بل إتيانه بما يُخالف الأوَّل دَلِيلٌ على صِدْقِه بلا شك ولهذا قال هنا ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُم لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ١٠١] وهذا اضراب إبطالي معناه : بل لَسْتَ مُفْتَريًا ولكن أكثرهم لا يعلمون ، ولو أنهم كانوا من ذَوى ، العِلم لَعَلِمُوا أنَّه إذا بدلت آية مكان آية ، فإنما ذلك دليل على صدق الرَّسول عليه الصلاة والسلام .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوُحُ القُدُس مِن رَبِّك بِالَحقِّ ﴾ .

قوله : ﴿ نَزَّلَهُ رُوُح القُدُس ﴾ روح القدس هو جبريل ، ووصفه بذلك لطهارته من الخيانة عليه الصَّلاة والسَّلام ، ولهذا قال فى آية أخرى ﴿ إِنَّه لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيم ذِى قُوَّةٍ عِنْد ذِى ٱلعَرْشِ مَكِين مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِين ﴾ [التكوير : ١٩ : ٢١] .

قوله : ﴿ مِن رَبِّك ﴾ وقال من ربك و لم يقل من رب العالمين : إشارة إلى الرُّبوبية الخاصة رُبُوبية الله للنَّبى عليه الصَّلاة والسَّلام وهى رُبوبية أخص الخاصة .

وقوله : ﴿ بالحَقِّ ﴾ ؟ جـ : إما أن يكون وصفًا للنَّازل أو للمَنْزُول به .

فإن كان وصفًا للنَّازل : فمعناه : أن نزوله حَقٌّ وليس بِكَذِب .

وإن كان وصفًا للمَنْزُول به فمعناه : أن ما جاء به فهو حق .

ولكن أى المعنيين هو المراد ؟.

جـ : الصحيح كِلاهُما فهو حَقٌّ من عند الله ، ونَازِلٌ بالحق ، قال الله تعالى : ﴿ وَبالحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبالحَقِّ نَزَل ﴾ [الإسراء : ١٠٥] **فالقرآن ، حق وما نزل به فهو حق قوله ﴿ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾** [النحل : ١٠٢] **هذا تعليل ، وثمرة عظيمة ، يُثَبِّت الَّذين آمنوا ويمكِّنُهم من الحق ويقويهم عليه قوله : ﴿ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلمُسْلِمِين ﴾** [النحل : ١٠٢] **أى : هدى يهتدون به ، ومَنَاراً يستنيرون به ، وبشارة لهم يَسْتبشرون به .**

بشارة لأَنَّه يتضمَّن البُشْرىٰ للمؤمنين .

بِشارة لأن من عمل به واستسلم له كان ذلك دليلاً على أَنَّه من أهل الخير .

قال الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَن أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِالحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّره للْيُسْرَىٰ ﴾ [الليل : ٥-٧] ولهذا ينبغى للإنسان أن يفرح إذا رأى من نفسه الخير والثَّبات عليه والإقبال عليه .

يفرح لأَنَّ هذه بشارة له فإنَّ الرَّسول ﷺ لما حدَّث أصحابه قال : « مَا مِنْكُم مِن أَحَدٍ إِلَّا وَقَد كُتِبَ مَقْعَدَه مِن الجَنَّة ومَقْعَدَهُ من النَّار » .

قالوا : أَفَلاَ نَدَعُ العَمَلَ وَنَتَّكِلْ ؟

قال لاَ : اعْمَلُواْ فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ لَهُ ثم قرأ ﴿ فَأَمَّا من أَعْطَىٰ واتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بالحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِليُسْرَىٰ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ وَكَذَّبَ بالحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّره للعُسْرَىٰ ﴾ [الليل : ٥-١٠][1] .»

فإِذًا:إِذا رأيت من نفسك أن الله عزَّ وجل قد مَّن عليك بالهداية ، والتَّوفيق ، والعمل الصالح ، ومحبَّة الخير وأَهْل الخَيْر فأَبْشِر ، فإِنَّ هذا دليلاً

---

(١) رواه البخارى (١٣٦٢) ، (٤٩٤٥) ، (٤٩٤٩) ، ومسلم (٢٦٤٧) (٦) من حديث على بن أبى طالب رضى الله عنه .

على أنك من أهل اليُسْرىٰ ، الذين كتبت لهم السَّعادة ولهذا قال : ﴿ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِين ﴾ [النحل : ١٠٢] .

قوله : ﴿ ولَقَد نَعْلَمُ أَنَّهُم يَقُولُون إِنَّما يُعَلِّمه بَشَر ﴾ [النحل : ١٠٣] قال : ﴿ ولقد علمنا ﴾ ولم يقل لقد عَلِمْنا لأن قولهم هذا يتجدَّد ، فكان التَّعبير بالمضارع أولى من التَّعبير بالماضى ، لأنه لو قال لقد علمنا ، لتبادر إلى ذهن بعض الناس أَنَّ المعنى : علمنا أَنَّهم قالوا ذلك ، لكن لانعلم أَنَّهم يقولون ، فقوله تعالى ﴿ وَلَقَد نَعْلَم أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرِكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ [الحجر : ٩٧] هل ضيق صدر الرَّسول ﷺ كان سابقا أو لم يزل ؟

جـ : لم يزل .

وقوله تعالى : ﴿ قد يَعْلم الله المَعَوقِين مِنْكُم وَالقَائِلين لإِخْوَانِهم هَلُمَّ إِلَينا ﴾ [الأحزاب : ١٨]يعنى أنهم يعوقون فى المستقبل فالله عالم بهم .

وهى قوله : ﴿ وَلَقَد نَعْلَم أَنَّهم يَقُولونَ إِنَّما يُعَلِّمه بَشَر ﴾ . والسبب فى نزول هذه الآية أن قريش قالت : إِنَّ هذا القرآن الَّذى يأتى به محمد ليس من عند ربه وإنما هناك شخص يُعَلِّمه القرآن ، ويَقصُّ عليه من قصص الأَوَّلين ، ويأتى ليقول لنا هذا من عند الله . أَعُوذ بالله !!

ادَّعو أَنَّه كلام البَشَر ، والعجيب أَنَّهم يدَّعون أَنَّه كلام البشر ويقال لهم ائتوا بِمِثله ولا يستطيعون !!

فيقال لهم أنتم بشر ، وأنتم عرب وأُمَراء الفصاحة ، وسادة ، لماذا لا تَأْتُوا بمثله ؟ جـ : لا يستطيعون لأنه من عند الله سبحانه .

لكنهم يقولون إِنَّ محمدًا يَتَلَقَّى القرآن من هذا البَشَر .

وهذا البشر هو : رَجُل حداد كان الرَّسول ﷺ يجلس إليه فى مكة جلوس عادى فيعلمه ، ويأتى لنا ويقول هذا قرآن !!

والجواب على افترائهم هذا هو قوله تعالى : ﴿ لِسَان الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيه أَعْجَمِىٌّ ﴾ ولهذا يجب أن نقف على كلمة ، بشر من قوله : ﴿ إِنَّما يُعَلِّمه بَشَر ﴾ لأننا لو وصلنا وقرأنا ﴿ بَشَر لِسَان ﴾ ما اتضح المعنى .

فالرد على قولهم الذى ذكره الله بقوله : ﴿ وَلَقَد نَعْلَمُ أَنَّهم يَقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمه بَشَر ﴾ هو فى قوله ﴿ لِسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إليه أَعْجَمِىٌّ ﴾ ومعنى يُلْحدون : أى يَمِيلون ؛ لأَنَّ قولهم هذا مَيل عن الصَّواب . بعيد عن الحق .

قوله : ﴿ لِسَان الَّذى يُلْحِدُونَ إِلَيه أَعْجَمِىٌّ ﴾ قال العلماء : الأَعجمى هو الذى لا يُفصح بالكلام ، والعجمى بدون همزة هو الَّذى لا ينطق بالعربية .

فلسان هذا الذى يُلْحدون إليه أعجمى لا يُفصح بالكلام العربى

وأمّا القرآن فإن الله قال فيه : ﴿ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُبين ﴾ .

بَيِّنٌ فى نِفْسه مُبِيُنٌ لِغَيْره

فالقرآن كلام عربى هو أُفصح الكلام ، كيف يأتى من هذا الرَّجل الأعجمى ، الذى لسانه ما يفصح بالكلام .

وقال بعض العلماء : إنَّ اللِّسان العجمى ، هو الذى ينطق بالعجمة ، وإن لم يكن الإنسان أَعجميًا .

لكن الأَوَّل هو المعروف عند أكثر البلغاء .

لكن ما هو الشَّاهد من هذه الآيات ؟ :

الشاهد هو قوله : ﴿ وَٱللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّل ﴾ وقوله : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رَوُح القُدُس مِن رَبِّك ﴾ وقوله ﴿ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُبين ﴾ والمؤلف ترك الآية التى بعدها لأَنَّه ليس فيها شاهد ولكنها مفيدة فنذكرها : قال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُون بآيات الله لا يَهْدِيهم الله وَلَهُم عَذابٌ أَلِيم إِنَّما يَفْتَرى الكَذِبَ الَّذِينَ

لا يُؤْمِنُون بَالآخِرة وَأُولَئِكَ هُم الكَاذِبُون ﴾ [النحل : ١٠٤ ، ١٠٥] ومعنى هذه الآية : أن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يَهديهم الله – والعياذ بالله – فالهِداية مَسْدُودةٌ عليهم ، وفى هذا إشارة إلى ما تقدَّم قبل قليل وهو أنك إذا آمنت لتهتدى فإنك ستجد الهداية .

وهذه الحقيقة فيها مَصْلَحةٌ فى أشياء كثيرة وقد بدأ الناس يَتَساءلون عنها وخصوصًا فيما يتعلق بصفات الله .

فيقولون مثلاً : كيف ينزل ربنا إلى السَّماء الدُّنيا وهو فى العلو ؟

جـ : آمن تَهْتَدِى .

فإذا آمنت بأنَّه ينزل حقيقة ، علمت أنَّ هذا ليس بمستحيل ، لأنَّه فى جانب الله عزَّ وجل لا يُمَاثله شيء .

ويقولون مثلًا : الآية التى قبل قليل : وهي قوله تعالى ﴿ جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنْقَضَّ فَأَقَامَه ﴾ [الكهف : ٧٧] يقول : جِدَار يُريد كيف يريد ؟!

جـ :نقول : آمن وسلم تهتدى إلى الصواب .

قل : نَعَم الجِدار يُرِيد يَتَبَيَّن لك أنَّ هذا ليس بغريب وهذه قاعدة ينبغى أن تكون أساسية عندك .

وهى : (آمن تهتدى) والذين لا يؤمنون بآيات الله ، لا يهديهم الله ويَبْقَى القرآن عليهم عَمًى والعِياذ بالله ! ولا يستطيعون الاهتداء به ، نسأل الله لنا ولكم الهداية .

● **ما نستفيده من النَّاحية المَسْلَكية من هذه الآيات :**

إن العبد إِذَا عَلِم أنَّ الله مَعَه أَيْنما كان ، أَوْجَب له مُراقبة الله عز وجل وخَشْيَتِهِ ، والقيام بأَمْرِه ، بطاعته ، والخوف منه ، والرَّغْبَة فيما عنده ،

وإذا آمن أَنَّ الله يتكلَّم فإنَّ هذا يُوجب له أن يُعَظِّم كلامه ، ويُعَظِّم هذا القرآن ، ويعرف أَنَّه صادر من الله سبحانه وتعالى قولًا حقيقة ، ولله المثل الأعلى : فلو أَنَّ لَدَينا مَرْسُومًا ملكيًا وقلنا : هذا مَرْسُوم من الملك هو الذى أصدره تكلَّم به ، أَو هو الَّذى خَطَّه بيده فلا شك أنه سيكون عندنا من تعظيم هذا المرسوم بحسب ما عِنْدنا من تعظيم ذلك الملك .

لكن لو كان هذا المرسوم قد صَدَر من وَزِير ، أَو من وَكيل ، أَو مَا أَشبه ذلك فإنه يَقِلُّ ويُهْبط عندنا كثيرًا ، فلا يكون عندنا له من التَّعظيم مثل ما للمرسوم الملكى .

فإذا علمنا أَنَّ هذا القرآن تكلَّم به ربُّ العالمين أَوْجَب لنا ذلك تعظيم هذا القرآن ، واحْتِرامه ، وامْتِثال مَا جَاء فيه من الأُوامر وتَرْك ما فيه من المنهيات والمحْذُورات .

* * *

إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة

١٢٨ - وقوله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾
[القيامة : ٢١،٢٢] .

١٢٩ - وقوله : ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴾ [المطففين : ٣٥] .

١٣٠ - وقوله : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : ٢٦] .

١٣١ - وقوله : ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق : ٣٥] .

١٣٢ - وهذا الباب فى كتاب الله كثير . ومن تدبر القرآن طالبًا للهدى تبين له طريق الحق .

الشـــرح

● قال المؤلف : وقوله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾
[القيامة : ٢١،٢٢] .

قوله ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ﴾ يعنى بذلك اليوم الآخرة قوله ﴿ نَاضِرَة ﴾ أى : حسنة ، من النَّضارة ، بالضَّاد ، وهى : الحسن ، يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ فَوَقَاهُم الله شَرَّ ذَلِكَ اليَوْم وَلَقَّاهُم نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ [الإنسان : ١١] أى حُسْنًا فى وُجُوههم ، وسُروراً فى قلوبهم .

قوله ﴿ إلى رَبِّها نَاظِرة ﴾ نَاظِرة بالظَّاء : من النَّظر ، وهنا عُدِّى النَّظر بإلى الدَّالة على الغاية ، وهو نَظَرٌ صَادِر من الوُجوه ، والنَّظر الصَّادر من الوجوه يكون بالعين .

والنَّظر الصَّادر من القُلُوب يكون بالبَصِيرة ، والتَّدَبُّر ، والتَّفَكُّر ، فهنا صدر النَّظر من الوجوه إلى الرَّب عزَّ وجلَّ لقوله : ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا ﴾ فتُفِيد الآية الكريمة : أَنَّ هذه الوُجوه النَّاضرة الحَسَنة تَنْظُر إلى ربِّها عزَّ وجلَّ فتزداد حُسْنًا إلى حُسْنِها ، وانظر كيف جعل هذه الوجوه مُسْتَعِدّة مُتَهَيِّئَة لِلنَظَر إلى وجه الله عزَّ وجلَّ لكونها نَاضِرة حَسَنة مُتَهَيِّئة للنَّظر إلى وجه الله .

إذًا نقول : هذه الآية فيها دَلِيلٌ على أَنَّ الله عزَّ وجل يُرى بالأَبْصَار وهذا هو مذهب أهل السُّنة والجماعة واستدلوا لذلك بالآيات التى ساقها المؤلف واستدلوا أيضًا بالأحاديث المتواترة عن النبى ﷺ والتى نقلها عنه صَحَابة كَثِيرون ونقلها عن هؤلاء الصَّحابة تَابِعُون[1] كثيرون ، ونقلها عن التَّابعين تابع التَّابعين ، كثيرون وهكذا .

وأنشدوا فى هذا المعنى :

وَمِمَّا تَوَاتَرَ حَدِيثُ مَنْ كَذَبَ ... وَمَنْ بَنَىٰ لله بَيْتًا وَٱحْتَسَبَ
وَرُؤْيَةٌ شَفَاعَةٌ وَحَـــوْضُ ... وَمَسْحُ خُفَّين وَهَذِهِ بَعْضُ[2]

والشاهد منها قوله : « وَرُؤْية » .

وأهل السُّنة والجماعة يقولون : هنا إنَّ النَّظر هنا بالبصر حقيقة وهل النَّظر يلزم منه الإدراك أم لا؟ جـ :لا .

لأنَّ الله تعالى يقول : ﴿ لَا تُدْرِكُه الأَبْصَار ﴾ [الأنعام : ١٠٣] .

كما أَنَّ العلم بالقلب أيضًا لا يلزم منه الإدراك قال الله تعالى : ﴿ وَلَا

---

(١) راجع : حادى الأرواح ص (٢٧٧) ، شرح الطحاوية لابن أبى العز (٢١٧/١) ، والنهاية لابن كثير (٣٠٠/٢) ، والشريعة للآجرى ص (٢٦٤-٢٧٠) ، والتصديق بالنظر إلى وجه الله تعالى . له أيضا فى الكلام على تواتر أحاديث الرؤية .

(٢) راجع : فتح البارى لابن حجر (٢٤٥/١،٢٤٦) .

يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٠] ونحن نعلم ربنا بقلوبنا لكن لا ندرك كيفيته وحقيقته .

ونرى ربّنا بأَبْصَارِنا ولكن لا تُدْركه أَبصارنا : قال تعالى : ﴿ لَا تُدْرِكُه الأَبْصَار وَهُو يُدْرِكُ الأَبْصَار ﴾ [الأنعام : ١٠٣] .

وقد خَالَف أَهل السُّنة فى ذلك أهل التعطيل وقالوا : إنَّ الله لا يمكن أن يُرَىٰ لأَنَّ الله ليس بجسم ، وكذلك الذين يُنْكرون العلو يقولون : إنَّ الله لا يُرَىٰ لأنه ليس فوق العالم ولا تحته ولا يمينه ولا شِماله إلى آخره ماقالوا ...

يقولون كيف يَرَوْنَه ؟ ومن أَين يرونه ؟

فيُحَرِّفون الكلم الوارد فى النصوص عن مَوَاضعه .

ولكن ماحُجَّتهم على أن الله لا يرى ؟

جـ : قالوا نحن نحتجُّ عليكم بالقرآن والعقل ، أَى: بالدَّليل السَّمعى والعقلى أما السَّمع فقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّه قَالَ رَبِّ أَرِنِى أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِى وَلَكِن انْظُر إلى الجَبَلِ فَإن اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِى ﴾ [الأعراف : ١٤٣] قالوا : فقال : ﴿ لَنَ تَرَانِى ﴾ وهذا دَلِيلٌ على استحالة الرُّؤْية لأَنَّ « لَنْ » للنَّفى ، والنَّفى خبر لا يدخله النَّسخ ؛ لأَنَّه لو دخله النَّسخ لكان هذا تكذيبًا لخبر الله .

فإذا كان لا يدخله النَّسخ ، فإنَّ رؤية الله تكون مُسْتَحيلة ؛ لأَنَّ الله قال : ﴿ لَنْ تَرَانِى ﴾ .

ولو فُرِض أن أحدًا ادَّعىٰ أن الله يُرى لكان هذا تكذيبًا لقوله : ﴿ لن تَرَانى ﴾ ؟ والخبر فى كذب الله محال . إذًا : رُؤْية الله محالة !!

قلنا : وما تقولون فى الآيات والأحاديث التى معنا ؟

قالوا : أما قوله تعالى :﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى ﴾ فإن (إلى) هنا : جمع آلة بمعنى نِعَم ، يعنى ناضرةٌ نِعَم ربها . وهذا تحريف يضحك منه الصِّبيان !!.

وقال الآخرون وهم أَحْسَن تحريفًا من هؤلاء معنى قوله : ﴿ إِلَى رَبِّهَا ﴾ أي: إلى ثواب ربها نَاظِرة ، فهي حَسَنَة الوجه ، وكذلك أيضًا تنظر إلى ثواب ربها من الأنهار المُطَّرِدة من الماء ، واللّبن ، والعَسَل ، والخمر ، والأشجار ، فيها من كل فاكهة زَوْجان . فإذا نظرت إلى هذا النَّعيم وهذا الثَّواب ازْدَادت سُرورًا وازدادت حُسْنًا . أَمَّا إلى ربها نفسه فلا !!

انظر كيف هذا التَّأويل ؟!

قلنا لهم نحن : إنَّ الرسول ﷺ قال : « إِنَّكُم سَتَرَوْنَ رَبَّكُم كَمَا تَرَوْنَ القَمر لَيْلَة البَدْر »[1] قالوا : نعم ! هذا مَعناه قوة اليقين ؛ لأَنَّ الإنسان إذا قوى يقينه فى الشَّىء صار كأَنَّه يراه بعينه .

فالإحسان هو :أن تعبد الله كأَنَّك تَراه . فإذًا قوله : «تَرون رَبَّكم كَمَا تَرْوَنَ القَمَر» : معناه قوة اليقين .

قال أهل السُّنة والجَماعة : نحن نقول بما دلَّت عليه آيات الله وسنة رسوله ، أمَّا ما استدللتم به من الأَدِلَّة السَّمعية والعقلية فسنجيبكم عنها بحول الله وقوته .

فأمّا استدلالهم بقوله تعالى : ﴿ لَنْ تَرَانِى ﴾ فإن الرد عليه من وجهتين : الأولى : أن الآية ليس فيها دَلِيلٌ على النَّفى المُؤَبَّد فليس معناها لن تَرانى أبدًا . بل المعنى : لن تَرانى حَال سُؤَالِكَ الرُّؤية . أى : في الدُّنيا ، لأَنَّ الإنسان فى الدنيا لا يَقْوَى على رُؤْية الله عز وجل لِضَعف قُوَّته ، وبَدَنه

(١) رواه البخارى (٥٧٣) ، ومسلم (٦٣٣) (٢١١) من حديث جرير بن عبد الله رضى الله عنه .

و﴿ لَنْ ﴾ لا تَقْتضى التَّأبيد ، فإنها تأتى فى اللُّغة للنَّفى لكن قد يكون النَّفى فيها مُقَيّدًا كما فى قوله تعالى : ﴿ ولن يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمت أَيْديهم ﴾ [الجمعة : ٧] فهذه مُؤَكَّدة ، ومع ذلك يقول عنهم : ﴿ وَنَادَواْ يَا مَالِك لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ [الزخرف : ٧٧] فإنهم تمنَّوا الموت ، فصارت ﴿ لَنْ ﴾ هنا لغير التَّأبيد ، فنحن نقول : إنَّ كلام ربنا لا يكذب ، وَخَبَرُهُ ، لابد أن يكون ولا يمكن لموسى ولا لغير موسى فى الدُّنيا أن يرى الله أبدًا ، ولهذا كان الصَّواب أن النبى ﷺ لم يَر ربَّه ليلة المعراج .

الثاني : نقول فى الآية ما يَدُلّ على بُطلان قولكم ، ففيها دَلِيلٌ إيجابى ؛ لأنَّ إجابتنا الأولى دِفاع ، والآن نهجم عليهم من الآية نفسها ، فالأدلة كالأسلحة هجومية ودفاعية :

ففى الأول : دَافَعْنا ونَقَضْنا استدلالهم بالآية وقُلنا إن ﴿ لَنْ ﴾ لا تدلُّ على النَّفى المؤبد وذكرنا مثالًا وابن مالك يقول :

وَمَن رَأى النَّفى بـ « لَن » مُؤَبَّدًا   فَقَوْله أُرْدُد وَسِواه فَاعْضُدَا

وأمَّا مُهَاجمتنا لهم وردنا عليهم من الآية التى استدلوا بها على قولهم فإن الله يقول : ﴿ قَالَ مُوسَىٰ رَبِّ أَرِنِى أَنْظُر إِلَيْك ﴾ فسؤال مُوسى الرُّؤية يدلُّ على أنَّه يعلم أنها مُمكنة وليست مُسْتحيلة !

وجه ذلك : لو علم أَنَّها مُسْتَحِيلة مَا سأل ، فموسى أَعْلَم بالله مِنْكم بلا شك ، فَسَأَل الرُّؤْية ، ولو كان يعلم أَنَّها مُسْتحيلة ما سَأَلَها ! لأَنَّك لو سألت الله شيئًا مُسْتحيلًا لكنت معتديا فى الدُّعاء .

إذًا : الحمد لله صَار فى الآية دَلِيلٌ عليهم وبهذا سقط استدلالهم بالآية وهذا يمكن أن نجعله شاهدًا لقول شيخ الإسلام ابن تيمية فى كتابه العظيم الذى لم يُؤَلِّف أَحَدٌ مِثله ، وهو (درء تعارض العقل والنقل) المعروف باسم كتاب

(العقل والنقل) قال : « إنّنِى مُستَعِدٌّ لكلّ إنسان يَستدل بدليلٍ صَحيح عَلى بَاطِل أن أَجْعَل هذا الدَّليل دَلِيلًا عليه » وهذا صَحِيح إذا تَأَمَّلنا دليل كل من استدل على باطل بدليلٍ صَحِيح وَجَدّناه دَلِيلًا عليه ، وليس له .

أَمَّا أَجْوبتهم عن أَدِلَّتنا : كقولهم فى قوله : ﴿ إلى رَبِّها نَاظِرة ﴾ أى : إلى ثَوَابه مُنْتَظِرة ، فنقول بكل بَساطة : هذا خلاف النَّص ، وخلاف إجماع السَّلف ، فالسَّلف مُجْمِعُون إجماعًا قطعيًا على أن الله عَزَّ وجل يُرَىٰ بدلالة الكتاب ، والسُّنَّة ،ولكن لا يحاط به .

هم استدلوا أيضًا بآيةٍ أخرى غير قِصّة مُوسىٰ وهى قوله تعالى : ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَار ﴾ [الأنعام : ١٠٣] ولكن هذا فى الحقيقة استدلال ضَعِيف جدًا لماذا ؟ لأَنَّ نَفْى الإدراك يَدُلُّ على وجود أَصْل الرُّؤية، فيكون فى الحقيقة دَلِيلًا عليهم لأَنَّه لو كان لا يَرَىٰ أبدًا لقال : لا تراه الأبصار، ولم يقل : ﴿ لَا تُدْرِكُه ﴾ ففى الآية إذًا دَلِيلٌ عليهم، ولهذا استدَّل بها بعض أهل السُّنة على رُؤْية، الله وقال إنَّ هذه الآية دليل واضح على الرُّؤية، لأن نَفى الأَخص يَستَلْزِم وُجُود الأعم، وإلا لكان نفى الأخص من باب الإبهام . فأنت لو قلت مثلًا ليس فى هذه الحجرة حَيوان . دخل فى ذلك أَنَّه ليس فيها بقر ولا غنم ولا غيره . ولكن لو (قلت) : ليس فيها بَقَر قد يكون فيها غير البقر هذا مع أَنَّها أجسام لا معانى ، . أما مَسْأَلة الإدراك والرؤية فإنها معنى ، فإذا نفينا الأَخصّ لَزِم وُجُود الأعم .

أما دليلهم العقلى على امتناع الرُّؤية : فإنهم يقولون : إنَّك إذا رأيت الله إذا قلنا بجواز الرُّؤية ، لَزِمَ أن يكون جسمًا . والأجسام متماثلة وهذا تكذيب لقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِه شَىْءٌ ﴾ [الشورى : ١١] .

فنرد عليهم بأن نقول لهم : إن كان يَلْزَم من جواز رُؤْية الله عزَّ وجل

أن يكون جسمًا فليكن ، لأن لازم قول الله ورسوله حَقٌّ ، ولكن لا يلزم أن يكون هذا الجسم كالأجسام المخلوقة ، وكما أنَّكم أنتم تقولون إن لله ذات لا تُشْبه الذَّوات فنحن نقول : إذا كان يَلْزَم أن يكون جسمًا فله جسم لا يُشْبه الأجسام . لأَنَّ أجسام المخلوق حَادِثة بعد أن لم تَكُن ، ومُكَوَّنة من أجزاء لا يقوم بعضها إلا ببعض ، لكن الخالق عزَّ وجل ليس جِسمًا بهذا المعنى أبدًا وحينئذ نقول لهم : هذا الذى ذكرتموه إن كان لازمًا من النص فهو حق وإن لم يكن لازمًا فلا تُلْزِمُوننا بِه وَيَكْفِينا أَن نمنع كما مرَّ .

* * *

● **وقال تعالى :** ﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾ [المطففين : ٣٥] .

كلمة ﴿ يَنْظُرون ﴾ فى الآية محذوفة المفعول فلم يقل ينظرون كذا أو كذا ..

فما الذى يَنْظُرونه ؟ عام ينظرون إلى كل مَا أُعِدَّ لهم من النَّعيم .

والذين نفوا الرؤية قالوا : هذه الآية ليس فيها دَلِيلٌ لكم : لأَنَّ المفعول لينظرون حُذَفَ ، فما جوابنا على هذا ؟

جوابنا عليه أن نقول : إن حذف المفعول يُفِيد العموم ، ومعلوم أن مِنْ أفضل النَّعيم رؤية الله عزَّ وجل .

إذًا : ينظرون إلى وجه الله ، ينظرون إلى مَا أَعْطَاهُم الله من النَّعيم . ينظرون إلى قرنائهم قرناء السُّوء فى الدنيا !!

قال تعالى : ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُم إنِّى كَانَ لِى قَرِين يَقُول أَئِنَّكَ لَمِنَ المُصَدِّقِين ءَإذا كُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنّا لَمَدِينُونَ قال ﴾ أى: لأصحابه ﴿ هَلْ أَنْتُم مُطَّلِعُون ﴾ هل : للتَّشويق . يَطَّلعون على ماذا ؟ على هذا القرين ﴿ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فى سَوَاء الجَحِيم ﴾ أعُوذ بالله ! رآه فى سَوَائها أى : فى أَصْلها ، وَقَعْرها :

سُبْحان الله ! هذا فى أعلى عِلِّيين ، وهذا فى أسفل السَّافلين ، ينظر إليه مع بُعْد المسافة العظيمة ، لكن نظر أهل الجنة ليس كنظرنا فى الدنيا ، هنا . ينظر الإنسان فى مُلْكِه فى الجنة مَسِيرة أَلْفَى عَام ، ينظر أقصاه كما يَنظر أَدْناه ، من كمال النعيم ، لأَنَّ الإنسان لو كان نظره كنظره فى الدنيا ما استمتع بنعيم الجنة . ينظر إلى أى مَدَىً ؟! لأنه ينظر إلى مدى قريب فيخفى عليه شيء كثير منه .

اطَّلع من أعلى عِلّيين إلى أَسْفَل سَافِلين فرآه فى سواء الجحيم قال يخاطبه : ﴿ تَاللهِ إِن كِدّتَ لَتُرْدِينَ ﴾ وهذا يدلُّ على أنه كان دائمًا يحاول أَن يُضِلّه ولهذا قال : ﴿ إِن كِدّتَ ﴾ يعنى إنك قاربت وإن هذه المخففة لا الثقيلة ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنْت مِن المُحْضَرِين أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِين ﴾ إلى آخر الآيات [الصافات : ٥٥-٥٨] .

أقول : إنَّ النَّاس بالأول يستبعدون هذا استبعادًا عظيمًا ، كيف يكون فى أقصى مكان ويُخَاطب من يَنْظُر إليه ويُكَلِّمه ؟

ولكن ظهرت الآن أشياء من صُنْع البَشر كالأقمار الصناعية والتِليفونات التليفزيونية ، وغير ذلك يرى الإنسان من خلالها من يكلمه وهو بعيد .

على كل حال فإننا نقول : إنَّ القرآن الكريم الحوادث تَشْهد بِصِدْقه مع أنه لا يمكن أَن نقيس ما فى الآخرة على ما فى الدنيا .

إذًا : ﴿يَنْظُرون﴾ عامة : ينظرون إلى الله ، وينظرون مَا لَهم من النَّعيم ، ينظرون ما يَحْصُل عليه أهل النَّار من العذاب .

إذا قال قائل : هذا فيه إشكال !!

كيف ينظرون إلى أهل النَّار ينكتون عليهم ويُوَبِّخون ؟ فنقول : والله ما أكثر ما أَذَاق أَهْل النَّار أهل الجنَّة فى الدُّنيا من العذاب والبلاء ؟ والمُضَايقة ؟

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِين أَجْرَمُوا كَانُوا مِن الَّذِينَ أَمَنُوا يَضْحَكُون ﴾ يضحكون سواء فى مجالسهم أو معهم : ﴿ وَإِذا مرُّوا بِهِم يَتَغَامَزُون وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلى أَهْلِهِم انْقَلَبُوا فَكِهين ﴾ أى : انقلبوا متنعِّمين بأقوالهم : ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُم قَالُوا إِنَّ هَؤُلاء لَضَالُّون ﴾ قال الله تعالى : ﴿ فَالَيْومَ الَّذِين آمَنُوا مِن الكُفَّار يَضْحَكُون عَلَى الأَرَائِكَ يَنْظُرون ﴾ [المطففين : ٣٥] ينظرون إليهم وهم والعياذ بالله فى سواء الجحيم .

إذًا : يكون هذا من تمام عدل الله عز وجل ، أَنْ جَعَل هؤلاء الذين كانوا يُضَايِقُون فى دار الدُّنيا ، جَعَلَهُم الآن يفرحون بنعمة الله عليهم ، ويوبخون هؤلاء الذين فى سواء الجحيم .

* * *

● ثم قال عز وجل : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : ٢٦] .

قوله : ﴿ لِلَّذِينَ ﴾ خبر مقدم و﴿ الحُسْنَى ﴾ مبتدأ مؤخر ، وهى الجنة والـ ﴿ زِيَادة ﴾ هى : النَّظر إلى وجه الله . هكذا فسَّره النَّبى ﷺ ، كما ثبت ذلك فى صحيح مسلم وغيره(١) .

إذًا : فى هذه الآية دَلِيلٌ على ثُبوت رؤية الله .

من أين أَخَذْناها ؟

جـ : أخذناها من تفسير الرسول عليه الصَّلاة والسَّلام للقرآن وهو أعلم النَّاس بمعانى القرآن بلا شك .

وقد فسَّرها بالنَّظر إلى وجه الله ، وهى زيادة على نعيم الجنَّة .

إذًا : فهى نعيم ليس من جنس النَّعيم فى الجنَّة ، لأَنَّ جنس النعيم فى الجنة نعيم بدن ؛ أَنْهار ، وثِمار ، وفَوَاكه ، لكن النَّظر إلى وجه الله نعيم قلب

---

(١) رواه مسلم (١٨١) (٢٩٧) من حديث صهيب رضى الله عنه .

لا يَرَىٰ أهل الجنَّة نعيمًا أفضل من هذا النَّعيم ، نسأل الله أن يجعلنا ممن يراه . وهذا نعيم مَالَهُ من نَظِير أبدًا ، لا فَوَاكِه ، ولا أنهار ولا غيرها أبدًا ولهذا قال : ﴿ وَزِيَادَة ﴾ أى : زيادة على الحُسْنَىٰ .

* * *

● ثم قال أيضًا : ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق : ٣٥] .

قوله : ﴿ لَهُم مَا يَشَاءُونَ فِيَها ﴾ أى: فى الجنَّة كل مَا يَشَاءُون ، فإذا شاء الإنسان مثلًا أن يكون له بعير فى الجنة فإنه يَحْصُل له من بعير ذهب ، ولا يكون من عظم ، ولحم وعصب ، وروث ، وبول .

فإذا اشتهى أي شيء فإنه يكون ويتحقق ، حتى أن بعض العلماء يقول : إذا اشتهى الولد لكان له ولد .

فكل شيء يشتهونه فهو لهم : قال تعالى : ﴿ وَفِيها مَا تَشْتَهِيه الأَنْفُس وَتَلَذُّ الأَعْينُ وَأَنْتُم فِيها خَالِدُون ﴾ [الزخرف : ٧١] .

وقوله : ﴿ وَلَدَيْنا مَزِيد ﴾ أي : مزيد على ما يَشَاءُون . يعنى أَنَّ الإنسان إذا شاء شيئًا يعطى إياه ، ويعطى زيادة ، كما جاء فى الحديث الصَّحيح فى آخر أهل الجنة دخولًا ، يعطيه الله عز وجل نعيمًا ، ونعيمًا ، ويقول رضيت يقول له : « لَكَ مِثْلُه وَعَشْرَة أَمْثَاله »(١)فهو أكثر مما يشاء .

وَفَسَّر المزيد كثير من العلماء بما فَسَّر به النَّبي ﷺ الزِّيادة وهي : النَّظر إلى وجه الله الكريم .

* * *

---

(١) رواه مسلم (١٨٨) (٣١١) من حديث أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه .

فتكون الآيات التى ساقها المؤلف أربع .

● وهناك آية أخرى خامسة استدل بها الشافعى – رحمه الله – وهى قوله تعالى فى الفجار : ﴿ كَلَّا إِنَّهم يَوْمَئِذٍ عَن رَبِّهم لَمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين : ١٥] .

قال : مَا حَجَب هؤلاء فى الغضب ، إلا رَآه أُولَئِكَ فى الرِّضي ، فإذا كان أهل الغضب مَحْجُوبين عن الله ، فأهل الرِّضى يَرون الله عز وجل ». وهذا استدلال قوى جدًا ؛ لأنَّه لو كان الكل محجوبين لم يكن مِزية لذكر هؤلاء .

● وعلى هذا فنقول الآيات خمس ويمكن أن نلحق بها قول الله تعالى : ﴿ لَا تُدْرِكُه الأَبْصَار وَهُو يُدْرِكُ الأَبْصَار ﴾ [الأنعام : ١٠٣] . حيث قلنا فيما تقدم (١) : « إنَّ نفى الأَخص يدلُّ على وُجُود الأَعم » وعلى هذا : فتكون الآيات ست .

أما قوله تعالى : ﴿ لَنْ تَرَانِى ﴾ [الأعراف : ١٤٣] فليس فيها دَلِيلٌ على هذه المسألة بعينها ، لكن فيها دليل على إمكان الرُّؤية فقط .

فالحاصل : أَنَّ فى هذه الآيات دَلِيلًا على أنَّ الله يُرَىٰ ، وفى رؤية والنظر أهل الجنة له دَلِيلٌ على أن أعظم نعيم هو الرُّؤية إلى وجهه عزَّ وجلَّ .

* * *

● **ما نستفيده من النَّاحية المسلكية من هذه الآيات :**

أَمَّا فى مسألة الرُّؤية ، فما أَعْظم أَثَرها على الاتِّجاه المَسْلَكى ، لأَنَّ الإنسان إذا وجد أن غاية ما يَصل إليه من الثَّواب هو النَّظر إلى وجه الله كانت الدُّنيا كلها رخيصه عنده ، وكل شىء يَرْخُص عنده فى جانب الوصول إلى رؤية الله عزَّ وجلَّ ، لأَنَّها غاية كل طالب ، ومُنْتَهىٰ المَطَالب ، فإذا

علمت أَنَّك سوف تَرَى رَبَّك عِيانًا بالبَصَر فوالله لا تساوى الدنيا عندك شيئًا

فكل الدُّنيا ليست بشيء لأَنَّ النظر إلى وجه الله هو الثَّمرة التى يتسابق فيها المُتَسَابِقُون ، ويَسْعَىٰ إليها السَّاعون ، وهى غاية المرام من كل شيء .

فإذا علمت هذا فهل تسعى إلى الوُصول إلى ذلك أم لا ؟!

جـ : نعم أسعى إلى الوصول إلى ذلك بدون تردد لكن هؤلاء المحرومون – الله لا يحرمنا – الذين يقولون إنَّ الله لا يُرى ، كيف يكون سيرهم إلى الله ؟!

جـ : يكون سيرهم ضعيف . غاية ما هنالك بالنسبة لهم الدُّنيا، وهناك الجنة أيضًا ، وفيها مِلْءُ البَطْن ، وشَهوة الفَرج وهى نعيم لاشك – وما نقول هذا تزهيدًا فيها – لكن والله إن هذا بالنسبة إلى رؤية الله لا يساوى شيئا !! ولهذا قال : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَة ﴾ [يونس : ٢٦]

فأقول : نسأل الله أَن لا يَحْرمنا خيرها .

فإنكار الرُّؤية فى الحقيقة حِرْمَانٌ عظيم ، لكن الإيمان بها يَسُوق الإنسان سوقًا عظيمًا إلى الوُصُول إلى هذه الغاية ولكن ما القيمة ؟

جـ : القِيمة بَسِيطة ، وقد وبدت فى الحديث الآتي.

حيث قال معاذ بن جبل للرسول عليه الصلاة والسلام : « دُلَّنى عَلَى عَمَلٍ يُدْخلنى الجَنَّة ويُبَاعِدْنى عَن النَّار ؟ قال : لَقَد سَأَلْتَ عَن عَظِيم وإِنَّه لَيَسِيرٌ عَلَى مَن يَسَّره الله عليه – نسأل الله أن يُيَسِّره لنا –: تَعْبُد الله لا تُشْرِك به شَيْئًا وَتُقِيم الصَّلاة وَتُؤْتِى الزَّكاة » ... إلى آخر الحديث[١] .

---

(١) **حديث صحيح بطرقه** : رواه أحمد (٥/٢٣٠ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٤٥) ، والترمذى (٢٦١٦) ، والنسائى فى الكبرى كما فى التحفة (٨/٣٩٩) ، وابن ماجه (٣٩٧٣) ، والحاكم (٢/٤١٢–٤١٣) ، وابن حبان (٢١٤) وهو حديث صحيح بطرقه . وراجع شرحه والتعليق عليه فى جامع العلوم والحكم : الحديث التاسع والعشرون .

فهو يَسِيرٌ ولله الحمد ، فالدِّين كُلُّه يُسْر ، حتى إذا وُجِدَت أَسْبَاب الحرج تَيَسَّر الدِّين . فأصله مُيَسَّر وإذا وجدت أَسباب الحرج تَيَسَّر ثانيةً وإذا لم يمكن القيام به أبدًا سقطَ : فلا وَاجِبَ مَعَ العَجْز ، ولا حرام مع الضَّرورة .

* * *

● قال المؤلف – رحمه الله –: « **وَهَذَا البَاب فِي كِتَاب ٱللهِ كَثِير ، وَمَنْ تَدَبَّر القُرآن طَالِبًا للهُدَىٰ ، تَبَيَّنَ لَهُ طَرِيق الحق** » .

قوله : « **وَهَذَا البَابُ** » الإشارة هنا إلى باب الأسماء والصِّفات .

قوله : « **فى كتاب الله كثير** » ولذلك ما من آية من كِتَابِ الله إلَّا وتجد فيها غالبًا ٱسْمًا من أسماء الله ، أَوْ فعلًا من أَفْعَاله أَوْ حُكمًا من أحكامه ، بل لو شئت لقلت : كل آية فى كتاب الله فهى صفة من صفات الله ؛ لأن القرآن الكريم كلام الله عز وجل ، فكل آية مِنه فهى صِفة من صفات الله عز وجل .

لكن قال : « وَمَن تَدَبَّر القرآن طَالِبًا للهُدَىٰ مِنْه تَبَيّن لَهُ طَرِيق الحَق » .

قوله : « **ومَنْ تَدَبّر القرآن** » تَدَبُّر الشَّىء معناه : التَّفكر فيه ، كأن الإنسان يَسْتَدبره مَرّة ، ويَسْتَقْبله أخرى ، فهو يكرِّر اللفظ ليفهم المعنى ، فالذى يتدبَّر القرآن وهذا هو الفعل ، وأما النيه ، فهي أن يكون « **طَالِبًا للهُدَىٰ مِنه** » : فليس قصده بِتَدبُّر القرآن أن ينتصر لقوله ، أو أن يتَّخذ منه مجادلة بالباطل ، ولكن قصده طلب الحق ، فإنه سوف تكون النتيجة قول المؤلف : « **تَبيَّن لَهُ طَرِيق الحَق** » وما أعظمها من نتيجة ، لكنها مَسْبوقة بأَمرين : التَّدَّبر ، وحُسْن النية بأَن يكون الإنسان طالبًا للهدى من القرآن ، فحينئذ يتبيَّن له طريق الحق .

والدَّليل على ذلك عِدَّة آيات :

منها قول الله تبارك وتعالىٰ : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِم ﴾ [النحل : ٤٤] ، وقال تعالىٰ : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَك لِيَدَّبَّرُواْ آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّر أُولُواْ الأَلْبَاب ﴾ [ص : ٢٩] ، وقال تعالى : ﴿ أَفَلَم يَدَّبَّرُواْ القَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَا لَم يَأْت أَبَائِهِم الأَوَّلِين ﴾ [المؤمنون : ٦٨] ، وقال تعالى : وَلَقَد يَسَّرْنَا القُرْآن لِلذِّكْر فَهَل مِن مُدَّكِر ﴾ [القمر : ٣٢] والآيات فى هذا كثيرة تدلُّ على أن من تدَّبر القرآن ، لكن بهذه النِّية وهى طلب الهدى منه ، لابد وأن يصل إلى النتيجة ، وهى تبيُّن طريق الحق .

أمَّا من تدبَّر القرآن لِيَضْرب بَعْضَه ببعض ، وليجادل بالباطل ، ولِيَنْصُر قوله كما يوجد عند أهل البدع ، وأهل الزيغ ، فإنه يُعْمى عن الحق والعياذ بالله ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ هُوَ الَّذى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتَاب مِنْهُ آيَات مُحْكَمَاتٍ هُنَّ أُمُّ الكِتَاب وَأُخَرَ مُتَشَابِهَات فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَه مِنْهُ ابْتِغَاء الفِتْنَة وَٱبْتِغَاء تَأْوِيله وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا ٱللهُ والرَّاسِخُونَ فِى العِلْم ﴾ [آل عمران : ٧] على تقدير (أَمَّا) . أي : وأَمَّا الرَّاسخون فى العلم : ﴿ يَقُولُونَ أَمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِن عِنْدَ رَبِّنا ﴾ [آل عمران : ٧] وإذا قالوا هذا القول فسيهتدون إلى بيان هذا المتشابه .

ثم قال : ﴿ وَمَا يَذَّكَّر إِلَّا أُولُوا ٱلأَلْبَاب ﴾ [آل عمران : ٧] .

* * *

فصـــل
أَحَادِيث الصِّفـــــات

١٣٣ - ثمَّ فى سُنَّة رَسُول الله ﷺ ، فالسُّنَّة تُفَسِّر القرآن وَتُبَيِّنُه ، وَتَدُلُّ عَلَيْه ، وَتُعَبِّر عَنْه .

وَمَا وَصَفَ الرَّسُول به رَبّه عزَّ وجلَّ مِن الأَحَادِيث الصِّحاح التى تَلَقَّاها أَهْلُ المعرفة بالقَبُول وَجَبَ الإِيمَانُ بِهَا كَذَلِك .

الشـــــرح

● **قال المؤلف : « فصل : ثم فى سُنَّة رسول الله ﷺ »**(*) .

السُّنَّة فى اللغة : الطَّريقة ومنه قوله ﷺ : « لتركبن سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم »(١) يعنى طريقتهم .

وفى الاصْطلاح : هى قول النَّبى ﷺ وفِعْلُه وإقراره .

(*) **قال الشيخ عبدالعزيز بن باز** : « السُّنَّة هى الوحى الثانى والأصل الثانى من أُصول الإسلام وهى توافق وتفسِّر ما جاء فى القرآن من أسماء الله وصفاته وتُثْبتها على حقيقتها وعلى مَا يَليق بجلال الله وعظمته فقد جاء فيها من الصِّفات كثير كالنُّزول ، والضَّحك ، والقَدَم ، والفَرح ، وغير ذلك مما جاءت به مما يجب أن يُقَرُّ ويُثْبَت ويُعْتَقَد حقيقة معناه على الوجه اللائق بالله تعالى شأن جميع الصِّفات » ا.هـ .

(١) رواه البخارى (٣٤٥٦) (٧٣٢٠) ومسلم (٢٦٦٩) (٦) .

سنَن : قال الحافظ فى الفتح (٣٠١/١٣) : « بفتح السين للأكثر ، وقال ابن التين : قرأناه بضمها وقال المهلب : بالفتح أولى لأنه الذى يستعمل فيه الذراع والشبر وهو الطريق » ا.هـ .

فتشمل الوَاجب والمُسْتحب .

والسُّنَّة هى المصدر الثَّانى فى التَّشْريع .

ومعنى قولنا : « المصدر الثَّانى » يعنى فى العدد وليس فى التَّرتيب ؛ فإنَّ منزلتها إذا صحت عن النبى ﷺ كمنزلة القرآن ، لكنَّ الناظر فى القرآن يحتاج إلى شىء واحد وهو صِحّة الدلالة على الحكم ، والنَّاظر فى السُّنة يحتاج إلى شيئين :

الأول : صِحَّة نِسْبَتها إلى الرَّسول ﷺ ، والثَّانى : صِحة دِلالتها على الحكم .

فكان المُسْتَدلُّ بالسُّنة يُعَانى من الجهد أكثر مما يُعَانِيه المُسْتَدِلُّ بالقرآن ؛ لأن القرآن قد كُفِينا سَنَدَهُ ، فسَنَدُه مُتَواتر ليس فيه مَا يُوجِب الشَّك بخلاف ما يُنسب إلى الرَّسُول ﷺ .

فإذا صحَّت السُّنَّة عن رسول الله ﷺ كانت بمنزلة القُرآن تمامًا كما قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ [النساء : ١١٣] وقال النبى ﷺ : « لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُم مُتّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِه يَأْتِيه الأَمْرُ مِن أَمْرِى يَقُول لا نَدْرى مَا وَجَدنَا فِى كِتَاب الله اتَّبَعْنَاهُ أَلَا وَإِنى أُوتِيتُ الكِتَابَ وَمِثْله مَعَه »(١) .

---

(١) **حَدِيثٌ صَحِيحٌ** : رواه أحمد (٨/٦) وأبو داود (٤٦٠٥) والترمذى (٢٦٦٣) وقال : « حسن صحيح » وابن ماجة (١٣) ، والحاكم (١٠٨/١-١٠٩) وقال : « صَحِيحٌ على شرط الشيخين » وأقره الذهبى من حديث أبى رافع وهو حديث صحيح وفى الباب عن المقدام بن معد يكرب بنحوه عن أحمد (١٣٠/٤-١٣١) والدارمى (١١٤/١) وأبو داود (٤٦٠٤) والترمذى (٢٦٦٤) وابن ماجة (١٢) .

لا ألفين : أى لا أجد وألقى .

ولهذا كان القول الصَّحيح أن القرآن يُنْسَخُ بالسُّنَّة إذا صَحَّت عن النَّبى ﷺ وأنَّ ذلك جائز عَقلًا وشرْعًا ، ولكن ليس له مِثَالٌ مُسْتقيم(١) .

● **قال المؤلف : « فالسُّنَّة تُفسِّر القرآن وتُبَيِّنه وتَدُلُّ عَلَيْه وتُعَبِّر عنه »** .

« تُفَسِّر القرآن » : يعنى تُوضِّح المعنى المراد منه ، كما مَرَّ علينا فى تفسير قوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : ٢٦] حيث فسَّرها النَّبى ﷺ بأنَّها النَّظَر إلى وَجْه الله عز وجل(٢) .

- وكما فسَّر النَّبى ﷺ قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَا اسْتَطَعْتُمْ مِن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال : ٦٠] فقال : « أَلَا إِنَّ القُوَّة الرَّمى ، أَلَا إِنَّ القُوَّة الرَّمى »(٣) .

« تُبَيِّنُه » : يعنى تُبَيِّن المُجمل مِنه حيث إن فى القرآن آيات مجملة لكن السُّنَّة بَيَّنَتها ووضَّحتها مثلًا : ﴿ أَقِيمُواْ الصَّلَاةَ ﴾ [البقرة : ٤٣] أَمْـرٌ بإقامتها لكن كيف ؟ بيَّنتها السُّنَّة .

﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ ﴾ [الإسراء : ٧٨] هذا

---

(١) راجع مذكرة الأمين الشنقيطى على روضة الناظر ص (١٠١ ، ١٠٢) حيث قال : « التحقيق جواز نسخ القرآن بالسنة المتواترة ووقوعه ، ومثاله نسخ آية خمس رضعات بالسُّنَّة المتواترة ونسخ سورة الخلع وسورة الحفد بالسنة المتواترة وأمثال ذلك كثيرة ... إلخ » فليراجع .

(٢) رواه مسلم (١٨١) (٢٩٧) من حديث صهيب رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى : تريدون شيئًا أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تُبَيِّض وُجوهنا ؟ ألم تُدْخِلْنا الجنَّة وتنجِّنا من النَّار ؟ قال : بلى . فيرفع الحِجاب فينظرون إلى وَجْهِ الله ، فما أُعطُوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم ثم تلا ﴿ للذين أَحْسَنُواْ الحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ » [يونس : ٢٦]

(٣) رواه مسلم (١٩١٧) (١٦٧) من حديث عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قُوَّة ﴾ [الأنفال : ٦٠] أَلَا إِنَّ القُوَّةَ الرَّمىُ ، أَلَا إِنَّ القُوَّةَ الرَّمىُ أَلَا إِنَّ القوةَ الرَّمىُ » .

وقت واحد .

﴿ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ ﴾ يعنى من دلوك الشَّمس إلى غسق اللَّيل أى غاية ظلمته وهو نِصْفه ، لأَنَّ أشدّ ما يكون فى ظلمة اللَّيل نِصْفه .

ظاهر الآية أن هذا وقت واحد ، ولكن السُّنَّة فصَّلت هذا المجمل :

الظُّهر : من دلوك الشَّمس إلى أَن يَصِير ظِل كل شَىء مِثْله .

العَصْر : من ذلك إلى اصفرار الشَّمس فى الاختيار ثمَّ إلى غُروبها فى الضَّرورة .

المَغْرب : من غُروب الشَّمس إلى مَغِيب الشَّفق .

العِشاء : من مَغِيب الشَّفق إلى نصف اللَّيل . وليس هناك وقت ضَرُورة للعشاء ، ولهذا لو طَهُرت الحَائِض فى مُنْتصف اللَّيل الأخير لم يَجِب عَلَيها صَلاة العشاء ولا صلاة المغرب ؛ لأَنَّ صلاة العشاء تنتهى بانتصاف الليل .

الفجر : من طُلوع الفجر إلى طُلوع الشَّمس . ولهذا قال فى نفس الآية : ﴿ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ ﴾ [الإسراء : ٧٨] . ثم فصَّل وقال : ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ﴾ [الإسراء : ٧٨] ؛ لأن وقت الفجر بينَه وبين الأَوْقَات الأُخرى ربع الدَّهر من قبله ، ومن بَعْدِه نصف اللَّيل الثَّانى قبله ، ونصف النَّهار الأَوَّل بعده .

هذا من بيان السُّنَّة حيث بَيَّنت الأَوقات(١) .

– كذلك ﴿ آتُواْ الزَّكَاة ﴾ [البقرة : ٤٣] بيَّنت السُّنَّة الأَنْصِبة والأَمْوال الزكوية .

---

(١) راجع رسالة : مواقيت الصَّلاة للشيخ ابن عثيمين حفظه الله .

« تَدُلُّ عليه » : هذه كلمة تعمُّ التَّفسير والتَّبيين والتَّصْدِيق .

السُّنَّة تُفسِّر القرآن ، وتُبَيِّن القرآن .

« تُعَبِّر عنه » : يعنى تأتى بمعانى جديدة ، أو بأحكام جديدة ليست فى القرآن ، وهذا كثير من الأحكام الشَّرعية استقلَّت بها السُّنَّة و لم يأت بها القرآن إلا على سبيل الإجمال فقط مثل قوله تعالى : ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ ﴾ [النساء : ٨٠] ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُواْ ﴾ [الحشر : ٧] .

أما حكم معين : فالسُّنَّة استقلت بأحكام كثيرة عن القرآن ومن ذلك : مَا سَيأتينا فى أول حديث ذكره المؤلف : « يَنْزِلُ رَبُّنَا إلى السَّماء الدُّنيا حِين يَبْقَى ثُلُث اللَّيل الآخِر »(١) هذا ليس فى القرآن لا مُجملًا ولا مُبيَّنًا .

إذًا : السُّنَّة مَقَامُها مع القرآن على هذه الأَنواع الأَربعة : تَفْسِيرٌ ، وَتبيينٌ ، وَدِلَالَةٌ عَلَيه ، وتَعْبِيرٌ عنه .

● ثم قال – رحمه الله – قاعدة مهمة : « وَمَا وَصَفَ الرَّسُول به رَبَّه عَزَّ وَجَلَّ مِن الأَحَادِيث الصِّحاح التى تَلَقَّاها أَهْلُ المَعْرِفَة بِالقَبُول وَجَبَ الإيمانُ بِهَا كَذَلِك » .

قوله : « وَمَا » هذه شرطية .

« وجب الإيمان بها » هذا جواب الشَّرط .

---

(١) البخارى (١١٤٥) ومسلم (٧٥٨) (١٦٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه وفى الباب عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أخرجه مسلم (٧٥٨) (١٧٢) وراجع لشرح هذا الحديث والكلام عليه باستفاضة شرح حديث النزول لابن تيمية .

فما وصف الرسول به ربه ، وكذلك مَا سمَّى به ربه ، وهذا يَنْبغى أن يُسْتَدْرك فيقال : « مَا وَصَفَ وسَمَّى بِهِ رَبَّه » ؛ لأنَّ هناك أَسْماء مِما سَمَّى به الرَّسول به ربه لم تكن موجودة فى القرآن مثل « الشَّافِى » . قال النَّبى ﷺ : « وَاشْفِ أَنْتَ الشَّافِى لا شِفَاء إِلَّا شِفَاؤُك »[1] .

« الرَّب » : لم يأت فى القرآن بدون إضافة لكن فى السُّنَّة قال الرسول ﷺ : « أَمَّا الرُّكُوع فَعَظِّمُوا فِيه الرَّب »[2] .

وقال فى السِّواك : « مَطْهَرةٌ للفَم مَرْضَاةٌ لِلرّب »[3] .

وقول المؤلف – رحمه الله –: « وَمَا وَصَفَ الرَّسُول بِهِ رَبَّه من الأَحَاديث الصِّحاح التى تَلَقَّاها أَهْلُ المَعْرِفة بالقَبُول » يُضَافُ إِليه « أَوْ سَمَّى بِهِ نَفْسَه » .

وظاهر كلام المؤلف أَنَّه يشترط لقبولها شَرْطَان :

الأَوَّل : أن تكون الأَحَادِيث صَحِيحة .

الثَّانى : أن يكون أهل المعرفة يعنى بالأحاديث تَلَقَّوها بالقَبول ، ولكن ليس هذا هو المراد ، بل مراد الشَّيخ – رحمه الله – أن الأحاديث الصِّحاح تَلَقَّاها أهل المعرفة بالقبول فتكون الصِّفة هذه صفة كاشفة لا صفة مُقَيِّدة .

---

(١) رواه البخارى (٥٧٤٢) ومسلم (٢١٩١) (٤٦) من حديث أبى هريرة وعائشة رضى الله عنهما .

(٢) رواه مسلم (٤٧٩) (٢٠٧) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما .

(٣) ذكره البخارى تعليقا بصيغة الجزم (١٨٧/٤) من حديث عائشة مرفوعًا ، وَوَصَله أحمد (٤٧/٦ ، ٦٢) والنسائى (١٠/١) وابن خزيمة ، وابن حبان (١٤٣–موارد) كما فى الفتح (١٨٧/٤) ورواه أيضًا الدارمى (١٧٤/١) والشافعى فى الأم (٢٣/١) .

فقوله : « التى تَلَقَّاها » هذا بيان لهذه الأحاديث الصَّحيحة أن أهل المعرفة تلقَّوها بالقبول لأنه من المُسْتَحيل أن تكون الأَحاديث صَحيحة ، ثم يَرْفُضها أهل المعرفة بل سَيَقْبَلُونَها .

صحيح أن هناك أحاديث ظاهرها الصِّحة ، ولكن قد تكون مَعْلُولة بعِلّة كانقلاب على الرَّاوى ونحوه ، وهذه لا تُعَدُّ من الأحاديث الصَّحيحة .

قال : « وَجَبَ الإيمانُ بِها كَذَلك » الوَاجب : ما أُثِيب فَاعله واسْتَحَق العِقاب تاركه لكن هذه عقيدة يجب على الإنسان وُجوبًا مؤكدًا أن يؤمن بها على حَسَب ما ورد .

« كَذَلِكَ » يعنى من غير تَحْرِيف ولا تَعْطِيل ولا تَكْيِيف ولا تَمْثِيل .

* * *

من نفائس ابن عثيمين

المحاضرات السنية في شرح العقيدة الواسطية

لشيخ الإسلام ابن تيمية

شرحه

سماحة الشيخ محمد الصالح العثيمين

وعلق عليه بتعليقات نفيسة

العلامة الشيخ عبد العزيز بن باز

حقق نصوصه، وخرج أحاديثه

أبو محمد أشرف بن عبد المقصود بن عبد الرحيم

الجزء الثاني

مكتبة طبرية
الرياض: ت ٤٥١٠٣٢١

إثبات صفة النُّزول لله تعالىٰ إلى سَمَاء الدُّنيا على مَا يَليق بجلاله فى السُّنَّة المطهرة

١٣٤ – مثل قوله ﷺ : « يَنْزِل رَبُّنا إلى سَمَاء الدُّنْيا كُلَّ لَيْلَةٍ حِينَ يَبْقَى ثُلُث اللَّيْلِ الآخِر فيقول : مَنْ يَدْعُونِى فَأَسْتَجِيب لَهُ ، مَنْ يَسْأَلُنِى فَأُعْطِيه ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِى فَأَغْفِرَ لَهُ » متفق عليه .

الشـــرح

● هذا الحديث[١] قال بعض أهل العلم إنَّه من الأحاديث المُتَواترة .

واتَّفقوا على أنَّه من الأحاديث المَشْهورة المُسْتفيضة المعلومة عند أهل السُّنَّة .

● **قوله : « يَنْزِلُ رَبُّنا إلى السَّماء الدُّنيا »** : نُزولُه تَعَالَى حَقِيقى ؛ لأنَّه كَمَا مَرَّ علينا من قبل : كل شىء كان الضَّمير يَعُود فيه إلى الله فهو يُنْسَب إليه حَقِيقة .

« ينزل » : يعنى الله . فقوله : « يَنْزل ربنا » أَضَاف النُّزول إلى الله عزَّ وجلَّ فعلينا أن نُؤْمن به ونُصَدِّق ونقول : يَنْزل رَبُّنا إلى السَّماء الدُّنيا ، وهى أقرب السَّماوات إلى الأَرْض ، والسَّمَاوات سَبْعٌ ، وإنَّما يَنْزل عزَّ وجلَّ فى هذا الوقت من الليل للقرب من عباده جلَّ وعلا كما يَقْرُب منهم عَشيَّة عَرفة حَيْثُ يُبَاهى بالوَاقِفين الملائِكة[٢] .

---

(١) تقدم تخريجه ص (٤٣٠) .

(٢) **إسْنَادُه ضَعِيفٌ** : أخرجه ابن خزيمة فى صحيحه (٤/٢٦٣) وابن حبان (١٠٠٦– موارد)=

● وقوله : « **كُلَّ ليلة** » يَشْمل جميع لَيَالى العَام .

● « **فيقول : من يدعونى ؟** » من استفهام للتَّشْوِيق كقوله تعالى : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الصّف : ١٠] .

● وقوله : « **فَأَسْتَجِيبَ لَه** » بالنَّصب لأَنَّها جواب الطَّلب .

« مَنْ يَدْعونى » يقول : يَارَب .

● « **مَنْ يَسْأَلُنِى** » يقول : أَعْطِنى يارب ، أَسْأَلُكَ الجنَّة .

● « **مَنْ يَسْتَغْفِرُنى** » فيقول : اللَّهُمَّ اغفر لى ، أَو أَسْتَغْفرك اللَّهُمَّ « **فَأغفر له** » .

بهذا يتبيَّن لكل إنسان قرأ هذا الحديث أن المراد بالنُّزول هنا نُزول الله نفسه ، ولا نحتاج أن نقول بذاته مَا دَام الفِعل أُضِيف إليه ، فَهُو لَهُ ، لكن بعض العُلَماء قالوا : يَنْزِل بِذَاته ، لأَنَّهم لجأوا إلى ذلك واضطروا إليه ؛ لأَنَّ هناك من حرَّفوا الحديث وقالوا : حَاشَا لله أَن يَنْزل بل الذى يَنْزل أَمْرُ الله !

وقال آخرون : بل الَّذى يَنْزل رَحْمَةُ الله !

وقال آخرون : بل الَّذى يَنْزِل مَلَكٌ مِن مَلائكة الله ! وهذا باطل(١) !

فإن أمر الله دائمًا وأبدًا ولا يختصُّ نُزُولَه فى الثُّلث الأَخير من الليل ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ [السجدة : ٥] ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّه ﴾ [هود : ١٢٣] .

= والبزار (١٢٨ – كشف الأستار) وأبويعلى فى مسنده (٤/٦٩ – ٧٠) من حديث جابر رضى الله عنه وضعَّف إسناده الألبانى فى السلسلة الضعيفة (٦٧٨) .

(١) راجع الكلام على صفة النزول والرد على شبهات المخالفين فى مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم للموصلى ص (٣٦٣ : ٣٩٢) .

ثم أى فائدة يكون مُنْتَهىٰ النُّزول السَّماء الدُّنيا وَمَا ينزل للأرض ؟!

وَأَمَّا قولهم : تَنْزِل رَحْمَةُ الله إلى السَّماء الدُّنيا حين يَبْقى ثُلث اللَّيل الآخر فسبحان الله ! الرَّحمة مَا تَنْزل إِلَّا فى هذا الوقت : ﴿ وَمَا بِكُمْ مِن نِعْمَةٍ فَمِنَ الله ﴾ [النحل : ٥٣] كُلُّ النِّعم من الله وهى من آثار رحمته .

ثم نقول : أى فائدة لنا بنزول الرحمة إلى السَّماء الدُّنيا ؟

ثم نقول لمن قال : إنَّه مَلَكٌ من مَلائِكَتِه : هل من المعقول أَنَّ الملك من ملائكة الله يقول : مَنْ يَدْعُونى فأستجيب له ... إلخ .

فتبيَّن بهذا أَنَّ هذه الأقوال تَحْرِيفٌ بَاطِل يُبْطِله الحديث .

ووالله ! لَيْسُوا أَعْلَم بالله من رَسُول الله ، ولَيْسُوا أَنْصَح لِعِبَادِ الله مِن رَسُول الله وليسوا أَفْصَح فِي قَوْلهم مِن رَسُول الله ﷺ !!

يقولون : كيف تقولون إن الله ينزل ؟ إذا نزل أَيْنَ العُلو ؟ وإذا نَزَل أَيْن الاستواء عَلَى العرش ؟ إذا نَزَل . فالنُّزول حَركة وانْتِقال !!

إذا نَزَل فالنُّزول حَادِث . والحَوادث لا تَقُوم إِلَّا بحادث !!

فنقول : هذا جَدَلٌ بِالبَاطِل ، وليس بِمَانِع من القول بحقِيقَة النُّزول هل أنتم أعلم بما يَسْتَحِقُّه الله عزَّ وجل من أصحاب الرَّسول ﷺ ، فأَصحاب الرَّسول ﷺ ما قالوا هذه الاحتمالات أَبدًا .

قالوا : سَمِعْنا وآمَنَّا وقَبِلْنا وصَدَّقنا . وأنتم أَيُّها الخالفون المخالفون تَأْتُون الآن وتُجَادِلون بالبَاطل وتقولون : كيف وكيف ؟

نحن نقول يَنْزل ولا نتكلَّم عن استِوَائه عَلَى العَرش هل يَخْلُو مِنْه العرش أو لا يخلو ؟

أَمَّا العُلو : فنقول : يَنزل لكنه عَالٍ عَزَّ وجل على خلقه ، لأَنَّه ليس معنى النزول أن السَّماء تُقِلُّه ، وأن السَّماوات الأخرى تُظِلُّه إذ أنه لا يحيط به شيء من مخلوقاته .

فنقول : هو ينزل حقيقة مع علوه .

أَمَّا الاستواء على العرش : فهو فِعل ليس من صِفات الذَّات ، وليس لنا حق - فيما أُرى - أن نتكلم هل يخلو منه العرش أَوْ لا يخلو كما سكت عن ذلك الصحابة .

وإذا كان علماء أهل السُّنة لهم فى هذا ثلاثة أقوال : قول بأَنَّه يخلو ، وقول بأَنَّه لا يخلو ، وقول بالتَّوقف .

- وشيخ الإسلام - رحمه الله - فى الرِّسالة العرشية[1] يقول : إنَّه لا يخلو مِنه العَرش ، لأَنَّ أَدِلَّة استوائه على العرش مُحْكَمة ، والحديث هذا مُحْكَم ، والله عز وجل لا تُقَاسُ صِفاته بِصِفَات الخَلْق ، فيجب علينا أن نُبْقِى نُصوص الاستواء على إحكامها ، ونصُّ النُّزول على إِحْكَامِه ونأخذها هكذا .

نقول : هو مُسْتَوٍ عَلى عَرْشه نازلٌ إلى السَّماء الدُّنيا والله أَعْلم بكيفية ذلك وعُقُولنا أقصر وأدنى وأحقر من أن تُحيط بالله عزَّ وجلَّ .

- **القول الثَّانى** : التَّوقف : يقولون لا نقول يَخْلُو ولا مَا يَخلو .

- **والثالث** : أنَّه يخلو منه العرش .

وأما العلو : فبالإتفاق أنَّه لم يزل عاليًا .

---

(١) الرسالة العرشية ص (٢١) .

جاء المتأخرون الَّذين عرفوا أن الأرض كروية وأَنَّ الشَّمس تَدُور على الأرض .

قالوا : كيف ينزل فى ثلث اللَّيل ، وثلث اللَّيل إذا انتقل عن المملكة العربية السّعودية ذهب إلى أُوربا وَمَا قَارَبها ؟

فنقول : أنتم الآن قِستُم صِفات الله بصفات المخلوقين .

أنت أومن أولًا بأن الله يَنْزل فى هذا الوقت المُعَيَّن ، وإذا آمنت ليس عليك شيء وراء ذلك . لا تقل كيف وكيف ؟!

فقل : إذا كان ثُلُث اللَّيل فى السُّعودية فالله نازل ، وإذا كان فى أمريكا ثُلُث اللَّيل يكون نُزُول الله أيضًا .

إذًا : موقفنا أن نقول أنا نؤمن بما وَصَل إلينا عن طريق محمد رسول الله ﷺ بأن الله ينزل إلى السَّماء الدُّنيا حين يبقى الثُّلث الآخر من اللَّيل ويقول : مَنْ يَدْعُونى فَأَسْتَجِيبُ له ؟ مَنْ يَسْأَلُنى فأعطيه ؟ مَنْ يَسْتغفرنى فَأَغْفِرَ له !

● **من فوائد الحديث :**

أولًا : إثبات العُلو لله من قوله : **يَنْزل** .

ثانيًا : إثبات الأَفعال الاختيارية التى هى الصِّفات الفِعْلية من قوله : « يَنْزل حين يَبْقَى ثُلُث اللَّيل الآخر » .

ثالثًا : إثبات القَوْل لله مِن قوله : « يقول » .

رابعًا : إثبات الكَرَم لله عز وجل من قوله : « مَنْ يَدْعُونى – مَنْ يَسْأَلُنى – مَنْ يَسْتَغْفرنى ؟ » .

● **وفيه من الناحية المسلكية :**

أَنَّه ينبغى للإنسان أَن يَغْتنم هذا الجزء من اللَّيل فَيَسْأَل الله عَزَّ وجل وَيَدْعُوه ويَسْتَغْفِره مَا دَام الرَّب سبحانه يقول : « مَنْ يَدْعُونى ؟ مَنْ يَسْأَلُنى ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنى ؟ » و« مَنْ » للتَّشويق . فينبغى لنا أَنْ نَسْتَغِلّ هذه الفُرصة ؛ لأَنَّه ليس لك من العمر إلا مَا أَمْضَيْتَهُ فى طاعة الله ؟ وستمرُّ بك الأيام ، فإذا نَزَلَ بك الموت فكأَنَّك وُلِدت تلك السَّاعة وَكُل مَا مَضَىٰ لَيْسَ بِشىء(١)

* * *

(١) وأنشد فى ذلك الحافظ ابن كثير :

تَمُرُّ بِنا الأَيَّام تَتْـرَىٰ ، وَإِنَّمـا نُسَاقُ إلى الآجَال والعَيْنُ تَنْظُـر

فَلا عَائِدٌ ذَاكَ الشَّبَّاب الَّذى مَضَىٰ وَلَا زَائِلٌ هَـذَا الـمَشِيب المُكَـدَّرُ

إثْبَاتُ الفَرَح والضَّحك والعجب لله عزَّ وجل في السُّنَّة المُطَهـرة

١٣٥ – وقوله ﷺ : « للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ أَحَدِكُم بِرَاحِلَتِه ... » الحديث . متفق عليه .

١٣٦ – وقوله ﷺ : « يَضْحَكُ اللهُ إلى رَجُلَيْن يَقْتُل أَحَدُهُما الآخر كِلَاهُما يَدْخُل الجَنَّة » . متفق عليه .

١٣٧ – وقوله ﷺ : « عَجِبَ رَبُّنَا مِن قُنُوطِ عِبَادِه وَقُرب غَيْره يَنْظر إِلَيكم أَزِلِّين قَنِطِين فَيَظلُّ يَضْحَك يَعْلَم أَنَّ فَرَجكم قَرِيب » حَدِيثٌ حَسَن .

الشـــــرح

● **قال المؤلف : وقوله ﷺ : « للهُ أَشَدُّ فَرَحاً بِتَوْبَة عَبْدِهِ مِن أَحَدِكُم بِرَاحِلَتِه » الحديث .. متفق عليه**(١) .

---

(١) البخارى (٦٣٠٩) ومسلم (٢٧٤٧) (٨) من حديث أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « للهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِه مِن أَحَدِكُم سَقَطَ عَلَى بَعِيرِهِ وَقَد أَضَلَّه فِي أَرْضٍ فَلاةٍ » .

وفى رواية لمسلم (٢٧٤٧) (٧) : « للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بتوبة عَبْده حين يتوب إليه من أَحَدِكُم كان على رَاحِلَتِهِ بأرضٍ فَلاةٍ ، فانْفَلَتَتْ منه وعليها طعامه وشرابه فَأَيِسَ مِنها ، فَأَتَى شجرة فاضطجعَ فى ظِلِّها ، وقد أَيِسَ من راحلته ، فبينما هو كذلك إذا هو بها ، قائمةً عنده ، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللَّهُمَّ أنت عَبْدى وأَنَا ربُّك ، أخطأ من شدة الفرح » .

وراجع شرح الحديث فى « مجالس الربانيين شرح رياض الصالحين » لابن عثيمين بتحقيقنا (٧٦/١ : ٧٨) .

« لله » اللَّام هذه لام الابتداء ، الله : مبتدأ ، أَشَدُّ : خبر المبتدأ . فَرَحًا : تمييز .

قال المؤلف : « الحديث » أى أكمل الحديث ، والحديث : أَنَّ هذا الرَّجل كان معه رَاحِلته عليها طَعَامُه وَشَرَابُه فَضَلَّت عَنْه فَذَهَب يطْلُبها فَلَم يَجدها فَأَيِسَ مِن الحياة ثم اضطجع تحت شجرة يَنْتَظر المَوْت ، فإذا بخطام نَاقَتِه مُتَعَلِّقًا بالشَّجرة ولا أَحَد يَسْتَطِيع أن يُقَدِّر هذا الفَرَح إِلَّا مَنْ وَقَع فيه ، فَأَمْسَك بِخُطَام النَّاقة وقال : اللَّهُمَّ أَنت عَبْدى وَأَنَا رَبُّكَ .أَخْطَأَ مِن شِدَّة الفَرَح لم يملك كيف يتصرَّف فى الكلام !!

فالله عزَّ وجلَّ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْده إذا تَابَ إليه من هذا الرَّجل براحلته ، وليس الله عزَّ وجل بمحتاج إلى تَوْبَتنا ، بل نحن مُفْتقرون إليه فى كل أَحْوَالنا ، لكن لِكَرَمِه جَلَّ وَعَلا وَمَحَبَّته للإِحْسَان والفَضل والجود يَفْرح هذا الفَرَح الذى لا نَظِير له بتوبة الإنسان إِذَا تَابَ إليه .

● **فى هذا الحديث** : إِثْبَاتُ الفَرَح لله عزَّ وجلَّ فنقول فى هذا الفَرح أَنَّه فَرَحٌ حقيقى وأَشد فرح ، ولكنه ليس كفرح المخلوقين ، الفرح بالنِّسبة للإنسان هو نَشْوَة وَخِفَّة يجدها الإنسان من نَفْسِه عند حُصُول مَا يَسُرُّه ، ولهذا تشعر بأَنَّك إِذَا فَرِحْتَ بالشَّىء كَأَنَّك تَمْشى على الهواء ، لكن بالنِّسبة لله عزَّ وجل لا نُفسِّر الفرح بمثل ما نَعْرِفُه من أَنْفُسِنا نقول : هو فَـرَحٌ يَلِيقُ به عزَّ وجلَّ مثل بقية الصِّفات ، كما أننا نقول لله ذات ولكن لا تُمَاثِل ذَوَاتِنا فَلَهُ صِفات لا تُماثل صفاتنا ، لأن الكلام عن الصِّفات فرع عن الكلام فى الذَّات ، فنؤمن بأَنَّ الله تعالى لَهُ فَرَحٌ كما أَثْبَتَ ذلك أَعْلَم الخلق بِهِ محمد ﷺ وأَنْصَحُ الخلق للخلق ، وأَفْصَحُ الخلق فيما يَنْطق به عليه الصَّلاة والسَّلام ونحن على خطر إذا قُلْنا المراد بالفَرح الثَّواب ، لأن أهل التَّحريف يقولون الله لا يفرح والمراد بَفرحه إِثَابَتُه التَّائب أو إرادة الثَّواب ؛ لأَنَّهم هم يُثبتون الخلق يعنى أَنَّ الله

تعالى مخلوقًا بائنًا منه ويثبتون الإرَادَة فيقولون فى الفرح إنَّه الثَّواب المخلوق أو إرادة الثَّواب .

ونحن نقول : المراد بالفَرَح الفرح حَقِيقة مثل ما أنَّ المُرَاد بالله عزَّ وجلَّ نَفْسُه حقيقة ، ولكننا لا نُمثل صِفَاتنا بِصفَات الله أبدًا .

● **ويُستَفادُ من هذا الحديث** : مع إثبات الفرح لله عز وجل كمال رَحْمَتُه جَلَّ وَعَلَا وَرَأْفَتُه بِعِبَادِه حيث يُحِبُّ رُجُوع العَاصِى إليه هذه المحبّة العظيمة . هَارِب من الله ثمَّ وقف وَرَجَع إلى الله يَفْرَحُ الله به .

● **ومن النَّاحية المَسْلكيّة** : يُفِيدُنا أن نحرص عَلَىٰ التَّوبة غَاية الحِرْص كلما فعلنا ذنبًا تُبْنا إلى الله قال الله تعالى فى وَصْف المُتَّقين : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً ﴾ [آل عمران : ١٣٥] أَىُّ فاحشة مثل الزِّنا واللِّواط ونكاح ذَوَات المحارم .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَائُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَف إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ [النساء : ٢٢] ، ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ﴾ [الإسراء : ٣٢] وقال لُوط لقومه : ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ ﴾ [الأعراف : ٨٠] .

إذًا : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللهَ ﴾ [آل عمران : ١٣٥] ذكروا الله تعالى فى نفوسهم . ذكروا عظمته . وذكروا عِقَابه وَذكرُوا ثوَابه للتَّائبين ﴿ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران : ١٣٥] فعلوا لكنهم ذكروا الله تعالى فى نُفُوسهم واسْتَغفروا لِذُنُوبهم فيغفر الله لَهُم والدَّليل : ﴿ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ ﴾ [آل عمران : ١٣٥] فأنت إذا علمت أن الله يَفْرَح بتوبتك هذا الفَرَح الذى لا نظير له لا شك أَنَّك سوف تَحْرص غاية

الحرص على التَّوبة ، وللتَّوبة شروط خمسة[1] :

الأوَّل : الإخلاص لله عزَّ وجل بأن لا يحملك على التَّوبة مُرَاءَات النَّاس أو نَيْل الجاه عندهم ، أَوْ مَا أَشْبه ذلك من مَقَاصِد الدُّنيا .

الثَّانى : النَّدم عَلَىٰ المَعْصية .

الثَّالث : الإقلاع عَنْها ومن الإقْلاع إذا كانت التَّوبة فى حَقّ من حُقُوق الآدَمِيِّين أَن ترد الحق إلى صَاحبه .

الرَّابع : العَزْم على أن لا يَعُود فى المُسْتَقبل .

الخامس : أن تكون التَّوْبة فى وَقْت القَبُول ، ويَنْقَطِع قَبُول التَّوبة بالنِّسبة لعموم الناس بطلوع الشَّمس من مغربها وبالنِّسبة لكل واحد بحضور أَجَله . قال الله تعالى : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ الْآنَ ﴾ [النساء : ١٨] .

وصحَّ عن النبى ﷺ أَنَّ زمن التَّوبة ينقطع إذا طلعت الشَّمس من مغربها والنَّاس يؤمنون حينئذ ولكن ﴿ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِى إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾ [الأنعام : ١٥٨][2] .

هذه خمسة شروط إذا تمت صحَّت التوبة ولكن هل يُشْتَرط لِصحة

(١) راجع الكلام على هذه الشروط بالتفصيل فى « مجالس الربانيين شرح رياض الصالحين » لابن عثيمين بتحقيقنا (٦٤/١ : ٦٩) .

(٢) كما فى حديث معاوية رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : لا تَنْقطعُ الهِجْرَة حَتَّى تَنْقَطِع التَّوبة ، ولا تَنْقَطعُ التَّوبة حَتَّى تَطْلُع الشَّمس من مَغْربها » رواه أحمد (٩٩/٤) وأبو داود (٢٤٧٩) والنسائى فى الكبرى كما فى تحفة الأشراف (٤٥٤/٨) والدارمى (٢٣٩/٢ ، ٢٤٠) وصحَّحه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود (٤٧٠/٢) .

التَّوبة أن يتوب من جميع الذُّنوب ؟

فيه خلاف ، ولكن الصَّحيح أنَّه ليس بشرط وأنَّها تصح التَّوبة من ذَنْب مع الإصرار على غيره[1] لكن هذا التائب لا يَصْدُق عليه وصف التَّائبين المطلق فيقال : تَابَ تَوْبَـة مُقَيَّدة لا مُطْلَقة فلو كان أحد يَشْرب الخَمر ويأكل الرِّبا ، فتَابَ من شرِبَ الخمر صحَّت توبته من الخمر ، وبقى إثْمُه فى أكل الرِّبا ، ولا ينال منزلة التَّائبين لأنَّه إلى الآن مصِرٌّ !!

رَجل تَمَّت الشُّروط فى حقِّه وعاد إلى الذَّنب مرة أخرى فلا تنتقض تَوْبَتُه الأولى ؛ لأنَّه عَزَم على أن لا يَعُود ولكن سَوَّلَت له نَفْسُه فَعَاد .

إنما يجب عليه أن يَتُوب مرّة ثانية ، وهكذا كلما أَذْنَب يَتُوب وكلَّما أَذْنَب يَتُوب وفَضْلُ الله واسع .

* * *

● **قال المؤلف : وقوله ﷺ : « يَضْحَكُ الله إلى رَجُلَيْن يَقْتُل أَحَدُهُما الآخر كِلاهُما يَدْخُل الجَنَّة »[2] .**

وفى بعض النسخ : « يَدْخُلَان » ؛ لأَنَّ كلا يجوز فى خبرهما سواء كان فعلًا أو إسمًا مُراعاة اللَّفظ ومُراعاة المعنى ، وقد اجتمعا فى قول الشَّاعر يصف فرسين :

كِلاهُمَا حِين جَدّ الجَرْى بَيْنَهُما ... قَدْ أَقْلَعَا وَكلا أَنْفَيْهِما رَابِى

---

(١) كما قال النَّووى فى رياض الصالحين فى باب التوبة ص (٤٢) : « وَيَجبُ أَنْ يَتُوب من جميع الذُّنوب ، فإنْ تَابَ مِن بَعْضِها صَحَّت تَوْبَتُه عِنْد أَهْل الحَقِّ مِن ذَلِك الذَّنب ، وَبَقِى عَلَيْه البَاق » .

(٢) رواه البخارى (٢٨٢٦) ومسلم (١٨٩٠) (١٢٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

الحديث يُخبر النَّبى عليه الصلاة والسلام أنَّ الله يَضْحَك إلى رَجُلَيْن عِند مُلَاقَاتِهما يَقْتُل أحدهما الآخر كِلَاهُما يَدْخُلان الجنَّة وأَحَدُهما لم يقتل الآخر إلَّا لِشِدّة العَدَاوة بينهما ثم يَدْخُلان الجنَّة بعد ذلك فَتَزُول تِلك العَدَاوة ، لأن أحدهما كان مُسْلِمًا والآخر كان كَافِرًا فقتله الكَافِر قَتَل هذا المُسْلم شَهيدًا فيدخل الجنَّة ثم منَّ الله على هذا الكافر فأَسْلَم ثمَّ قُتِلَ شَهِيدًا أو مات بدون قَتْل فإنَّه يدخل الجنة فيكون هذا القَاتِل والمقتول كلاهما يدخل الجنة فيضحك الله إليهما .

● **ففى هذا** : إثبات الضَّحك لله عزَّ وجل ، وهو ضَحِك حقيقى لكنه لا يُمَاثل ضَحك المخلوقين ضَحِك يَلِيق بجلاله وَعظَمَته ولا يمكن أَن نُمَثِّله ؛ لأننا لا نستطيع أن نقول إن لله فمًا أو أَسْنَانًا أَوْ مَا أَشْبه ذلك ، ولا يجوز لنا أن نقول ذلك لكن نُثْبت الضَّحك لله ، ولكنه ضَحِك يليق به سبحانه وتعالىٰ .

فإذا قال قائل : يَلْزَم من إثبات الضَّحك أن يكون الله مُمَاثلًا للمخلوق ؟

فالجواب : لا يلزم أن يكون مماثلًا للمخلوق ؛ لأن الذى قال « يَضْحَكُ » هو الذى أنزل عليه قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ ﴾ [الشورى : ١١] .

ومن جهة أخرى : فالنَّبى عليه الصَّلاة والسَّلام لا يتكلم فى مثل هذا إلا عن وَحْى ، لأَنَّه من أُمُور الغيب ليس من الأُمور الاجتهادية التى قد يجتهد فيها الرَّسول عليه الصلاة والسلام ثُمَّ يُقِرُّه الله على ذلك ، أو لا يُقِرُّه ، ولكنه من الأُمور الغَيْبية التى يَتَلَقاها الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام عن طريق الوحى .

لو قال قائل : المراد بالضَّحك الرِّضى ؛ لأَنَّ الإنسان إذا رَضِى عن الشىء سُرَّ به وضحك ، والمراد بالرِّضى الثَّواب ، أو إرادة الثَّواب كما قال ذلك الأشاعرة ؟

فالجواب : أن نقول : هذا تحريف للكَلِم عن مَوَاضِعه فما الَّذى أَدْرَاكُم أن المراد بالرِّضى الثَّواب ؟

فأنتم الآن قلتم على الله مَا لَا تَعْلَمُون من وجهين :

الوجه الأول : صرَّفْتُم النَّص عن ظَاهِره بلا علم .

الثَّانى : أَثْبَتُّم له مَعْنًى خلاف الظَّاهر بلا علم .

الثَّالث : أن نقول لهم الإرادة إِذَا قُلْتم أَنَّها ثابتة لله عزَّ وجلَّ ، فإنَّه تنتقض قاعدتكم ، لأَنَّ للإنسان إرادة كما قال تعالى : ﴿ مِنكُمْ مَن يُرِيدُ الدُّنْيا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَة ﴾ [آل عمران : ١٥٢] . فللإنسان إِرَادة بل للجِدَارِ كما قال تعالى : ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنْقَضَّ ﴾ [الكهف : ٧٧] .

فأنتم إِمَّا أَنْ تَنْفُوا الإرَادة عن الله عزَّ وجلَّ كما نفيتم بقيّة الصِّفات وإِمَّا أن تُثْبِتُوا لله عزَّ وجل ما أثبته لِنَفْسِه وإن كان للمخلوق نَظِيره فى الاسم لا فى الحقيقة .

فنقول : هذا الضَّحك حقيقة لكنه لا يُمَاثل ضَحِك المخلوقين .

● **والفائدة المَسْلكية من هذا الحديث :**

هو أَنَّنا إذا عَلِمنا أن الله عزَّ وجل يَضْحك ، فإنَّنا نرجو منه كل خير ولهذا قال رجل للنَّبى ﷺ يا رَسُول الله : أَوَ يَضْحَكُ رَبُّنا ؟ قال : « نَعم ! قال : لَن نعْدم مِن رَبٍّ يضحك خَيْرًا »(١) .

(١) **إسْنَادُه ضَعِيف** : وهو جزء من الحديث الآتى تخريجه عن أبى رزين بلفظ « ضحك=

إذًا علمنا ذلك أملنا به عزَّ وجل كل خير ؛ لأَنَّ هناك فرقًا بين إنسان عبوس لا يَكَاد يرَىٰ ضاحكًا وبين إنسان يَضْحك وقد كان النَّبى ﷺ دائم البشر كثير التَّبسم عليه الصَّلاة والسلام .

* * *

● **قال المؤلف : وقوله : « عَجِبَ رَبُّنَا مِن قُنُوط عِبَادِه وَقُرْبِ غِيَرِهِ يَنْظُر إليكم أَزِلِين قَنِطِين فَيَظَلّ يَضْحَك يَعْلَم أَنَّ فَرَجَكُم قَرِيب » حديث حسن**[1] .

العجب : هو استغراب الشَّىء ويكون ذلك لسببين :

السَّبب الأول : خَفَاء الأَسْباب على هذا المُسْتغرب للشىء المُتَعَجّب منه بحيث يأتيه بغتة بدون توقع .

والثَّانى : أن يكون السَّبب فيه خُروج هذا الشَّىء عن نظائره ، وعمَّا ينبغى أن يكون عليه بدون قُصُور من المتعجب بحيث يعمل عملًا مُسْتَغْرَبًا لا ينبغى أن يقع من مثله .

والعجب الثَّابت لله هو الثَّانى لأنه ليس عن نَقْص من المتعجب ولكن بالنَّظر إلى حال المتعجب منه . قال : « عَجِبَ رَبُّنَا مِن قُنُوط عِبَادِه » .

= ربنا من قنوط عباده وقرب غيره قال أبو رزين يا رسول الله ويضحك ربنا ؟ قال : نعم لن نعدم من رب يضحك خيرًا » .

(١) **إسْنَادُه ضَعِيف** : رواه أحمد (١١/٤) وابن ماجة (١٨١) وابن أبى عاصم فى السنة (٥٥٤) والطيالسى (١٠٩٢) من حديث أبى رزين وفى إسناده ضعف كما قال البوصيرى فى مصباح الزجاجة (٦٨/١) وضعفه الألبانى فى تخريج السنة لابن أبى عاصم (٢٤٤/١) .

وقد وردت صفة العجب فى حديث الضيف عند البخارى (٤٨٨٩) من حديث أبى هريرة مرفوعًا : « لقد عجب الله عز وجل - أو ضحك - من فلانة وفلانة فأنزل الله عز وجل ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » . =

القنوط : أَشَدُّ اليَأْس . يعجب الرب عز وجل من دخول اليَأْس الشَّديد على قلوبنا. قال: « وقُرْبِ غِيَرِه » الواو بمعنى « مَعَ » يَعْنى مَعَ قُرْب غيره ، والغِيَر اسم جمع غِيَره كَطِير اسم جَمْع طيره وهى اسم بمعنى التَّغْيير ، وعلى هذا فيكون المعنى : « وقرب تَغْييره » فَيَعْجب الرَّب عزَّ وجل كيف نَقْنَطَ وهو سبحانه وتعالى قَرِيب التَّغْيير ، يغير الحال إلى حَالٍ أُخْرَىٰ بكلمة واحدة وهى « كُن » فيكون يقول : « يَنظر إليكم أَزِلين » يَنْظُر الله إلينا بعينه .

« أَزِلين قَنِطِين » الأَزِلُ : الواقع فى الشِّدة . قَنِطين : جمع قانط والقانِط اليائس من الفَرَج وَزَوال الشِّدة .

فذكر النَّبى ﷺ حال الإنسان وحَال قَلْبه . حاله أَنَّه وَاقِع فى شدة ، وقلبه قانط يائس مستبعد للفرج .

« فَيَظَلّ يَضْحك يَعْلَم أَنَّ فَرجكُم قَرِيب » : يظل يَضحك من هذه الحال العَجيبة الغريبة كيف تَقْنط من رحمة أَرْحم الرَّاحمين الذى يقول للشىء كن فيكون ؟

قريب التَّغيير ، فيظل يضحك يعلم أن فرجكم قريب فرجكم من الأَزَل .

● **فى هذا الحديث عِدَّة صِفَات** : أولًا : العجب لقوله : « عَجِبَ رَبُّنا من قُنُوط عباده » وقد دلَّ على هذه الصفة القرآن الكريم قال الله تعالى : ﴿ بَلْ عَجِبْتُ وَيَسْخَرُونَ ﴾ [الصافات : ١٢] على قراءة ضم التَّاء[1] .

= (*) غِيَره : إسم من قولك غيرت الشىء فتغير والمراد تغيير الحال من شدة إلى رخاء . النهاية لابن الأثير (٤٠٠/٣) .

أزلين : جمع أزل ، والأزْل : الشدة والضيق . النهاية (٤٦/١) .

قنطين : من القنوط وهو أشد اليأس من الشىء . النهاية (١١٣/٤) .

(١) يشير الشيخ حفظه الله إلى قراءة حمزة والكسائى وخلف بضم التاء . راجع المبسوط=

- وفيه أيضًا : بيان قُدْرة الله عزَّ وجل لقوله : « وقُرْب غِيَره » وأنَّه عَزَّ وجل تام القدرة إذا أَرَادَ غير الحال من حال إلى ضدها .

- ومن الصِّفات الثَّابتة فى الحديث كذلك : النَّظَر لقوله : « يَنْظُر إليكم » ومنها الضَّحِك لقوله : « فَيَظَلُّ يَضْحَك » وكذلك العلم « يَعْلَم أَنَّ فَرَجَكُم قَرِيب » والرَّحمة ، لأَنَّ الفَرَج مِن الله دَلِيلٌ على رحمة الله بِعِبادِه . وكل هذه الصِّفات التى دلَّ عليها الحديث يجب علينا أن نُثْبِتَها لله عزَّ وجلَّ حقًّا على حقيقتها ولا نَتَأَوّل فيها .

● **والفائدة المَسْلكية فى هذا** : أَنَّ الإنسان إذا علم ذلك من الله سبحانه وتعالى حذر من هذا الأمر وهو القنوط من رحمة الله ، ولهذا كان القنوط من رحمة الله من الكَبَائِر قال الله تعالى : ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّآلُّونَ ﴾ [الحجر : ٥٦] .

فالقُنُوط من رحمة الله واستبعاد الرَّحمة من كبائر الذُّنوب ، والواجب على الإنسان أَنْ يُحْسِنَ الظَّن بِرَبِّه إِنْ دَعَاهُ أَحْسَنَ الظَّن به بأَنَّه سيجيبه وإن تَعَبَّد لَهُ بمقتضى شرعه فليحسن الظَّن بأن الله سَوْفَ يقبل منه ، وإن وقعت به شدة فليُحْسِنِ الظَّن بأَنَّ الله سَوْف يُزيلها لقول النبى ﷺ(١) : « **وَٱعْلَم أَنَّ**

= فى القراءات العشر لابن مهران الأصبهانى ص (٣٧٥) ، والسبعة فى القراءات لابن مجاهد ص (٥٤٧) .

(١) **حَدِيثٌ صَحِيحٌ** : جزء من وصية النبى ﷺ لابن عمه عبدالله بن عباس التى أولها : « احفظ الله يحفظك » ... الحديث .

رواه أحمد (١/٢٩٣) والترمذى (٢٥١٦) ، وأبو يعلى (٢٥٥٦) ، وابن السنى فى عمل اليوم والليلة (٤٢٥) والبيهقى فى شعب الإيمان (١/١٤٨ ، ١٤٩) من طريق حنش الصنعانى عن ابن عباس وإسناده حسن لابأس به كما قال الحافظ ابن رجب فى نور الاقتباس ص (٣١) وهو حديث صحيح بطرقه وراجع شرحه بما لا مزيد تحته فى « نور الإقتباس فى مشكاة وصية النبى ﷺ لابن عباس » للحافظ ابن رجب .

النَّصْرَ مَعَ الصَّبْر وَأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْب وَأَنَّ مَعَ العُسْر يُسْرَاً » بل قد قال **الله تعالى** : ﴿ **فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا** ﴾ [**الشرح : ٥ ، ٦**] وَلَنْ يَغْلِب عُسْرٌ يُسْرَيْن كما يُرْوَى عن ابن عباس رضى الله عنه .

* * *

إثبات الرِّجل والقَدَم لله سبحانه في
في السُّنة المطهرة

١٣٨ – وقوله ﷺ : « لا تَزَالُ جَهَنَّم يُلْقَى فِيها وهى تَقُول : هَل مِن مَزِيد ، حَتَّى يَضَع رَبُّ العِزة فيها رجله – وفى رواية : عليها قدمه – فينزوى بعضها إلى بعض فتقول : قط . قط » متفق عليه(١) .

الشـــرح

● **قوله : « لا تَزَالُ جَهَنَّم يُلْقَىٰ فِيهَا »** هذا يوم القيامة يعنى يُلقى فيها النَّاس وَالحِجَارة ؛ لأَنَّ الله تعالى يقول : ﴿ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ﴾ [البقرة : ٢٤] .

وقد يُقَال : يُلْقَىٰ فِيها النَّاس قَطٌّ ، وأَنَّ الحجارة لم تَزَل مَوْجُودة فيها والعِلْمُ عِند الله .

« يُلْقَىٰ فِيها » : فى هذا دَلِيلٌ عَلى أَنَّ أَهْلَهَا – والعياذ بالله – يُلْقَون فيها إلقاءً لا يدخلون مُكَرَّمين بل يدَعّون إلى نار جهنم دعّا ﴿ كُلَّمَا أُلْقِىَ فِيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ [الملك : ٨] .

● **قوله : « وَهِى تَقُول هَلْ مِن مَزِيد ؟ »** هَل للطَّلب : يعنى زِيدُوا ، وأَبْعَدَ من قال : أن الاستفهام هنا للنَّفى ، والمعنى على زَعْمه لا مَزِيد على ما فىّ والدَّليل على بُطْلان هذا التَّأْويل .

(١) رواه البخارى (٧٣٨٤) ومسلم (٢٨٤٨) (٣٧) ، (٣٨) من حديث أنس رضى الله عنه .

● **قوله** : « **حَتَّى يَضَعَ رَبُّ العِزّة فِيها رِجْلُه . وفى رواية : عَلَيْهَا قَدَمه** » ، لأن هذا يَدُل على أنها تطلب زيادة .

« هَلْ مِنْ مَزِيد ؟ » فكأنها تَطلب بِشَوق إلى من يلقى فيها زيادة على ما فيها .

قوله : « حتَّى يَضَع رَبُّ العِزَّة » أَى بربّ العزة لأَنَّ المقام مقام عزّة وغلبة وقهر .

وهنا « رَبّ » بمعنى صاحب وليست بمعنى خالق ، لأنَّ العزة صفة من صفات الله ، وصفات الله تعالى غير مخلوقة .

وقوله : « فِيها رِجْلَهُ – وفى رواية : عَلَيْها قدمه » و« فى » و« عَلَىٰ » معناهما واحد .

والظَّاهر أَنَّ « فِى » بِمَعْنَىٰ « عَلَىٰ » كقوله : ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ [طه : ٧١] أى عليها .

أَمَّا الرجل والقَدَم فَمعناهُمَا وَاحِد ، وسُمِّيت رِجل الإِنسان قَدمًا لأَنَّها تتقدَّم فى المَشْى فإنَّ الإِنسان لا يستطيع يعمل برجله إِلَّا إِذَا قدّمها .

● **قال** : « **فينزوى بعضها إلى بعض** » فَيَنْزَوى بمعنى ينضم بعضها إلى بعض من عظمة قَدَم البَارى عز وجل .

● **قال** : « **وتقول قط . قط** » بمعنى حَسْبِى حَسْبِى يعنى لا أُرِيد أَحدًا .

● **فى هذا الحديث من الصِّفات** :

أولًا : إثبات القَوْل من الجماد ، لقوله : « وَهِى تَقُول » وكذلك « فَتَقُول : قَطّ . قَطّ » .

ثانيًا : التَّحذير من النَّار لقوله : « لا تَزَالُ جَهَنَّم يُلْقَىٰ فِيها وَهِى تَقُول هَلْ مِن مَزِيد ؟ » .

ثالثًا : إثبات فضل الله عزَّ وجل فإنَّ الله تعالى تكفّل للنَّار بأن يملأها كما قال : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ [هود : ١١٩] . فإذا دَخَلَها أهلها وبقى فيها فضل ، وقالت : « هَلْ مِن مَزِيد ؟ » وَضَعَ الله عَلَيْها رِجْلَهُ فانزوى بَعْضها إلى بعض وامتلأت بهذا الإنْزِواء .

وهذا من فَضْل الله عزَّ وجلَّ وإلا فإن الله قادر على أن يخلق أقوامًا ويكمل ملئها بها .

ولكنه عز وجل لا يعذب أحدًا بغير ذنب بخلاف الجنة فيبقى فيها فضل عمن دخلها من أهل الدنيا فيخلق الله أقوامًا يوم القيامة ويدخلهم الجنة بفضله ورحمته . أما فى النار فما يخلق أقوامًا يعذبهم أبدًا .

إذًا : نحن نؤمن بأن لله تعالى رجلًا وقدمًا حقيقية لا تماثل أرجل المخلوقين ويُسَمِّى أهل السُّنة مثل هذه الصِّفة : الصِّفات الذَّاتية الخبرية ، لأنها لم تعلم إلا بالخبر ، ولأن مُسَمَّاها أَبْعَاض لنا وأجزاء لكن لا نقول بالنِّسبة لله إنها أبعاض وأجزاء لأن هذا ممتنع على الله عز وجل .

وخَالَفَ الأَشَاعر وأَهْل التَّحريف أهل السُّنة فقالوا : « يَضَعَ عَلَيْهَا رِجْله » يعنى طائفة من عِبَادِه مُسْتَحِقِّين للدُّخول .

والرِّجل تأتى بمعنى الطَّائفة كما فى حديث أيوب عليه الصلاة والسلام[1] أرسل الله إليه رجل جراد . يعنى طائفة من جراد ، وهذا غير

---

(١) رواه البخارى (٣٣٩١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « بَيْنا أَيُّوب يغتسل عريانًا خرَّ عليه رِجْل جَرَاد من ذَهَب ، فَجَعل أَيُّوب يَحْثى فى ثوبه=

صحيح ؛ لأن اللَّفظ « عليها » يمنع ذلك .

وأيضًا : لا يمكن أن يضِيف الله عزَّ وجلَّ أهل النَّار إلى نَفْسه ، لأَنَّ إضافة الشَّىء إلى الله تَكْرِيم وتَشْرِيف .

قالوا فى القدم : قدم بمعنى مقدّم ، أى يضع الله تعالىٰ عليها مقدمه أى من يُقَدِّمهم إلى النَّار .

فنقول : أهل النار لا يقدمهم البَارى عزَّ وجل ولكنهم : ﴿ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ [الطور : ١٣] ويُلْقَون فيها إلقاء ، فهؤلاء المحرفون فرُّوا من شيء وَوَقَعُوا فى شَرٍّ منه ، فَرُّوا من تَنْزِيه الله عن القَدَم والرِّجل لكنهم وقعوا فى السَّفه ، ومجانبة الحكمة فى أَفْعَال الله عزَّ وجل .

والحَاصِل : أَنَّه يجب علينا أن نُؤمن بأنَّ لله تعالىٰ قدمًا وإن شئنا قلنا رِجْلًا عَلَىٰ سبيل الحقيقة مع عدم المماثلة ولا نكيِّف الرجل لأن النبى ﷺ أخبرنا بأن لله تعالى رِجْلًا أو قدمًا ، ولم يخبرنا كيف هذه الرِّجل أَو القدم ، وقد قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْىَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُواْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُواْ عَلَىٰ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٣] .

● **والفائدة المسلكية من هذا الحديث :**

هو الحذر الشَّديد من عَمَل أهل النَّار ، خَشْية أن يُلقى الإنسان فيها كما يُلْقَىٰ غيره .

* * *

=فَنَادَاهُ رَبُّه عز وجل : يا أَيُّوب أَلم أَكُن أَغْنَيْتُك عَمَّا تَرَى ؟ قال : بلى يَارب ، ولكن لا غنى لِى عَن بَرَكَتك » .

إثبات النِّداء والصَّوت والكلام لله تعالىٰ
فى السُّنَّة المطهرة

١٣٩ – وقوله : « يَقُول آللّٰه تعالىٰ : يَا آدَم ! فَيَقُول لَبَّيكَ وَسَعْدَيْكَ بِصَوْتٍ : إنَّ الله يَأْمُرُكَ أَن تُخْرِجَ مِن ذُرِّيتِكَ بَعْثًا إلى النَّار » متفق عليه .

١٤٠ – وقوله : « مَا مِنْكُم مِن أَحَدٍ إلَّا سَيُكَلِّمُه رَبُّه ، وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَان » .

الشـــرح

● **قال المؤلف : وقوله : « يَقُولُ الله تعالىٰ : يَا آدَم ! فَيَقُول لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ بِصَوْتٍ : إنَّ الله يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِن ذُرِّيتِكَ بَعْثًا إلى النَّار » متفق عليه**(١) .

هذا الحديث حدَّث به النَّبى عليه الصَّلاة والسَّلام قال : إنَّ الله تعالىٰ يقول يا آدم وهذا يوم القيامة فيُجيب آدم : « لَبَّيك وسَعْدَيك » لَبَّيك بمعنى إجابة وهو مُثَنّى لَفظًا ومَعْنَاهُ الجمع ، ولهذا يُعْرَب على أَنَّه مُلْحق بالمثنى ، لأن معنى « لَبَّيك » أى إجابة بعد إجابة .

« وسَعْدَيْكَ » يعنى إسعادًا بعد إسعاد فأنا أُلَبِّى قَوْلك وأَسْأَلُك أن تُسْعِدنى وتُعيننى .

(١) البخارى (٦٥٢٩) ، (٦٥٣٠) ومسلم (٢٢٢) (٣٧٩) . من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

قال : « فينادى بِصَوْتٍ » الفاعل الله عزَّ وجل ، وقوله : « بِصَوْتٍ » هذا من باب التأكيد لأن النِّداء لا يكون إلَّا بصوت مُرتفع فهو كقوله تعالى : ﴿ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ [الأنعام : ٣٨] .

فالطَّائر الذى يطير بنفسه إنما يطير بجناحيه . وهذا من باب التَّأكيد .

وقوله : « إنَّ الله يَأْمُرك أَن تُخْرِج من ذُرِّيتك بَعْثًا إلى النَّار » و لم يقل : إنِّى آمرك ، وهذا من باب الكبرياء والعَظَمة حيث كَنَّى عن نَفْسه تعالى بكنية الغائب فقال : « إنَّ الله يَأْمُرك » كما يقول الملك لجنُوده إنَّ الملك يأمركم بِكَذَا وكَذَا تَفَاخُرًا وتَعَاظُمًا والله سبحانه هو المتكبر وهو العظيم .

وجاء فى القرآن مثل هذا : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ [النساء : ٥٨] ولم يقل : إنى آمركم .

وقوله : « أَنْ تُخْرِج مِن ذُرِّيتِكَ بَعْثًا إلى النَّار » أى مَبْعُوثًا ، والحديث الآخر قال :« يَا رَب وَما بَعْثُ النَّار ؟ قال : مِن كُلِّ أَلْفٍ تِسعمائة وتِسْعة وتِسْعون »[1] بنو آدم منهم تسعمائة وتسعة وتسعون بالألف كلهم من أهل النار ، وواحد من أهل الجنَّة فعظم ذلك على المسلمين . قالوا : يا رسول الله : أيُّنا ذلك الواحد ؟ فقال النَّبى عليه الصلاة والسلام لهم : « أبشروا فإنكم فى أُمَّتَيْن مَا كَانَتا فى شىء الأكثر يَأْجوج ومَأْجوج منكم واحد والباقى مِن يَأْجُوج ومَأْجوج » فكبَّر الصَّحابة رضى الله عنهم وفرحوا بهذا .

الشَّاهد من هذا الحديث قوله : « يُنَادِى بِصَوْتٍ » حيث أن فيه إِثْبات القول والنداء لله عزَّ وجلَّ وأنَّه بصوتٍ ، وقد سبق لنا ذلك فى الآيات .

---

(١) رواه البخارى (٦٥٣٩) ، ومسلم (١٠١٦) (٦٧) من حديث عدى بن حاتم رضى الله عنه .

● **قال المؤلف : وقوله : « مَا مِنْكُم مِن أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُه رَبُّه وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَان »[١] .**

« مَا » نافية « مِن أَحَدٍ » مبتدأ دخلت عليه من الزَّائدة للتَّوكيد ، يعنى مَا مِنكم أَحَد إلا سيكلمه ربه . يعنى هذه حاله . سَيُكَلِّمه الله عز وجل ليس بَيْنَهُ وبَيْنه تُرجمان ، وذَلك يوم القيامة ، والتُّرجمان هو الذى يكون واسطَة بين مُتَكَلمين مختلفين فى اللُّغة ينقل إلى أحدهما كلام الآخر باللغة التى يفهمها ، ويُشْتَرط فى المترجم أَرْبَعة شُروط : الأَمَانَة ، وأَن يَكُون عَالمًا باللُّغة التى يترجم منها ، وباللُّغة التى يترجم إليها ، وأن يكون عالمًا بالموضوع ذَا خِبرة .

● **الفوائد المسلكية :**

– فى الحديث الأول : « يَقُول الله يَا آدَم » فيها بيان أَنَّ الإنسان إِذَا عَلِمَ بذلك فإنه يَحذر ويخاف أن يكون من التّسعمائة والتِّسعة والتِّسعين .

– وفى الحديث الثَّانى : يخاف الإنسان من ذلك الكلام الذى يجرى بينه وبَيْن رَبّه عزَّ وجل أن يفتضح بين يدى الله إذا كلَّمه تعالى بذنوبه فيقلع عن الذُّنوب ويخاف من الله عَزَّ وجلَّ .

* * *

---

(١) تقدم تخريجه ص (٢٣٥) .

إثبات علو الله على خلقه واستوائه على عرشة في السُّنة المطهرة

١٤١ – وقوله فى رُقْيَة المَرِيض : « رَبّنا الله الَّذِى فى السَّمَاء تَقَدَّس اسْمُكَ أَمْرُكَ فى السَّمَاء والأَرْض كما رَحْمَتُك فِى السَّمَاء اجْعَل رَحْمتك فى الأَرْض اغْفِر لَنَا حَوْبَنَا وَخطَايَانَا أَنت رَبُّ الطَّيِّبين أَنْزِل رَحْمَةً من رَحْمَتِكَ وَشِفَاءً مِن شِفَائِكَ عَلَى هَذَا الوَجَع . فَيَبْرأَ » حَدِيثٌ حَسَن رواه أبو داود وغيره .

١٤٢ – وقوله : « أَلَا تَأْمَنُونِى وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِى السَّمَاء » حَدِيثٌ صَحِيحٌ .

١٤٣ – وقوله : والعَرْش فَوْق ذَلك وَالله فَوْقَ العَرْش وَهُوَ يَعْلَم مَا أَنْتُم عَلَيْه » حَدِيث حَسَن رواه أبو داود وغيره .

١٤٤ – وقوله للجارية : « أَيْنَ الله ؟ قالت : فى السَّمَاء . قال : مَنْ أَنَا ؟ قالت : أَنْتَ رَسُولُ الله . قَال : اعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمنة » رواه مسلم .

الشـــرح

● **قال المؤلف : « وَقَوله فى رُقْية المَرِيض : رَبّنا الله الَّذى فى السَّماء تَقدَّس اسْمُك أَمْرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْض كَمَا رَحْمَتُك فِي السَّماء . اجْعَل رَحْمَتُك فِي الأَرْض اغْفِر لَنَا حَوْبَنا وَخطَايَانا أَنت ربّ الطَّيِّبين أَنْزِل رَحْمَةَ**

مِن رَحْمَتِك وَشِفَاءً مِن شِفَائِكَ عَلَى هَذَا الوَجَع . فيبرأ » حَدِيثٌ حَسَنٌ رواه أبو داود وغيره[1] .

قوله : « فِي رُقْيَة المَرِيض » من باب إضافة المَصْدَر إلى المفعول . يعنى فى الرُّقية إذا قرأ عَلَى المريض .

يقول : « رَبّنا الله الَّذِى فى السَّمَاء تَقَدَّس اسْمُكَ » أى طهُر ، والاسم هنا مفرد لكنه مُضَاف فيشمل كل الأسماء ، أى تقدَّسَت أَسْمَاؤُك من كُلِّ نَقْصٍ .

« أَمْرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْض » أَمْرُ الله نَافذ فى السَّماء والأرض كما قال تعالى : ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ [السجدة : ٥] وقال : ﴿ أَلَا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

وقوله : « كَمَا رَحْمَتُكَ فى السَّماء اجْعَل رَحْمَتُك فى الأَرْض » الكاف هنا للتَّعليل والمراد بها التَّوسل . توسل إلى الله تعالى بجعل رحمته فى السَّماء أن يجعل منها فى الأرض فإن قلت : أَلَيْسَ رحمة الله فى الأَرْض أيضًا ؟

---

(١) **حَدِيثٌ ضَعِيف** : رواه أبو داود (٣٨٩٢) والنسائى فى عمل اليوم والليلة (١٠٣٧) والحاكم (٣٤٤/١) والبيهقى فى الأسماء والصفات ص (٤٢٣) والدارمى فى الرد على الجهمية (٧٠) وابن قدامة فى العلو (١٨) من حديث أبى الدرداء : وإسناده ضعيف جدًا فيه زياد بن محمد الأنصارى متروك كما فى التقريب ، وذكر الذهبى فى الميزان (٩٨/٢) أنه انفرد بهذا الحديث وعقب على تصحيح الحاكم لهذا الحديث بقوله : « زيادة قال فيه البخارى وغيره : « منكر الحديث » وقال فى العلو ص (٢٧) : « زيادة لين الحديث » .

وله اسناد آخر رواه أحمد (٢٠/٦ ، ٢١) من طريق أبى بكر بن أبى مريم عن الأشياخ عن فضالة بن عبيد الأنصارى قال علمنى رسول الله ﷺ رقيه وأمرنى أن أرقى بها ... فذكره . وإسناده ضعيف ففيه جهالة وضعف ؛ أما الجهالة ففى قوله « عن الأشياخ » ، وأما الضعف فأبوبكر بن أبى مريم ضعيف مختلط .

قلنا : هو يقرأ على المريض ، والمَريض يَحْتَاجُ إلى رَحْمَة خَاصَّة يَزُول بها مرضه .

وقوله : « اغْفِر لَنَا حَوْبَنا وخَطَايَانَا » الغفر : سَتْرُ الذَّنب والتَّجاوز عنه ، والحوب : كبائر الإثم ، والخَطَايا : صَغَائِره . هذا إذا جمع بينهما أما إذا افترقا فهما بمعنى واحد يعنى : اغفر لنا كَبَائِر الإثم وَصَغَائِره ؛ لأن فى المغفرة زوال المكروب وحُصُول المَطْلوب ، ولأن الذُّنوب قد تحول بين الإنسان وبين تَوْفِيقه فلا يوفق ولا يجاب دعاؤه .

قال : « أَنْتَ رَبّ الطَّيِّبين » هذه رُبُوبية خَاصَّة ، وأَمَّا الرُّبوبية العامَّة فهو ربّ كل شىء ، والرُّبوبية قد تكون خاصَّة وعامَّة ، واستمع إلى قول السَّحرة الذين آمنوا : ﴿ قَالُواْ آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ [الأعراف : ١٢١،١٢٢] .

واستمع إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَة الَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَىْءٍ ﴾ [النمل : ٩١] . فربُّ هذه البَلْدة خاص . وله كل شىء عام والطَّيبون : هم المُؤْمنون كل مُؤْمِن فهو طَيِّب ، وهذا من باب التَّوسل بهذه الرُّبوبية الخاصَّة إلى أن يستجيب الله الدُّعاء ويَشْفى المريض .

قال : « أَنْزِل رَحْمَة مِن رَحْمَتك وَشِفَاءً مِن شِفَاءِكَ عَلَى هَذَا الوَجَع » : هذا الدُّعاء وَمَا سَبَقه من باب التَّوسل .

« أَنْزِل رَحْمَة مِن رَحْمَتِك » الرَّحمة نوعان :

- رَحْمة هى صِفة الله فهذه غَيْرُ مَخْلُوقة وغير بَائِنة من الله عزَّ وجل مثل قوله تعالى : ﴿ وَربُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَة ﴾ [الكهف : ٥٨] .
- وَرَحْمَة بمعنى أَنَّها أَثَرٌ مِن آثار الرَّحمة : فهذه مخلوقة مثل قوله تعالى

فى الحديث القدسى عن الجنة : « أَنْتِ رَحْمَتِى أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاء »[1] .

والمراد بالرَّحمة هنا الثَّانى .

كذلك « الشّفاء » فالله شاف ومنه الشِّفاء ، فوصفه الشّفاء وهو فعل من أفعاله وهو بهذا المعنى صِفة من صفاته وإما باعتبار تعدِّيه إلى المريض فهو مخلوق من مخلوقاته .

قوله : « فَيَبْرأ » بفتح الهمزة مَنْصوبًا ؛ لأَنَّه جواب الدُّعاء : أَنْزل رحمة فيبرأ أَمَّا إذا قُرِىء بالضَّم مرفوعًا . فإنَّه مُسْتَأْنف ولا يتبع الحديث بل يُوقف عند قوله « الوَجَع » وتكون « فَيَبرأ » جملة خبرية تُفِيد أن الإنسان إذا قرأ بهذه الرُّقية فإن المريض يَبْرأ ، ولكن الوجه الأَوَّل أحسن بالنَّصب .

* * *

● **قال المؤلف** وقوله : « **أَلَا تَأْمَنُونى وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ** »[2] .

« أَلَا تَأْمَنُونى » فيها إشكال لغوى وهو حذف نون الفعل بدون ناصب ولا جازم !!

والجواب عن هذا : أنّه إذا اتَّصلت نون الوقاية بالفعل جاز حذف نون الرَّفع .

« أَلَا تَأْمَنُونى » أى أَلا تَعْتبرونى أَمِينًا .

« وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاء » والَّذى فى السَّماء هو الله عزَّ وجلَّ وهو أمينه عليه الصلاة والسلام على وَحْيه وهو سَيِّد الأُمَنَاء عليه الصَّلاة والسَّلام ،

---

(١) رواه البخارى (٤٨٥٠) ومسلم (٢٨٤٦) (٣٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) جزء من حديث أبى سعيد الخدرى الطويل الذى أخرجه البخارى (٤٣٥١) ومسلم (١٠٦٤) (١٤٤) .

والرَّسول والذى ينزل بالوحى عليه - جبريل - هو أيضًا أمين : ﴿ إِنَّه لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيم ذِى قُوَّةٍ عِنْدَ ذِى العَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير : ١٩-٢١].

وهذا الحديث له سبب وهو أنَّ النَّبى ﷺ قَسَّم غنائم حُنين فقال له رجل : اعدل فقال : « أَلَا تَأْمَنُونِى وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِى السَّمَاء » .

أَلَا : للعَرْض كأَنَّه يقول : آئْمَنُونى فإنِّى أَمِينُ مَنْ فى السَّماء ؟!

فنقول : بَلَى ! نَأْمَنُ رَسُول الله ﷺ ونُؤْمن بأَنَّه سيد الأمناء .

الشَّاهد : قوله : « مَنْ فِى السَّماء » ونقول فيها ما قلناه فيما سبق .

* * *

● **قال المؤلف وقوله : « والعَرْشُ فَوْقَ المَاء والله فَوْقَ العَرْش ، وَهُوَ يَعْلَمُ مَا أَنْتُم عَلَيْه » حَدِيثٌ حَسَنٌ رواه أبو داود وغيره[1] .**

لما ذكر النبى عليه الصلاة والسلام المسافات التى بين السَّماوات قال : « والعَرْشُ فَوْق المَاء » فإنَّ بين السَّماء السَّابعة والعَرْش بَحْرًا بين أَسْفَله وأعلاه كما بين السَّماء والأَرْض « والعَرْش فوق الماء » ويَشْهد لهذا قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ ﴾ [هود : ٧] .

قال : « والله فَوْقَ العَرْش ، وَهُو يَعْلَم مَا أَنْتُم عَلَيْه » هو فوق العرش ومع ذلك لا يخفى عليه شىء من أحوالنا بل قد قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ [قٓ : ١٦] يعنى الشَّىء الذى فى ضميرك يعلمه الله مع أَنَّه مَا بَانَ لأَحد .

(١) **حَدِيثٌ ضَعِيفٌ** : وهو جزء من حديث الأَوعال الذى رواه أبو داود (٤٧٢٣) وغيره وهو حديث ضعيف فى سنده أكثر من عِلّة مع ما فى متنه من نكارة وراجع تعليقنا على الحديث فى تخريجنا للقواعد المثلى فى صفات الله وأسمائه الحسنى لابن عثيمين ص (٦٢ ، ٦٣) وكذا « فتيا وجوابها لابن العطار » بتحقيق الأخ الفاضل عبدالله بن يوسف فى تعليقه على الحديث ص (٧٢) .

وقوله : « وَهُو يَعْلَمُ مَا أَنْتُم عَلَيْه » : يُفيد إحاطة علم الله بكل ما نحن عليه .

● الفائدة المسلكية من هذا الحديث :

وإذا آمنا بهذا الحديث فإنَّنا نَسْتَفِيدُ منه فائدة مَسْلَكِية وهى تعظيم الله عز وجل وأنَّه فى العلو فَنَخَافُه وأنَّه يعلم ما نحن عليه فنقوم بطاعته بحيث لا يَفْقِدنا حيث أَمَرَنا ولا يَجِدُنا حَيْثُ نَهانا .

* * *

● قال المؤلف : « وقوله للجارية : أَيْن الله ؟ قَالت : فى السَّمَاء . قَال : مَنْ أَنا ؟ قَالَت : أَنْتَ رَسُول الله . قال : اعْتِقْهَا فَإنَّها مُؤْمِنة » رواه مسلم(١) .

قوله : « أَيْن الله » أين يستفهم بها عن المكان .

« قالت : فى السَّماء » يَعْنى على السَّماء أو فى العلو على حَسَب الاحتمالين السَّابقين .

« قال : مَنْ أَنَا ؟ قالت : أنت رَسُول الله . قال : اعتقها فإنَّها مؤمنة » وعند أهل التعطيل هى بقولها « فى السَّماء » إذا أرادت أنَّه فى العلو هى كافرة لأنهم يرون أن من أثبت أن الله فى جهة فهو كَافِر إذ يقولون أَنَّ الجهات خالية منه .

استفهام النَّبى ﷺ بـ « أين » يدلُّ على أنَّ لله مكانًا ، ولكن يجب أن نعلم أن الله تعالى لا تُحِيطُ به الأمكنة ، لأنَّه أَكْبر من كل شىء ، وأنَّ مَا فَوْق الكون عدم ما ثمّ إلا الله ، فهو فوق كل شىء .

---

(١) رواه مسلم (٥٣٧) (٣٣) من حديث معاوية بن الحكم السُّلمى .

وفى قوله : « اعْتِقْهَا فَإِنَّها مُؤْمِنة » دَلِيلٌ على أَنَّ عتق الكافر ليس بمشروع ولهذا لا يجزىء فى الكَفَّارة ، لأَنَّ بَقَاء الكافر عندك رَقِيقًا فيه نوع حماية له وسُلْطة وإمرة ، وتَقْريب من الإسلام ، فإذا أعتقته تَحَرَّر ، وإذا تحرر فَيُخْشَىٰ منه أن يرجع إلى بلاد الكُفر ، لأَنَّ أَصل الرِّق هو الكُفر ، ويبقى مُعِينًا للكافرين عَلَىٰ المؤمنين .

* * *

إثبات مَعِيّة الله لخلقه فى السُّنة المطهرة

١٤٥ - وقوله : « أَفْضَلُ الإيمانُ أَن تَعْلَم أَنَّ الله مَعَكَ أَيْنَما كُنْتَ » حَدِيثٌ حَسَنٌ أخرجه الطَّبرانى من حديث عبادة بن الصامت .

١٤٦ - وقوله : « إِذَا قَامَ أَحَدُكُم إلى الصَّلاة فَلا يَبْصُق قِبَل وَجْهُه ؛ فَإِنَّ الله قِبَل وَجْهِه ، وَلَا عَن يَمِينُه ، وَلَكِن عَن يَسَارِهِ أَوْ تَحْتَ قَدَمِه » متفق عليه .

١٤٧ - وقوله : « اللَّهُمَّ رَبّ السَّمٰوَاتِ السَّبع وَرَبّ العَرْش العَظِيم ، رَبّنا وَرَبّ كُلّ شَىْء فَالِق الحبّ والنَّوىٰ مُنَزِّل التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيل وَالقُرآن أَعُوذُ بِكَ مِن شَرِّ نَفْسِي ، وَمِن شَرِّ كُلِّ دَآبّة أَنْت آخِذٌ بِناصِيَتِهَا . أَنْتَ الأَوَّل فَلَيس قَبْلكَ شَىْء ، وَأَنْت الآخِر فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَىء ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيس فَوْقَكَ شَىْءٌ ، وَأَنْت البَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَىْءٌ ، اقْض عَنّا الدَّين وَأَغْنِنى مِن الفَقْر » رواه مسلم .

١٤٨ - وقوله لمَّا رفع الصَّحابة أَصْواتهم بالذِّكر : « أَيُّهَا النَّاس !

ارْبعوا عَلَى أَنْفُسِكُم ؛ فَإِنّكُم لا تَدْعُونَ أَصَمَ وَلَا غَائِبًا ، إِنَّما تَدْعُون سَمِيعًا بَصِيرًا قَرِيبًا ، إِنَّ الَّذى تَدْعُونه أَقْرَبَ إِلى أَحَدِكُم مِن عُنق رَاحِلَتِه » متفق عليه .

الشــــرح

● **قال المؤلف وقوله : « أَفْضَلُ الإِيمانُ أَن تَعْلَمَ أَنَّ الله مَعَكَ أَيْنَما كُنْتَ » حَدِيثٌ حَسَنٌ رواه الطَّبرانى من حديث عبادة بن الصامت**(١) .

أَفَاد الحديث مَعِيَّة الله عَزَّ وَجَلَّ ، وقد سبق أَنَّ مَعِيَّة الله لا تَسْتلزم أن يكون فى الأرض بل يمتنع غاية الامتناع أن يكون فى الأرض لأَنَّ العُلو من صفاته الذَّاتية التى لا ينفك عنها أبدًا بل هى لازمة له سبحانه وتعالىٰ .

وقول الرَّسول ﷺ : « أَفْضَل الإيمانُ أَنْ تَعْلَم » يدلُّ على أَنَّ الإيمان يَتَفَاضَل لأَنَّك إذا علمت أنَّ الله معك حيثما كنت خِفْتَ منه عزَّ وجل وعظَّمته لو كنت فى حجرة مُظْلمة ليس فيها أحد فاعلم أنَّ الله معك لا فى الحجرة، لكنه سبحانه وتعالى لإحَاطَته يكون مَعك .

(١) **إسْنَادُه ضَعِيفٌ** : أخرجه أبو نعيم فى الحلية (٦/١٢٤) والبيهقى فى الأربعون الصُّغرى برقم (٢٤) من طريق نعيم بن حماد ثنا عثمان بن كثير بن دينار عن محمد بن مهاجر عن عروة عن عبدالرحمن بن غنم عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ فذكره .

وقال أبونعيم : « غريب من حديث عروة لم نكتبه إلا من حديث محمد بن مهاجر » ا.هـ .

وفى إسناده نعيم بن حماد صدوق يخطىء كثيرًا . والحديث عزاه الهيثمى فى المجمع (١/٦٠) للطبرانى فى الأوسط والكبير ثم قال : تفرد به عثمان بن كثير ولم أر من ذكره بثقه ولا جرح » .

وعزاه السُّيوطى فى الجامع الصغير (١/٤٩) للطبرانى وأبو نعيم أيضًا وضعَّفه ، وكذا ضعَّفه الألبانى فى ضعيف الجامع (١١٠٠) وأورده ابن رجب فى نور الإقتباس ص (٥٤) وعزاه للطبرانى .

● **وقال المؤلف : « إِذَا قَامَ أحدكُم فَلَا يَبْصُقَنَّ قِبَل وَجْهه وَلَا عَن يَمِينه ، فَإِن الله قِبل وَجْهه وَلَكِن عَن يَسَارِه أَوْ تَحْت قَدَمه » متَّفق عليه**[1] .

« قِبل وَجْهِه » : يعنى أَمَامه ، وعلَّل النَّهى عن البُصَاق قِبل وَجْهه « أَنَّ الله قِبَل وَجْهه » .

قال الله تعالى : ﴿ وَلله المشْرِقُ وَالمغْرِبُ فَأَيْنما تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ الله ﴾ [البقرة : ١١٥] .

« يَمِينه » وَرَد فيه حديث « فَإِنَّ عَن يَمِينِه مَلَكًا »[2] ولأَنَّ اليمين أفضل من الشمال فيكون اليَسَار أَوْلَى بالبصاق ونحوه ، ولهذا قال : « وَلكِن عن يَسَارِه أَوْ تَحْت قَدَمِه » فإن كان فى المسجد قال العُلماء فإنَّه يجعل البُصَاق فى خرقة أَوْ مِنديل أو ثوبه ، ويَحُك بعضه ببعض حتى تَزُول صُورة البُصاق ، وإذا كان الإنسان فى المسجد عند الجدار والجدار قصير عن يَسَاره فإنه يمكن أن يبصق عن يَسَاره إذا لم يؤذ أحدًا من المارة .

● **يستفاد من هذا الحديث :**

أنَّ الله تعالىٰ أمام وجه المصلى ولكن يجب أن نعلم أن الذى قال : أَنَّه أمام وَجْه المُصَلِّى . هو الذى قال أَنّه فى السَّماء ، ولا تناقض بين كلامه هذا وهذا إذ يمكن الجمع من ثلاثة أَوْجه :

الوَجه الأَوَّل : أَنَّ الشَّرع جمع بينهما ، ولا يجمع بين مُتَنَاقِضين .

الوَجه الثَّانى : أَنَّه يمكن أن يكون الشَّىء عَالِيًا وهو قِبَل وَجْهك ،

---

(١) البخارى (٤٠٦) ومسلم (٥٤٧) (٥٠) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما .

(٢) البخارى (٤١٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

فها هو الرَّجل يستقبل الشَّمس أوَّل النَّهار فتكون أمامه وهى فوق السَّماء ، ويستقبلها فى آخر النَّهار تكون أمامه وهى فوق السَّماء ، فإذا كان هذا ممكنًا فى المخلوق ففى الخالق من بَاب أَوْلَى بلا شك .

الوَجه الثَّالث : هب أَنَّ هذا مُمْتَنع فى المخلوق فإنَّه لا يمتنع فى الخالق ، لأن الله تعالى ليس كمثله شىء فى جميع صفاته .

* * *

● وقوله ﷺ: « **اللَّهُمَّ رَبّ السَّماوات السَّبْع والأَرْض وَرَبّ العَرْش العَظِيم ، رَبّنا وَرَبّ كُلّ شَىء ، فَالِق الحَبّ وَالنَّوى مُنَزِّل التَّوْرَاة وَالإنْجِيل وَالقُرْآن ، أَعُوذُ بِكَ مِن شَرِّ نَفْسِي وَمِنْ شَرِّ كُلِّ دَابّة أَنت آخِذٌ بِنَاصِيَتِها . أَنْت الأَوّل فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَىء ، وَأَنْتَ الآخر فَلَيْس بَعْدَكَ شَىء ، وَأَنْتَ الظَّاهِر فَلَيْس فَوْقك شَىْءٌ ، وَأَنْتَ البَاطِن فَلَيْسَ دُونك شىء اقض عَنِّى الدَّين واغْنِنى من الفَقر** » رواه مسلم[1] .

هذا حَدِيثٌ عظيم ، تَوَسَّل النبى ﷺ إلى الله تعالى بربوبيته فى قوله : « اللَّهُمَّ رَبّ السَّماوات السَّبع والأَرض ، وَرَبّ العَرْش العَظِيم ، رَبّنا وَرَبّ كل شىء » وهذا من باب التَّعميم بعد التَّخصيص . « وَرَبّ كُلّ شىء » وهذا التَّعميم بعد التَّخصيص لئلا يتوهم واهم اختصاص الحكم بما خصَّص به ، وانظر إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ البَلْدَةِ الَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلّ شَىْء ﴾ [النمل : ٩١] حتى لا يَظُنّ ظَانّ أنّ ليس ربًّا إلا لهذه البلدة .

« فَالِقُ الحبّ والنَّوىٰ » : حبّ الزُّروع ، والنَّوى : نوى الغرس ، فالأَشجار التى تخرج إمَّا زُروع أَصْلُها الحب وإمَّا أَشْجار أَصْلُها النَّوىٰ ، فما للأشجار يُسَمَّى نَوىٰ ، وما للزُّروع يسمَّى حبًا ﴿ فَالِقُ الحَبِّ وَالنَّوَىٰ ﴾

---

(١) مسلم (٢٧١٣) (٦١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

[الأنعام : ٩٥] هذا الحب والنَّوىٰ اليابس الذى لا ينمو ولا يزيد يُفْلقُه الرَّب عزَّ وجل . أى يفتحه حتى تخرج منه الأشجار ، والزُّروع ولا يستطيع أحدٌ أن يفعل ذلك مهما بلغ النَّاس فى القدرة ما استطاعوا أن يَفْلقوا حبَّة واحدة أبدًا ، والنَّوى كذلك الذى كالحجر لا ينمو ولا يزيد يفلقه الله عَزَّ وجلَّ وينفرج ثم تكون منه الغريسة التى تنمو ولا أحد يستطيع ذلك إلا الذى فلقها سبحانه وتعالى .

ولما ذكر الآية الكونية العظيمة ذكر الآيات الشَّرعية وهى :

قوله : « مُنَزِّل التَّوراة والإِنْجِيل والقُرآن » وهذه أعظم كتب أنزلها الله عزَّ وجلَّ ، وبدأها على التَّرتيب الزمنى ، وهى فى الحقيقة ليست ترتيبًا فى الفضل بل القرآن أفضلها .

وفى هذا نصٌّ صريحٌ على أن التَّوراة مُنَزَّلة كما جاء فى القرآن : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُـور ﴾ [المائدة : ٤٤] . وقال فى أول سورة آل عمران : ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجيل مِن قَبْل هُدىً للنَّاسِ وَأَنزلَ الْفُرقَان ﴾ [آل عمران : ٣،٤] .

قال : « أَعُوذُ بِكَ من شَرِّ نَفْسِى » أعتصم بالله من شرِّ نَفْسى . إذًا فى نفسك شر ﴿ وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِى إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ [يوسف :٥٣]
لكن النفس نفسان :

١ - نفسٌ مطمئنة طيبة تأْمُر بالخير .

٢ - ونَفْسٌ شريرة أَمَّارة بالسُّوء .

٣ - والنَّفس اللَّوامة هل هى ثالثة أو وصف الثِّنتين السَّابقتين ؟

فيه خلاف : بعضهم يقول : إنها نفس ثالثة ، وبعضهم يقول هى

وصف فى الثنتين السَّابقتين فالمطمئنة تلومك ، والأَمَّارة بالسُّوء تلومك ، فيكون قوله تعالى : ﴿ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ [القيامة : ٢] يشمل النفسين جميعًا :

المطمئنة : تلومك على التَّقصير فى الواجب إذا أهملت واجبًا لامتك ، وإذا فعلت محرمًا لامتك .

والأَمَّارة : بالعكس إذا فعلت الخير لامتك وتلومه إذا ترك المحظور .

إذًا : صارت اللَّوامة على القول الرَّاجح وصفًا فى النفسين جميعًا .

وقوله هنا : « أَعُوذُ بِكَ مِن شَرِّ نَفْسِى » المراد بها النَّفس الأمارة بالسوء .

• وقوله : « وَمِن شَرِّ كُلِّ دَآبة أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيتها » : الدَّآبة هنا المراد بها كل ما يدب على الأرض حتى الذى يمشى على بطنه داخل فى هذا الحديث ، وهى كقوله تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود : ٦] وإن كانت الدَّابة تُطلق فى العرف على ذوات الأربع ، وفى عرف أخص تُطْلق على الحمار فقط ، لكنها فى مثل هذا الحديث يراد بها كل ما يدبُّ على الأرض ، وما يدبُّ على الأرض فيه شرور أما بعضه فشرٌّ مَحْض وأمّا بَعْضه ففيه خَيْرٌ وفيه شرٌّ ، وحتى الذى فيه خير لا يسلم من الشَّر .

فالخروف : ربما يَنْطَحك بقرونه ويشق بطنك ، وكذلك البقرة .

وقوله : « أَنْتَ آخِذٌ بِناصِيتها » النَّاصية مقدم الرأس ، وإنما نصَّ على النَّاصية لأنه هو المقدم وهو الذى يمسك به لقيادة البعير وشبهه .

وقيل : خُصَّ ذلك ؛ لأَنَّ المخ الذى فيه التَّصور والتَّلقى يكون فى مقدمة الرأس – والعلم عند الله –.

قال : « أَنْتَ الأَوَّل فَلَيْسَ قَبْلَك شَىء » وهذا تفسيرٌ من النَّبى ﷺ لقوله : « الأَوَّل » ، والأَوَّل من أسماء الله ، وقد ذكرنا عند تفسير الآية أن أَهل الفلسفة يُسَمُّون الله القديم ، وذكرنا أن القديم ليس من أسماء الله الحُسْنىٰ وأنَّه لا يجوز أن يُسَمَّى به لكن يجوز أن يُخْبر به عنه وباب الخبر أَوْسع من باب التَّسمية ؛ لأَنَّ القديم ليس من الأسماء الحسنى ، والقديم فيه نَقْص ؛ لأن القدم قد يكون قدمًا نسبيًا . ألم تر إلى قوله تعالى : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالعُرْجُونِ القَدِيم ﴾ [يسٓ : ٣٩] . والعرجون القديم حادث لكنه قديم بالنِّسبة لما بعده .

ثانيًا : أن أسماء الله تعالى توقيفية ، فلا يمكن أن نُسَمِّيه بالقديم ، وهو لم يَرد ، وورد بَدَلَهُ ، وخَيْر منه « الأَوَّل » وفسَّره النَّبى عليه الصلاة والسلام بأنه الذى ليس قبله شىء . قال : « وَأَنْت الآخِر فَلَيْسَ بَعْدَك شىء » . وهذان مُتَقَابلان ، وفيهما الإحاطة الزمنية الأول من الأول ، والآخر من الآخر .

قال : « وَأَنْتَ الظَّاهر فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَىء » الظَّاهر من الظُّهور وهو العلو كما قال تعالى : ﴿ فَمَا اسْطَاعُواْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُواْ لَهُ نَقْبًا ﴾ [الكهف : ٩٧] يظهروه أى يعلو عليه .

وأما من قال الظَّاهر بآياته فهذا خطأ ؛ لأَنَّه إذا قال الظاهر بآياته يعنى لا بذاته ولكن لا أحد أعلم بتفسير كلام الله من رسول الله ﷺ وقد قال : « الظَّاهر فَلَيْسَ فَوْقَكَ شىء » بل هو فوق كل شىء سبحانه .

قال : « وَأَنْتَ البَاطِن فَلَيْسَ دُونَكَ شَىْءٌ » المعنى : ليس دون الله شىء لا أحد يُدَبِّر دون الله ، ولا أَحدَ ينْفرد بشىء دون الله ، كل شىء فالله محيطٌ به ولهذا قال : « لَيْسَ دُونه شىء » . يعنى : لا يَحُول دُونه شىء ، ولا يَمْنَع دُونه شىء ، ولا ينفع ذا الجد منه الجد وهكذا .

قال : « اقض عنا الدَّين واغْنِنى من الفَقْر » .

الدَّين : ما يستحق على الإنسان من مال أو حق . اشتريت منك حاجة ولم انقدك الثمن فهذا يسمى ديْنًا وإن كان غير مؤجَّل . ولهذا يقال : « عِدة المؤمن دينه » .

« واغننى من الفَقْر » الفَقر : خُلو ذات اليد ، ولا شك أن الفقر فيه إيلامٌ للنفس والدَّين فيه ذُل ، المَدِين ذليلٌ للدَّائن ، والفقير معوِز ربما يجُرُّه الفقر إلى أمر محرَّم .

ألم يأتكم نبأ الثَّلاثة الذين انطبق عليهم الغار فَتَوَسَّل كل واحد منهم بصالح عمله[1] .

وقال أحدهم : إنه كانت لى ابنة عم أعجبته ، وكان يُراودها عن نفسها ولكنها تأبىٰ ذلك فألمت بها سنة من السنين واحتاجت ، وجاءت إليه تطلب منه أن يُعينها فأَبىٰ عليها إلا أن تُمَكِّنه من نفسها ، ومن أجل ضَرورتها وافقت على هذا ، فلما جلس منها مجلس الرجل من امرأته قالت له : يا هذا اتَّق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه ! وأثَّرت هذه الكلمة فى الرَّجل عندما كانت نابعة من القلب فقام عنها قال : فقمت عنها وهى أَحبُّ الناس إلَّى لكن ذكرته هذه الموعظة الكريمة فأقلع . فانظر إلى الفقر ؛ فإن هذه المرأة أرادت أن تَبِيع عرضها بسبب الفقر .

إذًا : قول الرَّسول ﷺ : « اغننى من الفَقْر » سأل النبى ﷺ ربّه أن يغنيه من الفقر ؟ لأَنَّ الفقر له آفات عظيمة .

* * *

(١) القصة : عند البخارى (٣٤٦٥) ومسلم (٢٧٤٣) (١٠٠) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما وراجع شرح الشيخ ابن عثيمين لها فى مجالس الرَّبانيين شرح رياض الصالحين (١/٥٦ : ٦١) .

● **وقوله ﷺ لَمَّا رفع الصَّحابة أَصْوَاتهم بالذِّكر : « أَيُّها النَّاس ! ارْبَعوا على أَنْفُسِكُم ؛ فَإِنَّكُم لا تَدْعُون أَصَم ولا غَائِبًا ، إِنَّما تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا ، إِنَّ الَّذى تَدْعُونه أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُم مِن عُنق رَاحِلَتِه » متفق عليه[1] .**

كان الصَّحابة رضى الله عنهم مع النَّبى ﷺ إذا علو نشزًا كبّروا ، وإذا نزلوا واديًا سبحوا[2] ، لأَنَّ الإنسان إذا ارتفع قد يَتَعَاظم فى نفسه ويرى أَنَّه مرتفع عظيم فَنَاسَب أن يقول لنفسه : الله أكبر . إذا نزل فهذا سُفول ونُزُول فيقول : سُبحان الله أن يكون فى السّفل .

الصَّحابة رضى الله عنهم كانوا يَرْفعون أَصواتهم بالذِّكر جدًّا فقال النبى عليه الصلاة والسلام : « أَيُّها النَّاس ارْبَعُوا على أَنْفُسكم » يعنى هَوِّنُوا عليها .

« فإِنَّكم لا تَدْعُون أَصَم ولا غَائِبًا » لا تَدْعُون أَصَم لا يَسْمع ، ولا غَائبًا لا يرى « إِنَّما تَدْعُون سَمِيعًا بَصِيرًا » سَمِيعًا ضد أصم ، بصيرًا ضد غائبا ، قريبًا ضد البعيد .

« إِنَّ الَّذِى تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلى أَحَدِكُم من عُنُق رَاحِلَته » عنق الرَّاحلة للرَّاكب قريب جدًا فالله تعالى أقرب من هذا إليك ، ومع هذا فهو فوق سَمَاواته على عرشه ، ولا مُنافاة بين القرب والعلو ؛ لأَنَّ الشَّىء قد يكون بعيدًا قريبًا . هذا بالنِّسبة للمخلوق فكيف بالخالق ؟ فالرَّب عز وجل قريب بعيد : بَعِيدٌ فى عُلُوِّه ، قريب فى دُنُوه ، أَقرب إلى أحدنا من عنق راحلته .

---

(١) البخارى (٤٢٠٥)،(٦٣٨٤) ومسلم (٢٧٠٤) (٤٤) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

اربَعُوا : بفتح الباء الموحدة ، معناه : ارفقوا بأنفسكم .

(٢) وفى صحيح البُخَارى (٢٩٩٣) عن جَابِر رضى الله عنه قال : « كُنَّا إذا صَعِدْنَا كَبَّرنا ، وإذا نَزَلْنا سبَّحنا » .

● **هذا الحديث فيه فوائد :**

- فيه شيء من الصِّفات السَّلبية : « أصم ، غَائب » فليس أَصم لكمال سمعه ، ولا غائبًا لكمال بصره وعلمه وقربه .

- وفيه أيضًا : أنَّه ينبغي للإنسان أَلَّا يَشُقَّ على نفسه فى العِبادة بحيث يرفع صَوْته بالذِّكر - كما فعل الصَّحابة - لأن الإنسان إذا شَقَّ على نفسه تعبت النفس ومَلَّت ، وربما يتأثَّر البدن ولهذا قال النبى ﷺ : «اكلفُوا من العَمَل مَا تُطِيقُون فَإِنَّ الله لا يَمَل حَتَّى تَملوا »[1] . فلا ينبغى للإنسان أن يَشُقَّ على نفسه بل ينبغى أن يَسُوس نفسه إذا وجد منها نشاطًا فى العبادة عَمِلَ واسْتَغَلَّ الوقت ، وإذا رأى فتورًا فى غير الواجبات أو أنها تميل إلى شيء آخر من العبادات يوجهها إليه ، حتى أن الرسول ﷺ أمر من نعس فى صلاته أن ينام ويدع الصلاة قال : « فَإِنَّ الإنسان رُبَّما يَذْهَبُ يَدْعُو لِنَفْسِهِ فيدعو عليها ، أَوْ يَذْهَب يَسْتَغْفر الله فَيَسُبُّ نَفْسَه »[2] .

- **ومن فوائد الحديث** : أنَّ الله قريب ، وقد دلَّ عليه قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إذا دَعَانِ ﴾ [البقرة : ١٨٥] . وسبق لنا وجه الجمع بين قربه وعلوه وأنَّه من ثلاثة وجوه .

* * *

● **ونستفيد من هذا الحديث والذى قبله من النَّاحية المسلكية :**

أما الأول : ففيه عدة فوائد مَسْلكية :

- أنَّ الإنسان إذا عَرِفَ عُموم ربوبية الله عزَّ وجل وآياته الكونية

---

(١) رواه البخارى (١١٥١) ومسلم (٧٨٥) (٢٢٠) من حديث عائشة رضى الله عنها .

(٢) رواه البخارى (٢١٢) وأخرجه مسلم (٧٨٦) (٢٢٢) .

والشَّرعية استَدَلَّ بذلك على رحمة الله سبحانه وتعالى ، فَلَزِمَ من ذلك أن يطلب هذه الرحمة .

– وفيه أيضًا الثَّناء على الله عزَّ وجل بإحاطته الزمانية والمكانية :

الزَّمانية : « أَنْتَ الأول .. وأَنْتَ الآخِر » . والمكانية : « أنت الظَّاهر .. وأنت الباطن » .

– وفيه أيضًا أَنَّ الإنسان ينبغى له أَنْ يَقْتَصد فى شئونه المالية لقوله : « اقض عَنِّى الدَّين واغننى من الفَقْر » ، لأنه إذا اقتصد سلم غالبًا من الدَّين ، وَسلم من الفقر ، وإذا صار لا يَقْتَصد ولا يتصرَّف تَصَرُّفًا جَيِّدًا فإنَّه يُوشك أن يلحقه الدَّين والفقر .

أما الثانى : فنستفيد منه من النَّاحية المسلكية :

– أنَّه لا ينبغى لنا أن نشق على أَنْفُسنا بالعبادات ، وأن يكون سيرنا إلى الله وسطًا لا تفريط ولا إفراط .

– وفيه أيضًا : الحذر من الله ، لأَنَّه سميع وقريب وبَصير ، فنبتعد عن مُخَالفته .

وفيه أيضًا من النَّاحية الحكمية : جَواز تشبيه الغائب بالحاضر للإيضاح حيث قال : « إِنَّ الَّذى تَدْعُونه أَقْرَبُ إلى أَحَدِكُم من عُنُق رَاحِلَتِه » .

– وفيه أيضًا : أنَّه ينبغى أن يُراعى الإنسان فى المعانى ما كان أَقْرب إلى الفَهم ؛ لأن هؤلاء مُسَافرون ، وكل منهم على راحلته ، وإذا ضرب المثل بما هو قريب فلا أَحسن من هذا المثل الذى ذكره النَّبى عليه الصلاة والسلام .

* * *

إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة
فى السُّنة المطهرة

١٤٩ – وقوله : « إِنَّكُم سَتَرَوْنَ رَبَّكُم كَمَا تَرَوْنَ القَمَر لَيْلَةَ البَدْرِ لا تُضَامُّون فِي رُؤْيَته ، فإن اسْتَطَعْتُم أن لا تُغْلَبُوا عَلَى صَلاةٍ قبل طُلوع الشَّمس ، وصَلاةٍ قَبْل غُرُوبِها فَافْعَلُوا » متفق عليه[1] .

الشــــرح

● **قوله** : « **إِنَّكُم سَتَرَوْنَ رَبَّكُم** » السِّين للتحقيق ، وتخلص الفعل المضارع إلى الاستقبال بعد أن كان صالحًا للحال والاستقبال . كما أن « لم » تخلصه للمعنى .

وقوله : « **سَتَرَوْنَ رَبَّكُم كَمَا تَرَوْنَ القمر** » هذه رُؤْية بَصَرِية لأنَّ رؤيتنا للقمر بصرية ، وهنا شَبَّه الرُّؤية بالرؤية ، فتكون رُؤْية بصرية .

● **وقوله** : « **كما ترون** » « ما » هذه مَصْدرية فيحوَّل الفعل بعدها إلى مصدر ، ويكون التَّقدير : كرؤيتكم القمر . فالتَّشبيه حينئذ للرُّؤْية بالرُّؤية ، وليس للمرئى بالمرئى .

---

(١) البخارى (٥٥٤) ، (٧٤٣٤) ومسلم (٦٣٣) (٢١١) من حديث جرير بن عبدالله رضى الله عنه .

والنَّبى عليه الصلاة والسلام يُقَرِّب المعانى أحيانًا بذكر الأمثلة الحِسِّية الواقعية كما سأله أبو رزين العُقيلى قال : يا رسول الله كيف يُحَاسِبنا الله تعالى فى ساعة وَاحِدة وَنَحْنُ جَميع وهُو واحد ؟ فقال له : « أَلَا أُنبئك بذلك فى آلاء الله هذا القمر وَاحِد ، وما منكم من أَحَدٍ إِلَّا يَرَاهُ مخليًا به »[1] يعنى خاليًا به ، كلنا نراه وهو واحد . هذا وهو مخلوق ، فواحد يُقابل بجماعة فما بالك بالخالق ؟ وهكذا ...

نقول فيما ثَبت فيه الحديث فى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه : « إِنَّ الله يقول : قسّمت الصَّلاة بَيْنى وبَيْن عَبْدى نِصْفَين ، فإذا قال : الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِين . قال : حَمَدَنى عَبْدى »[2] ، وهذا يشمل كل مصلى ومن المعلوم أنَّه قد يَتَّفق المصلون فى هذه الآية جميعًا فيقول الله لكل واحد : « حَمَدَنى عَبْدى » .

قال « **كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَة البَدْر** » : أى ليلة إبداره وهى اللَّيلة الرَّابعة عشرة والخامسة عشرة والثَّالثة عشرة أحيانًا ، والوسط : الرابعة عشرة كما قال ابن القيم : كالبدر ليل الست بعد ثمان .

وهى الليلة الرابعة عشرة .

قال : « **لا تُضَامُّون فى رُؤْيته** » وفى لفظ : « لا تضامون » وفى لفظ : « لا تُضَارون » لكن الفرق بين لا تُضَامون ولا تضامُّون :

لا تُضَامون - بتخفيف الميم - أى لا يلحقكم ضيم .

---

(١) حَدِيثٌ حَسَنٌ : رواه أحمد (٤/١١ ، ١٢) وأبو داود (٤٧٣١) وابن ماجة (١٨٠) والحاكم (٤/٥٦٠) وقال صحيح الإسناد وأقرَّه الذهبىّ . وحسنه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود (٣/٨٩٦) .

(٢) مسلم (٣٩٥) (٣٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

لا تضآمّون - بتشديد الميم - يعنى لا ينضم بعضكم إلى بعض فى رؤيته ؛ لأَنَّ الشيء إذا كان خفيًا ينضم الواحد إلى صاحبه ليريه إيَّاه .

أَمَّا « لا تضارون » أو « لا تُضَارّون » فالمعنى لا يَلْحَقكم ضَرَر ؛ لأن كل إنسان يَرَاه سبحانه وتعالى وهو فى غاية ما يكون من الطمأنينة والراحة .

ثم قال : « فإن استَطَعْتُم أَن لا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْل طُلُوع الشَّمْس وَصَلَاةٍ قَبْلَ غُرُوبِها فَافْعَلُوا » الصلاة قبل طُلوع الشَّمس : هى الفجر ، وقبل غروبها : العصر .

والعصر أُفضل من الفجر ؛ لأنها الصَّلاة الوسطى ، والفجر أفضل من العصر من وجه ؛ لأنها الصَّلاة المشهودة كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [الإسراء : ٧٨] . وجاء فى الحديث الصَّحيح : « مَنْ صَلَّى البَرْدَيْن دَخَلَ الجَنَّة »[١] وهما الفجر والعصر .

● **فى هذا الحديث** : من صفات الله إثبات أَنَّ الله يُرى ، وقد سبق شرح هذه الصِّفة عند ذكر الآيات الدَّالة عليها وهى أربع آيات .

والحديث هنا مُتَواتر عن النبى ﷺ فثُبُوته قطعى ، ودِلَالَته قَطْعية ، ولهذا ذهب بعض العلماء إلى أَنَّ من أنكر رؤية الله تعالى فهو كافر مُرْتَد[٢] ، وأن الوَاجب على كل مُؤْمن أَن يُقِرَّ . قال : وإنما كَفَّرناه ؛ لأن الأدلة قطعية الثُّبوت وقطعية الدلالة ، ولا يمكن لأحد أن يقول إن قول الرسول عليه الصلاة

---

(١) رواه البخارى (٥٧٤) ومسلم (٦٣٥) (٢١٥) .

(٢) كما جاء ذلك عن الإمام أحمد حيث قال : من قال إنَّ الله لا يُرىٰ فى الآخرة فقد كَفَر عليه لَعْنَة الله وغَضَبُه .

وقال ابن خزيمة : « إنَّ المُؤْمنين لم يَخْتَلفوا أَنَّ جميع المؤمنين يَرَوْن خَالِقَهُم يوم المعاد ، ومن أَنْكَر ذلك فَلَيْسَ بِمُؤْمن عِند المُؤْمنين » . راجع حادى الأرواح ص (٤١٧ : ٤١٩) .

والسلام : « إِنَّكُم سَتَرَوْنَ رَبَّكُم » لا يمكن أن يقول أنَّه ليس قطعى الدلالة .

ليس هناك شيء أشد قطعًا من مثل هذا التركيب .

لو جاءت : « إِنَّكُم تَرَوْنَ رَبَّكُم » لربما تحتمل التَّأويل ، وأنّه يُفَسَّر العلم اليقينى بالرؤية البَصَرية ، ولكنه صرَّح بأنه كما نرى القمر وهو حسى .

وسبق لنا أن أهل التَّعطيل يؤولون هذه الأحاديث ويُفَسِّرون الرؤية برؤية العلم يقولون لأن رَأَىٰ تأتى علمية وتأتى بصرية ، وهى هنا علمية . وسبق لنا بيان بطلان قولهم ، وأنهم لا يوافقون على هذا .

انتهى الكلام على الآيات والأحاديث .

واعلم أن أهل البدع من المعطِّلة مَوْقفهم من هذه النُّصوص إذا كانت النُّصوص قطعية الثُّبوت ذهبوا يحرفونها مثل آيات القرآن والأحاديث المُتَواترة . وإذا كانت غير قطعية الثُّبوت أنكروها حتى وإن كانت صحيحة ولهذا كان من قاعدتهم المنكرة : « أَنَّ أَخْبَار الآحاد لا تُقْبَل فى إثبات العقَائد » والصَّواب : أَنَّه يجب علينا أن نؤمن بكل ما صحَّ عن النَّبى ﷺ فى ذلك وتلقته الأمة بالقبول ، وكل صحيح فهو متلقىً بالقَبُول .

* * *

موقف أهل السُّنَّة من أحاديث الصِّفات

١٥٠ - إلى أَمْثَالِ هَذِه الأَحَادِيث التى يُخْبِر فيها رَسُول الله ﷺ عن رَبِّه بما يخبر به فإنَّ الفِرقة الناجية أهل السُّنة والجماعة يُؤْمنون بذلك كما يُؤْمِنون بما أخبر الله به فى كِتَابه من غير تَحْرِيفٍ ولا تَعْطِيلٍ ، ومن غير تَكْيِيفٍ ولا تَمْثِيلٍ .

الشـــرح

● **قوله** : « **الفِرْقة النَّاجية** » الفرقة : أى الطَّائفة . النَّاجية : التى نَجت فى الدُّنيا من البدع ، وفى الآخرة من النَّار .

« **أهل السُّنة والجماعة** » : أى الذين أخذوا بالسُّنَّة واجتمعوا عليها .

« **يُؤْمِنُون بذلك** » : أى بما أخبر به الرَّسول ﷺ .

« **كما يُؤْمِنُون بما أَخْبَر الله بِهِ فى كِتَابِه** » : لأَنَّ ما أخبر به الرّسول عليه الصلاة والسلام يجب علينا أن نؤمن به كما يجب علينا أن نؤمن بما أخبر الله به فى كتابه إلا أنه يختلف عن القرآن فى الثُّبوت ؛ فإن لنا نظرين بالنِّسبة لما جاءت به السُّنة :

النَّظر الأول : فى ثبوته . والنَّظر الثانى : فى دلالته .

أما ما فى القرآن فلنا نظر واحد ، وهو النَّظر فى الدلالة .

وقد سبق لنا بيان الأدلة الدالة على وجوب قبول ما أخبر به النبى ﷺ .

قال : « **مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ ، ومِنْ غَيْر تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ** » :

وسبق شرح هذا فى مقدمة الواسطية(١)

* * *

(١) راجع ص (٦١)

مكانة أهل السُّنَّة والجماعة بين فرق الأمة
واتِّصافِهم بالوَسَطِية

١٥١ – بل هم الوَسَط فى فِرَقِ الأُمَّة ، كما أَنَّ الأُمَّة هى الوَسَط فى الأُمَم فهم وَسَطٌ فى :

(أ) بَاب صِفَاتِ الله سبحانه وتَعَالىٰ بين أَهْل التَّعطيل الجَهْمِيّة ، وأَهْل التَّمْثِيل المُشَبِّهة .

(ب) وهم وَسَطٌ فى باب أفعال الله : بين الجبرية والقَدَرِية وغيرهم .

(جـ) وفى باب وَعِيد الله : بين المُرْجِئة والوَعِيدية من القَدَرِية وغيرهم .

(د) وفى باب أَسْمَاء الإيمان والدِّين : بين الحَرُوريّة والمُعْتَزِلَة وبين المُرْجِئة والجهمية .

(هـ) وفى باب أَصْحَاب رَسُول الله ﷺ بين الرَّافضة والخَوَارِج .

الشـــــرح

● قال المؤلف : « **بَلْ هُم الوَسَطُ فِى فِرَقِ الأُمَّة ، كَمَا أَنَّ الأُمَّة هى الوَسَطُ فى الأمم** »(١) .

---

(١) قال الشيخ عبد **العزيز بن باز حفظه الله**: « يمتاز أهل السُّنَّة والجماعة على غيرهم من=

=فِرق أَهل الضَّلالة والبدع بأنهم وَسَطٌ وموافقون للحق فى جميع أَبواب العلم والدين فلم يَغْلُوا و لم يفرطوا كفعل أهل البدع .

● فهم وَسَطٌ فى باب صفات الله بين الجهمية المُعَطِّلة والمُشَبِّهة ، فالجهمية نَفُوا صفات البارى والمُشَبِّهة أَثْبَتُوها وغَلُوا فى إِثْباتها حتى شَبَّهوا الله بشخصه .

وأَمَّا أهل السُّنة فأثبتوها على الوجه اللائق بجلاله من غير تشبيه ولا تمثيل .

● وهم وَسَطٌ فى باب أفعال الله بين الجبرية والقدرية ؛ لأَنَّ الجبرية غَلَوا فى إِثبات القَدَر وَزَعَمُوا أَنَّ العبد لا فعل له بل هو بمثابة الشجرة التى تُحركها الرِّيح يَمْنَةً ويَسْرَةً .

والقدرية فَرَّطوا بجانب الله وقالوا : إِنَّ العبد يخلق فعله بدون مشيئة الله وإرادته .

● وأهل السُّنة تَوَسَّطُوا وقالوا : للعبد اختيارمَشيئته وليس يخلق فعله ، بل الله خالقه ، وخالق أفعاله وقالوا : إن مشيئته وإرادته بعد مشيئة الله وإرادته كما قال سبحانه : ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُم أَنْ يَسْتَقِيم وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ ٱللهُ رَبّ العَالَمين ﴾ [التكوير : ٢٨ ، ٢٩] .

● وهم وَسَطٌ فى باب وعيد الله بين المرجئة والوعيدية فى القدرية وغيرهم ؛ لأَنَّ المرجئة قالوا : لا يضر مع الإيمان معصية ، وزعموا أَنَّ العاصى لا يدخل النار ، والوَعيدية من القدرية وأشباههم أنفذوا الوعيد الوارد فى حقّ العصاة وقالوا : إِنَّ السَّارق والزانى ونحوهم من العُصَاة إذا لم يتوبوا مخلَّدين فى النار .

● وأهل السُّنة تَوَسَّطُوا فى ذلك فقالوا : إن المعاصى تنقص الإيمان ، وصاحبها تحت المشيئة وقد يدخل النار ، ولكن لا يُخَلَّد فيها كما جاءت به النُّصوص عن النبى ﷺ .

● وهم وَسَطٌ فى باب أسماء الإيمان والدِّين بين الحرورية والمعتزلة وبين المرجئة والجهمية ؛ لأن الحرورية والمعتزلة يقولون : إنَّ الدِّين والإيمان قول وعمل واعتقاد ، ولكن لا يزيد ولا ينقص ، فمن أتى بكبيرة كالزِّنا ونحوه كفر عند الحرورية وصار فاسقًا عند المعتزلة خالدًا فى النار ، ويقولون . هو فى الدنيا ليس مؤمنًا ولا كافرًا ولكن يجعله فى منزلة بين المنزلتين وهى الفسق .

وأَمَّا المرجئة : وهم الذين يقولون : إِنَّ الإيمان قول فقط أَوْ قول وتصديق بالقلب فهم يرون أن المعاصى لا تُنْقِص الإيمان ولا يستحق صاحبها النار إذا لم يستحلها . والجهمية مثل المرجئة لأنهم يقولون : إن الإيمان مجرد المعرفة .
=

قوله : « الأُمَّة هى الوَسَط فى الأُمَم » يعنى الأم السَّابقة وذلك من عدة أوجه :

● ففى العِبَادات : النَّصارىٰ : يَدِينون لله عزَّ وجل بعدم الطَّهارة ، بمعنى أنهم لا يتطهرون من الخبث . يَبُول الواحد منهم ويُصِيبُ البَول ثِيابه ، ويقوم ويصلى فى الكنيسة .

واليَهُود : بالعكس إذا أُصِيبوا بالنَّجاسة فإنَّهم يقرضونها من الثَّوب فلا يطهرها الماء عندهم .

أَمَّا الإِسْلَام : فيقول : لا هَذَا ولا هَذَا . لا تشق الثَّوب ولا تُصَلِّى بالنَّجاسة اغسله غسلًا ويزول .

● كذلك أيضا فى باب المحرَّمات من المآكل والمَشَارِب : النَّصارى كل شيء حَلالٌ لهم .

واليهود : حُرِّم عليهم كل ذِى ظفر : ﴿ وَمِنَ الْبَقَرِ والْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومهمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورهما ﴾ [الأنعام : ١٤٦] .

● وفى القصاص : القَصَاص فُرِضَ على اليهود ، والتَّسامح عن القصاص فُرِضَ على النَّصارىٰ والإسلام جاء بالخيار .

= فأهل السُّنَّة توسَّطوا بين هذه الطوائف الأربع فقالوا : إن الإيمان قول وعمل واعتقاد ، ويزيد بالطَّاعة ويَنْقُص بالمعصية ، وقالوا : إن العاصى لا يكون كافرًا لمجرد المعصية ، ولا مخلدًا فى النار خلافًا لقول الخوارج والمعتزلة ، وقالوا أيضًا : إن المعاصى تُنْقِص الإيمان ويَسْتَحِقُّ صاحبها النار إلا أن يَعْفُو الله عنه خلافًا للجهمية والمرجئة .

● وهم وَسَطٌ فى أصحاب رسول الله ﷺ بين الرافضة والخوارج ؛ لأنَّ الرَّافضة غلوا فى على وأهل البيت ، والخوارج كفّروا بعض الصَّحابة وفسقوا بعضها ، وأهل السُّنَّة خالفوا الجميع فَوَالَوْا جميع الصحابة ولم يَغْلوا فى أُحَدٍ منهم » ا.هـ .

فكانت الأمة الإسلامية وَسَطًا بين الغلو والتَّقصير[(١)] .

فأهل السُّنَّة والجماعة بين فرق الأمة كالأمة بين الدِّيانات الأخرى يعنى أَنَّهم وَسطٌ .

ثم ذكر المؤلف - رحمه الله - أُصُولًا خمسة أهل السُّنَّة والجماعة فيها وسطٌ بين فِرق الأُمَّة .

الأَصْل الأَوَّل : باب الأسماء والصِّفــات

● قال المؤلف : « **فهم وَسَطٌ فى باب صِفَاتِ الله سُبْحَانَهُ وتعالىٰ بين أَهْل التَّعْطِيل الجَهْمية ، وأَهْل التَّمثيل المُشَبِّهة** » .

هذان طرفان مُتَطَرِّفان : أهل التَّعطيل الجهمية ، وأهل التَّمثيل المُشَبِّهة .

فالجهمية : يُنكرون صفات الله عزَّ وجلَّ ، بل غُلاتِهم يُنْكِرُون الأَسماء ويقولون : لا يجوز أن نُثْبِتَ لله اسمًا ولا صفةً ؛ لأَنَّك إذا أَثْبَتَّ له اسمًا شبَّهته بالمسميات ، أو صفة شبَّهته بالمَوْصُوفات !!

إذًا : لا تُثْبت اسمًا ولا صفة !!

وما أَضاف الله إلى نفسه من الأَسْماء فهو من باب المجاز ، وليس من باب التسْمية بهذه الأسماء !!

وأَيضًا المعتزلة : يُنكرون الصِّفات ويُثْبتون الأسماء .

والأشعرية : يُثْبتون الأَسماء ، وسَبْعًا من الصِّفات .

---

(١) راجع الوصية الكبرى لشيخ الإسلام ابن تيمية ص (١٨ : ٢٤) حيث استفاض فى بيان هذه الوسطية أعنى وسطية الإسلام بين الملل ووسطية أهل السنة والجماعة فى النِّحَل .

كل هؤلاء يَشْمَلُهم اسم التَّعطيل ، لكن بعضهم مُعَطِّل تَعْطِيلًا كاملًا كالجهمية وبعضهم تعطيلًا نِسْبيًا مثل المعتزلة والأشاعرة .

« وأهل التَّمثيل المُشَبِّهة » أهل التَّمثيل : يُثبتون لله الصِّفات ويقولون : يجب أن نُثْبت لله الصِّفات ؛ لأَنَّه أَثْبتَهَا لنفسه فَنُثبتُ له عَيْنًا وَوَجْهًا ويدًا وقدمًا وَسَاقًا ، لكن يقولون إنَّها مثل صِفَات المَخلوقين .

غَلُو فى الإثْبَات ، وأُولِئكَ غلوا فى التَّنزيه .

فهؤلاء قالوا : يجب عليك أن تُثْبت لله وجهًا وهذا الوَجه مثل وجه أَحْسن واحد من بنى آدم . قالوا : لأَنَّ الله خَاطبنا بما نعلم قال : ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ [الرحمن : ٢٧] ولا نعلم من الوجه إلا مَا نُشَاهد ، وأحسن مَا نُشَاهد الإنسان .

صحيح : أَنَّ الحمار له وجه ، والكَلْب له وجه ، والجمل له وجه ، لكن الإنسان أَحْسن المخلوقات : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيم ﴾ [التين : ٤] .

إذًا : فَنُشَبِّه الله بأحسن المخلوقات !

أَحْسَن المخلوقات المعلومة لنا هو الإنسان ، لكن الإنسان قبيح وجميل !!

قالوا : نختار الأَحْسَن !

الإنسان شَيْخٌ وشَابٌّ ، نختار الشَّاب !!

فهو على زعمهم - والعياذ بالله - على مثل أَحْسَن واحد من الشَّباب . لإنسان .

ويدَّعون أنَّ هذا هو المعقول .

فجاء أهل السُّنة والجماعة فقالوا : نحن نأخذ بالحق الذى مع الجانبين فنأخذ الحق فى باب التَّنزيه فلا نُمَثِّل ، ونأخذ الحق فى جانب الإثْبات فلا نُعَطِّل ولا نُمَثِّل بل إثبات بلا تَمْثِيل وتَنْزيه بلا تَعْطيل نحن نثبت ولكن بدون تَمْثِيل نُثْبِت ولا نَدَعُ النُّصوص الدَّالة على نَفْى التَّمثيل فنأخذ بالأدلة من هنا ومن هنا .

الخلاصة : هم وَسَطٌ فى باب الصِّفات بين طائفتين مُتطَرِّفَتَيْن :

طَائفة غَلَت فى التَّنزيه والنَّفى وهم أهل التَّعطيل من الجهمية وغيرهم .

وطَائفة غَلَت فى الإثبات وهم الممثلة .

وأهل السُّنة والجماعة يقولون لا تَغْلوا فى الإثبات ولا فى النَّفى .

ونُثْبت بدون تمثيل .

* * *

الأصل الثَّانى : أفعـال الله

● قال المؤلف: « **وَهُم وَسَطٌ فى بَابِ أَفْعَالِ الله بَيْن الجَبْرِية والقَدَرِيّة وغيرهم** » .

فى باب القدر انقسم النَّاس إلى ثلاثة أقسام :

١ - **قسم** آمنوا بقدر الله عز وجل وغلوا فى إثباته حتى سَلَبُوا الإنْسَان قُدْرَتَه واختياره . وقالوا : إنَّ الله فاعلُ كُلّ شىء ، وليس للعبد اختيار ولا قُدرة وإنما يفعل الفعل مُجْبرًا عليه بل إنَّ بعضهم ادَّعى أنَّ فعل العبد هو فعل الله ولهذا دخل عليهم أهل الاتحاد والحلول . وهؤلاء هم الجبرية .

٢ - **وقسم آخر** : القدرية ، قالوا إنَّ العبد مستقل بفعله ، وليس لله فيه تصرُّف ، ولا يَدْرى عن الإنسان إلَّا إذا فعل الإنسان الفعل عَلِمَ الله به أمَّا قَبْل فلا يَعْلم عنه شيئًا !!

فالأوَّلون غَلُوا فى إثبات أَفْعال الله وقَدَره وقالوا : إنَّ الله عزَّ وجل يجبر الإنسان على فِعْله وليس للإنسان اختيار . فعندهم أن الذى ينزل من السَّطح فى الدّرج درجة درجة باختياره مثل الَّذى يدفع دفعًا من هذا الدرج حتى يسقط فيقولون الإنسان مُجْبر على عمله فتحركه كتحرك الرِّيشة فى الهواء .

فقالت القدرية : هذا ليس بِصَحِيح ! نحن نعرف الفَرق بين الأفعال الاختيارية والأفعال الاضطرارية . نعرف الإنسان الذى تحت الغطاء تنفضه الحمَّى نفضًا والإنسان الذى جالس يتحرَّك باختياره ويَسْكُت ويسكن باختياره .

وليس الإنسان مُجْبَرًا إطلاقًا بل إنَّ القدرة الإلهية والمَشِيئة الإلهية لها دَخْلٌ فيه فهو الفاعل المُطْلق الاختيار .

هؤلاء يسمّون « مَجُوس هَذِه الأُمَّة » لأنهم زعموا أَنَّ للحوادث خالِقَيْنِ .

الحَوَادث الكونية التى لله ، هو الذى خَلَقَها ، والحوادث التى هى فعل الإنسان فعل الإنسان مُسْتَقِلٌّ بها ، كما أن المجوس يقولون للعالم خالقان ظلمة ونور : النُّور هو خالق الخير ، والظُّلمة خالقة الشَّر .

٣ - **أهل السُّنَّة والجماعة قالوا** : نحن وَسَطٌ بينكم ، نقول : إن فعل العبد بمشيئة الله وخلق الله ، ولا يمكن أن يكون فى مُلْك الله ما لا يَشَاءه أبدًا .

والإنسان له اختيار وإرَادة ، ويفرق بين الفعل الذى يضطر إليه ،

والفعل الذى يَخْتَاره فهم قالوا : إنَّ أفعال العِباد باختيارهم وإرادتهم ، ومع ذلك فهى واقعة بمشيئة الله وبخلق الله عزَّ وجل .

لكن سيبقى عندنا إشكال كيف تكون خلقًا لله وهى فعل الإنسان ؟!

نقول : لأن أفعالك صَدَرَت منك بإرَادة وقُدْرة ، والذى خلق فيك الإرادة هو الله عز وجل ، والذى خلق فيك القُدرة هو الله .

لو شاء الله تعالى لَسَلَبك القدرة فلم تستطع ، لو أراد الإنسان الزَّمِن أنْ يمشى بُدون عَصًا وغيره فلا يَقْدر ، لأنَّه ما خُلِقَت فيه القدرة .

ولو أَنَّ أحدًا قادرًا فعل فعلاً بدون إرادة لم يمكن . كل إنسان قادر يفعل الفعل فإنه بإرادته اللَّهمَّ إلَّا من أُكْرِه .

فإذًا : نقول نحن نفعله باختيارنا وقُدْرتنا والذى خَلَقَ فينا الاختيار هو الله والَّذى خلق فينا القُدرة هو الله ، لو شاء الله لصَرَفَ الهِمَّة ، وأحيانًا يكون الإنسان عَازِفًا على أن يَفعل هذا الشَّىء ثم يَنْثَنى عَزْمُه ، وأحيانًا يَنْسَىٰ فلا يفعله .

فإذًا : فِعْلُنا وَاقِعٌ بمشيئة الله وخَلْقِه ، وحينئذ يكون مَخْلوقًا لله عز وجل .

* * *

الأصل الثالث : الوَعِيـــد

● قال المؤلف: « **وفى باب وَعِيدِ الله بين المُرْجِئة والوَعِيدية من القَدَرية وغيرهم** » .

المُرْجئة : اسم فاعل من أَرْجَأ بمعنى أَخَّر ، ومنه قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ أَرْجِهْ ﴾ [الأعراف : ١١١] وفى قراءة : ﴿ أَرْجئه ﴾ أى أخره ، وأَخَّرَ أَمْرَه

وسُمُّوا مُرجئة إمَّا من الرَّجاء لتغليبهم نُصوص الرَّجاء ، وإما من الإرْجَاء بمعنى التَّأْخير لتأخيرهم الأعمال عن مُسَمَّىٰ الإيمان .

فهم يقولون : الأَعمال لَيْسَت من الإيمان . والإيمان هو الاعتراف بالقلب فقط .

ولهذا يقولون : إنَّ فاعل الكبيرة الزَّانى السَّارق شارب الخمر ، قَاتِل النَّفس قاطع الطَّريق كل مَا يُوجد فى الدُّنيا من كبيرة غير الكفر يقولون فَاعِلُه لا يستحق دخول النَّار لا دُخولًا مُؤَبَّدًا ولا مؤقتًا .

يقولون : أَنت مُؤْمن تؤمن بالله وَرَسُوله وتأتى بأَرْكَان الإسلام فافعل إذًا مَا شِئت مِن الكَبَائر مَا عَدَا الكُفر وستدْخل الجَنَّة بلا عذاب .

لا يَضُرُّ مع الإيمان مَعْصِية ! وهذا لا شك أَنَّه من أضعف الأقوال ، وسَبَبٌ للفوضىٰ والفساد .

الوَعِيدِيَّة : قالوا : أَىّ كبيرة يفعلها الإنسان ولم يَتُب منها فإنَّه مُخَلَّد فى النار بها إن سَرَق فهو من أهل النَّار خالدًا مخلدا .

وكذلك إنْ شَرِبَ الخمر فهو فى النَّار خالدًا مخلدًا وهكذا ...

والوَعِيدية يشمل طَائِفَتَيْن ولهذا قال المؤلف : « مِن القَدَرِيّة وغيرهم » . فيشمل المعتزلة ، والمعتزلة قَدَرِيّة يَرَوْن أَنَّ الإنسان مُسْتَقِل بعمله وهم وعيدية ، والخوارج وعيدية .

إذًا : الوعيدية طائفتان : الخوارج والمعتزلة .

اتَّفقت الطَّائفتان على أن فاعل الكبيرة مُخَلَّد فى النَّار ، لا يخرج منها أبدًا وأنَّ من شرب الخمر مرة كمن عبد الصَّنم ألف سنة ، كلهم مُخَلَّدون فى النار .

لكن يختلفون فى الاسم كما سيأتى إن شاء الله فى الباب الثانى[1] .

وأهل السُّنة والجماعة يقولون : لا نغلّب جانب الوَعِيد ولا جانب الوَعْد ونقول : فاعل الكَبِيرة مُسْتَحِقٌّ للعذاب وَإن عُذِّب لا يُخَلَّد فى النار .

أمَّا المُرْجِئة فيقولون : لا يَسْتَحقُّ العذاب ولن يُعَذَّب .

وسبب الخلاف بين الوعيدية وبين المرجئة أن كل واحد منهما نظر إلى النُّصوص بعين عوراء ، ينظر من جانب واحد .

هؤلاء نظروا نُصوص الوَعْد فأدخلوا الإنسان فى الرَّجاء وقالوا : نأخذ بها ونَدَعُ مَا سِوَاها ، وحملوا نصوص الوعيد على الكفار .

والوَعِيدية بالعكس نظروا إلى نصوص الوَعِيد فأخذوا بها وغفلوا عن نُصوص الوَعد .

فلهذا اختلَّ تَوَازُنهم لما نَظروا من جانب واحد .

أهل السُّنة والجماعة أَخَذُوا بهذا وهذا وقالوا : نُصوص الوعيد مُحْكَمَةٌ فنأخذ بها ونُصوص الوَعد مُحْكَمَةٌ فنأخذ بها .

ماذا يَصْنع المُرجئة فى نُصوص الوَعيد ؟!

حَملوا نُصوص الوَعيد على الكافرين وأمَّا المؤمن فلا !

أهل الوعيد قالوا : نحن نأخذ بِنُصوص الوَعِيد ونقول نُصوص الوَعْد فيمن لم يفعل هذه الأشياء .

فقال أهل السُّنة والجماعة : نأخذ من نُصوص الوَعد ما نَرُدُّ به على

---

(١) راجع ص (٦٤٤)

الوعيدية ، ونأخذ من نُصوص الوَعِيد ما نَرُدُّ به على المرجئة ونقول : فَاعِلُ الكبيرة مُسْتَحِقٌّ لدخول النَّار لئلا نهدر نُصوص الوَعِيد ، غير مُخَلَّد فيها لئلا نَهْدر نصوص الوعد .

فأخذوا بالنَّصين جميعًا وقالوا : إنَّ شعارنا قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء : ٤٨،١١٦] .

* * *

الأصل الرابع : أسْمَاء الإيمـــان والدِّيـن

● **قال المؤلف : « وَفِى باب الأَسْماء والدِّين بين الحَرُورية والمُعْتَزِلة وبين المُرْجئة الجهمية »** .

هذا فى باب الأَسماء والدِّين وهو غير باب الأحكام الذى هو الوَعْد والوَعِيد ففاعل الكبيرة ماذا نُسَمِّيه أَمُؤْمن أم كَافر ؟

أَمَّا أهل الوَعِيد فقالوا : ليس بِمؤمن وهم الخوارج والمعتزلة ، لكن الخوارج صار عندهم شجاعة وقالوا إنَّه كافر وليس فى الدِّين منزلة بين المنزلتين : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾ [يونس : ٣٢] . فهو خَرَج من الإيمان ودَخَلَ الكفر فهو كافر يَحِلُّ دَمُه وَمَاله ، ولهذا خرجوا على الأَئِمَّة وكَفَّروا النَّاس .

المُرْجِئة : خالفوا هؤلاء وقالوا مُؤْمِنٌ كامل الإيمان يَسْرق ويَزْنى ويَشْرب الخمر ، ويقتل النَّفس ويقطع الطَّريق ، ونقول له : أنت مؤمن كامل

الإيمان كَرَجُلٍ فَعَلَ الوَاجبات والمُسْتحبات وتَجَنَّبَ المُحَرَّمات أنت وهو فى الإيمان واحد . فهؤلاء وأولئك على الضد فى الإسم وفى الحكم .

فجاء المعتزلة وقالوا : نَحْنُ أَصْحَابُ العُقُول فاعل الكَبِيرة خَرَجَ من الإيمان وَوَقَف فى أَثْنَاء الطَّريق ولم يَدْخل فى الكفر فهو فى مَنْزِلَةٍ بين منزلتين لا نتجاسر أَنْ نَقُول إنَّه كافر ولَيْسَ لنا أن نقول إنَّه مُؤْمن وهو يفعل الكبيرة يزنى ويسرق ويشرب الخمر ، وقالوا : نحن أسعد الناس بالحق .

حقيقة إنَّهم إذا قالوا أن هذا لا يَتَسَاوَىٰ مع مؤمن عَابِد فقد صَدَقوا لكن كَوْنهم يُخْرِجُونه من الإيمان ثم يُحْدِثون منزلة بين منزلتين .

بدعة ما جاءت لا فى كتاب الله ، ولا فى سنة رسوله ، كل النصوص تدل على أنه لا يوجد منزلة بين منزلتين : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدىً أَوْ فِى ضَلَالٍ مُبِين﴾ [سبأ : ٢٤] ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الحَقِّ إِلَّا الضَّلَال﴾ [يونس : ٣٢].

« القرآن حجة لك أو عليك » .

﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِن ﴾ [التغابن : ٢] .

أَيْنَ المنزلة بين منزلتين ؟

هذا قَوْلٌ مُحْدَث وغير صَحِيح .

هم يقولون فى منزلة بين منزلتين ، وفى باب الوَعيد يُنَفِّذون عليه الوعيد يُوَافِقُون الخَوَارِج فى أَنَّ فاعل الكبيرة مُخَلَّد فى النَّار ، أما فى الدنيا فقالوا تجرى عليه أحكام الإسلام ، لأَنَّه هو الأَصْل فهو عندهم فى الدُّنيا بمنزلة الفاسق العاصى .

فيا سُبحان الله ! كيف نُصَلِّى عليه ونقول اللَّهُمَّ اغفر له وهو مُخَلَّد فى النَّار ؟

فيجب عليهم أن يقولوا فى أحكام الدُّنيا أنه يتوقف فيه ، لا نقول مسلم ولا كافر ولا نعطيه أحكام الإسلام ، ولا أحكام الكفر .

إذا مَاتَ لا نُصَلِّى عليهِ ، ولا نُكَفِّنه ، ولا نُغَسِّله ، ولا يُدْفَن مع المُسْلِمِين ولا ندفنه مع الكفار . إذًا : نبحث له عن مَقْبرة بين مقبرتين .

وأهل السُّنَّة والجماعة يقولون : نُسَمِّى المؤمن الذى يَفْعل الكَبيرة مُؤْمِناً نَاقِص الإيمان ، أو نَقُول مؤمن بإيمانه فَاسِقٌ بكبيرته . هذا هو العَدل ، فلا يُعْطَى الاسم المطلق ولا يُسْلَب مطلق الاسم .

ويترتَّب على هذا : أَنَّ الإنسان الفاسق لا يَجُوز لنا أن نَكْرَهه كُرْهًا مطلقًا ولا أن نُحِبُّه حُبًّا مُطْلقًا ، بل نُحِبُّه على مَا مَعَهُ من الإيمان ، وَنكْرَهَهُ عَلَى مَا مَعَهُ من المعصية .

* * *

الأصلُ الخامِس : فى الصَّحابة رضى الله عنهم

● **قال المؤلف : « وَفِى أَصحَاب رَسُولِ الله ﷺ بين الرَّافضَة والخَوَارِج » .**

أَصحاب : جمع صَحب ، والصَّحب اسم جمع صاحب ، والصَّاحب الملازم للشىء .

والصَّحابى : هو الذى اجتمع بالنَّبى ﷺ مُؤْمِنًا به ومات على ذلك وهذا خاص فى الصَّحابة(١) .

---

(١) راجع مقدمة الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى (٦/١ : ٨) .

وهذا من خصائص النَّبى ﷺ أنَّ الإنسان يكون من أصحابه وإن لم يجتمع به إلَّا لحظه لكن بِشَرْط أن يكون مُؤْمِنًا به « بين الرَّافضة والخَوَارِج » .

الرَّافضة : الَّذين يُسَمَّوْنَ اليوم « شِيعة » .

وسُمُّوا رافضة ؛ لأنهم رفضوا زَيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنه . الذى يَنْتَسِبُ إليه الآن الزَّيدية .

رَفَضُوه ، لأنَّهم جاءوا إليه يَسْأَلُونه : ما تقول فى أَبِى بَكْرٍ وعمر ؟

يُرِيدون منه أن يَسُبَّهما ويَطْعَن فيهما ! ولكنه رضى الله عنه قال لهم : « نِعْم الوزِيران وَزِيرا جَدِّى » يُريد بذلك رَسُول الله ﷺ فأَثْنَى عليهما فرفضوه وغضبوا عليه وتركوه فسُمُّوا رافضة(١) .

هؤلاء الرَّوافض - والعياذ بالله - لهم أُصُول معروفة عندهم يمشون عليها ومن أقبح أُصولهم : الإمَامَة التى تتضمَّن عِصمَة الإمام وأنَّه لا يقول خطأً وأنَّ مقام الإمَامة أَرْفَعُ من مَقَام النُّبوة ، لأَنَّ الإمام يَتَلقَّى عن الله مُباشرة(٢) ، والنبى بواسطة الرَّسول وهو جبريل ، ولا يُخْطِىء الإمام عندهم أبدًا ، بل غُلاتهم يدَّعون أنَّ الإمام يخلق يقول للشَّىء كن فيكون .

ويقولون : إنَّ الصَّحابة كفَّار وكُلُّهم ارْتَدُّوا بعد النَّبى ﷺ حتى أبو بكر وعمر عند بعضهم كَانَا كَافِرين ومَاتَا على النِّفاق - والعياذ بالله - ولا يستثنون من الصَّحابة إلَّا آل البيت ، ونفرًا قليلًا ممن قالوا إنَّهم من أولياء آل البيت .

---

(١) راجع فى ذلك : منهاج السُّنة النبوية فى نقض كلام الشيعة والقدرية .

(٢) وفى ذلك يقول الخمينى فى كتابه الحكومة الإسلامية ص (٤٧) : « وإنَّ من ضَرُوريات مَذْهَبنا أن لِأئِمَّتنا مَقَامًا لا يَبْلُغه مَلَكٌ مُقَرَّب وَلا نَبِىٌّ مُرْسَل » ا.هـ وانظر تفنيد هذه الخرافات والأباطيل فى كتاب « ولاية الفقيه فى ميزان الإسلام » للدكتور فاروق عبدالسَّلام ص (٤٩ ، ٥٠) .

وقد قال صاحب كتاب الفِصل : « إنَّ غُلاتهم كَفَّروا حتَّى على بن أبى طالب قالوا لأنَّ عليًا أقرَّ الظُّلم والبَاطل حين بَايع أَبا بَكْرٍ وَعُمَرَ ، وكان الواجب عليه أن يُنْكِرَ بَيْعَتِهما فَلَمَّا لَم يأخذ بالحق والعدل وَوَافق على الظُّلم صَارَ ظَالِمًا كافرًا » .

أَمَّا الخوارج : فهم على العكس حيث أنهم كَفَّروا على بن أبى طالب وكفروا معاوية بن أبى سفيان ، وكفَّروا كُلّ مَنْ لم يَكُن على طَريقتهم . واسْتَحَلُّوادماء المسلمين ، ولكنهم كما وصفهم النبى عليه الصلاة والسلام : « يَمْرُقُونَ مِن الإسْلَام كَمَا يَمْرق السَّهم من الرَّمية »[1] وإيمانهم لا يتجاوَزُ حَنَاجِرهم ، فهؤلاء غَلوا فى آل البيت وأشياعهم وبَالَغوا فى ذلك حتى إن منهم من ادَّعىٰ أُلوهية عَلىّ ، ومنهم من ادَّعى أنه أَحَقُّ بالنّبوة من محمد رسول الله ﷺ والخوارج بالعكس .

أَمَّا أهل السنة والجماعة : فكانوا وَسَطًا قالوا : نحن نُنْزِلُ آل البيت منزلتهم ونرى أن لهم حَقَّين علينا : حقُّ الإسلام والإيمان ، وحقُّ القَرابة من رسول الله ﷺ . وقالوا : قَرابة رَسُول الله ﷺ لها الحق علينا ، لكن من حَقِّها علينا أن نُنزلها مَنْزِلتها ، وأن لا نَغْلُوا فيها ، ويقولون فى بقيّة أُصحاب الرسول ﷺ لهم الحق علينا بالتَّوقير والإِجلال والتَّرضِّى وأن نكون كما قال الله تعالى : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحشر : ١٠] .

ولا نُعَادِى أَحَدًا منهم أبدًا لا آل البيت ولا غيرهم ، فكل منهم نُعْطِيه حقَّه . فصاروا وَسَطاً بين جُفَاةٍ وغُلَاةٍ .

* * *

(١) البخارى (٦٩٣٠) ومسلم (١٠٦٦) (١٥٤) من حديث على رضى الله عنهم .

فصــل

فيما يَدخُل فى الإيمان بالله

وُجُوب الإيمان باستواء الله عَلَىٰ عَرشِه وعُلُوِّه عَلَىٰ خَلْقِه ومَعيّتِه لِخلقه وأنَّه لا تَنَافِى بينهما

١٥٢ – وَقَدْ دَخلَ فِيما ذَكَرْنَاهُ مِن الإيمان بالله : الإيمانُ بمَا أَخْبَرَ الله بِهِ فِى كِتَابِهِ وتَوَاتَرَ عَن رَسُولِهِ ﷺ ، وَأَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الأُمَّة من أَنَّه سُبحانه فَوْقَ سَبْع سَمَاوَاته عَلَىٰ عَرْشِه بَائِنٌ مِن خَلْقِه .

١٥٣ – وهو سُبْحَانه مَعَهُم أَيْنَما كَانُوا يَعْلَمُ مَا هُم عَامِلُون .

١٥٤ – كَمَا جَمعَ بَيْن ذَلِك فى قَوْله : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد : ٤] .

١٥٥ – وَلَيْسَ مَعْنَى قَوْله : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ [الحديد : ٤] أَنَّه مُخْتَلِطٌ بِالخَلْقِ ، فَإِنَّ هَذَا لا تُوجبه اللُّغة ، وهو خِلافُ مَا أَجْمَعَ عَليه سَلَفُ الأُمَّة ، وَخِلَاف مَا فَطَرَ الله عَليه الخَلق .

١٥٦ – بل القَمر آية من آيات الله من أَصغر مَخْلُوقَاتِهِ ، وهو مَوْضُوعٌ فى السَّماء ، وهو مع المُسَافِر وغير المُسَافر أينما كان .

١٥٧ – وهو سُبْحَانه فَوْق عَرْشِهِ رَقِيبٌ على خَلْقِه مُهَيْمِنٌ عليهم مُطَّلع عَليهم إلى غير ذلك من مَعَانى رُبُوبِيَّته .

الشـــــرح

● **قال المؤلف** : « **وَقَد دَخلَ فِيمَا ذَكَرنَاهُ مِن الإيمان بالله ، الإيمَانُ بِما أَخْبَرَ الله بِهِ فِى كِتَابه وَتَوَاتَر عَن رَسُوله ﷺ وَأَجمعَ عَلَيه سَلَفُ الأُمَّة** » .

هذه ثلاثة أَدِلَّة ومرَّ علينا دليلٌ رابع ، وخامس وهما العقل والفطرة .

● « **مِن أَنَّه سُبحَانه فَوْقَ سَمَاوَاتِه عَلَى عَرشِه بَائِنٌ مِن خَلْقِه** » تقدم لنا أن عُلُو الله عز وجل : عُلو صِفَة ، وعُلو ذَات ، وَأَنَّ علو الذَّات دَلَّ عليه الكتاب والسُّنة والاجماع والعقل والفطرة .

● **فالكتاب** : مملوء من ذلك : تارةً بالتَّصريح بالفَوقية وتَـارَة بالتَّصريح بالعلو ، وتَارَةً بالتَّصريح بأَنَّه فى السَّماء ، وتارة بِنُزُول الأَشْياء من عِنْده ، وتارة بِصُعُودِها إليه .

● **والسُّنة** : جاءت بالقَول والفِعل والإقرار . وسبق ذكر ذلك .

● **أما الاجماع** : فقد أجمع السَّلف على ذلك . وطريق العلم بإجماعهم عدم نقل ضِد مَا جَاءَ فى الكتاب والسُّنة ؛ فإنَّهم كانوا يقرءون القرآن وينقلون الأخبار ويَعْلَمُون مَعَانِيها ، ولما لم يُنْقَل عنهم ما يُخَالِف ظَاهِرها عُلِم أنهم لا يَعْتَقِدُون سِواه وأنهم مجمعون على ذلك .

● **وأما العقل** : فمن وجهين : الوَجْه الأَوَّل : أَنَّ العلو صِفَةُ كَمَالٍ لا إِشكال فى ذلك والله تعالى قد ثَبَتَ له كل صِفات الكمال فوجب إِثْبَاتُ العُلُوِّ له سبحانه .

الوجه الثَّانى : إذا لم يكن عاليًا فإمَّا أن يكون تحت أَو مُسَاويًا وهذا صفة نقص لأنَّه يستلزم أن تكون الأشياء فوقه أو مثله فلزم ثبوت العلو له .

● **أمَّا الفطرة** : فلا أَحَد يُنْكِرها إلَّا من انحرفت فِطْرَتُه فكل إنسان يقول : يا الله يتَّجه إلى السَّماء .

* * *

● **قال المؤلف : « وَهُوَ سُبْحَانَهُ مَعَهُم أَيْنَما كَانُوا يَعْلَمُ مَا هُم عَامِلُون »** .

وهذا قد سَبَق الكلام عَلَيه ، وأَنَّ مَعِيَّة الله تَنْقَسِم إلى عامَّة وخاصَّة ، وخاصَّة الخاصَّة .

فالعامَّة : التى تشمل كل أَحَد من مُؤْمن وكَافِر وَبرٍّ وفَاجِر ومثالها قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُم أَيْنَمَا كُنْتُم ﴾ [الحديد : ٤] .

والخاصة : مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الله مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحسِنُونَ ﴾ [النحل : ١٢٨] والتى أَخَصُّ مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه : ٤٦] .

وقوله عن رسوله محمد ﷺ : ﴿ إِنَّ الله مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠] .

وسَبَق أَنَّ هذه المعيَّة حقيقية ، وأَنَّ من مُقْتَضَاها العِلْم والسَّمع والبَصَر والقُدْرة والسُّلطان وغير ذلك .

* * *

● **قال : « كما جمع بين ذلك فى قوله** : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ

مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾ [الحديد : ٤]

ففى قوله : ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ﴾ إثبات العُلو .

وفى قوله : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ ﴾ إثْبَاتُ المَعِيَّة ، وإذا جمع الله لِنَفْسِهِ بين وَصفَين فإنَّنا نَعْلَمُ علم اليقين أنَّهما لا يَتَنَاقَضَان لأَنَّهما لو تَنَاقَضَا لكان أحدهما يُكَذِّب الآخر . إذ أن المتناقضين لا يجتمعان ولا يرتفعان فلابد من وجود أحدهما وانتفاء الثَّانى ، ولو كان هناك تَنَاقُض لَزِمَ أن يكون أَوَّل الآية مكذبًا لآخرها أو بالعكس .

ثانيًا : ذكرنا أيضًا أَنَّه قد يجتمع العُلُو والمعيَّة حتى فى المخلوقات كما سيذكره المؤلف فى قول الناس : « مَا زِلْنَا نَسِير والقمر معنا » .

الثالث : لو فُرِضَ تَعَارضهما بالنِّسبة للمخلوق لم يلزم ذلك بالنِّسبة للخَالق ، لأن الله ليس كمثله شىء .

* * *

● **قال المؤلف : « وليس معنى ﴿ وَهُوَ مَعَكُمۡ ﴾ [الحديد : ٤] أنَّه مُختَلِطٌ بالخلق ، فإن هذا لا تُوجبه اللُّغة ، وهو خِلاف ما أجمَع عليه سَلَف الأُمَّة ، وخِلاف مَا فَطَر الله عَلَيْه الخَلْق .**

قال : « وَلَيْسَ معنى قوله : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ أَنَّه مختلط بالخلق » .

مَعلُوم أنه لا يكون هذا المعنى لأَنَّه نَقْصٌ . وقد ذكرنا أنه لو كان هذا هو المَعنى لَزِمَ أَحد أَمْرين : إما تَعَدُّد الخالق أَو تَجَزُّؤه مع ما فى ذلك أيضًا من كون الأَشياء تُحِيطُ به ، وهو سبحانه محيطٌ بالأشياء .

قال المؤلف : « فإِن هذا لا تُوجِبُه اللُّغة » .

لم يقل : « لا تَقْتَضِيه اللُّغة » ، لأننا إذا قلنا تُوجِبُه فمعناه أَنَّ اللغة تُحَتِّم أن معنى المعية الإختلاط ، واللُّغة لا تُوجب ذلك ، لكن قد تَقْتَضِيه ، ففرق بين كون اللغة تَقْتَضِى ذلك ، وبَيْن كونها تُوجب ذلك .

إذًا : فنقول : « لا تُوجبه » لأَنَّنا لو قلنا لا تَقْتَضيه لكان هذا خلاف الواقع فإن المعية فى اللُّغة قد تَقْتَضى الاختلاط مثل الماء واللبن .

تقول : ماء مع لبن مخلوطًا .

إذًا : هذا اختلاط ويَصِحُّ فى اللُّغة ، فالمعيَّة فى اللُّغة العربية قد تَقْتَضى الاختلاط .

قال المؤلف : « وَهُو خِلافُ مَا أَجمَع عليه سَلَفُ الأمة وخِلاف مَا فَطَر الله عليه الخلق » ؛ لأَن الإنسان مَفْطُور على أَنَّ الخالق بائن من المخلوق ليس أحد إذا قال يا أَللهُ إلا ويعتقد أَنَّ الله تعالى بائن من خَلْقِه لا يَعتَقد أَنَّه حالٌّ فى خَلْقِه .

كل النَّاس إذا قالوا : يارب ! يَعتَقِدون أَنَّ الرَّب بَائِنٌ من خلقه ، فَدَعوىٰ أَنَّه مختلط بالخلق مُخَالف للشَّرع ومُخَالِفٌ للعقل ومُخَالف للفطْرة .

* * *

● **ثم قال المؤلف ممثلا مقربا للمعنى : « بل القَمَر آيَةٌ مِن آيَاتِ الله من أَصغَر مَخلُوقَاتِهِ وَهُو مَوْضُوعٌ فى السَّمَاء ، وهُوَ مَعَ المُسَافِر وَغَيْر المُسَافِر أَيْنَما كان »** .

« بل » : للإضراب الانتقالى .

« وَهُوَ مَوْضُوعٌ فى السَّمَاء » يعنى فى العُلو ، فإذا كان هذا المخلوق وهو من أصغَر المخلوقات نقول : إنَّه معنا وهو فى السَّماء ولا يُعَدُّ ذلك تَنَاقُضًا ولا يَقْتَضى اختلاطًا فلماذا لا يَصِحُّ أن نُجرى الآيات على ظَاهِرها وَنقول : وهو معكم حقيقة ، وإن كان هو فى العلو فوق كل شىء .

إذا كان العرب يقولون : إنَّ القَمَر مَعَنا وهو فى السَّماء ، وهو مخلوق صغير . ويقولون ذلك على سبيل الحقيقة فلماذا لا نقول إن الله معنا على سبيل الحقيقة وهو فى السَّماء ؟ وكما قلنا سابقًا : لو فُرض أَنَّ هذا ممتنع فى الخلق لكان فى الخالق غير مُمتنع . فالرَّب عزَّ وجل هو فى السَّماء ، ويَصِحُّ أن نقول أنَّه معنا ، ولا تَنَاقُض فى ذلك حتى وإن كان بعيدًا عزَّ وجلَّ فى عُلُوه ، فإنه قريب فى دنوه ، وهذا الذى حَقَّقَهُ شيخ الإسلام فى كُتُبه وقال : إنَّه لا حَاجَة إلى أن نُؤَوِّل الآية بل الآية على ظاهرها لكن مع اعتقادنا بأَنَّ الله تعالىٰ فى السَّماء على عَرْشه فهو مَعَنا حَقًّا ، وهو على عَرْشه حقًّا كما نقول : أنه ينزل إلى السَّماء الدُّنيا حقًّا . وهو فى العلو ولا أحد من أهل السُّنَّة يُنكر هذا أبدًا ، كل أهل السُّنة يقولون : هو ينزل حقًّا وهو على عَرشه ، أَوْ يَسْكُتون عن كلمة « عَلَىٰ عَرشِهِ » ولكنهم مُتَّفِقُون على أنه فى العلو ذلك ، لأن صفات الخالق ليست مثل صفات المخلوق وقد ضَرَبَ لنا شيخ الإسلام هذا المثل فى القمر فوق ونقول : معنا .

ولا يَتَنَاقَضُ الكلام . فإذا كان هذا فى المخلوق فما بَالك فى الخَالق ؟

وقد عَثَرْتُ على تقرير للشيخ محمد بن إبراهيم – رحمه الله – يبين هذا المعنى تمامًا أى أن المعية حَقٌّ على حقيقتها ، ولا تَستَلْزِم أن يكون مُخْتَلِطًا بالخلق أو أنه فى الأرض . قال تعليقًا على قول بعض السلف : مَعَهُم بِعِلْمِهِ: « إذَا جَاءَت هذه الكَلِمة فهى تَفْسير للمعيَّة بالمُقْتَضىٰ ليس تفسيرًا لحقيقة الكلمة

والذى يحمل ويَحدُو على التَّفسير بهذا أَنَّ المُنَازِع فى هذا المُبْتَدعة الذين يقولون : إنَّه مُخْتَلِطٌ بهم فيأتى البعضِ من السَّلف بالمراد بالسِّياق ، وهو أنَّه بكمال علمه ، ولكن لا يريدون أنَّ كلمة (مع) مَدلُوها بكل شيء عليم بل اجتمعت فى العلم ، وزادت المعيَّة فى المعنى وهو كونه معهم ، فَتَفْسِيرُها بالمُقْتَضى لا يَدُلُّ على أنَّ معناها باطل ، فالكلُّ حقٌّ قال : ولهذا شيخ الإسلام فى عقيدته الأُخْرىٰ المباركة المختصرة بيَّن أَنَّ قوله مَعَهُم حق عَلَى حَقِيقه ، فمن فسَّرها من السلف بالمقتضى فَلِحاجَةٍ دَعَت إلى ذَلك وهُوَ الرَّدُّ على أَهْل الحلول الجهميَّة الذين يُنْكرون العلو كما تَقَدَّم » . اهـ فى الفتاوى[1] .

سؤال : هل يَصِحُّ أن نقول هو مَعَنَا بذاته ؟

الجواب : هذا اللَّفظ يجب أن يَبْعد عنه لأَنَّه يوهم معنى فَاسِدًا يَحْتَجُّ به من يقول بالحلول ، ويحتج عليه من يُفَسِّر المعيَّة بالعلم .

* * *

● قال المؤلف : « **وهو سُبْحَانَهُ فَوْقَ عَرشِه رَقِيبٌ عَلى خَلْقِه مُهَيْمِنٌ عَلَيْهِم مُطَّلِعٌ عَلَيهِم إلى غَيْر ذَلِكَ مِن مَعَانِى رُبُوبِيته** » .

يقول – رحمه الله – « وَهُو سُبْحَانَهُ فوق عَرشِه » مع أَنَّه مع الخلق لكنه فوق عرشه « رَقِيبٌ عَلَىٰ خَلْقِهِ » : يعنى مُرَاقبًا حَافِظًا لِأَقْوَالِهم وأَفْعَالِهم وحَرَكَاتِهم وسَكَنَاتِهم « مُهيمن عَلَيهم » : أى حاكم مُسَيْطر على عباده ، فله الحكم ، وإليه يرجع الأمر كُلّه ، وأَمْرُه إذا أَرَادَ شيئًا أن يقول له كن فيكون .

(١) فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ (١/٢١٢ ، ٢١٣) جمع وترتيب ابن قاسم .

ولكن يقول : « مُطَّلع عَلَيْهم » : يعنى أَنَّه ناظرٌ لهم لا يخفى عليه شىء من أَحوَالهم « إلى غير ذلك من مَعَانِى رُبُوبِيَّته » ومَعَانى الرُّبوبية كثيرة ، لأَنَّ الرَّب هو الخالق المالك المُدَبِّر ، وهذه تحمل مَعَانى كثيرة جدًا .

* * *

ما يجب اعتقاده فى عُلُوِّه ومَعيّته سبحانه ومَعنَى كَوْنه سبحانه فى السَّماء ، وأدلة ذلك

١٥٨ - وكُلُّ هذا الكَلام الذى ذكر الله - من أَنَّه فوق العَرش وأَنَّه مَعَنا - حقٌّ عَلَىٰ حقيقته لا يَحْتَاجُ إلى تحريف .

١٥٩ - ولكن يُصَانُ عن الظُّنون الكَاذِبة مثل : أَنْ يُظَنَّ أَنَّ ظَاهِر قوله : ﴿ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الملك : ١٧] أَنَّ السَّماء تُقِلُّه أَوْ تُظِلُّه ، وهذا بَاطِلٌ بِإجْمَاع أَهْل العِلم والإيمان .

١٦٠ - فإنَّ الله قد ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾

[البقرة : ٢٥٥] .

١٦١ - وَهُو الَّذى ﴿ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ﴾

[فاطر : ٤١] .

١٦٢ - ﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ﴾

[الحج : ٦٥] .

١٦٣ - ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ .

[الروم : ٢٥] .

الشـــرح

● **قال المؤلف : « وَكُلُّ هَذَا الكَلام الذى ذَكَرَه الله - من أَنَّه فوق العرش وأَنَّه معنا - حَقٌّ على حَقِيقته لا يَحتَاجُ إلى تَحريف » .**

هو فوق العرش حَقٌّ ومَعَنا حَقٌّ على حقيقته .

ليس معنى كَوْنه فوق عباده أو فوق خلقه ، أو فوق عرشه أنَّه فَوْقهم فى المعنى والقُدرة والقوة كما قاله أهل التَّعطيل الذين يُنكِرون الفَوْقِيَّة الذَّاتية .

ويقولون : إنَّه فوق عباده : يعنى فى القوة والقُدرة والعلم مثل أن تقول : « الذَّهب فوق الفِضَّة » يعنى فى المقدار والنَّفَاسَة وما أشبه ذلك !! بل هو فَوْقَ عباده وفَوْق العَرش بِذَاتِه ، وهو معنا أيضًا على حقيقته .

وقول المؤلف : « لا يَحتَاجُ إلى تَحرِيفٍ » التَّحريف : هو صَرفُ اللَّفظ عن ظاهره بغير دليل .

يعنى لا يحتاج أن نعرف معنى المعية عن ظاهرها بل نقول هى حَقٌّ على ظاهرها ، ومن فسَّرها بغير حَقِيقَتِها فهو مُحرف . كما أنَّ الفوقية إذا فَسَّرها الإنسان بغير الفَوْقِيَّة التى هى فوقيّة الذَّات صَار مُحَرِّفًا . وعلى هذا : هذا حَقٌّ على حقيقته ، وهذا حقٌّ عَلَىٰ حَقِيقَتِه وَلَا يَحْتَاجُ إلى تَحْرِيفٍ لكن يَحْتَاجُ إلى شَىءٍ آخَر وهو ما ذكره بقوله : « وَلَكِن يُصَانُ عن الظُّنُون الكَاذِبة » .

الظُّنون الكاذبة : هى الأَوْهَام ؛ لأَنَّ الظَّن ظَنٌّ صَادِق ، وَهُو مَا تَرَجَّح من أَحَد الاحتمالين وهو ما يُعرف فى أصول الفقه بالوَهْم .

* * *

● **قال المؤلف : « مِثْل أن يُظَنَّ أَنَّ ظَاهِر قوله : ﴿ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾** [الملك : ١٧] **أَنَّ السَّماء تُقِلُّه أَوْ تُظِلُّه وهذا باطِلٌ بإجماع أَهْلِ العِلْمِ والإيمَان »** .

الله فى السَّماء يَعْنى فى العُلو فوق كل شيء فالظَّنُّ الكَاذِب ، فِي مِثْل هَذَا التَّعْبِير أَن نَظُنَّ أَنَّ السَّمَاء تُقِلُّه أى تَحْمِلُه ، وأَنَّه مُحْتَاجٌ إلى السَّمَاء كما إذا قلنا : فُلانٌ فى السَّطح ، فالسَّطح يُقِلُّه لولا السَّطح لَسَقَطَ .

فالذى يَظُنُّ أن معنى قوله « فى السَّمَاء » أَنَّ السَّماء تُقِلُّه نقول له : هذا ظَنٌّ كَاذِبٌ لا يَصِحُّ .

« أَوْ تُظِلُّه » يعنى تكون فوقه كالسَّقف على الإنسان . إذا ظَنَّ الإنسان هذا فهو ظنٌّ كاذب يجب صَوْن الأَدِلَّة الدَّالة على أَنَّ الله فى السَّماء عن ذلك .

قد يقول قائل : كان على المؤلف أَنْ يقول : ومثل أن يُظَنَّ أن ظاهر قوله : ﴿ وَهُوَ مَعَكُم ﴾ [الحديد : ٤] أَنَّه مُخْتَلِطٌ بالخلق ؛ لأَنَّ هذا الظَّن الكاذب يَرِدُ عَلَيّ .

وَجَوَابُه أن نقول : إنَّ المؤلف – رحمه الله – ذكر ذلك سابقًا فى قوله : « وليس معنى قوله : ﴿ وَهُوَ مَعَكُم ﴾ أَنَّه مُخْتَلِطٌ بِالخَلْق » .

إذًا : نقول الفوقية والمعيَّة يجب أن نحملها على ظَاهِرها وَحقِيقَتِها ولا يمكن أَن نحملها على ظن كَاذِب يجب أن يُصَان عنه كلام الله وكلام رَسُوله ولهذا قال المُؤَلِّف – رحمه الله –: « وَهَذا بَاطِلٌ بِإجْمَاع أَهْل العِلْم والإيمان » .

أجمع أهل العلم والإيمان بأَنَّ ظَن أن السَّماء تُقِلُّ الله أو تُظِلُّه ظَنٌّ باطل لا يجوز أبدًا أن نتوهَّمُه فى الله عزَّ وجل .

* * *

● ثم قال : « فإنَّ الله قد ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ » .

« الكُرْسى » كما يروى عن ابن عباس موضع القدمين(1) .

﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] يعنى أَحَاطَ بالسَّماوات والأرض . السماوات السَّبع والأرضين السَّبع .

فكيف يَظُنُّ ظَان أَنَّ السَّمَاء تُظِلُّ الله أَوْ تُقِلُّه فهو دُونها قَطْعًا لأَنَّها فَوْقَه سبحانه وتعالى !! فإذا كان قد وَسِع كُرْسِيُّه السَّماوات والأَرض فلا يَظُنُّ أحدٌ أبدًا هذا الظَّن الكاذب ، وهو أن السَّماء تُقِلُّه أو تُظِلُّه .

* * *

---

(١) **صَحِيحٌ مَوْقُوفًا** : أخرجه محمد بن عثمان بن أبى شيبة فى كتاب العرش (٦١) وعبدالله ابن أحمد فى السنة (٤٠٧) والدارمى فى الرد على المريسى ص (٧١ : ٧٤) وابن خزيمة فى التوحيد ص (١٠٧ ، ١٠٨) والطبرى فى التفسير (٥٧٩٢) والطبرانى فى الكبير (١٢٢٠٤) والدارقطنى فى كتاب الصفات (٣٦ ، ٣٧) والحاكم فى المستدرك (٢/٢٨٢) من طريق سفيان عن عمار الدهنى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس موقوفًا عليه . وإسناده حسن : فعمار الدُّهنى أبو معاوية البجلى صدوق روى له أصحاب الكتب السِّتة إلا البخارى كما فى التقريب ، ومع ذلك فقد قال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبى !! وقال الهيثمى فى المجمع (٦/٣٢٣) : « رجاله رجال الصحيح » ا.هـ .

وفى الباب عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : « الكرسى موضع القدمين وله أطيط كأطيط الرجل » أخرجه محمد بن عثمان بن أبى شيبة فى كتاب العرش (٦٠) وعبدالله بن أحمد فى السنة وابن جرير فى تفسيره (٣/٧) والبيهقى فى الأسماء والصفات ص (٥١٠) وأبو الشيخ فى العظمة (٢/٤٢) والذهبى فى العلو (١٢٤ - مختصر) وإسناده صحيح موقوف كما قال الألبانى فى مختصره للعلو ، وراجع كلام شيخ الإسلام ابن تيمية فى الرسالة العرشية على هذا الأثر وكذا ما قاله الشيخ العثيمين فى تفسير آية الكرسى ص (٢٤ : ٢٦) .

وقد روى هذا الأثر مرفوعًا ولا يصح وراجع لذلك : التهذيب (٤/٣١٣) وتفسير ابن كثير (١/٣٠٩) وشرح الطحاوية لابن أبى العز (٢/٣٦٩) والميزان (٢/١٦٥) .

● ثم قال المؤلف : « وهو الّذى ﴿ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ ﴾

[فاطر : ٤١]

يُمْسِكهُما أَنْ تَزُولا عن أَماكِنِها ولولا إِمْسَاكُ الله لهما لاضطربتا ومادتا وزَالتا ، ولكن الله عز وجل بقدرته وقوته يُمْسك السَّماوات والأَرض أن تَزُولا بل قال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِن بَعْدِهِ ﴾ [فاطر : ٤١] ما أمسكهما أحد بعد الله أبدًا . لو تَزُول نجمة من النُّجوم لا يستطيع أحدٌ أَنْ يُمْسِكهـا فكيف لو زَالَت السَّماوات والأَرْض ما يُمْسِكُها الله الَّذى خلقها الذى يقول للشيء كن فيكون ! سبحانه وتعالى بيده ملكوت السَّماوات والأرض .

* * *

● قال المؤلف : ﴿ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ ﴾

[الحج : ٦٥] .

السَّماء فوق الأرض . وَوَالله ! لولا إِمْسَاكُ الله لها لوقعت على الأرض لأنَّها أَجْرَام عظيمة ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحفُوظًا ﴾ [الأنبياء : ٣٢] ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٧] .

لولا أَنَّ الله يُمْسِكُها لَوَقَعَت على الأرض ، وإذا وَقَعَت على الأرض أَتْلَفَتْهَا فالذى يمسك السَّماوات والأرض أن تزولا ، ويُمْسِكُ السَّماء أن تقع على الأَرْضِ إلَّا بِإِذْنِه هل يَتَصَوَّر مُتَصَوِّرٌ أَنَّ السَّماء تُقِلُّه ؟!

لا أحَدَ يَتَصوَّر ، ولا أَنَّ السَّماء تُظِلُّه أيضًا .

* * *

● **قال المؤلف** : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [الروم : ٢٥] .

﴿ منِ آياته ﴾ : يعنى من العلامات الدَّالة على كماله عز وجل من كل وجه : ﴿ أَنْ تَقُومَ السَّماء وَالْأَرْض بِأَمْرِهِ ﴾ [الروم : ٢٥] الكونى والشرعى .

﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَات وَالْأَرْض وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [المؤمنون : ٧١] والأهواء فساد للسَّماوات والأَرض وهى مُخالفة للأمر الشَّرعى .

إذًا : فالسَّماوات والأَرْض تقوم بأمر الله الكونى والشَّرعى .

ولو أَنَّ الحق اتَّبع أهواء الخلق لفَسَدَت السَّماوات والأَرْض وَمَنْ فيهن وَلِهذا قال العُلماء فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ [الأعراف : ٥٦] أى : « لا تُفْسِدُوا فيها بالمَعَاصى »[١] .

* * *

---

(١) قال ابن جرير فى تفسيره (٢٣٨/٨) : « قوله ﴿ ولا تُفْسِدوا فى الأرض ﴾ يقول : ولا تعملوا فى أرض الله بمعاصيه ، وما كنتم تعملونه قبل أن يبعث الله إليكم نبيه من عبادة غير الله والإشراك به ... » اهـ

فصـل
فيما يدخل فى الإيمان بالله

وجوب الإيمان بقربه من خلقه وأن ذلك لا ينافى علوه وفوقيته

١٦٤ - وَقَدْ دَخَلَ فِي ذَلِك : الإيمَانُ بِأَنَّه قَرِيبٌ مُجِيب .

١٦٥ - كما جُمِعَ بَيْنَ ذَلِكَ فى قوله : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة : ١٨٦] .

١٦٦ - وقوله ﷺ : « إِنَّ الَّذِى تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلى أَحَدِكُم مِن عُنق رَاحِلَتِه » .

١٦٧ - وَمَا ذكر فى الكتاب والسُّنة مِنْ قُرْبِهِ وَمَعِيَّتِهِ لا يُنَافِى مَا ذُكِر من عُلُوِّه وفَوْقِيَّته فإنَّه سبْحَانه لَيس كَمِثْلِهِ شَىْءٌ فِى جَمِيع نُعُوتِهِ ، وَهُو عَلِيٌّ فى دُنوِّه ، قَرِيبٌ فِى عُلُوِّه .

الشـــــرح

● **قال المؤلف : « فَصْل : وَقَد دَخَلَ فى ذَلِكَ الإيمان بأنَّه قَرِيبٌ مُجيب » .**

قوله : « دَخَل فِى ذَلِكَ » يعنى فيما وَصَف به نفسه : الإيمانُ بأنَّه قريبٌ فى نفسه ومُجيب يعنى لعباده ، ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة : ١٨٦] .

وفيها ثمان ضَمَائر تعودُ على الله ، وعلى هذا فيكون القُرْب قُرْبه عَزَّ وجلَّ ، ولكن نقول فى قَريب كما قُلنا فى المعيّة أنه لا يستلزم أن يكون فى المكان الذى فيه الإنسان وإذا كان الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام يقول : « إِنَّه أَقْرَبُ إِلى أَحَدِكُم مِن عُنق رَاحِلَتِهِ » ولا يَلْزَم أَنْ يَكُون الله عَزَّ وَجَلَّ نَفْسُه فى الأَرْض بينه وبين عنق رَاحِلته .

وإذا كان قول الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام : « فإِنَّ الله قِبَل وَجْه المُصَلى » لا يستلزم أن يكون الله بَيْنه وبين الجدار إن كان يصلى إلى الجدار ولا بينه وبين الأَرْض إن كان ينظر إلى الأرض فكذلك لا يلْزَم من قُربه أَن يكون فى الأرض ، لأنَّ الله ليس كمثله شىء فى جميع صِفَاته ، وهو مُحيط بكل شىء .

وسبق لنا هل القُرب من الصِّفات الخاصَّة أو من الصِّفات العامة ؟

ذكرنا فى هذا قولين للعلماء : منهم من يُقَسِّم القرب إلى قِسمين عام وخاص ، ويقول : القرب الذى مُقْتَضَاه الإحاطة قُرْب عام ، والقُرب الذى مُقْتَضاه الإجابة خاص ومنهم من يقول إِنَّ القُرب خاص فقط ولا يَنْقسم فهو خاص بمن يتعبَّد لله تعالى أو يدعوه ويَسْتَدِلّ هؤلاء بقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة : ١٨٦] . وبقول النبى ﷺ : « أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِن رَبِّه وَهُوَ سَاجِد »(١) .

أَمَّا القُرْب العَام لِكُلِّ إِنْسَان حتَّى من الفَجَرة الكَفَرة ، فهذا لا يمكن أن نقول أن الله قَرِيب من رَجُلٍ كَافِر فَاجر ؟ وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية — رحمه الله —.

(١) رواه مسلم (٤٨٢) (٢١٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

ولكن أورد على هذا القول قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيد ﴾ [ق : ١٦] فالمراد بالإنسان كل إنسان ولهذا قال فى آخر الآية : ﴿ لَقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوم حَدِيد ﴾ ... إلى أن قال : ﴿ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [ق : ٢٢-٢٤] فهو شامل .

ويَرِدُ عليه أيضًا قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُوم وأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُون وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكم وَلكِن لَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الواقعة : ٨٣-٨٥] .

ثم قَسَّم هؤلاء الذين بَلَغت أَرْوَاحهم الحلقوم إلى ثلاثة أَقْسَام ومنهم الكافر وأُجِيب عن ذلك : بأن قوله : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيد ﴾ [ق : ١٦] يعنى بملائكتنا ، واستدل لذلك بقوله : ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ ﴾ [ق : ١٧] فإن ﴿ إِذْ ﴾ ظرف مُتَعَلِّق بأَقْرَب ، يعنى ونحن أقرب إليه حين تلقى المُتَلَقيين . وهذا يدلُّ على أنَّ المراد بِقُرْبه تعالى قُرب ملائكته .

وكذلك قوله فى المحتضر : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ ﴾ المراد قُرْب الملائكة .

ولهذا قال : ﴿ وَلَكِن لَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الواقعة : ٨٥] وهذا يَدُلُّ على أن هذا القريب موجود عندنا لكن لا نُبْصِره ، وهذا يمتنع غاية الامتناع أن يكون المراد به الله عزَّ وجل ، لأن الله فى السَّماء ، وما ذهب إليه شيخ الإسلام فهو عندى أَقرب ، ولكنه لَيْسَ فى القُرب بذاك .

* * *

● **قال المؤلف : « كما جمع بين ذلك فى قوله :** ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة : ١٨٦] »

وقوله ﷺ : « إن الذى تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته »[1] .

قوله : « كما جمع بين ذلك » المُشَار إليه القُرب والإجابة .

* * *

● **قال المؤلف : « وَما ذُكِر فى الكِتاب والسُّنَّة من قُرْبِه ومَعيَّته ، لا يُنَافى مَا ذُكِرَ مِن عُلُوِّه وفَوْقِيَّته فَإِنَّه سبحانه لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ فى جَمِيع نُعُوته ، وَهُو علىٌّ فى دُنُوِّه قَرِيبٌ فى عُلُوِّه » .**

نعوته : يعنى صِفَاتِه . هو علىّ مع أنَّه دَانى قريب مع أنَّه عال ولا تَنَاقُض فى ذلك وقد سبق بيان ذلك فى الكلام على المعيَّة .

* * *

(١) البخارى (٤٢٠٥) ، (٦٣٨٤) ومسلم (٢٧٠٤) (٤٤) من حديث أبى موسى الأشعرى رضِى الله عنه .

فصـل

فيما يدخل فى الإيمان بالله وكتبه

وجوب الإيمان بأن القرآن كلام الله حقيقة

١٦٨ - وَمِن الإيمان بالله وكُتُبه : الإيمان بأَنَّ القرآن كَلَام الله مُنَزَّل غير مخلوق مِنْهُ بَدَأَ وَإِلَيْهِ يَعُود .

١٦٩ - وَأَنَّه تَكَلَّم بِهِ حَقِيقَةً .

١٧٠ - وَأَنَّ هذا القرآن الَّذى أَنْزَلَهُ عَلَىٰ مُحَمَّد ﷺ هو كلام الله حَقِيقة لا كَلام غيره .

١٧١ - ولا يَجُوز إطلاق القَول بأَنَّه حِكَاية عَن كَلَام الله أَوْ عِبَارة .

١٧٢ - بل إِذَا قَرَأَهُ النَّاس أَوْ كَتَبُوه فى المَصَاحِف لم يخرج بذلك عن أَنْ يَكُون كلام الله تعالىٰ حَقِيقة ؛ فَإِنَّ الكلام إِنَّمَا يُضَاف حَقِيقة إِلى مَنْ قَالَهُ مُبْتَدِئًا لا إِلى مَنْ قَالَهُ مُبَلِّغًا مُؤَدِّيًا .

١٧٣ - وَهُو كَلَامُ الله حُرُوفُه وَمَعَانِيه ، لَيْس كَلَام الله الحُروف دون المَعَانى ، ولا المَعَانى دُون الحُروف .

الشـــرح

● **ثم قال المؤلف : « فصل : وَمِن الإيمان بالله وَكُتُبه : الإيمانُ بأَنَّ القُرآن كَلَامُ الله مُنَزَّل غَيْرُ مَخلُوق ، مِنْهُ بَدَأَ وَإِلَيْهِ يَعُود »** .

● **« وَأَنَّه تَكَلَّم بِهِ حَقِيقَةً »** .

القرآن كلام الله . والدَّليل عَلَى ذَلِك قوله : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ﴾ [التوبة : ٦] .

وقول المؤلف « مُنَزَّل » أى من عِنْد الله تَعَالَى لقوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] وقوله : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ [القدر : ١] .

قوله : « غَيْر مَخْلُوق » أَى لَيْس مِن مخلوقات الله التى خَلَقَهَا بَائِنة مِنه والدَّليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ [الأعراف : ٥٤] .
والقرآن من الأَمر لقوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى : ٥٢] .

وقول المؤلف : « مِنْهُ بَدَأَ » يعنى أن ابتداء تنزيله من الله لا مِن جِبْريل ولا غيره فجبريل نَازِلٌ به من عند الله تعالى كما قال تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾ [الشعراء : ١٩٣] وقال : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَبِّكَ ﴾ [النحل : ١٠٢] وقال تعالى : ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ [الزمر : ١] .

وقوله : « إِلَيْه يَعُود » سَبَق الكلام عن مَعْنَاها والدَّليل عليها فى شرح الآيات عند البحث عن كلام الله .

قال المؤلف : « وأنَّه تَكَلَّم بِهِ حَقِيقَةً » بناء على الأصل أَنَّ جميع الصِّفات حقيقية وإذا كان كلام الله حقيقة فلا يمكن أن يكون مَخْلُوقًا ؛ لأَنَّه صفته وصفة الخالق غير مخلوقة كما أنَّ صفة المخلوق مخلوقة . وقد قال الإمام أحمد : « مَنْ قَالَ لَفْظِى بالقُرْآن مَخْلُوق فهو جَهْمِى ، وَمَنْ قَالَ غَيْر مَخْلُوق فهو مُبْتَدِع »(١) .

فنقول : اللَّفظ يُطْلق على مَعْنيين على المصدر الذى هو فعل الفَاعِل ، وعلى المَلْفُوظ به أَمَّا على المعنى الأَوَّل : الذى هو المَصْدر فلا شك أن أَلْفَاظنا بالقرآن وغير القرآن مخلوقة لأَنَّنا إِذَا قُلْنَا أن اللَّفظ هو التَّلَفُّظ فهذا الصَّوت الخارج من حركة الفم واللِّسان والشَّفتين مخلوق . فإذا أُرِيد باللَّفظ التَّلفظ فهو مخلوق سواء كان المَلْفُوظ به قُرآنًا أَوْ حَدِيثًا أَوْ كلامًا أَحْدَثْتَهُ من عندك .

أَمَّا إِذَا قُصِدَ باللَّفظ المَلْفُوظ به : فهذا منه مخلوق ، ومنه غَيْر مخلوق وعَلَيْه إذا كان المَلْفُوظ به هو القرآن فَلَيْسَ بمخلوق .

هذا تفصيل القول فى هذه المَسْأَلة .

لكن الإمام أحمد - رحمه الله - قال : « مَنْ قَالَ لَفْظِى بِالقُرْآن مَخْلُوق فهو جَهْمِىٌّ » !!

قال ذلك لِأَحَد احتمالين : إما أَنَّ هذا القول من شِعَار الجهمية كأَنَّ الإمام أحمد يقول : إِذَا سَمِعْت الرَّجل يقول : « لَفظى بِالقُرْآن مَخْلُوق » فاعلم أَنه جهمى . وإِمَّا أَنْ يَكُون ذلك حين يُريد القَائِل باللَّفظ المَلْفُوظ به وهذا أَقَرب .

---

(١) **إسناده صَحِيح** : رواه الخلال فى السنة كما فى مجموع الفتاوى (١٢/٣٢٥) بسند صحيح عن أبى بكر بن زنجويه قال : سمعت أحمد بن حنبل يقول ... فذكره .

لأَنَّ الإِمام أحمد نَفْسُه فَسَّره قال : « مَنْ قَالَ لَفْظِى بالقرآن مخلوق – يُريد القرآن – فهو جَهْمِى » وحينئذ يَتَّضح معنى قوله : « مَنْ قَالَ لَفْظِى بالقُرْآن مَخْلُوق فهو جَهْمِىٌّ » لأَنَّه أَرَادَ المَلْفُوظ به ، ولا شك أَنَّ الَّذى يُريد باللَّفظ هنا الملفوظ به جهمى أَمَّا من قال غير مخلوق فالإمام أحمد يقول : مُبْتَدع ؛ لأَنَّ هذا ما عُهد عن السَّلف . وما كانوا يقولون مثل هذا القول يقولون : القرآن كَلَامُ الله فقط .

* * *

● **قال المؤلف : « وَأَنَّ هَذَا القُرْآن الَّذى أُنْزِلَ عَلَى مُحَمّد ﷺ هو كَلَامُ الله حَقِيقة لا كَلام غيره » .**

كَرَّر المؤلف هذا ، لأَنَّ المُقَام مُقَام عَظِيم ، فإِنَّ هذه المسأَلة حَصَل فيها على علماء المسلمين من المِحَن مَا هُو معلوم ، وهَلَكَ فيها أُمَم كثيرة ولكن حَمَىٰ الله الحق بالإمام أحمد وأَشْبَاهِه الذين أَبَوا أَنْ يَقُولوا إِلَّا أن القرآن كَلَام الله غير مخلوق .

وقوله : « لا كَلَام غَيْره » خِلافًا لمن قال : إِنَّ القرآن من كَلَام جِبريل أَلْهَمَه الله إِيَّاه ، أَوْ مِن محمد أو من الشَّجرة خلقه الله فى الشَّجرة حين دنا منها موسى أو ما أشبه ذلك .

فإن قلت : قول المؤلف هنا : « لا كَلَام غَيْره » معارض بقول الله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴾ [الحاقة : ٤٠،٤١] وقوله : ﴿ إِنَّه لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ [التكوير : ١٩،٢٠] والأَوَّل : محمد عليه الصلاة والسلام ، والثَّانى : جبريل .

كيف يقول : « لا كَلَام غَيْره » والآيَتَان صَرِيحتان فى إضافته إلى الرَّسول البَشَرى والرَّسول الملكى ؟!

فالجواب عن ذلك : أن نقول: لا يمكن أَنْ نَحمل الآيَتَيْن على أَنَّ الرَّسولين تكلَّما به حقيقة وأَنَّه صدر منهما ، لأَنَّ كلامًا وَاحِدًا لا يمكن أن يَصْدُر من متكلمين !!

إذًا : لَيْس المراد بالآيتين أَنَّه كَلَامَهما ، ولكنَّه قَوْلُ محمد تَبْلِيغًا للأُمَّة وقول جبريل تَبْلِيغًا لمحمد عليه الصَّلاة والسَّلام ، وقول الله عزَّ وجلَّ ابتداء فيكون القرآن قول الله عزَّ وجلَّ لا قول غيره .

* * *

● **ثم قال المؤلف : « وَلَا يَجُوزُ إطْلَاق القَوْل بأَنَّه حِكَايَةٌ عَن كَلَام الله أَوْ عِبَارة » .**

قال : « لا يَجُوز إطْلاق القَول » ولم يقل المؤلف : « لا يَجُوزُ القَول » يعنى لا يجوز أَن نَقُول هذا القرآن عِبَارة عن كلام الله إطلاقًا ، ولا يَجُوز أن نقول أنه حكاية عن كلام الله على سَبيل الاطلاق ، والَّذين قالوا إِنَّه حكاية هم الكلّابية ، والَّذين قالوا إِنَّه عبارة هم الأَشْعَرية .

والكُل اتَّفقوا على أنَّ هذا القرآن الذى فى المُصْحَف ليس كلام الله بل هو إمَّا حِكاية أَوْ عِبَارة . والفرق بينهما أَنَّ الحكاية المُمَاثِلة يعنى كأن هذا المعنى الذى هو الكلام عِنْدهم حُكى بمرآة كما يحكى الصَّدى كلام المتكلّم .

أَمَّا العبارة : فيعنى بها أَنَّ المُتَكَلِّم عبر عن كلامه النَّفسى بِحُروف وأَصْوات خلقت .

فلا يجوز أن نُطلق أنَّه حِكَاية أَوْ عِبَارة ، لكن عند التَّفصيل قد يَجُوز أن نطلق فنقول إنَّ القَارِىء الآن يُعَبِّر عن كلام الله أَوْ يحكى كلام الله ، لأن لفظه بالقرآن ليس هو كلام الله .

وهذا القول على هذا التَّقييد لا بَأْس به ، لكن إطْلاق أَنَّ القرآن عِبَارَة عن كَلَام الله لا يَجُوز .

أَمَّا إذا قُلت : هذا الرَّجل الآن الَّذى يَقْرأ فَقِرَاءَته عِبَارة عن كَلام الله فهذا صَحِيح ؛ لأَنَّ الآن يُعَبِّر عَمَّا تكلَّم الله به أَمَّا نفس الذى تكلم الله به أولًا فهو كلام الله لَيْس بمخلوق ، ولهذا كان المؤلف – رحمه الله – دَقِيقًا فى العبارة حيث قال : « لا يَجُوزُ إطْلَاق القَوْل » بل لابد من التَّقْييد والتَّعيين .

* * *

● **ثم قال المؤلف : « بَلْ إِذَا قَرَأَهُ النَّاس أَوْ كَتَبُوه فى المَصَاحِف لَمْ يَخْرج بِذَلك عَن أَنْ يكون كَلَامُ الله تَعَالَى حَقِيقة فإنَّ الكَلام إنَّما يُضاف حَقِيقَةً إلى مَنْ قَالَهُ مُبْتَدِئًا لَا إلى مَنْ قَالَهُ مُبلغًا مُؤَدِّيًا » .**

ثمَّ قال المؤلف – رحمه الله تعالى –: « بَلْ إِذَا قرأه النَّاس أَوْ كَتَبُوه فى المَصَاحف لم يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله تَعَالَى حَقِيقة » . يعنى مهما كَتَبَهُ الناس فى المصاحف أَوْ حَفِظُوه فى صُدُورهم وقرؤوه بِأَلْسِنَتِهم فإنَّه لا يخرج عن كونه كَلام الله .

ثم علل ذلك فقال : « فَإِنَّ الكلام إِنَّما يُضَاف حَقِيقة إلى من قَالَهُ مُبتدئًا لا إلى مَنْ قَالَهُ مُبَلِّغًا مُؤَدِّيًا » . هذا تَعْلِيلٌ وَاضِح ، فالكلام يُضَاف حقيقة إلى مَنْ قَالَهُ مُبتدئًا أما إضَافَتُه إلى مَنْ قَالَهُ مُبَلِّغًا مُؤَدِّيًا فعلى سبيل التَّوسع فلو قرأنا الآن مثلًا :

حُكْمُ المَحَبَّة ثَابِتُ الأَرْكَانِ   مَا للصَّدُودِ بِفَسْخِ ذَاكَ يَدَانِ[1]

فإنَّ هذا البيت يُنْسَب حقيقة إلى ابن القيم .

ولو قلت :

كَلامُنَا لَفْظٌ مُفِيدٌ كَاسْتَقِـم   وَاسْمٌ وَفِعْلٌ ثُمَّ حَرْف الكَلِم[2]

فهذا يُنْسب حقيقة إلى ابن مالك .

إذًا : الكلام يُضَاف حَقِيقة إلى القَائِل الأَوَّل .

* * *

● **ثم قال المؤلف : « وَهُو كَلَامُ الله حُرُوفه وَمَعَانِيه ، لَيْسَ كَلَام الله الحُرُوف دُون المَعَانى وَلَا المَعَانى دُون الحُرُوف » .**

قال : « وَهُو كَلَامُ الله حُرُوفه وَمَعَانِيه » هذا مذهب أَهْل السُّنَّة والجماعة قالوا : إنَّ الله تعالىٰ تَكَلَّم بالقرآن بحروفه أَمَّا مَعْناه فواضح :

إنَّ البَيَانَ لَفِى الفُؤاد وَإِنَّمَـا   جُعِلَ اللِّسَان عَلَىٰ الفُؤادِ دَلِيلًا

إذًا : كلام الله هو الحُروف والمَعَانِي .

قال : « وَلَيْسَ كَلَامُ الله الحُروف دُونَ المَعَانِي وَلَا المَعَانِي دُون الحُروف » .

القائل بأنَّه الحروف دُون المعانى : المُعتزلة والجَهْمِيّة ؛ لأَنَّهم يقولون أنَّ الكلام لَيْس مَعْنًى يقوم بذات الله بل هو شيءٌ من مخلوقاته كالسَّماء والأرض والنَّاقة والبيت وما أشبه ذلك .

(١) القصيدة النونية بشرح هراس (١/٢٠) .

(٢) ألفية ابن مالك مع شرح ابن عقيل (١/١٣) .

فليس مَعْنًى قائمًا فى نفسه ، فكلام الله حُرُوف خَلَقَها الله عزَّ وجل وسمَّاها كلامًا له كما خلق النَّاقة وسمّاها ناقة الله ، وكما خلق البيت وسمّاه بَيْتُ الله ، ولهذا كان الكلام عند الجهميَّة والمعتزلة هو الحروف . لأنَّ كلام الله عندهم عبارة عن حُروف وأَصْوَات خَلَقَها الله عز وجل ونسبها إليه تشريفًا وتعظيمًا .

وقوله : « لَا المَعَانى دُون الحُرُوف » الَّذين قالوا أنَّه المَعَانى دون الحروف الكلابية والأشعرية ، فكلام الله عندهم معنى فى نفسه .

أَطْلق أَصْواتًا وحُروفًا تَدُلُّ على هذا المعنى إمَّا عِبارة أَوْ حِكَاية .

ولكننا نقول : إنَّ كلام الله الحروف والمعنى وليس المعنى وحده . ولا الحروف وَحْدَهَا .

واعلم أنَّ ابن القيم - رحمه الله - ذكر أَنَّنا إِذَا أَنْكَرنا أَنَّ الله يتكلَّم فقد أبطلنا الشَّرع والقدر(١) .

- أَمَّا الشَّرع : فَلأَنَّ الرِّسالات إنَّما جاءت بالوَحْى ، والوَحْى كلام مُبَلغ إلى المرسل إليه فإذا نفينا الكلام انتفى الوَحْى ، وإذا انتفى الوَحْى انتفى الشَّرع .

- أَمَّا القدر : فلأن الخلق يقع بأمره بقوله : ﴿ كُنْ فَيَكُون ﴾ كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُون ﴾ [يس : ٨٢] .

إِذَا قال قائل : مَا وَجْهُ كون الإيمان بأَنَّ القرآن كلام الله مُنَزَّل غير مخلوق من الإيمان بالله وَكُتُبه ؟

---

(١) راجع القصيدة النونية بشرح هراس (١٣٧/١ : ١٣٩) .

فالجواب : لأَنَّ القرآن صِفَة من صِفَات الله فكان داخلًا فى الإيمان بالله .

* * *

فصـــل

فيما يدخل فى الإيمان بالله وكُتُبه وَمَلائِكَتِه وَرُسُله وجوب الإيمان برؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة ومواضع الرؤية

١٧٤ - وَقَدْ دَخلَ أيضًا فيما ذَكَرْنَاهُ من الإيمان بِهِ وبِكُتُبه وَبِمَلَائِكَتِه وَبِرُسُله: الإيمان بأَنَّ المؤمنين يَرَوْنَهُ يوم القيامة عِيَانًا بِأَبْصَارِهم كما يَرَوْن الشَّمس صَحْوًا لَيْسَ دُونها سَحَاب .

١٧٥ - وَكَما يَرَوْنَ القَمَر لَيْلَة البَدْر لا يُضَامُّون فى رُؤْيَته يَرَوْنَه سُبْحَانه وَهُم فِى عَرَصَات القِيَامَة .

١٧٦ - ثُمَّ يَرَوْنَهُ بعد دُخُول الجَنَّة كَمَا يَشَاء الله .

الشـــرح

● **ثم قال المؤلف : « فَصْل : وَقَدْ دَخلَ أيضًا فِيمَا ذَكَرنَاهُ مِن الإيمان بِهِ وَبِكُتُبه وَبِمَلَائِكَتِهِ وبِرُسُله : الإيمَانُ بأَنَّ المؤمنين يَرَوْنَهُ يوم القيامة عِيَانًا بِأَبْصَارِهم كَمَا يَرَوْن الشَّمس صَحْوًا لَيْسَ دُونَها سَحَاب » .**

قوله : « الإيمانُ بأَنَّ المُؤْمنين يَرَوْنَه يَوْم القيامة » .

وجه كون الإيمان بأَنَّ المؤمنين يَرَوْنَهُ يَوْم القِيَامَة من الإيمان بالله ظَاهر ، لأَنَّ هذا مِمَّا أَخْبَرَ الله به ، فإذا آمَنَّا بِهِ فهو من الإيمان بالله .

وَوَجْهُ كَوْنِه من الإيمان بالكتب ؛ لأَنَّ الكُتب أَخْبرت بأَنَّ الله يُرَىٰ ، فالتَّصديق بذلك تَصْدِيقٌ بالكُتب .

وَوَجْهُ كَوْنه من الإيمان بالملائكة ؛ لأَنَّ نقل ذلك بِوَاسِطة المَلَائِكة فإنَّ جبريل يَنْزل بالوَحْى من الله تَعَالَىٰ فكأن الإيمان بأنَّ الله يُرى من الإيمان بالملائكة .

وكذلك نقول من الإيمان بالرُّسل ؛ لأن الرُّسل هم الذين بَلَّغُوا ذلك للخلق فكأنَّ الإيمان بذلك من الإيمان بالرسل .

قال المؤلف : « عِيَاناً بِأَبْصَارهم » عيَانًا بمعنى مُعَاينة ، والمُعَاينة هى الرُّؤْية بالعين .

قال : « كَمَا يَرَوْنَ الشَّمْس صَحوًا لَيْس دُونَها سَحَاب » وهذا وَاضِحٌ كما قال الرسول عليه الصَّلاة والسَّلام : « تَرَوْنَه كما ترون الشَّمس صَحوًا ليس دونها سحاب »(١) المراد الرُّؤية بالعَيْن .

* * *

● ثم قال المؤلف – رحمه الله –: « وَكَمَا يَرَوْنَ القَمَر لَيْلَة البَدر لا يُضَامُّون فِى رُؤْيَتِه ، يَرَوْنَهُ سُبْحَانَهُ وهم فى عُرُصَات القِيَامة » .

عُرصَات : جمع عَرْصِة وهى المكان الواسع الفَسِيح الذى ليس فيه بناء ، لأن الأرض تُمَدُّ مَدَّ الأَديم كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام(٢) يعنى مد الجلد .

---

(١) رواه البخارى (٧٤٣٩) ومسلم (١٨٣) (٣٠٢) من حديث أبى سعيد الخدرى الطَّويل فى الشفاعة .

(٢) راجع فتح البارى (١١/٣٧٥ ، ٣٧٦) .

فالمؤمنون يَرَوْنَ الله فى عُرُصَات يوم القيامة قبل أن يَدْخلوا الجنة كما قال الله تعالى عن المُكذبين بيوم الدِّين : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين : ١٥] . يومئذ يعنى يوم الدِّين .

﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [المطففين : ٦] وَيَرَوْنَهُ كذلك بعد دخول الجنة .

أَمَّا فى عُرُصَات القيامة فالنَّاس فى العُرُصَات ثلاثة أجناس :

١ - مُؤْمِنُون خُلَّص ظاهرًا وباطنًا .

٢ - وَكافِرُون خُلَّص ظاهرًا وباطنًا .

٣ - ومؤْمِنُـون ظَاهِرًا ، كافرون باطنًا ، وهم المُنَافِقون .

فأما المؤمنون : فَيَرَوْنَ الله تعالى فى عُرُصَات القيامة وبعد دخول الجنة . وأما الكافرون : فلا يَرَوْنَ رَبَّهم مُطْلَقًا ، وقيل : يَرَوْنَهُ لكن رُؤْية غضب وعقوبة .

ولكن ظاهر الأَدِلّة يَدُلُّ على أَنَّهم لا يَرَوْنَ الله كما قال الله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُون ﴾ [المطففين : ١٥] .

أَمَّا المُنَافِقُون : فإنَّهم يَرَوْنَ الله عزَّ وجلَّ فى عُرُصَات القيامة ثُمَّ يحتجب عنهم ولا يَرَوْنَهُ بعد ذلك .

* * *

● **قال المؤلف : « ثُمَّ يَرَوْنَهُ بَعْدَ دُخُول الجَنَّة كَمَا يَشَاء الله تَعَالى » .**

قوله : « كَما يَشَاء » يعنى يَرَوْنَ الله كما يشاء سُبْحَانَهُ وتعالى فى كيفية رُؤْيَتهِم إيَّاه ، وكَمَا يَشَاء الله فى زَمن رُؤْيَتِهم إيَّاه وفى جميع الأَحْوَال يعنى على الوجه الذى يَشَاءُه الله عَزَّ وجلَّ فى هذه الرُّؤية . وحينئذ فإنَّ هذه الرؤية لا نعلم كيفيتها بمعنى أنَّ الإنسان لا يَعْلم كيف يَرَىٰ رَبَّه ، ولكن معنى الرؤية معلوم أنَّهم يَرَوْنَ الله كما يَرَوْنَ القمر لكن على أى كيفية . هذه لا نعلمها بل كما يشاء الله ، وقد سبق التَّفْصِيل فى الرُّؤْية .

* * *

فصــل

فيما يدخل فى الإيمان باليوم الآخر

١ - فتنة القبر وعذاب القبر ونعيمـه

١٧٧ - وَمِن الإيمَان بِاليوم الآخِر : الإيمانُ بِكُلِّ مَا أَخْبَر به النَّبى ﷺ مِمَّا يَكُون بَعْد الموت .

١٧٨ - فَيُؤْمِنون بِفِتْنة القبر ، وبِعَذَاب القَبْر وَنَعِيمه .

١٧٩ - فَأَمَّا الفِتْنة : فإنَّ النَّاس يُفْتَنُون فِى قُبُورهم فَيُقَال للرَّجل : مَنْ رَبُّك ؟ وَمَا دِينُك ؟ وَمَنْ نَبِيُّك ؟ فَيُثَبِّت الله الَّذين آمنوا بالقَول الثَّابت فى الحياة الدُّنيا وفى الآخرة فيقول المؤمن : رَبِّى الله والإسلام دِينى وَمحمد ﷺ نَبِيِّى .

وأَمَّا المُرْتَاب فيقول : هَاه ! هَاه ! لا أَدْرِى . سَمِعْتُ النَّاس يَقُولون شَيْئًا فقلته . فَيُضْرب بِمَرْزَبَّة مِن حَدِيد فَيَصِيح صَيْحة يَسْمَعُها كُلُّ شَىء إِلَّا الإنسان وَلوْ سَمِعَها الإنسان لَصُعِق .

١٨٠ - ثمَّ بعد هذه الفِتْنَة إِمَّا نَعِيم وَإِمَّا عَذَاب .

الشــــرح

● ثم بدأ المؤلف - رحمه الله تعالى - بالكلام عن اليوم الآخر وعقيدة

أهل السُّنَّة والجماعة فيه **فقال** :

● « **فصل : وَمِن الإيمان بِاليَوْم الآخِر : الإيمَانُ بِكُلِّ مَا أَخْبَر بِه النَّبى ﷺ مِمَّا يَكُون بَعد المَوْت** » .

حكم الإيمان باليوم الآخر فَرِيضة وَاجِب وَمَرْتَبَته فى الدِّين أنَّه أَحَد أَرْكان الإيمان السِّتة ، وكثير ما يُقْرِن الله تعالى بين الإيمان به والإيمان باليوم الآخر الإيمان بالمبدأ والإيمان بالمعاد ، لأَنَّ من لم يؤمن باليوم الآخر لا يمكن أَنْ يُؤْمن بالله ، إذْ أَنَّ الذى لا يُؤْمن باليوم الآخر لن يَعْمل لأَنَّه لا يعمل إِلَّا لما يَرْجوه من الكَرَامة فى اليوم الآخر وَمَا يَخَافه من العَذَاب والعقوبة فإذا كان لا يُؤْمن به صار كمن حَكَىٰ الله عنهم : ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ [الجاثية : ٢٤] .

وسُمِّى اليوم الآخر باليوم الآخر ، لأَنَّه يوم لا يوم بَعْدَه فهو آخر المَرَاحِل . والإنسان له فى هذه الدُّنيا خمس مراحل : مَرْحَلَةُ العدم ثمَّ الحمل ثم الدُّنيا ثم البرزخ ثم الآخرة .

العَدَم دلَّ عليه قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾ [الإنسان : ١] . وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ [الحج : ٥] فَسُمِّى يومًا آخر لأنَّه لا يوم بعده إذا بعث الناس فقد بعثوا للبقاء الأَزلى لا مَوْت ولا فَنَاء ولا مَرَض .

وقوله – رحمه الله –: « الإيمَانُ بِكُلِّ مَا أَخْبَر به النَّبى ﷺ مِمَّا يَكُون بعد الموت» كل هذا داخل فى الإيمان باليوم الآخر ؛ لأَنَّ الإنسان إذا مات دخل

فى اليوم الآخر وَلِهَذَا يُقَال من مات قَامَت قِيَامَتُه ، فكل ما يكون بعد الموت فإنَّه من اليوم الآخر .

إذًا : مَا أَقْرَب اليوم الآخر لَنَا لَيْسَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ إِلَّا أن يَمُوت الإنسان ثمَّ يدخل فى اليوم الآخر الَّذى ليس فيه إلَّا الجزاء على العمل .

ولهذا يجب علينا أن نَنْتَبِه لهذه النُّقطة .

فَكِّر أيُّها الإنسان تجد أنَّك على خطر ؛ لأنَّ الموت ليس له أَجَل معلوم عندنا قد يخرج الإنسان من بَيْته ولا يرجع إليه وقد يكون الإنسان على كرسى مَكْتبه ولا يَقُوم منه ، وقد يَنَام الإنسان على فِرَاشه ولكنه يحمل من فِراشه إلى سَرير غسله ، وهذا أَمْرٌ يَسْتوجب منا أن نَنْتهز فُرصة العمر بالتَّوبة إلى الله عزَّ وجلَّ وأن يكون الإنسان دائمًا يَسْتَشْعِر بأنَّه تائب إلى الله وَرَاجِع وَمُنِيب حتى يَأْتِيه الأَجل وَهُو على خير مَا يُرام .

* * *

● **يقول المؤلف : « فَيُؤْمِنُون بِفتْنة القَبْر »** .

الضَّمير فى « يؤمنون » أى أهل السُّنَّة والجَمَاعة يُؤْمنون بفتنة القبر وذلك لدلالة الكتاب والسُّنة عليها .

أَمَّا الكتاب : ففى قوله تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الآخِرَةِ ﴾ [إبراهيم : ٢٧] . فإن هذا فى فتنة القبر .

وأَمَّا السُّنة : فقد تواترت به أن الإنسان يُفْتن فى قَبْره ، وهى فِتنة قال فيها النَّبى ﷺ : « إنَّه قَدْ أُوحِى إِلَىَّ أَنَّكم تُفْتَنُون فِى قُبُورِكُم مِثْل أَوْ قريبًا من فِتْنَة الدَّجال » .

وفتنة الدَّجال أعظم فتنة منذ خلق الله آدم إلى أَنْ تَقُوم السَّاعة ولكن

الرسول عليه الصلاة والسلام قال لأصحابه بل قال لأمته : « إنْ يَخْرُج وَأنَا فِيكم فَأنَا حَجِيجُه دُونكم ، وَإن يَخْرُج وَلَسْتُ فِيكم فَاللهُ خَلِيفَتى عَلَى كل مُسْلم »[١] ومع ذلك فإنَّ نبينا محمدًا ﷺ أَعْلَمنا كيف نُحَاجّه ، وأعلمنا بأوْصَافه ، وَمِيزَاتُهُ حتى كأنا نُشَاهده رَأْى عَيْن ، وبهذه الأَوْصَاف والميزات لا شك أنَّا نستطيع أن نُحَاجّه ولهذا نقول إن فتنة الدجال أعظم فتنة والرسول عليه الصَّلاة والسلام قال : « إنَّكُم تُفْتَنُون فِى قُبُورِكُم مِثْل أَوْ قَرِيبًا من فِتْنَة الدَّجال »[٢] وَمَا أَعْظَمُها مِن فِتْنَة ؛ لأَنَّ الإنسان يتلقى فيها السُّؤال الذى لا يمكن الجَوَاب عليه إلَّا على أَسَاس مَتِين من العقيدة والعمل الصَّالح .

ولهذا يقول : « فَيُؤْمِنُون بِفِتْنَة القَبْر وَبِعَذَاب القَبْر وَنَعِيمُه » .

الفتنة فى اللُّغة : الاختبار والامتحان ، وقد جاءَت فى القرآن على عِدَّة مَعَانى وليس هذا هو مَوْضع البسط فيها .

* * *

● **قال المؤلف : « فَأَمَّا الفِتْنَة : فَإنَّ النَّاسَ يُفْتَنُونَ فِى قُبُورِهم فَيُقَالُ للرَّجل : مَنْ رَبُّك ؟ وَمَا دِينُك ؟ وَمَنْ نَبِيّك ؟ فَيُثَبِّت الله الَّذين آمَنُوا بالقَوْلِ الثَّابت فِى الحَيَاةِ الدُّنْيا وَفِى الآخِرة . فَيَقُول المُؤْمِن : رَبِّى الله ، وَالإسلامُ دِينى ، وَمُحمّد ﷺ نبيّى . وَأَمَّا المُرتَاب فَيَقُول : هَاه ! هَاه ! لا أَدرِى سَمعت النَّاس يَقُولون شَيْئًا فَقُلْته ، فَيُضْرَب بِمَرْزبّة مِن حَدِيد فَيَصِيح صَيْحة يَسْمَعُها كُلُّ شَىْء إلَّا الإنْسَان وَلَو سَمِعها الإنْسَان لَصُعِق » .**

قال المؤلف : « فَإنَّ النَّاس يُفْتَنُون فِى قُبُورهم » .

---

(١) رواه مسلم (٢٩٣٧) (١١٠) من حديث النواس بن سمعان .

(٢) البخارى (١٨٤) ومسلم (٩٠٥) (١١) من حديث أسماء رضى الله عنها .

كلمة النَّاس عَامَّة وَظَاهر كلام المُؤَلِّف أن كل أَحَد يُفْتَن حتى الصِّغار والمجانين والشُّهداء والصَّالحين والصِّديقين والأنبياء والمُرَابطين لأن كلمة النَّاس عامة .

فنقول : أمَّا الأَنْبياء فلا تَشْمَلهم الفتنة !

أوّلًا : لأَنَّ الأَنبياء أَفْضل من الشُّهداء وقد أخبر النَّبى ﷺ أَنَّ الشَّهيد يوقى فتنة القبر ، وقال : « كَفَى بِبَارِقة السُّيوف عَلَى رَأْسِه » (أخرجه النَّسائى)[1] لأَنَّ هذا الشَّهيد قد سلّم رَقَبته لعدو الله إعلاءً لِكَلمة الله ، وَكونه يقدم والمراد بالأُمَّة هنا أُمَّة الدَّعوة ، وَأُمَّة الإجابة ، فَالكَافِر من بعد بعثة الرَّسول عليه الصلاة والسلام يسأل .

وقول المؤلف : « فَيُقَال » : القَائِل مَلكان يَأْتيان إلى الإنسان فى قبره ويُجلِسَانِه وَيَسْأَلانه حتى إنّه لَيَسْمع قرع نِعال المنصرفين عنه وهما يَسْأَلانه . وَلِهَذا كان من هدى النَّبى ﷺ أنَّه إذا دُفِن الميت وقف عليه وقال : « اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُم وَٱسْأَلُوا له التَّثبيت فإنَّه الآن يُسْأَل »[2] .

---

(١) حَدِيثٌ صَحِيحٌ : رواه النَّسائى (١/٢٨٩) بإسناد صحيح كما قال الألبانى فى أحكام الجنائز ص (٣٦) قال ابن القيم فى الروح ص (١٠٩) : « وقوله ﷺ : كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة . معناه والله أعلم : قد امتحن نفاقه من إيمانه ببارقة السيف على رأسه ، فلم يفر ، فلو كان منافقًا لما صبر لبارقة السيف على رأسه ، فدل على أن إيمانه هو الذى حمله على بذل نفسه لله وتسليمها له ، وهاج من قلبه حمية الغضب لله ورسوله وإظهار دينه وإعزاز كلمته ، فهذا قد أظهر صدق ما فى ضميره حيث برز للقتل فاستغنى بذلك عن الامتحان فى قبره » ا.هـ

(٢) حَدِيثٌ صَحِيحٌ : رواه أبو داود (٣٢٢١) والحاكم (١/٣٧١) والبيهقى فى سننه (٤/٥٦) وفى إثبات عذاب القبر (١٢٤) ، وعبدالله بن أحمد فى السنة (١٣٥٣) وفى زوائد الزهد (١٢١) وقال الحاكم : صحيح الإسناد ووافقه الذهبى وهو كما قال وراجع أحكام الجنائز للألبانى (١٥٦) . وقال النووى فى شرح مسلم (٥/٢٩٢) : « إسناده جيد » .

وَوَرَدَ فى بعض الآثار أَنَّ اسْمُهما منكر ونكير .

وأنكر بعض العلماء هَذَيْن الإسمين قال : كيف يُسَمَّى الملائكة وهم الَّذين وَصَفَهم الله تَعَالَى بِأَوْصَاف الثَّناء بهذين الإِسْمَين المنكرين وضعَّف الحديث الوارد فى ذلك .

وذهب آخرون : إلى أَنَّ الحديث حُجَّة وأَنَّ هذه التَّسمية ليس لأنهما مُنْكَران من حيث ذَوَاتِهما وَلَكِنَّهما مُنكران من حيث أَنَّ الميت لا يعرفهما . وَلَيْس لَهُ بهما علم سَابِق . وقد قال إبراهيم لِأَضْيَافه الملائكة : ﴿ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنكَرُونَ ﴾ [الذاريات : ٢٥] لأَنَّه لا يَعْرفهم فهؤلاء مُنْكر وَنَكِير لأَنَّهما غير مَعْرُوفين لَدَىٰ الميت .

ثمَّ هذان المَلَكَان هل هُما ملكان جديدان موكَّلان بِأَصْحاب القُبور أَوْهُما الملكان الكَاتِبان اللَّذان عن اليمين وعن الشِّمال قعيد ؟

فيه خلاف بين العلماء : منهم من قال إنَّهما الملكان اللَّذان يَصحبان المرء فإنَّ لِكُلّ إنسان مَلَكَيْن فى الدُّنيا يَكتُبان أعماله ، وفى القبر يسألانه هذه الأَسئلة الثَّلاثة .

ومنهم من قال : بل هُمَا مَلَكَان آخران والله عزَّ وجلَّ يقول : ﴿ وَمَا يَعلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر : ٣١] والملائكة خلق كثير قال النبى عليه الصلاة والسلام : « أَطَّت السَّماء وَحُقَّ لها أن تَئِطّ – والأَطيط : صَرِير الرَّجل – مَا مِن مَوْضِع شِبْر أَوْ قَال: أَرْبع أَصَابع إلَّا وَفِيه مَلَك قائم لله أَوْ رَاكِع أَوْ سَاجِد »(١) .

---

(١) **حَدِيثٌ حَسَنٌ** : رواه أحمد (١٧٣/٥) والتِّرمذى (٢٣١٢) وابن ماجة (٤١٩٠) والحاكم (٥١٠/٢) وفى (٥٤٤/٤) وفى (٥٧٩/٤) وصحَّحه وأقره الذهبى من حديث أبى ذر رضى الله عنه . وحسَّنه الألبانى فى الصَّحيحة (١٧٢٢) .

والسَّماء وَاسِعة الأرجاء كما قال الله تعالى : ﴿ وَالسَّماءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٧] ولا تُنْسب الأَرض إليها أبدًا .

فالمهم أَنَّه لا غَرَابة أن يُنْشِيء الله عزَّ وجل لكل مَدْفُون مَلَكين يُرْسلهما إليه والله على كل شيء قدير .

قال المُؤَلِّف : « فَأَمَّا الفِتْنَة فإِنَّ النَّاس يُفْتَنُون فى قُبُورهم فَيُقَال للرَّجل : مَنْ رَبُّك ؟ وَمَا دِينُك ؟ وَمَنْ نَبِيُّك ؟ » وقد أَلَّف شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رقبته لعدو الله إعْلَاءً لكلمة الله يدل على صدق إيمانه ، والأنبياء بلا شك أقوى إيمانًا ، وأفضل من الشهداء .

ثانيا : أن الأنبياء يُسْأَل النَّاس عنهم فيقال : مَنْ نَبِيُّك ؟ فَهُم مَسْئُولٌ عنهم وَلَيْسُوا مَسْئُولين عَن غَيْرهم وَلِهذا قال النَّبى عليه الصَّلاة والسَّلام : « إِنَّه أُوحِي إِلَّي أَنَّكُم تُفْتَنُونَ »(١) والخطاب للأُمَّة المُرْسَل إليهم فلا يكون الرسول دَاخلًا فيهم .

● **وأَمَّا المُرَابطون** : ففى صَحيح مُسْلم أَنَّ رسول الله ﷺ قال : « رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَة خَيْر مِن صِيام شَهْر وَقِيامه وَإِنْ مَاتَ جَرَىٰ عَلَيْه عَمَلُه الَّذى كَانَ يَعْمَلُه وَأُجْرِىَ عَلَيْه رِزْقُه وَأَمِن الفَتَّان »(٢) .

● **وَأَمَّا الشُّهداء** : الَّذين قُتِلوا فى سَبيلِ الله فإنَّهم لا يفتنون لِظُهور صدق إيمَانِهم بجهادهم . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الله اشْتَرَىٰ مِن الْمُؤْمِنينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ الله فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ [التوبة : ١١١] .

(١) تقدم تخريجه ص (٥٣٠) .

(٢) رواه مسلم (١٩١٣) (١٦٣) من حديث سلمان الفارسى رضى الله عنه .

● **وَأَمَّا الصِّديقون** : فلأن مَرْتبة الصِّديقين أَعْلَىٰ من مرتبة الشُّهداء ، فإذا كان الشُّهداء لا يُسْأَلُون فالصِّديقون من باب أَوْلَىٰ ؛ ولأن الصِّديق على وصفه مُصَدِّق وصادق فهو قد عَلِم صِدْقه فلا حاجة إلى اختباره ؛ لأَنَّ الاخْتِبار إِنَّما يكون لمن يُشَكُّ منه هَل هُو صَادِق أَوْ كَاذِب . أَمَّا إذا كان صادقًا وعلم نَجَاحه فلا حاجة تَدْعو لِسُؤَالِه وذَهَب بعض العلماء إلى أَنَّهم يُسْأَلُون لِعُمُوم الأَدلَّة والله أعلم .

● واختلف العلماء فى الصِّغار والمجانين هل يُفْتَنُون أو لا يُفْتَنُون ؟

قال بعض العلماء : إِنَّهم يُفْتَنُون لدخولهم فى العموم ، ولأَنَّه إذا سقط التَّكْلِيف عنهم فى حال الحياة ، فإِنَّ حال المَمَات تُخَالف حال الحياة .

وقال بعض العلماء : إنَّ المجانين والصِّغار لا يُسْأَلُون لأنهم غير مُكَلَّفين وإذا كانوا غير مُكَلَّفين فإنَّه لا حساب عليهم إذ لا حِسَاب إِلَّا على من كان مُكَلَّفًا ، يُعَاقَب عَلَىٰ المَعَاصى ، وهؤلاء لا يُعَاقَبُون وليس لهم إِلَّا الثَّواب إن عملوا عملًا صَالحًا يُثَابُون عليه .

إذًا : خرج من قول المؤلف : « فإِنَّ النَّاس » خَمْسة أَصْنَاف : الأَنْبِياء والمُرَابِطُون والشُّهداء والصِّديقون ، ومن لا عَقْل لَهُ كالمَجَانِين والصِّبيان.

وهل غير هذه الأمة تسأل ؟

ذهب بعض العلماء إلى أَنَّ غير هذه الأمة لا يُسْأَلُون قالوا : لأَنَّ الرسول ﷺ قال : « أُوحِى إِلَىَّ أَنَّكم تُفْتَنُون فِى قُبُورِكُم »[1] .

وذهب بعض العلماء – وهو الصَّحيح – إلى أَنَّهم يُسْأَلُون ؛ لأَنَّهم إذا كانت هذه الأُمَّة وهى أَشْرَف الأُمم تُسْأَل ، فمن دُونها من بَاب أَوْلى .

---

(١) تقدم تخريجه ص (٥٣٠) .

رحمه الله رسالة صغيرة سَمَّاها « الأُصُول الثَّلاثة »[1] مَبْنية على هذه الأسئلة الثلاثة : « مَنْ رَبُّك ؟ وَمَا دِينُك ؟ وَمَنْ نَبِيُّك ؟ » .

وهنا المراد بقوله : « مَنْ رَبُّك ؟ » يعنى مَنْ رَبُّك الذى تَعْبُده وتخصُّه بالعبادة لأجل أن تنتظم هذه الكلمة توحيد الرُّبوبية وتوحيد الألوهية .

وقوله : « مَا دِينُك ؟ » يعنى مَا عَمَلُك الذى تَدِينُ به لله عزَّ وجلَّ وتَتَقَرَّب به إليه .

والثَّالث : « مَنْ نَبِيُّك ؟ » الذى تُؤْمِن به وتَتَّبعه .

فالذى يعبد غير الله سيقول : رَبِّى فُلان ، والذى يَدينُ بغير دين الإسلام يقول : دينى الشُّيوعية مثلًا ، والذى يَتَّبع نبيًا من الأنبياء على غير الوجه الَّذى أُمر به . يقول : نَبِيِّى فلان .

قال المؤلف : « فـ ﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الآخِرَةِ ﴾ [إبراهيم : ٢٧] أى يجعلهم ثابتين .

والقول الثَّابت : هو التَّوحيد كما قال تعالى : ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى السَّمَاءِ ﴾ [إبراهيم : ٢٤] .

وقوله : ﴿ فِى الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الآخِرَةِ ﴾ [إبراهيم : ٢٧] يحتمل أنَّها مُتَعَلِّقة بـ ﴿ يُثَبِّت ﴾ يعنى أن الله يُثَبِّت المؤمنين فى الدُّنيا وفى الآخرة .

ويحتمل أنها متعلِّقة بالثَّابت فتكون وصفًا للقَوْل يعنى أن هذا القول ثابت فى الدُّنيا وفى الآخرة ، ولكن المعنى الأول أحسن وأقرب ، لأنَّ الله يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ ﴾ [الأنفال : ٤٥] .

---

(١) وهى مطبوعة بتحقيقنا فلتراجع .

وقال الله عزَّ وجل : ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ [الأنفال : ١٢] . فهم يثبتون فى الحياة الدُّنيا وفى الآخرة بالقول الثَّابت .

قال المؤلف : « فيقول المُؤْمِن : رَبِّى الله وَالإِسْلَام دِينى وَمُحمَّد ﷺ نَبِيِّى » فيقول المؤمن : « رَبِّى الله » عندما يقال له مَنْ رَبُّك ؟

ويقول إذا قيل له : مَا دِينك ؟ فيقول : الإِسْلام دِينى .

ويقول كذلك : محمد ﷺ نَبِيِّى إذا قيل له : مَنْ نَبِيّك ؟

وحينئذ يكون الجواب : صَوَابًا فينادى مُنَادٍ من السَّماء أَنْ صَدَقَ عَبْدى فَأَفْرِشُوه من الجنة وَأَلْبِسُوه من الجنَّة وافتحوا له بابًا إِلى الجنة .

قال : « وَأَمَّا المُرْتَاب فَيَقُول : هَاه ! هَاه ! لا أَدْرِى سَمِعْتُ النَّاس يقولون شيئًا فَقُلْتُه » المُرْتَاب : الشَّاك والمنافق وشبهها فيقول : هَاه ! هَاه ! لا أَدرِى سمعت النَّاس يقولون شيئًا فَقُلْته . لم يلج الإِيمان قَلْبُه وإنما كان يقول كما يقول الناس من غير أنْ يَصِل الإِيمان إلى قلبه .

وتأمَّل قوله « هَاه ! هَاه ! » كأنَّ شيئًا غاب عنه يُريد أن يَتَذَكَّره ، وهذا أَشَدُّ فى التَّحسُّر أَن يَتخَيَّل أَنَّه يعرف هذا الجواب ولكن يحال بَيْنَهُ وَبيْنَه ويقول : هَاه ! هَاه ! ثم يقول : سَمِعْتُ النَّاس يقولون شيئًا فقلته . ولا يقول : رَبِّى الله وَلا دِينى الإِسلام ولا نَبِيّى محمد لأَنَّه فى الدنيا مُرْتاب شاكٌّ .

هذا إذا سُئِل فى قبره وصار أَحوَج ما يكون إلى الجواب الصَّواب يعجز ويقول : لا أَدرِى سَمِعتُ النَّاس يقولون شيئًا فَقُلْتُه .

إِذًا : إيمانه قول فقط !!

قال المؤلف : « فَيُضْرب بِمَرْزَبّة من حديد فَيَصِيح صَيْحة يَسْمعها كُلُّ شَىء إِلّا الإنسان » يُضْرب يعني الذى لم يجب سواء كان الكافر أَوْ المُنَافق والضَّارب له الملكان اللَّذان يَسْأَلانه . والمَرْزَبّة هى مَطْرقة من حديد ، وقد وَرَدَ فى بعض الروايات أنَّه لو اجتمع عليها أَهْل مِنى ما أقلوها .

إذا ضُرِب يَصِيحُ صَيْحة يسمعها كل شيء إلا الإنْسَان .

قال : « ولو سَمِعها الإنسان لَصُعِق » .

قوله : « يُضْرَب فَيَصِيحُ » صِيَاحًا مَسْمُوعًا يَسْمَعُه كُلُّ شيء يكون حوله مِمَّا يُسمْعَ صوته وليس كل شيء فى أقطار الدُّنيا يسمعه ، وأحيانًا يتأثر به من سمعه كما مرَّ النبى ﷺ بأقبر للمشركين على بغلته فحادت به حتى كادت تلقيه ، لأَنَّها سمعت أَصْوَاتَهم يُعَذَّبون وَمِن نِعم الله علينا أَنَّنا لا نَسْمَع هذا الصِّياح لحكم عَظِيمة منها :

أَوَّلًا : مَا أَشَارَ إليه النَّبى ﷺ بقوله : « لَوْلَا أَنْ لَا تَدافَنُوا لَدَعَوْتُ الله أن يُسْمِعَكُم عَذَابَ القَبْرِ »(١) .

ثَانيًا : أَنَّ فى إخفاء ذلك سِتْرًا على المَيِّت .

ثالثًا : أَنَّ فيه عدم إزعاج لأَهْله ؛ لأن أَهْله إذا سَمِعُوا مَيِّتهم يُعَذَّب وَيَصِيح لم يَسْتَقِر لهم قرار .

رابعًا : عدم تَخْجِيلِ أَهْله ؛ لأَنَّ النَّاس يَقُولون هَذَا وَلَدَكُم ، هذا أبوكم ، هذا أخوكم وَمَا أَشْبه ذلك .

خامسًا : أَنَّنا قد نهلك ؛ لأَنَّها صَيْحة ليست هَيِّنة بل صَيْحة تُوجب أَن تَسْقُط القُلوب من معاليقها فيموت الإنسان أَوْ يُغْشَى عليه .

---

(١) رواه مسلم (٢٨٦٧) (٦٧) من حديث زيد بن ثابت رضى الله عنه .

سادسًا : لو سمع النَّاس صُراخ هؤلاء المُعَذَّبين لكان الإيمان بعذاب القبر من باب الإيمان بالشَّهادة لا من باب الإيمان بالغَيب ، وحينئذ تَفُوت مصلحة الامتحان ، لأن النَّاس سوف يُؤْمنون بِما شَاهَدُوه قطعًا لكن إذا كان غائبًا عنهم ولم يعلموا به إلَّا عن طريق الخبر صار من باب الإيمان بالغَيْب .

فإن قلت : هل هذه الفتن لمن دفن أو تشمل حتى من أُلْقِى عَلَى وَجْه الأَرْض أو من أَكَلَتْهُ السِّباع ؟

نقول : تشمل الجميع فالمراد بالقبر هنا البَرْزخ الذى بين موت الإنسان وقيام السَّاعة .

* * *

● **ثم قال المؤلف – رحمه الله –: « ثُمَّ بَعْد هَذِه الفِتْنَة إمَّا نَعِيم أَوْ عَذَاب »** .

« ثم » هذه لمطلق التَّرتيب وليست للتَّراخى ؛ لأَنَّ الإنسان يُعَذَّب أو يُنَعَّم فورًا كما سبق أنه إذا قال : لا أَدْرِى يُضْرب بِمَرْزبَّة وأنَّ ذاك الذى أجاب بالصواب يفتح له باب إلى الجنة ويُوسع له فى قبره .

فقول المؤلف : « ثُمَّ بَعْد هذه الفِتْنَة » يُرادُ به التَّرتيب بدون تَرَاخِى إلَّا إذا كان الشَّيخ – رحمه الله – يَرَىٰ أنَّ العذاب الفَوْرى أو النَّعيم الفَوْرى الذى يعقب السُّؤال والجَواب شىء مُسْتَقِلٌ ويكون قوله « ثمَّ بَعْد هذه الفِتْنَة » يُريد به الشَّىء المستمر .

هذا النَّعيم هل هو نعيم عَلَى البدن أَوْ على الرّوح أَوْ يكون على البدن والرّوح جميعًا ؟

نقول : المعروف عند أهل السُّنة والجماعة أنَّه فى الأصل على الرّوح

والبدن تابع لها كما أَنَّ العذاب فى الدُّنيا على البدن والروح تَابِعة لَهُ كما أَنَّ الأحكام الشَّرعية فى الدُّنيا على الظاهر وفى الآخرة بالعكس ففى القبر يكون العذاب أَو النَّعيم على الروح لكن الجسم يَتَأثَّر بهذا تبعًا وليس على سبيل الاستقلال وربما يكون العَذَاب على البدن والروح تَتْبَعُه لكن هذا لا يقع إلا نادرًا إِنَّما الأَصْل أَنَّ العذاب على الرُّوح والبدن تَبَعٌ والنَّعيم للرُّوح والبدن تبع .

وقوله : « إِمَّا نَعِيم وَإِمَّا عَذَاب » فيه إِثْبَات النَّعيم والعذاب فى القبر وقد دلَّ على ذلك كتاب الله وسُنَّة رَسُوله ﷺ ، بل لنا أَنْ نقول وإجماع المسلمين :

– **أَمَّا من كتاب الله** : فالثَّلاثة أصناف التى فى آخر الواقعة ظاهرة فى ثُبوت عذاب القبر ونعيمه . قال الله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُوم وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُون وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِن لَا تُبْصِرُونَ فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيم وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَاب الْيَمِين فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَاب الْيَمِين وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيم وَتَصْلِيَةُ جَحِيم ﴾ [الواقعة : ٨٣-٩٤] وهذا أمر مُشَاهد أَحْيَانًا يسْمَع المحْتضر يُرحب بالقَادِمين عليه من الملائكة ويقول : مَرْحبًا ! وأحيانًا يقول : مَرْحبًا اجلس هنا كما ذكره ابن القيم فى كتاب الروح(١) . وَأَحْيانًا يُحس بأَنَّ هذا الرَّجل أُصيب بشىء

---

(١) جزء من حديث البراء بن عازب الصحيح المشهور الجامع لأحوال الموتى عند قبض أرواحهم وفى قبورهم والذى رواه أحمد (٢٨٧/٤ ، ٢٨٨ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦) وأبو داود (٤٧٥٣) وراجع شرحه والتعليق عليه فى كتابنا الحياة البرزخية ص (١٠ : ١٩) وقد ساقه الألبانى سياقًا واحدًا ضامًا إليه جمع الزوائد والفوائد التى وردت فى شىء من طرقه الثابتة وذلك فى كتابه أحكام الجنائز (١٥٦ : ١٥٩) .

مخيف فَيَتَغَيَّر وَجْهُه عند الموت إذا نزلت عليه ملائكة العذاب والعِياذ بالله .

ومن أدِلَّة القرآن : قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَة بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُم ﴾ [الأنعام : ٩٣] وهم شاحّون بأنفسهم لا يريدونها أن تخرج لأنهم قد بشروا بالعذاب والعقوبة فتجد الروح تأبى الخروج ولهذا قال : ﴿ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴾ [الأنعام : ٩٣] . ﴿ الْيَوْم ﴾ الـ للعهد الحضورى كقوله تعالى : ﴿ الْيَوْم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينكُمْ ﴾ [المائدة : ٣] يعنى اليوم الحاضر كذلك .

﴿ الْيَوْم تُجْزَوْنَ ﴾ [الأنعام : ٩٣] . الـ للعهد الحضورى ، والمراد به يوم حضور الملائكة لقبض أرواحهم . وفى المتقين قال : ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُم ادْخُلُواْ الْجَنَّة ﴾ [النحل : ٣٢] .

وذلك فى حال الوفاة ، ولهذا جاء فى الحديث الصَّحيح يقال لنفس المؤمن : « أُخْرُجى أَيَّتُها النَّفس الطَّيبة إلى رَحْمة مِن الله وَرِضْوَان »(١) فتفرح بهذه البشرى وتخرج منقادة سَهْلَة ، وإن كان البدن قد يتألم لكن الروح مُنْقَادة مُسْتَبْشرة .

وفى عذاب القبر آية ثالثة : وهى قوله تعالى فى آل فرعون : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُواْ آل فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَاب ﴾ [غافر : ٤٦] فقال : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ [غافر : ٤٦] قبل قيام الساعة بدليل قوله : ﴿ وَيَوْم تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُواْ آل فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَاب ﴾ [غافر : ٤٦] .

● **وأمَّا السُّنة فى عَذَاب القبر ونعيمه : فمتواترة .**

---

(١) رواه البخارى (١٣٧٨) ومسلم (١٩٨٠) ، (١٩٨١) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما .

● **وأما الإجماع** : فكل المُسْلِمين يقولون فى صَلَاتهم : أُعُوذ بالله مِنْ عذاب جهنم وَمِنْ عذاب القبر . ولو أَنَّ عذاب القبر غير ثابت ما صَحَّ أن يَتَعَوَّذُوا مِنه إذ لا تَعَوُّذ من أَمْر ليس موجودًا . وهذا يدلُّ على أَنَّهم يؤمنون به .

وفى الصَّحيحين من حديث ابن عباس قال : مَرَّ النَّبى ﷺ بِقَبْرين فقال : « إنَّهُمَا لَيُعَذَّبان وَمَا يُعَذَّبَانِ فى كَبِير ... » الحديث(١) . فدلَّ ذلك على أنَّ عذاب القبر ثابت .

سؤال : هل العَذَاب والنَّعيم دَائِم أو يَنْقَطع ؟

الجواب : أَنْ يُقَال أَمَّا العذاب للكفار فإنَّه دائم ، ولا يمكن أن يَزُول العذاب عنهم لأَنَّهم مُسْتَحِقُّون له ، ولأَنَّه لو زال العذاب عنهم لكان هذا راحة لهم وهم ليسوا أَهْلًا لذلك فهم باستمرار فى عَذَاب إلى يوم القيامة ، ولو طالت المدة ، فقوم نوح الَّذين أُغْرِقُوا مَا زَالُوا يُعَذَّبون فى هذه النار التى أُدخلوا فيها ويَسْتَمر عذابهم إلى يوم القيامة ولهذا قال المؤلف بعد ذلك : « إلى أَنْ تَقُوم القِيامَة الكُبْرى » وذكر بعض العُلَماء أَنَّه يخفف عن الكفار ما بين النَّفْختين ، واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ قَالُواْ يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ [يسٓ : ٥٢] ولكن هذا ليس بلازم بالنِّسبة للآية .

– أَمَّا عُصَاة المُؤْمنين : الَّذين يَقْضِى الله تَعَالَى عليهم بالعَذَاب فهؤلاء قد يَدُوم عذابهم وقَدْ لَا يَدُوم ، وقد يَطُول ، وقد لَا يَطُول حَسَب الذُّنوب وحَسَب عَفْو الله عزَّ وجلَّ ، وعَذَابهم فى القَبْر أَهْون من عَذَابهم يوم القيامة ، لأَنَّ عذابهم فى القبر لَيْس فيه خزى وعار لكن فى الآخرة فيه الخِزْى والعَار ، لأَنَّ الأَشْهاد مَوْجودون : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُواْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [غافر : ٥١] .

(١) رواه البخارى (١٣٧٨) ومسلم (١٩٨٠) ، (١٩٨١) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما .

سُؤال : إذَا قال قَائِل : كيف يُثْبَت عَذَابُ القبر ونَعِيمه وَنَحْنُ نَرَىٰ الإنسان يَمُوت فى البَرية ولا يُدْفن سواء كان مُسْلمًا أَوْ كافرًا فكيف نقول بعذاب القبر ؟!

الجواب : فنقول المُرَاد بالقبر البَرْزخ وهو مَا بَيْن الدُّنيا والآخرة وتَسْمِيتنا إِيَّاه بعذاب القبر من باب اللَّقب الذى لا يمنع من دُخول غيره بناء على الغالب فإنَّ أَكْثر المَوْتَىٰ يدفنون .

فإذا قال قائل : لو أَنَّ هذا الرَّجل تَمَزَّق أَوْصَالًا وَأَكَلَتْهُ السِّباع وَذَرَتْهُ الرِّياح فكيف يكون عَذَابُه وكيف يكون سؤاله ؟

فالجواب : إنَّ الله عَزَّ وجل على كل شىء قَدِير ، وهذا أَمْرٌ غَيْبِى ، فالله عز وجل قَادِرٌ على أَن يجمع هذه الأشياء فى عالم الغَيْب وإن كنا نُشَاهدها فى الدنيا مُتَمَزِّقة مُتَبَاعِدة لكن فى عالم الغيب رُبَّما يجمعها الله فانظر إلى الملائكة تنزل لقبض رَوْح الإنسان فى المكان نفسه : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ [الواقعة : ٨٥] وَمَعَ ذلك لا نبصرهم .

ومَلك الموت يكلم الرّوح ونحن لا نَسْمع .

جبريل يتمثَّل أَحْيَانًا للرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام ويُكلمهُ بالوَحْى فى نفس المكان والنَّاس لا ينظرون ولا يسمعون .

فعالم الغيب لا يُمْكن أَبَدًا أَن يُقَاس بعالم الشَّهادة ، وهذه من حِكْمة الله عَزَّ وجل ، فنفسك التى فى جَوْفك ما تَدرى كيف تَتَعَلَّق ببدنك ! كيف هى مُوَزَّعة على البَدَن ؟ وكيف تَخْرُج مِنك عِنْد النَّوم ؟

هَل تحس بها عند اسْتيقاظك بأَنَّها ترجع ومن أين تدخل لجسمك ؟

فعالم الغيب ليس فيه إلَّا التَّسليم ولا يمكن فيه القياس إطلاقًا فالله عزَّ وجلَّ قادر على أن يَجْمَع هذه المُتَفرِّقات من البَدن المتمَزِّق الذى ذَرَتْهُ الرِّياح ثمَّ يحصل عليه المُسَائلة والعَذَاب أو النَّعيم ؛ لأنَّ الله سُبْحانه على كل شيء قدير .

س : فإن قُلْتَ : يُدْفَن المَيِّت فى قبر ضَيِّق فكيف يُوسع له مَدّ البَصَر ؟

فالجواب : أن عالم الغيب لا يُقَاس بعالم الشَّهادة بل إننا لو فُرض أن أحدًا حفر حُفْرَةً مدّ البَصَر ودفن فيها الميِّت وأطبق عليه التُّراب فالذى لا يعلم بهذه الحفرة هل يَراها أو لا يَراها ؟ لا شك أنَّه لا يَراها .

س : إذا قال قائل : نَحْن نَرى المَيِّت الكَافِر إِذَا حَفَرْنا قَبرَهَ بَعْد يَوْم أَوْ يَوْمَين نرى أَنَّ أَضْلَاعه لم تَخْتَلف وَتَتَدَاخل من الضيق ؟

فالجواب : كما سبق أنَّ هذا من عالم الغيب ، ومن الجائز أن تكون مختلفة فإذا كَشَفَ عنه أعادها الله وَرَدَّ كُلّ شيء إلى مكانه امْتحانًا للعباد لأنها لو بَقِيَت مُخْتَلِفة ونحن قد دَفَنَّاه وَأَضلَاعُه مُسْتَقِيمة صَار الإيمان بذلك إيمان شَهَادَة .

س : إِذَا قال قَائِل كما قال الفلاسفة : نحن نَضَع الزِّئبق على المَيِّت وهو أَسْرع الأَشْياء تَحرُّكًا ومُرُوقًا وَإذا جِئْنَا من الغَد وَجَدْنا الزِّئبق على مَا هُو عليه ، وَأَنْتُم تَقُولون إنَّ الملائكة يَأْتُون ويجْلِسُون هذا الرَّجل والذى يجلس كيف يَبْقَى عليه الزِّئبق ؟

فنقول أَيْضًا كما قلنا : هَذه من عَالم الغَيْب وعَلَيْنَا الإيمان والتَّصديق ومن الجائز أيضًا أن الله عزَّ وجل يَرُد هذا الزِّئبق إلى مكانه بعد أن تحوَّل بالجلوس .

ونقول أيضًا : انْظُروا إلى الرَّجل فى المَنَام يَرَىٰ أَشْياء لو كان على حَسَب رُؤْيته إياها مَا بَقىٰ فى فراشه على السَّرير ، وأحيانًا تكون رُؤْيا حَقّ من الله عزَّ وجل فَتَقَع كما كان يَرَاها فى مَنَامه ، ومع ذلك نحن نؤمن بهذا الشىء .

والإنسان إذَا رَأىٰ فى مَنَامه مَا يَكْرَه إذا أَصْبَح أَصْبَح وهو مُتَكَدِّر وإذا رأى مَا يَسُرُّه أَصْبَح وَهُو مُسْتَبْشِر كل هذا يُدُلُّ على أن أُمور الرَّوح لَيْسَت من الأُمور المُشَاهدة .

* * *

٢ - القيـــامة الكبـــرى

١٨١ - إِلى أَنْ تَقُوم القِيَامَة الكُبْرى ، فَتُعَادُ الأَرْوَاح إِلى الأَجْسَاد .

١٨٢ - وَتَقُوم القِيامة التى أَخْبَرَ اللهُ بِها فِى كِتَابه وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ ، وَأَجْمَعَ عليها المُسْلِمُون .

الشـــرح

● **قال المؤلف : « إِلَى أَنْ تَقُوم القِيَامَة الكُبْرى ، فَتُعَادُ الأَرْوَاح إِلى الأَجْسَاد »** .

أَفَادنا المؤلف بقوله « القيامة الكُبرى » أَنَّ هناك قيامة صُغرى ، وهى قيامة كل إنسان بِعَيْنِهِ ، فإِنَّ كل إنسان لَهُ قِيامة فمن مات قَامَت قِيَامَتُه .

وسَكَت المؤلف رحمه الله عن أَشْرَاط السَّاعة فلم يذكرها ؛ لأَنَّ المؤلف إِنَّما يُريد أن يتكلَّم عن اليوم الآخر وما هى إِلَّا مُجرد عَلامَات وَإِنذارات لِقُرب قيام السَّاعة لِيَسْتَعِد لها من يَسْتَعِد وبعض أهل العلم الذين صَنَّفوا فى العقائد ذَكَرُوا أَشْرَاط السَّاعة هنا والحقيقة أَنَّه ليس لها دخل فى الإِيمان باليوم الآخر ، وإِن كانت هى من الأُمُور الغَيْبِيَّة التى أشار الله إِليها فى القرآن وفصَّلها النَّبى ﷺ فى السُّنة[1] .

---

(١) قال ابن قدامة رحمه الله فى لمعة الاعتقاد ص (١٠١) : « ويَجِبُ الإيمَانُ بكل مَا أَخْبَر به النَّبى ﷺ وصحَّ به النَّقل عنه فيما شَاهَدْنَاهُ أَوْ غَابَ عَنَّا ، نعلم أَنَّه حقٌّ وصِدْقٌ ، وسَوَاءٌ فى =

قال المؤلف : « فَتُعَادُ الأَرْوَاح إلى الأَجْسَاد » .

وذلك بعد أن فَارَقَتْهَا بالموت ، وهذه غير الإعادة التى تكون فى البَرْزَخ عن سُؤَال الميت عن ربِّه ودِينه ونَبِيِّه ، وذلك أَنَّ الله يأمر إسرافيل فينفخ فى الصُّور فيصْعَق مَنْ فى السَّماوات ومن فى الأرض إلَّا من شاء الله ثم يُنْفَخُ فيه مَرَّة أُخرى فَتَتَطَاير الأَرْوَاح من الصُّور إلى أجسادها وتحلّ فيها .

وفى قول المؤلف « إلى الأَجْسَاد » إشارة إلى أَنَّ الأَرْواح لا تخرج من الصُّور إلَّا بعد أن تَتَكَامل الأَجساد مَخْلوقة فإذا كملت خلقتها نفخ فى الصُّور فأُعِيدت الأَرْوَاح إلى أجسادها .

وفى قوله : « تُعَادُ الأَرْوَاح إلى الأَجْسَاد » دَليل على أَنَّ البعث إِعَادة ولَيْس تَجْديدًا بل هو إعادة لما زَالَ وتحوَّل فإن الجسد يتحوَّل إلى تُراب والعِظام تكون رَميمًا يجمع الله تعالى هذا المتفرق حتى يتكوَّن الجسد فَتُعَاد الأَرْوَاح إلى أَجْسَادها وأَمَّا من زعم بأن الأجساد تُخْلَق من جديد فإن هذا زعمٌ باطل يَرُدُّه الكتاب والسنة والعقل .

● أَمَّا الكتاب : فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَبْدَؤُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : ٢٧] . أى يُعيد ذلك الخلق الذى ابتدأه .

وفى الحديث القدسى يقول الله تعالى : « لَيْسَ أَوَّل الخَلِق بِأَهْون عَلَىَّ مِن إِعَادَته »(١) فالكلُّ على الله هَيِّن .

وقال الله تعالى : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ﴾ [الأنبياء : ١٠٤] .

= ذلك مَا عَقِلْنَاهُ وَجهِلْنَاهُ ، ولم نَطَّلِع على حَقِيقَة مَعْنَاه ... » قال (١٠٤) ومن ذلك : « أَشْراط الساعة ، مثل خُروج الدَّجال ونزُول عيسى بن مريم عليه السلام فَيَقْتُله ، وخُروج يأجوج ومأجُوج ، وخُروج الدَّابة وطُلوع الشَّمس من مَغْربها ، وأَشْبَاه ذلك مِمَّا صحَّ به النَّقل » ا.هـ

(١) رواه البخارى (٤٩٧٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٥ ، ١٦]

وقال تعالىٰ فى رَدّ حجّة المجادل المُخَاصِمِ الَّذى قال : ﴿ مَنْ يُحْيِى الْعِظَامَ وَهِىَ رَمِيم قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنشأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيم ﴾ [يس : ٧٨ ، ٧٩] .

● أَمَّا السُّنَّة : فهى كثيرة جدًا فى هذا حيث بيَّن النَّبى ﷺ أَنَّ النَّاس يُحشرون فيها «حُفَاة عُرَاة غُرْلاً »(١) . فالنَّاس هم الَّذين يُحْشَرُون وليس سواهم .

● وأَمَّا العَقل : فَلأَنَّنا لو قُلنا بأَنّ البعث تجديد لخلق جديد لكان ذلك ظُلمًا لعقوبة هذا الذى أُعِيد إذا كان مُسْتَحِقّاً للعقوبة لأَنَّ هذا شىء آخر غير الأول فكيف يُعَذَّب وهو مَخْلُوق من جديد لم يَعْمَل ولم يأثم حتى يستحق العقوبة .

فالمهم : أَنَّ البعث إعادة للأَجْسَاد السَّابقة .

فإذا قلت : ربما يُؤْكل الإنسان من قِبَل السِّبَاع ويتحوَّل جسمه الذى أَكَلَهُ السَّبع إلى تَغْذيه لهذا الآكل تَخْتَلِط بِدَمِه وَلحمه وعَظمه وتخرج فى روثه وبوله فما الجواب على ذلك ؟

---

(١) **حَدِيثٌ صَحِيحٌ** : علَّقه البخارى فى صحيحه فى موضعين أَحدهما بصيغة الجزم (١٧٣/١) والآخر بصيغة التَّمريض (٤٥٣/١٣) ووصله فى كتابه الأدب المفرد (٩٧٠) وكتابه خلق أفعال العباد ص (١٣١) وكذا وصله الإمام أحمد في مسنده (٤٩٥/٣) والبيهقى فى الأسماء والصفات ص (٧٨ ، ٧٩) وابن أبى عاصم فى السنة ص (٥١٤) والحاكم فى المستدرك (٤٣٧/٢ ، ٥٧٤/٤ ، ٥٧٥) وصحَّحه ووافقه الذهبى ، وقوَّاه الحافظ فى الفتح (١٧٤/١) وذكر له أكثر من طريق وقال عن أحدها أنه صالح وراجع تغليق التغليق له (٣٥٣/٥) .

وقال الألبانى فى تخريج السُّنة لابن أبى عاصم (٥١٤) : « حَدِيثٌ صَحِيحٌ » .

فالجواب : أَنَّ الأَمر هَيِّن على الله يقول كن فيكون ويتخلَّص هذا الجسم الذى سيبعث من كل هذه الأشياء التى اختلط بها وقدرة الله عزَّ وجل فوق ما نتصوّره فالله على كل شيء قدير .

فالمهم أن قوله « تُعَاد الأَرْوَاح إلى الأَجْسَاد » يُفِيد أَنَّ الجسم يتكون أَوّلاً ثم تُعَاد الرُّوح إليه كما هو كذلك فى بطن أُمِّه ؛ فإنَّه لا تنفخ فيه الرّوح حتى يتكامل ، فإذا تَكَامَل بعث إليه الملك وأَمَر بِما يُؤمر به ونفخ فيه الرُّوح .

* * *

● **قال المؤلف : « وَتَقُومُ القِيامة الَّتى أَخْبَر الله بِها فى كِتَابِهِ وَعَلَىٰ لِسَانِ رَسُوله وَأَجْمَعَ عَلَيْها المُسْلِمُون »** .

هذه ثلاثة أنواع من الأَدِلَّة : كتاب الله تعالىٰ وسُنَّة رَسُوله ﷺ وَإِجْمَاعُ المسلمين .

● فأَمَّا كِتَابُ الله تعالىٰ : فقد أَكَّد الله تعالىٰ فى كتابه هذه القيامة وذكرها الله عزَّ وجل بِأَوْصَافٍ عظيمة تُوجب الخوف والاستعداد لها فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيم يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَىٰ النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ الله شَدِيدٌ ﴾ [الحج : ١ ، ٢] . وقال تعالى ﴿ الحَاقَّةُ مَا الحَاقَّةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحَاقَّة ﴾ [الحاقة : ١-٣] . وقال تعالى : ﴿ القَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَة يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ المَبْثُوثِ وَتَكُونُ الجِبَالُ كالْعِهْنِ الْمَنْفُوش ﴾ [القارعة : ١-٥] . والأَوْصَاف لها فى القرآن كثيرة كلها مُرَوِّعة مُخَوِّفة ، لأنها عظيمة ، وإذا لم نُؤْمن بها فلن نعمل لها ، إِذْ لا يمكن للإنسان أَنْ يَعْمَل لِهَذَا اليَوْم حَتَّى يُؤْمِن به وحتى

يُذْكر له أَوْصَافه التى تُوجب العمل لهذا اليوم .

● وأَمَّا السُّنة : فالأَحاديث فى ذكر القيامة كثيرة بيَّن الرَّسول عليه الصَّلاة والسلام ما يكون فيها كما سيأتى إن شاء الله فى ذكر الحوض والصِّراط والكتاب وغير ذلك مما بيّنه الرَّسول ﷺ .

● وَأَمَّا الإجماع : وهو النوع الثَّالث ، فقد أَجْمَع المسلمون إجماعًا قطعيًا على الإيمان بيوم القيامة ، ولهذا كان من أَنْكَرَهُ فهو كافر إلَّا إذا كان غريبًا عن الإسلام وَجَاهِلاً فَإِنَّه يُعَرَّف فإن أَصَرَّ أَحَدٌ على الإنكار بعد ذلك فهو كافر .

● وهناك نَوْعٌ رابع من الأَدِلَّة : وهو الكتب السَّماوية ، حيث اتفقت على إثبات اليوم الآخر ، ولهذا كان اليهود والنَّصارى يُؤْمنون بذلك وحتى الآن يُؤْمنون به ولهذا تسمعونهم يقولون فلان المرحوم ، أَوْ رَحمهُ الله أَوْ مَا أَشبه ذلك . مما يدلُّ على أنهم يؤمنون باليوم الآخر إلى يومنا هذا .

● وثَمَّ نوع خامس وهو العقل : وَوَجْهُ ذلك أَنَّه لو لم يكن هذا اليوم لكان إيجاد الخلائق عَبَثًا ، والله عَزَّ وجل مُنَزَّه عن العَبَث فما الحكمة من قوم يُخْلَقُون ويُؤْمَرُون ويُنهون ويلزمون بما يلزمون به ويندبُون إلى مَا يندبون إليه ثم يموتون ولا حساب ولا عقاب ؟

ولهذا قال الله تعالى ﴿ أَفَحَسِبْتُم أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ فَتَعَالَى اللهُ المَلِكُ الْحَقّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون : ١١٥ ، ١١٦] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِى فَرَض عَلَيْكَ القُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ [القصص : ٨٥] . كيف يفرض القرآن ويُفرض العَمَل به ثم لا يكون هناك مَعَادٌ نُحَاسب على ما نفذنا من هذا القرآن الذى فُرِض عَلَيْنا ؟ فصارت أَنواع الأَدِلَّة على ثُبوت اليوم الآخر خَمْسة .

* * *

٣ - ما يجـــرى فى يوم القيامـــة :
(أ) البعث والحشـــر

١٨٣ - فيقوم النَّاس من قُبُورهم لِرَبِّ العَالَمِين حُفَاة عُرَاة غُرلا .

الشــــرح

قوله « **مِن قُبُورهم** » : هذا بناءً عَلَى الأَغْلَب وإلا فقد يكون الإِنسان غير مدفون .

وقوله « **لرب العالمين** » : يعنى لأن الله عز وجل يُنَادِيهم . قال الله تعالى : ﴿ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَكَانٍ قَرِيبٍ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَة بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴾ [ق : ٤١ ، ٤٢] فيقومون لهذا النداء العظيم من قبورهم لربهم عز وجل قال تبارك وتعالى : ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [المطففين : ٤-٦] .

قال المؤلف « **حُفَاةً عُرَاة غُرلا** » : حُفَاة : ليس عليهم نِعَال ولا خِفَاف يعنى أَنَّه ليس عليهم لِباس للرّجل . عُرَاة : ليس عليهم لباس للجسد . غُرلاً : لم ينقص من خلقهم شىء .

والغرل : جمع أَغرل ، وهو الذى لم يختن أى أَنَّ القُلْفَة التى قُطِعَت منه فى الدُّنيا تعود يوم القيامة ؛ لأَنَّ الله يقول : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ﴾ [الأنبياء : ١٠٤] فيُعاد الإنسان كاملاً لم ينقص منه شىء يعودون على هذا الوَصْف مختلطين رجالاً ونساءً ولما حدَّث النَّبى عليه الصلاة والسلام بذلك . قالت عائشة : يَا رَسُول الله الرِّجال والنِّساء ؟ فقال : «الأَمْرُ أَعْظَمُ

مِن أَن يهمهم ذلك»(1) . فكل إنسان له شَأْنٌ يُغْنيه ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾

[عبس : ٣٤-٣٧] .

لا رجل ينظر إلى امرأة ، ولا امرأة تنظر إلى رجل ، حتى إن ابنه أَوْ أَبَاه يَفِرُّ منه خوفًا من أَنْ يُطَالِبه بحقوق له . وإذا كان هذا هو الوَاقِع فإنَّه لا يمكن أَن تنظر المرأة إلى الرَّجل ولا الرَّجل إلى المرأة . الأمر أعظم !!

ولكن مع ذلك يُكْسَوْنَ بعد هذا ، وأول من يُكْسَىٰ إبراهيم عليه الصَّلاة والسلام كما ثَبت ذلك عن النَّبى ﷺ(2) .

* * *

(1) البخارى (٦٥٢٧) ومسلم (٢٨٥٩) (٥٦) من حديث عائشة رضى الله عنها .

(2) البخارى (٣٣٤٩) ومسلم (٢٨٦٠) (٥٨) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما .

وممـا يجرى فى يوم القيامـة :
(ب) دنـو الشمـس من الـرؤوس

١٨٤ - وَتَدْنُو منهم الشَّمْس .

١٨٥ - ويُلْجِمهم العَرَق .

الشـــــرح

● **قال المؤلف : « وتدنو منهم الشَّمس »**

تَدْنُو : أى تَقْرب منهم الشَّمس . وتَقْـرُب منهم مِقْدار ميل وهذا الميل سواءً كان المسافة أو ميل المكحلة فإنَّها قريبة ، وإذا كانت هذه حرارتها فى الدُّنيا وبيننا وبينها من البعد شىء عظيم فكيف إذا كانت عن الرؤوس بمقدار ميل[1] .

قد يقول قائل : المعروف الآن أَنَّ الشَّمس لو تدنو بمقدار شعرة عن مستوى خطها لأَحْرَقَت الأرض فكيف يُمكن أن تكون فى ذلك اليوم بهذا المقدار من البعد ثم لا تحرق الخلق ؟

فالجواب على ذلك : أَنَّ الناس يُحْشَرُون يوم القيامة لَيْسُوا على القوة التى هم عليها الآن بل هم أَقْوَىٰ وأَعْظم وأَشَد تحمُّلاً . لو أَن النَّاس الآن وقفوا خمسين يومًا فى شمس لا ظِلّ وَلا أَكل ولا شُرب فلا يمكنهم ذلك بل يموتون لكن يوم القيامة يبقون خمسين ألف سنة لا أَكل وَلا شُرب ولا ظل

---

(١) البخارى (٤٧١٢) ومسلم (١٩٤) (٣٢٧) من حديث أبى هريرة .

إِلَّا من أَظَلَّه الله عزَّ وجل ، ومع ذلك يُشَاهِدُون أَهْوَالاً عَظيمة فيتحملون .

وفى عذاب جهنم كيف يتحمَّلون هذا التَّحمل العظيم : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾ [النساء : ٥٦] .

وفى أهل الجنَّة ينظر الإِنسان إلى مُلْكِهِ مَسِيرة أَلْف عام أو أَلْفى عَام إلى أَقْصَاه كما ينظر إلى أَدْنَاه كما روى ذلك عن النَّبى ﷺ .

فالأجسام يوم القيامة لَيْسَت كالأجسام فى الدُّنيا من حيث التَّحمل فالشَّمس تدنو منهم إلى هذه المسافة ، ومع ذلك لا يَحْتَرِقُون .

فإن قيل : هل أَحَد يَسْلم من الشَّمس ؟

فالجواب نعم ! فيه أُناس يُظِلُّهم الله فى ظِلِّه يوم لا ظِل إِلَّا ظله كما أخبر بذلك النَّبى ﷺ : « إِمامٌ عَادِل ، وَشَابٌ نَشَأَ فِى طَاعَةِ الله ، وَرَجُلٌ قَلْبُه مُعَلَّقٌ بِالمَسَاجِد ، وَرجلان تحابّا فى الله اجتمعا عليه وَتَفرّقا عَلَيْه ، وَرَجُلٌ دعته امرأة ذات مَنْصِب وجمال فقال : إِنِّى أَخَافُ الله ، وَرَجُلٌ تَصدَّق بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لا تَعْلَم شِمَالُهَ ما تُنْفِق يَمِينه ، وَرَجُل ذَكَرَ الله خَالِيًا فَفَاضَت عَيْنَاه »(١) .

وهناك أيضًا أَصْنَاف أخرى يُظِلُّهم الله فى ظِلّه يوم لا ظل إِلَّا ظِلُّه(٢) .

---

(١) رواه البخارى (٦٦٠) ، (١٤٢٣) ، (٦٨٠٦) ومسلم (١٠٣١) (٩١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) وقد اهتم طائفة من أهل العلم بهذه الخصال الموجبة لهذا الفضل العظيم منهم الحافظ ابن حجر كما فى فتح البارى (١٤٤/٢) فى مصنف مستقل سمَّاه : « معرفة الخصال الموصلة إلى الظلال » والسيوطى فى جزء سمَّاه : « تمهيد الفرش فى الخصال الموجبة لظل العرش » واختصره فى جزء سماه « بزوغ الهلال فى الخصال الموجبة للظلال » .

وقوله « لا ظِل إلَّا ظِلُّه » يعنى إلَّا الظل الذى يخلقه ، وليس كما توهَّم بعض النَّاس أنَّه ظِلّ ذات الرَّب عزَّ وجل ، فإن هذا باطل ، لأنَّه يَسْتَلزِم أن تكون الشَّمس حينئذ فوق الله عز وجل .

ففى الدُّنيا نحن الذين نَبْنى الظِّل لنا ، لكن يوم القيامة لا ظِل إلَّا ظِل الله الذى يخلقه سبحانه وتعالى لِيَسْتَظِل به مَنْ شَاءَ من عِبَادِه(١)

* * *

● وقول المؤلف : « ويُلْجِمهم العَرَق »

أى يَصِل منهم إلى مَوْضع اللِّجام من الفَرَس ، وهو الفم ولكن هذا غاية مَا يَصِلُ إليه العَرَق ، وإلَّا فبعضهم يَصِل العَرَق إلى كعبيه ، وَإلى ركبتيه وإلى حَقْويه ، وَمِنْهم من يُلْجِمُه ، فهم يختلفون فى هذا العَرَق ، ويعرقون من شِدَّة الحرّ ، لأَنَّ المقام مقام زِحَام وشِدَّة ودُنُو شَمْسٍ فيغرق الإنسان مِمَّا يحصل فى ذلك اليوم لكنهم على حسب أعمالهم(٢) .

(١) قال الشَّيخ ابن عثيمين فى مجالس الربانيين شرح رياض الصالحين (١/٣٦٩ ، ٣٧٠) فى شرحه لهذا الحديث : « وهنا مسألة أحب أن أُنبِّه عليها وهى أن بعض النَّاس يظنون أن المراد بالظِّل فى ظله يوم لا ظل إلا ظِلّه أنَّه ظل الرَّب عز وجل ، وهذا ظنٌّ خاطىء جدًا لا يظنه إلا جاهل وذلك أن المعلوم أن الناس فى الأرض وأن الظل هذا يكون من الشمس عن الشمس فلو قدر أَنَّ المراد ظل الرَّب سبحانه وتعالى لزم من هذا أن تكون الشمس فوق الله ليكون حائلاً بينه وبَيْن الناس وهذا شىء مستحيل ولا يمكن لأن الله سبحانه قد ثَبَتَ له العلو المطلق من جميع الجهاتِ . ولكن المراد ظِل يَخْلُقه الله فى ذلك اليوم يُظلّل من يَسْتَحِقُّون أن يُظِلَّهم الله فى ظِلّه ، وإنَّما أُضافه إلى نفسه لأنه فى ذلك اليوم لا يستطيع أحد أَن يُظلل بفعل مخلوق ! لا هناك بناء ولا شىء يوضع على الرؤوس إنَّما يكون الظل ما خلقه الله لعباده فى ذلك اليوم فلهذا أَضافه الله إلى نفسه لا ختصاصه به » ا.هـ

(٢) روى مسلم (٢٨٦٤) (٦٢) من حديث المقداد بن الأسود رضى الله عنه قال : قال =

فإن قلت : كيف يكون ذلك وهم فى مكان واحد ؟

فالجواب : أنَّنا أصَّلْنَا قاعدة يجب الرُّجوع إليها ، وهى أنَّ الأمور الغيبية يجب علينا أن نؤمن بها ونُصَدِّق دون أن نقول كيف ، لأنَّها شىء وراء عُقُولنا ، ولا يمكن أن نُدْركها أوْ نُحِيط بها .

أرأيت لو أنَّ رجلين دُفِنَا فى قَبْرٍ واحد أَحَدُهما مؤمن ، والثَّانى كافر فإنَّه ينال المؤمن من النَّعيم ما يَسْتَحِقّ ، وينال الكافر من العذاب ما يَسْتَحِقّ وهما فى قبر واحد ، ومع هذا نقول : العَرَقُ يوم القيامة يكون هكذا .

فإن قلت : هل تقول إنَّ الله سبحانه وتعالى يجمع من يلجمهم العرق فى مكان ومن يَصِل إلى كعبيه فى مكان وَإلى ركبتيه فى مكان وإلى حقويه فى مكان ؟

فالجواب : لا نجزم بهذا والله أعلم . بل نقول من الجائز أنْ يكون الذى يصل العرق إلى كَعْبه إلى جانب الذى يُلْجمه العَرَق والله على كل شىء قدير ، وهذا نظير النُّور الذى يكون للمؤمنين يَسْعَى بين أيديهم وَبأَيْمَانِهِم ، والكفار فى ظلمة . فيوم القيامة يجب علينا أنْ نُؤمن به وَبِمَا يكون فيه ، أمَّا كيف ؟ فهذا ليس إلينا .

* * *

= رسول الله ﷺ : « تُدْنَى الشَّمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل ، فيكون النَّاس على قدر أعْمَالهم فى العرق ، فمنهم من يكون إلى كَعْبيه ، ومنهم من يكون إلى رُكبتيه ، ومنهم من يكون إلى حَقْويه ، ومنهم من يلْجِمه العَرق إلجامًا ، وأشار رسول الله ﷺ بيدِه إلى فيه » .

الحَقْو : الخصر .

ومما يجرى فى يوم القيامة :

(جـ) نصب الموازين

١٨٦ - فَتُنْصَبُ المَوَازِين ، فتُوزَن بها أَعْمَال العِبَاد .

١٨٧ - ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾

[المؤمنون : ١٠٢ ، ١٠٣]

الشـــرح

● **قال المؤلف : « فَتُنْصَبُ المَوَازِين فَتُوزَنُ بِهَا أَعْمَالُ العِبَاد » .**

الذى يَنْصُب الموازين هو الله عزَّ وجل لِتُوزَن بها أَعْمَال العِبَاد .

والمؤلف هنا يقول « تُنْصَبُ المَوَازِين » بالجمع ، وقد وردت النُّصوص بالجمع وبالإفراد فمثال الجمع : قول الله تعالى ﴿ وَنَضَعُ المَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ [الأنبياء : ٤٧] .

وقال تعالى : ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الأعراف : ٨ ، ٩] .

وأَمَّا الإفراد : فقال النبى ﷺ : « كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ حَبِيبَتَان إِلَى الرَّحْمَن ثَقِيلَتَانِ فِى المِيزَانِ سُبْحَانَ الله وَبِحَمْدِه سُبْحَانَ الله العَظِيم »(١) .

(١) رواه البخارى (٧٥٦٣) ومسلم (٢٦٩٤) (٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه

فقال : « فِى المِيزان » فأفرد ، فكيف نجمع بين الآيات القرآنية وبين هذا الحديث ؟!

فالجواب : أن نقول أَنَّها جمعت باعتبار الموزون حيث أَنَّه مُتَعَدِّد ، وأفردت باعتبار أَنَّ الميزان واحد أو ميزان كل أُمَّة . أو أن المراد بالميزان فى قوله عليه الصَّلاة والسَّلام «ثَقِيلَتَانِ فِى المِيزَان» أى فى الوزن ، ولكن الذى يظهر والله أَعلم أَنَّ الميزان واحد وأَنَّه جمع باعتبار الموزون بدليل قوله ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ [الأعراف : ٨] . لكن يتوقَّف الإِنسان هل يكون ميزانًا واحدًا لجميع الأمم . أَوْ هو ميزان واحد لكل أمة ؛ لأن الأمم كما دلت عليه النصوص تختلف باعتبار أجرها ؟!

وقوله : « تُنْصَب المَوَازِين » ظاهره أَنَّها مَوازين حِسِّية وأن الوزن يكون على حسب المعهود بالرَّاجح والمرجوح ، وذلك لأن الأَصل فى الكلمات الواردة فى الكِتاب والسُّنَّة حملها على المعهود المعروف إِلَّا إِذا قام دليل على أَنَّها خلاف ذلك والمعهود المعروف عند المخاطبين منذ نُزُول القرآن الكريم إلى اليوم أن الميزان حسى وأن هناك رَاجِح ومَرْجُوح ، وخالف فى ذلك جماعة :

فالمعتزلة قالوا : إِنَّه ليس هناك ميزان حِسِّى ، ولا حاجة له ؛ لأَنَّ الله تعالىٰ قد علم أَعْمَال العِباد وَأَحْصَاها ، ولكن المُرَاد بالميزان : الميزان المَعْنَوى الذى هو العدل .

ولاشك أَنَّ قول المعتزلة باطل ؛ لأَنَّه مُخَالف لظاهر اللَّفظ ، وإجماع السَّلف ، ولأَننا إِذا قلنا أَنَّ المراد بالميزان العدل فلا حاجة إلى أن نُعَبِّر بالميزان بل نُعَبِّر بالعدل لأَنَّه أحب إلى النفس من كلمة مِيزَان ولهذا قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ﴾ [النحل : ٩٠] .

من العلماء من يَرَىٰ أَنَّ الرجحان للعالى ؛ لأَنَّه يحصل فيه العلو ، لكن الصَّواب أَن نجرى الوزن على ظاهره ، ونقول إن الرَّاجح هو الذى ينزل وَيدُلُّ لذلك حديث صاحب البطاقة فإن فيه أَن السّجلات تَطِيش وتثْقل البطاقة . وهذا واضح بأن الرُّجحان يكون بالنزول .

وقوله « فَتُوزَنُ بِهَا أَعْمَالُ العِبَاد » : كلام المؤلف رحمه الله صَرِيحٌ بأَنَّ الذى يُوزن العمل . وهنا مَبَاحث :

المبحث الأول : كيف يُوزن العَمَل ، والعَمَلُ وَصْفٌ قائم بالعَامِل ولَيْسَ جسمًا حتى يُوزَن ؟

فالجواب على ذلك : أَن يُقال : إِنَّ الله سبحانه وتعالى يجعل هذه الأعمال أَجْسَامًا ولَيْسَ هذا بغريب على قدرة الله عَزَّ وجلَّ ، وله نظير وهو الموت فإنَّه يجعل على صورة كَبْش ويُذْبَح بين الجنَّة والنَّار مع أَنَّ الموت معنى وليس جسم وليس الذى يُذْبح مَلك المَوْت ، ولكنَّه نفس الموت حيث يجعله الله تعالىٰ جسمًا يُشَاهد ويرى ، كذلك الأَعْمَال يجعلها الله عزَّ وجلَّ أَجْسَامًا تُوزن بهذا الميزان الحِسِّى .

المبحث الثَّانى : صريح كلام المؤلف أَنَّ الَّذى يُوزن العَمل سَواء كان خيرًا أَمْ شرّاً وهذا هو ظاهر القرآن كما قال الله تعالى ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاس أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : ٦-٨] . فهذا واضح أَنَّ الَّذى يُوزن العمل وقال النَّبى عليه الصلاة والسلام : « كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إلى الرَّحمن خَفِيفَتَان عَلَىٰ اللِّسَان ثَقِيلَتَانِ فِى المِيزَانِ »(١) . وهذا صريح أيضًا فى أَنَّ الذى يُوزن العمل ، والنُّصوص فى هذا كثيرة ، ولكن هناك نُصوص قد يُخَالف ظاهرها هذا منها حديث

(١) نقدم تخريجه ص (٥٥٦) .

صاحب البطاقة : رَجُل يُؤْتَى به على رُؤُوس الأَشْهَاد وتُعْرَض عليه أَعْمَاله ويُؤْتَى بِسِجِلّات عَظيمة مَكْتُوبٌ فِيها أَعْمَاله السَّيِّئة ، فإذا رأى أَنَّه قد هَلَكَ . قال الله له : إِنَّك لا تُظْلَم شيئًا إِنَّ لك عندنا حَسَنَة فَيُؤْتَى ببطاقة صَغِيرة فيها لا إله إِلَّا الله فيقول : يَارَب مَا هَذِه البطاقة ؟ » الحديث(١) .

وظاهر هذا أَنَّ الذى يُوزَن صَحَائِف الأَعمال .

هناك نُصُوص أُخرَى تدلُّ على أَنَّ الذى يُوزن العَامِل : مثل قوله تعالى : ﴿ أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ [الكهف : ١٠٥] مع أَنه قد يُنَازِع فى الاستدلال بهذه الآية فيقال أَنَّ معنى قوله ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ [الكهف : ١٠٥] يَعْنى قَدْرًا .

ومثل ما ثبت فى الصَّحيح من حديث ابن مسعود رضى الله عنه أَنَّه قَامَ ذَات يَوْم فِى رِيحٍ شَدِيدة وكان رضى الله عنه نَحِيف السَّاقين فجعلت الرِّيح تُحَرِّكه فَضَحِك الصَّحابة رضى الله عنهم فقال النَّبى ﷺ: «أَتَضْحَكُونَ مِن دِقَّة سَاقَيْهِ فَوَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ إِنَّهُما فى المِيزان أَثْقَل مِن أُحُد »(٢) .

فصار هاهنا ثلاثة أشياء : العَمَل والعَامِل والصَّحائِف(*) .

---

(١) **حديثٌ صَحِيحٌ** : أخرجه أحمد (٢/٢١٣) والتِّرمذي (٢٦٣٩) وابن ماجة (٤٣٠٠) وإسناده صحيح . وقد صحَّحه ابن حبان (٢٥٢٤) والحاكم (١/٦ ، ٥٢٩) ووافقه الذهبى وحسَّنه الترمذى ، وصحَّحه الألبانى فى الصحيحة (١٣٥) ، وقال : « والأحاديث فى ذلك متضافرة إن لم تكن متواترة » ا.هـ

(٢) رواه أحمد (٣٩٩١) بإسناد صحيح كما قال الشيخ أحمد شاكر .

(*) **قال الشيخ عبدالعزيز بن باز حفظه الله:** « الجمع بين النُّصوص الوَاردة فى وزن الأعمال ، والعَاملين ، والصَّحائف ، أنه لا منافاة بينها فالجميع يوزن ولكن الاعتبار فى الثقل والخفة يكون بالعمل نفسه لا بذات العامل ولا بالصحيفة » ا.هـ

– فقال بعض العلماء : أن الجمع بينها أَنْ يُقَال : إِنَّ مِن النَّاس من يُوزَن عَمَلُه ومن النَّاس من يُوزن صَحَائِف عَمَلُه ، ومن الناس من يُوزَن هو بنفسه .

– وقال بعض العلماء : نجمع بينها فَنَقُول : إِنَّ المُرَاد بِوَزْن العَمَل أَنَّ العمل يُوزَن وهو فى الصَّحائف ويبقى وَزْن صَاحِب العمل فيكون لبعض النَّاس ، ولكن عند التَّأمُّل نجد أن أكثر النُّصوص تدلُّ على أن الذى يُوزَن هو العمل .

– ويَخُصُّ بعض الناس فَتُوزن صَحَائف أَعْمَاله ، أَوْ يُوزن هو نفسه ، وأَمَّا مَا وَرَدَ فى حديث ابن مَسْعود ، وحديث صَاحِب البطاقة فقد يكون هذا أَمْرًا يَخُصُّ الله بِهِ مَنْ يَشَاء مِن عباده .

* * *

● **قال المؤلف** : ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾

[المؤمنون : ١٠٢ ، ١٠٣]

﴿ مَنْ ﴾ شرطية ، وجواب الشَّرط جملة ﴿ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ وأَتَت الجملة الجَزَائِيّة جملة إِسْمِيّة بصفة الحصر ﴿ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ والجملة الإسمية تُفيد الثُّبوت والاستمرار .

ثانيًا : جاءت باسم الإشارة الدَّال على البعد ﴿ أُولَئِكَ ﴾ ولم يقل « فهم المفلحون » إشارة إلى عُلُوِّ مرتبتهم .

ثالثًا : جاءت بِصِفة الحصر فى قوله ﴿ هُم ﴾ وهو ضمير فَصْل يُفيد الحصر والتَّوكيد والفصل بين الخبر والصِّفة .

المُفْلِح : هو الذى فاز بمطلوبه ونجا من مَرْهُوبه فحصل له السّلامة مما يَكْره وحصول ما يحب ، وهكذا معنى مُفْلح فى القرآن أَو السُّنَّة .

وقوله : ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٢].

فيه إشكال من جهة العربية فإن ﴿ مَوَازِينُه ﴾ الضَّمير مفرد ، و﴿ أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ الضَّمير جَمْع ؟!

وجوابه : أَنَّ ﴿ مَنْ ﴾ الشَّرطية صَالِحة للإِفراد والجمع ، وباعتبار اللَّفظ يعود الضَّمير إليها مفردًا ، وباعتبار المعنى يعود الضَّمير إليها جمعًا وهكذا .

كلما جاءت ﴿ من ﴾ فإنَّه يجوز أن تُعيد الضَّمير إليها بالإِفراد أَوْ بالجمع وهذا كثير فى القرآن . قال الله تعالىٰ : ﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴾ [الطلاق : ١١] فتجد الآية الكريمة فيها مراعاة اللفظ ثم المعنى ثم اللفظ .

قال : ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ [المؤمنون : ١٠٣] .

والإِشارة هنا للبعد لانحطاط مَرْتَبَتِهم لا لعلو مَرْتَبتهم .

وقوله : ﴿ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ الكافر قد خَسِرَ نَفْسَه وأهله وماله .

﴿ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَة ﴾ [الزمر : ١٥] بينما المؤمن العامل للصَّالحات قد رَبِحَ نَفْسَه وأَهْلَهُ ومَالَهُ وانتفع به .

فهؤلاء الكفار خَسِرُوا أَنْفُسَهم لأنهم لم يَسْتَفِيدُوا مِن وجودهم فى الدُّنيا شيئًا بل مَا اسْتَفَادُوا إِلَّا الضَّرر ، وخَسِرُوا أَمْوَالَهم لأَنَّهم لم ينتفعوا بها حتى ما أَعْطَوْه للخلق لِيَنْتَفِع به فإنَّه لا ينفعهم كما قال تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن

تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ ﴾ [التوبة : ٥٤] . وَخَسِرُوا أَهْلِيهم لأَنَّهم فِى النَّار ، فصاحب النَّار لا يأنس بِأَهْلِه بل إِنَّه مُغْلق عليه فى تَابوت ، ولا يرَىٰ أَنَّ أحدًا أَشدّ مِنه عَذَابًا .

* * *

ومما يَجْرى فى يوم القيامــة :
(د) نشــر الدَّواويــن

١٨٨ - وتُنْشَرُ الدَّوَاوِين - وَهِى صَحَائِفُ الأَعْمَال - فَآخِذٌ كِتَابَهُ بِيَمِينهِ وَآخِذٌ كِتَابَهُ بِشِمَالِه أَوْ مِن وَرَاءِ ظَهْرِهِ .

١٨٩ - كَما قَال سُبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ﴾ [الإسراء : ١٣ ، ١٤] .

الشـــــرح

● ثم انتقل المؤلف إلى مَشْهَد آخر وَهُو صَحَائف الأَعمال فقال :

« **وَتُنْشَرُ الدَّوَاوِين** » أَى تُنْشَر أَى تُفَرَّق . والدَّوَاوِين : جمع ديوان وهو السّجل الذى تكتب فيه الأَعْمَال ومنه دَوَاوِين بيت المال وما أَشْبَه ذلك .

قال « **وَهِى صَحَائِفُ الأَعْمَال** » يعنى الَّذى كَتبها الملائكة الموكَّلون بأَعْمَال بَنى آدم ﴿ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِين يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار : ٩-١٢] .

فَيُكْتَب هذا العَمَل ويكون لأَزِمًا للإِنسان فى عُنُقه فإِذا كان يوم القيامة أَخْرَج الله هَذا الكِتاب وقال له : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء : ١٤] . قال بعض السَّلف : « لَقَدْ أَنْصَفَكَ مَنْ جَعَلَكَ حَسِيبًا عَلَىٰ نَفْسك » والكِتابة فى صَحَائِف الأعمال إِمَّا حسنات وَإِمَّا سَيِّئات

والذى يُكتَب من الحَسَنَات مَا عَمِلَهُ الإنسان ، ومَا نَوَاهُ وما همَّ به فهذه ثلاثة أشياء :

١ – فأَمَّا مَا عَمِلَهُ فظاهر أَنَّهُ يُكْتَب .

٢ – وأَمَّا مَا نَوَاهُ فإِنَّه يُكْتَب لكن يُكْتَب لَهُ أَجْر النِّيَّة كاملة فقط كما فى الحديث الصَّحيح فى قِصَّة الرَّجل الذى كان له مَالٌ يُنْفِقُه فى سَبِيل الله فقال الرَّجل الفقير : لَوْ أَنَّ عِنْدِى مَال فُلان لَعَمِلْتُ فِيه عَمَل فُلان . قال النَّبى ﷺ : فَهُو بِنِيَّتِهِ فَهُمَا فى الأَجْر سَوَاء »(١) . ويَدُلُّ على أَنَّهما لَيْسَا سَوَاء فى الأجر من حيث العمل أَنَّ فقراء المهاجرين لما أَتَوا إلى النَّبى ﷺ وقالوا يَا رَسُول الله : إِنَّ أَهْل الدُّثُور سَبَقُونا فقال لهم : تُسَبِّحون وتَحْمِدُون وَتُكَبِّرون دُبُر كُلِّ صَلاة ثَلاثًا وَثَلاثِين .

فَلَمَّا سَمِعَ الأَغْنِياء بِذَلِك فَعَلُوا مِثْلَه ، فَرَجع الفُقَراء يَشْكُون إلى النَّبى ﷺ فقال لهم : « ذلِكَ فَضْلُ الله يُؤْتِيه مَنْ يَشَاء »(٢) . ولم يقل : إِنَّكُم بِنِيَّتِكُم أَدْرَكْتُم عَمَلَهُم ؛ ولأَنَّ هذا هو العَدل ، فرجل لم يَعْمَل لا يكون كالذى عَمِلَ ونَفع النَّاس لكن بِنِيَّته يكون مِثْلُه .

٣ – إذا همَّ بالشَّىء وسَعَىٰ بِأَسْبَابه ، ولكنَّه لم يُدْرِكه ، فهذا يُكْتَب لَهُ الأَجْر كاملاً لقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ المَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ ﴾ [النساء : ١٠٠] . وهذه بُشْرَىٰ لطلبة العلم : إذا نَوَىٰ الإنسان أَنَّه يطلب العلم وهو يُريد أن ينفع النَّاس بعلمه

---

(١) **حديثٌ صَحِيحٌ** : جزء من حديث أبى كبشة الأنمارى الذى رواه الترمذى (٢٣٢٥) وصحّحه ، وأحمد (٤/٢٣٠ ، ٢٣١) وابن ماجة (٤٢٢٨) .

(٢) رواه البخارى (٨٤٣) ، (٦٣٢٩) ومسلم (٥٩٥) (١٤٢) واللفظ له وراجع كلام الحافظ فى الفتح على هذا الحديث (٢/٣٨٠ – ٣٨٦) .

ويذب عن سُنَّة الرَّسول ﷺ ويَنْشُر دين الله فِى الأرض ثم لم يقدر له ذلك بأن مَاتَ مَثَلاً وهو فى طلبه فإنَّه يُكْتَب له أجْر مَا نَوَاه وسعىٰ له . بل إنَّ الإنسان إذا كان من عَادَتِه العمل وحِيل بينه وبينه لِسَبَب فإنَّه يكتب له أجره قال النَّبى عليه الصَّلاة والسَّلام : « مَنْ مَرِضَ أَوْ سَافَر كُتِبَ لَهُ مَا كَانَ يَعْمَل صَحِيحًا مُقِيمًا »(١) .

وأمَّا السَّيِّئات : فإنَّه يُكتب على الإنسان مَا عَمِلَهُ ويكتب عليه مَا أَرَادَهُ وسَعَىٰ فِيه و لم يُدْرِكَه ، ويكتب عليه مَا نَوَاه وتمنَّاه . فالأَوَّل واضح ، والثَّانى يكتب عليه كاملاً لقول النَّبى عليه الصَّلاة والسَّلام : « إِذَا الْتَقَى المُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِما فَالقَاتِل والمَقْتُول فِى النَّار . قَالُوا : يَا رَسُول الله هَذَا القَاتِل فَمَا بَال المَقْتُول ؟ قال : لأَنَّه كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْل صَاحِبه »(٢) . ومِثْله مَنْ هَمَّ أَن يَشْرب الخمر ولكن حَصَلَ له مَانِع ، فهذا يُكْتَب عليه الوزر كاملاً ، لأَنَّه سعى فيه .

الثَّالث : الذى نَوَاهُ وتَمَنَّاهُ فهذا يُكْتَب لهُ لكن بالنِّية ، ومنه الحديث الذى أخبر النَّبى عليه الصَّلاة والسَّلام عن رَجُلٍ أَعْطَاهُ الله مَالاً فكان يَتخَبَّط فيه ، فقال رَجُل فَقِير لو أَنَّ لِى مَال فُلان لَعَمِلْتُ فِيه عَمَل فُلاَن . قال النَّبى عليه الصَّلاة والسَّلام « فَهُو بِنِيَّتِهِ فَهُمَا فِى الوِزْرِ سَوَاء »(٣) .

ولو أَنَّه هم بالسَّيِّئة ولكن تركها فنقول هذا على ثلاثة أَقْسَام :

---

(١) رواه البخارى (٢٩٩٦) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

(٢) رواه البخارى (٦٨٧٥) واللفظ له ، ومسلم (٢٨٨٨) (١٤) من حديث أبى بكرة رضى الله عنه .

(٣) **حَدِيثٌ صَحِيحٌ** : وهو جزء من حديث أبى كبشة الأنمارى الذى رواه الترمذى (٢٣٢٥) وصحَّحه ، وأحمد (٢٣٠/٤ ، ٢٣١) وابن ماجة (٤٢٢٨) .

١ - إنْ تَرَكَهَا عَجْزاً فهو كالعَامِلِ إذا سَعَىٰ فيها .

٢ - وإن تَرَكَها لله كَانَ مَأْجُورًا .

٣ - وإنْ تركها ؛ لأَنَّ نَفْسَهُ عَزَفت عنها فهذا لَا إِثْم عَلَيْه وَلَا أَجْر ، والله عَزَّ وجل يجزى بالحسنات أَكْثَر من العمل ولا يجزى بالسَّيِّئات إِلَّا مثل العَمَل ، قال تعالى : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ [الأنعام : ١٦٠] .

وهذا من كَرَمِه عزَّ وجل ، ومن كون رَحْمَتِه سَبَقَت غَضَبَه .

قال المؤلف : « **فَآخِذٌ كِتَابَهُ بِيَمِينه** » آخِذ : مُبتدأ وخبره محذوف والتَّقدير : فمنهم آخذ . وجاز الابتداء به وهو نكرة لأَنَّه فى مقام التَّفْصيل .

أى أن النَّاس يَنْقَسِمُون فمنهم من يَأْخُذ كتابه بيمينه وهم المؤمنون وهذا إشارة إلى أَنَّ لليُمْنَىٰ الإكرام ، ولذلك يأخذ المؤمن كِتَابَهُ بها ، والكافر يأخذ كتابه بِشِمَاله أو من وراء ظهره كما قال المؤلف: « وَآخِذٌ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ أَوْ مِن وَرَاء ظَهْرِهِ » .

والمؤلف أَتَىٰ بِمَدْلُول الآيتين جميعًا .

وقوله : « **أَوْ مِن وَرَاءِ ظَهْرِهِ** » أو : للتَّنويع وليست للشَّك ، فظاهر كلام المؤلف أَنَّ النَّاس يأخذون كتبهم على ثلاثة أَوْجُه : باليمين وبالشِّمال ومن وراء الظَّهر .

ولكن الظَّاهر أَنَّ هذا الخلاف خلاف صِفَات ، فالَّذى يأخذ كتابه من وَرَاء ظهره هو الذى يأخذ كتابه بِشماله ، فيأخذ بالشِّمال وتجعل يده من الخلف فكونه يَأْخُذه بالشِّمال ، لأَنَّه من أهل الشِّمال ، وكونه من وَرَاء ظهره لأَنَّه لما استدبر كتاب الله وَوَلَّى ظهره إيَّاه فى الدُّنيا صار من العَدْل أَن يجعل

كتاب أَعْمَاله يوم القيامة خَلْف ظَهْرِه ، فَعَلَىٰ هذا تخلع اليد الشِّمال حتى تكون من الخلف .

* * *

● **قال المؤلف** : « **كَمَا قَال سُبْحَانه وتَعالَىٰ** ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [**الإسراء : ١٣ ، ١٤**] » .

﴿ طَائِرَهُ ﴾ أى عمله ؛ لأَنَّ الإنسان يَتَشَاءَم به أَوْ يَتَفَاءَل به ، وَلأَنَّ الإنسان يَطِيرُ به فيعلو أو يَطِيرُ به فينزل .

﴿ فِى عُنُقِهِ ﴾ أَى رَقَبَتِه . وهذا أَقْوَىٰ ما يكون تعلُّقًا بالإنسان حيث يربط فى العُنق لأَنَّه لا يمكن أن ينفصل إِلَّا إذا هلك الإنسان فهذا يَلْزَم عمله ، وإذا كان يوم القيامة كان الأَمْر كَما قال الله تعالى : ﴿ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴾ [الإسراء : ١٣] . أَى مَفْتُوحًا لايحتاج إلى تعب ولا إلى مَشَقَّة فى فَتْحِه ويُقَال لَهُ ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ ﴾ وانظر مَا كُتِبَ عَلَيْك فيه ﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء : ١٤] وهذا من تمام العَدْل والإنصاف أَن يوكل الحساب إلى الإنسان نَفْسه ، والإنسان العَاقِل لابد أَنْ ينظر ماذا كُتِب فى هذا الكتاب الذى سوف يُجدّه يوم القيامة مكتوبًا ولكن نحن أَمَامنا باب يمكن أن يقضى على كل السَّيِّئات وهو التَّوبة ، وإذا تَاب إلى الله مهما عظم ذنبه فإن الله تعالَىٰ يَتُوب عَلَيْه وحتى لو تكرَّر الذَّنب منه وهو يَتُوب فإنَّ الله يَتُوب عَلَيْه ، فمادام الأَمْر بأَيْدِينا الآن فعلينا أَنْ نَحْرِص على أن لا يكتب فى هذا الكتاب إِلَّا العمل الصَّالح .

* * *

ومما يجـرى فى يوم القيامــة :

(هـ) حِسَـابُ الخلائـق

١٩٠ - وَيُحَاسِبُ اللهُ الخَلَائِق .

١٩١ - وَيَخْلُو بِعَبْدِهِ المُؤْمِن فَيُقَرِّره بِذنُوبه كَمَا وَصَف ذلك فى الكِتَاب والسُّنَّة .

١٩٢ - وأَمَّا الكُفَّار : فلا يُحَاسَبون مُحَاسَبَة من تُوزن حَسَنَاتُه وسَيِّئَاتِهِ ، فَإِنَّهم لَا حَسَنَات لَهُم ولكن تُعَدُّ أَعْمَالهم فَتُحْصَىٰ فَيُوقَفُون عَلَيْهَا وَيُقَرَّرُونَ بِهَا .

الشــــرح

● **ثم قال المؤلف : « وَيُحَاسِبُ اللهُ الخَلَائِق »**

هذا دلَّ عليه الكتاب والسُّنَّة والإجماع والعقل :

● أَمَّا الكِتَاب : فقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ [الانشقاق : ٧ ، ٨] ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴾ [الانشقاق : ١٠-١٢] .

● وأَمَّا السُّنَّة : فقد ثبت عن النَّبى عليه الصَّلاة والسَّلام بِعدَّة أَحَاديث أَنَّ الله تعالىٰ يُحَاسب الخلائق .

● وأَمَّا الإجماع : فإنَّه مُتَّفق عليه بين الأُمَّة أَنَّ الله تعالىٰ يُحَاسِب الخَلَائِق .

● أَمَّا العَقْل : فواضح لأَنَّنا كُلِّفنَا بعمل فِعْلاً وتَرْكًا وتَصْدِيقًا والعقل والحكمة تَقْتَضيان أَنَّ من كُلِّف بِعَمَل فإِنَّه يُحَاسب عليه ويُنَاقَش فيه .

وقول المؤلف : « الخَلَائِق » : جمع خَلِيقة يَشْمل كُلّ مَخْلُوق إِلَّا أَنَّه يُسْتَثْنَى من ذلك من يدخلون الجنَّة بلا حساب ولا عَذَاب كما ثَبُت ذلك فى الصَّحيحين : أَنَّ النَّبى ﷺ رَأَى أُمَّتَهُ وَمَعَهُم سَبْعُون أَلْفًا يَدْخُلون الجنة بِلا حِسَاب وَلَا عَذَاب وَهُم الَّذِين لا يَسْتَرْقُون وَلَا يَكْتَوُون وَلَا يَتَطَيَّرون وَعَلَىٰ رَبِّهم يَتَوَكَّلُون »(١) . وقد روى الإمام أحمد بسندٍ جيِّد « أَنَّ مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ سَبْعِين أَلْفًا »(٢) . فتضرب سَبْعين ألفًا بسبعين أَلْفاً ، وَيُزَاد سَبْعُون أَلْفًا . هؤلاء كلهم يَدْخُلون الجنَّة بلا حِسَاب ولا عَذَاب .

وقوله : الخَلَائِق » يَشْمَل الجِنَّة ، لأَنَّهم مُكَلَّفون ، ولهذا يدخل كافرهم النَّار بالنَّص والإجماع ﴿ قَالَ ادْخُلُواْ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ فِى النَّارِ ﴾ [الأعراف : ٣٨] .

---

(١) رواه البخارى (٦٥٤١) ومسلم (٢٢٠) (٣٧٤) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما.

(٢) **حَدِيثٌ حَسَنٌ** : رواه الطبرانى فى الكبير (١٤١٣) وأحمد (٢٨٠/٥ ، ٢٨١) من حديث ثوبان قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ رَبِّى عزَّ وجل وَعَدَنى من أُمَّتى سَبْعين أَلْفًا لا يُحَاسَبون مع كل ألف سَبْعين ألفًا » وسكت عنه الهيثمى فى المجمع (٤٠٧/١٠) ولم يتكلّم عليه بشىء مع أنه فيه محمد بن اسماعيل بن عياش الحمصى . قال أبو داود : لم يكن بذاك ، وقال أبو حاتم لم يسمع من ابيه شيئًا . راجع التهذيب (٥١/٩ ، ٥٢) والمغنى فى الضعفاء للذهبى (٥٥٥/٢) ، وللحديث شواهد كثيرة ذكرها ابن كثير فى النهاية (٣٢٢ : ٣٣٠) منها حديث أنس عند البزار ، وفيه أبو عاصم العبادانى لين الحديث كما فى التقريب ، ومنها : حديث أبى أمامة عند أحمد (٢٦٨/٥) والترمذى (٣٤٣٧) وابن ماجة (٤٢٨٦) وصحَّحه ابن حبان (٢٦٤٢ – موارد) . ومنها حديث أبى سعيد الخدرى عند ابن أبى عاصم فى السنة (٨١٤) وضعَّف الألبانى اسناده فى تخريج السنة (٣٨٥/٢) وغير ذلك من الشواهد . وبالجملة فالحديث حسن على أقل أحواله بهذه الشواهد .

ومُؤْمنيهم يدخل الجنَّة على قول جمهور أَهْل العلم وهو الصَّحيح كما يدلُّ عليه قوله تعالى : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [الرحمن : ٥٦] .

وهل تشمل المحاسبة البَهَائم ؟!

القصاص يَشْمل البهائم لأَنَّه ثبت عن النَّبى عليه الصَّلاة والسَّلام أَنَّ الله تعالىٰ يقتصّ للشَّاة الجلحاء من الشَّاة القَرْنَاء . وهذا قضاء لكنها لا تُحَاسب حساب تَكْلِيف وإِلْزَام لأَنَّ البَهَائِم ليس لها ثَوَاب ولا عِقَاب .

* * *

● قال المؤلف : « **وَيَخْلُو بِعَبْدِه المُؤْمِن فَيُقَرِّره بِذنُوبه كَمَا وَصَف ذلك فى الكِتَاب والسُّنَّة** » .

هذا صفة حِسَاب المؤمن يخلو به الله عزَّ وجل دون أن يَطَّلِع عليه أحد ، ويقرِّره بِذنُوبه أى يقول له عملت كذا وعملت كذا حتى يُقِرّ ويَعْتَرف ثم يقول : « سَتَرْتُها عَلَيْكَ فى الدُّنْيا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ اليَوْم »(١) .

ومع ذلك فإِنَّه سبحانه وتعالىٰ يضع عليه سِتْره بحيث لا يَرَاهُ أحد ولا يَسْمَعُه أَحَد ، وهذا من فضل الله عزَّ وجلَّ على المؤمن ، فإِنَّ الإنسان إذا قَرَّرك بِجِنَايَاتِك أمام الناس وإن سَمَح عنك ففيه شيء من الفَضِيحة لكن إذا كَانَ ذلك وَحْدَك فإِنَّ ذلك سِتْر مِنْهُ عليك .

قال المؤلف : « كَمَا وُصِفَ ذَلِكَ فى الكِتَاب والسُّنَّة » ذلك : المشار إليه الحساب يعنى كما وُصِف حِسَاب المؤْمن فى الكتاب والسُّنَّة .

* * *

(١) رواه البخارى (٢٤٤١) ومسلم (٢٧٦٨) (٥٢) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما .

● **يقول المُؤَلِّف : « وأَمَّا الكُفَّار : فلا يُحَاسَبُون مُحَاسَبة مَنْ تُوزَن حَسَنَاتُه وَسَيِّئَاتُه ، فَإِنَّهُم لا حَسَنَات لَهُم وَلَكِن تُعَدُّ أَعْمَالَهم فَتُحْصَىٰ فَيُوقَفُون عَلَيْهَا وَيُقَرَّرُون بِهَا » .**

وأَمَّا الكافر فيقول المؤلف : « وَأَمَّا الكُفَّار فلا يُحاسَبُون مُحَاسَبة مَنْ تُوزن حَسَنَاتُه وسَيِّئَاتُه فإِنَّه لا حَسَنات لهم » . وإذا كان لَيْس لهم حَسَنات فإِنَّهم لا يُحَاسبون ولكن ماذا يُصْنَع بهم ؟

قال المؤلف : « وَلَكِن تُعَدُّ أَعْمَالهم فتُحْصَىٰ فيُوقَفُون عليها ويُقَرَّرُون بها » تُعَدُّ أَعمالهم وتُحْصَىٰ ثم يُقَال هذه أعمالكم ويُنَادَىٰ على رُؤُوس الأشهاد : ﴿ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [هود : ١٨] فهؤلاء يُقَرّرون بذنوبهم أَمَام النَّاس بعكس المؤمن . والمؤمن إذا علم بهذا الفَرق لاشك أَنَّه يرغب فى الإيمان ويَقْوى ويَنْشَط بخلاف الكافر - والعِياذُ بالله - فإِنَّه لا يُؤْمن بهذا .

* * *

ومما يوجد في يوم القيامة :
(و) حوض النبى ﷺ

١٩٣ - وَفِى عُرُصَات القِيامة الحَوْضَ المَوْرُود للنَّبى ﷺ .

١٩٤ - مَاؤُه أَشَدُّ بَيَاضًا من اللّبن ، وأَحْلَىٰ من العَسَل .

١٩٥ - آنِيَتُه عَدَد نُجوم السَّمَاء .

١٩٦ - طُولُه شَهْر ، وعَرْضُه شَهْر .

١٩٧ - مَنْ يَشْرَب مِنْه شَرْبَةً لا يَظْمأ بَعْدَهَا أَبَدًا .

الشـــرح

● ثم قال المؤلف : « **وَفِى عُرُصَاتِ القِيامَة الحَوْض المَوْرُود للنَّبى ﷺ** » .

الكلام على الحوض من عِدَّة وُجُوه :

أولاً : هل هذا الحوض مَوْجُود الآن أَوْ لَا ؟

فنقول : هو مَوجود الآن لأَنَّه ثبت عن النَّبى ﷺ أَنَّه خَطَبَ ذات يوم فِي أصحابه وقال : إِنِّى لأنظر إِلى حَوْضى أَوْ قال حَوْضِى الآن »(١) .

وأيضًا ثبت عن النَّبى عليه الصَّلاة والسَّلام أَنَّه قال : « منْبَرى عَلَىٰ

---

(١) رواه البخارى (٦٥٩٠) من حديث عقبة بن عامر رضى الله عنه .

حَوْضِي »(١) وَهَذَا يحتمل أَنَّه فى هذا المكان لكن لا نُشَاهِدُه لأَنَّه غَيْبى ، ويُحْتَمل أَنَّ المنبر يُوضع يوم القيامة عَلَى الحوض .

ثانيًا : هذا الحَوْض فيه ماء مَوْرُود فمن أين هذا الماء ؟

يَصُبّ فيه ميزابان من الكوثر وهو النَّهر العظيم الذى أُعْطِيَه النَّبى ﷺ فى الجنة ينزلان إلى هذا الحوض .

ثالثًا : قوله « فى عُرُصَات القِيَامَة » هل زمن الحوض قبل العُبُور على الصِّراط أو بعد العُبور ؟

فنقول : هو قبل العُبور على الصِّراط ، لأَنَّ المقام يَقْتضى ذلك حيث أَنَّ الناس فى حاجة إلى الشُّرب فى عُرُصَات القيامة قبل عُبور الصِّراط .

رابعًا : من الذى يَرد هذا الحوض ، فالمؤلف يقول : المورود ؟!

والجواب : أَنَّ الذى يَرِده هم المؤمنون بِرَسُول الله ﷺ المُتَّبعون لِشَرِيعته وأَمَّا من اسْتَنْكَف واستكبر عن اتِّباع الشَّريعة فإِنَّه يُطرد مِنْهُ .

* * *

● **قال : « مَاؤُه أَشَدُّ بَيَاضاً من اللَّبن ، وَأَحْلَى مِن العَسَل ، آنِيَتُه عَدَد نُجوم السَّماء طُولُه شَهْر ، وعَرْضُه شَهْر ، مَنْ يَشْرب مِنه شَرْبَةً لا يَظْمأ بَعْدَهَا أَبَدًا »** .

خامسًا : فى كيفية مَائه فيقول المؤلف رحمه الله « مَاؤُه أَشَدُّ بَيَاضًا مِن اللَّبَن » هذا فى اللَّون أَمَّا فى الطَّعم فقال « وَأَحْلَى مِن العَسَل » وفى الرَّائحة

---

(١) البخارى (١١٩٦) ومسلم (١٣٩١) (٥٠٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

أَطْيب من المِسْك كما ثَبَت به الحديث عن النبى ﷺ(١) .

سادسًا : فى آنيته يقول المؤلف « آنِيَتُه عدد نجوم السماء » هذا كما ورد فى بعض ألفاظ الحديث وفى بعضها « آنيته كنُجُوم السَّمَاء » وهذا اللَّفظ أَشْمَل لأَنَّه يكون كالنُّجوم فى العَدَد ، وفى الوَصْف بالنُّور واللّمعان ، فآنيته كنجوم السَّماء كثرة وإضَاءَة .

سابعًا : آثار هذا الحوض قال المؤلف : « مَنْ يَشْرَب مِنْهُ شَرْبَةً لا يَظْمَأ بَعْدَهَا أَبدًا » حتى على الصِّراط وبَعْده ، وهذه من حكمة الله عزَّ وجل لأن الذى يَشْرَب من الشَّريعة فى الدُّنيا لا يخسر أبدًا كذلك .

أما مسَاحة هذا الحوض فيقول : « طُولُه شَهْر وعَرْضُه شَهْر » إذًا : يكون مُدورًا فإن قيل : إذا كان طوله شهرًا وعَرْضُه شهرًا فكيف يتمكن جميع النَّاس أن يَشْرَبُوا منه ؟

فالجواب : أَنَّه يَصُبُّ فيه مِيزَابَان من الكَوْثَر . إذًا : لا يَنْفَد أبدًا .

فإن قيل : هل للأَنْبياء الآخرين أَحْوَاض ؟

فالجواب : نعم ! فإنَّه جاء فى حديث رواه التِّرمذى وإن كان فيه مَقَال : « إنَّ لِكُلِّ نَبِى حَوْضًا »(٢) لكن هذا يُؤَيِّده المعنى ، وهو أن الله عزَّ وجل بحكمته وعَدْلِهِ كما جعل للنَّبى محمد ﷺ حَوْضًا يَرِدُه المؤمنون من أُمَّتِهِ كذلك يجعل لكل نَبِى حَوْضًا حتى ينتفع المؤمنون بالأَنْبياء السَّابقين .

* * *

---

(١) رواه البخارى (٦٥٧٩) ومسلم (٢٢٩٢) (٢٧) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما .

والبخارى (٦٥٨٠) ومسلم (٢٣٠٣) (٤٣) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

ومسلم (٢٣٠١) (٣٧) من حديث ثوبان رضى الله عنه .

(٢) **حَدِيثٌ صَحِيحٌ** : رواه الترمذى (٢٤٤٣) وابن أبى عاصم فى السنة (٣٤٢/٢) من حديث =

ومما يوجــد فى يوم القيامــة :
(ز) الصِّــراط والقنطرة بين الجنة والنـار

١٩٨ – والصِّراط مَنْصُوب عَلَىٰ مَتْنِ جَهَنَّم ، وَهُو الجِسْر الَّذِى بَيْن الجَنَّة والنَّار .

١٩٩ – يَمُرُّ النَّاس عَلَيْه عَلَى قَدْر أَعْمَالِهم :

١ – فمنهم مَنْ يَمُرُّ كلمح البَصَر .

٢ – ومنهم مَنْ يَمُرّ كالبَرْق .

٣ – ومنهم من يَمُرُّ كالرِّيح .

٤ – ومنهم من يَمُرُّ كالفَرَس الجَوَّاد .

٥ – ومنهم من يَمُرُّ كَرِكَاب الإبل .

٦ – ومنهم من يَعْدُو عَدْوا .

٧ – ومنهم من يَمْشِى مَشْيًا .

٨ – ومنهم من يَزْحَف زَحْفًا .

٩ – ومنهم من يخطف ويُلْقَىٰ فى جَهَنَّم ؛ فإنَّ الجِسْر عَلَيْه كَلَالِيب تَخْطُف النَّاس بِأَعْمَالِهم .

٢٠٠ – فَمَنْ مَرَّ عَلَىٰ الصِّراط دَخَل الجَنّة .

= سمرة بن جندب رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « إنَّ لِكُلِّ نَبِيّ حَوْضًا يَتَباهُون أَيُّهم أَكْثَرُ وَارِدة ، وَإِنِّى لَأَرْجُو أَنْ أَكُون أَكْثر مِنهم وَارِدة » وصحَّحه الألبانى فى تخريج السُّنَّة .

٢٠١ – فإذَا عَبَرُوا عَلَيْه وَقفُوا عَلَى قَنْطَرة بَيْن الجَنَّة والنَّار فَيُقْتَصُّ لِبَعْضِهم مِن بَعْض .

٢٠٢ – فَإذا هُذِّبوا وَنُقُّواْ أُذِنَ لَهُم فِي دُخُولِ الجَنَّة .

الشـــــرح

● **قال المؤلف رحمه الله : « والصِّراط مَنصُوب عَلَى مَتْن جهَنَّم ، وَهُو الجِسْر الَّذِى بَيْن الجَنَّة والنَّار » .**

هذا الصِّراط المَنْصُوب عَلَى مَتْن جَهَنَّم هل يَنْطبِقُ عَلَيْه أَنَّه طَرِيقٌ واسع مُسْتقيم ليس فيه عِوج ولا أَمْت أَمْ مَاذا ؟

اختلف فى هذا العلماء : فمنهم من قال : أَنَّه هكذا وأَنَّه طريقٌ واسع يمرُّ الناس عَلَىٰ قَدْرِ أَعْمَالهم بدَلِيل أَنَّ كلمة الصِّراط مَدْلُولها اللّغوى هو هذا ودليل آخر : أَنَّ الرسول ﷺ أخبر بأَنَّه دَحْض وَمَزلة .(١)

والدَّحض والمزلة لا يكون إلَّا فى طَرِيقٍ وَاسِع ، أَمَّا الضّيق فلا يكون دَحْضًا ومزلة .

وقال بعض العلماء : بل هو صِرَاط دَقِيق جدًا كما جاء فى حديث أبى سعيد الخدرى الذى رواه مسلم بلاغًا أَنَّه أَدَقُّ من الشَّعر وأحدُّ من السَّيف .

وبناء على هذا يَرِدُ علينا إشكال وهو كَيْفَ يمكن العُبُور على طريق كهذا ؟

فالجواب : أَنَّ أُمور الآخرة لا تُقَاس بأُمُور الدُّنيا ، فالله تَعَالَىٰ على كل

---

(١) راجع حديث أبى سعيد الخدرى الذى أخرجه البخارى (٧٤٣٩) ومسلم (١٨٣) (٣٠٢) .

شيء قدير ، ولا نَدْرِى كيف يَعْبُرون هل يجتمعون جميعًا فى هذا الطَّريق أو واحدًا بعد واحد .

وهذه المسألة لا يكاد الإنسان يَجْزِم بِأَحَد القولين لأنَّ كليهما له وجهة قوية .

وقوله : « مَنْصُوب عَلَىٰ مَتْن جَهَنَّم » : يعنى على نفس النَّار .

* * *

● قال : « يمر النَّاس عليه على قَدْر أَعْمَالهم : (١) فمنهم من يَمُرُّ كلمح البَصَر . (٢) ومنهم من يَمُرُّ كالبَرْق . (٣) ومنهم من يَمُرُّ كالرِّيح . (٤) ومنهم من يَمُرُّ كالفَرَس الجَوَّاد . (٥) ومنهم من يَمُرُّ كَرِكَاب الإبل . (٦) ومنهم من يَعْدُو عَدْوًا . (٧) ومنهم من يَمْشِى مَشْيًا . (٨) ومنهم من يَزْحَفُ زَحْفًا . (٩) ومنهم من يُخْطَف ويُلْقَىٰ فى جهنَّم ؛ فإنَّ الجِسر عليه كَلَالِيب تَخْطف النَّاس بِأَعْمَالِهم » .

قوله : « يمر النَّاس » المراد بالنَّاس هنا المُؤْمِنون ؛ لأَنَّ الكفار قد ذُهِبَ بهم إلى النَّار ، ولا حاجة إلى أن يَصْعدوا من هذا الطَّريق ، فيمرُّ الناس عليه على قدر أَعْمَالهم ، منهم من يمرُّ كلمح البَصَر ، ومنهم من يمر كالبرق ، ولمح البَصَر أَسْرَع من البرق ، ومنهم من يمرُّ كالرِّيح أى الهواء ، ولاشك أَنَّ الهواء سَرِيع لاسيما قبل أن يعرف النَّاس الطَّائرات ، والهواء المعروف يَصِلُ أحيانًا إلى مائة وأربعين ميلاً فى السَّاعة ، ومنهم من يمر كالفرس الجوَّاد ، ومنهم من يَمُرُّ كَرِكَاب الإبل وهى دُون الفَرَس الجواد بكثير ومنهم من يَعْدُو عَدْواً ، أى يُسْرِع ، ومنهم من يَمْشى مَشْيًا .

وهذا بغير اختيار الإنسان ، ولو كان باختياره لكان يحب أن يكون

بِسُرعة ولكن السَّير على حَسَب سُرْعَته فى قبول الشَّريعة فى هذه الدُّنيا .

وقوله : « ومِنهم من يُخْطَف ويُلْقى فى جَهَنَّم » يخطف ويُلْقَىٰ فى جَهَنَّم ولكن لا يُخَلَّد فيها بل هو من العُصَاة الذين يُعَذَّبون بِقَدْر ذُنُوبهم ثم يَخْرُجون من النَّار .

وقول المؤلف « فِى جَهَنَّم » يَدُلُّ على أَنَّ النَّار التى يُلْقَى فيها العُصَاة هى النَّار التى يُلْقَىٰ فيها الكُفَّار ولكنها لا تَكُون بِالعَذَاب كَعَذَاب الكُفَّار .

بل قال بعض العلماء : أَنَّها تَكُون بَرْدًا وسَلامًا عليهم كما كانت النَّار بَرْدًا وسَلامًا على إِبْرَاهيم ، ولكن الظَّاهر خلاف ذلك ، وأَنَّها تَكُون حَارَّة مُؤْلِمة لكنها ليست كحرارتها بالنِّسبة للكافرين ، ثم إِن أعضاء السُّجود لا تمسّها النار كما ثبت ذلك عن النَّبى عليه الصَّلاة والسَّلام وهى الجبهة والأَنْف والكَفَّان والرُّكْبَتَان ، وأَطْرَاف القَدَمَيْن .

* * *

● **قال المؤلف : « فَمَنْ مَرَّ عَلَى الصِّراط دَخل الجَنَّة »**

« فَإِذَا عَبَرُوا وُقِفُوا عَلَى قَنْطَرة بَيْن الجَنَّة والنَّار فَيُقْتَصُّ لِبَعْضِهم مِن بَعْض »

القَنْطَرة : هى الجِسْر لكنها جِسْرٌ صَغِير ، واختلف العلماء فى هذه القَنْطَرة هل هِى طَرَف الجِسْر الذى على مَتْن جَهَنَّم أو هى جِسْرٌ مُسْتَقِلٌّ ؟

والصَّواب فى هذا أن نقول : الله أعلم ، وليس يَعْنينا شَأْنها لكن الذى يَعْنينا أَنَّ الناس يُوقَفُون عليها .

« فَيُقْتَصُّ لِبَعْضِهم من بَعْض » وهذا القَصَاص غير القَصَاص الأَوَّل

الذى فى عُرُصَات القيامة ؛ لأَنَّ هذا قصاص أَخصّ من أَجْل أن يَذْهب الغِلّ والحِقْد والبَغْضَاء التى فى قُلوب النَّاس ، فيكون هذا بمنزلة التَّنقِية والتطهير ، وذلك لأَنَّ ما فى القلوب لا يَزُول بمجرد القَصَاص ، فهذه القَنْطَرة التى بين الجنة والنَّار لأجل تَنْقِية ما فى القلوب حتى يَدْخلوا الجنَّة وليس فى قلوبهم غلّ كما قال الله تعالىٰ : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾ [الحجر : ٤٧] .

* * *

● **قال المؤلف : « فَإِذا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُم فى دُخُول الجَنَّة » .**

إذا هُذِّبوا مِمَّا فى قلوبهم من العَدَاوة والبَغْضَاء ونُقُّوا منها فإنَّه يُؤْذَنُ لهم فى دُخول الجنَّة ، فإذا أُذِنَ لهم فى الدُّخول فلا يجدون الباب مفتوحًا يَجِدُونه مغلقًا ولكن النَّبى ﷺ يَشْفَع إلى الله فى أَنْ يَفْتَح لهم باب الجنَّة .

* * *

ومما يجرى فى يوم القيامة :

(ح) الشَّفاعة

٢٠٣ - وَأَوَّل مَنْ يَسْتَفْتِح بَاب الجَنَّة مُحَمَّد ﷺ .

٢٠٤ - وَأَول مَنْ يَدْخلها من الأُمَم أُمَّته .

٢٠٥ - وَلَهُ ﷺ فى القيامة ثَلَاث شَفَاعَات .

٢٠٦ - أَمَّا الشَّفَاعة الأُولَىٰ : فَيَشْفَع فى أَهْل المَوْقِف حتى يُقْضَىٰ بَيْنَهم بعد أَنْ يَتَرَاجَع الأنبياء : آدَم ونُوح وإِبْرَاهيم ومُوسَىٰ وعِيسى بن مَرْيم عن الشَّفاعة حتى تَنْتَهى إِليه .

٢٠٧ - وأَمَّا الشَّفَاعة الثَّانية : فَيَشْفَع فى أَهْل الجَنَّة أَنْ يَدْخُلوا الجَنَّة .

٢٠٨ - وهاتان الشَّفَاعَتان خَاصَّتان لَهُ .

٢٠٩ - وأَمَّا الشَّفَاعة الثَّالثة : فَيَشْفَع فيمن استحق النَّار - وهذه الشَّفَاعة له ولِسَائِر النَّبِيِّين والصِّدِّيقِين وغَيْرهم - فَيَشْفَعُ فيمن اسْتَحَقَّ النَّار أَن لا يَدْخُلها ويَشْفَعُ فِيمن دَخَلَها أَنْ يَخْرُج مِنْهَا .

٢١٠ - وَيُخْرِجُ الله مِن النَّار أَقْوامًا بِغَيْرِ شَفَاعة بل بِفَضْلِه وَرَحْمَتِه .

الشـــرح

● **قال المؤلف : « وَأَوَّلُ مَنْ يَسْتَفْتِح بَاب الجَنَّة مُحمد ﷺ »**

وَدَليله ما ثَبت فى صحيح مُسلم أَنَّ النبى ﷺ قال : « أَنَا أَوَّلُ شَفِيع »(١) وفى لفظ : « أَنَا أَوَّلُ مَنْ يَقْرَع »(٢) وفى لفظ « آتِى بَاب الجَنَّة يَوْم القِيَامَة فَأَسْتَفْتِح فَيَقُول الخَازِن مَنْ أَنْتَ ؟ فَأَقُولُ : محمد ، فيقولُ : بِكَ أُمِرْتُ أَن لَا أَفْتَحُ لِأَحدٍ قَبْلَك »(٣) .

وهذا من نعمة الله على محمد ﷺ فإنَّ الشفاعة الأُولى التى يَشْفَعها فى عُرُصات القيامة لإزالة الكُروب والهُموم والغموم ، والثَّانية لِنَيْل الأَفْرَاح والسُّرور فيكون شافعًا للخلق عليه الصَّلاة والسَّلام فى دفع مَا يَضُرُّهم وفى جَلْبِ مَا يَنْفَعُهم .

وقلنا أَنَّه لا دُخول إلى الجَنَّة إلا بعد شفاعة الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام لأن ذلك ثبت فى السُّنَّة وأشار إليه الله عزَّ وجل بقوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ [الزمر : ٧٣] فإنَّه لم يَقُلْ «حَتَّى إِذَا جَاؤوها فُتحت » وفيه إشارة إلى أن هناك شيئًا قبل الفتح . أما أهل النار فقال فيهم ﴿ حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ [الزمر : ٧١] لأَنَّهم يَأْتُونها مُهَيَّأة .

* * *

● **وقوله : « وَأَوَّلُ مَنْ يَدْخُل الجَنَّة مِن الأُمَم أُمَّتَهُ »** .

مع أَنَّها هى آخر الأمم دَلِيلُ ذلك قول النبى ﷺ : « نَحْنُ الآخِرونَ

---

(١) رواه مسلم (١٩٦) (٢٣٢) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

(٢) رواه مسلم (١٩٦) (٢٣١) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

(٣) رواه مسلم (١٩٧) (٢٣٣) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

السَّابِقُونَ يَوْم القِيَامة » .

فقوله : « السَّابِقُون يوم القيَامة » يشمل كلّ مَوَاقِف القِيامة وفى دُخُول الجنَّة أوَّل من يَدْخل محمد ﷺ وأمته .

(**تتمــة**) :أبواب الجنَّة لم يذكرها المؤلف لكنها مَعْرُوفة أنَّها ثمانية قال الله تعالىٰ : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ [الزمر : ٧٣] . وقال النَّبى ﷺ فيمن تَوَضَّأ وتَشَهَّد : « فُتِحَت لَه أَبْوَابُ الجنَّة الثَّمَانِية يَدْخُل مِن أَيُّها شَاء »(١) .

وهذه الأَبْواب كانت ثمانية بِحَسْب الأَعْمَال لأَنَّ كل باب له عُمَّال ، فأَهْلُ الصَّلاة يُنَادون من باب الصَّلاة ، وأهل الصَّدقة من باب الصَّدقة ، وأهل الجهاد من باب الجِهَاد ، وأهل الصِّيام من باب الرَّيان .

وهل يُدْعَىٰ أَحَدٌ من الأبواب كُلّها ؟

الجواب : نعم ! رُبّما يُوَفِّق الله عز وجل بعض النَّاس لأَعْمال جليلة صالحة فَيُدْعَىٰ من جميع الأَبواب .

فإن قلت : إذا كانت الأَبْواب بِحَسْب الأَعْمال لَزِمَ أن يُدْعَىٰ كُلُّ أَحَد من كل الأَبْوَاب إذا عَمِلَ بِأَعْمَالِها فما هو الجواب ؟

الجواب : أن يُقَال يُدْعَىٰ من الباب المُعَيَّن مَنْ كَانَ يُكْثِر من العَمَل المُخَصّص له مثلا : إذا كان هذا الرَّجُل كثير الصَّلاة فَيُدْعَىٰ من باب الصَّلاة ، كثير الصِّيام من باب الرَّيان ، وليس كل إنسان تَحْصُل له الكَثْرة فى كل عمل صَالح ، لأَنَّك تجد نَفْسك فى بعض الأعمال أكثر وأَنْشَط من بعض لكن قَدْ يَمُنُّ الله على بعض النَّاس فيكون نشيطًا قويًا فى جميع الأَعْمَال .

---

(١) رواه مسلم (٢٣٤) (١٧) من حديث عقبة بن عامر رضى الله عنه .

ولهذا قال أبوبكر لما حدَّث النَّبى ﷺ بهذا الحديث : مَا عَلَى من دُعِى من بَاب مِن هذه الأبواب من ضَرُورة فهل يُدْعَى أَحَدٌ من جميع الأبواب ؟

قال : نعم ! وأَرْجُو أَنْ تَكُون مِنْهم »[1] .

وليس المعنى أَنَّ من قَام بالصِّيام والزَّكاة والصَّلاة يُدْعَى من الأبواب كلها لأَنَّه قد يكون نَشِيطًا فى الجهاد فَيُدْعَى من باب الجِهاد فقط .

* * *

● **قال المؤلف : « وَلَهُ ﷺ فى القِيامة ثَلاثُ شَفَاعَات » .**

له : الضَّمير يَعُود للنَّبى ﷺ . والشَّفَاعَات : جمع شفاعة ، والشَّفَاعَة فى اللُّغَة جعل الشَّىْء شَفعًا . وفى الإصطلاح : التَّوسط للغير بجلب مَنْفَعة أو دَفْعُ مَضَرّة ، ومُنَاسَبَتُها للاشتقاق ظَاهِرة لأَنَّك إذا تَوَسَّطت له صِرْتَ مَعه شفعًا تشفعه .

والشَّفاعة تنقسم إلى قسمين : شَفَاعَةٌ باطلة ، وشَفَاعَةٌ صحيحة .

فالشَّفاعة البَاطلة مَا يَتَعَلَّق به المشركون فى أَصْنَامِهم حيث يقولون : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر : ٣] ويتَّخِذُونهم شفعاء لكن هذه الشَّفاعة باطلة لا تنفع .

والشَّفاعة الصَّحيحة ما جَمَعت شُروطًا ثلاثة :

الأَوَّل : رِضَى الله عن الشَّافع .

الشَّرط الثانى : رِضَاهُ عن المَشْفُوع له .

---

(١) البخارى (١٨٩٧) ، (٣٦٦٦) ، ومسلم (١٠٢٧) (٨٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

والشَّرط الثَّالث : إذْنُه فى الشَّفَاعة . والإذن لا تكون إلا بعد الرِّضى عن الشَّافع ، والمَشْفُوع له . ودليل ذلك قوله تعالى ﴿ وَكَمْ مِن مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِى شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴾ [النجم : ٢٦] ولم يقل عن الشافع ولا المشفوع له ليكون أشمل وقال تعالى ﴿ يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ [طه : ١٠٩] ، ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ ﴾ [الأنبياء : ٢٨] .

فالآية الأولى تَضَمَّنت الشُّروط الثَّلاثة ، والثَّانية تَضَمَّنت شَرْطَين ، والثَّالثة شَرْطًا واحدًا . فللنَّبى ﷺ ثلاث شَفَاعَات :

١ – الشَّفَاعة العُظْمَىٰ .

٢ – والشَّفَاعة لأهل الجَنَّة لِيَدْخُلوا الجنَّة .

٣ – والشَّفَاعة فيمن استَحَقّ النَّار ألَّا يَدْخُلها وفيمن دخلها أَنْ يَخْرُج منها .

* * *

● **قال المؤلف : « أَمَّا الشَّفَاعَةُ الأُولَىٰ : فَيَشْفَعُ فِي أَهْلِ المَوْقِف حَتَّى يُقْضَىٰ بَيْنَهُم بَعْد أَنْ يَتَرَاجع الأَنْبياء : آدَم ونُوح وإِبْرَاهِيم ومُوسَىٰ وعِيسى ابن مَرْيم عن الشَّفاعة حَتَّى تَنْتَهِى إِلَيْه » .**

قوله : « حَتَّى يُقْضَىٰ بَيْنَهُم » : حَتَّى هذه تَعْلِيلية ولَيْسَت غَائِية ، لأَنَّ شفاعة الرَّسول ﷺ تَنْتَهِى قبل أن يُقْضَىٰ بين النَّاس فإنَّه إذا شَفَع نَزَلَ الله عزَّ وجل للقَضَاء بَيْن عِبَادِه وقَضَىٰ بَيْنَهم .

ونظيرها قوله تعالى ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَاتُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِند رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنفَضُّواْ ﴾ [المنافقون : ٧] . فإن قوله ﴿ حَتَّى يَنفَضُّواْ ﴾ للتَّعليل أى من أَجْل أَنْ يَنْفَضُّوا ، ولَيْسَت للغاية لأَنَّ المعنى يَفْسَد بذلك .

قال المؤلف : « بَعْد أَنْ يَتَرَاجَع الأَنْبِياء ، آدَم ونُوح وإِبْرَاهِيم ومُوسى وعِيسى بن مَرْيم عن الشَّفاعة » .

وذلك أَنَّ النَّاس يَلْحَقُهم من الكَرْب والغَمّ مَالَا يَطِيقُون فيقول بعضهم لبعض : أَلا تَطْلُبُون أَحدًا يَشْفَعُ لَنَا عِنْد الله يُرِيحُنا من هذا الموقف ؟

فيُوقِعُ الله فى قُلوبهم الذِّهاب إِلى آدم ، لأَنَّه أَبُو البَشَر فيذهبون إِلى آدَم وَيشكُون إِليه الحَال ويَطْلُبون إِليه أَنْ يَشْفَعَ لَهُم إِلى الله ولكنه يذكر خَطِيئَتُه وهى أَكْلُهُ من الشَّجرة بعد أن نُهِىَ عَنْه فَيَعْتَذِر فيوقِع الله فى قُلوبهم أن يَذْهَبُوا بعد آدم إِلى نُوح ، لأَنَّ نُوحًا هو الأَب الثَّانى للبَشَرِيّة حيث أَنَّ الله تعالىٰ أَهْلَكَ الناس إِلَّا ذُرِّيتهُ قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ [الصَّافات : ٧٧] . ولأَنَّه أَوَّل رَسُول أَرْسَله الله إِلى أَهْل الأرض ، ويطلبون منه الشَّفاعة ، ولكنه يَعْتَذر بأَنَّه سَأَل مَا لَيْس لَهُ به عِلْم : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ الحَقّ ﴾ [هود : ٤٥] . ثمَّ يُلْقى الله فى قُلوبهم أَنْ يَذْهبوا إِلى إِبراهيم ، لأَنَّ إبراهيم خَلِيلُ الرَّحمن ، ولأَنَّه أَبو الأَنبياء قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَاب ﴾ [الحديد : ٢٦] يذهبون إِلى إبراهيم فَيَعْتَذِر أيضًا لكنه يَعْتَذِر بأَنَّه كذب ثَلاث كَذَبات وهى كَذَبات فى ذَاتِ الله عزَّ وجل ولله . فيأتون إِلى مُوسَىٰ ولكنه يَعْتَذر عليه الصَّلاة والسَّلام لأَنَّه قَتَل نَفسًا لم يُؤْمَر بِقَتْلِها وهو الرَّجل القِبْطى ، لأَنَّه خرج ذات يوم فَوَجد رَجُلَيْن يَقْتَتِلان هذا من شِيعَتِهِ ، وهذا من عَدُوِّه ، فاسْتَغَاثَهُ الذى من شِيعَتِه عَلَىٰ الَّذى من عدوه فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْه ، وهو لم

يُؤْمَر بِقَتْله فَيَعْتَذِر بهذا العُذْر . ثُمَّ يأتون إلى عيسىٰ عليه الصَّلاة والسلام آخر الأنبياء قبل النَّبى عليه الصَّلاة والسَّلام فلا يَذْكر ذَنْبًا لكنه يُحِيل النَّاس إلى من هو أفضل . يقول : اذْهَبُوا إلى محمد عَبْدٌ غَفَرَ الله له مَا تَقَدَّم من ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّر »(١) .

فإن قلت : لماذا لم يُلْق الله عزَّ وجل فى قُلُوب هؤلاء النَّاس أَنْ يَذْهبوا إلى محمد من أَوَّل الأَمْر ؟

فالجواب : من أجل يَتَبَيَّن فَضْلُ الرَّسول ﷺ وهذا من المقام المحمود الَّذى قال الله فيه : ﴿ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾ [الإسراء : ٧٩] . هذا ما ظَهَر لَنَا وقد يكون حُكْم أعظم من هذا .

يقول المؤلف : « حَتَّى تَنْتَهِى إليه » أى إلى الرَّسُول ﷺ فيقول : أَنَا لَهَا ثم يقوم فَيَسْتَأْذن الله عَزَّ وجل فيأذن لَهُ وَيَسْجُد تَحْت العَرْش ويَفْتَح الله عليه من المَحامد والثَّناء على الله عزَّ وجل مَا لَمْ يَفْتَحُه عَلَيْه مِن قبل . ثُمَّ يُقال له: ارْفع رَأْسَك وَقُلْ تُسْمع واشْفَع تُشَفَّع» فَيشفع فى أهل الموقف فينزل الله عز وجل للقضاء بين عباده .

هذه الشَّفاعة العُظْمَىٰ لا تكون لأَحَدٍ أبدًا إلَّا للرسول عليه الصَّلاة والسَّلام وهى أَعْظَم الشَّفاعات ، لأَنَّ فيها إرَاحَة النَّاس من هذا الموقف العظيم والكَرْب والغَمّ هؤلاء الرُّسل الذى ذُكِرُوا فى حديث الشَّفاعة كُلُّهم من أُولى العَزْم وقد ذكرهم الله تَعَالىٰ فى مَوْضِعَيْن من القرآن فى سُورة الأَحْزَاب وفى سورة الشُّورىٰ أَمَّا فى سورة الأَحزاب فقوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾ [الأحزاب : ٧]

---

(١) البخارى (٦٥٦٥) ، (٧٤٤٠) ومسلم (١٩٣) (٣٢٢) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

وفى الشُّورىٰ : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ﴾ [الشُّورى : ١٣] .

* * *

● **قال المؤلف : « وَأَمَّا الشَّفَاعة الثَّانية فَيشْفَعُ فِى أَهْل الجَنَّة أَنْ يَدْخُلوا الجَنَّة »**

وذلك أَنَّ أهل الجنَّة إِذَا عَبَرُوا الصِّراط وُقِفُوا عَلَىٰ قَنْطرة فَيُقْتَصُّ لبعضهم من بعض ، وهذا القَصَاص غير القَصَاص الذى كان فى عُرُصَات القيامة بل هو قَصَاصٌ أَخَصُّ يُطَهِّرُ الله فيها القُلُوب ويُزِيلُ مَا فِيها من أَحْقَاد وَضَغَائِن فإِذا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُم فى دُخُول الجَنَّة ، ولكنهم إذا أَتَواْ إلى الجَنَّة لا يجدونها مَفْتُوحة كما يجد ذلك أَهْل النَّار فلا تفتَّح الأَبْواب حتى يَشْفَع النَّبى ﷺ لِأَهْل الجَنَّة أَنْ يَدْخُلوها فيدخل كل إنسان من باب العمل الَّذى يكون أَكْثَر اجْتِهادًا فيه من غَيْره ، وإِلَّا فإِنَّ المُسْلم قد يُدْعَىٰ من كُلِّ الأَبْواب . هذه الشَّفاعة ثَبَتَت بها الأَحاديث عن النبى ﷺ ويُشِيرُ إليها القرآن لأَنَّ الله قال فى أهل الجَنَّة : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوابُهَا ﴾ [الزمر : ٧٣] . وهذا يدلُّ على أن هناك شيئًا بَيْن وُصُولهم إليها وَبيْن فَتْح الأَبْواب .

* * *

● **قال : « وَهَاتَانِ الشَّفَاعَتَانِ خاصَّتَانِ لَهُ »** .

وهناك أيضًا شَفَاعَةٌ ثَالِثة خَاصَّة بالنَّبى ﷺ لا تكون لغيره وهى الشَّفاعة ، فى عمِّه أَبِى طَالب ، وأَبُو طَالب كما فى الصَّحيحين وغيرهما مَات على الكُفْر وفَضْلُ الله يُؤْتِيه مَنْ يَشَاء .

فأَعْمَام الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام أَرْبعة :

- أَبُو لَهب وقد أَسَاء إلى النَّبى ﷺ إساءَة عَظيمة .

- وأَبُو طَالب وقد أَحْسَنَ إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومِن حِكْمة الله عزَّ وجل أن بَقِىَ عَلَى كُفْرِه ، لأَنَّه لَوْلاَ كُفْرِه مَا حَصَل هذا الدِّفاع عن الرَّسول عليه الصلاة والسَّلام بل يُؤْذَىٰ كَما يُؤْذَىٰ الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام لكن بِجَاهِه العَظِيم عند قُرِيش وَبَقَائِه على دِينهم صَارُوا يُعَظِّمُونه وَصَار للنَّبى عليه الصلاة والسلام شَىْءٌ من الجَانب .

- ومن أَعْمَامِه : العَبَّاس ، وحَمْزَة وهو أَفْضَلُ من العَبَّاس حتى سماه الرَّسول عليه الصَّلاة والسلام أَسَدُ الله وَأَسَدُ رَسُولِه وقُتِل شهيدًا فى أُحد رضى الله عنه وأَرْضَاه .

فأبو طالب أذن الله لرسوله ﷺ أن يشفع فيه مع أنه كافر فيكون هذا مخصوصًا من قوله تعالى ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ [المدثر : ٤٨] . ولكنها شَفَاعَة لم تُخْرِجه من النَّار ، بل كان فى ضَحْضَاحٍ من نَار وَعَلَيْه نَعْلَان من نَار يَغْلِى مِنْهُما دِمَاغُه » قال الرَّسول عليه الصَّلاة والسلام : « وَلَوْلَا أَنَا لَكَان فِى الدَّرْكِ الأَسْفَل من النَّار »(١) . وليس هذا من أَجْل شَخْصِيَّة أَبِى طَالِب لكن من أَجْل مَا حَصَل من دِفَاعِه عن النَّبى ﷺ وعن أَصْحَابِه .

* * *

● **قال : « وأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّالِثة : فَيَشْفَعُ فِيمَنْ اسْتَحَقَّ النَّار ، وَهَذِه الشَّفَاعَة لَهُ وَلِسَائِر النَّبِيِّين والصِّدِّيقين وَغَيْرهم ، فَيَشْفَعُ فِيمن اسْتَحَقَّ النَّار**

(١) رواه مسلم (٢٠٩) (٣٥٧) من حديث العباس بن عبدالمطلب رضى الله عنه .

أَنْ لا يَدْخُلها ، وَيَشْفَعُ فِيمن دَخلَهَا أَن يَخْرُجَ مِنْها »(*) .

قوله : « وَأَمَّا الشَّفَاعة الثَّالِثة : فَيَشْفَعُ فِيمن اسْتَحَقَّ النَّار » : وهذه لها صُورتان : يَشْفَعُ فيمن اسْتَحَقَّ النَّار أن لا يَدْخُلها ، وفيمن دَخلَهَا أن يخرج منها والمُراد بذلك عُصَاة المُؤْمنين .

– أَمَّا من دَخلَهَا أَنْ يَخْرُجَ مِنْهَا : فالأَحَادِيثُ فى هذا كثيرة جدًا بل مُتَواترة .

– وَأَمَّا من اسْتَحَقَّها أن لا يَدْخُلها : فهذه قد تُسْتَفَادُ من دُعاء الرَّسول ﷺ للمؤمنين بالمغفرة والرَّحْمَة على جَنَائِزهم ، فإنَّه مِن لَازِم ذَلـك أن لا يَدْخُل النار كما قال النَّبى عليه الصلاة والسلام : « اللهُمَّ اغْفِر لِأَبِى سَلَمَة وَآرْفَع دَرَجَتَهُ فِى المَهْدِيِّين ... » الحديث .

(*) **قال الشيخ عبدالعزيز بن باز حفظه الله:** «الشَّفاعات التى تقع يوم القيامة سِتّ شفاعات معروفة من الأدلة الشَّرعية : منها ثلاث شفاعات تختص بالنبى ﷺ وهى :

١ – الشَّفاعة العظمى فى أهل الموقف حتى يُقْضى بينهم .

٢ – الشَّفاعة فى أهل الجنة حتى يدخلوها .

٣ – شَفَاعَته ﷺ فى تخفيف العذاب عن عمه أبى طالب حتى جُعِلَ فى ضحضاح من النار ، وهذه الشفاعة خاصَّة بالنَّبى ﷺ وأبى طالب عمه ، وأمَّا سِوَاه من الكفار فلا شفاعة فيهم لقوله تعالى : ﴿ فَمَا تنفعهم شفاعَةُ الشافعين ﴾ [المدثر : ٤٨] .

الرابعة والخامسة : شفاعته فيمن استحق النار ألَّا يَدْخلها ، وفيمن دخلها أن يخرج منها .

السادسة : شفاعته فى رفع درجات أهل الجنة ، وهذه الشفاعة الأخيرة عامَّة للنبى ﷺ وغيره من الأنبياء والصَّالحين والملائكة وصغار الموتى من أطفال المسلمين ، وكلها خاصَّة بأهل التَّوحيد . وأما الكفار فيخلَّدون فى نار جَهنم ، ولا يَذُوقون فيها الموت كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ لا يُقْضَى عَلَيْهِم فَيَمُوتُوا ﴾ [فاطر : ٣٦] ونحوها من الآيات . وأمَّا من دخلها من العُصَاة المُوَحِّدين فإنَّه لا يُخَلَّد فيها بل يخرج منها بعد التَّطهير والتَّمحيص ، وَثبت فى الصَّحيح عن النبى ﷺ : « أَنَّ العُصَاة يموتون فيها ثم يَخْرجون منها كالحِمَم فينْبُتون فيها كما يَنْبت الحَبّ فى حَميل السَّيل » ا.هـ

وهذه الشَّفَاعَة يُنْكِرُها من أَهْل البِدَع طَائِفَتَان :

الطَّائِفَةُ الأُولَى : المُعْتَزِلة . والطَّائفة الثَّانية : الخَوَارِج ؛ لأنَّ المعتزلة والخوارج مَذْهَبُهما فى فاعل الكَبِيرة أَنَّه مخلد فى نَار جهنم فَيَرَوْنَ من زَنَى كمن أَشْرَكَ بالله وَزَنَى وسَرَق وشَرِبَ الخمر ، وقَتَل النَّفس وفَعَل كل مَعْصِية ، ولهذا لا يَرَوْنَ الشَّفاعة فيمن استحق النَّار لا فى من استحقها لِيَدْخُلها ولا فى من دَخَلَها أن يَخْرُج منها .

قال : « وهَذِهِ الشَّفَاعَة لَهُ وَلِسَائر النَّبِيِّين والصِّدِّيقين وغيرهم » . بمعنى أَنَّهَا لَيْسَت خَاصَّة به ، بل تكون للنَّبيين حيث يَشْفَعُون فى عُصَاة قومهم ، وللصِّديقين يَشْفَعُون فى عُصَاة أَقَارِبهِم وَغَيْرِهم من المُؤْمِنين . وكذلك لِغَيْرهم من الصَّالحين حتى يَشْفَع الرَّجل فى أَهْلِه وَفِى جِيرَانِه وفيما أَشْبَه ذَلك ولكن لابد فى هذه الشَّفاعة من ثَلاثة شُروط :

الشَّرط الأَوَّل : إِذْنُ الله تَعَالَى فيها .

الشَّرط الثَّانى : رِضَاهُ عن الشَّافع .

والشَّرط الثَّالث : رِضَاهُ عن المَشْفُوع له .

وقد اجتمعت هذه الشُّروط الثَّلاثة فى قوله تعالى ﴿ وَكَمْ مِن مَلَكٍ فِى السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنى شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ الله لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ [النجم : ٢٦] .

أَمَّا الشفاعة العظمى فمن المعلوم أَنَّ المَشْفُوع لهم لَيْسُوا كُلُّهم مَرْضِيّين عند الله ، لأَن الموقف يَشْمل المُؤْمِنين والكافرين .

* * *

● قال المؤلف : « ويُخْرِجُ الله من النَّار أَقْوَامًا بِغَيْر شَفَاعة بَلْ بِفَضْلِه وَرَحْمَته » .

يعنى أَنَّ الله تَعَالىٰ يُخرجُ من عُصَاة المُؤْمنين مَنْ شَاءَ بِغَيْر شَفَاعة وهذا من نعمته ، فإِنَّ رحمته سَبَقَت غَضَبه ، فيشفع الأَنْبياء والصَّالحون والملائكة وغيرهم حتى لا يَبْقَى إلا رَحْمة أَرْحم الرَّاحمين ، فَيُخْرِجُ من النَّار مَنْ يُخْرِج بِدُون شَفَاعة حتى لا يبقىٰ فى النَّار إِلَّا أَهْلها الَّذِين هم أَصْحَابُ النَّار .

* * *

ومما يجـرى فى يوم القيامـــة :
(ط) يُنشـــىء الله للجنة أقوامــاً

٢١١ - وَيَبْقَى فِي الجنَّة فَضْل عَمّن دَخَلَهَا مِن أَهْل الدُّنْيا فيُنْشِئُ الله أَقْوامًا فَيُدْخِلهُم الجنَّة .

الشـــرح

● **قال المؤلف : « وَيَبْقَى فى الجَنَّة فَضْل عَمَّن دَخلَها مِن أَهْل الدُّنيا »** .

الجنَّة عَرْضُها السَّماوات والأَرْض ، وهذه الجنَّة التى عرضها السَّماوات والأرض يَدْخلها أهْلها ولكن لا تَمْتَلِىء ، وقد تَكَفَّل الله عَزَّ وَجَلَّ للجنَّة وللنَّار لِكُلِّ وَاحِدة مِلْؤُها ، « فالنَّار لا تَزَال يُلْقَى فِيها وَهِى تَقُول هَلْ مِن مَزِيد ؟ فلا تَمْتَلِىء فَيَضَعُ الله عَزَّ وَجَلّ عَلَيْها قَدَمَهُ فَيَنْزَوى بعضها إلى بعض وتقول : قَط قط »[1] .

وأمَّا الجنَّة : فيُنْشِئُ لها أَقْوامًا ، فَيَدْخُلون الجنَّة بفضل الله وَرَحْمته ، وهذا مُقْتَضَى قوله تعالى ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام : ٥٤] وقوله : « إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَت غَضَبِى »[2] . ولهذا قال المؤلف : « **فَيُنْشِئُ الله لَهَا أَقْوَامًا فَيُدْخِلَهُم الجنَّة** » .

* * *

(١) لفظ حديث تقدم تخريجه ص (٤٥٠) .

(٢) البخارى (٧٥٥٤) ومسلم (٢٧٥١) (١٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

أحوال اليوم الآخر وما يجرى فيه مبسوط فى الكتاب والسنة

٢١٢ - وَأَصْنَاف مَا تَضَمَّنَتْهُ الدَّار الآخِرة مِن الحِسَاب والثَّواب وَالعِقَاب والجنَّة والنَّار وَتفاصِيلُ ذَلِك مَذْكُورة فى الكُتُب المُنَزَّلة من السَّماء ، والآثار من العِلْم المَأْثُور عن الأَنْبياء . وفى العلم المَوْرُوث عَن مُحمد ﷺ مِن ذَلك مَا يَشْفِى وَيَكْفِى فمن ابْتَغَاهُ وَجَدَهُ .

الشــــرح

● **قال المؤلف : « وَأَصْنَافُ مَا تَضَمَّنَتْهُ الدَّار الآخِرة مِن الحِسَاب والثَّواب والعِقَاب والجنَّة والنَّار »**

أَصْنَاف : بمعنى أَنْواع . أى أنواع ما تَضَمَّنَتْهُ الدَّار الآخرة من الحِسَاب والثَّواب والعِقَاب والجنَّة والنَّار .

● **قال المؤلف : « وتَفَاصيل ذلك مَذْكُورة فى الكُتُب المُنَزَّلة من السَّماء »** مثل التَّوراة والإنجيل والزَّبور وصُحُف إبْرَاهيم ومُوسَىٰ والقُرآن العظيم وغيرها من الكُتُب مذكور ومُبيَّن ، لأَنَّ الناس فى حَاجَة إلى بَيَانِه ، فإنَّهم لا يَسْتَقِيمُون كما أُمِرُوا إلَّا إذا عَرِفُوا مَا وَرَاء ذلك التَّكليف الذى كُلِّفُوا به ، لهذا جاءت الكتب مُبيِّنة ومُفصّلة كل مَا يَكُون فى الدَّار الآخرة .

● **قال المؤلف : « والآثار من العِلْم المَأْثُور عن الأَنْبياء »**

والعلم المأثور عن الأنبياء قِسْمان :

١ - قِسْمٌ ثَبت بالوحْى وهو ما ذكر فى القرآن والسُّنَّة الصَّحيحية ، وهذا لاشك فى ثُبُوته .

٢ - وقسم آخر ثبت بطريق النَّقل غير الوَحْى ، وهذا هو الذى دخل فيه الكَذِب والتَّحريف والتَّبديل والتَّغْيير ، ولهذا لابد من أن يكون الإنسان حذِرًا مِمَّا يُنْقَل عن الأنبياء السَّابقين حتى قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « إِذَا حَدَّثَكُم أَهْلُ الكِتَاب فَلا تُصَدِّقُوهُم وَلَا تُكَذِّبُوهم قُولُوا آمَنَّا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم »(١) لأَنَّك إن صَدَّقت قد تُصَدِّق بِبَاطل وإِنْ كَذَّبْتَهُ قد تُكَذِّب بحق ، فَلا تصدِّق ولا تُكَذِّب . قل : إن كان هذا من الله فقد آمَنْتُ به .

وقد قسَّم العلماء مَا أُثِرَ عمَّن سَبَقَ ثلاثة أقسام :

الأَوَّل : مَا شَهِدَ شَرْعُنا بِصِدْقِه .

والثَّانى : مَا شَهِدَ شَرْعُنا بِكَذِبِهِ .

والحكم فى هذين واضح .

---

(١) رواه البخارى (٤٤٨٥) ، (٧٢٦٢) ، (٧٥٤٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

قال الحافظ ابن كثير عند تفسير الآية (٤٦) من سورة العنكبوت بعد أن روى الحديث : « ثُمَّ لِيُعْلَم أَنَّ أَكثر ما يتَحَدَّثون به غَالبه كَذِبٌ وبُهْتَان ، لأَنَّه قد دخله تَحْرِيفٌ وتَبْدِيلٌ وتَغْيِيرٌ وتَأْوِيلٌ وَمَا أَقَلَّ الصِّدق فيه ، ثمَّ ما أقل فائدته لو كَان صَحِيحًا » ا.هـ

وقال عند تفسير الآية (١٩٠) من سورة الأعراف : « ثمَّ أَخبارهم على ثلاثة أقسام : فمنها : مَا عَلِمنا صِحَّته ، بما دلَّ عليه الدَّليل من كتاب الله أو سُنَّة رَسُوله ، ومنها : مَا عَلِمنا كَذِبُه ، بما دلَّ عَلى خِلافه من الكتاب والسُّنة أيضًا ، ومنها : ما هو مَسْكُوتٌ عنه ، فهو المَأْذُون فى روايته بقوله عليه السلام « حَدِّثُوا عن بَنى إِسْرائيل ولا حَرَج » وهو الذى لا يُصَدَّق ولا يُكَذَّب لقوله « فلا تُصَدِّقُوهم ولا تُكَذِّبُوهم » ا.هـ .

الثَّالث : مَا لَمْ يُحْكَم بِصِدْقِه وَلَا كَذِبه ، فَهَذا يجب فيه التَّوقُّف لا نُصدِّق ولا نُكَذِّب .

قال المؤلف : « وفى العلم الموروث عن مُحَمَّد ﷺ من ذلك مَا يَشْفِى وَيَكْفِى »

العلم الموروث عن محمد صَلَوات الله وسلامه عليه سواء فى كتاب الله أَوْ فِى سُنَّة رسول الله ﷺ فيه من ذلك مَا يَشْفِى وَيَكْفِى فلا حاجة إِلى أَنْ نَبْحَث عن مَوَاعظ تُرَقِّق القُلُوب من غير الكِتاب والسُّنَّة ، بل نحن فى غِنى عن هذا كله . فى العلم المَوْرُوث عن محَمَّد رسول الله ﷺ مَا يَشفِى وَيَكْفِى فى كُلِّ أَبْواب العلم والإيمان .

ثمَّ المنسوب إلى رَسُول الله ﷺ فى باب الوَعْظ والفَضائل تَرْغِيبًا أَوْ تَرْهِيبًا يَنْقَسِم إلى ثلاثة أقسام : صَحِيحٌ مَقْبُول ، وَضَعِيفٌ ، وَمَوْضُوع . فليس كُلّه صَحيحًا مَقبولاً ، ونحن فى باب الوَعْظ فى غنى عن الضَّعيف وعن المَوْضوع .

● فالموضوع اتَّفق العلماء - رحمهم الله - على أَنَّه لا يَجُوز ذِكْرُه ونَشْرُه بَيْن النَّاس لا فى باب الفضائل والتَّرغيب والترهيب ولا فى غيره إِلَّا من ذكره لِيُبَيِّن حَالَهُ .

● والضَّعيف اختلف فيه العلماء ، والَّذين قالوا بِجَوَاز نَشْرِه ونَقْلِه اشْتَرَطُوا فيه ثلاثة شُروط :

الشَّرط الأول : أن لا يكون الضَّعف شَدِيدًا .

الشَّرط الثانى : أن يكون أَصْلُ العمل الذى رُتِّب عليه الثَّواب أَوْ العِقاب ثَابتًا بِوجْه صَحِيح .

الشَّرط الثَّالث : أن لا يعتقد أَنَّ النَّبى ﷺ قاله ، بل يكون مُتَرَدِّدًا غير جازم .

أَمَّا صِيغَة عَرْضِه فلا يقول : قَال رَسُول الله بل يقول : رُوِىَ عَنْ رَسُول الله أو ذُكِرَ عَنْه ، وَمَا أَشبه ذلك ...

فإن كنت فى العامَّة الذين لا يُفَرِّقون بين ذُكِرَ وَقِيل وَقَالَ ، فلا تَأْتِى بِه أَبَدًا ؛ لأَنَّ العَامِّى يَعْتَقِدُ مُبَاشَرة أَنَّ الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام قَالَهُ .

(**تَنْبِيــه**) : هذا الباب أى فى باب اليوم الآخر وأشراط السَّاعة ذكرت أَحَادِيث كثِيرة فيها ضَعْفٌ ، وفيها وَضْعٌ ، وأكثر ما تكون هذه فى كتب الرقائق والمواعظ ، فلذلك يجب التَّحرز منها ، وأن نُحَذِّر العامَّة الذين يقع فى أَيْديهم مثل هذه الكتب .

● **قال المؤلف** : « **فَمَن ابْتَغَاهُ – أى طَلَبَهُ – وَجَدَهُ** » وَهَذا صَحِيحٌ فالقُرآن بَيْن أَيْدِينا وكُتُب الأحاديث بين أَيْدِينا لكنها تَحْتَاجُ إِلى تَنْقِيح وَبَيَان الصَّحيح منها ، والضَّعيف حتى يَبْنى الناس مَا يَعْتَقِدُونه فى هذا الباب على أَسَاسٍ سَلِيم .

* * *

فصـــل

الإيمَـــانُ بِالقَدَر خَيْـــره وَشَـــرِّه

٢١٣ – وَتُؤْمِنُ الفِرْقَة النَّاجِية – أَهْلُ السُّنَّة وَالجَمَاعة – بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّه .

الشـــــرح

قوله : « **الفِرْقَة النَّاجِية أَهْل السُّنَّة وَالجَمَاعَة** » سبق تعريفها والكلام عنها فى أَوَّل الكتاب ...

وقوله : « **بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّه** » . القَدَر : فى اللغة : بمعنى التَّقدير قال تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىءٍ خَلقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : ٤٩] وقال تعالى : ﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ القَادِرُونَ ﴾ [المرسلات : ٢٣] .

وأَمَّا القَضَاء : فهو فى اللُّغة : الحكم . ولهذا نقول إنَّ القضاء والقدر مُتَبَايِنَان إن اجتمعا ، ومُتَرادفان إن تَفَرَّقا على حَدّ قول العلماء : هما كلمتان إن اجتمعتا افترقتا ، وإن افترقتا اجتمعتا » .

فإذا قيل : هذا قَدَر الله ، فهو شامل للقضاء ، أَمَّا إذا ذكرا جميعًا فلكل واحد منهما معنى .

فالتَّقدير : هو ما قَدَّرَهُ الله تعالىٰ فى الأَزَل أَن يَكُون فى خلقه .

وأما القضاء : فهو ما قضىٰ به الله سبحانه وتعالىٰ فى خَلْقه من إيجاد أَوْ إعدام أَوْ تَغْيير وعلى هذا يكون التَّقدير سابقًا .

فإذا قلت : أنت ذكرت أنَّ القضاء هو ما يَقْضيه الله سبحانه وتعالىٰ فى خلقه من إيجاد أَوْ إعدام أو تغْيير وأَنَّ القَدَر سَابِقٌ عليه إذا اجتمعا ، فإن هذا يُعَارض قوله تعالىٰ : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقدِيرًا ﴾ [الفرقان : ٢] فإن هذه الآية ظاهرها أن التَّقدير بعد الخلق ؟

فالجواب على ذلك من أَحَد وَجْهين :

إمَّا أَن نقول أَن هذا من باب التَّرتيب الذكرى لا المعنوى ، وإنما قَدَّم الخلق على التَّقْدير لِتَنَاسُب رُؤُوس الآيات : ﴿ وخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقدِيرًا ﴾ [الفرقان : ٢] ألم تر إلى أَنَّ مُوسى أَفْضَل من هَارُون لكن قدَّم هارون عليه فى سورة طه لِتناسب رؤُوس الآيات .

وهذا لا يدلُّ على أَنَّ المتأخِّر فى اللَّفظ مُتَأَخِّر فى الرتبة ، أو نقول أن التَّقدير هنا بمعنى التَّسوية أى خلقه على قَدْر مُعَيَّن كقوله تعالى : ﴿ الَّذى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ [الأعلى : ٢] . فيكون التَّقدير بمعنى التَّسْوية .

وهذا المعنى أَقْرَب من الأَوَّل ؛ لأَنَّه يُطَابق تمامًا لقوله تعالى ﴿ الَّذى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ فلا إشْكَال .

الإيمان بالقَدَر واجب ، وَمَرْتَبَتُه فى الدِّين أَنَّه أَحَد أَرْكَان الإيمان السِّتَّة كما قال النَّبى عليه الصَّلاة والسَّلام لجبريل حين قال : ما الإيمَان ؟ قال : « أَنْ تُؤْمِن بالله وَمَلائِكَته وَكُتُبه وَرُسُله ، واليوم الآخر وتُؤْمن بِالقَدَر خَيْره وَشَرِّه » .

وللإيمان بالقَدَر فوائد منها :

أولاً : أنَّه من تَمَام الإيمان ، ولا يتمّ الإيمان إلَّا بذلك .

ثانيًا : أَنَّه من تَمَام الإيمان بالرُّبوبية ، لأن قَدَر الله من أفعاله .

ثالثًا : رُجُوع الإنسان إلى ربه ، لأنَّه إذا علم أن كل شىء بقضاءه وقَدَره ، فإنَّه سيرجع إلى الله فى دَفْع الضَّراء ، وَرَفْعِها ، ويضيف السَّراء إلى الله ، ويعرف أنَّها من فضل الله عليه .

رابعًا : أن الإنسان يَعْرف قَدْر نَفْسه ولا يفخر إذا فَعَل الخير .

خامسًا : هون المَصَائب عَلَى العَبد ، لأَنَّ الإنسان إذا علم أنَّها من عند الله هانت عليه المصيبة كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ [التغابن : ١١] قال عَلْقَمة رحمه الله : « هُو الرَّجُل تُصِيبُه المُصِيبة فَيَعْلَم أنَّها من عند الله فَيَرْضَى وَيُسَلِّم » .

سادسًا : إضافة النّعم إلَى مُسْدِيها لأنّك إذا لم تُؤْمن بالقَدَر أضفت النّعم إلى مَنْ بَاشَر الإنعام ، وهذا يُوجد كثيرًا فى الَّذين يَتَزَلَّفون إلى الملوك والأمراء والوزراء .

صحيح : أنّه يَجب على الإنسان أَنْ يَشْكُر النَّاس لقول النبى عليه الصَّلاة والسَّلام : « مَنْ صَنَع إلَيْكُم مَعْرُوفًا فَكَافِئُوه »[1] . ولكن يعلم أنَّ الأَصْل كل الأصل هو فَضْلُ الله عزَّ وجلّ جَعَلَهُ على يد هذا الرَّجل .

سابعًا : أن الإنسان يعرف به حكمة الله عزَّ وجل ، لأَنَّه إذا نظر فى هذا الكون وما يَحْدُث فيه من تَغْيِيرات بَاهِرة ، عرف بهذا حكمة الله عزَّ وجل ، بخلاف من نَسِيَ القضاء والقَدَر ، فإنَّه لا يستفيد هذه الفائدة .

وقوله : « خَيْرِهِ وَشَرِّه » : الشَّر فى القَدر مَالَا يُلَائم طبيعة الإنسان بحيث يَحْصُل له به أَذِيّة أَوْ ضَرَر . والخير مَايُلائِم طَبِيعته بحيث يحصل له به

---

(١) **حَدِيثٌ صَحِيحٌ** : وهو جزء من حديث ابن عمر مرفوعًا أوّله : « مَنْ اسْتَعَاذكم بالله فَأَعِيذُوه ومَنْ سَأَلَكُم بالله فَأَعْطُوه ، ومَنْ صنع إليكم معروفًا ... » الحديث . رواه أبو داود (١٦٧٢) والنسائى (٨٢/٥) بإسنادٍ صحيحٍ ، وقد صحَّحه الألبانى فى الصحيحة (٢٥٤) .

خَيْر أَوْ ارْتِياح وسُرور . كل ذلك من الله عزَّ وجل .

ولكن : كيف يقال أن فى قَدَر الله شَرّ وقد قال النَّبى ﷺ : « الشَّر لَيْسَ إلَيْه » ؟

فالجواب على ذلك أَن يُقَال : الشَّر فى القَدر ليس باعتبار تقدير الله له ، لكنه باعتبار المَقْدُور ، لأَنَّ لدينا قَدَرًا ومَقْدُورًا كما أَنَّ هناك خَلْقًا وَمَخْلُوقًا وإرادة ومُرادًا فباعتبار تقدير الله لَهُ لَيْس بشَرّ بل هو خَيْر حتى وإن كان لا يُلائم الإنسان ويُؤْذِيه ويَضُرُّه . لكن باعتبار المقدور فنقول المَقْدُور إمَّا خَيْر وَإمَّا شَرّ فالقدر خَيْره وشَرِّه يُراد به المَقْدُور خَيْره وشَرّه ونضرب لهذا مَثلاً فى قوله تعالى : ﴿ ظَهَرَ الفَسَادُ فِى البَرِّ وَالبَحرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا ﴾ [الروم : ٤١] . ففى هذه الآية بَيَّن الله عزَّ وجَلّ مَا حَدَثَ وَسَبَبه والغاية منه .

فالفساد شَرّ وسَبَه الإنسان والغَاية مِنه ﴿ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُم يَرجِعُونَ ﴾ [الروم : ٤١] . فَكون الفَساد يَظهر فى البرّ والبحر فيه حكمة فهو نفسه شَرّ لكن لحِكْمَةٍ عَظِيمة بها يكون تَقْديره خيرًا . كذلك المعاصى والكفر شر وهو من تقدير الله لكن لِحِكْمَةٍ عظيمة لولا ذلك لبَطَلت الشَّرائع ولولا ذلك لكان خلق ذلك عبثًا .

والإيمان بالقَدَر خَيْره وشَرِّه لا يتضمَّن الإيمان بكل مَقْدُور ، بل المقدور ينقسم إلى كونى وإلى شرعى :

فالمقدور الكَوْنى إذا قدّر الله عليك مكروهًا فلابد أَن يَقَع رَضِيتَ أَمْ أَبَيْتَ والمَقْدُور الشرعى قد يفعله الإنسان وقد لا يفعله ، لكن باعتبار الرِّضى به إن كان طاعة لله وَجَبَ الرِّضى به ، وإن كان مَعْصية وَجَبَ سخطه وكراهته ومحاربته ، والقضاء عليه كما قال الله عزَّ وجلّ : ﴿ وَلْتَكُن مِنكُمْ أُمَّةٌ

يَدْعُونَ إِلَى الخَيرِ وَيأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَونَ عَنِ المُنكَرِ ﴾ [آل عمران : ١٠٤] .

وعلى هذا يجب علينا الإيمان بالمَقْضى كُلّه من حيث كونه قضاءً لله عزَّ وجل أَمَّا من حيث نِسْبَتُه إلى غير الله فقد نَرْضَىٰ به وقد لا نَرْضَىٰ ، فلو وقع الكفر من شخص فلا نَرْضَىٰ بالكفر منه لكن نَرْضَىٰ بكون الله أَوْقَعَهُ .

* * *

تفصيل مراتب القدر
الدَّرجة الأولى وما تضمنته

٢١٤ – والإيمانُ بالقدرِ عَلَى دَرَجَتَيْن كُلُّ دَرَجَةٍ تَتَضَمَّنُ شَيْئَيْن :

٢١٥ – فالدَّرَجَةُ الأُولَى : الإيمَانُ بأَنَّ الله تَعَالَى عَلِيمٌ بِما الخَلْقُ عَامِلُون بِعِلْمِه القَدِيم الَّذِى هو مَوْصُوف بِهِ أَزَلاً وَأَبدًا .

٢١٦ – وَعَلِمَ جَمِيع أَحْوَالِهم مِن الطَّاعات والمَعَاصِى وَالأَرْزَاق وَالآجَال .

٢١٧ – ثُمَّ كَتَبَ الله فِى اللَّوْح المَحْفُوظ مَقَادِير الخَلْق .

٢١٨ – فَأَوَّل مَا خَلَق الله القَلم قَال لَهُ اكْتُب . قال : مَا أَكْتُب ؟ قال : اكْتُب مَا هُو كَائِن إلى يَوْم القِيامَة .

٢١٩ – فَمَا أَصَابَ الإنْسَان لَمْ يَكُن لِيُخْطِئه ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُن لِيُصِيبه .

٢٢٠ – جَفَّت الأَقْلام وَطُوِيَت الصُّحُف .

٢٢١ – كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحج : ٧٠] .

٢٢٢ – وقال : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى

كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴾

[الحديد : ٢٢] .

٢٢٣ - وهذا التَّقْدير التَّابع لِعِلْمه سُبحانه يَكُون فى مَوَاضع جُمْلة وتَفْصيلاً .

٢٢٤ - فقد كتب فى اللَّوح المَحْفُوظ مَا شَاء .

٢٢٥ - وإذا خلق جَسَد الجَنِين قبل نَفْخ الرُّوح فيه بعث إليه مَلَكًا فَيُؤْمر بِأَرْبع كلمات فَيُقال له : اكْتُب رِزْقَهُ وَأَجَله وَعَمَله وَشَقِىٌّ أَوْ سَعِيد ونحو ذلك .

٢٢٦ - فهذا التَّقْدِيرُ قد كان يُنْكِرُه غُلاَةُ القَدرِيّة قَدِيمًا ، وَمُنْكِرُوه اليوم قَلِيل .

الشـــرح

● **قال المؤلف : « وَالإِيمَانُ بِالقَدَر عَلَى دَرَجَتَيْن كُلُّ دَرَجَةٍ تَتَضَمَّنُ شَيْئَيْن »**(*) .

(*) **قال الشيخ عبدالعزيز بن باز حفظه الله** : « مراتب القدر أربع ، وإن شئت سمَّيتها أشياء بدلاً من مراتب كما سمَّاها المصنف رحمه الله :

الأُولى : عِلْمُ الله بجميع الأشياء وعلمه بجميع أفعال العباد من طاعة ومَعْصية ، وغير ذلك ، فهو سبحانه موصوف بالعلم أَزَلاً وأَبدًا لا يَغِيبُ عن عِلْمه شىء كما قال تعالى ﴿ إِنَّ الله بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيم ﴾ [الأنعام : ٧٥] .

الثانية : كتابته لجميع الأشياء ، فجميع ما كان وما سيكون كله مكتوب لديه كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الله يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِى كِتَاب إِنَّ ذَلِكَ عَلَى الله يَسِير ﴾ [الحج : ٧٠] وقال : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُصِيبَةٍ ﴾ الآية .. [الحديد : ٢٢] .

الثالثة : مشيئة الله النافذة فى كل شىء وقدرته على كل شىء ، فما شاء كان وما لم يشأ =

إنَّما قَسَّم المؤلف هَذا التَّقسيم من أجل الخلاف ، لأن الخِلاف فى القدر ليس شاملاً لكل مَرَاتِبه ، وباب القَدَر من أَشْكَل أَبْوَاب العِلْم والدِّين على الإنسان ، وقد كان النِّزاعَ فيه مِن عهد الصَّحابة رضى الله عنهم لكنه مُشْكلاً لمن أَرَادَ الحق .

* * *

● **قال المؤلف : « فالدَّرَجَةُ الأُولى : الإِيمَانُ بأنَّ الله عَلِيمٌ بِما الخَلْقُ عَامِلُون بِعِلْمِه القَديم الَّذى هُو مَوْصُوف به أَزَلاً » .**

قوله « فَالدَّرَجَة الأُولَى : الإِيمَانُ بأَنَّ الله عَلِيمٌ بِمَا الخَلْقُ عَامِلُون » و لم يذكر المؤلف أَنَّ الله عَلِيم بما يفعله هو ؛ لأَنَّ هذه المسألة ليس فيها خِلاف لابين الجبرية والقَدريّة وَأَهْل السُّنَّة ولا غيرهم إِنَّما ذكر ما فيه الخلاف وهو هل الله يَعْلَم ما الخلق عاملون أو لا يَعْلَمُه إِلَّا بَعْد وقوعه منهم ؟

نقول : يجب علينا أَن نُؤْمن بأن الله عالم به .

قوله «بِعلْمِه القَدِيم» القديم فى اصْطلاحهم : هو الَّذى لا أَوَّل لابتِدائه أَى أَنَّه لم يَزَل فى مَامَضى من الأَزْمِنة التى لا نهاية لها عَالمًا بما يَعْمَلُه الخلق ، بخلاف القديم فى اللُّغة فقد يُرَادُ بالقديم فى اللُّغة ما كان قديمًا نِسْبيًا كما فى

= لم يكن كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا فَعَلُوهُ ﴾ [الأنعام : ١٣٧] ، ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُم أَنْ يَسْتَقِيم . وَمَا تَشَاؤُون إِلَّا أَن يَشَاء اللهُ رَبُّ العَالَمِين ﴾ [التكوير : ٢٨ ، ٢٩] وقال : ﴿ إِنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير ﴾ [البقرة : ٢٠] .

الرابعة : الإيمان بأن الله خالق الأشياء وموجدها ، فلا خالق غيره ، ولا رب سواه كما قال ﴿ الله خَالِقُ كُلِّ شَيء ﴾ [الزمر : ٦٢] ، وقال : ﴿ الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِين ﴾ [الفاتحة : ٢] والمراد بالعالمين : جميع المخلوقات ، قال تعالى : ﴿ قَالَ فِرْعَونُ وَمَا رَبُّ العَالَمِين ، قَالَ رَبُّ السَّمَاوَات وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُم مُوقِنِين ﴾ [الشعراء : ٢٣ ، ٢٤] »ا.هـ.

قوله تعالى ﴿ حَتَّى عَادَ كَالعُرجُونِ القَدِيمِ ﴾ [يسٓ : ٣٩] ومَعْلوم أَنَّ عُرجون النَّخلة ليس بقديم بل قديم بالنِّسبة لما بعده لا أَزَليّاً .

فالله تعالى مَوْصُوف بأَنَّه عالم بما الخلق عَامِلون بِعِلْمه القَديم الأَزَلى الذى لا نهاية لِأَوَّله عالمٌ جل وعلا بأَنَّ هذا الإنسان سَيَعْمل كذا فى يوم كذا فى مكان كذا بعلمه القديم الأولى فيجب أن نُؤْمن بذلك ، ودليل هذا من الكتاب والسُّنَّة والعقل :

● **أَمَّا الكتاب** : فما أكثر الآيات التى فيها العموم فى عِلْم الله مثل ﴿ والله بِكُلِّ شَىءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٨٢] ، ﴿ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَىءٍ عَلِيمًا ﴾ [النساء : ٣٢] ، ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ [غافر : ٧] ، ﴿ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُل شَىءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق : ١٢] إلى غير ذلك من الآيات التى لا تحصى كَثْرة .

● **أَمَّا فى السُّنَّة** : فإنَّ الرسول عليه الصَّلاة والسَّلام أخبر بأَنَّ مَا أَصَاب الإنسان لم يكن لِيُخْطئه وما أَخْطَأَهُ لم يكن لِيُصيبه ، وأَنَّ الأقلام قد جَفَّت وطُويت الصُّحف وانتهى كل شيء ، والأحاديث فى هذا كثيرة .

● **وأَمَّا العقل** : فنقول إِنَّ الله عزَّ وجلَّ أشار إلى ذلك فى كِتَابه فقال ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ ﴾ [الملك : ١٤] .

فإذا قلت : إِنَّ الله خَلَقَ الإنسان وخَلَق أَعْماله ، لأَنَّ الأعمال صِفَة الإنسان ، والصِّفة تابعة للموصوف ، فإذا كان العمل مخلوقًا كان العامل مخلوقًا ولابد .

فالكتاب والسُّنَّة والعَقْل كلها تدلُّ على أَنَّ الله تعالىٰ عَالِمٌ بما الخلق عاملون بِعِلْمِه الأَزَلى .

قوله : « الَّذى هُو مَوْصُوف بِهِ أَزَلاً وَأَبَدًا » : ففى كونه مَوْصوفًا به أزلاً نفى للجهل ، وَفِى كَوْنه مَوْصُوفًا به أبدًا نفى للنِّسيان ، ولهذا كان علم الله عَزَّ وجلَّ غير مَسْبُوق بجهل ولا مَلْحُوق بِنسْيَان كما قال موسى عليه الصَّلاة والسَّلام لفرعون : ﴿ عِلْمُهَا عند رَبّى فِى كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبى وَلَا يَنسىٰ ﴾ [طه : ٥٢] بخلاف علم المخلوق المَسْبُوق بالجهل والملحوق بالنِّسيان .

إِذًا : يجب عليك أن تؤْمن بأَنَّ الله عَالِمٌ بما الخلق عَامِلُون بِعِلْمٍ سَابِق موصوف به أَزَلاً وأبدًا .

* * *

● **قال المؤلف : « وَعَلِمَ جَمِيع أَحْوَالِهم من الطَّاعَات والمَعَاصِى وَالأَرْزَاق والآجَال » .**

ولهذا يقول للملك عندما يَنْفخ الرَّوح فى الجنين فى بَطْن أمه : « اكْتُب رِزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَعَمَلَهُ وَشَقِىٌّ أَمْ سَعِيد »(١) فالله عالم بذلك قبل أن يَخْلق الإِنسان .

إِذًا : طَاعَاتِنا مَعْلُومة لله ، وَمَعَاصِينا مَعْلُومة لله ، أَرْزَاقُنا مَعْلُومة له ، وآجالنا مَعْلُومة له . إِذَا مَاتَ الإِنْسَان بِسَبَبٍ مَعْلُوم أَوْ بِغَيْر سَبَبٍ مَعْلُوم فإِنَّه لله معلوم ولا يخفى عليه بخلاف علم الإِنسان بأَجَله فإِنه لا يعرف أَجَله فلا يعرف أين يَمُوت ومتى يَمُوت ، ولا يعرف بأَى سَبَبٍ يَمُوت ولا يعرف على أَىّ حالٍ يموت .

* * *

(١) رواه البخارى (٣٢٠٨) ، (٣٥٩٤) ومسلم (٢٦٤٣) (١) من حديث ابن مسعود رضى الله عنه .

● **قال المؤلف : « ثُمَّ كَتَبَ اللهُ فِي اللَّوحِ المَحْفُوظِ مَقَادِيرَ الخَلْقِ » .**

هذا الشَّىء الثَّانى من الدَّرجة الأُولى وهو أَنَّ الله كتب فى اللَّوح المحفوظ مَقَادِير الخَلْق . فالدَّرجة الأُولى تَشْمل شَيْئَيْن عِلْمًا وَكِتَابة .

اللَّوح المَحْفُوظ لَسْنَا مُطَالبين بأن نعرف مَاهِيته من أَى شَىْء هذا اللَّوح ؟ من خَشَب ، من حَدِيد ، من ذَهَب ، من فِضّة ، من زُمُرد فلا يهمنا ذلك إنما نؤمن بأَنَّ هناك لَوْحًا كتب الله فيه مَقَادير كل شىء وَلَيْس لنا الحق فى أن نبحث وَرَاء ذلك . لكن لو جاء فى الكتاب والسُّنة ما يدلنا على هذا ، فالواجب أن نعتقده .

« اللَّوح المَحْفُوظ » : وُصف بذلك لأَنَّه محفوظ من أَيْدى الخلق فلا يمكن أن يُلْحق أَحد به شيئًا أو يُغَيِّر به شيئًا أبدًا . ثانيًا : محفوظ من التَّغيير فالله عزَّ وجل لا يغير فيه شيئًا ، لأنه كتب عن علم مِنْهُ كما سيذكره المؤلف ولهذا قال شيخ الإسلام رحمه الله : « إنَّ المَكْتُوب فى اللَّوح المَحْفُوظ لا يَتَغَيَّر أبدًا » وإنما يَحْصُل التَّغْيير فى الكُتب التى بأيدى المَكْتُوب .

« مَقَادِير الخَلْق » أَى مَقَادير المخلوقات كُلّها ، وظاهر النُّصوص أَنَّه شمل ما يفعله الإنسان ، ومَا يفعله البَهَائم ، وأَنَّه عَام وشَامِل ، ولكن هل هذه الكتابة إجمالية أو تفصيلية ؟

هذه قد نقول : إننا لا نجزم بأَنَّها تَفْصيلية أو إجمالية فمثلاً : القرآن الكريم هل هو مكتوب فى اللَّوح المحفوظ بهذه الآيات والحروف أو أن المكتوب فى اللَّوح ذكره وأَنَّه سينزل على محمد ﷺ وأَنَّه سيكون نورًا وهُدًى للنَّاس وما أشبه ذلك . ففيه احتمال إن نظرنا إلى ظاهر النُّصوص قلنا إن ظاهرها أن القرآن كله مكتوب جملة وتفصيلاً . وإن نظرنا إلى أن الله سبحانه وتعالى يتكلَّم بالقرآن حين نزوله . قلنا : إنَّ الذى كتب فى اللَّوح المحفوظ ذكر

القرآن . ولا يلزم من كون ذكره فى اللوح المحفوظ أن يكون قد كتب فيه ولهذا قال الله تعالى عن القرآن : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِى زُبُرِ الأَوَّلِينَ ﴾ [الشعراء : ١٩٦] يعنى كُتُب الأولين ، ومعلوم أن القرآن لم يوجد نَصُّه فى الكتب السابقة ، وإنما وُجد ذِكْرُه ، ويمكن أن نقول مثلها قوله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِى لَوحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ [البروج : ٢١ ، ٢٢] أى ذِكْرُه فى هذا اللَّوح ، فالمهم أن نُؤْمن بأن مقادير الخلق مكتوبة فى الّلوح المحفوظ ، وأن هذا اللَّوح لايتغير ما كتب فيه ، لأنَّ الله أَمَرَهُ أن يَكْتُب ما هو كائن إلى يوم القيامة .

* * *

● **قال المؤلف : « فَأَوَّل مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمَ قال لَهُ : اكْتُب . قال : مَا أَكْتُب . قَالَ : اكْتُب مَا هُو كَائِن إلى يَوْمِ القِيَامَةِ »**(١) .

قوله : « فَأَوَّل مَا خَلَقَ اللهُ القَلم قال له اكْتُب » فأَمَرَهُ أن يَكْتُب مع أَنَّ القلم جماد فكيف يُوَجِّه الخطاب إلى الجماد ؟

والجواب عن ذلك : أن الجماد بالنِّسبة إلى الله عاقل يَصِحُّ أَن يُوَجَّه إليه الخطاب قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائتِيَا طَوْعًا أَو كَرْهًا قَالَتَا أَتَينا طَائِعِينَ ﴾ [فصلت : ١١] . فوجَّه الخطاب إليهما وذكر جوابهما وقال تعالى : ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء : ٦٩] فكانت كذلك . وقال تعالى : ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُ وَالطَّيْر ﴾ [سبأ : ١٠] والحاصل أنَّ الله أَمَر القلم أن يَكْتُب ، وقد امتثل القلم ، لكنه أشكل عليه لأن الكلام مُجمل .

---

(١) حدِيثٌ صَحِيحٌ : رواه أحمد (٣١٧/٥) ، وأبو داود (٤٧٠٠) والترمذى (٢١٥٥) ، (٣٣١٩) وقال : « حَدِيثٌ حَسَنٌ غريب » وصحَّحه الألبانى لطرقه وشواهده فى تخريج السنة لابن أبى عاصم (١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥) .

« قال : مَا أَكْتُب ؟ » أى أَىُّ شىء أكتب .

« قال : اكْتُب مَا هُو كَائِن إلى يَوْم القِيَامَة » : فَكَتَبَ القَلم بِأَمْر الله ما هو كائن إلى يوم القِيامة فانظر كيف عَلِم القلم مَاذَا يكون إلى يوم القيامة فَكَتَبَهُ لأَنَّ أمر الله عزَّ وجل لا يُرَدّ .

* * *

● **قال المؤلف : « فَمَا أَصَابَ الإِنْسَان لَم يَكُن لِيُخْطِئه ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَم يَكُن لِيُصِيبُه » .**

إذا آمنت بهذه الجملة اطمأننت مَا أَصاب الإنسان لم يكن لِيُخْطِئه أبدًا .

ومعنى « مَا أَصَابَ » يحتمل أن المعنى ما قدّر أن يُصيبه فإنه لن يُخْطِئَهُ ، ويحتمل أن مَا أَصَابَهُ بالفعل لا يمكن أن يُخْطِئه حتى لو تمنَّى الإنسان .

« وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُن لِيُصِيبه » : أَى مَا قُدِّر أن يخطئه فإنه لم يكن ليصيبه ، وليس المعنى مَا أَخْطَأه بالفعل ؛ لأَنَّه معروف أَنَّه غير صائب .

* * *

● **قال المؤلف : « جَفَّت الأَقْلَام وَطُوِيَت الصُّحُف » .**

الأَقلام : هى أَقْلام القَدَر التى كتب الله بها المَقَادير جَفَّت وانتهت .

والصُّحف : طُوِيت وهذا كِنَاية عن أَنَّ الأَمْر انتهى .

* * *

● **قال المؤلف : « كما قال الله تعالى ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾** [**الحج : ٧٠**]

﴿ أَلَم تَعْلَم ﴾ أَيُّها المخاطب ﴿ إِنَّ ذَلِكَ فِى كِتَاب ﴾ وهو اللَّوح المَحْفوظ ﴿ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى الله يَسِير ﴾ أى الكِتابة على الله أَمْرٌ يسير .

* * *

● **قال المؤلف:« وقال ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾**

[**الحديد : ٢٢**] .

﴿ نَبْرَأَهَا ﴾ أَى من قبل أن نَخْلقها والكتاب هو اللَّوح المحفوظ ، والضَّمير فى ﴿ نَبْرَأَهَا ﴾ يحتمل أَن يَعُود على المصيبة ، ويحتمل أن يعود على الأَنْفُس ، ويحتمل أن يعود على الأرض والكل صَحِيح ، فالمُصِيبة قد كتبت قبل أن يَخْلقها الله عز وجل ، وقبل أن يخلق النَّفس المُصَابة ، وقبل أن يخلق الأَرْض .

* * *

● **قال المؤلف : « وهذا التَّقْدير التَّابع لِعِلْمِه سُبحانه يَكُون فى مَوَاضع جُمْلة وتَفْصِيلاً » .**

قوله « فِى مَوَاضع » : يعنى مَوَاضع غير اللَّوح المحفوظ .

* * *

● **قال المؤلف : « فَقَد كَتَب فى اللَّوْح المَحْفُوظ ، وَإِذا خلق جسد الجنين قبل نفخ الرَّوح فيه بَعَث إِليه مَلَكًا فيؤمر بِأَرْبَع كَلِماتٍ فيُقال له : اكْتُب رِزْقَهُ وَأَجَله وَعَمَله وشَقِىٌّ أَوْ سَعِيد ونحو ذلك »** .

هذه كتابة أُخرى ، وتسمَّى عند أهل العلم الكتابة العُمرية نسبة إلى العمر قوله : « وَنَحو ذَلِكَ » : فبقى عندنا تقديرٌ ثَالِث وهو التَّقدير الحولِى الذى يكون فى ليلة القدر ؛ فإنَّ ليلة القدر يكتب فيها ما يكون فى تلك السَّنة كما قال تعالىٰ ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حكِيم أَمْرًا مِن عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِين ﴾ [الدخان : ٤ ، ٥] .

* * *

● **قال المؤلف : « فَهذَا التَّقْدِير قَدْ كَانَ يُنْكِرُه غُلَاةُ القَدرِيَّة قَدِيمًا وَمُنْكِرُوه اليوم قَلِيل »** .

هذا التَّقدير يعنى العِلْم والكِتَابة يُنْكِرُه غُلَاةُ القَدَرِيَّة مثل غَيْلان الثقفى ومَعْبد الجهنى ويقولون : إِنَّ الله لا يعلم أَفعال العبد إِلَّا بعد وُجُودها وأنها لم تُكْتَب ويقولون إن الأمر أُنُف . أى مُسْتَأْنف .

أَمَّا بالنِّسبة لأفعال الله فلا أَحَد ينكر أَنَّ الله عَالِمٌ بها من قَبْل وُقُوعها .

وَهؤلاءِ الَّذين يُنْكِرُون عِلْم الله بِأَفْعَال العَبْد حُكْمُهم فى الشَّرع أَنَّهم كُفَّار لأَنَّهم كَذَّبوا قول الله تعالى : ﴿ والله بكل شىء عليم ﴾ [البقرة : ٢٨٢] وغيرها من الآيات .

* * *

الدَّرجــة الثَّانيــة من درجات القدر وما تضَمَّنَتْهُ

٢٢٧ – وَأَمَّا الدَّرَجَةُ الثَّانِية : **فهى** مَشِيئَةُ اللهِ النَّافِذة ، وَقُدْرَتُه الشَّامِلة ، وهو الإيمان بأَنَّ مَا شَاءَ الله كَانَ وَمَا لم يَشأْ لَم يَكُن .

٢٢٨ – وَأَنَّه ما فى السَّموات وَمَا فِى الأَرْض مِن حَرَكَةٍ وَلَا سُكُون إِلَّا بِمَشِيئَةِ الله سبحانه .

٢٢٩ – لا يَكُون فى مُلْكِه مَا لَا يُريد .

٢٣٠ – وَأَنَّه سُبْحَانه عَلَى كُلِّ شَىءٍ قَدِير من المَوْجُودات والمَعْدُومات .

٢٣١ – فما مِن مَخْلُوقٍ فى الأَرْض ولَا فِى السَّمَاء إِلَّا الله خَالِقُه سُبحانه لا خَالق غَيْره ولا رَبَّ سِوَاهُ .

الشـــــرح

● قال المؤلف : « **وَأَمَّا الدَّرَجَةُ الثَّانية : فهى مَشِيئَةُ الله النَّافِذة ، وقُدْرَتُه الشَّامِلة ، وهو الإيمان بأنَّ مَا شَاءَ الله كَان ، وَمَا لَم يَشأْ لَمْ يَكُن ، وَأَنَّه مَا فِى السَّمواتِ وَمَا فِى الأَرْض مِن حَرَكَةٍ وَلَا سُكُون إِلَّا بِمَشِيئَةِ الله سُبْحانه** » .

يعنى أن تؤمن بِمَشِيئة الله النَّافِذَة وَبِقُدْرَتِه الشَّاملة .

وهذه الدَّرجة تتضمن شَيْئَيْن : المَشِيئَة والخَلق :

- أَمَّا المَشِيئة : فيجب أن نُؤْمن بأَنَّ مَشِيئة الله شَامِلة لِكُلِّ شيء .

- أَمَّا كونها شَامِلة لِأَفْعَالِه فَالأَمْرُ فيها ظَاهِر . أَمَّا كَوْنُها شَامِلة لِأَفْعَال العَبْد فلأن العبد مِلْكٌ لله تعالىٰ ولا يكون فى مُلْكِهِ إِلَّا مَا شَاء . والدَّليل على هذا قوله تعالى ﴿ فَلَو شَاءَ لَهَدَاكُم أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنعام : ١٤٩] ، فالهداية من فِعْله .

﴿ وَلَو شَاءَ رَبكَ لَجَعَلَ النَّاس أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ [هود : ١١٨] . الجَعْلُ من فعله ومن أفعال العباد .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَو شَاءَ الله مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِم مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيّنَاتُ وَلَكِنِ اختَلَفُوا فَمِنْهُم مَنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَو شَاءَ الله مَا اقتَتَلُوا ﴾ [البقرة : ٢٥٣] . وهذا يدلُّ على أن أفعال العِبَاد مُتَعَلِّقة بمشيئة الله .

وقال عز وجل : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ الله ﴾ [الإنسان : ٣٠] .

فهذه الأدلة كلها تدلُّ على أَن مَا وَقَع من فِعْل الله أَوْ فعل العِبَاد فهو دَاخِل تحت مَشِيئة الله عز وجل .

* * *

● **قال المؤلف : « لَا يَكُون فِي مُلْكِهِ مَالَا يُرِيدُ »** .

هذه العبارة تحتاج إلى تَفْصيل . لايكون فى ملكه مَا لا يريد بالإِرَادَة الكونية .

أَمَّا بالإِرَادة الشَّرعِيّة فيكون فى مُلْكِه مَالَا يُريد .

وحينئذ نحتاج إلى أن نُقَسِّم الإرادة إلى قسمين : إِرَادة كَوْنِية ، وَإِرَادَة

شَرْعية . تختلف الإرادتان فى موجبهما وفى متعلقهما .

ففى المتعلق : الإرادة الكونية تتعلَّق فيما وقع سواء أَحَبَّه أَمْ كَرِهَهُ ، والإرادة الشَّرعية تتعلّق فيما أحبه سَواء وَقَعَ أَمْ لَمْ يَقَع .

وفى موجبهما : الإِرَادَة الكَوْنِيّة يِتَعيّن فيها وُقُوع المراد . والإرادة الشَّرعية لا يتعيَّن فيها وُقُوع المراد .

إذا قال قائل : هل يكون فى ملك الله مَا لَا يُريد ؟

نقول : إن أَردت بالإرادة الإرادة الكونية فكلامُك صَحِيح ، وإن أَردت الإرادة الشَّرعية فهذا خطأ لأَنَّه يكون فى مُلك الله مَا لا يُريد شرعًا . فالمعاصى الوَاقِعة مُرَادَةٌ لله كَوْنًا غير مُرَادَةٌ شَرْعًا فكانت فى مُلْك الله مع أنه لا يُرِيدُها شَرْعًا .

* * *

● **قال المؤلف** : « **وَأَنَّه سُبْحَانَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير مِن المَوْجُودات وَالمَعْدُومَات** » .

كُلُّ شيء فالله قادرٌ عليه من الموجودات فيعدمها أَوْ يغيرها ، ومن المعدومات فيوجدها ، فالقدرة تتعلَّق فى الموجود بإيجَادِه ، وفى الموجود بِتَغْيِيره وفى المعدوم ، فمثلاً كل الموجود فالله قَادِرٌ أن يعدمه ، وقادر أن يغيره أى ينقله من حال إلى حال ، والمعدوم قادر على أن يُوجده مَهْما كان كما قال الله تعالى : ﴿ عَلَى كُلِّ شَىءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة : ٢٠] .

ذكر بعض العلماء استثناء من ذلك وقال : الآذان ! الله ليس عليها بقادر وقلنا له ما الدَّليل على تخصيصك ؟ قال : العقل . فهل هذا صحيح ؟!

فنقول : ماذا تُريد بأَنَّه غير قادر على ذاتــه إن أَردت أَنَّه غير قادر على أن يَجْعَل من ذَاتِه نَقْصًا فنحن نُوافِقُكَ عَلَى أَنَّ الله لا يَلْحَقُه النَّقص لكننا لا نُوَافِقُك على أن هذا مما تعلق به القدرة ؛ لأَنَّ القدرة إِنَّما تتعلَّق بالشَّيء الممكن ، أما الشيء الواجب وُجوده أَو المُستحيل ، فهذا لا تتعلَّق به القدرة .

فلو قال : هل تقولون أَن الله قَادِر على أن يَعْدم نفسه ؟

فنقول : هذا شيء غير مُمْكِن لأن العدم مُسْتَحِيل ، والوجود وَاجب ، فهو من الجِهَتَيْن لا تتعلَّق به القدرة ، لأَنَّ مَا وَجَب وُجُوده امتنع عدمه .

وإن أَردت بقولك أَنَّه غير قادر على ذاته أَنَّه غير قادر على أَنَّه يفعل فلا يَقْدر أن يَجِيء ونحوه فهذا خَطَأ بل هو قَادِر على ذلك وفاعل له ، ولو قلنا أَنَّه ليس بقادر على مثل هذه الأَفْعَال لكان ذلك من أَكْبر النَّقْص الممتنع على الله سبحانه .

والأَسْلَم بلاشك أَلَّا تَرِد هذه العِبَارة أَصْلاً ونقول : هو على كل شيء قدير .

قال المُؤلف : « إِنَّ الله سُبْحَانَهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدير من المَوْجُودات والمَعْدُومَات » .

وإِنَّما نصَّ على هذا رَدّاً على القدرية الذين قالوا إِنَّ الله ليس بقادر على فِعْل العَبْد وأن العبد مُسْتَقِلٌ بعمله ، ولكن ما فى الكتاب والسُّنَّة من شُمُول قُدْرَة الله يَرُدُّ عليهم .

* * *

● **قال المؤلف : « فَمَا مِن مَخْلُوقٍ فِى الأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَاء إِلَّا الله خَالِقُه سُبْحَانَهُ لَا خَالِقَ غَيْرُه وَلَا رَبَّ سِوَاه » .**

وهذا صَحِيحٌ بلا شَكّ قال الله تعالىٰ : ﴿ أَم خلِقُوا مِن غَيرِ شَيءٍ أَم هُمُ الخَالِقُونَ ﴾ [الطور : ٣٥] وقال تعالى : ﴿ أَم خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ

بَل لا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور : ٣٦] ، فلا يمكن أن يوجد شيء فى السَّماء والأَرْض إلا الله خالقه وَحْدَهُ ، ولقد تَحدَّى الله العَابِدين للأَصنام تَحَدِّيًا أُمِرْنَا أَنْ نستمع له فقال ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدعُونَ مِن دُون الله لَن يَخلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجتَمَعُوا لَهُ ﴾ [الحج : ٧٣] .

ومعلوم أَنَّ الذين يَدْعُون من دُون الله فى القِمَّة ؛ لأَنَّهم اتَّخَذُوهم أَرْبَابًا ، فإذا عَجَزَ هؤلاء القِمّة عن أَنْ يَخْلُقوا ذبابًا وهو من أَخس الأشياء فما فوقه من باب أولى . كذلك قال : ﴿ وَإِنْ يَسلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيئًا لَا يَستَنقِذُوهُ مِنهُ ﴾ [الحج : ٧٣] فيعجزون حتى عن مُدافعة الذُّباب وأخذ حَقِّهم مِنْهُ .

فإن قيل : كيف يَسْلُب الذُّباب هذه الأَصْنام ؟!

فالجواب : قال بعض العلماء : إِنَّ هَذَا من باب التَّقْدِير ، يعنى على فَرْض أَنْ يَسْلبهم الذُّباب شيئًا لا يَسْتَنْقِذُوه منه . وقال بعضهم : بل المراد مَا يَسْلِبُه الذُّباب من الأطياب التى تجعل على هذه الأَصْنام فيقع الذُّباب على هذه الأصنام ويَمْتص ما فيها من أَطْياب فلا تستطيع الأَصْنَام أن تخرج مَا امْتَصَّه الذُّباب .

إِذًا : ما من مخلوق فى السَّمَاوات والأَرْض إِلَّا الله خَالِقُه وَلا أَحد يَدَّعى أَنَّه خالق مع الله ، ولو ادَّعى لقلنا له اخلق ذُبَابًا فلا خالق غير الله عزَّ وجل ولا ربَّ سواه .

وهذه هى الشَّىء الثَّانى فى الدَّرجة الثَّانية ، وهو الإيمان بِعُموم خَلْق الله عز وجل وأَنَّه خَالِقُ كل شىء حتى أَعمال العباد لقوله تعالى : ﴿ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَىءٍ ﴾ [الرعد : ١٦] وفعل الإنسان من الشَّىء . وقال تعالى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىءٍ فَقَدَّرَهُ تَقدِيرًا ﴾ [الفرقان : ٢] والآيات فى هذا كثيرة .

وجاءت الآية نصّاً فى الموضوع وهو خَلْق أَفْعَال العباد فقال إبراهيم لقومه : ﴿ وَاللهُ خَلَقَكُم وَمَا تَعمَلُونَ ﴾ [الصافات : ٩٦] .

﴿ ما ﴾ اسم موصول ، أى خلقكم وخلق الَّذى تعملونه .

فإذا قال قائل : كيف يمكن أن نقول إنَّ فى الآية دَلِيلاً على خلق أَفْعَال العِباد على هذا التَّقدير : أَنَّ ﴿ مَا ﴾ موصولة ؟

فالجواب : إنّه إذا كان المعمول مخلوقًا لله لَزِمَ أن يكون عمل الإنسان مخلوقًا ؛ لأَنَّ المعمول كان بعمل الإنسان ، أمَّا على تقدير ﴿ مَا ﴾ مصدرية فالأمر فيها ظاهر جدًا ؛ لأَنَّ تقدير الكلام على كونها مَصْدَرِيّة ﴿ وَاللهُ خَلَقَكُم وَمَا تَعملُونَ ﴾ [الصافات : ٩٦] وحينئذ تكون نصّاً فى أَنَّ عمل الإنسان مخلوق لله عزَّ وجلَّ .

فإذا قال قائل : أَنَا أُعَارِض فى دِلَالة هذه الآية على خَلْق أَعْمَال الإنسان ، لأَنَّ الآية يحتمل أن تكون ﴿ مَا ﴾ مصدرية ، ويحتمل أن تكون مَوْصُولة ، فإذا كانت موصولة كان المعنى : « وَاللهُ خَلَقكم وخَلَق الَّذى تَعْمَلُونه » ونحن نعلم أن هذه الأصنام أصْلاً خَشَب أَوْ حَجَر مَخْلوق لله عزَّ وجل ؟

فالجواب : أن نقول : مَادَام هذا العمل مَخْلُوقًا وهو ناتج عن فِعْل العَبد كان فعل العبد مَخْلُوقًا ، أَمَّا على تقدير « ما » مصدرية فالأَمْر فيها وَاضِح . هذا دَلِيلٌ أَثَرِى على أَنَّ فِعْل العبد مَخْلوق لله عز وجل . والدَّليل العقلى أن نقول : إنَّ فعل العبد نَاشِيء عن أَمْرَين : عَزِيمَةٌ صَادِقة وَقُدْرَةٌ تامَّة .

مثال ذلك : أردت أن أعمل عَمَلاً من الأعمال فلا يُوجد هذا العمل حتى يكون مَسْبُوقًا بِأَمْرَيْن هما العزيمة الصَّادقة على فعله ؛ لأَنَّك لو لم تَعْزِم مَا فَعَلته .

الثَّانى : القُدرة التَّامة ؛ لأنك لو لم تقدر ما فعلته فالَّذى خلق فيك هذه القدرة الله عزَّ وجلَّ ، وهو الذى أَوْدَعَ فيك العزيمة قالوا ، وخالق السَّبب التَّام خالق للمُسَبَّب .

وَوَجْهٌ ثَانى عقلى : أَنْ نَقُول : الفِعلِ وَصْفُ الفَاعل والوَصْفُ تَابعٌ للموصوف فكما أَنَّ الإنسان بِذَاتِهِ مَخْلُوق فَأَفْعَالُه مَخْلُوقة ، لأَنَّ الصِّفة تابعة للموصوف إذا كان الدَّليل على أَن عمل الإنسان مخلوق لله وداخل فى عموم الخلق أثريًا ونظريًا .

والدَّليل الأثرى قِسْمَان عَام وَخاص ، والدَّليل النَّظرى قسمان .

وقوله : « لا خَالِقَ غَيْره » إنْ قُلْت هذا الحصر يرد عليه أن هناك خالقًا غير الله ، فالمصوِّر يعتبر نفسه خالقًا بل جاء فى الحديث أَنَّه خالق « فَإِنَّ المُصَوِّرِينَ يُعَذَّبُونَ يُقَالُ لَهُم : أَحْيُوا مَا خَلَقْتُم ؟ »(١) وقال عزَّ وجلَّ : ﴿ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون : ١٤] . فهناك خَالق لكن الله تعالى هو أَحْسَنُ الخَالِقِين فما الجواب عن قول المؤلف وقول غيره ؟

الجواب : أَنَّ الخلق الَّذى نَنْسِبُه إلى الله عزَّ وجلَّ هو الإيجاد ، فلا أَحد يُوجِد إلا الله عَزَّ وجلَّ وَمَا قِيل أَنَّه خَلَق بالنسبة للمخلوق فهو عبارة عن تَحْويل شىء من صفة إلى صفة فالخَشَبَة مثلاً بدلاً من أن كانت فى الشَّجرة تحول بالنِّجارة إلى باب فَتَحْويلها إلى بَاب يُسَمَّى خَلْقَاً ، لكنَّه ليس الخلق الذى يَخْتَصُّ به الخالق وهو الإيجاد من العدم .

وقوله « لا رَبَّ سِوَاهُ » أى أَنَّ الله وَحْدَهُ هو الرَّب المدبِّر لجميع الأُمور ، وهذا حَصْرٌ حَقِيقى ، ولكن رُبما يَرِد عليه أَنَّه جاء فى الأحاديث

---

(١) البخارى (٥٩٥١) ومسلم (٢١٠٨) (٩٧) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما .

إثْبات الرُّبوبية لغير الله ، ففى لَقْطَة الإبل قال النَّبى ﷺ : « دَعْهَا ، مَعَها سِقَاءُها وَحِذَاؤهَا تَرِدُ المَاءَ ، وَتَأْكُل الشَّجَر حتَّى يجدها رَبُّها »[1] . ورَبُّها : صاحبها .

وجاء فى بعض ألفاظ حديث جبريل يقول : « حتى تلد الأَمةُ رَبَّها »[2] . فما هو الجمع بين هذا وبين قولنا : لا ربَّ إلا الله ؟

نقول : إنَّ الرُّبوبية هنا رُبُوبية مُقَيَّدة وَقَاصِرة وَرُبُوبية الله عَامَّة كاملة كُلُّ شيء فالله رَبُّه ، وكذلك رُبُوبية الله عزَّ وجل تَامَّة مُطلقًا ولهذا يُقَدِّر الله عز وجل الجَذْب ، والمرض ، والموت ، والجُروح فى الإنسان ، وفى الحيوان ونقول هذا غاية الكَمال والحِكْمَة .

* * *

(١) البخارى (٢٤٢٩) ومسلم (١٧٢٢) (١) من حديث زيد بن خالد رضى الله عنه .

(٢) رواه مسلم (٨) (١) من حديث عمر بن الخطاب ولفظه « أن تلد الأمة ربَّتها » والبخارى (٥٠) ، (٤٧٧٧) ومسلم (٩) وراجع جامع العلوم والحكم لابن رجب (١٣٦/١ ، ١٣٧) .

لا تَعَارُض بين القَدر والشَّرع ولا بيْن تقْدير الله للمعاصى وبُغْضه لهـــا .

٢٣٢ - وَمَعَ ذَلِك فَقَد أَمَرَ العِبَاد بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رسُله ، وَنَهَاهُم عَن مَعْصِيَتِهِ .

٢٣٣ - وَهُو سُبْحَانَهُ يُحِبُّ المُتَّقِين وَالمُحْسِنِين وَالمُقْسِطِينَ .

٢٣٤ - وَيَرْضَىٰ عَن الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحات وَلَا يُحِبُّ الكَافِرين .

٢٣٥ - وَلَا يَرْضَىٰ عن القوم الفَاسِقِين ، وَلَا يَأْمُر بِالفَحْشَاءِ .

٢٣٦ - وَلَا يَرْضَىٰ لِعبادِهِ الكُفْر ، وَلَا يُحِبُّ الفَسَاد .

الشـــرح

● **قال المؤلف : « وَمَعَ ذَلِكَ فَقَد أَمَرَ العِبَاد بِطَاعَتِهِ وَطَاعَة رُسُلِهِ وَنَهَاهُم عَنْ مَعْصِيَتِهِ »** .

يَعْنى وَمَعَ عُموم خلقه ورُبُوبيته لم يترك العباد هَملاً ، ولم يَرْفع عنهم الاختيار بل أَمَرهم بطاعته ، وطَاعَةِ رُسُله ونهاهم عن مَعْصيته ، وأَمره بذلك أمر بممكن فالمأمور مَخْلُوق لله عزَّ وجل وفِعْله مَخْلُوق لله ، ومع ذلك يُؤْمَرُ ويُنْهَىٰ ولو كان الإنسان مُجبرًا على عمله لكان أَمْرُه أَمْرًا بغير ممكن والله عزَّ وجلَّ يقول : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفسًا إِلَّا وُسعَهَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] ويقول تعالى : ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفسًا إِلَّا وُسعَهَا ﴾ [الأنعام : ١٥٢] . وهذا يدلُّ على

أنَّهم قَادرون على فِعْل الطَّاعة ، وعلى تَجَنُّب المَعْصِية ، وأنَّهم غير مُكْرَهِين عَلَىٰ ذلك .

* * *

● **قال المؤلف : « وَهُو سُبْحَانَهُ يُحِبُّ المُتَّقِينَ وَالمُحْسِنِينَ وَالمُقْسِطِينَ » .**

الله عزَّ وجلَّ يحبُّ المحسنين لقوله تعالى :﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ الله يُحِبُّ المُحسنِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٥] والمتَّقِين لقوله ﴿ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُم فَاستَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ الله يُحِبُّ المُتَّقِينَ ﴾ [التوبة : ٧] . وكذلك المُقْسِطِين لقوله : ﴿ وَأَقسِطُوا إِنَّ الله يُحِبُّ المُقسِطِينَ ﴾ [الحجرات : ٩] فهو عز وجل يحب هؤلاء ، ومع ذلك هو الَّذى قَدَّر لهم هذا العَمَل الذى يُحِبُّه .

* * *

● **قال المؤلف : « وَيَرْضَىٰ عن الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُوا الصَّالِحات وَلَا يُحِبُّ الكَافِرين » .**

يَرْضَىٰ عن الَّذين آمَنُواْ وَعَمِلُوا الصَّالحات والدَّليل قوله تعالَىٰ ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلونَ مِنَ المُهاجِرِينَ والأَنصَار والَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحسَانٍ رَّضِيَ الله عَنهُم وَرَضُوا عَنهُ ﴾ [التوبة : ١٠٠] وقال تعالَىٰ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُم خَيرُ البَرِيَّة جَزَاؤُهُم عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدنٍ تَجرِى مِن تَحتِهَا الأَنهارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِىَ الله عَنهُم وَرَضُوا عَنهُ ﴾ [البينة : ٧ ، ٨] . ولا يُحِبُّ عز وجل الكافرين والدَّليل قوله تعالى : ﴿ فَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّ الله لَا يُحِبُّ الكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٣٢] . مع أَنَّ الكُفْر وَاقِعٌ بمشيئَتِهِ لكن لَا يَلْزَم من وُقُوعه بِمَشِيئَتِهِ أن يكون مَحْبوبًا له سبحانه وتَعَالَىٰ .

* * *

● **قال المؤلف : « وَلَا يَرْضَىٰ عن القَوْمِ الفَاسِقِين ، وَلَا يَأْمُر بِالفَحْشَاء » .**

قوله : « وَلَا يَرْضَىٰ عَنِ القَوْمِ الفَاسِقِين » والدَّليل قوله تعالىٰ : ﴿ فَإِن ترضوا عنهُم فَإِنَّ اللهَ لَا يَرضَى عَنِ القَومِ الفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة : ٩٦] . والفَاسق : هو الخارج عن طاعة الله وقد يُرَادُ به الكافر ، وقد يُرَادُ به العَاصي . ففي قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن كَانَ مؤمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَا يَستَوُونَ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُم جَنَّاتُ المَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُم النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ [السجدة : ١٨-٢٠] فالمراد بالفِسْق الكُفر ، وأَمَّا قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّها الَّذِينَ آمنُوا إِنْ جَاءَكُم فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبيَّنُوا ﴾ [الحجرات : ٦] فالمراد بالفسق المعصية ، فالله عزَّ وجل لا يَرْضَىٰ عن القوم الفاسقين لا هَؤُلاء ولا هَؤُلاء لكن الفاسقين بمعنى الكَافرين لا يَرْضَىٰ عنهم مُطلقًا . وأَمَّا الفاسقون بمعنى العُصَاة فلا يَرْضَىٰ عنهم فيما فَسقُوا فيه ويَرْضَىٰ عنهم فيما أَطَاعوا فيه .

قوله « وَلَا يأْمُر بِالفحشاء » والدَّليل قوله تعالى ﴿ قُل إِنَّ اللهَ لَا يأْمُرُ بالفحشَاءِ ﴾ [الأعراف : ٢٨] لأَنَّهم إِذا فَعَلُوا فَاحِشة قالوا ﴿ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَائَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ [الأعراف : ٢٨] . فاحتجُّوا بأمرين فقال الله تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ [الأعراف : ٢٨] وسكت عن قوله : ﴿ وَجدنا عَلَيهَا آبَاءَنَا ﴾ [الأعراف : ٢٨] لأَنَّ قولهم : ﴿ وَجدنا عَلَيهَا آبَاءَنَا ﴾ حقٌّ لا يُنْكَر ، لكن ﴿ وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ كَذِبٌ . ولهذا قال ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِالفَحشَاءِ ﴾ [الأعراف : ٢٨] ولم يَقُل : ولم يَجِدُوا عليها آبَاءَهم ، لأَنَّهم قد وَجَدُوا عليها آباءهم .

* * *

● **قال المؤلف : « وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الكُفْر ، وَلَا يُحِبُّ الفَسَاد » .**

قوله : « وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الكُفْر » الدَّليل قوله تعالى : ﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنكُم وَلَا يَرضى لِعِبَادِهِ الكُفْرَ ﴾ [الزمر : ٧] . لكن يُقَدِّر أَنْ يَكْفُرواْ ، وَلَا يَلْزَم من تَقْدِيره الكُفْر أَن يكون رَاضيًا به سبحانه وتعالىٰ ، بل يُقَدِّره وهو يَكْرَهُه ويسخطه .

قال : « وَلَا يُحِبُّ الفَسَاد » دَلِيل ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفسدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾ [البقرة:٢٠٥] .

كرَّر المؤلف مثل هذه العبارات لِيُبَيِّن أَنَّه لا يلزم من إرَادَته الشَّيء أَن يكون مَحْبُوبًا له ، ولا يَلْزَم من كَرَاهَتِهِ للشَّيء أن لا يكُون مُرَادًا له بالإرادة الكَوْنية بل هو عزَّ وجل يكره الشَّيء ويُرِيدُه بالإِرَادَة الكَوْنِيّة ، ويُوقع الشَّيء ولا يَرْضَىٰ عنه ، ولا يُرِيده بالإرادة الشَّرعية .

فإن قلت : كيف يُوقع مَالَا يَرْضَاه وَمَا لَا يُحِبُّه ؟ وهل أَحدٌ يُكرِهُه **على أن يُوقِع ما لا يُحِبُّه وَلَا يَرْضَاه ؟ .**

فالجواب : لا أَحَد يُكرِهُه على أن يُوقع مَالَا يُحِبُّه ولا يَرْضَاهُ ، وهذا الذى يَقَع من فِعْله عزَّ وجلَّ ، وهو مَكْرُوه لَهُ ، هو مَكْرُوه لَهُ مِن وَجْه مَحْبُوب له من وَجْه آخر لِمَا يَترتب عليه من المَصَالح العَظِيمة ؛ فمثلاً : الإيمان مَحْبُوب لله والكفر مَكْرُوه له فَأَوْقَعَ الكفْر وهو مَكْرُوه له لمَصْلَحة عظيمة ، لأَنَّه لولا وُجُود الكفر مَا عُرِفَ الإيمَان ، وَلَوْلا وُجود الكُفر مَا عَرَف الإنْسَان قَدْر نِعْمة الله عَلَيْه بالإيمان ولولا وُجود الكفر مَا قَامَ الأَمْر بالمعروف والنَّهى عن المنكر ؛ لأَنَّ الناس كلهم يكونون على المعروف ، لَوْلا وُجُود الكفر مَا قَام الجِهَادُ ، وَلَوْلا وُجُود الكفر لكان خَلْقُ النارعَبَثًا لأَنَّ النَّار

مَثْوَىٰ الكافرين ، وَلَوْلا وُجُود الكفر لكان النَّاس أُمَّة واحدة و لم يَعْرِفُوا مَعْروفًا و لم يُنكروا مُنكرًا .

وهذا لاشك أَنَّه نحل بالمجتمع الإنسانى ، لَوْلَا وجود الكفر مَا عُرِفَت وِلَاية الله ، لأَنَّ من وِلَاية الله أن تَبْغَض أَعْداء الله ، وأَنْ تُحِبَّ أَوْلِياء الله ، وكذلك الصِّحة والمرض . فالصِّحة محبوبة للإنسان ومُلَائِمة له ، وَرَحمة الله تعالىٰ فيها ظاهرة لكن المرض مَكْرُوه للإنسان وقد يكون عُقُوبة مِن الله له ، ومع ذلك يُوقعه لما فى ذلك من المَصَالح العظيمة كم من إنسان إذا أَسْبَغَ الله عَليه النِّعمة بالبدن والمال والولد والبيت والمركوب تَرَفَّع ورأى أَنه مُسْتَغْن بما أَنعم الله به عليه عن طاعة الله عزَّ وجل كما قال تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ أَن رَآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴾ [العلق : ٦ ، ٧] وهذه مَفْسَدةٌ عظيمة فإذا أراد الله أن يَرُدَّ هذا الإنسان إلى مكانه ابتلاه حَتَّى يرجع إلى الله ، وشاهد هذا قوله تعالى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسادُ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاس لِيُذِيقهُم بَعْض الَّذِى عَملُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُون ﴾ [الروم : ٤١] وأَنت أَيُّها الإنسان إذا فكَّرت هذا التفكير الصَّحيح فى تقديرات الله عزَّ وجل عرفت مَالَهُ سبحانه وتعالى من الحكمة فيما يُقَدِّره من خَيْرٍ أَوْ شَرّ ، وأَنَّ الله سبحانه وتعالى يَخْلق مَا يَكْرَهُه ويُقَدِّر مَا يَكْرَهُه لِمَصالِح عَظِيمة قد تُحيط بها ، وقد لا تُحيط بها ويُحيط بها غَيْرُك وقد لا يُحيط بها لا أَنْتَ ولا غيرك .

* * *

إثبات القدر لايُنَافى إسناد أفعال العباد إليهم حقيقة وأنَّهـم يفعلونها باختيارهم .

٢٣٧ - وَالعِبَادُ فَاعِلون حَقِيقَةً والله خَالِقُ أَفْعَالهم .

٢٣٨ - وَالعَبْدُ : هو المُؤْمن والكَافر ، والبَرّ والفَاجِر ، والمُصَلِّى والصَّائم .

٢٣٩ - وللعباد قُدْرَة على أَعْمَالهم ، ولهم إرَادة ، والله خَالِقُهم وخَالِقُ قُدْرَتِهم وإرَادَتهم .

٢٤٠ - كَمَا قَالَ تعالىٰ : ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [التكوير : ٢٨ ، ٢٩] .

٢٤١ - وَهَذِهِ الدَّرَجة من القَدَر يُكَذِّب بها عامَّة القَدَرِيّة الَّذِين سمَّاهم النَّبى ﷺ مَجُوس هَذِهِ الأُمَّة .

٢٤٢ - ويَغْلُو فيها قَوْمٌ من أَهْل الإِثْبات حتى سَلَبُوا العَبْد قُدْرَتَهُ واخْتِيَارَه ويخرجون عن أَفْعَال الله وَأَحْكَامه حُكْمَها ومَصَالِحها .

الشـــرح

● **قال المؤلف : « وَالعِبَادُ فَاعِلُون حَقِيقَةً ، وَٱللهُ خَالِقُ أَفْعَالِهم »** .

قال : « وَالعِبَادُ فَاعِلُون حَقِيقَةً » .

هذا صَحِيحٌ ويُوافقنا القدرية فِى ذلك ، ويَقُولون العبد فَاعِل حَقِيقةً

ومُسْتَقِلٌّ بِفِعْلِه ، ولا يُوافقنا الجبرية ويقولون الفِعْلُ ليس فِعْلَ العَبْد بل هو مُرْغَمٌ عليه لكن أُضِيف إلى العبد من باب التَّجَوُّز وإلا فإنَّ الفاعل حَقِيقَةً هو الله ، وهذا القول يُؤَدِّى إلى القول بوحْدَة الوُجود وأَنَّ الخلق هو الله ، ثم يؤدى إلى قول من أَبْطَل الباطل ، لأَنَّ العباد منهم الزَّانى ، ومنهم السَّارق ، ومنهم شارب الخمر ، ومنهم المُعْتَدِى بالظُّلم فحاشا أن تكون هذه الأفعال مَنْسُوبة إلى الله ، لكن هم لِأَصْلِهم الفاسد يَقُولون إنَّ الفعل فعل الخالق لكن أُضِيفَ إلى المَخْلُوق من باب التَّجوز ولهذا ذكر المؤلف العبارة رَدّاً عليهم فقال : « العِبَادُ فَاعِلُونَ حَقِيقَةً » كذلك أَيْضًا رُبَّما يكون فيه رَدٌّ على الأَشَاعِرَة الذين يَقُولون إن فعل العَبْد ليس حَقِيقة ولكنَّه كَسْبٌ فهو أَمَارَة وليس سَبَبًا لأنهم ينكرون الأسباب فيقولون : الأَسْبَاب لا تُؤَثِّر بذاتها بل المُؤَثِّر هو الله ، وهى جُعِلَت عَلامَة عَلَى أَنَّ هذا الشَّىء الذى يقع بها سَيَقَع ، فمثلاً إذا أَرْسَلت حَجَرًا على زجاجة وَكَسَرَها . قالوا : إن الحجر ليس الذى كسر الزُّجاج إنَّما الذى كَسَرَها الله لكن حصل الكَسْر عند التِقَاء الحجر بالزُّجاجة عنده لا به .

أَلْقَيْت وَرَقَة فى النَّار فاحترقت . قالوا : الورقة لم تَحْتَرق بالنَّار ، ولو جعلت النَّار هى التى تحرق بالفعل أثبت خالقًا مع الله لأن النَّار حوّلتها من ورقة إلى رَمَاد وَلَا أَحَد يَسْتَطِيع أن يُغَيّر الأَعْيَان إلا الله فنقول لهم النار قلبَت الوَرقة إلى رَمَاد بإذن الله لو شَاء الله عزَّ وجلَّ مَا أُحْرِقت كما قال الله لها حين أُلْقِى فِيها إبراهيم ﴿ كُونى بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيم ﴾ [الأنبياء : ٦٩] . وكانت بَرْدًا وسلامًا . ولو قال : « كُونِى بَرْدًا عَلَى إِبْرَاهِيم » لأَتْعَبَتْهُ بالبَرد ، لكن قال : « سَلَامًا » أى لَيْسَ فيه مَوْت فصارت هذه النَّار بَاردة . إذاً نحن نقول إنها تُؤَثِّر لكن بإذن الله ، وحينئذ لم نُثْبِتْ بذلك خَالقًا مع الله بل أَثْبَتْنَا به حِكْمة الله عزَّ وجلَّ وأَنَّه رَبْط الأسباب بمسبباتها .

قوله : « وَٱللهُ خَالِقُ أَفْعَالِهِم » سبق أَنَّ أَفْعَال العِباد مَخْلُوقة من وَجْهين :

الوجه الأول : أَن فِعْل العَبْد وَصْفُه . وَخَالِقُ المَوْصُوف خَالِقٌ للوَصْف لأَنَّ الصفة تَابِعة للمَوْصُوف فَأَنت تُقِرُّ بِأَنَّ الله خَالِق العبد .

إِذًا أَفْعَال العبد مخلوقة لله لأَنَّها من صفاته فكما أَنَّ الله هو خالق الطُّول والقِصر والبَيَاض والسَّواد ومَا أَشْبه ذلك ، فهو خَالِقٌ لهذه الأفعال ؛ لأن الفِعْل وَصْفُ العَبْد .

الوجه الثَّانى : أن فعل العبد نَاشِىءٌ عن أَمْرين : إِرَادة جَازِمة ، وقُدْرَةٌ كاملة . والذى خَلَق الإِرَادة والقُدْرَة هو الله عزَّ وجلَّ ، وخالق السَّبب خالق لما ينتج عنه وهو المُسَبب ، فالله عزَّ وجل هو خالق أَفْعَال العَبْد .

والمراد من الجملة : « وَالعِبَادُ فَاعِلونَ حَقِيقةً وَٱللهُ خَالِقُ أَفْعَالِهِم » الرَّد على الجبرية والقَدَرية .

* * *

● **قال المؤلف : « وَالعَبْدُ هُو المُؤْمِن وَالكَافِر وَالبَرّ والفَاجِر وَالمُصَلِّى والصَّائم »** .

لما قال إن الله خالق أَفْعَال العِباد ذَكَرَ مِنها الإيمان والكُفر والبر والفُجور والصَّلاة والصِّيام ولنا أن نزيد الزَّكاة والحج وغيرها ، فالعبد هو الفاعل ونحن نقول العبد مُؤْمن ، العبد كافر ، وهو الذى يُوصف بالفعل وبآثار الفعل ، والمُراد بالعبد هنا العُبُودية العامَّة ، لأَنَّ العبودية نوعان عامَّة وخاصَّة والخاصَّة تنقسم إِلى أَخص وغير أَخص . فالعامَّة : كقوله تعالى : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِى الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ [مريم : ٩٣] .

والعبودية الخاصَّة بالمؤمنين : وهي تنقسم إلى قِسمين . **قال الله** تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَىٰ الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الفرقان : ٦٣] . **فهذه** خاصَّة . وقوله : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ﴾ [**الفرقان : ١**] فهذه أَخصّ .

* * *

● **قال المؤلف** : « **وَلِلعِبَاد قُدْرَة عَلَى أَعْمَالِهم ، وَلهُم إِرَادَة ، وَٱللهُ خَالِقُهم وَخَالِقُ قُدْرَتِهم وَإِرَادَتِهم** » .

هذه أَيْضًا فيها رَدٌّ عَلَىٰ الطَّائِفتين الجبرية والقَدَرية .

« لِلعِبَاد قُدْرَة وإِرَادة » خلافًا للجبرية .

« والله خَالِقُهم وخَالِقُ إِرادَتِهم وقُدْرَتِهم » خلافًا للقدرية .

فالعباد لهم قُدْرة على أَعْمَالهم ، ولهم إرادة خِلافًا للجبرية الذين يقولون إن الإنسان غير قادر ولا مُرِيد بل مُجْبَر .

وفى قوله : « والله خَالِقُهم وخَالِقُ قُدْرَتِهم وَإِرَادَتِهم » رَدٌّ عَلَىٰ القدرية الذين يقولون إن الله لَيْسَ بخالق لِقُدْرة العَبْد ولا لِفِعْله .

ثم استدلَّ المؤلف بقوله تعالى :

* * *

● **قال المؤلف** : « **كما قال تعالى** : ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [**التكوير : ٢٨ ، ٢٩**] .

فقوله : ﴿ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيم ﴾ [التكوير : ٢٨] فيها رَدٌّ عَلَىٰ الجبرية .

وفى قوله : ﴿ وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللهُ ﴾ ردٌّ على القدرية .

* * *

● **قال المؤلف : « وَهَذِه الدَّرَجة مِن القَدَر يُكَذِّب بِها عَامَّة القَدَرِيّة الَّذِين سمّاهم النّبى ﷺ مَجُوس هذِهِ الأُمَّة » .**

عامَّة القَدَرية أى أَكْثَرهم يكذبون بهذه الدَّرجة ويقولون أَنَّ الإنسان مُسْتَقِلٌّ بعمله وسمّاهم النَّبى ﷺ مَجُوس هذه الأُمَّة ، لأَنَّ المجوس يقولون إنَّ للحوادث خَالِقَيْن : خَالِقٌ للخير ، وَخَالِقٌ لِلشَّر ، فخالق الخير هو النُّور ، وخالق الشَّر هو الظُّلمة فالقدرية يُشْبِهون هؤلاء المَجُوس من وَجْه لأَنَّهم يقولون إنَّ الحوادث حَوَادث من فعل البَشَر منهم الذين خَلَقُوها واسْتَقَلُّوا بها ، وحَوَادِث من فِعل الله فالله تعالى خَلَقَها .

* * *

● **قال المؤلف : « وَيَغْلُو فيها قَوْمٌ مِن أَهْل الإِثْبَات حَتَّى سَلَبُوا العَبْد قُدْرَتَهُ وَاخْتِيَارَهُ وَيُخْرِجُون عن أَفْعَال الله وَأحكامه حكمها ومصالحها »(*) .**

(*) **قال الشيخ عبدالعزيز بن باز حفظه الله** : « أَقْسَامُ القدر أربعة :

الأول : التَّقدير العام ، وهو تقدير الرَّب لجميع الأَشياء بِمَعْنى عِلْمُه بها وكِتَابَتُه لها ومَشِيئَتُه وخلقه لما كان منها ، ويدلُّ على هذا النوع دلائل كثيرة منها قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ والأَرْضِ إنَّ ذلك فى كتاب ﴾ الآية [الحج : ٧٠] وقوله : ﴿ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ على كُلِّ شَىءٍ قَدِيرٌ وأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىءٍ عِلمًا ﴾ [الطلاق : ١٢] ، وقوله : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللهُ ما اقتتلوا ﴾ الآية [البقرة : ٢٥٣] وقوله : ﴿ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يَشَاءُ ﴾ [الحج : ١٨] ، وقوله : ﴿ اللهُ خالِقُ كلِّ شَىءٍ ﴾ [الزمر : ٦٢] وفى صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص أَن النبى ﷺ =

هؤلاء القوم هم الجبرية حيث أنَّهم سَلَبُوا عن أَحْكَام الله حكمها وَمَصَالِحها ، وقالوا : إنَّ أَفْعال الله ليست بِحِكْمَة وَلَيْسَت مُعَلَّله ، ولهذا يُثِيب المُطِيع وَإِنْ كان مُجْبرًا على الفِعْل ، ويُعَاقِب العَاصِى وإن كان مُجْبرًا على الفعل .

وهنا مَسْأَلة يَحْتَجُّ بها كثير من العُصَاة إذا أنكرت عليه المنكر قال هذا هو ما قدَّره الله عَلَيْه أتعترض عَلَىٰ الله ؟

= قال : « إنَّ الله قدَّر مَقَادِير الخَلَائق قَبْل أَنْ يَخْلُق السَّمَاء وَالأَرْض بِخَمْسِين أَلف سَنَة وَكَان عَرْشُه عَلَى المَاء » .

القسم الثَّانى : تقدير عُمْرِىٌّ وهو تقدير كلِّ ما يجرى على العبد فى حياته إلى نهاية أجله ، وكِتَابة شَقَاوتِه وسَعَادته ، وقد دلَّ عليه حديث ابن مسعود المُخَرَّج فى الصَّحيحين مرفوعًا : « إنَّ أَحَدكم يُجْمَعُ خَلْقُه فِى بَطْن أُمِّه أربعين يومًا ، ثم يكون عَلَقة مِثْل ذلك ، ثم يكون مُضغَةً مثل ذلك ، ثم يُرْسل الله الملك فينفخ فيه الرَّوح ويؤْمَرُ بأَرْبع كَلمات : بِكِتَابة رِزْقه وأَجلِهِ وَعَمَلِهِ وَشَقِىٌّ أو سَعِيد » الحديث .

الثالث : التقدير السَّنوى ، وذلك يكون فى ليلة القدر ، ويدلُّ عليه قوله تعالى : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حكيم ﴾ [الدخان : ٤] وقوله تعالى : ﴿ تَنَزَّل الملائكةُ والرُّوح فِيهَا بإذنِ رَبِّهم مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَع الفَجْر ﴾ [القدر: ٤،٥] قيل : يُكْتَب فى هذه الليلة ما يحدث فى السَّنة من موت وعِزٍّ وذُلٍّ وغير ذلك ، رُوى هذا عن ابن عمر ومجاهد وأبى مالك والضَّحاك وغير واحد من السلف .

الرَّابع : التقدير اليومى ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فى شأن ﴾ [الرحمن : ٢٩] ولأثر عن ابن عباس : إن لله لَوْحًا مَحْفوظًا من دُرَّةٍ بيضاء ، دفّتاه ياقوتة حمراء ، قلمه نور ، وكتابه نور وعرضه ما بين السَّماء والأرض ينظر فيه كل يوم كذا وكذا نظرة ، يخلق فى كل نظرة ، ويحيى ويميت ويُعز ويُذِل ما يشاء » أخرجه ابن جرير ، وفى إسناده أبو حمزة الثمالى وهو ضعيف ورُمِىَ بالرفض فلا يعتمد عليه . وأخرج ابن جرير عن مُنيب بن عبدالله الأزدى عن أبيه وابن أبى جاتم عن أبى الدرداء عن النبى ﷺ فى تفسير : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شأْنٍ ﴾ [الرحمن : ٢٩] قال: «منْ شَأْنِه أَنْ يَغْفِرَ ذَنْبًا وَيُفَرِّج كَرْبًا ، ويرفع قومًا وَيَضَعُ آخَرين » عَلَّقه البخارى عن أبى الدَّرداء موقوفًا » ا.هـ .

فيحتج بالقَدَر على مَعَاصِى الله ويقول أَنَا عَبْدٌ مُسَيَّر ثمَّ يَحْتَجُّ أيضًا بحديث : « تَحَاجَ آدَم ومُوسَىٰ فقال لَهُ مُوسَى : أَنْتَ أَبُو البَشَر خَلَقَكَ الله بِيَدِهِ وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ ، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاء كُلّ شَىء فَلِمَاذَا أَخْرَجْتَنَا وَنَفْسَكَ مِن الجَنَّة ؟

فقال لَهُ آدَم : أَتَلُومُنى عَلَى شَىْءٍ قَدَّرَهُ الله عَلَىَّ قَبْل أَنْ أُخلَق بِأَرْبَعِين سَنَة قال النَّبى عليه الصَّلاة والسَّلام : فَحَجَّ آدَم مُوسَىٰ قالها ثَلاثًا » وفى رواية : « فَحَجَّه آدَم » . وهى صَرِيحة فى أَنَّ آدَم غَلَب مُوسى بالحُجّة .

قال : فهذا آدم لما اعْتَرض عليه مُوسَىٰ احْتَجَّ عليه بالقَدَر وآدَم نَبِىٌّ ومُوسَىٰ رَسُول فَسَكَت مُوسَىٰ فلماذا تْحتجُّ عَلَىَّ ؟

والجواب : عَلَى حَدِيث آدَم : أَمَّا على رأى القدرية فإنَّ من طريقتهم أَن أَخْبار الآحاد لا تُوجب اليَقِين قالوا : وإِذَا عَارَضت أَمْرًا مَعْلُومًا فإنَّه يجب أن تُرَدّ .

فقالوا : الحديث هذا لا يَصِحُّ ، ولا نَقْبَلُه ولا نُسَلِّم به .

أَمَّا الجبرية فَقَالُوا : إنَّ هذا هو الدَّليل ودِلالته حقٌّ ، حيث أَنَّه يُوافق مَذْهَبُهم .

أَمَّا أهل السُّنَّة والجماعة فقالوا : إنَّ آدم عليه الصَّلاة والسَّلام فَعَل الذَّنب وصَارَ ذَنْبه سَبَبًا لخرُوجه من الجَنَّة ، لكنه تَاب من الذَّنب ، وبعد تَوْبته اجتباه الله وتاب عليه وهَدَاهُ ، والتَّائِب من الذَّنب كَمَنْ لا ذَنْبَ لَهُ ، ومن المحال أَنَّ مُوسىٰ عليه الصَّلاة والسَّلام ، وهو أَحَد أُولى العَزْم من الرُّسل يَلُوم أَبَاهُ على شىء تَابَ مِنْهُ ثمَّ اجتباه الله بَعْدَهُ وتَابَ عليه وهَدَاهُ ، لو أَنَّ إنسانًا عَيَّر آدَميًا مثله الذَّنب ، وإنَّما اللَّوم على المُصِيبة التى حَصَلت بِفعْله وهى إخراج النَّاس ونفسه من الجَنَّة ، فإنَّ سَبَب هذا الإِخْرَاج هو مَعْصِية

آدم على أَنَّ آدم عليه الصَّلاة والسَّلام لاشك أَنَّه لم يفعل هذا ليخرج من الجنَّة حتى يُلام فكيف يَلُومه مُوسَىٰ ؟

وهذا وَجْهٌ ظَاهر فى أَنَّ مُوسى عليه السَّلام لم يُرِد لَوْم آدم عَلَى فِعْل المعصية إنَّما عَلَىٰ المصيبة التى هى من قَدَرِ الله وحينئذ يتبيَّن أَنَّه لا حجة بهذا الحديث للجبرية .

فنحن نَقْبَلُه ولا نُنْكِره كما فَعَل القَدرِى ولكننا لا نَحْتَجُّ به عَلَىٰ المعصية كما فعل الجبرى .

وهناك جواب آخر أَشَار إليه ابن القيم رحمه الله وقال : الإنسان إِذَا فعل المعصية واحْتَجَّ الإنسان بالقَدَر عليها بعد التَّوبة منها فلا بَأْسَ به .

ومعناه : أَنَّه لو لاَمَكَ أَحَدٌ عَلَىٰ فِعْل المعصية بعد أن تُبْتَ منها .

وقلت : هذا بِقَضَاء الله وقَدَرِه ، وأَسْتَغْفِرُ الله وأَتُوبُ إليه وما أشبه ذلك . فإنه لا حرج عليك فى هذا .

فآدم احتجَّ بالقَدَر بعد أَنْ تَابَ منه . وهذا لاشك أَنَّه وَجْهٌ حَسَنٌ لكن يُبْعِدُه أن مُوسَىٰ لا يمكن أن يلوم آدم على مَعْصية تَابَ منها .

وَرَشَّح ابن القيم قوله هذا بما جرى للنَّبى عليه الصَّلاة والسَّلام حين دَخَل عَلَى عَلِّى وفاطمة رضى الله عنهما لاَمَهُمَا عَلَى عَدم قيام اللَّيل فقال عَلِّى رضى الله عنه يَا رَسُول الله : إنَّ أَنْفُسَنَا بيد الله لو شَاءَ أَن يُقِيمنا لأَقَامَنا

فخرج النَّبى ﷺ وهو يقول : ﴿ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴾ [الكهف : ٥٤][١] .

---

(١) رواه البخارى (١١٢٧) ومسلم (٧٧٥) (٢٠٦) من حديث على بن أبى طالب رضى الله عنه .

وعندى : أَنَّ فى الاستدلال بهذا الحديث نظر !! ؛ لأنَّ عليًا رضى الله عنه احْتَجَّ بالقدر فى حال نَوْمه ، والإنسـان النَّائم له أن يحتج بالقدر ؛ لأنَّ فعله لا يُنْسب إليه . ولهذا قال الله تعالى فى أصحاب الكهف : ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ﴾ [الكهف : ١٨] . فَنسب التقليب إليه مع أَنَّهم هم الذين يَتَقَلَّبون لكن لما كان بغير إرادة لم يُضِفْهُ إليهم .

والوجه الأَوَّل فى الجواب عن الحديث هو مَا ذَهَب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية وهو الصّواب فإذاً لا حجة للجبرى بهذا الحديث ولا للعُصَاة الذين يحتجون بهذا الحديث على احتجاجهم بالقَدَر .

فنقول له : إن احتجاجك بالقَدَر على المَعَاصى يُبْطِله السَّمع والعقل والواقع :

● **فالسَّمع** : قال الله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلهم حَتَّى ذَاقُوا بَأْسنا ﴾ [الأنعام : ١٤٨] قالوا ذلك احتجاجًا بالقَدَر على المعصية فقال الله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلهم ﴾ يعنى كَذَّبوا الرُسُل واحتجُّوا بالقَدَر ﴿ حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا ﴾ وهذا يدل على أن حجتهم باطلة إذ لو كانت حجة مَقْبُولة مَا ذَاقوا بَأْس الله .

ودليل سمعى آخر : قال الله تعالى ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّين مِن بَعْدِه ﴾ [النساء : ١٦٣] ... إلى قوله ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حجَّة بَعْدَ الرُّسُل ﴾ [النساء : ١٦٥] .

ووجه الدِّلالة من هذه الآية : أنَّه لو كان القَدَر حُجَّة مَا بَطلت بإِرْسَال الرُّسل وذلك لأنَّ القَدَر لا يَبْطُل بإِرْسَال الرُّسل بل هو باقٍ .

فإذا قال قائل : يرد عليك فى الدَّليل الأول قول الله تبارك وتعالى فى سورة الأنعام : ﴿ اتَّبِع مَا أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن ربِّكَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ وَلَوْ شَاءَ الله مَا أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيل ﴾ [الأنعام : ١٠٦ ، ١٠٧] فهنا قال الله تعالى ﴿ وَلَوْ شَاءَ الله مَا أَشْرَكُواْ ﴾ [الأنعام : ١٠٧] . فنقول : إنَّ قول الإنسان عن الكفار ﴿ لَوْ شَاءَ الله مَا أَشْرَكُواْ ﴾ [الأنعام : ١٠٧] قول صحيح وجائز لكن قول المشرك ﴿ لَوْ شَاءَ الله مَا أَشْرَكْنَا ﴾ [الأنعام : ١٠٧] يريد أن يَحْتَجَّ بالقدر على المعصية قول باطل ، والله عزَّ وجلَّ إنما قال لرسوله هكذا تَسْلِيةً له وَبيانًا أَنَّ ما وقع فهو بمشيئة الله .

● **والدَّليل العقلى** على هذا العَاصِى الذى احتجَّ بالقدر على مَعْصية الله أَنْ نقول له : ما الذى أَعْلَمَكَ بأَنَّ الله قَدَّرَ لكَ أَن تَعْصِيَهُ قبل أن تَعْصِيه ؟

فنحن جميعًا لا نعلم مَا قَدَّرَ الله إلَّا بعد أَن يقع ، أَمَّا قبل أن يقع فلا نَدرى مَاذَا يُرَادُ بنا فنقول للعاصى : هل عندك عِلْم قبل أن تُمَارس المَعْصية أَنَّ الله قَدَّرَ لك المعصية ؟ سيقول : لا . فنقول إذًا لماذا لم تُقَدِّر أَن الله قَدَّرَ لَكَ الطَّاعة وَتُطِع الله . فالباب أَمَامك مَفْتُوح فلماذا لم تدخل من الباب الذى تَرَاهُ مَصْلَحة لك لأنك لا تعلم ما قدِّر لك . واحتجاج الإنسان بحجة على أمرٍ فعله قبل أن تتقدم حجته على فعله احتجاجٌ بَاطل ؛ لأَنَّ الحجة لابد أن تكون طريقًا يمشى به الإنسان إذ أن الدليل يتقدَّم المدلول .

ونقول له أيضًا أَلَسْتَ لو ذُكِرَ لك أَنَّ لِمَكَّة طريقين أَحَدُهما طريق مُعَبَّد آمن ، والثانى : طريق صعبٌ مخوف أَلَسْتَ تَسْلُك الآمن ؟

سيقول : بلى .

فنقول : إذًا : لماذا تَسْلُك فى عبادتك الطَّريق المخوف المَحْفُوف

بالأَخطارِ ، وتَدَعُ الطَّريق الآمن الذى تكَفَّل الله تعالى بالأَمن لمن سلكه فقال : ﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ ﴾ [الأنعام : ٨٢] وهذه حُجَّة واضحة .

ونقول له : لو أعلنت الحكومة عن وَظِيفَتَيْن ، إِحداهما بالمرتبة العَالية والثانية بالمرتبة السفلى فأَيُّهما تُريد ؟

بلاشك سَيُريد المرتبة العالية ، وهذا يدلُّ على أَنَّك تأخذ بالأكمل فى أُمُور دُنياك فلماذا لم تأخذ بالأكمل فى أُمُور دِينك ؟ وهل هذا إلا تناقض منك ؟

وبهذا يَتَبَيَّن أَنَّه لا وَجْه أَبدًا لاحتجاج العَاصِى بالقَدَر على مَعْصِية الله عَزَّ وجل .

* * *

فصـــل
مِنْ أُصُول أَهْل السُّنَّة والجماعة أَنَّ الإيمَان قَوْلٌ وَعَمَل

٢٤٣ – وَمِنْ أُصُول أَهْلِ السُّنَّة وَالجَمَاعة : أَنَّ الدِّين والإيمان قَوْلٌ وَعَمَل :

٢٤٤ – قَوْلُ القَلْب واللِّسَان ، وَعَمَلُ القَلْبِ واللِّسَان وَالجَوَارِح .

الشـــرح

● **قال المؤلف : « فصل : وَمِنْ أُصُول أَهْل السُّنَّة وَالجَمَاعة : أَنَّ الدِّين والإيمان قَوْلٌ وَعَمل »**

الدِّين : هو مَا يُدان به الإنسان ، ويُطْلَقُ على العمل والجزاء ففى قوله تعالى ﴿ ثمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّين . يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لله ﴾ [الإنفطار : ١٨، ١٩] .

فالمراد بالدِّين فى هذه الآية : الجزاء .

وقوله ﴿ مَالِكِ يَوْم الدِّين ﴾ [الفاتحة : ٤] المراد الجزاء .

وأَمَّا العمل : فكقوله : ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَام دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] أَى عملاً تَتَقَرَّبون به إلى الله . ويقال : « كَمَا تَدِينُ تُدَان » . أى كما تَعْمل تُجازَى والمراد به فى كلام المؤلف العَمل .

وأَمَّا الإِيمان : فأكثر أهل العلم يَقُولون أَنَّ الإِيمان فى اللُّغَة : التَّصديق . ولكن فى هذا نظر !! لأَنَّ الكلمة إذا كانت بمعنى الكلمة فإنها تتعدّٰى بتعديتها ، ومعلوم أَنَّ التَّصديق يَتَعَدّٰى بنفسه والإيمان لا يتعدَّى بنفسه فتقول مثلاً : صَدَّقته ولا تقول آمنته ، بل تقول : آمَنْتُ به أو آمَنْتُ لَهُ فلا يمكن أَن نفسِّر فعلاً لازمًا لا يَتَعَدَّىٰ إلَّا بحرف الجر بفعل مُتَعَدّ ينصب المفعول به بنفسه ثم إن كلمة صدّقت لا تعطى كلمة آمنت ، فإن آمنت تَدُلُّ على طمأنينة بخبره أَكْثَر من صدقت ، ولهذا لو فُسِّر الإيمَانُ بالإقْرار لكان أَجْوَد فنقول : الإِيمَانُ الإِقْرَار ، ولا إِقْرار إلا بِتَصْدِيق .

فتقول أُقِرُّ به كما تقول آمن به ، وَأقرُّ له كما تقول آمن له . هذا فى اللُّغة ، أَمَّا فى الشَّرع : فقال المؤلف رحمه الله « قَوْلٌ وعَمَل » وهذا تَعْرِيفٌ مختصر ويُبَسَّط فيقال : قَوْلٌ باللِّسان ، وعَمَلٌ بالأَرْكان ، واعتقادٌ بالجَنَان .

* * *

● **قال المؤلف : « قَوْلُ القَلْب واللِّسَان وعَمَلُ القَلْب وَاللِّسَان وَالجَوَارِح » .**

فجعل المؤلف للقلب قَوْلاً وجعل للسان قولاً :

أَمَّا قولُ اللِّسان فالأَمْرُ فيه وَاضح .

أَمَّا قول القلب : فهو اعترافه وتَصْدِيقُه . وأَمَّا عَمَلُ القلب فهو عبارة عن تحرُّكه وإرادته مثل الإخلاص فى العَمَل فهذا عمل قلب . وكذلك التوكُّل والرَّجاء والخوف . فالعمل ليس مُجَرّد الطمأنينة فى القلب بل هُنَاك حركة فى القَلْب . وعملُ اللِّسان هو قَوْلُه ، لكن إن قلنا إنَّ عمل اللِّسان قَوْلُه صار فى كلام المؤلف تِكْرَار . لكن يمكن أن نقول إن مُراد المؤلف بقوله « عَمَل

اللِّسان » أى حَرَكة اللِّسان فيكون قول اللِّسان ما يُسمع وعمل اللِّسان حَرَكَتُه ومعلوم أنَّ القول يتكون من حركة اللِّسان وحركة اللحيين والشَّفتين فحركة هذه الأعضاء تدخل فى الإيمان لأنَّها عمل . وَعَمَلُ الجوارح وَاضح رُكوع وسُجود وقِيام وقُعُود فيكون عمل الجوارح إيمانًا شرعًا لأنَّ الحامل لهذا العمل هو الإيمان فإذا قال قائل : أَيْنَ الدَّليل على أن الإيمان يشمل هذه الأشياء الأربعة ؟ فنقول : قال النبى ﷺ : « الإيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِالله وَمَلَائِكته وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّه »(١) . هذا قول القلب . أمَّا عَمَلُ القلب واللِّسان والجوارح فدليله قول النبى ﷺ : « الإيمَانُ بِضْعٌ وسَبْعُونَ شُعْبة أَعْلَاهَا قَوْل لَا إلَه إلَّا الله وَأَدْنَاهَا إمَاطَةُ الأَذَى عن الطَّريق وَالحَيَاءُ شُعْبه مِن الإيمان »(٢) . فهذا قول اللِّسان وعَمَلُه وعمل الجوارح والحياء عمل قلبى وهو انكسار يُصِيب الإنسان ويَعْتَريه عند وُجود ما يَسْتلزم الحياء .

فتبين بهذا أن الإيمان يشمل هذه الأشياء الأَرْبعة شرعًا . وقال الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ الله لِيُضِيعَ إيمَانكُمْ ﴾ [البقرة : ١٤٣] قال المفسرون : « أى صلاتكم إلى بَيْت المقدس »(٣) . فسمَّى الله تعالى الصَّلاة إيمانًا مع أنَّها عمل جَوَارح وعمل قلب وقول لِسان هذا هو مَذْب أَهْل السُّنة والجماعة . وشُموله لهذه الأشياء الأَربعة لا يعنى أنَّه لا يتم إلا بها بل قد يكون الإنسان مُؤْمناً مع تخلُّف بعض الأَعمال . لكنه ينقص إيمانه بقدر ما نَقَص من عَمَله . والمرجئة يقولون إن الإيمان هو الإقرار بالقَلْب وَمَاعدا ذلك فليس من الإيمان .

---

(١) جزء من حديث جبريل المشهور الذى رواه مسلم (٨) (١) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

(٢) رواه مسلم (٣٥) (٥٨) من حديث أبى هريرة بهذا اللفظ وقد أخرجه البخارى (٩) بلفظ « الإيمان بضع وسُتُّون شعبة ، والحياء شعبة من الإيمان .

(٣) راجع تفسير ابن كثير (١٩٢/١) .

ولهذا كان الإيمان لا يزيد ولا ينقص عندهم لأنه إقرار القَلب والنَّاس فيه سَوَاء والإنسان الذى يَعْبد الله آناء اللَّيل والنَّهار كالذى يَعْصِ الله آنَاء اللَّيل والنَّهار عندهم مَادَامت مَعْصِيته لا تُخْرجه من الدين . فلو وَجَدنا رجلاً يَزْنى ويَسْرق ويَشْرب الخمر ويعتدى على الناس ورجل آخر مُتَّقيًا لله بَعِيدًا عن هذه الأَشياء كلها لَكَانَا عند المرجئة فى الإيمان والرَّجاء سَوَاء كلٌّ منهما لا يُعَذَّب لأَن الأَعْمَال غير دَاخِلة فى مُسَمَّى الإيمان .

وعلى العكس من ذلك الخوارج والمعتزلة قالوا : إنَّ الأَعمال دَاخلة فى مُسَمَّى الإيمان وأَنها شَرْطٌ فى بقائه فمن فعل مَعْصِية من الكَبَائر خَرَجَ من الإيمان لكن الخوارج يقولون إنَّه **كافر** و**المعتزلة** يقولون **هو فى مَنْزلة** بين منزلتين فلا نقول مُؤْمن ولا نقول كافر بل نقول خرج من الإيمان ولم يدخل فى الكفر وصار فى مَنْزِلة بين مَنْزِلتين . هذه أَقوال النَّاس فى الإيمان .

وأَهل السُّنة والجماعة يقولون إن الإيمان قولٌ وعَمَل .

* * *

الإيمـان يزيد بالطَّاعة وينقص بالمعصيـة .

٢٤٥ - وأَنَّ الإيمَـان يَزِيدُ بالطَّاعَـة ويَنْقُص بالمَعْصِيَـة .

الشــــرح

أَهل السُّنَّة والجماعة يقولون إنَّ الإيمان يَزيد وينقص ويَسْتدلون لذلك بأَدلَّة من الكتاب والسُّنة .

فمن الكتاب : قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٤] وقال تعالى : ﴿ لِيَستَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ﴾ [المدثر : ٣١] وهذا صريح فى ثبوت الزِّيادة وأَمَّا النقص فقد ثبت فى الصَّحيحين: « أن النبى ﷺ وَعَظَ النِّسَاءَ وَقَالَ لَهُنَّ: مَا رَأَيْت مِن نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِين أَذْهَب لِلُبّ الرَّجُل الحَازِم مِن إِحْدَاكُنّ »(١) فَأَثْبت نَقْصُ الدِّين . ثمَّ لَوْ فُرِضَ أَنَّه لم يُوجد نصٌ فى ثُبوت النَّقص فإن إثبات الزِّيادة مُسْتلزم للنقص فنقول : كُلُّ نَصٍ يدلُّ على زيادة الإيمان فإِنَّه مُتَضمِّنٌ للدِّلالة على نَقْصه .

إنَّ أَسباب زيادة الإيمان أربعة :

الأَوَّل : مَعْرِفة الله تعالىٰ بِأَسْمَائِه وَصِفَاتِه فإِنَّه كلما زاد الإنسان معرفة

---

(١) رواه البخارى (٣٠٤) ومسلم (١٣٢) (٧٩) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما .

قال الحافظ فى الفتح (٤٨٤/١) : « قوله أَذْهب لِلُبِّ : أَى أَشَدُّ إِذْهَابًا ، واللُّب أَخَصُّ من العقل وهو الخالص منه ، والحازم الضابط لأمره ، وهذه مُبالغة فى وصفهن بذلك لأن الضابط لأمره إذا كان ينقاد لهن فغير الضابط أولى » ا.هـ .

بالله وأسمائه وصفاته ازداد إيمانه .

الثانى : النّظر فى آيات الله الكونية والشّرعية . قال الله تعالىٰ ﴿ أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [الغاشية : ١٧] وقال تعالى : ﴿ قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِى الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس : ١٠١] وكلما ازداد الإنسان عِلْمًا بما أَوْدَعَ الله تعالىٰ فى الكون من عجائب المخلوقات ومن الحِكَم البَالِغَات ازداد إيمانًا بالله عزَّ وجلَّ وكذلك النَّظر فى آيات الله الشَّرعية يزيد الإنسان إيمانًا لأَنَّك إذا نظرت إلى الآيات الشَّرعية وهى الأحكام التى جاءت بها الرسل وجدت فيها ما يُبْهر العقول من الحِكَم البالغة والأَسرار العظيمة التى تعرف بها أَنَّ هذه الشَّريعة نزلت من عند الله وأنّها مَبْنية على العَدْل والرحمة فتزداد بذلك إيمانًا .

الثالث : كَثْرة الطَّاعات لأَن الأَعمال داخلة فى الإيمان وإذا كانت داخلة فيه لَزِمَ من ذلك أَن يزيد بكثرتها .

السَّبب الرابع : حُسْن العمل . فإن حسن العمل المبنى على الإخلاص والمتابعة يزيد فى الإيمان وكلما كان العمل أَحْسَن كانت زيادة الإيمان به أَكثر .

وهناك أَمرٌ خامس من أسباب زيادة الإيمان وهو ترك المعصية تقرُّبًا إلى الله عز وجل فإن الإنسان يَزْدَادُ بذلك إيمانًا بالله عز وجل .

○ **وهناك أسباب نقص الإيمان وهى أربعة :**

الأَوَّل : الإعْراض عن مَعْرفة الله تَعَالىٰ وَأَسْمَائِه وَصِفَاته .

الثانى : الإعراض عن النَّظر فى الآيات الكونية والشَّرعية فإن هذا يُوجب الغفلة وقسوة القلب .

الثَّالث : قِلَّة العمل ويدلُّ لذلك قول النبى ﷺ فى النِّساء : « مَارَأْيتُ مِن نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحَازِمِ مِن إِحْدَاكُنَّ . قَالُوا : يَا رَسُول الله كَيْفَ نُقْصَانِ دِينها ؟ قَالَ : أَلَيْسَ إِذَا حَاضَت لَمْ تُصَل وَلَم تَصُم ؟! »[١] .

الرَّابع : سُوء العَمَل وأن لا يأتى به الإنسان على الوَجْه الأكمل فكلما كان العمل أسْوأ كان أنْقص فى الإيمان والفائدة أو النَّتيجة من قولنا أنَّ الإيمان يَزِيدُ وينقص أنَّ الإنسان كلما كان أزيد إيمانًا كان أحبَّ إلينا من غيره لأننا نحبُّ الإنسان لإيمانه والحكم المعلّق بوصف يَزيد بِزِيَادَته ويَنْقُص بِنَقْصِه .

● **مُخالفـوا أهل السُّنَّة والجماعـة :**

وخَالَف أَهْل السُّنَّة والجماعة فى القول بالزِّيادة والنُّقصان طائفتان . الطَّائفة الأُولٰى المرجئة والطَّائفة الثَّانية الخوارج والمعتزلة .

فالمعتزلة : قالوا : – إنّ الإيمان لا يَزِيدُ ولا يَنْقُص لأن المرجئة يُخْرِجُون الأعمال والأقْوال من الإيمان ويقولون الإيمان هو اعترافٌ بالقَلْب والاعتراف لا يَزِيدُ ولا يَنْقُص ونحن نردُّ عليهم فنقول أوّلاً : إخراجكم الأعْمَال من الإيمان ليس بصحيح فإن الأعمال داخلة فى الإيمان وقد سبق ذكر الدليل .

ثانيا : قولكم أَنَّ الإقرار بالقلب لايختلف زِيادة ونَقْصًا هذا ليس بصَحِيح بل الإيمان بالقَلب يَتَفَاضَل فلا يمكن لِأَحدٍ أَن يَقُول إن إيمانى كَإيمان أبى بكر ، بل يتعدَّى ويقول إن إيمانى كإيمان الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام وهذا لا يمكن ثم نقول إن العلم القائم بالقَلب يَقْبل التَّفاضل فعِلمى بخبر زَيْد

---

(١) تقدم تخريجه ص (٦٤٠) .

أَقل مِن علمى بخبر زيد وعمرو ألم تسمعوا قول إبراهيم ﴿ رَبِّ أَرِنى كَيْفَ تُحْيِى الْمَوْتَىٰ قَالَ : أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ : بَلَىٰ وَلَكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ [البقرة : ٢٦٠] فهذا دليلٌ على أَن الإيمان الكَائن فى القَلب يَقْبل الزِّيادة والنَّقص . أَى يَقْبل التَّفاضل .

الطَّائفة الثانية : المخالفة لِأَهلِ السُّنة طائفة الوَعِيدية وهذه تتكون من الخوارج والمعتزلة وسُمُّوا وعيدية لأَنهم يقولون بأَحكام الوَعيد دون أحكام الوَعْد أى يُغَلِّبُون نُصوص الوَعيد على نُصوص الوعد لكن الخوارج يقولون : فاعل الكبيرة ليس ناقص الإيمان بل إيمَانُه مُنْتَفى فهو كافر والمعتزلة يقولون إنَّ فاعل الكبيرة لا يدخل فى الكفر ولكنه خارجٌ من الإيمان فهو فى منزلة بين مَنْزلتين فهاتان الطَّائفتان خَالَفَتَا أَهل السُّنَّة والجماعة
وأَمَّا أَهْلُ السُّنة والجماعة فيقولون : إن الإيمان يَزِيدُ ويَنْقُص مع بقاء أَصْلِه

* * *

أهْل السُّنَّة لا يُكَفِّرون أهْل القبلة بِمُطْلق المَعاصِى والكبائر. وبيـان حكم مُرتكب الكَبيرة

٢٤٦ – وهُم مَعَ ذَلِك : لا يُكَفِّرون أَهْل القِبْلة بِمُطْلق المَعَاصِى وَالكَبَائِر كما يَفْعَلُه الخَوَارِج بل الإِخُوَّة الإِيمَانِية ثَابتة مع المَعَاصِى .

٢٤٧ – كما قال سُبحانه فى آية القَصَاص : ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة : ١٧٨] .

٢٤٨ – وَقَالَ : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [الحجرات: ٩، ١٠].

٢٤٩ – وَلايَسْلِبُون الفَاسِق المِلِّى الإِسْلام بالكلية ، وَلَا يُخَلِّدُونَهُ فِى النَّار كما تقوله المُعْتَزلة ، بَل الفَاسِق يَدْخُل فى إِسم الإِيمان المُطْلق .

٢٥٠ – كما فى قوله تعالى : ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾ [النساء : ٩٢] .

٢٥١ – وَقَد لا يَدْخُل فى اسم الإِيمَان المُطْلَق كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ [الأنفال : ٢] .

٢٥٢ - وَقولُه ﷺ : « لَا يَزْنِى الزَّانِى حِينَ يَزْنِى وَهُوَ مُؤْمِن ، وَلايَسْرِق السَّارِق حِينَ يَسْرِق وَهُو مُؤْمن ، وَلَا يَشْرَب الخَمْر حِين يَشْرَبُها وَهُو مُؤْمِن ، وَلَا يَنْتَهِب هَهْبَة ذَات شَرَف يَرْفَع النَّاس إليه فِيها أَبْصَارهم حِين يَنْتَهِبها وَهُو مُؤْمن » .

٢٥٣ - ونقول : هُو مُؤْمِن نَاقِص الإيمَان ، أَوْ هُو مُؤمن بإيمانه فَاسِقٌ بِكَبِيرَتِهِ فلا يُعْطَىٰ الإسم المُطْلَق ، ولا يَسْلب مُطْلَق الإِسْم .

الشــــرح

● **قال المؤلف : وَهُم مَعَ ذَلِك : لا يُكَفِّرُونَ أَهْل القِبْلَة بمُطْلق المَعَاصِى وَالكَبَائِر كَمَا يَفْعَلُه الخَوَارِج بَل الإِخُوّة الإِيمَانِية ثَابِتَةٌ مَعَ المَعَاصِى » .**

● قال المؤلف : وَهُمْ مَعَ ذَلِك لا يُكَفِّرُونَ أَهْلَ القِبْلَة بِمُطْلَق المَعَاصِى وَالكَبَائِر » أَهْلُ القِبْلة هم المُسْلمون لأَنَّ النبى ﷺ قال : « مَنْ صَلَّىٰ صَلَاتَنَا وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا فَهُو مُسْلم لَهُ مَا لِلمُسْلمين وَعَلَيه مَا عَلَىٰ المُسْلِمِين »(١) فالمسلم عند أَهل السُّنَّة والجماعة لا يَكْفُر بِمُطْلق المَعَاصِى والكَبَائِر . وتَأَمَّل قول المؤلف « بمُطْلَق المَعَاصِى » ولم يَقُل بِالمَعَاصِى والكَبَائر لأَن المَعَاصِى منها مَا يَكُون كُفرًا وكذلك الكَبَائر . وَأَمَّا مُطْلَق المَعْصِية فلن يكون كفرًا والفرق بين الشَّىء المُطْلَق ومُطْلَق الشَّىء أَن الشَّىء المُطْلق يعنى الكمال ومُطْلق الشَّىء يعنى أَصل الشَّىء . فالمؤمن الفاعل للكبيرة عنده مُطْلق الإيمان فأَصل الإيمان مَوْجودٌ عنده لكن كَمَاله مَفْقُود . فكلام المُؤَلِّف رَحمه الله دَقِيق جِدّاً .

---

(١) رواه البخارى (٣٩٣) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

قال : « كَمَا يَفْعَلُه الخَوَارِج » يعنى الَّذين يَقُولُون إنَّ فاعل الكبيرة كافر ولهذا خرجوا على المسلمين واستباحوا دماءهم وأموالهم ويَسْهل عليهم جدًا أن يقولوا للإنسان أنّه كافر .

قال : « بَل الأُخُوّة الإيمَانيّة ثَابِتَةٌ مَعَ المَعَاصِى » يعنى أَنّ الأُخوة بين المؤمنين ثَابتة! ولَو مع المَعْصِية فالزَّانى أخٌ للضَّعيف والسَّارق أخٌ للمسروق منه والقاتل أخٌ للمقتول .

* * *

● **قال المؤلف : « كَمَا قَالَ سبحانه فى آية القَصَاص :** ﴿ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ ﴾ [البقرة : ١٧٨] » .

والمُراد بأَخِيه هو المقتول ، وَوَجْهُ الدِّلالة من هذه الآية أَنَّ فاعِل الكبيرة لا يكفر أَنَّ الله سمَّى المقتول أَخا للقَاتِل مع أَنَّ القتل كبيرة من كبائر الذُّنوب .

* * *

● **قال المؤلف :** ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ ﴾ [الحجرات : ٩ ، ١٠]

﴿ اقْتَتَلُواْ ﴾ جمع و﴿ بَيْنَهما ﴾ مثنى و﴿ طَائِفَتَانِ ﴾ مُثَنَّى فكيف يكون مثنى وجمع ومُثَنّى آخر والمرجع وَاحد ؟ نقول لأن قوله ﴿ طَائِفَتَان ﴾ الطَّائفة عدد كبير من الناس فيصحُّ أن أقول اقتتلوا وشاهد هذا قوله تعالى :

﴿ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ ﴾ [النساء : ١٠٢] ولم يقل « لم تصل » فالطَّائفة أمة وجماعة ولهذا عاد الضَّمير إليها جمعًا .

فطائفتان من المؤمنين اقْتَتَلُوا وحَمَلَ السِّلاح بعضهم على بعض وقتال المؤمن للمؤمن كُفْر وسِبَابُه فُسُوق ومع هذا قال الله تعالىٰ فى هاتين الطَّائِفَتَين المُقْتَتِلَتَيْن للطَّائِفة الثَّالثة التى لم تدخل القتال قال ﴿ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَىٰ الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِى تَبْغى حَتَّى تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ الله فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُواْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ إِنما المؤمنون إخوة ﴾ [الحجرات: ٩، ١٠] فجعل الله تعالى الطائفة المصلحة أختًا للطَّائفتين المقتتلتين .

أَثْبت وَصْفُ الإيمان مع الاقتتال فإن قال قَائِل هم قبل الاقْتِتَال مؤمنون لكن الكلام بعد القتال . فنقول الدَّليل على أن هذا الوصف باق ولو بعد القتال .

قوله : ﴿ إِنَّما المُؤْمِنُونَ إِخْوة فَأَصْلِحوا بَيْنَ أَخويكم ﴾ [الحجرات : ١٠]وعلى هذا ففى الآية دَلِيلٌ على أَنَّ الكبائر لا تخرج من الإيمان فإذا قلنا إنه لا يخرج من الإيمان ، ومررت بصاحب كبيرة فإنى أُسَلِّم عليه لأن النبى ﷺ ذَكَر مِن حُقوق المسلم على المسلم « إِذَا لَقِيته فَسَلِّم عَلَيْه »(١) وهذا الرَّجل مازال مُسْلمًا فَأُسلِّم عليه إِلَّا إِذا كان فى هجره مَصْلَحة فحينئذ أَهْجُره كما جَرَى لِكَعْب بن مَالِك وصاحبيه الَّذين تخلَّفوا عن غزوة تَبُوك . فهجرهم المُسْلمون خَمْسين ليلة حتى تاب الله عليهم .

فإذا قلنا إنَّه لا يخرج من الإيمان فهل نُحِبُّه على سبيل الإطلاق ؟ أَو نَكْرَهُه على سبيل الإطلاق ؟ نقول لا هَذَا ولا هَذَا نحبُّه بما معه من الإيمان ونَكْرَهُه بما معه من المَعَاصى .

---

(١) البخارى (١٢٤٠) ومسلم (٢١٦٢) (٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

● **قال المؤلف : « وَلَا يَسْلِبُونَ الفَاسِقَ المِلِّى الإِسْلَام بِالكُلِّية ، وَلَا يُخَلِّدونه فِى النَّار كما تَقُولُه المُعْتَزِلَة ، بل الفَاسِق يَدْخل فى اسْم الإِيمَان المُطْلَق » .**

ثم قال المؤلف : « ولا يَسْلِبُون الفَاسِق المِلِّى الإِسْلام بالكُلِّية » الفَاسِق هو الخَارِج عن الطَّاعة والفسق كما أشرنا إليه سابقًا ينقسم إلى فسق أكبر مُخْرج عن الإسلام ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَاهُم النَّارُ ﴾ [السجدة : ٢٠] وفسق أصغر ليس مُخْرِجًا عن الإسلام كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُواْ إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُواْ أَنْ تُصِيبُواْ قَوْمًا بِجَهَالَةٍ ﴾ [الحجرات : ٦] الفاسق الذى لا يخرج من الإسلام هو الفاسق الملى وهو مَنْ فَعَل كَبِيرة أَوْ أَصَرَّ عَلَىٰ صَغِيرة .

ولهذا قال المُؤَلِّف ﴿ المِلِّى ﴾ يعنى المُنْتَسِب إلى المِلَّة الذى لم يخرج منها فأهل السُّنة والجماعة لا يَسْلبون الفَاسِق المِلِّى الإسلام بالكُلِّية فلا يمكن أن يقولوا أن هذا ليس بِمُسْلم لكن يمكن أن يقولوا أَنَّ هذا نَاقِص الإسْلام . والذين سَلَبُوه الإسلام بالكُلِّية هم الخوارج .

قال المؤلف : « وَلَا يُخَلِّدُونَهُ فِى النَّار كَمَا تَقُول المُعْتَزِلَة » فإنَّهم خَلَّدوه فى النَّار . والمعتزلة سَلَبُوه الإسلام لكن لم يُدْخلوه فى الكُفر .

قال المؤلف : « بَل الفَاسِق يَدْخُل فى اسْم الإِيمَان المُطْلَق » مُرادُ المُؤَلِّف بالمطلق هنا يعنى إذا أُطلق الإيمان وليس المراد به الإيمان الكامل . ولو أردنا أن نُعَبِّر تَعْبيرًا لَيْس فيه إشكال لقلنا « يَدْخُل فى مُطْلق الإيمان » كما عَبّر به فى آخر كلامه رحمه الله مِثَالُه :

* * *

● **قال المؤلف** : « ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ﴾ [النساء : ٩٢] » .

كلمة مُؤْمنة : أى مُطْلق إيمان فَيدْخُل فيه الفَاسق فلو أَنَّ إنسانًا اشترى رقيقًا فاسقًا يزنى ويشرب الخمر وأَعْتَقَهُ فى كَفَّارة أَجْزَأَهُ مع أَن الله قال ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبة مُؤْمِنة ﴾ فكَلِمة مُؤْمِنة تَشْمَل الفَاسِق وَغَيْره .

* * *

● **قال المؤلف** : « **وقد لا يدخل فى اسم الإيمان المطلق كما فى قوله تعالى** : ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا ﴾ [الأنفال : ٢] » .

قال : « وَقَدْ لَا يَدْخل فى اسم الإيمان المُطْلَق » : أَى فى مُطْلق اسم الإيمان كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ الله وَجِلَت قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إيمانًا ﴾ [الأنفال : ٢] .

إنما أَدَاة حَصْر يعنى ما المؤمنون إِلَّا هَؤلاء والمراد بالمؤمنين يعنى ذَوى الإيمان المُطْلق الكامل فلا يدخل فى المؤمنين هنا الفُسَّاق لأن الفاسق لو تَلَوْت عَلَيْه آيات الله مَا زَادَتْهُ إيمانًا ولو ذَكَرْت الله لَهُ لم يُوجل قَلْبه .

فبيّن المؤلف أن الإيمان قد يُراد به مُطْلق الإيمان وقد يُرادُ به الإيمان المطلق . فإذا رَأَيْنا رَجُلاً إذا ذكر الله لم يُوجل قلبه وإذا تليت عليه آياته لم يَزْدَد إيمانًا فيصح أن نقول أَنَّه مُؤْمن ويَصِحُّ أن نقول ليس بمؤمن فنقول مُؤْمن أى معه مُطلق الإيمان يعنى أصله . وليس بمؤمن ليس مَعَه الإيمان الكامل لأَنه يدخل فى قوله ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَة مُؤْمِنَة ﴾ [النساء : ٩٢] .

ولا يدخل فى قوله ﴿ إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال : ٢] .

* * *

● **قال المؤلف : وقوله ﷺ « لَا يَزْنِى الزَّانِى حِينَ يَزْنِى وَهُو مُؤْمِن وَلَا يَسْرِقُ السَّارِق حِين يَسْرِق وَهُو مُؤْمن ، وَلَا يَشْرَب الخمر حِين يَشْرَبُها وَهُو مُؤمِن ، وَلَا يَنْتَهِب نَهْبَة ذَات شَرف يَرْفع النَّاس إليه فِيها أَبْصَارَهُم حِين يَنْتَهِبُهَا وَهُو مُؤْمِن »**[1] .

قوله : « لَا يَزْنِى الزَّانى حِين يَزْنِى وَهُو مُؤْمن » هنا نَفَى عَنْه الإيمان حين زِنَاه أَمَّا بعد أن يَفْرَغ من الزِّنى قد يُؤمن فقد يَلْحَقُه الخَوْف من الله بعد أن يتم الزِّنى لكن حين إقدامه على الزِّنى لو كان عنده إيمانٌ كَامِل مَا أَقْدَم عليه بل إيمانه ضَعِيف جِدًا حِين أَقْدَم عَلَيْه . وَتَأَمَّل قوله : « حين يَزْنى » احْتِرَازًا مِن أَنَّه قبل الزِّنى وبَعْده مُؤْمن لأَن الإنسان مَادَام لم يَفْعَل الفَاحِشة فهو على أمل أَلَّا يُقدم عَليها .

وقوله : « وَلَا يَسْرق السَّارق حِين يَسْرِق وَهُو مُؤْمِن » لأن الإيمان يَرْدَعُه عن سَرِقَته لكن حِين يَقْدم على السَّرقة غير مؤمن . وقوله : « وَلَا يَشْرب الخمر حين يَشْربها وَهُو مُؤْمن » لكن قَبْل أن يَشْربه وَبَعْده قد يكون مؤمنًا « وَلَا يَنْتَهِب نهبة ذَات شَرَف يَرْفع النَّاس إِليه فِيها أَبْصَارهم » « ذَات شَرَف » أى ذَات قِيمة عِند النَّاس ولهذا يرفعون إليه أبْصَارهم . فَلَا يَنْتَهِبُها حِين يَنْتَهِبُها وَهُو مُؤْمن . فمثلاً : وَجَد إنسان على صَدْر رَجُل قَلَم يُسَاوى مِائة رِيال فَخَطَفَهُ فهذا لا ينتهبه حين يَنْتَهِبه وَهُو مُؤْمن لأَن القلم ذُو شَرَف يرفع النَّاس إليه فيه أَبْصَارهم هذه أربعة أَشْياء ، الزِّنى والسَّرقة ، وشُرب الخمر ، والنّهبة التى لها شرف وقِيمة وَوَزْن عند النَّاس لا يَفْعَلها أحدٌ وهو مُؤْمن بالله حين فِعْله لَهَا . فالمُراد بِنَفْى الإيمان هنا نَفْى تَمَام الإيمان فهذا الرَّجل ما اسْتَحَلَّ الزِّنى إذْ لو اسْتحلّه كفر لكنَّه فعله لِشَهْوَة دَفَعَتْهُ له ونَسَى

(١) البخارى (٢٤٧٥) ومسلم (٥٧) (١٠٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

الوَاعِظ الَّذى فى قَلْبه .

* * *

● **قال المؤلف : « وَنَقُولُ هُو مُؤْمِن نَاقِص الإيمان أَوْ مُؤْمن بِإِيمَانِهِ فَاسِق بِكَبِيرَتِهِ فَلَا يُعْطَىٰ الإِسْم المُطْلَق ، وَلَا يُسْلَب مُطْلَق الإِسْم » .**

والفَرْق بين مُطْلَق الشَّىء والشَّىء المُطْلَق أَن الشَّىء المطْلَق هو الشَّىء الكامل ومُطْلَق الشَّىء يعنى أصل الشَّىء وإن كان ناقصًا . فالفاسق لا يُعْطَى الإسم المُطْلق فى الإيمان وهو الإسم الكامل ولا يُسْلب مُطْلق الإسم فلا نَقُول ليس بمؤمن بل نقول مُؤْمن نَاقِص الإيمان أَوْ مُؤْمن بِإِيمَانِهِ فَاسِقٌ بِكَبِيرته هذا هو مَذْهَب أَهْل السُّنَّة والجماعة وهو المذهب العدل الوسط ؛ وخالفهم فى ذلك طوائف : المرجئة يقولون مؤمن كامل الإيمان ، والخوارج يقولون كافر ، والمعتزلة فى منزلة بين مَنْزلتين .

* * *

فَصْــــل

من أُصُول أَهْل السُّنَّة والجماعة سَلامة قُلُوبهم وَأَلْسِنَتِهم لِأَصْحَاب رَسُول الله ﷺ

٢٥٤ - وَمِن أُصُول أَهْل السُّنَّة وَالجَمَاعة : سَلَامَة قُلُوبِهم وَأَلْسِنَتِهم لِأَصْحَابِ رَسُول الله ﷺ .

٢٥٥ - كَمَا وَصَفَهم الله به فى قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر : ١٠] .

٢٥٦ - وَطَاعَةً لِرَسُول الله ﷺ فى قوله : « لَا تَسُبُّواْ أَصْحَابِى فَوَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُم أَنْفَقَ مِثْل أُحُد ذَهَباً مَا بَلَغ مُدّ أَحَدِهم وَلَا نَصِيفه » .

الشـــــرح

● **قال المؤلف رحمه الله تعالى : (فصل) « وَمِنْ أُصول أَهل السُّنة والجماعة سَلَامَةُ قُلُوبهم وَأَلْسِنَتِهم لِأَصْحاب رَسُول الله ﷺ »**

لما أَنْهَى المُؤَلِّف الكلام فيما يتعلَّق بالإيمان وَأَحْكَامه بدأَ فى عقيدة أَهْل السُّنة والجماعة فى أصحاب رَسول الله ﷺ فقال : « سَلامة قُلُوبهم وأَلْسِنتهم

لِأَصْحاب رَسُول الله ﷺ» ولم يَقُل وَأَفعالهم لأَنَّ الأفعال مُتَعَذِّرة بعد مَوْت الصَّحابة حتى لو فُرِض أَنَّ أحدًا نبش قُبورهم وأخرج جُثَثَهم فإِنَّ ذلك لا يُؤْذِيهم ولا يَضُرُّهم لكن الذى يمكن أن يكون بعد موت الصَّحابة نحوهم هو مَا يَكُون فى القَلْب وَمَا يَنْطِق به اللِّسان فمن أُصُول أَهْل السُّنَّة والجماعة سَلامة قُلُوبهم وأَلْسِنتهم لِأَصحاب رَسُول الله ﷺ . سَلامة القَلْب من البُغْض والغِلّ والحِقْد والكَرَاهة .

فَقُلُوبهم سَالِمة من ذَلك مَمْلُوءَةٌ بِالحُبِّ والتَّقدير والتَّعظيم لأصحاب رسول الله ﷺ على مَا يَلِيق بهم . فهم يُحِبُّون أُصْحَاب النَّبى ﷺ وَيُفَضِّلُونهم عَلَى جَمِيع الخَلْق لأَن محبتهم من مَحَبَّة رسول الله ﷺ ومحبَّة رَسُول الله ﷺ من محبَّة الله . وأَلْسِنَتهم أَيْضًا سَالِمة من السَّب والشَّتم واللّعن والتَّكْفِير ومَا أَشْبَه ذلك مِمّا يَأْتِى به أَهل البِدع لِأَصْحَاب رَسُول الله ﷺ . فإِذا سلِمَتْ مِن هَذَا مُلِئَتْ مِن الثَّنَاء عَلَيْهم والتَّرَضِّى عنهم والتَّرحُّم والاستغفار وغير ذلك لأَنَّهم يَعْلَمُون أَنَّهم خير القُرون فى جميع الأُمَم وكذلك هم الوَاسِطة بينهم وَبيْن رَسُول الله ﷺ وكذلك مَا كَان عَلَى أَيْدِيهم من الفُتُوحات العَظِيمة .

وَأَيْضًا : نَشَرُوا الفَضَائل بَيْن هَذِه الأُمَّة من الصِّدق والنُّصح والأَخْلاق والآداب التى لا تُوجد عِند غَيْرهم ولا يعرف هذا من كان يَقْرأ عنهم مِن وَرَاء جُدُر بل لا يَعْرف هذا إِلَّا من عَاشَ فى تَارِيخهم وَعَرف مَنَاقِبهم وَفَضَائِلهم وَإِيثَارهم وَاسْتِجابَتهم لله وَلِرَسُوله .

فَنَحْنُ نُشْهِدُ الله عزَّ وجلَّ على محبَّة هؤلاء الصَّحابة ونُثْنِى عَلَيْهم بِأَلْسِنَتِنا بما يَسْتَحِقُّون . وهذا من أُصُول أَهل السُّنة والجماعة .

والقَدْح فيهم ، وبُغْضهم ليس بُغْضًا لِأَشْخَاصهم لأَنَّ الإِنسان لم يَرَ

شَخْصهم حتَّى يَبْغَضهم ولكنه بُغْضٌ وَحِقْدٌ لِما كَانُوا عَلَيْه مِن الخير وَمَا بَثّوه مِن العِلْم وَمَا رَوَوْهُ عن رسول الله ﷺ لكن يُحِبُّون بَعْضَهم لا عَن عَقِيدة وإخلاص ولكن لِأَجْل إِضْلال النَّاس والتَّمويه . ولهذا قال عبدالله بن سبأ زعيمهم لعلى بن أبى طالب أنت الله فجعله نِدّاً مع الله عزَّ وجلَّ[1] . فنحن إِذًا نَتَبرَّأ من طريق الرَّوافض الذين يَسبُّون الصَّحابة ويغْلون فى آل البيت ، وَمِن طَرِيق النَّواصب الذين يَبْغَضُون آل البيت .

ونرى أَنَّ لآل البيت إِذا كانوا صَحَابة ثلاثة حُقوق : حق الصُّحبة ، وحق الإِيمان ، وحق القرابة مِن رسول الله ﷺ . واعلم أَنَّ من سَبَّ الصَّحابة رضى الله عنهم فقد قَدَحَ فِيهم وَسَبَّ الرَّسول ﷺ وسَبَّ الله وَقَدَح فى دِين الله وشريعته .

أَمَّا كَوْنُه قَدْحًا فى الصَّحابة فالأَمْرُ فيه ظاهر أَمَّا كونه سَبّاً للرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام فَلأَنَّ أَصْحاب الرَّسول عليهم الصَّلاة والسَّلام عَلَى مقتضى قول هؤلاء ، أصحاب السُّوء والشَّر والفَسَاد !! ومعلومٌ أَنَّ مَنْ كان أَصْحَابُه أَصحاب السُّوء والشَّر والفَسَاد فهو مِثْلَهُم .

وأَمَّا كَوْنُه قَدْحًا فى دِين الله فَلأَنهم هم حَمَلة هذا الدِّين إِلينا فإِذا قَدَحْنَا فيهم لم يكن عِنْدَنا ثِقَة بهذا الدِّين فتكون الشَّريعة غير مَوْثُوق بها وأَمَّا كونه سَبّاً لله فحيث اختار لنبيه ﷺ هؤلاء القَوم الأَشْقِياء الظَّلمة المُفْسِدين فى الأَرْض .

وقوله : « لِأَصْحاب رَسُول الله ﷺ » سبق أَن أصحاب رسول الله

(١) قال الذهبى فى الميزان (٤٢٦/٢) : « عبدالله بن سبأ من غلاة الزنادقة ضال مضل ، أحسب أن عليا حرقه بالنار » وراجع تاريخ دمشق لابن عساكر – تهذيب بدران (٤٣١/٧) ومقالات الإسلاميين ص (١٥) والملل والنحل (١٧٤/٦) .

ﷺ كُلّ من اجْتَمع به مؤمنًا به وَمَات عَلَىٰ ذلك . وَسُمِّى صَاحِبًا لأنَّه إذا اجتمع بالرسول ﷺ مُؤْمنًا بِهِ فقد صَحِبَهُ واتَّبعه والتزم اتّباعه وهذا من خَصَائِص صُحْبة الرَّسول ﷺ . أمَّا غير الرَّسول فلا يكون الشَّخص صَاحِبًا لَهُ حتى يُلَازمه مُلازمة طويلة يَسْتحق أن يكون بها صَاحِبًا .

* * *

● **ومن ثم قال المؤلف : « كَمَا وَصَفَهُم الله بِهِ فى قوله تعالى :**

﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

[الحشر : ١٠](*) » .

هذه الآية بعد آيتين سابقتين ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِم يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ الله وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ الله وَرَسُولَه أُوْلَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحشر : ٨] وَعَلى رَأْس هَؤُلاء المهاجرين أبوبكر وَعُمر وعُثْمان وَعَلى بن أَبى طالب .

ففى قوله : ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ الله وَرِضْوَانًا ﴾ هذا إخلاص النية ﴿ يَنصُرُونَ الله وَرَسُوله ﴾ هذا تحقيق الإخلاص ﴿ أُوْلَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُون ﴾ [الحشر : ٨] أى لم يفعلوا ذلك رياءً ولا سُمْعة ولكن عن صِدْق نِيّة .

(*) **قال الشيخ عبدالعزيز بن باز حفظه الله** : « خُلاصة مذهب أهل السُّنَّة والجماعة فى أصحاب رسول الله ﷺ وعَمَّا شجر بينهم : هو سَلَامَةُ قُلُوبهم وأَلْسنتِهم ، ومَحَبَّتهم إياهم ، والتَّرضِّى عنهم جميعًا ، وإظْهَارُ مَحَاسِنِهم وإخْفَاءُ مَسَاوِئهم ، أى إخفاء مَسَاوِىء من نُسِب إليه شىء من ذلك ، والإمساك عما شجر بينهم ، واعتقاد أنهم فى ذلك بين أمرين : إما مجتهدون مصيبون ، وإمَّا مُجْتَهدون مُخْطِئون ، فالمُصِيب له أَجْرَان والمُخْطِىءُ له أَجْرُ الإجتهاد وخَطَؤُه مَغْفُورٌ . وإذا قُدِّر أن لبعضهم سَيِّئات وَقَعت عَن غير اجتهاد فلهم من الحَسَنَات ما يغمرها ويَمْحُوها ، وليس فى بيان خطأ من أَخْطأ منهم فى حكم من الأحكام شىء من إظهار المَسَاوىء بل ذلك مِمَّا يَفْرِضُه الوَاجِب ويُوجِبُه النُّصح للأُمَّة » ا.هـ .

ثم قال : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر : ٩] هؤلاء الأنصار رضى الله عنهم وصفهم الله أيضًا بأَوْصاف ثلاث : ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ – وَلَا يَجِدُونَ فى صُدُورِهم حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا – وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسهم وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر : ٩] ثم قال تعالى بعد ذلك : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ ﴾ الآية [الحشر : ١٠] وهم التَّابعون وتابعوهم إلى يوم القيامة . فقد أثْنوا عليهم بالأخوة وبأنّهم سبقوهم بالإيمان وسألوا الله أن لا يجعل فى قلوبهم غِلّاً لهم فكل من خالف فى ذلك وقدح فيهم ولم يعرف لهم حقهم فليس من هؤلاء الذين قال الله عنهم : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُواْ مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِر لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا ﴾ [الحشر : ١٠] ولما سُئِلت عَائِشة رضى الله عنها عن قوم يَسُبُّون الصَّحابة قالت : «لاتَعْجبون! هَؤلاء قَوْمٌ انقطعت أَعْمَالهُم بِمَوْتِهم فَأَحَبَّ الله أن يُجْرِى أَجْرَهم بَعْد مَوْتِهم » .

وقوله : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ [الحشر : ١٠] ولم يَقُلْ لِلَّذين سَبَقُونا بالإيمان ليشمل هؤلاء السَّابقين وغيرهم إلى يوم القيامة ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحشر : ١٠] وَلِرَأفتك وَرحْمتك نسألُك المغفرة لنا وللذين سبقونا بالإيمان .

* * *

● **قال المؤلف : « وطاعة النَّبى ﷺ فى قوله : « لاتَسبُّوا أَصْحَابِى فَوَالَّذى نَفْسِى بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُم أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُد ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِم**

وَلَا نَصِيفَه »(١) .

السَّب : هو القَدْحُ والعَيْب فإن كان فى غيبة الإنسان فهو غيبة وقوله : « أصحابى » أى الذين صَحِبُوه وصُحْبة النَّبى ﷺ لاشك أنَّها تَخْتلف . صُحْبةٌ قديمة قبل الفتح وَصُحْبَةٌ مُتَأَخرة بعد الفتح . والرَّسول عليه الصَّلاة والسلام كان يُخَاطب خالد بن الوليد حين حَصَل بَيْنَه وبين عبدالرحمن بن عوف مَا حَصَل من المُشَاجرة فقال النبى ﷺ لخالد : « لا تَسبُّوا أَصْحَابِى » والعِبْرة بِعُمُوم اللَّفظ . ولاشك أن عبدالرحمن بن عوف وأَمْثاله أَفضل من خالد بن الوليد رضى الله عنه من حَيْث سَبْقهم إلى الإِسلام لهذا قال : « لَا تَسبُّوا أَصْحَابِي » يُخاطب خالد بن الوليد وأمثاله وإذا كان هذا بالنِّسبة لخالد بن الوليد وأَمثاله فما بالك بالنِّسبة لمن بعدهم .

وقوله : « فَوَالَّذِى نَفسِى بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُم أَنْفَقَ مِثْل أُحُد ذَهَبًا ... الخ » أصحاب الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام جمعوا بين الصُّحبة والأخوة فهم أصحابه وإخوانه أَمَّا مَن يَأْتُون بَعْده فهم إخوانه وليسوا أصحابه ولهذا قال النَّبى ﷺ وددت أَنَّا نَرَىٰ إِخْوَانَنَا» قَالوا يَا رَسُولَ الله نحن إِخْوَانَك ، قال : أَنْتُم أَصْحَابى وإِخْوَانِى قَوْمٌ يأتون بَعْدى يُؤْمِنُون بِى وَلَمْ يَرَوْنِى »(٢) نَسْأَل الله أن يَجْعَلَنا مِنهم .

فهنا أَقْسَم النبى عليه الصَّلاة والسَّلام وهو الصَّادق البَار بِدُون قَسَم : « لو أَنَّ أَحَدَكُم أَنْفَقَ مِثْل أُحد ذَهَبًا مَا بَلَغ مُدَّ أَحَدِهِم وَلَا نَصِيفَه » أُحُد جَبل عظيم كبير معروف فى المدينة ، والمُدُّ : رُبع الصَّاع وَلَا نَصِيفُه أى

---

(١) رواه البخارى (٣٦٧٣) ومسلم (٢٥٤١) (٢٢٢) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

(٢) رواه مسلم (٢٤٩) (٣٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

نِصْفُه . ومن أين ؟ قال بعضهم من الطّعام ؛ لأَن الّذى يُقَدّر بالمُد والنّصيف هو الطَّعام أَمَّا الذّهب فَيُوزَن . وقال بعضهم من الذَّهب بقرينة السِّياق لأَنَّه قال : « لو أَنْفَق مِثْل أُحد ذَهَبًا مَا بَلَغ مُدَّ أَحِدِهم وَلَا نَصِيفُه » يعنى من الذَّهب . وَعَلى كُلِّ حال : فإن قُلنا من الطَّعام فمن الطَّعام ، وإن قُلْنا من الذَّهب فليكن من الذَّهب . ونِسْبَةُ المُدُّ أو نِصْف المدّ من الذَّهب إلى جبل أُحُد من الذَّهب لا شيء . فالصَّحابة رضى الله عنهم إذا أنفق الإنسان منا مثل أحد ذَهَبًا مَا بَلَغ مُدَّ أَحَدِهم وَلَا نَصِيفه ، والإنفاق وَاحِد والمُنْفِق وَاحد والمُنْفَق عَلَيْه وَاحد ، والمنفق كلهم بَشَر لكن لا يَسْتوى البَشَر بعضهم مع بعض . فهؤلاء الصَّحابة رضى الله عنهم لهم من الفضائل والمناقب والإخلاص والإتّباع مَا لَيْس لغيرهم . فلإخلاصهم العظيم واتِّباعهم الشَّديد كانوا أَفْضَل من غيرهم فيما يُنْفِقُون .

وهذا النَّهى يقتضى التَّحريم فلا يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَن يَسُبَّ الصَّحابة على العموم ولا أَن يَسُبَّ وَاحدًا منهم عَلَى الخصوص ، فإنْ سَبَّهم عَلَى العموم كان كافرًا ، بَلْ لَا شَكَّ فى كُفْر مَنْ شَكَّ فى كُفْره ، أَمَّا إن سَبَّهُم على سبيل الخُصُوص فينظر فى الباعث لذلك ، فقد يَسُبّهم من أَجل أَشْياء خِلْقية أَو خُلُقية أو دِينية .

* * *

فضـائل الصَّحابة وَمَرَاتبهم وتفَاضُلهم
وموقف أهل السُّنة والجماعة من ذلك

٢٥٧ - وَيَقْبَلُون مَا جَاءَ بِهِ الكِتَاب والسُّنَّة والإجماع مِن فَضَائِلِهم وَمَرَاتِبهم .

٢٥٨ - وَيُفَضِّلُونَ مَنْ أَنْفَقَ مِن قَبْل الفَتْح - وَهُو صُلْح الحُدَيْبِيَّة - وَقَاتَل عَلَىٰ مَنْ أَنْفق مِن بَعْد وَقَاتَل .

٢٥٩ - وَيُفَضِّلُونَ المُهَاجِرين عَلَىٰ الأَنْصَار .

٢٦٠ - وَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّ الله قَالَ لِأَهْل بَدْر وَكَانُوا ثَلَاثُمائة وَبِضْعَة عَشَر : « اعمَلُوا مَا شِئْتُم فَقَد غَفَرْتُ لَكُم » .

٢٦١ - وَبِأَنَّهُ لا يَدْخُل النَّار أَحَدٌ بَايَع تَحت الشَّجرة كما أَخْبر به النَّبى ﷺ بَلْ لَقَد رَضِى الله عنهم وَرَضُوا عَنْهُ ، وَكَانُوا أَكْثَر من أَلْف وَأَرْبعمائة .

٢٦٢ - وَيَشْهَدُونَ بِالجَنَّة لِمَنْ شَهِدَ لَهُ رَسُول الله ﷺ كَالعشرة وَثَابِت بن قَيْس بن شِمَاس وَغَيْرهم من الصَّحَابة .

٢٦٣ - وَيُقِرُّونَ بِمَا تَوَاتَر به النَّقل عن أَمِير المُؤْمنين عَلِّى بن أَبِى طَالب رضى الله عنه وَغَيْره مِن أَنَّ خَيْر هَذِهِ الأُمَّة بعد نَبِيِّها أَبو بكر ثمَّ عُمر وَيُثَلِّثُونَ بِعُثْمَان وَيُرَبِّعُون بِعَلِّى رضى الله عنهم . كَمَا دَلَّت عَلَيْه الآثَار .

٢٦٤ - وَكَما أَجْمَع الصَّحابة عَلَىٰ تَقْديم عُثْمان فى البَيْعة مع أَنَّ بعض أهل السُّنَّة كانوا قد اختلفوا فى عُثْمان وَعَلى رضى الله عنهم بعد اتِّفاقهم عَلَىٰ تقديم أَبى بكر وعمر أَيُّهما أَفْضل فَقَدَّم قَوْمٌ عُثمان وَسَكَتُوا أو ربَّعوا بِعَلّى ، وَقدَّم قَوْمٌ عليًّا وَقوم تَوَقَّفوا لكن اسْتَقَرّ أَمْرُ أَهْل السُّنَّة عَلَى تَقْدِيم عُثْمان ثمَّ عَلِى .

الشـــــرح

● **قال المؤلف : « وَيَقْبَلُون مَا جَاء بِه الكِتَاب والسُّنَّة والإجماع مِن فَضَائلهم وَمَرَاتِبهم »** .

الفَضَائِل : جَمْعُ فَضِيلة وَهُو مَا يفضل به المرء ويُعد مَنْقَبةً لَهُ . والمراتب الدَّرجات ؛ لأَنَّ الصَّحابة درجات ومراتب كما سيذكرهم المؤلف رحمه الله . فما جاء من فَضَائل الصَّحابة وَمَرَاتبهم فإن أَهل السُّنَّة والجماعة يَقْبَلُون ذلك فمثلاً يَقْبَلُون ما جاء عنهم من كثرة صَلاة أو كثرة صَدقة أو كثرة صِيام وَيقْبَلُون مثلاً مَا جَاء عن أبى بكر رضى الله عنه أَنَّ النَّبى ﷺ حَثَّ على الصَّدقة فجاء أبوبكر بجميع مَالِه وهذه فَضِيلة . ويَقْبَلُون مَا جاء به الكتاب والسُّنَّة من أن أبَا بكر رضى الله عنه كان وحده صَاحِب رسول الله ﷺ فى هجرته فى الغار ، ويقبلون مَا جَاء به النَّص من قول الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام فى أَبى بكر : « إنَّ مِن أَمَن النَّاسِ عَلَيَّ فى مَالِه وَصُحْبَتِهِ أَبُوبَكر »(١) وكذلك مَا جَاء عن عمر وعن عثمان وَمَا جاء عن على رضى الله عنهم وَمَا جاء عن غيرهم من الفَضَائل يَقْبَلُون هذا كله وكذلك المراتب فيقبلون ما جاء فى مَرَاتبهم ، فالخلفاء الرَّاشدون هم القمة فى هذه الأُمة فى

(١) رواه البخارى (٣٩٠٤) ومسلم (٢٣٨٢) (٢) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

المرتبة ، وأعلاهم مرتبة أبوبكر ثمَّ عمر ثمَّ عثمان ثم على كما سيذكره المؤلف .

* * *

● **قال المؤلف : « وَيُفضِّلُونَ مَنْ أَنْفَق مِن قَبْل الفَتْح وَهُو صُلْح الحُدَيْبِيّة وَقَاتَل عَلَى مَنْ أَنْفَقَ مِن بَعْد وَقَاتَل » .**

ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِى مِنكُمْ مَنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنفَقُواْ مِن بَعْد وَقَاتَلُواْ وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الحُسْنَى ﴾ [الحديد : ١٠] . فالذين أنفقوا وَقَاتلوا قبل صُلْح الحديبية أفضل من الَّذين أَنْفَقُوا من بعد وقاتلوا . وكان صُلْح الحديبية فى السَّنة السَّادسة من الهجرة فى ذِى القعدة . فالَّذين أسْلَمُوا قبل ذلك وأنْفَقُوا وَقَاتَلُوا أَفْضل من الَّذين أنفقوا من بَعْدُ وَقَاتَلُوا . فَإِذا قال قائل : كيف نعرف ذلك ؟

فالجواب : أنَّ ذَلك يُعرف بالإسلام والتَّاريخ كأن نرجع إلى « الإصابة فى تمييز الصَّحابة » لابن حجر أو « الإستيعاب فى معرفة الأصحاب » لابن عبدالبر أو غير ذلك من الكُتب المؤلفة فى الصَّحابة رضى الله عنهم ويعرف أن هذا أَسْلَم مِن قَبْل أو أَسْلَم من بَعد .

* * *

●**قال المؤلف : « وَيُقَدِّمُون المُهَاجِرين عَلَىٰ الأَنْصَار » .**

المُهَاجرون أَفْضَل من الأَنصار لأَنَّ المهاجرين جمعوا بين الهجرة والنُّصرة . والأنصار أتوا بالنُّصرة فالمهاجرون تركُوا أَهلهم وأموالهم وَتركوا أَوْطانهم وَخَرجوا إلى أرض هم فيها غُرباء كل ذلك هجرة إلى الله وَرسُوله ونصرة لله ورسوله . الأنصار جاءَهُم النَّبى ﷺ فى بِلَادِهم وَنَصروا النَّبى

ﷺ ولاشك أنهم منعوه مما يمنعون منه أبناءهم ونساءهم ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المهَاجِرِينَ وَالأَنصَار وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَضِىَ الله عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ [التوبة : ١٠٠] فهنا قدّم المهاجرين على الأنصار . وقال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ تَابَ الله عَلَى النَّبِىِّ وَالمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَار ﴾ [التوبة : ١١٧] . فقدّم المهاجرين وقال تعالى فى الفىء ﴿ لِلْفُقَراءِ المهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالهم ... ﴾ [الحشر : ٨] ثم قال : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّؤوا الدَّارَ والإيمَان مِن قَبْلهم ﴾ [الحشر : ٩] .

* * *

● **قال المؤلف : « وَيُؤْمِنُون بِأَنَّ الله قَال لأَهْل بَدْر وَكَانُوا ثَلاثُمائة وَبِضْعَة عَشَر : « اعْمَلُوا مَا شِئْتُم فَقَد غَفَرْتُ لَكُم »**

أَهْل بدر مرتبتهم من أَعْلَى مَراتب الصَّحابة . وبدر غزوة مشهورة كانت فى السَّنة الثانية من الهجرة فى رمضان وسمَّى الله تعالى يومها يَوْم الفُرقان . وسَبَبها أن النبى ﷺ سمع أن أبا سفيان قدم بعير من الشام إلى مكة فندب أَصحابه من أجل هذه العير فقط فانتدب منهم ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً معهم سبعون بعيرًا وفرسان وخرجوا من المدينة لا يُريدون قِتالاً لكنَّ الله عز وجل بِحِكْمَتِه جمع بينهم وبين عدوِّهم فلما سمع أبو سفيان بذلك وأن الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام خرج إليه لتلقى العِير أخذ بساحل البحر وَأَرْسَل صَارِخًا إلى أهل مكة يَسْتنجدهم . فانتدب أهل مكة لذلك وخرجوا بِأَشْرافهم وَكُبَرائهم وَزُعَمائِهم خرجوا على الوَصْف الذى ذكر الله عز وجل ﴿ بَطَرًا وَرِئَاء النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله ﴾ [الأنفال : ٤٧] وفى أثناء ذلك جاءهم الخبر أن أبا سُفيان نجا بِالعِير فتآمروا بينهم فى الرُّجوع لكنَّ أبا جهل قال والله لا نرجع حتى نَقْدُم بدراً فَنُقِيمُ فيها نَنْحُر الجزور ونسقى الخمور وتضرب علينا

القِيان وتسمع بنا العَرب فلا يَزَالُون يَهَابُوننا أبدًا » وهذا الكلام يَدُلُّ على الفخر والخيلاء والإعتزاز بالنفس ولكن ولله الحمد كان الأمر على عكس ما يقول سَمِعت العَرب بهزيمتهم النّكراء فهانوا فى نُفُوس العرب . قدموا بدرًا والتقت الطَّائفتان وأوحى الله تعالى إلى الملائكة ﴿ أَنِّي مَعَكُم فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَان . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَاب . ذَلِكُم فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّار ﴾ [الأنفال : ١٢-١٤] حصل اللِّقاء بين الطَّائفتين وكانت الهزيمة ولله الحمد على المشركين والنَّصر المبين للمؤمنين . انتصروا وأسروا منهم سبعين رَجُلاً وقَتَلُوا سبعين رجلاً منهم أربعة وعشرون رجلاً من كُبَرَائِهم وَصَنَادِيدهم سُحِبوا فَأُلقوا فى قَلِيب مِن قُلب بدر خبيثة قبيحة ثم إن النبى ﷺ بعد انتهاء الحرب ركب ناقته ووقف عليهم يدعوهم بأَسْمَائهم وَأَسْمَاءِ آبَائِهم يَا فُلان ابن فُلان هل وَجَدتم مَا وَعَد رَبُّكم حَقّاً فإِنِّى وَجَدتُ مَاوَعَدنى رَبِّى حَقّاً . فقالوا : يَا رَسُولَ الله : مَا تكلم من قوم جيّفوا ؟ فقال : مَا أَنْتُم بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُول مِنهم ولكن لا يُجِيبُونَ »(١) والنبى عليه الصَّلاة والسَّلام وقف عليهم تَوْبيخًا وتقريعًا وتنديمًا وهم قد وَجَدُوا مَا وَعَد الله حَقّاً وهو ﴿ ذَلِكُم فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِين عَذَاب النَّار ﴾ [الأنفال : ١٤] فوجدوا النَّار من حين ماتوا وعرفوا أن الرَّسول حق ولكن

---

(١) البخارى (١٣٧٠) ، (٣٩٧٦) ، (٣٩٧٨) ، (٣٧٩) ومسلم (٣٩٢) (٢٦) ، (٢٨٧٥) (٧٨) .

وحادثة القليب هذه خرق عادة للنبى ﷺ ومعجزة له . قال الألوسى فى روح المعانى (٦/٤٥٥) : « ففيه تنبيه قوى على أن الأصل فى الموتى أنهم لا يسمعون ولكن أهل القليب فى ذلك الوقت قد سمعوا نداء النبى ﷺ وبإسماع الله تعالى إياهم خرقًا للعادة ومعجزة للنبى ﷺ » ا.هـ .

أنَّى لهم التَّناوش من مكان بعيد . هؤلاء القوم ثلاثمائة وَبِضْعة عَشَرَ رَجُلاً أَهْلُ بَدْر الَّذين جَعل الله على أيديهم هذا النَّصر المبين والفرقان الَّذى هاب العرب بِهِ رسول الله ﷺ وأصحابه وكان لَهم مَنْزِلة عظيمة بعد هذا النَّصر .

اطَّلع الله عليهم وقال : « اعْمَلُوا مَا شِئْتُم فَقَد غَفْرتُ لَكُم »[١] فكل مَا يَقَعُ مِنْكُم من ذُنوب فإنه مَغْفُور لكم بِسَبَب هذه الحسنة العظيمة الكبيرة التى جعلها الله تعالى على أيديكم .

وفى هذا الحديث دليلٌ على أن مَا يَقَع منهم من الكبائر مَهما عظم فهو مغفورٌ لهم .

وفيه بشارة بأنهم لا يمكن أن يموتوا على الكفر لأنَّهم مغفورٌ لهم وهذا يقتضى أحد أمرين :

إمَّا أنَّهم لا يمكن أن يكفروا بعد ذلك .

وإمَّا أنَّهم إن قدِّر أن أحدهم كفر فسَيُوَفَّق للتَّوبة والرُّجوع إلى الإسلام وَأَيًّا كان ففيه بِشَارة عظيمة لهم .

* * *

● قال المؤلف : « وَبِأَنَّه لَا يَدْخُل النَّار أَحَدٌ بَايَعَ تَحت الشَّجرة كما أُخْبر به النبى ﷺ[٢] بل لقد رَضِىَ الله عَنْهم وَرَضُوا عَنْهُ وَكَانُوا أَكْثر

---

(١) البخارى (٣٠٠٧) ومسلم (٢٤٩٤) (١٦١) من حديث على رضى الله عنه .

(٢) رواه مسلم (٢٤٩٦) من حديث جابر بن عبدالله قال أخبرتنى أم مبشر أنها سمعت النبى ﷺ يقول عند حفصة : « لا يدخل النار – إن شاء الله – من أصحاب الشجرة أحد الذين بايعوا تحتها » .

أما لفظ « لا يدخل النار أحَدٌ بايع تحت الشجرة » فعند الترمذى (٣٨٥٩) وأبو داود (٤٦٥٣) .

مِنْ أَلْف وَأَرْبَعمائة » .

أَصْحاب الشَّجرة هم أصحاب بيعة الرّضوان وَسَبب هذه البيعة أن النبى ﷺ خرج من المدينة إلى مكة يُريد العُمرة وَمَعه أصحابه والهدى وكانوا أَلْفًا وأَرْبعمائة رَجُل لا يُريدون إِلَّا العُمرة فلما بَلَغوا الحديبية ، وهى مكانٌ بعضها من الحل وبعضها من الحرم وعلم بذلك المشركون منعوا رَسُول الله ﷺ وأصحابه لأنهم يزعمون أنهم أهل البيت وحماة البيت ﴿ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا المتَّقُونَ﴾ [الأنفال : ٣٤] وجرت بينهم وبينهم مُفَاوَضات وَأَرَى الله تعالى من آياته فى هذه الغَزْوة مَا يَدُلُّ على أَنَّ الأولى تنَازل الرَّسول ﷺ وأصحابه لما يترتَّب على ذلك من الخير والمصلحة فإن ناقة الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام بَرَكَت وأَبَت أن تَسِير حتى قالوا : « خلأت القَصْواء » يعنى حَرَنت وَأَبت المسير فقال النبى ﷺ مُدَافعًا عنها : « وَٱللهِ مَا خَلَأت القصواء وَمَاذاك لها بِخُلق ولكن حَبَسَها حَابسُ الفِيل » . ثم قال: « وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لا يَسْأَلُونى خِطَّة يُعَظِّمُونَ فِيها حُرُمَات الله إِلَّا أَجَبْتُهم عَلَيها »(١) . جرى التَّفاوض وأَرْسل النَّبى ﷺ عثمان بن عفان لأَنَّ له رهطًا فى مكة يحبونه أرسله إلى أهل مكة يفاوضهم ويخبرهم أن النبى ﷺ إنما جاء معتمرًا معظمًا للبيت فاحتبسته قريش عِنْدها فشاع الخبر بأن عثمان قد قتل وكبُر ذلك على المسلمين فدعا النبى ﷺ إلى البيعه يُبَايع أُصحابه عَلَى أَن يقاتلوا أهل مكة الذين قَتَلوا رَسُول رَسُول الله ﷺ وكانت الرُّسل لا تقتل . فبايع الصَّحابة رضى الله عنهم النبى ﷺ على أن يُقَاتِلُوا ولا يفرّوا .

---

(١) رواه البخارى (١٦٩٤) ، (٢٧٣١) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم فى الحديث الطويل فى صلح الحديبية .

خلأت : أى بركت من غير علة ، القصواء : الناقة المقطوع طرف أذنها .

وكان تحت شجرة يُبَايع النَّاس يَمُدُّ يده فيبايعونه على هذه البيعة المباركة التى قال الله عنها : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّما يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح : ١٠] . وكان عثمان رضى الله عنه غائبًا فبايع النبى ﷺ بيده عن يَدِ عثمان وقال : « هذه يَدُ عُثْمان » ثم تَبَيَّن أَنَّ عثمان لم يُقْتَل وصَارَت الرُّسل تَأْتى وَتَرُوح بَيْن رسول الله ﷺ وقريش حتى انتهى الأَمْر عَلَى الصُّلح الذى صار فتحًا مُبينًا للرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام . هؤلاء الذين بايعوا قال الله عنهم : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ المُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [الفتح : ١٨ ، ١٩] وذلك فى غزوة خيبر التى كانت بعد ذلك . وكان من جملة المبايعين أبو بكر وعمر وعثمان وعلى فوصفهم الله بالإيمان وهذه شَهَادةٌ من الله عز وجل بأَنَّ كُلّ مَنْ بَايَع تحت الشَّجرة فهو مُؤْمِن مَرْضىٌّ عَنْه . والنَّبى عليه الصَّلاة والسَّلام قال : « لا يَدْخل النَّار أَحَدٌ بَايَعَ تَحْت الشَّجرة »(١) فالرِّضى ثبت بالقرآن وانتفاء دُخول النَّار ثبت بالسُّنة . وقول النَّبى عليه الصَّلاة والسَّلام : « لا يَدْخل النَّار أَحَدٌ بَايع تحت الشَّجرة »(٢) قد يقول قَائل : كيف نجمع بينه وبين قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيّاً ﴾ [مريم : ٧١] فالجمع من أحد وجهين :

الأَول : أن يُقَال إِن المُفسِّرين اختلفوا فى المراد بالوُرُود فقال بعضهم : هُو المُرور على الصِّراط لأَنَّ هذا نَوْعُ ورود بلاشك كما فى قوله تعالى ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ [القصص : ٢٣] ومعلومٌ أَنَّه لم يَنْزل وسط الماء بل كان حوله وقريبًا منه وبناءً على هذا لا إِشكال

(١) تقدم تخريجه ص (٦٦٤) .

(٢) تقدم تخريجه ص (٦٦٤) .

ولا تعارض أصلاً ومن المفسرين من يقول : المراد بالوُرُود الدُّخول وأَنَّه مَا مِن إنسان إلَّا وَيَدْخُل النَّار وَبِناء على هذا القول فيحمل قوله : « لا يَدْخُل النَّار أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجرة »[1] لا يَدْخُلها دُخُول عَذَاب وإهانة وإنما يَدْخلها تنفيذًا للقسم ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدهَا ﴾ أو يقال إن هذا من باب العام المخصوص بأهل بيعة الرضوان وقوله : « الشجرة » الشجرة هذه شجرة سدر .

المفسرون يقولون : إنها شجرة سَمُر ، وهو أَقرب إلى الصَّواب .

كانت ذات ظِلّ فجلس النبى ﷺ تحتها يُبَايع النَّاس وكانت مَوْجودة فى عهد الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام وعهد أبى بكر رضى الله عنه وأَوَّل خلافة عمر فلما قيل له إنَّ الناس يختلفون إليها - أى يأتونها - أَمَر رضى الله عنه بِقَطْعِها وهذه من حَسَنات عمر بن الخطاب رضى الله عنه لأَننا نظن أَنَّ هـذه الشَّجرة لو كانت باقية إلى الآن لَعُبِدَت من دُون الله .

* * *

● **قال المؤلف : « وَيَشْهَدُونَ بِالجَنَّة لِمَنْ شَهِدَ لَهُ رَسُول الله ﷺ كَالعَشَرَةِ ، وَثَابِت بن قَيْس بن شِمَاس وَغَيْرِهم مِن الصَّحابة »** .

يَشْهَدُون أَى أَهْلُ السُّنَّة والجماعة . والشَّهادة بالجنة نوعان : شَهَادةٌ مُعَلَّقة بِوَصْف ، وَشَهَادة مُعلقةٌ بِعَيْن .

أَمَّا المُعَلَّقة بالوَصْف : كأَن نَشْهد لكل مُؤْمن أَنَّه فى الجنة وكل المتقين فى الجنة بِدُون تَعْيين شخص وهذه شهادة عامَّة يجب علينا أن نشهد بذلك وُجوبًا لأَن الله تعالى أَخبر به فقال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَات

(١) تقدم تخريجه ص (٦٦٤) .

أُوْلئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيّة . جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهم جَنَّات عَدْن ﴾ [البينة : ٧ ، ٨] وقال : ﴿ وسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِن رَبِّكُمْ وَجَنَّة عَرْضُهَا السَّمَاوَات وَالْأَرْض أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِين ﴾ [آل عمران : ١٣٣] .

أَمَّا الشَّهادة المُعَلَّقة بشخصٍ مُعَيّن : فلا يجوز أن نَشْهد لكل مؤمن بعينه أَنَّه من أهل الجنَّة إِلَّا مَنْ شَهِدَ لَهُ الرَّسول ﷺ سَواء شَهِدَ لِشَخْصٍ مُعَيّن وَاحِد أو لِأَشْخَاصٍ مُعَيَّنِين عَلَى سَبِيل العُمُوم مثال ذلك ما ذكره المُؤَلِّف بقوله : « كَالعَشَرة » العَشَرة المُبَشَّرون بالجنة لُقِّبوا بهذا الإسم لأَنَّ النبى ﷺ جمعهم فى حَدِيثٍ واحد وهم الخلفاء الأَرْبعة أبوبكر وعمر وعُثمان وعلى وسَعيد بن زيد وَسَعْد بن أَبى وقاص وعبدالرحمن بن عوف وَطَلْحَة بن عبيدالله والزُّبير بن العوام وأَبو عبيدة عامر بن الجراح وقد جمع السِّتة الزَّائِدون على الخلفاء الأربعة فى بيت :

سَعِيدٌ وَسَعْدٌ وابن عوف وطلحةٌ وَعامِر فهرٍ والزُّبير المُمَدَّح

هَؤلاء بشَّرهم النَّبى ﷺ فى نسق واحد فقال : « أَبوبكر فى الجنَّة وعُمر فى الجنَّة ... الخ »[١] ولهذا لُقِّبوا بهذا اللَّقب فيجب أن نشهد أنهم فى الجنة لشهادة النبى ﷺ بذلك .

قالَ المؤلف : « وثابت بن قَيْس بن شِمَاس » ثابت بن قيس رَضى الله

---

(١) **حَدِيثٌ صَحِيحٌ** : رواه أبو داود (٤٦٤٩) ، (٤٦٥٠) والترمذى (٣٧٤٨) ، (٣٧٥٧) وابن ماجة (١٣٤) وأحمد (١/١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩) وفى فضائل الصحابة (٨٧ ، ٩٠ ، ٢٢٥) وابن أبى عاصم فى السنة (١٤٢٨ ، ١٤٣١ ، ١٤٣٦) والحاكم (٤/٤٤٠) والنسائى فى الفضائل (٨٧ ، ٩٠ ، ١٠٦) وأبو نعيم (١/٩٥) وغيرهم من حديث سعيد بن زيد مرفوعًا وإسناده صحيح وقد صحَّحه الألبانى فى صحيح الجامع الصغير (٤٠١٠) .

وفى الباب عن عبدالرحمن بن عوف : أخرجه الترمذى (٣٧٤٨) وأحمد (١/١٩٣) وفى الفضائل (٢٧٨) والنسائى فى الفضائل (٩١) والبغوى فى شرح السنة (٣٩٢٥) بإسنادٍ صحيح .

عنه أَحَدُ خُطباء النَّبى ﷺ . كان جَهُورىّ الصَّوت فلما نزل قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَا تَرْفَعُواْ أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِىّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُون ﴾ [الحجرات : ٢] خاف أن يكون حبط عَمَلُه وهو لا يشعر فاختفى فى بَيْته فَفَقَده النَّبى عليه الصَّلاة والسَّلام فبعث إليه رَجُلاً يَسأَلُهُ عن اخْتِفَائِه فقال إنَّ الله أَنْزَل قوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَا تَرْفَعُواْ أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِىّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْض أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُم لَا تَشْعُرُون ﴾ [الحجرات : ٢] وأخاف أن يكون حَبِطَ عَمَلِى وأنَا لا أَشْعُر فقال الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام للرَّسول : ارْجِع إليه وَقُل لَهُ : لا إِنَّك تَعِيشُ حَمِيدًا وَتُقْتَل شَهِيدًا وَتَدْخُل الجَنَّة »[١] فَبشَّره النبى ﷺ بالجَنَّة .

قال المؤلف : « وَغَيْرهم مِن الصَّحابة » مِثْل خَدِيجة رَضى الله عنها الذى قال جبريل : « إِنَّ الله يُبَشِّرُهَا بِبَيْتٍ فى الجَنَّة مِن قَصَب لا صَخَبَ فِيهِ وَلَا نَصَب »[٢] .

ومنهم : أُمَّهات الْمُؤْمنين كذلك فى الجنة لأَنَّهن فى درجة الرَّسول ﷺ .

ومنهم : بلال ، وعبدالله بن سَلام ، ومنهم عُكّاشة بن مُحْصِن وسَعْدُ ابن مُعَاذ رضى الله عنهم[٣] .

* * *

(١) البخارى (٣٦١٣) ومسلم (١١٩) (١٨٧) من حديث أنس رضى الله عنه .

(٢) البخارى (٣٨٢٠) ومسلم (٢٤٣٢) (٧١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .
قَصَب : بفتحتين المراد به لؤلؤ مجوف واسع كالقصر المنيف .
النَّصَب : الكِلال والتَّعب .

(٣) أمَّا بلال : ففى حديث جابر عند مسلم (٢٤٥٧) (١٠٦) أن رسول الله ﷺ قال : =

● **قال المؤلف : « وَيُقِرُّون بِمَا تَوَاتَر به النَّقل عَن أَمِير المُؤْمنين عَلِيٍّ ابن أَبِى طَالِب رضى الله عنه وغيره » .**

أفادنا المؤلف رحمه الله أَن هذا الأثر مُتَواتر(١) والمُتَواتر يُفيد العلم اليَقينى ، وهو الذى اتَّفق عليه طَائِفة لا يمكن تَوَاطُؤهم على الكذب .

الأمر الثَّانى : أَنَّه قال عن أمير المؤمنين « عَلِىّ » من أجل أن يُدْحِض شُبْهة الرَّافضة الَّذين يقولون إن عَلى بن أبى طالب أفضل من أبى بكر وعمر فإذا كان عَلِى رضى الله عنه يقول وهو فى زمن خِلافته : « إِنَّ خير هذه الأُمَّة بعد نَبِيّها أبوبكر ثم عمر » فقد اندحضت حجة الرافضة .

ثم قال : « وَغَيره » يعنى غير على من أئمة المسلمين .

قال : « **مِنْ أَنَّ خَيْر هَذِهِ الأُمَّة بَعْد نَبِيِّها أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ عُمَر** » هذا مُتَّفَقٌ عَلَيْه بين الأُمَّة الإسْلامية ، ومن خرج عن هذا الإجماع فقد اتَّبع سَبِيل

=أُرِيتُ الجنة فرأيت امرأة أبى طلحة ، وسَمِعْتُ خَشْخَشةً أَمَامِى فإذا بِلال .

- وأمَّا عبدالله بن سلام : ففى حديث سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه عند البخارى (١٩٨٢) ومسلم (٢٤٨١) (١٤٣) قال: ما سمعت النبى ﷺ يقول لأحد يَمْشى عَلَى وَجْه الأَرض إنَّه مِنْ أَهْل الجَنَّة إلَّا لِعَبْد الله بن سلام .

- وأما عكاشة بن محصن فقد دعا له النبى ﷺ بأن يكون من السَّبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حِسَاب وذلك فى حديث ابن عباس عند البخارى (٦٥٤١) ومسلم (٢٢٠) (٣٧٤) .

- وأمَّا سعد بن معاذ : ففى حديث البراء عند البخارى (٣٨٠٢) ومسلم (٢٤٦٨) (١٢٦) قال: أهديت لرسول الله ﷺ حُلَّةُ حَرِير فَجَعَل أَصْحَابُه يَمَسُّونَها ويَعْجَبُون من لِينها فقال : أَتَعْجَبُون مِن لِين هَذِهِ ، لَمَنَادِيلُ سَعْد بن معاذ فِى الجَنَّة خَيْرٌ مِنْ هَذِهِ وَأَلْيَن .

(١) **أثَرٌ صَحِيحٌ** : أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (١/١٠٦ ، ١١٠) وابنه عبدالله فى زوائده على المسند (١/١٠٦ ، ١١٠ ، ١٢٧) وأحمد فى فضائل الصَّحابة (٣٩٧) بأسانيد صحيحة وحسنة وكذا أخرجه ابن أبى عاصم فى كتاب السنة (١٢٠١) وصححه الألبانى فى تخريجه للسنة لابن أبى عاصم (٢/٥٧٠) .

غَيْر المُؤْمِنِين .

* * *

● **قال المؤلف : « وَيُثَلِّثُونَ بِعُثْمان وَيُرَبِّعونَ بِعَلّى رضى الله عنهم كَمَا دَلَّت عَلَيْه الآثَار »**

يُثَلِّثون يعنى أهل السُّنّة أى يجعلون عثمان هو الثَّالث . ويُرَبِّعون بعلى أى يجعلون عَليّاً هو الرَّابع ، وعلى هذا فَأَفْضَلُ هذه الأُمَّة هؤلاء الأَربعة أبوبكر ثم عمر ، وهذا بالإجماع ثمَّ عثمان ثم على .

* * *

● **قال المؤلف : « وَكَمَا أَجْمَع الصَّحابة عَلَى تَقْدِيم عُثْمان فِى البَيْعَة ، مَعَ أَنَّ بعض أَهْلِ السُّنَّة كَانُوا قَدْ اخْتَلَفُوا فِى عُثْمان وَعَلِى رَضى الله عنهما - بعد اتِّفَاقِهم عَلَى تَقْديم أَبِى بَكْرٍ وعُمر - أَيُّهما أَفْضَل ؟ فَقَدَّم قَوْمٌ عثمان وسَكَتُوا أو رَبَّعُوا بِعَلى ، وَقَدَّم قَوْمٌ عَلِيّا ، وَقَوْمٌ تَوَقَّفُوا لكن اسْتَقَرَّ أَمْرُ أَهْل السُّنَّة على تقديم عُثمان ثمَّ علَى »** .

قال المؤلف : « وكما أَجمع الصَّحابة عَلَى تَقْدِيم عُثْمان فى البيعَة » فَصَار فى تقديم عثمان على عَلِيّ رضى الله عنهما آثار نقلية ، وفيه أيضًا دَليل عقليٌّ وهو إجماع الصَّحابة على تقديم عثمان فى البيعة ؛ فإن إجماعهم على ذلك يَسْتلزم أن عثمان أفضل من على ، وهو كذلك ، لأن حكمة الله عزَّ وجل تأبى أن يُولَّى على خير القرون رجلاً وفيه من هو أفضل منه ، كما جاء فى الأثر « كَمَا تكُونُون يُوَلَّى عَلَيْكُم » فخير القُرون لا يُولِّى الله عَلَيْهم إِلَّا من هو خيرهم .

قال المؤلف : « مَعَ أَنَّ بعض أَهْل السُّنَّة كانوا قد اخْتَلَفُوا فى عُثْمان وَعَلى رضى الله عَنْهما – بعد اتِّفَاقِهم عَلَىٰ تَقْدِيم أَبى بَكْر وعُمَر – أَيُّهما أَفْضَل؟ فَقَدَّم قوم عُثْمان وَسَكَتُوا » فيقولون : أبوبكر ثُـمَّ عُمر ثم عُثْمان ويَسْكُتُون .

قال المؤلف : « أَوْ رَبَّعُوا بعلىّ وَقَدَّم قَوْمٌ عَليًّا » فقالوا : أَبوبكر ثمَّ عمر ثمَّ على ثم عثمان وهذا رأى من آراء أهل السُّنة .

قال المؤلف : « وقَوْمٌ تَوَقَّفُوا » فقالوا : أَبوبكر ثمَّ عُمر وتَوَقَّفوا أَيُّهما أَفْضَل عُثْمان أو عَلى . وهذا غير الرَّأى الأَوَّل . فالآراء أربعة . الرأْى المَشْهور : أبوبكر ثمَّ عُمر ثم عُثْمان ثمَّ على . الرأى الثانى : أبوبكر ثمَّ عُمر ثمَّ عثمان ثم السُّكوت .

الرأْى الثالث : أُبوبَكْرٍ ، ثم عمر ثم على ثم عثمان .

الرأى الرابع : أبوبكر ثمَّ عمر ثم نَتَوقَّف أَيُّهما أَفْضَل عُثْمَان أو على فهم يقولون لا نقول عُثْمان أفضل ولا عَلى أفضل لكن لا نَرَى أحدًا يتقدَّم على عثمان وَعَلى فى الفَضِيلة بعد أبى بكر وعمر .

قال المؤلف : « لكن اسْتَقَرَّ أَمْرُ أَهْل السُّنَّة عَلَىٰ تَقْدِيم عُثْمان ثمَّ عَلى » هذا الَّذى اسْتَقَرّ عَلَيْه أَمْرُ أَهْل السُّنَّة فقالوا : أَفْضَل هَذِهِ الأُمَّة بَعْد نَبِيّها أبوبَكْر ثُمَّ عُمر ثُمَّ عُثْمَان ثمَّ عَلِىّ .

* * *

حكم تقديم علىّ رضى الله عَنْهُ علَى غيره من الخلفاء الأَرْبعة فى الخِلافَة .

٢٦٥ – وإِنْ كَانَت هذه المَسْأَلة – مَسْأَلة عُثْمان وَعَلِى – لَيْسَت من الأُصول التى يُضَلَّل المُخَالِف فِيها عِند جُمْهور أَهْل السُّنة – لكن التى يُضلّل فِيها مَسْأَلة الخِلافة .

٢٦٦ – وَذلك لأَنَّهم يُؤْمنون أَنَّ الخَلِيفة بَعْد رَسول الله ﷺ أَبو بَكْر ثمَّ عُمر ثُمَّ عثمان ثمَّ عَلى وَمن طَعن فِى خِلافة أَحَد مِن هَؤُلاء فهو أَضَلّ مِن حِمَار أَهْلِه .

الشـــرح

● **قال المؤلف : « وَإِنْ كَانَت هَذِهِ المَسْأَلة – مسأَلة عُثْمان وَعَلِيّ لَيْسَت مِن الأُصول التى يُضَلَّل المُخَالِف فِيها عِنْد جُمْهور أَهْلِ السُّنَّة »** .

المُفَاضَلة بين عُثْمان وَعَلِيّ رَضِي الله عنهما لَيْسَت من أُصول أهل السُّنَّة التى يُضَلَّل فيها المُخَالف فَمَنْ قَالَ إِنَّ عَلياً أَفْضَل من عُثْمان فَلَا نَقُول إِنَّه ضَال بل نقول هذا رَأْيٌ مِن آرَاء أَهْل السُّنَّة وَلَا نَقُول فيه شيئًا .

قال المؤلف : « لكن الَّتِي يُضَلّل فِيها مَسْأَلَةُ الخِلَافَة » فيجب أن نَقُول الخليفة بعد نَبِيِّنا فى أُمَّته أَبُوبكر ثُمَّ عمر ثُمَّ عثمان ثُمَّ عَلىّ . ومن قال : إِنَّ الخلافة لِعَلىّ دُون هؤلاء الثَّلاثة فهو ضَالٌّ ومن قال : إِنَّها لِعَلِى بَعْد أبى بَكْرٍ وَعُمر فَهُو ضَال ، لأَنَّه مُخَالف لإِجماع الصَّحابة رضى الله عنهم .

* * *

● **وَلِهذا قال المؤلف : « وَذَلِك أَنَّهم يُؤْمِنُون أَنَّ الخَلِيفة بَعْد رَسُول الله ﷺ أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ عُمَر ثُمَّ عُثْمَان ثُمَّ عَلِيّ » .**

هذا مَا أَجْمَع عَلَيْه أَهْلُ السُّنَّة فى مَسْأَلة الخِلافة .

قال : « **وَمَنْ طَعَنَ فِي خِلَافَة أَحد مِن هَؤُلاء فَهُو أَضَلُّ مِن حِمَار أَهْلِه** » .

الَّذِى يَطْعَنُ فى خِلافة أَحد مِن هَؤُلاء وَيقول إِنَّه لا يَسْتحق الخِلافة فهو أَضَلُّ مِن حِمَارِ أَهْله . وعَبَّر المُؤَلِّف بهذا التَّعبير لأَنَّه تَعْبير الإمام أحمد رحمه الله . وَلَا شَكَّ أَنَّه أَضَلّ مِن حِمَار أَهْلِه وَإِنما ذكر الحِمَار لأَنَّه أَبْلَد الحَيَوانات عَلَى الإِطْلاق فهُو أَقَل الحيوانات فَهْمًا فالطَّعْن فى خِلَافَة أَحدٌ من هَؤلاءِ طَعْنٌ فى الصَّحابة جميعًا . فيجب علينا أن نعتقد بأَنَّ الخليفة بعد رَسُول الله ﷺ أَبو بَكْر ثُمَّ عُمَر ثُمَّ عُثْمَان ثُمَّ عَلِى وَإِنَّهم فى أَحقِّية الخِلَافَة عَلَى هذا التَّرتيب حَتَّى لا نقول إِنَّ هُنَاك ظُلْمًا فى الخِلافة كما ادَّعَتْه الرَّافضة حين زَعَموا أَنَّ أَبَا بكر وَعُمر وعُثْمان والصَّحابة كُلَّهم ظَلَمَة لأَنَّهم ظَلَمُوا عَلِيّ ابن أَبِى طَالب حَيْثُ اغْتَصَبُوا الخِلافة مِنْه . أَمَّا مَنْ بَعْدِهم فَإِنَّنا لا نَسْتطيع أَنْ نَقُول إِنَّ كُلّ خَلِيفة اسْتَخْلَفَهُ الله عَلَىٰ النَّاس فهو أَحَقُّ بِالخِلَافة مِنْ غَيْره ، لأَن مَنْ بَعْدَهم لَيْسُوا فِى خير القُرُون بل حَصَل فِيهم مِن الظُّلم والانحراف والفُسُوق مَا اسْتحقُّوا به أن يولَّى عليهم من ليس أَحَقّ بالخلافة منهم كما قال الله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُون ﴾ [الأنعام : ١٢٩] واعلم أَنَّ التَّرتيب فى الأَفْضَلِية عَلَى مَا سَبق لا يَعْنى أَنَّه إذا فَضّله فإِنَّه يُفَضِّله فى كُلِّ شىء بل قد يكون للمَفْضُول فَضِيلة لم يُشَارِكه فيها أحد وتميُّز أَحَد هَؤُلاء الأربعة أَوْ غيرهم بِمِيزَة يفضله بها غَيره لا يَدُلُّ على الأَفْضلية المُطْلَقة .

* * *

مكانة أهل بيت النبي ﷺ عند أهل السُّنَّة والجماعة

٢٦٧ – وَيُحِبُّون أَهل بيت رَسُول الله ﷺ وَيَتَوَلَّونَهم .

٢٦٨ – وَيَحْفَظُون فِيهم وَصِيَّة رَسُولِ الله ﷺ حَيْثُ قال يوم غديرخم : « أُذَكِّرُكُم الله فى أَهْل بيْتِى » .

٢٦٩ – وقال أيضًا للعبَّاس عمّه وقد اشْتَكَىٰ إليه أَنَّ بعض قريش يَجْفُو بنى هاشم فقال : « وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُون حَتَّى يُحبُّوكُم للهِ وَلِقَرَابَتِى » .

٢٧٠ – وقال : « إِنَّ الله اصْطَفَىٰ بَنِى إِسْمَاعِيل ، وَٱصْطَفَىٰ مِن بَنِي إِسْمَاعِيل كَنَانَة ، وَٱصْطَفَىٰ مِن كَنَانَة قُرَيْشًا ، وَٱصْطَفَىٰ مِن قُرَيْش بَنِى هَاشِم ، وَٱصْطَفَانِى مِنْ بَنِى هَاشِم » .

الشــــرح

● **قال المؤلف : « وَيُحِبُّونَ أَهْل بَيْت رَسُولِ الله ﷺ وَيَتَوَلَّوْنَهُم » .**

أَى ومِن عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة أَنَّهم يُحِبُّون آل بَيْت الرَّسول ﷺ وَيُحبونهم لِأَمرَين : للإِيمان وَللقَرَابة مِن رسول الله ﷺ ولا يكرهونهم أَبدًا ولكن لا يقولون كما قال الرافضة كل من أحب أَبا بكر وعُمر فقد أبغض عليًا » وَعَلَىٰ هذا فلا يمكن أَن نُحبّ عليًا حتَّى نبغض أَبا بَكر وَعُمر وكَأَنَ أَبا بَكر وعمر أَعداءٌ لِعَلى بن أَبى طالب مع أَنَّه قد تَوَاتَر النَّقل عن عَلِىّ رضى الله عنه أَنه كان يُثْنِى عليهما على المنبر فنحن نقول : أَنَّنا نشهد الله على محبَّة آل بيت الرَّسول ﷺ وَقَرابته. نحبُّهم من مَحَبّة الله وَرَسُوله. ومن أَهل بَيْته ؟ أَزواجه بنَصِّ القرآن قال الله

تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنتُنَّ تُرِدْنَ الحَيَاةَ الدُّنيَا وَزِينَتَها فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا . يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا العَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا . وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ للهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِها أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كرِيمًا يَانِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفًا . وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ . إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٢٨-٣٣] . فأَهْل البيت هُنَا يدخل فيها أَزواج الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام بلا ريب . وكذلك يدخل فيه قَرابته فَاطمة وعَلِيٌّ والحسن والحُسَين وغيرهم كالعبَّاس بن عبدالمطلب وأَبْنائه فنحن نحبهم لقرابتهم من رَسُول الله عليه الصَّلاة والسَّلام ولإيمانهم بالله فإن كفروا فإننا لا نُحِبُّهم ولو كانوا من أَقارب الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام فأبو لهب عم الرَّسول عليه الصَّلاة والسلام لا يجوز أن نُحبُّه بأَيِّ حال من الأَحوال بل يجب أن نكرهه لكفره ولإيذائه النَّبى ﷺ وكذلك أبو طالب يجب علينا أَن نكرهه لكفره لكن نُحِبُّ أفعاله التى أَسْدَاهَا إلى الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام من الحماية والذب عنه .

قال المؤلف : « وَيَتَولَّونَهُم » أى يجعلونهم من أَوْلِيائهم . والوَلِّيُّ يُطْلَق على عدَّة معان يُطْلَق على الصَّديق والقَريب والمُتَوَلِّى لِلأَمْر وغير ذلك من المُوَالاة والنُّصرة . وهنا يَشْمل النُّصرة والصَّداقة والمحبَّة .

* * *

● **قال المؤلف : « وَيَحْفَظُون فِيهم وَصِيَّة رَسُول الله ﷺ حيث قال يَوْم غَدِيرخُمّ « أُذَكِّرُكُم الله فِي أَهْلِ بَيْتى »[(١)] .**

« وَصِيَّة الرَّسول ﷺ » : أَى عَهْدُه الَّذى عَهِدَ به إِلَى أُمته .

« ويوم غَدِيرخُم » هو اليوم الثَّامن عشر من ذى الحِجّة . وهذا الغدير يُنْسَب إلى رَجُلٍ يُسمَّى « خُم » وهو فى الطريق الذى بين مكة والمدينة نزل الرَّسول عليه الصَّلاة والسلام فيه منزلا فى رُجُوعه من حجّة الوَدَاع وخطب النَّاس وقال : « أُذَكِّرُكُم الله فِي أَهْلِ بَيْتى » يَعْنى أُذْكُروا الله آذكروا خَوْفَه وانْتِقامه إِن أَضَعْتُم حَقَّ آل البيت وآذكروا رَحْمته وَثَوَابَهُ إِن قُمتم فى حَقِّهم .

* * *

● **قال المؤلف : « وَقَال أَيضًا للعبَّاس عمّه وقد اشْتَكَى إليه أَنَّ بعض قريش يَجْفُو بنى هاشم فقال : والَّذى نَفْسِي بِيَدِهِ لا يُؤْمِنُون حَتَّى يُحِبُّوكُم لله وَلِقَرَابَتى »[(٢)] .**

فَأَقْسَم ﷺ أَنهم لا يؤمنون حتى يُحبُّوكم لله . وهذه المحبة يُشَارِكهم

---

(١) رواه مسلم (٢٤٠٨) (٣٧) من حديث زيد بن أرقم رضى الله عنه .

(٢) الحديث : رواه بنحوه أحمد فى فضائل الصحابة (١٧٥٦) من طريق سفيان عن أبيه عن أبى الضحى عن العباس قال : يا رسول الله إنا نعرف فى وجوه أقوام الضغائن بوقائع أوقعتها فيهم قال : فقال النبى ﷺ : « لن ينالوا خيرًا حتى يحبوكم لله ولقرابتى » ... وإسناده ضعيف منقطع قال محقق فضائل الصحابة (٩١٨/٢) ووجدته موصولاً فى أمالى طراد الزينبى (٨٨ب) من طريق سفيان عن أبيه عن أبى الضحى عن ابن عباس قال : قال العباس .... » وهذا إسناد موصول صحيح . وقد رواه أحمد فى فضائل الصحابة (١٧٥٧)وكذا فى المسند(٢٠٧/١) والحاكم (٣٣٣/٣) وغيرهم من طريق يزيد بن أبى زياد عن عبدالله بن الحارث عن المطلب بن ربيعة قال دخل العباس على رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله إنا لنخرج فَنَرى قريشًا تحدث فإذا رأَوْنَا سَكَتُوا فغضب رسول الله ﷺ ودَرّ عرق بين عينيه ثم قال : « والله لا يدخل قلب امْرِىء إيمان حتى يُحِبّكُم لله وَلِقَرَابَتِى » وإسناده ضعيف لضعف يزيد بن أبى زياد .

فيها غيرهم لأَنَّ الوَاجب على كل إنسان أن يحب كل مؤمن لله . لكن قال « وَلِقَرابَتِي » فهذا حُبٌّ زائد على المحبَّة لله ويختصُّ به آل البيت قَرابة النَّبى عليه الصَّلاة والسَّلام . وفى قول العباس : « إنَّ بَعْض قُرَيش يَجْفو بنى هَاشِم » دَلِيلٌ على أَنَّ جَفَاء آل البيت كان مَوْجُودًا منذ حياة النَّبى ﷺ وذلك لأنَّ الحسد من طَبَائع البَشر إلَّا من عَصَمه الله عزَّ وجل فكانوا يَحْسُدون آل بيت الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام عَلَىٰ مَا مَنَّ الله به عَلَيهم من قَرابة النَّبى ﷺ فيجفونهم وَلَا يَقُومون بِحَقِّهم .

* * *

● **قال المؤلف : « وقال إن الله اصْطَفَىٰ بنى إسْمَاعِيل واَصْطَفَىٰ مِنْ بنى إسْمَاعِيل كَنَانَة واَصْطَفَىٰ من كَنَانة قُرَيشًا واَصْطَفَىٰ مِنْ قُرَيشٍ بَنِى هَاشِم واَصْطَفَانِى مِن بَنِى هَاشِم »[1] .**

وهذا دَلِيلٌ على أنَّ بنى هاشم مُصْطَفَون عند الله مُخْتَارون من خَلْقِه . فعقيدة أهل السُّنَّة والجماعة بالنِّسبة لآل البيت أَنَّهم يُحِبُّونهم ويَتَوَلَّونهم ويَحْفَظُون فيهم وَصِيَّة الرَّسول ﷺ فى التَّذكير بهم ولا يُنْزِلُونهم فوق مَنْزِلَتِهم بل يَتَبَرَّأُون مِمَّن يَغْلُون فيهم ويُنزِّلونهم فوق مَنْزِلَتِهم حتى يُوصلوهم إلى حَدِّ الأُلوهيَّة كما فعل عبدالله بن سَبَأ فى عَلِىّ بن أبى طالب حين قال له أنت الله وَالقِصَّة مَشْهُورة .

* * *

---

(١) رواه مسلم (٢٢٧٦) (١) من حديث واثلة بن الأسقع رضى الله عنه .

مكانة أزواج النَّبى ﷺ عند أهل السُّنة والجماعة

٢٧١ - وَيَتَوَلَّونَ أَزْوَاجَ النَّبى ﷺ أُمَّهات المُؤْمِنِين .

٢٧٢ - وَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّهُنَّ أَزْوَاجُه فى الآخِرة .

٢٧٣ - خُصُوصًا خِديجة رضى الله عنها أُمَّ أَكْثَرِ أَوْلَادِهِ ، وَأَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِهِ وَعَاضَدَهُ عَلَىٰ أَمْرِهِ ، وَكَانَ لَهَا مِنه المَنْزِلة العَالِية .

٢٧٤ - والصِّديقة بنت الصِّديق رضى الله عنها التى قال فيها النَّبى ﷺ : « فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَىٰ النِّسَاء كَفَضْلِ الثَّرِيد عَلَىٰ سَائِرِ الطَّعَام » .

الشـــرح

● **ثم قال المؤلف : « وَيَتَوَلَّونَ أَزْوَاجُ رَسُول الله ﷺ أُمَّهَاتِ المُؤْمِنِين » .**

قوله : « أُمَّهَات المُؤْمِنِين » هذه صِفَةٌ لَأَزْوَاج . فأزواج النَّبى ﷺ أُمَّهات لنا فى الإِكرام والاحترام والصِّلة قال تعالىٰ ﴿ النَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِالمؤْمِنِينَ مِن أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ [الأحزاب : ٦] فنحن نَتَوَلَّاهُنَّ بالنُّصرة والدِّفاع عنهن واعْتِقاد أَنَّهُنَّ أفضل أَزْوَاج أَهْل الأَرْض لأَنَّهُنَّ زَوْجَات الرسول ﷺ .

* * *

● قال المؤلف : « وَيُؤْمِنُونَ بأَنَّهنَّ أَزْوَاجُه فى الآخرة »

لأحاديث وَرَدَت فى ذلك ولقوله تعالى : فى سورة حم – غافر – ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَاتَّبَعُواْ سبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الجَحِيمِ . رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّات عَدْنٍ الَّتِى وَعَدْتهُمْ وَمَن صَلَحَ مِن آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمِ ﴾ [غافر : ٧ ، ٨] فقال : ﴿ وَأَزْوَاجِهِم ﴾ فأثبت الزَّوجيَّة لهن بعد دُخُول الجنة وهذا يدلُّ على أَنَّ زوجة الإنسان فى الدُّنيا تكون زَوْجَتُه فى الآخرة إذا كانت مِن أَهْل الجنَّة(١) .

* * *

● قال المؤلف : « خُصُوصًا خَدِيجة رضى الله عَنها أُمّ أَكْثَر أَوْلَادِهِ ، وَأَوَّلُ مَنْ آمَنَ به وَعَاضَدَه عَلَى أَمْرِهِ ، وَكَانَ لَهَا مِنْهُ المَنْزِلة العُلْيا » .

قوله : « خُصُوصًا خديجة رضى الله عنها » . خُصُوصًا مَصْدر مَحْذُوف العَامل أى أخصُّ خُصوصًا . خَديجة بنت خُويلد تزوَّجها النَّبى ﷺ أَوَّل ما تزوج وكان عمره حينذاك خمسًا وعشرين سنة وعمرها أربعين سنة وكانت امرأة عاقلة وانتفع بها ﷺ انتفاعًا كثيرًا لأَنَّها امرأة ذات عَقْل وَذَكَاء ولم يَتزَوَّج عليها أحدا فكانت كما قال المؤلف : « أُمّ أَكْثَر أَوْلادِهِ » البنين والبَنات . ولم يقل المؤلف « أُمّ أَوْلَادِهِ » لأن من أولاده من ليس منها وهو إبراهيم فإنَّه كان من مَارِية القبطية . وَأَوْلَادُه الذين من خديجة هم ابنان وأَربع بنات : القاسم وعبدالله ويقال له « الطَّيب والطَّاهر » . وأما البنات فهن : زينب وأم كلثوم وفاطمة ورقية .

---

(١) وراجع : نهاية البداية والنهاية لابن كثير ص (٥٢٢) .

قال المؤلف : « وَأَوَّل مَنْ آمَنَ بِهِ وَعَاضَدَهُ عَلَىٰ أَمْرِهِ » لاشكَّ أنَّها أوَّل من آمَنَ به لأنَّ النبى ﷺ لما جاءَهَا وأخبرها بما رأى فى غار حراء قالت : « كَلَّا والله لا يُخْزِيكَ الله أبدًا » وآمَنَت به وذَهَبَت به إلى وَرَقة ابن نَوْفل وقصَّت عَلَيْه الخَبَر ، وقال له : « إنَّ هَذَا النَّامُوس الَّذى كان يَنْزِلُ عَلَى مُوسَىٰ »(١) .

النَّاموس : أى صَاحِب السِّر فآمَنَ به وَرَقة ولهذا نقول أَوَّل من آمن به من النِّساء خَديجة ومن الرِّجال ورقة بن نوفل .

وقوله « وَعَاضَدهُ عَلَىٰ أَمْره » مَنْ تَدَبَّر السِّيرة وجد ما لأم المؤمنين خديجة رضى الله عنها من معاضدة النَّبى ﷺ فنحن نحبها رضى الله عنها لأنها عَاضَدت نَبيّنا محمدًا ﷺ .

قال المؤلف :« وَكَانَ لَهَا منه المَنْزِلة العَالِيَة » حتى إنَّه كان يذكرها بعد موتها صَلَوَاتُ الله وَسَلَامُه عليه ويُرْسل بالشَّىء إلى صَدِيقاتها ويقول : « إنَّها كانت وكانت وكان لى منها وَلَد »(٢) . فكان يُثْنِى عليها وهذا يَدُلُّ على عظم مَنْزِلتها عند الرَّسول ﷺ .

* * *

● **قال المؤلف : « والصِّدِّيقة بنت الصَديق رضى الله عنها التى قال فيها النَّبى ﷺ « فَضْلُ عَائِشَة على النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيد عَلَىٰ سَائِرِ الطَّعَام »(٣) .**

(١) رواه البخارى (٣) ، (٤٩٥٣) ومسلم (١٦٠) (٢٥٢) من حديث عائشة رضى الله عنها .

(٢) رواه البخارى (٣٨١٨) ومسلم (٢٤٣٥) (٧٤) من حديث عائشة رضى الله عنها .

(٣) رواه البخارى (٣٧٧٠) ومسلم (٢٤٤٦) (٨٩) من حديث أنس رضى الله عنه .
الثريد : الخبز المفتوت المبلول بمرق .

قال المؤلف : « والصِّديقة بنت الصِّديق رضى الله عَنْها » أَمَّا كونها صِدِّيقة فَلِكَمَالِ تَصْديقها لرسول الله ﷺ ولكمال صدقها فى مُعَامَلَتِهِ وصَبَرَت على مَا حَصَلَ من الأَذى فى قِصَّة الإِفْك وَيَدُلُّك على صِدْقها وَصِدْق إيمَانِها بالله أَنَّه لما نزلت براءتها قالت : إِنِّى لاَ أَحمد أَحَدًا غَيْر الله . وهذا يدلُّ على كمال إيمَانها وَصِدْقها .

وأَمَّا كونها بنت الصِّديق فكذلك أيضا فإِنَّ أَبَاهَا رضى الله عنه هو الصِّديق فى هذه الأُمَّة بل صِدِّيق الأُمَم كُلِّها لأَن هذه الأَمَّة أَفْضَل الأُمَم .

قال المؤلف : الَّتى قال فيها النبى ﷺ : « فَضْلُ عَائِشة عَلَىٰ النِّسَاء كَفَضْلِ الثَّرِيد عَلَىٰ سَائِرِ الطَّعَام » .

قوله : « عَلَىٰ النِّساء » ظَاهِره العُمُوم أى على جميع النِّساء . وقيل إِنَّه قال ذلك بعد أن مَاتَت خديجة وأن المُراد فضل عائشة على النِّساء : أى من أَزْوَاجِه اللَّاتى على قيد الحياة كفضل الثَّريد على سَائِرِ الطَّعام ولكن ظاهر الحديث العموم لأَنَّ الرسول ﷺ قال : « كَمُلَ من الرِّجَال كَثِير وَلم يَكْمُل من النِّساء إِلَّا آسية امْرَأة فِرْعَون وَمَرْيم بنت عِمران وَخَدِيجة بنت خُويلد وفَضْلُ عَائِشة عَلَىٰ النِّسَاءِ كَفَضْل الثَّريد على سَائِر الطَّعام » . وقد أخرجه الشيخان بدون ذكر خديجة[1] . وهذا يَدُلُّ على أَنَّها أفضِل من النِّساء مُطْلَقًا . ولكن ليست أفضل من فاطمة باعتبار النَّسب لأن فاطمة بلاشك أَشْرَف من عائشة نَسَبًا وأَمَّا مَنْزِلةً فإِنَّ عائشة رضى الله عنها لها من الفَضَائل العَظِيمة ما لم يُدْرِكه أَحَدٌ غيرها من النِّساء . وظاهر كلام المؤلف رحمه الله أَنَّ هاتين الزَّوجين رضى الله عنهما فى مَنْزِلةٍ وَاحِدة لأَنَّه قال : « خُصوصًا خَدِيجة ... والصِّديقة » ولم يقل ثم الصِّديقة . والعلماء اختلفوا فى هذه المسألة أيتهما أفضل ؟

(١) تقدم تخريجه ص (٦٨١)

فقال بعض العلماء : خديجة أفضل لأَنَّ لها مَزَايا لم تَلْحَقها عَائِشة فيها . وقال بعض العلماء بل عائشة أَفْضَل لهذا الحديث ولأن لها مَزَايا لم تَلْحَقها خديجة فيها . وفصّل بعض أهل العِلم فقال : إنَّ لِكُلِّ منهما مزية لم تَلْحقها الأخرى فيها ، فَفِى أَوَّل الرِّسالة لاشك أنَّ المَزَايا التى حَصَلت عليها خديجة لم تَلْحَقها فيها عائشة ولا يمكن أن تُسَاويها وبعد ذلك وبعد موت الرسول ﷺ حَصَلَ من عائشة من نَشْر العِلم ونَشْر السُّنَّة وهِدَاية الأُمَّة مَا لَم يَحْصُل لِخديجة . فلا يَصِحُّ أَن تُفَضَّل إِحْدَاهما على الأخرى تَفْضِيلا مُطْلقا بل نقول : هذه أَفْضَل من وَجْه وهذه أفضل من وَجْه ونكون قد سَلَكْنَا مَسْلك العَدْل فلم نَهْدر ما لهذه من المزية ولا مَا لهذه من المِزية[1] . وعند التَّفصيل يَحْصُل التَّحصيل وهما وبقية أَزْواج الرَّسول فى الجنة معه .

* * *

(١) وسُئِل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن خديجة وعائشة أُمَّى المؤمنين أَيَّتهُما أفضل ؟ فأجاب : بأن سَبْق خديجة وتأثيرها فى أوَّل الإسلام ونصرها وقيامها فى الدين لم تشركها فيه عائشة ولا غيرها من أمهات المؤمنين ، وتأثير عائشة فى آخر الإسلام وحَمْل الدِّين وتبليغه إلى الأمة وإدراكها من العلم ما لم تشركها فيه خديجة ولا غيرها مما تميَّزت به عن غيرها » أ.هـ وراجع مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٩٣/٤) وبدائع الفوائد لابن القيم (١٩٧/٣) وكذا سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبى (١٤٠/٢) .

تبرؤ أهل السُّنَّة والجماعة مِمَّا يَقُولُه المُبْتَدِعَة فى حقِّ الصَّحابة وأهل البَيْت والذَّب عنهم

٢٧٥ – وَيَتَبَرَّؤُونَ من طَرِيقة الرَّوافِض الَّذين يَبْغَضُون الصَّحابة ويَسُبُّونَهُم .

٢٧٦ – ومن طريقة النَّواصب الذين يُؤْذُون أَهْل البَيْت بِقَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ .

٢٧٧ – ويُمْسِكُون عَمَّا شَجَر بَيْن الصَّحابة .

٢٧٨ – وَيَقُولُونَ : إِنَّ هَذِهِ الآثَار المَرْوِيَّة فِي مَسَاوِيهم : مِنها ما هو كَذِب ، وَمِنْها مَا قَدْ زِيدَ فِيه وَنَقُص ، وغُيِّر عَنْ وَجْهه ، والصَّحيح منه هم فيه مَعْذُورون : إِمَّا مجتهدون مُصِيبون وَإِمَّا مُجْتهدون مُخْطِئُون .

٢٧٩ – وهم مع ذلك لا يَعْتَقِدون أَنَّ كُلِّ وَاحِدٍ من الصَّحابة مَعْصُوم عن كَبَائر الإِثم وَصَغائِره بل تَجُوز عليهم الذُّنوب فى الجملة .

٢٨٠ – ولهم من السَّوَابِق والفَضَائل مَا يُوجب مَغْفِرة مَا يَصْدُر منهم إِنْ صَدَرَ .

٢٨١ – حتى إِنَّهم يُغْفَرُ لَهُم من السَّيِّئات مَالَا يُغْفَرُ لِمنْ بَعْدَهُم ؛ لأَنَّ لهم من الحَسَنَات التى تمحو السَّيِّئات مَا لَيْسَ لمن بعدهم .

٢٨٢ – وقد ثَبُتَ بِقَوْل رَسُول الله ﷺ أَنَّهم خَيرُ القُرُون .

٢٨٣ - وأَنَّ المُدَّ من أَحَدِهم إِذَا تَصَدَّق بِهِ كَانَ أَفْضَل مِن جَبَلِ أُحُد ذَهَبًا مِمَّن بَعْدَهُم .

٢٨٤ - ثمَّ إِذَا كَانَ قَدْ صَدَرَ مِن أَحَدِهم ذَنْبٌ فيكون قد تَابَ مِنْهُ ، أَوْ أَتَىٰ بِحَسَنَاتٍ تَمْحُوه أَوْ غُفِرَ لَهُ بِفَضْلِ سَابِقَتِهِ أَوْ بِشَفَاعَة مُحمَّد ﷺ الَّذين هم أَحَقُّ النَّاس بِشَفَاعَتِهِ .

٢٨٥ - أَوْ ابْتُلِيَ بِبَلَاءٍ فى الدُّنيا كُفِّرَ بِهِ عَنْهُ .

٢٨٦ - فَإِذا كَانَ هَذَا فى الذُّنُوب المُحَقَّقَة فَكَيْف الأُمور التى كانوا فيها مُجْتَهِدين : إن أَصَابُوا فلهم أَجْرَان ، وإِن أَخْطَأُوا لهم أَجْرٌ وَاحِد ، والخطأ مغفور .

٢٨٧ - ثمَّ القَدْرُ الذى يُنْكَرُ مِن فِعْلِهم قَلِيلٌ نَزِر مَغْمُور فى جَنْب فَضَائل القَوم وَمَحَاسِنِهم .

الشـــرح

● **قال المؤلف : « وَيَتَبَرَّؤُونَ مِن طَرِيقة الرَّوافض الَّذين يَبْغَضُون الصَّحابة ويَسُبُّونهم » .**

سُمُّوا رَوَافِض لأَنَّهم رَفَضُوا زَيْد بن على بن الحسين بن على بن أَبى طالب عِنْدما سَأَلوه عن أبى بكر وعمر فَأَثْنَىٰ عَلَيْهما وقال : هُمَا وَزِيرَا جَدِّى .

أَمَّا النَّواصب : فَسُمُّوا كذلك لأنهم يَنْصِبُون العَدَاء لآل البيت وَيَقْدحُون فيهم ويَسُبُّونهم فهم على النَّقِيض من الرَّوافض فالرَّوافض اعْتَدُوا على الصَّحابة بالقُلُوب والأَلْسُن . ففى القُلُوب : يَبْغَضُون الصَّحابة ويَكْرَهُونهم

إِلَّا من جَعَلُوهم وَسِيلة لِنَيل مَآرِبهم وَغلوُا فِيهم وهم آل البيت . وفى الألسن : يَسبُّونَهم فَيَلْعَنُونهم ويقولون : إِنَّهم ظَلَمَة ويقولون إِنَّهم ارْتَدُّوا بعد النَّبى ﷺ إِلَّا قليلا إلى غير ذلك من الأَشْياء المعروفة فى كُتُبهم .

وفى الحقيقة أَنَّ سَبَّ الصَّحابة رضى الله عنهم ليس جُرْحا فى الصَّحابة رضى الله عنهم فقط بل هو قَدْحٌ فى الصَّحابة وَفى النبى ﷺ وَفِى شَرِيعة الله وفى ذَاتِ الله عزَّ وجلَّ .

أَمَّا كونه قدحا فِى الصَّحابة : فواضح .

وأَمَّا كَوْنُه قَدْحًا فى رَسُول الله ﷺ فَحَيْثُ كان أَصْحَابُه وَأُمَنَاؤُه وَخُلَفَاؤه عَلَى أُمَّته مِن شَرارِ الخَلْق ، وَفيه قَدْحٌ فى رسول الله ﷺ من وجه آخر وَهُوَ تكْذِيبُه فيما أَخْبَر بِهِ من فَضَائِلهم وَمَنَاقِبهم .

وَأَمَّا كَوْنُه قَدْحًا فى شَرِيعة الله : فلأن الوَاسِطة بيننا وبَيْن رَسُول الله ﷺ فى نقل الشَّريعة هم الصَّحابة فإِذا سَقَطَت عَدَالَتُهم لم يَبْق ثِقَة فِيما نَقَلُوه من الشَّريعة وأَمَّا كونه قَدْحًا فى الله سُبحانه فحيث بَعَثَ نبيه ﷺ فى شِرَارِ الخلق واختارهم لِصُحْبَتِه وَحَمْل شَرِيعته ونقلها لأُمَّته !! فانظر ماذا يَتَرَتَّب من الطَّوام الكبرى على سَبِّ الصَّحابة رضى الله عنهم . ونحن نتبرأ من طريقة هؤلاء الرَّوافض الذين يَسبُّون الصَّحابة ويَبْغَضُونهم ، ونعتقد أَنَّ مَحَبَّتهم فَرْضٌ وأَنَّ الكَفَّ عن مَسَاوِئهم فَرْضٌ وقُلوبنا ولله الحمد مَمْلوءة من مُحَبَّتهم لِما كانوا عليه من الإِيمان والتَّقوى ونَشْر العلم ونُصْرة النَّبى ﷺ .

* * *

● **قال المؤلف : « وَطَرِيقة النَّواصب الَّذِين يُؤْذُون أَهْل البَيت بِقَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ » .**

هؤلاء على عكس الرَّوافض الَّذين يُغْلُون فى آل البيت حتى يُخرجوهم عن طور البَشَرية إلى طور العِصْمَة والْوِلَاية . ونحن نقول : إنَّ آل البيت المُؤْمنين لهم حقٌّ علينا زَائِدٌ عن حقّ بقيَّة المؤمنين وهو حقّهم من أجل قرابة النَّبى ﷺ .

أَمَّا النَّواصب فقابلوا البِدْعة ببدعة فلما رَأوا الرَّافضة يُغْلون فى آل البيت قالوا : إذًا نبغض آل البيت ونَسبُّهم مُقَابلة لهؤلاء فى الغُلُو فى محبتهم والثَّناء عليهم . وَدَائما يكون الوَسَطُ هو خَيْرُ الأُمور ومُقَابَلة البِدْعة بِبِدْعة لا تزيد البِدعة إلَّا قُوَّة .

* * *

قال المؤلف : « **وَيُمْسِكُونَ عُمَّا شَجَرَ بَيْن الصَّحَابة** » يعنى عما وقع بينهم من النِّزاع فالصَّحابة رضى الله عنهم وقعت بينهم بعد مَقْتل عمر بن الخطاب رضى الله عنه نِزاعَات واشْتَدَّ الأَمْرُ بعد مقتل عُثمان فوقع بينهم ما وقع مِمَّا أَدَّى إلى القِتَال . وهذه القَضَايا مَشْهُورة . وهذه القضايا التى وقعت وقعت بلاشك عن تَأْويل وَآجْتِهاد كُلٌّ منهم يَظُنُّ أَنَّه على حقّ ، ولا يمكن أن نقول أَنَّ عائشة رضى الله عنها والزُّبير بن العوام قَاتَلا عَلِيًّا وهم يَعْتَقِدُون أَنَّهم على باطل وأن عَلِيًّا على حقّ ، واعتقادهم أَنَّهم على حق لا يَسْتَلْزِم أن يكونوا قد أَصَابُوا الحق ولكن إذا كانوا مُخْطِئِين ونحن نعلم أَنَّهم لن يَقْدِمُوا على هذا الأمر إلَّا عن اجْتهاد فإنَّه ثبت عن النبى ﷺ : « أَنَّ مَنْ حَكَمَ فَاجْتَهَدَ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ وَمَنْ أَخطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ وَاحِد »(١) فنقول هم مُخْطِئُون مَجْتَهِدُون فَلَهُم أَجْرٌ وَاحِد . فهذا الَّذى حَصَلَ : مَوْقِفُنا نَحْن مِنه له جهتان :

---

(١) رواه البخارى (٧٣٥٢) ومسلم (١٧١٦) (١٥) من حديث عمرو بن العاص رضى الله عنه .

الجهة الأُولى : الحكم على الفَاعِل والجهة الثَّانية موقفنا من الفاعل . أَمَّا الحكم على الفاعل فقد سَبَق وأَنَّ ما نَدِينُ الله به أَنَّ ما جرى بينهم فهو صَادِرٌ عن اجتهاد والاجتهاد إِذَا وَقَعَ فيه الخطأ فَصَاحِبُه مَعْذُور . أَمَّا موقفنا نحن فالواجب علينا الإِمْسَاكُ عمَّا شَجَرَ بينهم . لماذا نتخذ من فعل هؤلاء مجالا للسَّبِّ والشَّتْم والوَقِيعة فيهم والبغضاء بيننا ؟ ونحن فى فعلنا هذا إِمَّا آثِمُون وَإِمَّا سَالِمون ولَسْنَا غانمين أبدا . فالواجب علينا تجاه هذه الأمور أن نَسْكُت عمَّا جَرَىٰ بين الصَّحابة وأن لا نُطَالع الأَخبار أَو التَّآريخ فى هذه الأُمور إِلَّا المراجعة للضَّرورة .

* * *

● قال المؤلف : « وَيَقُولُونَ إِنَّ هَذِهِ الآثَار المَرْوِيَّة فى مَسَاوِيهم مِنْهَا : ما هُو كَذِبٌ وَمِنْهَا مَا قَدْ زِيدَ فِيه ونقص وَغُيِّر عَن وَجْهِه الصَّحيح »

الآثار المروية فى مَسَاويهم ثلاثة أَقْسَام : مِنْهَا مَا هُو كَذِبٌ لم يقع منهم وهذا يوجد كثيرًا فيما يَرْويه النَّواصب فى آل البيت ومَا يَرْويه الرَّوافض فى غير آل البيت ، ومنها شيء له أَصْلٌ لكن زِيَد فيه ونقص وغُيِّر عن وجهه وهذان الأمران كلاهما يجب رده . القسم الثَّالث : مَا هُو صحيح فماذا نقول فيه .

قال المؤلف : « والصَّحيح منه هم فيه مَعْذُورون إِمَّا مُجْتَهِدُون مُصِيبُون وَإِمَّا مُجْتهدون مُخْطِئون »

فما جَرَى بين معاوية وعلى رضى الله عَنْهما لاشك أَنَّ عَلِيًّا أَقرب إلى الصَّواب فيه من مُعَاوية بل قد نكاد نَجْزم بِصَوَابِهِ إِلَّا أَنَّ مُعاوية كان مجتهدًا وَيَدُلُّ على أنَّ عليًّا أقرب إلى الصَّواب أَنَّ النبى ﷺ قال : « وَيْح عَمَّار تَقْتُلُه

الفِئَةُ البَاغِية »[1] فكان الذى قَتَلَهُ أَصْحَابُ مُعَاوية وَبهذا عَرَفْنَا أَنَّها فئة بَاغية خَارِجَةٌ على الإمام لكنهم مُتَأَوِّلون . والصَّواب مَعَ عَلِىّ إمَّا قطعا وإمَّا ظَنّا .

وهناك أَمْرٌ خامس وهو مَا وَقَع منهم من سَيِّئَات نَاتجة لا عن اجتهاد ولكن عن هَوًى لأَنَّهم غير مَعْصُومين .

* * *

● **ولهذا يقول المؤلف : « وَهُم مَعَ ذَلك لا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ من الصَّحابة مَعْصُوم عن كَبَائِرِ الإِثْم وَصَغَائِرِهِ »**

لا يعتقدون ذلك لكن العِصْمة فى إجماعهم فلا يمكن أن يجمعوا على شىء من كبائر الذُّنوب وَصَغَائِرها فَيَسْتَحِلُّوها أَوْ يَفْعَلُوها لكن الواحد منهم قد يفعل شيئا من الكبائر كما حَصَل من مسْطح بن أثاثه وحسَّان بن ثابت وحمنة بنت جحش فى قِصَّة الإفك[2] ولكن هذا الَّذى حَصَلَ تَطَهَّرُوا مِنْه بإقامة الحَدِّ عليهم .

قال المؤلف : « بَلْ تَجُوزُ عَلَيْهم الذُّنُوب فى الجُمْلة » كغيرهم من البَشَر لكن يمتازون عن غيرهم :

* * *

(١) رواه البخارى (٤٤٧) من حديث أبى سعيد الخدرى ومسلم (٢٩١٥) (٧١) من حديث أبى سعيد الخدرى عن أبى قتادة .

(٢) راجع حديث الإفك فى : البخارى (٤٧٥٧) ومسلم (٢٧٧٠) (٥٦) من حديث عائشة رضى الله عنها .

● بما قال المؤلف : « **وَلَهُم من السَّوَابِق والمفاضل مَا يُوجِبُ مَغْفِرة مَا صَدَرَ مِنْهم إنْ صَدَرَ** »

فهذا أيضًا من الأَسْبَاب التى تَمْحُو عنهم مَا فَعَلوه من الصَّغَائر أَوْ الكبائر وهو ما لهم من السَّوابق والفَضَائِل التى لم يَلْحقُهم فيها أَحَدٌ فهم نَصَرُوا النَّبى عليه الصَّلاة والسلام وَجَاهَدُوا بأَموالهم وأَنْفُسهم وَبَذَلُوا رِقَابَهم لإعْلَاء كلمة الله فهذه تُوجب مَغْفرة مَا صَدَر منهم ولو كان من أَعْظَم الذُّنوب إذا لم يَصِل الكُفر .

ومن ذلك قِصَّة حاطب بن أبى بَلْتَعة حين أَرْسَل إلى قُرَيْش يُخْبرهم عن مَسِير النَّبى ﷺ إليهم حتَّى أَطْلَعَ الله نَبيّه عَلَى ذلك فلم يَصِلهم الخبر فاستأذن عمر النَّبى ﷺ أن يَضْرِبَ عُنق حَاطِب فقال النبى ﷺ : « إِنَّه شَهِدَ بَدْرًا وَمَا يَدْرِيكَ يَا عُمر لَعَلَّ الله اطَّلَع عَلَى أَهْل بَدْر فَقَال اعْمَلُوا مَا شِئْتُم فَقَد غَفرتُ لَكُم »[(١)] .

* * *

● قال المؤلف : « **حَتَّى إِنَّهم يُغْفَرُ لَهُم مِن السَّيِّئات مَالَا يُغْفَرُ لِمَنْ بَعْدَهُم لأَنَّ لَهُم من الحَسَنَات التى تَمْحُو السَّيِّئات مَا لَيْسَ لِمَن بَعْدهُم وقد ثَبت عن النَّبى ﷺ أَنَّهم خَيْر القُرُون** » .

حَيْثُ قال : « خَيْرُ النَّاس قَرْنى »[(٢)] وأَنَّ المُدَّ من أَحَدِهم إذا تصدَّق به كان أَفْضَل من جَبَل أُحُد ذَهَبًا ممن بعدهم وذلك فى قوله : « لا تَسُبُّوا

---

(١) رواه البخارى (٣٠٠٧) ومسلم (٢٤٩٤) (١٦١) من حديث على رضى الله عنه .

(٢) **حَدِيثٌ صَحِيحٌ مُتَوَاتِر** : رواه البخارى (٣٦٥١) ومسلم (٢٥٣٣) (٢١٢) من حديث ابن مسعود رضى الله عنه وفى الباب عن جمع من الصحابة ولذا صرح بتواتره الحافظ ابن حجر فى مقدمة الإصابة (١٣/١) .

أَصْحَابِى فَوَالَّذِى نَفْسِى بيده لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكم مِثْلَ أُحُد ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِم وَلَا نَصِيفه »[1] .

* * *

● **قال المؤلف** : « **ثُمَّ إِذَا كَانَ قَدْ صَدَرَ مِن أَحدهم ذَنْبٌ فَيَكُون قَدْ تَابَ مِنْهُ** » .

ومن تاب من الذَّنب كَمَنِ لَا ذَنْبَ لَهُ فلا يُؤَثِّر عليه « أَوْأَتَى بِحَسَنَاتٍ تَمْحُوه » لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ .

● **قال المؤلف** : « **أَوْ غُفِرَ لَهُ بِفَضْل سَابِقَتِهِ** » لقوله تعالى فى أهل بدر : « اعْمَلُوا مَا شِئْتُم فَقَد غَفَرْتُ لَكُم » .

قال المؤلف : « **أَوْ بشَفَاعَة محمَّد ﷺ الَّذين هم أَحَقُّ النَّاس بِشَفَاعَتِهِ** »[2] هذه أَرْبعة أُمُور ترفع القَدْح وكلُّها يُشَارِكهم فيها غيرهم .

● **ثم قال** : « **أَوْ أُبتلى ببلاءٍ فى الدُّنيا كُفِّرَ بِهِ عَنْهُ** » وهذا أَيْضًا لهم وَلِغَيْرِهم فإِنَّ البَلَاء فى الدُّنيا يُكَفِّر الله به السَّيِّئات كما أَخْبَر بذلك النبى ﷺ فى قوله : « مَا يُصِيبُ المُؤْمِن مِنْ هَمٍّ وَلَا غَمٍّ وَلَا أَذَىً إِلَّا كَفَّرَ ٱللهُ بِهِ عَنْهُ حَتَّى الشَّوْكَة يُشَاكَهَا »[3] .

* * *

(١) البخارى (٣٦٧٣) ومسلم (٢٥٤١) (٢٢٢) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

(٢) تقدم تخريجه ص (٦٥٧) .

(٣) البخارى (٥٦٤١) ، (٥٦٤٢) ومسلم (٢٥٧٣) (٥٢) من حديث أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى رضى الله عنهما .

● **قال المؤلف : « فَإِذَا كَانَ هَذَا فى الذُّنُوب المُحَقَّقة فَكَيْفَ الأُمُور التى كَانُوا فِيها مُجْتَهِدين إنْ أَصَابُوا فَلَهُم أَجْرَان وَإِنْ أَخْطَأُوا فَلَهُم أَجْرٌ وَاحِد وَالخَطَأ مَغْفُور »** فتكون هذه من باب أَوْلَى أَلَّا تكون سَبَبًا للقَدْح فيهم والعَيْب .

* * *

● **قال المؤلف : « ثُمَّ القَدْرُ الَّذى يُنْكَرُ مِن فِعْل بعضهم قليل نذر مغمور فى جنب فضائل القوم ومحاسنهم »**

القدر الذى يُنْكَرُ مِن فِعْل بَعْضِهم قَلِيلٌ جِدًّا « نَذِر » : أَقَلّ القليل ولهذا قال : « مَغْمُورٌ فى جَنْب فَضَائل القَوْم وَمَحَاسِنهم » ولاشكَّ أَنَّه حَصَل من بعضهم سَرَقة وَشُربُ خَمْرٍ وَزِنىً بإِحْصَان وَزِنىً بغَيْر إحْصَان لكن كل هذه الأشياء تكون مَغْمُورة فى جنب فَضَائل القوم وَمَحَاسِنهم وبعضها أُقِيم فيه الحُدود يكون كَفَّارة .

* * *

من مَنَاقِب أصْحاب رَسُول الله ﷺ

٢٨٨ - مِن الإيمَان بالله وَرَسُوله ، والجِهَاد فى سَبِيله ، والهِجْرة ، والنُّصْرَة ، والعِلْمْ النَّافع ، والعَمَل الصَّالح .

٢٨٩ - وَمَنْ نَظَرَ فى سيرة القَوْم بِعِلْم وَبصِيرة ، وَمَا مَنَّ الله عَلَيْهم بِهِ من الفَضَائِل عَلِمَ يَقِينًا أَنَّهُم خَيْرُ الخَلَق بَعْد الأَنْبياء .

٢٩٠ - لَا كَانَ وَلَا يَكُونُ مِثْلَهُم .

٢٩١ - وَأَنَّهُم الصَّفْوة مِن قُرُون هٰذه الأُمَّة التى هى خَيْرُ الأُمَم وَأَكْرَمها عَلَى الله .

الشــــرح

● **قال المؤلف : « فِى بَيَان مَنَاقبهم : « وَمِن الإيمَان بالله وَرَسُولِهِ وَالجِهَاد فِى سَبِيله وَالهجْرة والنُّصْرَة والعِلْم النَّافِع والعَمَل الصَّالح »**

كلّ هذه مَنَاقب وفضائل تغمر كل ما جاء من مَسَاوىء القوم المَحقَّقة فكيف بالمَسَاوىء الغيْر مُحَقَّقة ولكن الرَّافضة اتْخَذوا من بعض هذه المَسَاوِىء قَدْحًا فى كل الصَّحابة .

* * *

● **قال المؤلف : « وَمَنْ نَظَرَ فِى سِيرة القَوْم بِعِلْمٍ وَبَصِيرهِ وَمَا مَنَّ الله عَلَيْهم به مِن الفَضَائِل عَلِم يَقِينا أَنَّهم خَيْرُ الخلق بعد الأَنْبياء »**

فإذا نظرت بِعِلْمٍ وَبَصِيرة وإنْصَاف فى مَحَاسِنِ القوم وَمَا أَعْطَاهُم الله من الفَضَائل علمت يقينا أنهم خير الخلق بعد الأنبياء فهم خَيْرٌ من الحواريين أَصْحاب عِيسَىٰ وخير من النُّقَبَاء أَصْحاب مُوسَىٰ وخير من الَّذين آمَنُوا مع نوح ومَعَ هُود وغيرهم . لا يوجد أَحَدٌ فى أتباع الأَنْبِياء أَفْضَل من الصَّحابة رضى الله عنهم . والأمر فى هذا ظاهر معلوم لقوله تعالى : ﴿ كُنتُم خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] وخَيْرُنَا الصَّحابة ولأن النبى ﷺ خير الخلق فأَصْحَابُه خَيْرُ الأَصْحَاب بلا شَكّ . وعند الرَّافضة هم شر الخلق إلَّا من اسْتُثْنُوا منهم .

* * *

● **قال المؤلف** : « **لَا كَانَ وَلَا يَكُونُ مِثْلَهُم** » أى مَا وُجِدَ وَلَا يُوجَدُ مِثْلَهُم أَمَّا كَوْنُه ما وجد مثلهم فهذا صَحِيحٌ ولا يوجد كذلك لقوله عليه الصَّلاة والسَّلام « خَيْرُ النَّاس قَرْنِى » فلا يُوجَدُ على الإطلاق مِثْلَهُم رضى الله عنهم .

* * *

● **قال المؤلف** : « **وأَنَّهُمَ الصَّفْوة مِن قُرُون هذه الأُمَّة التى خَيْرُ الأُمَمَ وَأَكْرَمَها عَلَىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ** » صَدَق رحمه الله فهم الصَّفْوة الذين أَوْصَلُوا لنا الشَّرِيعة وَلَوْلَاهُم مَا عُرِفَت وَلَضَاعَ النَّاس .

* * *

من أصول أهل السُّنة التَّصديق بكرامات الأَوْليـاء

٢٩٢ – وَمِن أَصُول أَهْل السُّنَّة التَّصْديق بِكَرَامَات الأَوْلِياء .

٢٩٣ – وَمَا يَجْرِى عَلَى أَيْديهم من خَوَارِق العَادَات فى أَنْوَاع العُلُوم والمُكَاشَفَات وَأَنْوَاع القُدْرَة والتَّأْثِيرات والمَأْثُور عن سَالِف الأُمم فى سُورة الكَهْف وَغَيْرها وعن صَدْرِ هذه الأُمَّة من الصَّحابة والتَّابعين وَسَائِر فِرقِ الأُمَّة .

٢٩٤ – وَهِى مَوْجُودة فِيها إِلى يوم القِيامة .

الشــــرح

كَرَامَات الأَوْلياء : هذه مَسْأَلَةٌ هَامَّة ينبغى أَن يُعْرَفَ الحقّ فيها من البَاطِل وهى مَسْأَلَةٌ كَرامات الأَوْلياء هَلْ هِى حَقِيقَة ثَابِتة أَوْ هِى من باب التَّخَيُّلات .

● **قال المؤلف : « وَمِنْ أُصُول أَهْل السُّنَّة التَّصْديق بِكَرَامَات الأَوْلِياء »** فنقول : مَنْ هُم الأَوْلياء ؟ : والجواب أَنَّ الله بينهم بقوله : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ الله لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُوا يَتَّقُون ﴾ [يونس : ٦٢ ، ٦٣] قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : « مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا تَقِيًّا كَانَ لله وَلِيا »(١) ليست الوِلَاية بالدَّعوى والتَّمَنِّى : الوِلَاية

---

(١) راجع الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لشيخ الإسلام ابن تيمية ص (٢٦) . وراجع شرح الطحاوية لابن أبى العز (٢/٥٠٦) .

إنَّما هى بالإيمان والتَّقوىٰ فلو رَأَيْنَا رَجُلاً يقول : إنَّه وَلِى. ولكنه غير مُتَّقٍ لله تعالى فقوله مَرْدُود عليه .

أَمَّا الكَرَامات فهى جمع كرامة . والكَرَامة : أَمْرٌ خَارِق للعَادة يُجْريه الله تعالى على يَد وُلِّى تأييدًا له ، أَوْ نُصْرا للدِّين .

الرَّجل الذى أَحْيا الله تعالى له فَرَسَه وهو صلة بن أشيم بعد أن مَاتَت حتى وَصَلَ إلى أَهْلِه ولَمَّا وَصَلَ إلى أهله قال لابنه : أَلْق السَّرج عن الفرس فإنَّها عرية فلما ألقى السَّرج عنها سقطت مَيِّتة فهذه كرامة لِتَثْبِيت هذا الشخص(١) وتَأْييده .

أَمَّا التى لِنُصْرة الإسلام : فمثل الَّذى جَرَىٰ للعلاء بن الحضرمى رضى الله عنه فى عُبُور ماء البحر وكما جَرَىٰ لسعد بن أَبِى وَقَّاص رضى الله عنه فى عُبُور نهر دِجْلة وقِصَّتهما مَشْهورة .

فالكرامة أَمْرٌ خارق للعَادة . أَمَّا ما كان على وِفق العَادة فليس بكرامة « يجريه الله عَلَىٰ يَدِ وَلِى » احتِرَازًا من أُمُور السِّحر والشَّعوذة فإنَّها أُمُور خَارِقة للعَادَة لَكِنَّها تَجْرِى عَلَى يَدِ غَيْر أَوْلِياء الله بَلْ على يد أَعداء الله فلا تكون هذه كرامة وقد كَثُرت هذه الكَرَامات التى تدعى أَنَّها كرامات فى هَؤُلاء المَشَعْوذين الذين يَصُدُّون عن سَبِيل الله ، فالواجب الحذر مِنهم ومن تَلَاعُبِهم بعقول النَّاس وَأَفْكَارِهم . فالكرامة ثابتة فى القرآن والسُّنَّة والواقع سَابِقًا ولاحقًا .

---

(١) صلة بن أُشيم الزاهد العابد القدوة أبو الصّهباء العدوى البصرى والقصة التى يشير إليها الشيخ حفظه الله عند أبى نعيم فى الحلية (٢/٢٣٩) وقال الذهبى فى السير (٣/٤٩٩) : « وهذه كرامة ثابتة » وفى تاريخه « هذا حديث صحيح » .

فمن الكرامات فى السَّابق قِصَّة أَصْحَاب الكهف الذين عَاشُوا فى قوم مُشْرِكين وهم قد آمَنُوا بالله وَخَافُوا أَن يُغْلبوا على أَمْرهم فخرجوا من القرية مُهَاجرين إلى الله عَزَّ وجلَّ فِيسَّر الله لهم غارًا فى جَبَل . وَجْهُ هذا الغار إلى الشِّمال فلا تدخل الشَّمس عليهم فَتُفْسِد أَبْدَانهم ولا يُحْرَمون منها وَبَقُوا فى هذا الكهف ثلاثمائة سنين وازدادوا تِسْعا وهم نَائِمُون يُقَلِّبهم الله ذَات اليَمين وذَات الشِّمال فى الصَّيف وفى الشِّتاء لم يزعجهم الحَرّ ولم يُؤْلِمهم البَرْد مَا جَاعُوا وَمَا عَطِشُوا وَمَا مَلُّوا من النَّوم . فهذه كرامة بلاشَكّ بقوا هكذا حتَّى بَعَثهم الله وقد زال الشِّرك عن هذه القرية فَسَلِمُوا منه . ومن ذلك قِصَّة مريم رضى الله عنها أكرمها الله حيث أَجَاءَها المَخَاض إلى جِذْع النخلة وأمرها الله أَنْ تهز بجذعها لتَتَساقط عليها رُطَبًا جَنِيّاً .

ومن ذلك قصة الرَّجل الَّذى أَمَاتَهُ الله مائة عَامٍ ثمَّ بَعَثَه كَرَامَةً له لِيَتَبَيَّن له قُدرة الله تعالى .

أَمَّا فى السُّنة : فالكرامات كثيرة وراجع كتاب النُّبوة فى صحيح البُخارى وكتاب الفرقان بين أَولياء الرَّحمن وأَولياء الشَّيطان لشيخ الإِسلام ابن تيمية(١) .

وَأَمَّا شَهَادَةُ الوَاقِع بِثُبُوت الكَرَامَات فَظَاهِرٌ يَعْلَمُ به المرء فى عَصْره إمَّا بالمُشَاهدة وإِمَّا بالأَخْبَار الصَّادقة .

فمذهب أَهْل السُّنة والجماعة التَّصديق بكرامات الأَوْلياء . وهناك مَذْهب مُخَالف لمذهب أهل السُّنَّة وهو مذهب المعتزلة وغيرهم حيث إنَّهم ينكرون الكرامات ويقولون إنك لو أَثْبَتَّ الكرامات لاشْتَبَه الوَلِى بالنَّبى والنَّبى

---

(١) وراجع : مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٢٧٦/١١ : ٢٨١) .

بالساحر . فيقال لايمكن الالتباس لأَنَّ الكرامة على يَد وَلِى والوَلِى لايمكن أن يَدَّعى النُّبوة ولو ادَّعاها لم يكن وَلِيّاً . والمعجزة على يَدِ نَبِى . والشَّعوذة والسِّحر على يَد عَدو بعيد مِن ولاية الله وتكون بِفِعْله باسْتِعَانَتِه بالشَّياطين فيناها بِكَسْبِه بخلاف الكَرَامة فهى من الله تَعَالىٰ لا يَطْلُبها الولى بكسبه .

والكرامة قال العلماء : كُلُّ كَرَامة لولى فهى آية للنَّبى الَّذى اتَّبَعَهُ . لأَنَّ الكرامة شهادة من الله عز وجل أَنَّ طريق هذا الوَلى طَرِيقٌ صَحِيحٌ وعلى هذا فما جرى من الكرامات للأولياء من هذه الأُمَّة فإنها آيَاتٌ لرسول الله ﷺ ولهذا قال بعض العلماء : « مَا مِن آية لنبى من الأنبياء السَّابقين إِلَّا ولرسول الله ﷺ مِثْلُها. فأورد عليهم أَنَّ الرسول ﷺ لم يُلْق فى النَّار فيخرج حيًّا كما حصل ذلك لإبراهيم فَأُجِيب بأَنَّه جرى ذلك لأَتْباع الرسول عليه الصلاة والسلام كما ذكره المُؤَرِّخون وإذا أكرم أَتباع الرَّسول عليه الصَّلاة والسلام بجنس هذا الأمر الخَارِق للعَادَة دلَّ ذلك على أَنَّ دين النبى ﷺ حَقٌّ لأَنَّه مُؤَيّد بجنس هذه الآية التى حَصَلت لإبراهيم .

وأورد عليهم أَنَّ البحر لم يُفْلَق للنَّبى عليه الصَّلاة والسَّلام وقد فُلق لموسى . فَأُجِيب بأَنَّه حَصَل لهذه الأُمَّة فيما يتعلَّق فى البحر شىء أَعْظَم مِمَّا حَصَل لموسى وهو المَشْىُ على الماء كما فى قصة العَلاء بن الحَضْرمى حيث مَشَوا على ظَهْر الماء وهذا أَعظم مِمَّا حَصَل لموسى لأن مُوسىٰ مشى على أَرْضٍ يَابِسة (١) .

(١) العلاء بن الحضرمى من سادة المهاجرين ولاًه النبى ﷺ البحرين ثم وليها لأبى بكر وعمر وراجع القصة فى سير أعلام النبلاء (٢٦٥/١) وكذا الإصابة (٢٩١/٢) وفى ذلك يقول عفيف بن المنذر :

ألم تر أن الله ذلل بحره ... وأنزل بالكفار إحدى الجلائل ؟
دعونا الذى شق البحار فجاءنا ... بأعجب من فلق البحار الأوائل

وراجع معجم البلدان (٤٣٢/٢) .

وأورد عليهم أَنَّ من آيات عيسى إحياء المَوْتىٰ و لم يقع ذلك لرسول الله ﷺ فأُجيب بأَنَّه وقع لِأَتْبَاع الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام كما فى قصة الرَّجل الذى مَاتَ حِمَاره فى أَثناء الطَّريق فَدَعَا الله تعالىٰ أَن يُحْيِيه فَأَحْياه الله تعالى .

وأورد عليهم إبراء الأَكْمَه والأَبْرَصَ فَأُجيب بأَنَّه حصل من النبى ﷺ أن قتادة بن النُّعمان لما جرح فى أحد ندرت عينه حتى صَارت على خده فجاء النَّبى ﷺ فَأَخَذَهَا بِيَدِهِ وَوَضَعها فى مكانها فصارت أَحْسن عَيْنيه[1] . فهذه من أَعظم الآيات .

فإِذًا جِنْسُ الآيات التى كانت للأَنبياء السَّابقين كان من جِنْسها للنَّبى ﷺ أو لأُمته ومن أراد المزيد من ذلك فَلْيَرْجع إلى كتاب البِداية والنِّهاية فى التَّاريخ لابن كثير .

● **تنبيـــه** : الكَرَامات قلنا أَنَّها تكون تأْييد وتَثْبِيتًا للشَّخص أَوْ نَصرًا للحق ، ولهذا كانت الكَرَامات فى التَّابعين أَكْثَر منها فى الصَّحابة ، لأَنَّ الصَّحابة عندهم من التَّثْبيت والتَّأْييد والنَّصر مَا يَسْتَغْنُون به عن الكَرَامات فإِنَّ الرَّسول ﷺ كان بَيْن أَظْهُرِهم ، وأَمَّا التَّابِعُون فإِنَّهم دُون ذلك وَلِذَلك كَثُرت الكَرَامَات فى زَمَنِهم تَأْيِيدًا لهم وَتَثْبِيتًا وَنَصْرًا للحَقِّ الَّذى هُم عَلَيْه .

* * *

---

(١) قتادة بن النعمان بن زيد بن عامر الأمير المجاهد أبو عمر الأنصارى البدرى من نجباء الصحابة وهو أخو أبى سعيد الخدرى لأمه .

وراجع قصة عينه فى سير أعلام النبلاء (٢/٣٣٢) وتعليق المحقق عليها .

● قال المؤلف : « **وَمَا يُجْرِى اللهُ عَلَىٰ أَيْدِيهم مِن خَوَارِق العَادَات فى أنواع العُلوم والمُكَاشَفَات وأَنْواع القُدْرة والتَّأْثِيرات ، وَالمَأْثُور عن سَالِف الأُمَم فى سُورة الكَهْف وغيرها ، وَعَن صَدْر هَذِهِ الأُمَّة من الصَّحابة والتَّابِعين وَسَائِر فِرَق الأُمَّة** »(*) .

قوله : « وَمَا يُجْرِى اللهُ عَلَى أَيْدِيهم مِن خَوَارِق العَادَات »

(*) **قال الشيخ عبدالعزيز بن باز حفظه الله** : « الفرق بين المعجزة والكرامة والأَحْوال الشَّيْطَانية الخارقة للعادة على يد السَّحرة والمُشَعْوذين : أَنَّ المعجزة هى ما يُجرى الله على أَيْدى الرُّسل والأَنبياء من خَوَارق العَادات التى يتحدُّون بها العباد ويَخْتَبِرون بها ويُخبرون بها عن الله لتصديق مَا بَعَثهم به ويؤَيِّدهم بها سبحانه كانشقاق القمر ونزول القرآن ، فإن القرآن هو أعظم معجزة لِرَسُولٍ على الإطلاق وحنين الجذع ونُبوع الماء من بين أَصَابعه وغير ذلك من المعجزات الكثيرة .

وأَمَّا الكرامة فهى ما يُجرى الله على أَيْدِى أَوْليائه المؤمنين خَوارق العَادَات كالعلم والقُدْرة وغير ذلك كالظُّلَّة التى وقعت على أُسيد بن الحُضير حين قراءته القرآن . وكإضاءة النُّور لِعَبَّاد ابن بشر وأُسَيْد بن حُضير حين انصرفا من عند النَّبى ﷺ فلما افترقا أَضَاء لِكُلٍّ واحد منهما طَرَف سَوْطه .

وشَرْط كونها كرامة أن يكون مَنْ جَرَت على يده هذه الكرامة مُسْتَقِيمًا على الإيمان وَمُتَابعة الشَّريعة فإن كان خلاف ذلك فالجَارِى على يَدِه من الخوارق يكون من الأحوال الشَّيطانية . ثم لِيعْلَم أن عَدَم حُصُول الكرامة لبعض المسلمين لا يَدُلُّ على نَقْص إيمانهم لأن الكرامة إنَّما تقع لأسباب :

منها : تَقْوية إيمان العَبْد وتَثْبيتُه ، ولهذا لم يَرَ كثير من الصَّحابة شيئًا من الكرامات لِقُوَّة إيمانهم وكمال يقينهم . ومنها : إقامة الحجّة على العَدُوّ كما حَصَل لخالد لما أكل السُّمّ وكان قد حَاصر حِصْنًا فامتنعوا عليه حتى يَأْكُله فَأَكَلَهُ وفُتِحَ الحِصْن ، ومثل ذلك ما جرى لأَبى مُسلم الخُراسانى لما ألقاه الأَسود العَنْسى فى النار فأَنْجاه الله من ذلك لحاجته إلى تِلك الكَرَامة ، وكَقِصَّة أُمِّ أَيمن لما خرجت مهاجرة واشتد بها العطش سَمِعت حِسًّا من فوقها فرفعت رأسها فإذا هى بِدَلْوٍ من ماء فَشَرِبَتْ منها ثم رفعت . وقد تكون الكَرامة إبتلاء فيَسْعَد بها قوم ويَشْقَىٰ بها آخرون ، وقد يَسْعَد بها صَاحِبُها إنْ شَكَرَ ، وقد يَهْلك إن أُعْجِبَ ولم يَسْتَقِم » ا.هـ .

خوارق : جمع خارق والعادات : جمع عادة ، والمراد بِخوارق العادات مايأتى على خلاف العادة الكونية وهذه الكرامات لها ثلاثة دلالات :

الدلالة الأُولىٰ : كمال قدرة الله عز وجل حيث حصل هذا الخارق للعادة بأمر الله .

ثانيًا : تَكذيب القائلين بأَنَّ الطَّبيعة هى التى تَفْعل ، لأَنَّه لو كانت الطبيعة هى التى تفعل لكانت الطبيعة على نَسَقٍ وَاحِدٍ لا تتغيَّر ، فإذا تغيَّرت العَادَات والطَّبيعة دل على أَنَّ للكون مُدَبِّرًا وخالقًا .

ثالثًا : أنها آية للنَّبى المتبوع كما أسلفنا قريبًا .

رابعًا : أَنَّ فيها تثبيتًا وكرامة لهذا الوَلِى .

يقول : « فى أَنْوَاع العُلُوم وَالمُكَاشَفات وَأَنْواع القُدْرَة والتَّأْثِيرَات » يعنى أن الكرامة تنقسم إلى قسمين : قسم يتعلق بالعلوم والمكاشفات وقسم آخر يتعلق بالقدرة والتأثيرات :

أما العلوم : فَأَنْ تَحْصُل للإنسان مِن العلوم ما لا يَحْصُل لِغَيْره ، وأَمَّا المُكَاشَفَات فَأَنْ يَظْهَر لَهُ من الأَشياء التى يُكْشف له عنها مَالَا يَحْصُل لغيره .

مثال الأَوَّل العلوم : ما ذُكِر عن أَبى بكر أن الله أَطْلَعه على ما فى بَطْن زَوْجَته - الحمل - أعلمه الله أَنَّه أُنْثَىٰ[1] .

مثال الثانى المكاشفات : فمثل مَا حَصَل لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين كان يخطب الناس يوم الجمعة على المنبر فَسَمِعُوه يقول :

---

(١) رواه مالك فى الموطأ (٤٠) وكرامات أولياء الله للالكائى (٦٣) .

يَا سَارِية الجَبَل ! فتعجَّبوا من هذا الكلام ثم سألوه عن ذلك فقال إنه كُشِفَ له عن سَارِية بن زُنَيد – وهو أَحد قوَّاده فى العراق – وأَنه محصور من عدوه فوجَّهه إلى الجبل ، وقال له : يَا سَارِية الجَبَل فَسَمِع سَارِية صوت عمرَ وانحاز إلى الجبل وتحصَّن به[1] هَذه من أُمور المُكَاشَفَات ، لأَنَّه أَمْرٌ وَاقِع لكنه بعيد .

أَمَّا كونه آية من آيات الرَّسول ﷺ ففى غزوة مُؤْته كان النَّبى ﷺ يَتَحدَّث عن القُوَّاد الثَّلاثة : « أَخَذَ زَيْدٌ فَقُتِل ، ثمَّ أَخَذَها جَعْفَر فَقُتِل ، ثم أَخَذَها عَبْد الله بن رَوَاحة فَقُتل ، ثم أخذها خالد بن الوليد ففتح الله على يده »[2] هذه من المكاشفات .

أَمَّا القدرة والتَّأْثِيرات : فمثلاً ما وقع لمريم من هَزِّها لجذع النخل وتَسَاقُط الرُّطب عليها ومِثْل ما وقع للذى عنده علم من الكتاب حيث قال لسليمان : أنا آتيك به قبل أن يَرْتَدَّ إليك طرفك ومثل مَا وَقع للذى قال أَنَّى يُحْيِي هذه الله بَعْد موتها فأَمَاتَهُ الله مائة عام ثم بعثه كل هذا من القدرة والتَّأْثِيرات .

يقول : « وَالمَأْثُور عَن سَالِفِ الأُمم فى سُورة الكَهف وَغَيْرها وعن صَدْر هذه الأُمَّة من الصَّحَابة والتَّابعين وَسَائِر فِرَق الأُمَّة » .

الكرامات موجودة فيما سبق من الأُمم ومنه قِصَّة أَصْحاب الغَار الذين انطبقت عليهم الصَّخرة[3] ، موجودة فى عهد الرسول ﷺ فقِصَّة أُسَيْد بن

---

(١) أَثرٌ حَسَنٌ : أورده ابن كثير فى البداية والنهاية (٧/١٣١ ، ١٣٢) من طرق بأسانيد حسنة وكذا حسَّن اسانيده ابن حجر فى الإصابة (٤/٩٨) فليراجع .

(٢) رواه البخارى (٤٢٦٢) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

(٣) البخارى (٣٤٦٥) ومسلم (٢٧٤٣) (١٠٠) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما .

حُضير(١) وتكثير الطَّعام عند بعض الصحابة(٢) كل هذه من الكرامات. موجودة فى التَّابعين مثل قصة صلة بن أشيم الذى أحيا الله له فرسه(٣).

يقول شيخ الإسلام: «وشَاهَدْنا وَسِمعنا فى عَصْرنا كَثِيرًا من الكَرامات»(٤). وَمَازَالت الكَرامات مَوْجُودة.

* * *

● **قال المؤلف: «وهى مَوْجُودَةٌ فِيها إلى يَوْم القِيامة».**

مَا الدَّليل على أَنَّها مَوْجُودَةٌ إلى يوم القيامة؟

إن الرسول ﷺ أخبر فى قصة الدَّجال أَنه يدعو رجلاً من الناس من الشباب - يأتى ويقول له: كذبت إنما أنت المسيح الدجال الذى أخبرنا عنك رسول الله ﷺ فيأتى الدجال فيقتله قطعتين فيجعل واحدة هنا، وواحدة هنا «رمْية الغَرَض» يعنى بعيد ما بينهما ويمشى بينهما ثم يدعوه فيقوم يتهلل ثم يدعوه ليقر له بالعبودية فيقول الرَّجل: مَا كُنْتُ فيك أشد بَصِيرةً مِنِّى اليَوْم فَيُرِيد الدَّجال أَنْ يَقْتُله فلا يُسَلَّط عليه(٥).

---

(١) رواه البخارى (٣٨٠٥) ولفظه: «أن رجلين خرجا من عند النبى ﷺ فى ليلة مظلمة وإذا نور بين أيديهما حتى تفرقا، فتفرق النور معهما، وقال معمر عن ثابت عن أنس أن أسيد بن حضير رجلاً من الأنصار».

قال الحافظ فى الفتح (٧/١٢٥): «فأما رواية معمر فوصلها عبدالرزاق فى مصنفه عنه» ا.هـ.

(٢) راجع: البخارى (٣٥٨١)، (٦١٤١) ومسلم (٢٠٥٧) (١٧٦).

(٣) تقدم الكلام علىٰ هذه القصة ص (٦٩٦)

(٤) الفرقان لابن تيمية ص (٧٦).

(٤) رواه مسلم (٢٩٣٨) (١١٣) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه. =

فهذه من الكرامات بلاشَكّ . هذا آخر ما علمت وهذا يُؤَيِّد كلام المؤلف فى قوله: « إِنَّها مَوْجُودَةٌ إلى يَوْم القِيامَة » ويقال أَيضًا من النَّاحية العقلية مَادَام سَبَبُ الكرامة هى الوِلاية فالوِلاية لا تَزَالُ مَوْجُودة إلى قِيام السَّاعة .

* * *

= وقصة هذا الرجل أيضًا ضمن حديث النَّوَّاس بن سمعان عند مسلم أيضًا برقم (٢٩٣٧) (١١٠) .

فصـــل
فى صِفَـات أَهْل السُّنَّـة والجماعـة

ولم سُمُّـوا بهذا الإســم

٢٩٥ - ثمَّ مِن طَرِيقة أهل السُّنَّة والجماعة اتِّباع آثار رَسُول الله ﷺ بَاطِنًا وَظَاهِرًا .

٢٩٦ - واتِّباع سَبِيل السَّابقين الأَوَّلين من المُهَاجرين والأَنْصَار .

٢٩٧ - واتِّباع وَصِيّة رَسُول الله ﷺ حيث قال : « عَلَيْكُم بِسُنَّتِى وَسُنَّة الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِين المَهْدِيين مِن بَعْدِى تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذ ، وَإِيَّاكُم وَمُحْدَثَات الأُمُور فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَة » .

٢٩٨ - وَيَعْلَمُون أَنَّ أَصْدَقَ الكَلَام كَلَامُ الله ، وَخَيْر الهَدْى هَدْى مُحمَّد ﷺ .

٢٩٩ - وَيُؤْثِرُون كَلَام الله عَلَى غَيْره مِن كَلَام أَصْنَافِ النَّاس .

٣٠٠ - وَيُقَدِّمُون هَدْى رَسُولِ الله ﷺ عَلَى هَدْى كُلِّ أَحد .

٣٠١ - وَلِهَذَا سُمُّوا أَهْل الكِتَاب والسُّنَّة .

٣٠٢ - وسُمُّوا أَهْل الجَمَاعة ؛ لأَنَّ الجَماعة هى الاجتماع

وضِدَّها الفُرْقَة . وإنْ كَانَ لفظ الجماعة قد صَار اسْمًا لِنَفْس القَوم المُجْتَمعين .

٣٠٣ – والإجماع : هو الأَصْلُ الثَّالث الذى يُعْتَمَدُ عليه فى العِلم والدِّين .

٣٠٤ – وهم يَزِنُون بهذه الأُصول الثَّلاثة جَمِيعُ مَا عَلَيْه النَّاس من أَقْوَالٍ وَأَعْمَالٍ بَاطِنَةٍ أَوْ ظَاهِرَةٍ مِمَّا لَهُ تَعلُّق بالدِّين .

٣٠٥ – والإجماع الذى يَنْضَبِطُ : هو ما كان عليه السَّلف الصَّالح إذْ بَعْدَهُم كَثُر الإخْتِلاف وانتشرت الأُمَّة .

الشـــرح

ثم قال المؤلف : فصــل .

« ثمَّ مِن طَرِيقَة أَهْل السُّنَّة والجَمَاعَة اتِّبَاعُ آثَارِ رَسُول الله ﷺ بَاطنًا وَظَاهِرًا »(*) .

(*) **قال الشيخ عبدالعزيز بن باز حفظه الله** : « مُراد المُصنِّف بذلك اتِّباع ما أُثِر عن النبى ﷺ من قول أَوْ عَمَل أَوْ تَقْرِيرٍ ، وذلك هو اتِّباع السُّنة والتَّمسك بها ، وأَوْجُه السُّنة ثلاثة : قَول وعَمل وتَقرير ، وأمَّا آثاره الحِسِّية كموضع جُلُوسه ، ومَا هُو عليه ، وما وطئه بقدمه الشَّريفة ، أَوْ ستند إليه أَو اضطجع عليه ونحو ذلك فلا يُشْرع اتباعه فى ذلك . بل تتبع هذه الآثارِ وَسَائل الغُلو فيه .

وقد أَنْكَر بعض أعيان الصَّحابة على ابن عمر ذلك ، وقَطَع عُمر الشَّجرة التى بُويع النبى تحتها لما عَلِمَ أَنَّ النَّاس يَقْصدونها خوفًا من الفِتْنة ، ولما بَلَغَهُ أَن ناسًا يقصدون مسجدًا صلَّى فيه النَّبى ﷺ فى الطَّريق أنكر وقال مَا مَعْنَاهُ : « إِنَّما أَهْلكَ مَنْ كَانَ قبلكم مِثْل هَذا ، كَانُوا يَتَتبَّعون آثار أَنْبيائهم ، فمن أدركته الصَّلاة فى شيء من هذه المساجد فَلْيُصَلِّ ومن لا فَلْيَمْض ولَا يَقْصُدها » .
=

قوله : « اتِّبَاعُ آثَارٍ » لا اتِّباع إلَّا بِعِلْم ؛ إذًا فَهُم حَرِيصُون على طَلَب العِلم يَعْرِفُون آثار الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام ثمَّ يَتَّبِعُونَها . يَتَّبِعُون آثار الرَّسول ﷺ فى العَقِيدة والعِبَادة والأَخْلاق والدَّعوة إلى الله تعالى فهم يَدْعُون عِبَاد الله إلى شَرِيعة الله فى كل مُنَاسبة وكلما اقْتَضَت الحِكْمة أَنْ يَدْعُوا إلى الله دَعْوا إلى الله ولكنهم لا يُخَبِّطُون خَبْط عَشْواء وإنَّما يَدْعون بالحكمة أيضا يَتَّبِعُون آثار الرَّسول عليه الصلاة والسَّلام فى الأَخلاق الحميدة فى مُعَاملة النَّاس باللُّطْف واللِّين وَتَنْزِيل كل إنْسَان مَنْزلته يَتَّبِعُونَه أَيْضًا فى أَخلَاقِه مَعَ أَهْله فَتَجِدُهم يَحْرِصُون على أن يكونوا أَحْسَن النَّاس لِأَهْلِيهم ؛ لأَنَّ النَّبى ﷺ يقول : « خَيْرُكُم خَيْرُكُم لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكم لِأَهْلِى »[1] .

وَنَحْنُ لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَحْصُرَ آثَار الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام ولكن

= وأمَّا مَا صَلَّى فيه صلوات التَّشريع ، فالصَّلاة فيه مَشْروعة كَمَسْجِده ﷺ والكعبة ومَسْجد قُباء والموضع الذى صَلَّى فيه فى بيت عثمان كما طَلَبَ منه ذلك لِيَتَّخِذه مُصَلًّى فَأَجابه ﷺ على ذلك وهكذا الشَّرك بِشَعْره ﷺ وَرِيقه وعِرْقه ومَا مَاسَّ جِلْده فكلُّه لابأس به ، لأن السُّنَّة قد صحَّت بذلك ، وقد قسَّم ﷺ فى حجة الوداع بين الناس شَعْر رَأْسه لما قد جعل الله فيه من البَرَكة ، وليس هذا من الغلو الممنوع ، وانَّما الغُلو الممنوع هو أن يَعْتقد فيه ﷺ ما لايجوز أَوْ يَصْرِف له شيئًا من العِبادة ، وأَمَّا الشَّرك بغيره ﷺ فالصَّحيح مَنْعُه لأمرين : أحدهما : أَنَّ غيره لا يُقَاس بِهِ لما جعل الله فيه من الخير والبركة بخلاف غيره فلا يتحقَّق فيه ذلك . الأمر الثانى : أَنَّ ذلك ربما يُوقع فى الغلو وأَنواع الشِّرك ، فوَجَبَ سَدُّ الذَّرائع بالمنع من ذلك وإنما جاز فى حق النَّبى لمجىء النص به ، وهناك أَمْرٌ ثالث أيضًا : وهو أَنَّ الصَّحابة لم يفعلوا مثل ذلك مع غير النبى ﷺ لا مَعَ الصِّديق ولَا مَعَ عمر ولا مع غيرهما ، ولو كان ذلك سَائِغًا أَوْ قُرْبة لَسَبَقُونا إليه ، ولم يُجْمِعُوا عَلَى تَرْكِهِ ، فلما تَرَكُوه عُلِمَ أَنَّ الحق تَرْكُ ذلك وعَدَم إِلْحَاق غير النَّبى بِهِ فِى ذلك » ا.هـ .

(١) **حَدِيثٌ صَحِيحٌ** : رواه التِّرمذى (٣٨٩٥) وقال : « حَسَنٌ غريب صَحِيحٌ » والدَّارمى (١٥٩/٢) وابن حبان (١٣١٢–موارد) من حديث عائشة رضى الله عنها . وقد صحَّحه الألبانى فى الصَّحيحة (٢٨٥) .

نَقُول على سبيل الإجمال فى العَقِيدة والعِبَادة والخُلق والدَّعوة . فى العبادة لا يَتَشَدَّدُون ولَا يَتهَاوَنُون ويَتَّبِعُون مَا هُو أَفْضَل ، وَرُبَّما يشتغلون عن العبادة بِمُعَامَلة الخلق للمَصْلحة كما كان الرَّسول يأْتِيهِ الوُفود يُشْغِلُونه عن الصَّلاة فيقضيها فيما بعد .

قوله : « بَاطِنًا وَظَاهِرًا » الظُّهور والبُطُون أمْرٌ نِسْبِى ظاهرًا فيما يَظْهَرُ للناس وَباطِنًا فيما يُسرونه بأنفسهم . ظاهرًا فى الأَعْمَال الظَّاهرة وَباطنا فى أَعْمَال القُلوب فمثلا : التَّوكُّل والخوف والرَّجاء والإِنَابَة والمحبَّة وَمَا أَشْبَه ذلك كل هذه من أَعمال القلوب يَقُومون بها على الوَجْه المطلوب : الصَّلاة : من القِيام والقُعود والرُّكوع والسُّجود . والصَّدقة والحج والصِّيام هذه من أَعمال الجَوَارِح فهى ظَاهرة .

ثم اعلم أَنَّ آثار الرَّسول ﷺ تنقسم إلى ثلاثة أَقْسَام أو أَكْثَر :

أَوَّلا : مَا فَعَلَهُ على سَبيل التَّعَبُّد فهذا لاشَكَّ أَنَّنا مَأْمُورُون باتِّباعِهِ لقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُم فِي رسُول الله أُسْوَةٌ حَسَنَة ﴾ [الأحزاب : ٢١] فكلُّ شىء لايظهر فيه أَنَّه تأثير لعادة أو بمقتضى جِبِلَّة وفطرة أو حَصَل اتِّفاقًا فإِنَّه على سبيل التعبد ونحن مأمورون به .

ثانيًا : ما فعله اتِّفاقًا . فهذا لا يُشْرَع لَنَا التَّأَسِّى فيه لأَنَّه غير مَقْصُود مثل لو قال قائل ينبغى أن يكون قُدُومنا إلى مكة فى الحج فى اليوم الرَّابع من ذى الحجة لأَنَّ الرسول عليه الصَّلاة والسَّلام قدم مكة فى اليوم الرَّابع من ذِى الحجة فنقول هذا غير مَشْرُوع لأَنَّ قُدُومه ﷺ فى هذا اليوم وَقَعَ اتِّفاقًا .

ولو قال قائل : يَنْبغى إذا دفعنا من عرفة وَوَصَلنا إلى الشّعب الذى نزل فيه ﷺ وبال ، أَن نَنْزل وَنَبُول ونتوضَّأَ وضوءً خفيفا . فنقول هذا لا يُشْرع

وكذلك غيرها من الأمور التى وقعت اتِّفاقًا فإنَّه لا يشرع التَّأسِّى فيه بذلك لأنَّه ﷺ فَعَلَهُ لا عَلَىٰ سبيل القَصْد للتَّعبُّد . والتَّأسِّى به تَعبُّد .

ثالثًا : مَا فَعَلَهُ بمقتضى العَادَة فهل يُشْرَع لنا التَّأسِّى به ؟

الجواب : نعم ينبغى لنا أن نَتَأسَّى به لكن بِجِنْسِه لا بِنَوْعه وهذه المسألة قَلَّ من يتفَطَّن لها من النَّاس يظنُّون أنَّ التَّأسِّى به فيما هو على سَبِيل العَادَة بالنَّوع فيقولون لا يُشْرَع التَّأسِّى به فيما كان من تأثير العَادات . ونحن نقول نتأسى به فيما تُؤثر فيه العَادَات لكن باعتبار الجِنْس بمعنى أن نفعل مَا تَقْتَضِيه العَادَة التى كان عليها النَّاس إلا أن يمنع من ذلك مَا نِع شرعى .

رابعاً : مَا فَعَله بمقتضى الجِبلّة فهذا ليس من العبادات قطعًا مثل النُّعاس لكن قد يكون عِبَادة من وجه بأن يكون فِعْلُهُ علىٰ صفة معيّنة عِبادة وكذلك النَّوم فِعْلُه بمقتضى الجبلّة لكن يُسَنُّ أن يكون على اليَمين . والأكل والشُّرب جِبِلَّة وَطَبِيعة ولكن قد يكون عِبَادة من جِهَة أخرى إذا قُصِدَ به الإنسان امْتِثَال أَمْرُ الله والتَّنَعُّم بِنِعَمِهِ والقُوَّة عَلَى عِبَادَتِه وَحِفْظ البَدَن ثمَّ إن صِفَتُه أيضا تَكُون عِبَادة كَالأكْل بِاليَمِين والبَسْملة عند البَدَاءة والحمد له عند الانْتِهاء . وهنا نَسْأل هل اتِّخاذ الشَّعر عادة أو عِبَادة ؟ يَرَىٰ بعض العلماء أنَّه عِبَادة وأنَّه يُسَنُّ للإنسان اتِّخاذ الشَّعر وَيَرَىٰ آخرون أنَّ هذا من الأمور العَادِيّة بدليل قول الرسول ﷺ لِلَّذى رَآه قد قَزَع رَأْسُه : « احْلِقه كُلَّه أَوْ اتْرُكْهُ كُلّه »[(١)] . وهذا يَدُلُّ على أَنَّ اتِّخَاذُ الشَّعر لَيْس بِعِبَادَة وإلَّا قال أَبْقِهِ وَلَا تَحْلِق منه شيئا . وهذه المَسْأَلة ينبغى التَّثَبُّت فيها ولا يحكم على شىء بأنَّه عبادة وَهُو لَيْسَ كَذَلك .

* * *

(١) رواه مسلم (٢١٢٠) (١١٣) من حديث ابن عمر من طريق عبدالرّزاق ولم يسق لفظه وهو عند عبدالرزاق فى المصنف (١٩٥٦٤) وأبو داود (٤١٩٥) والنسائى (١٣٠/٨) .

● **قال المؤلف : « وَاتِّبَاعُ سَبِيل السَّابقين الأَوَّلِينَ مِن المُهَاجِرِين وَالأَنْصَار » .**

قوله : « السَّابِقِين » يعنى إلى الأَعْمَال الصَّالحة . وقوله : « الأَوَّلين » يعنى من هذه الأُمَّة . وَالمُهَاجِرُونَ : مَنْ هَاجَرُوا إلى المَدِينة . وَالأَنْصَار : أَهْل المَدِينة فى عهد النَّبى ﷺ وإنَّما كان اتِّبَاع سَبِيلهم من منهج أَهْل السُّنَّة والجماعة لأَنَّهم أَقْرَب إلى الصَّواب والحق مِمَّن بَعْدَهُم وكلما بَعُد النَّاس عن عهد النُّبوة بعدوا من الحق وكلما قَرُب النَّاس من عهد النُّبوة قَربوا من الحَقّ وكلما كان الإِنْسَان أَحْرَص على مَعْرِفة سِيرة النَّبى ﷺ وَخُلَفَائِه الرَّاشِدين كَانَ أَقْرَب إلى الحَقّ .

وَلِهَذَا نَرَىٰ اخْتِلاف الأُمَّة بعد زمن الصَّحابة والتَّابعين أكثر انتشارًا وأَشْمَل لجميع الأُمور لكن الخلاف فى عهدهم كان مَحْصُورًا . فمن طريقة أَهل السُّنَّة والجَمَاعة أَنْ يَنْظُروا فى سبيل السَّابقين الأَوَّلين من المهاجرين والأَنْصَار فيتَّبعوها لأَنَّ اتِّبَاعها يُؤَدِّى إلى مَحَبَّتهم مع كونهم أَقْرب إلى الصَّواب والحق خلافًا لمن زَهِدَ فى هذه الطَّريقة وصار يقول : هم رِجَال وَنَحْنُ رِجَال ! ولا يُبَالِى بِخِلَافِهم وكَأَنَّ قول أبى بكر وعمر وعثمان وعَلى قَوْل فُلان وفُلان من أَوَاخِر هذه الأُمَّة وهذا خطأ وضَلَال فالصَّحابة أَقْرَبُ إلى الصَّواب وقولهم مُقَدَّم على قَوْل غيرهم من جهةِ مَا عِنْدهم من الإيمان وَمَا عِنْدَهُم من العِلم وما عندهم من الفهم السَّليم والتَّقْوىٰ والأَمَانَة وما لهم من صُحْبَة الرسول ﷺ .

* * *

● **قال المؤلف : « واتِّباع وَصية رَسُول الله ﷺ حَيْثُ قَالَ : عَلَيْكُم بِسُنَّتى وَسُنَّة الخُلَفَاء الرَّاشِدين المَهْدِيين مِن بَعْدِى تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا**

عَلَيْهَا بِالنَّواجِذ وإيَّاكُم وَمُحْدَثَاتُ الأُمُورِ فإنَّ كُلّ بِدعة ضَلَالَة »[1] .

وَأَوَّل مَنْ يَدْخل فى هذا الوَصْف وأَوْلَى من يَدْخل فيه الخُلَفاء الأَرْبعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلى .

ثمَّ يأتى رَجُل فى هذا العَصْر ليس عنده من العلم شىء ويقول أذان الجمعة الأول بدعة لأنه ليس معروفًا على عَهْد الرَّسول ﷺ ويجب أن نَقْتَصر على الآذان الثَّانى فقط فنقول له إنَّ سُنَّة عثمان رضى الله عنه سُنَّة مُتَّبعة إذا لم تخالف سُنَّة رَسُول الله ﷺ ولم يَقُم أَحَد من الصَّحابة الذين هم أَعْلَم مِنْك وأَغْير على دين الله بِمُعَارَضَته وهو من الخلفاء الرَّاشدين المهديين الَّذين أَمَرَ رَسُول الله ﷺ باتِّباعهم ، ونقول : إن عثمان رضى الله عنه اعْتَمَد على أَصْلٍ وهو أَنَّ بِلالاً يُؤَذِّنُ قبل الفجر فى عهد النبى ﷺ لا لِصَلاة الفَجر ولكن ليَرْجع القَائم ويُوقظ النَّائم كما قال ذلك رسول الله ﷺ فَأَمَر عثمان بالأَذَان الأَوَّل يوم الجمعة لا لحضور الإمام ولكن لحضور النَّاس لأَنَّ المدينة كبرت واتَّسعت واحتاج الناس أن يعلموا بقرب الجُمُعة قبل حُضُور الإمام من أجل أن يكون حُضُورهم قبل حُضُور الإمام . فأهل السُّنَّة والجماعة يَقْبَلُون جَميع مَا جَاء عن الصَّحابة وعلى رَأْسهم الخُلَفاء الأَربعة أبوبكر

---

(١) حَدِيثٌ صَحِيحٌ : رواه أحمد (١٢٦/٤ ، ١٢٧) وأبو داود (٤٦٠٧) والترمذى (٢٦٧٦) وابن ماجة (٤٢ ، ٤٣) والدارمى (٤٤/١) وابن حبان (١٠٢–موارد) والحاكم (٩٧/١) وابن أبى عاصم فى السنة ص (١٧ : ٢٠ ، ٢٩ ، ٣٠) والبيهقى فى دلائل النبوة (٥٤١/٦) وابن عبدالبر فى جامع بيان العلم وفضله (٢٢٢/١ : ٢٢٤) من حديث العرباض بن سارية أبى نجيح رضى الله عنه وقد صحَّحه غير واحد من أهل العلم فقال الترمذى : « حسن صحيح » وصحَّحه الحاكم وأقرَّه الذهبى ، ونقل ابن عبدالبر عن أبى بكر أحمد بن عمرو البزار قوله : « حديث عرباض فى الخلفاء الراشدين صحيح ثابت » ثم قال : وهو كما قال » . وصححه أيضًا شيخ الإسلام ابن تيمية فى غير موضع من مجموع الفتاوى (٣٠٩/٢٠) وفى اقتضاء الصراط المستقيم (٥٧٩/٢) .

وعمر وعثمان وعلى إلا إذا خالَف كلام رسول الله ﷺ مُخالفة صَرِيحة فالواجب علينا أنْ نَأْخُذَ بكلام رسول الله ﷺ ونَعْتَذِر عن هذا الصَّحابى ونقول هذا من باب الإجتهاد المَعْذُور فيه . فالوَاجب علينا أن نَحْفظ وَصِيَّة الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام التى أَوْصَانَا بها : « عَلَيْكُم بِسُنَّتِى وَسُنَّة الخُلَفَاء الرَّاشِدين المَهْدِيين مِن بَعْدِى تمسَّكُوا بها – بأَيْدِيكم – وَعَضُّوا عَلَيها بالنَّوَاجِذ »(١) وَهِى أَقْصَى الأَضْرَاس وهَذَا يَدُلُّ على شِدَّة التَّمسك بها .

قال المؤلف : « وَإِيَّاكُم وَمُحْدَثَاتُ الأمُور » إياكم : هَذِه للتَّحْذير ، أى أُحَذِّركم . والأُمور : بمعنى الشئُون والمراد بها أُمور الدِّين . أما أمور الدنيا فلا تدخل فى هذا الحديث لأَنَّ الأصل فى أُمور الدُّنيا الحِلّ فما ابْتُدِع منها فهو حلال . لكن أُمور الدِّين الأَصْل فيها الحَظْر فما ابْتُدِع منها فهو حَرَام إلا بِدَليل من الكتاب والسُّنة .

قال النبى عليه الصَّلاة والسَّلام : « فإِنَّ كُلّ بِدْعَة ضَلَالَة » . الجملة مُفَرَّعه على الجملة التَّحْذِيرية فيكون المُراد بها هنا توكيد التَّحذير . كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالة : هذا كلام عام مسور بأقوى لفظ دَالٍّ على العموم وهو لفظ « كُلّ » فهذا تعميم مُحْكَم صَدَر من الرسول ﷺ . والرسول عليه الصَّلاة والسَّلام أعلم الخلق بشريعة الله وَأَنْصَح الخَلْق لِعِبَاد الله وأَفصَح الخلق بَيَانًا وأَصْدَقُهم خبرا فاجتمعت فى حَقّه أَربعة أُمور : علْمٌ ونُصْحٌ وفَصَاحَةٌ وصِدْقٌ . نَطَق بقوله : « كُلّ بِدْعَةٍ ضَلَالة » وعلى هذا كل من تَعَبَّد لله بِعَقِيدة أَوْ قَوْل أَوْ فِعْلٍ لم يكن شَرِيعة الله فهو مُبْتدع . الجهمية يَتَعَبَّدون بعقيدتهم ويعتقدون أنهم مُنَزِّهُون لله . والمعتزلة كذلك والأشاعرة يتعبَّدُون بما هم عليه من عقيدة باطلة والذين أَحْدَثُوا أَذْكارًا مُعَيَّنة يتعبَّدون لله بذلك ويعتقدون أَنَّهم مَأْجُورون على

(١) تقدم تخريجه ص (٧١١) .

هذا . والذين أَحْدَثُوا أَفْعَالاً يتعبَّدون لله بها .

كل هذه الأَصْناف الثَّلاثة الذين ابتدعوا فى العقيدة أَوْ فى الأَقوال أو فى الأَفْعال كُلُّ بِدْعَةٍ من بِدَعِهم فهى ضَلالة وَوَصَفها الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام بالضَّلالة لأَنَّها جهل مُرَكَّب ولأنها انحراف عن الحق . والبدعة تستلزم محاذير فاسدة :

فأَوّلاً : تَسْتلزم تكذيب قول الله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُم دِينَكُمْ ﴾ [المائدة : ٣] لأَنَّه : إذا جاء بِبدعة جديدة يَعْتبِرها دينا فمقْتَضَاهُ أَنَّ الدِّين لم يكمل .

ثانيًا : تَسْتلزم القَدْح فى الشَّريعة وأَنَّها ناقصة فَأَكْملَها هذا المُبْتَدع .

ثالثًا : تَسْتلزم القَدْح فى المُسْلِمين الذين لم يَأْتُوا بها فكل من سَبَق هذه البدع من الناس دِينهم نَاقِص وَهَذَا خَطِير .

رابعًا : مِنْ لَوَازم هذه البِدْعة أَنَّ الغالب أَنَّ من اشتغل ببدعة انشغل عن سُنَّة كما قال بعض السَّلف : « مَا أَحْدَثَ قَوْمٌ بِدْعَة إِلَّا هَدَمُوا مِثْلَها من السُّنَّة » .

خامسًا : أَنَّ هذه البدع تُوجِب تَفَرُّق الأُمَّة لأَنَّ هؤلاء المبتدعة يعتقدون أَنَّهم هم أَصْحَاب الحق ومَنْ سِواهم عَلَى ضَلَال وأهل الحق يقولون : أَنْتُم الَّذِين على ضَلال ، فتتفرق قُلُوبهم .

فهذه مَفَاسِد عظيمة كلها تَتَرتَّب عَلَى البِدعة من حيث هى بدعة مع أَنَّه يَتَّصِل بهذه البِدْعة سَفَه فى العَقْل وخَلَل فى الدّين .

وبهذا نعرف أَنَّ من قسَّم البدعة إلى أَقْسام ثلاثة أَوْ خمسة أَوْ ستَّة فقد أخطأ وخَطؤُه من أَحَد وَجْهين :

إمَّا أن لا يَنْطبق شرعًا وَصْف البدعة على ما سمَّاه بدعة وإمَّا أن لا يكون حَسَنا كما زعم فالنَّبى عليه الصلاة والسلام قال : « كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالة » فقال « كُلُّ » فما الذى يُخْرجنا من هذا السُّور العظيم حتى نُقَسِّم البدع إلى أقسام .

فإن قلت : مَا تَقُول فى قول أَمِير المؤمنين عمر حين خرج إلى الناس وهم يُصلُّون بإمَامِهم فى رمضان فقال : « نِعْمَت البِدْعة هذه » فَأَثْنَى عَلَيْها وَسَمَّاها بِدْعة ؟ فالجواب : أن نقول ننظر إلى هذه البِدْعة التى حَصَلت هل يَنْطَبِقُ عليها وَصْفُ البِدْعة الشَّرعية أَوّلاً . فَإِذَا نَظَرْنا ذلك وَجَدْنا أنَّه لا يَنْطَبق عليها وَصْفُ البِدْعة الشَّرعية فقد ثبت أَنَّ النبى ﷺ صَلَّى بِأَصْحَابه فِى رَمَضان ثلاث ليال ثمَّ تركه خَوْفًا من أن تُفْرَض عليهم فَثَبُت أَصْلُ المَشْروعيّة وانْتَفَىٰ أن تكون بِدْعة شَرْعيّة ولا يمكن أَنْ نَقُول إنَّها بدْعة والرَّسول ﷺ قد صلَّاها . إذًا سمَّاها عمر رضى الله عنه لأَنَّ النَّاس تركوها وصاروا لا يُصلُّون جماعة بإمَامٍ وَاحِد بل أَوْزَاعًا الرجل وحده والرجلان والثلاثة والرهط فلما جمعهم على إمام واحد صار اجتماعهم بدعة بالنسبة لما كانوا عليه أولاً من التَّفَرُّق ولهذا لما خرج الرَّسول ﷺ ذات ليلة وَسَمِع أَصْحَابه يُصلون ويجهرون بالقراءة قال : « كُلكم يُنَاجِى رَبَّه فَلَا يَجْهَر بَعْضَكُم عَلَى بَعْض فى القُرْآن »(١) وَبَقِى النَّاس عَلَى هَذَا زَمَن أَبِى بَكْر وَصَدْرًا مِن خِلافة عُمر فخرج رضى الله عنه ذات ليلة فقال : لو أَنى جمعت الناس على إمام واحد لكان أحسن فأمر أبى بن كعب وتميما الدَّارى أَن يَقُوما للنَّاس بإحدى عشرة ركعة فَقَاما للناس بإحدى عشرة ركعة فخرج ذات ليلة والنَّاس يُصلُّون بإمَامهم فقال : « نِعْمت البِدْعة هذِه » إذًا هى بدعة نِسْبية باعتبار أنَّها تُرِكَت ثم انْشِئت مَرّة أُخْرَىٰ . فهذا وَجْه تَسْمِيتها ببدعة وأَمَّا أنَّها بدعة شَرْعية ويُثْنِى

---

(١) حَدِيثٌ صَحِيحٌ : رواه أحمد (٢/٣٦ ، ٦٧ ، ١٢٩ ، ٣٤٤/٤) وصحَّح إسناده الشيخ أحمد شاكر فى تعليقه على المسند (٦٣/٧) .

عليها عمر فَكَلّا . وبهذا نَعْرف أن كلام رسول الله ﷺ لا يُعَارِضُه كلام عمر رضى الله عنه . فقوله ﷺ : « كُلُّ بِدْعَة ضَلَالَة » لا يمكن أَنْ نقول فى أى بِدْعة من البِدع : نِعْمَت البِدْعَة هَذِهِ » . فإن قلت : كيف تجمع بين هذا وبين قول الرسول ﷺ « مَنْ سَنَّ فى الإسْلَام سُنَّة حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُها وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِها إلى يَوْم القِيَامَة » فأثبت أن الإنسان يسن سُنَّة حَسَنة فى الإسلام ؟ فنقول : كَلَام الرَّسول ﷺ يُصَدِّق بَعْضَهُ بَعْضًا . فَيُريد بالسُّنَّة الحَسَنة : السُّنَّة المَشْرُوعة ويكون المراد بِسَنِها المُبَادَرة إلى فِعْلها ويدلُّ لهذا أنَّ النبى ﷺ قاله حين جاء أَحَدُ الأَنصار بِصُرة مِن فِضَّة وَوَضَعَها بين يَدَى النبى ﷺ حين دَعَا أَصْحابه أن يَتَبَرَّعوا للرَّهط الَّذين قَدِمُوا مِن مُضَر مُجْتَابى الثّمار وهم من كبار العرب فَتَمَعَّر وَجْهُ النَّبى ﷺ لما رَأَى من حَالِهم فَدَعا إلى التَّبَرُّع لهم فجاء هذا الرَّجل أَوَّل مَا جَاء بهذه الصُّرَّة فقال : « مَنْ سَنَّ فِى الإسْلَام سُنَّة حَسَنَةً فَله أَجْرُها وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إلى يَوْم القِيَامَة »[1] وبهذا نعرف أَنَّ كلام الرَّسول ﷺ لا يُنَاقض بَعْضُه بَعْضًا بل هو مُتَّفِق لأَنه عليه الصَّلاة والسَّلام لا ينطق عن الهَوَىٰ .

* * *

● ثم قال المؤلف : « **وَيعلمون أَنَّ أَصْدَقَ الكَلَامِ كَلَامُ الله** »

هذا عِلْمُنا واعْتِقَادُنا وأنَّ ليس فى كلام الله من كَذِب بل هو أَصْدَق الكَلام . فإذا أَخْبَر الله عن شيء بأَنه كائن فهو كَائِن وإذا أخبر عن شيء بأَنه سيكون فإنه سيكون وإذا أخبر عن شيء بأَنَّ صِفَتُه كَذَا وكَذَا فإن صِفَتُه كذا وكذا . فلا يمكن أن يَتَغَيَّر الأَمْر عمَّا أخبر الله به ومن ظَنَّ التَّغير فإنما

---

(١) رواه مسلم (١٠١٧) (٦٩) من حديث جرير بن عبدالله البجلى .

ظَنَّه خَطَأً لِقُصُوره أَوْ تقصيره مثال ذلك لو قال قائل إن الله عز وجل أخبر أَنَّ الأَرض قد سُطِحت فقال : ﴿ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [الغاشية : ٢٠] ونحن نُشَاهد أَنَّ الأرض مُكَوَّرة فكيف يكون خبره خلاف الوَاقع ؟ فجوابه : أن الآية لا تخالف الواقع ولكن فَهْمُه خَاطِىء إمَّا لِقُصُوره أَوْ تَقْصِيره فالأَرض مُكَوَّرة مُسَطَّحة وذلك لأَنَّها مُسْتَدِيرة ولكن لِكِبر حَجْمها لا تَظْهر اسْتِدَارَتها إِلَّا فى مسَاحة وَاسعة تكون بها مُسَطَّحة وحينئذ يكون الخَطَأُ فى فهمه حيث ظن أَن كونها قد سُطِحت مخالف لكونها كَرَوية . فإذا كنا نُؤْمن أَنَّ أَصْدق الكَلام كَلام الله فلازم ذلك أَنَّه يجب علينا أَن نُصَدِّق بكل مَا أَخْبَرَ الله بِهِ فى كتابه سَوَاء كان ذلك عن نَفْسه أَوْ مَخْلُوقَاتِهِ .

قال المؤلف : « **وخير الهَدْى هَدْىُ مُحمد ﷺ** » الهَدْى هو الطَّريق التى كان عليها السَّالك . والطُّرق شتى لكن خَيْرها طَرِيق النبى ﷺ فنحن نعلم ذلك ونُؤمن به بأَنَّه خَيْر الهَدْى هَدْى مُحمد ﷺ فى العقائد والعِبَادات والأَخْلاق والمُعَاملات . وأَنَّ هَدْى مُحمد ﷺ ليس بقاصر لا فى حُسنه وتَمَامه وانْتظامه وَمُوافَقَته لمصالح الخلق ولا فى أَحكام الحوادث التى لم تَزَل ولا تَزَالُ تقع إلى يوم القِيامة فإِنَّ هدى محمد كامل تامّ فهو خَيْر الهَدى أَهْدَى من شَرِيعة التَّوراة والإِنجيل والزَّبور وصُحف إبراهيم وجميع الهَدى . فإذا كنا نعتقد ذلك فوالله لا نَبْغى به بَدِيلاً .

وبناء على هذه العقيدة لا نُعارض قول رسول الله ﷺ بقول أَحَدٍ من البَشَر حتى لو كان أَعْلم الخلق . ولو جَاءَنا قول لِأَبى بكر وهو خير الأمة وقول لِرَسُول الله أخذنا بِقَوْل رَسُول الله ﷺ .

وَأَهْلُ السُّنة والجماعة بَنَوا هذا الاعتقاد على الكتاب والسُّنة قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء : ٨٧] وقال النبى ﷺ وهو

يخطب النَّاس على المنبر « خَيْر الحَدِيث كِتَاب الله وَخَيْر الهَدى هَدْى محمد ﷺ »(١) ولهذا تجد الذين اختلفوا فى الهدى وخَالَفُوا فيه إمَّا مُقصِّرين عن شريعة الرسول ﷺ وإمَّا غالين فيها بين مُتَشَدِّدين وبين مُتَهَاونين بين مُفَرِّط ومُفْرِط وهدى الرسول ﷺ يكون بين هذا وهذا .

* * *

● **قال المؤلف : « وَيُؤْثِرُونَ كَلَام الله عَلَى غَيْره مِن كَلَام أَصْنَاف النَّاس »**

يُؤْثِرون أى يُقَدِّمون كلام الله على كلام غيره من سائر أَصْنَاف الناس فى الخبر والحكم فأَخْبَار الله عندهم مُقَدَّمة على خبر كُلِّ أَحَد فإذا جاءَتْنا أَخْبارٌ اسرائيلية عن أُمم مَضَت وصار القرآن يُكَذِّبها فإنَّنا نُكَذِّبها مثال ذلك : اشتهر عند كثير من المؤرخين أن إدريس قبل نوح وهذا كذب لأن القرآن يكذبه كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ﴾ [النساء : ١٦٣] وإدريس من النَّبيين كما قال الله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴾ [مريم : ٥٦] إلى أن قال ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ [مريم : ٥٨] وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ [الحديد : ٢٦] فلا أَحد قبل نوح نَبِى إِلَّا آدم فقط .

* * *

● **قال المؤلف : « وَيُقَدِّمون هَدْى مُحمد ﷺ عَلَى هَدْى كل أحد »**

(١) رواه مسلم (٨٦٧) (٤٣) من حديث جابر بن عبدالله رضى الله عنه .

يُقَدِّمون هديه أى طريقته وسُنَّته التى عليها على هدى كل أَحد فى العقائد والعِبادات والأَخلاق والمُعَاملات والأَحوال وفى كل شَىء .

* * *

● **قال المؤلف : « ولهذا سُمُّوا أَهْل الكِتَاب وَالسُّنَّة » .**

سُمُّوا أَهل الكِتاب والسُّنَّة لتصديقهما والتِزامهما وإيثَارهما على غيرهما . وَمَنْ خالف الكتاب والسُّنَّة وادَّعىٰ أَنَّه من أَهل الكتاب والسُّنة فهو كاذب ، لأَنَّ من كان من أهل شيء لابد أن يَلْزَمه .

* * *

● **قال المؤلف : « وَسُمّوا أَهْل الجَمَاعة ، لأَنَّ الجَمَاعة هى الإِجْتِمَاعُ ، وَضِدُّها الفُرقة وإِنْ كَانَ لَفْظ الجَمَاعة قد صَارَ اسْمًا لِنَفْس القَوْم المُجْتَمِعين » .**

قَوْلُه « وَسُمُّوا أَهْل الجَمَاعة لأَنَّ الجَمَاعة هى الإِجْتِماع وَضدّها الفُرْقة » الجَمَاعة اسم مَصْدر اجْتَمع يجتمع اجتماعًا وَجَمَاعة فالجماعة هى الاجْتماع . فمعنىٰ أَهل الجماعة أهل الإِجتماع لأَنهم مجتمعون على السُّنَّة متآلفون لايضلل بعضهم ولا يُبَدِّع بَعْضُهم بَعْضًا بخلاف أهل البدع .

قال المؤلف : « وإن كَانَ لَفْظُ الجماعة قَد صَارَ اسمًا لِنَفْس القَوم المُجْتَمِعين » هذا فى استعمال ثَانى حيث صار لفظ الجماعة اسمًا للقوم المجتمعين وعلى ما قَرَّره المؤلف تكون الجماعة فى العبارة المعروفة أهل السُّنَّة والجماعة معطوفة على السُّنة ولهذا عبَّر المؤلف بقوله : « أَهْل الجَماعة » ولم يقل سُمُّوا جماعة فكيف يكونون أهل الجماعة وهم جماعة ؟ نقول الجماعة

فى الأَصْل الاجتماع فأَهْل الجماعة يعنى أهل الإجتماع لكن نقل اسم الجماعة إلى القوم المجتمعين نقلاً عُرْفيًا .

* * *

● **قال المؤلف : « والإجْمَاعُ هو الأَصْلُ الثَّالث الذى يُعْتَمَد عَلَيْه فى العِلْم والدِّين » .**

والأصل الأول : هو الكتابُ ، والثَّانى السُّنة ، والإجماع هو الأصل الثَّالث ولهذا يسمون « أَهْل الكِتَاب والسُّنَّة والجماعة » فهذه ثلاثة أُصول يُعْتَمد عليها فى العِلم والدين وهي الكتاب والسُّنَّة والإجماع أَمَّا الكتاب والسُّنة فأصلان ذاتيان وأَمَّا الإجماع فأَصْلٌ مَبْنِيٌّ على غيره إذ لا إجماع إلا بكتاب أو سُنَّة .

أَمَّا كون الكتاب والسُّنة أَصْلاً يُرجع إليه فأَدِلّته كثيرة منها قوله تعالى : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ ﴾ [النساء : ٥٩] وقوله : ﴿ وَأَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ [المائدة : ٩٢] . قوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُواْ ﴾ [الحشر : ٧] . قوله تعالى : ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ ﴾ [النساء : ٨٠] ومن أَنكر أَن تكون السُّنَّة أصلاً فى الدليل فقد أنكر أن يكون القرآن أَصلاً . ولاشك عندنا فى أن من قال أَن السُّنة لا يرجع إليها فى الأَحكام الشرعية أَنَّه كافر مرتدٌّ عن الإسلام لأَنَّه مُكَذِّب ومُنْكِر للقرآن فالقرآن فى غير ما موضع جعل السُّنَّة أَصلاً يُرْجع إليه . وأَمَّا الدَّليل على أَن الإجماع أصل فيقال : أولاً : هل الإجماع مَوْجود أَوْ غير مَوْجُود ؟ قال بعض العلماء : لا إجماع موجود إلَّا عَلَى ما فيه نَصٌّ وحينئذ يستغنى بالنَّص عن الإجماع فمثلاً لو قال قائل : العلماء مُجْمِعُون على أَنَّ الصَّلوات المفروضة خمس فهذا صحيح لأَنَّه فيها نص . ومجمعون على تحريم

الزِّنا . لكن فيه نص . ومجمعون عَلَىٰ تحريم نكاح ذوات المحارم وفيه نص ولهذا قال الإمام أحمد : من ادَّعى الإجماع فهو كاذب وَمَا يَدْرِيه لعلهم اختلفوا والمعروف عند عامة أهل العلم أنّ الإجماع موجود وأن كونه دليلاً ثابت بالقرآن والسُّنة فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوه إِلَىٰ اللهِ وَالرَّسُول ﴾ [النساء : ٥٩] فإن قوله : ﴿ فإنْ تَنَازَعْتُمْ فى شىء فَردوه ﴾ يدلُّ على أنكم إن اجتمعتم فهو حق .

ومن ذلك قوله : ﴿ وَمَن يُشَاقِق الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الهدىٰ وَيتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ المُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء : ١١٥] فقال : ﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ المُؤْمِنِينَ ﴾ [النساء : ١١٥] واستدلُّوا أيضًا بحديث « لا تجتمع أُمَّتى على ضلالة »(١) وهذا الحديث حسَّنه بعضهم وضعَّفه آخرون لكن قد نقول إنَّ هذا وإن كان ضعيف السَّند لكن يشهد لمتنه ما سبق من النَّص القرآنى فجمهور الأُمَّة أَن الإجماع دَلِيلٌ مُسْتَقِلٌّ وأننا إذا وجدنا مسألة فيها إجماع أَثْبَتْنَاها بهذا الإجماع .

* * *

(١) **حَدِيثٌ صَحِيحٌ** : أخرجه الترمذى (٢١٦٧) وابن أبى عاصم فى السنة (٨٠) والحاكم (١١٥/١ ، ١١٦) والخطيب فى الفقيه والمتفقه (٦١/١) من حديث ابن عمر ، وقال الترمذى : « حديث غريب » وإسناده ضعيف كما فى تخريج السنة للألبانى (٤٠/١) وله طريق آخر عند الطبرانى فى الكبير (٤٤٧/١٢) وإسناده حسن ، وقال الهيثمى فى المجمع (٢١٨/٥) : « رواه الطبرانى بإسنادين رجال أحدهما ثقات رجال الصحيح خلا مرزوق مولى آل طلحة وهو ثقة » ا.هـ . وللحديث شواهد كثيرة : منها حديث ابن عباس مرفوعًا « لا يجمع الله أمتى – أو قال هذه الأمة – على ضلالة ، ويد الله على الجماعة » أخرجه الحاكم (١١٦/١) واقتصر الترمذى على الجملة الأولى منه إسناده جيد . ومنها حديث أبى مسعود : أخرجه ابن أبى عاصم فى السنة (٨٥) والطبرانى فى الكبير (٢٣٩/١٧ ، ٢٤٠) والحاكم (٥٠٦/٤ ، ٥٠٧) وصحَّحه ووافقه الذهبى ، وقال الهيثمى فى المجمع (٢١٩/٥) : رجاله ثقات ا.هـ . وقال الحافظ فى تلخيص الحبير (١٤١/٢) : « إسناده صحيح ومثله لايقال من قبل الرأى » . وراجع التلخيص (١٤١/٢) للإطلاع على بقية شواهده .

● **قال المؤلف : « وهم يَزِنُون بهذه الأُصول الثَّلاثة جميع مَا عَلَيْه النَّاس من أَقْوال وأَعْمَال بَاطِنة أَوْ ظَاهِرة مِمَّا لَهُ تَعَلُّق بالدِّين »** .

الأُصول الثَّلاثة هي الكتاب والسُّنَّة والإجماع . يعنى أن أهل السُّنة والجماعة يَزِنُون بهذه الأُصول الثلاثة جميع مَا عَلَيْه النَّاس من قول أو عَمَلٍ باطن أو ظاهر لا يعرفون أَنَّه حقّ إِلَّا إذا وَزَنُوه بالكتاب والسُّنَّة والإجماع فإن وُجِد له دَلِيلٌ منها فهو حَقٌّ وإن كان على خِلافه فهو بَاطل .

* * *

● **ثم قال المؤلف رحمه الله : « وَالإجماع الَّذِى يَنْضبِط هوَ ما كَانَ عَلَيْه السَّلَف الصَّالِح إِذْ بَعْدَهُم كَثُر الاخْتِلاف وَانْتَشَرَت الأُمَّة »** .

يعنى أن الإجماع الذى يمكن ضَبْطُه والإحاطَة به هو مَا كَان السَّلف الصَّالح وهم القُرون الثَّلاثة الصَّحابة والتَّابعون وتابعوهم ثم علل المؤلف ذلك بقوله : « إِذْ بَعْدَهُم كَثُر الاخْتلاف وانْتَشَرت الأُمة » يعنى أَنَّه كَثُر الاختلاف ككثرة الأهواء لأَن النَّاس تفرقت طَوَائف ولم يكونوا كلهم يُريدون الحق فاختلفت الآراء وتَنَوَّعت الأَقوال « وانْتَشَرَت الأُمَّة » فصارت الاحاطة بهم من أَصْعَب الأُمور فشيخ الإسلام رحمه الله كَأَنَّه يقول من ادَّعىٰ الإِجماع بعد السَّلف الصَّالح وهم القرون الثَّلاثة فإِنَّه لا يَصِحُّ دَعْواه الإجماع لأَن الإجماع الذى يَنْطَبق ما كان عليه السَّلف الصَّالح . وهل يمكن أن يُوجد إجماع بعد الخلاف ؟ فنقول لا إجماع مع وُجود خِلاف سَابق ولا عِبْرة بِخِلاف بعد تَحَقُّق الإجماع .

* * *

فصـــل

فِى بَيَان مُكَمِّلات العَقِيدة من مَكَارم الأَخْلاق وَمَحَاسِنِ الأَعْمَال التى يَتَحَلَّى بها أَهْلُ السُّنَّة

٣٠٦ – ثُمَّ هُم مَعَ هَذِهِ الأُصُول يَأْمُرونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَون عَنِ المُنْكَر عَلَى مَا تُوجِبُه الشَّرِيعة .

٣٠٧ – وَيَرَوْنَ إِقَامَة الحَجّ والجِهاد والجمع وَالأَعياد مَعَ الأُمَرَاء أَبْرارًا كَانُوا أَوْ فُجَّارًا .

٣٠٨ – وَيُحَافِظُون عَلَىٰ الجَمَاعَات .

٣٠٩ – وَيَدِينُونَ بالنَّصِيحة للأُمَّة .

٣١٠ – ويَعْتَقِدُون مَعْنَىٰ قوله ﷺ : « المُؤْمِنُ لِلمُؤْمِنِ كَالبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُه بَعْضاً ، وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعه » .

٣١١ – وقوله ﷺ : « مَثَلُ المُؤْمِنِين فِى تَوادِّهم وَتَرَاحُمِهم وَتَعَاطُفِهم كَمَثل الجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عضْوٌ تَدَاعىٰ لَهُ سَائِرُ الجَسَد بِالحُمَّى والسَّهَر » .

٣١٢ – وَيَأْمُرون بِالصَّبْرِ عِنْد البَلَاء ، والشُّكْرِ عِنْد الرَّخَاء ، والرِّضَا بِمُرِّ القَضَاء .

٣١٣ - وَيَدْعُونَ إلى مَكَارِمِ الأَخْلَاقِ وَمَحَاسِنِ الأَعْمَالِ .

٣١٤ - وَيَعْتَقِدُونَ مَعْنَى قوله ﷺ : « أَكْمَلُ المُؤْمِنِينَ إيمَانًا أَحْسَنُهم خُلُقًا » .

٣١٥ - وينْدِبُون إلى أَن تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ ، وَتُعْطِي مَنْ حَرَمَكَ ، وَتَعْفُو عَمَّن ظَلَمَكَ .

٣١٦ - وَيَأْمُرُونَ بِبِرِّ الوَالِدين ، وَصِلَةِ الأَرْحَام ، وَحُسْن الجِوَار ، والإِحْسَان إلى اليَتَامَى وَالمَسَاكِين ، وابْنُ السَّبِيل ، والرِّفق بِالمَمْلُوك .

٣١٧ - وَيَنْهَوْنَ عَن الفَخْرِ والخُيَلاء وَالبغى وَالاسْتِطَالَة عَلَى الخَلْق بِحَقٍّ أَوْ بِغَيْرِ حَقٍّ .

٣١٨ - وَيَأْمُرونَ بِمَعَالِي الأَخْلَاق وَيَنْهَون عَن سِفْسَافِهَا .

٣١٩ - وَكُلُّ مَا يَقُولُونَهُ وَيَفْعَلُونَهُ مِن هَذَا وَغَيْره ، فإِنَّما هم فيه مُتَّبِعُون للكتاب والسُّنة .

الشـــرح

● **ثم قال المؤلف رحمه الله تعالى : « فَصْل : ثُمَّ هُمْ مَعَ هَذِهِ الأُصُول يَأْمُرون بالمَعْروفِ وَيَنْهَون عن المُنْكَر » .**

« هُم » أى أهل السُّنة والجماعة مع هذه الأُصول السَّابقة التى ذكرها قبل هذا وهو اتِّباع آثار الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام واتباع الخلفاء الراشدين واتباع إجماع المسلمين. مع هذه الأُصول يَأْمُرون بالمعروف وينهون عن المنكر

والمعروف : كل مَا أَمَرَ به الشَّرع فهم يأمرون به ؛ لأَن هذا هو مَا أَمَرَ اللهُ به فى قوله : ﴿ وَلْتَكُن مِنكُم أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ ﴾ [آل عمران : ١٠٤] وكذلك قال النَّبى عليه الصَّلاة والسَّلام : « لَتَأْمُرنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَونَّ عَنِ المُنْكَر وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدِ الظَّالم وَلَتَأْطُرنّه عَلَى الحق أَطْرًا »(١) فهم يأْمرون بالمعروف ولا يَتَأَخَّرون عن ذلك ولكن يُشْترط للأَمر بالمعروف والنَّهى عن المنكر أَن يكونا على مَا تُوجِبُه الشَّريعة وتَقْتَضيه(٢) :-

الشَّرط الأَول : أن يكون عالمًا بأُمور ثلاثة عالمًا بحال المَأْمُور ، وَعَالِمًا بِفِعْلِهِ الذى يَفْعَلُه وَعَالِمًا بأَنَّ هذا من المَعْروف أو هَذَا من المنكر . فَإِذَا أَرَاد أَن يَأْمر بالصَّلاة فلابد أن يعلم أَنَّ هذا الإِنسان مِمَّن يُؤْمَرُ بالصَّلاة وأَنَّه لم يُصَلّ أما أن يجد شَخْصًا بَعْد مُضِى بُرْهة من دُخُول الوَقت فَيَقُول : صَلِّ وهو لا يدرى لَعَلَّه صلَّى فهذا ليس من هَدْى الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام ، لأن النبى ﷺ لَمّا رَأَى رَجُلاً دَخل وهو يَخْطُب وَجَلَس قال له: «أَصَلَّيْتَ ؟ قال لا . قال : قم فَصَلِّ »(٣) فلم يَأْمُره بالصَّلاة حتَّى عَلِمَ أَنَّه لَم يُصلِّ .

كذلك أَن يَكُون عَالِمًا بحكم الشَّرع فى ذلك فإِن كان غير عالم فلا يجوز أَن يأْمر به إِنْ كَانَ يَرَاهُ مَعْروفًا ولا أَن يَنْهَى عنه إِن كان يَرَاهُ مُنكَرًا . فلو أَنَّ أحدًا أَمَرَ شخصًا أن يفعل شَيْئًا يَظُنُّه الآمر عِبادة فإِنَّه لا يَحِلّ له أَنْ يَأْمُرَهُ به حتى يعلم دليل الشَّرع فيه .

---

(١) **إِسْنَادُه ضَعِيف** : رواه أبو داود (٤٣٣٧) من حديث ابن مسعود رضى الله عنه . وضعَّفه الألبانى فى ضعيف سنن أبى داود ص (٤٣٠) .

(٢) راجع : أضواء البيان (١٥١/٢ : ١٥٨) .

(٣) رواه البخارى (٩٣٠) ومسلم (٨٧٥) (٥٤) من حديث جابر رضى الله عنه .

كذلك لو أنه رَأَىٰ شَخْصًا يفعل أَمرًا يَظُنُّه مُنْكَرًا فَأَنْكره عليه فنقول هذا حَرَام عليك أن تنهى عن شيء لم تعلم أَن الشَّرع أنكره ولقد نُقِل لى أَنَّ بعض النَّاس يقول يَحْرم أَنْ يُسَجَّل القرآن بِأَشْرِطَة لأَن ذلك إهانةٌ للقرآن على زَعمهم فينهى النَّاس أَن يُسَجِّلوا القرآن على هذه الأشرطة لِظَنِّه أَنَّه منكر فنقول له إِنَّ المنكر أن تنهاهم عن شيء لم تَعْلم أَنَّه مُنْكَر . فلابد أن تعلم أَنَّ هذا مُنكرٌ فى دين الله . لكن لو رأينا رجلاً يَتعبَّد بِعِبادة لم نعلم أنها مِمَّا أَمَر الله به فإننا نَنهاه لأَنَّ الأَصل فى العبادات المَنْع .

الشَّرط الثَّانى : أَن يكون هذا الآمر أو النَّاهى قائمًا بما يَأْمُر به مُنْتهيًا عمَّا يَنْهَىٰ عنه - وَهَذَا عَلَى رَأْى بعض العُلَماء - فَإِنْ كَانَ غير قائم بذلك فإنَّه لا يَأْمُر بالمعروف ولا يَنْهَىٰ عن المنكر لأَنَّ الله تعالى قال لبنى إسرائيل مُنكرًا عليهم : ﴿ أَتَأْمُرونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الكِتَاب أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ٤٤] ، فإذا كان هذا الرَّجل لا يُصَلِّى فلا يَأْمُر غيره بالصَّلاة وإن كان يَشْرب الخَمْر فلا ينهى غيره عنها ولهذا قال الشَّاعر :-

لاَ تَنْه عَن خُلُقٍ وَتَأْتِى مِثْلَهُ   عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ

فهم استَدَلُّوا بالأَثر والنَّظر ولكن الجمهور على خِلاف ذلك وقالوا : يجب أَنْ يَأْمُر بالمعروف وإن كَانَ لا يَأْتِيه وَينْهَىٰ عن المنكر وإِنْ كَانَ يَأْتِيه ، وإنما وَبّخ الله تعالىٰ بنى إسْرائيل ، لا على أَمْرهم بِالبر ، ولكن على جمعهم بين الأَمْر بالبر ونِسْيان النَّفس وهذا القول هو الصَّحيح فنقول أَنْتَ الآن مَأْمُورٌ بأمرين الأَوَّل : فِعْلُ البر والثَّانى : الأَمْر بالبر مَنْهِىٌّ عن أمرين : الأَوَّل اجْتِناب المنكر ، والثَّانى النَّهى عن فعله .

الشَّرط الثَّالث : أَن يَكُون قَادِرًا على القيام بالأَمْر بالمعروف والنَّهى عن المنكر بلا ضرر يَلْحَقُه فإن لَحِقَهُ ضَرَرٌ لم يَجِب عليه لكن إن صَبَرَ وَقَامَ

به فهو افضل ، لان جميع الوَاجبات مَشْروطة بالقُدْرة والاسْتِطاعة ، فَإِذا خَافَ إِذا أَمَرَ شَخْصًا بمعروف أن يَقْتُله فَإِنَّه لا يَلْزَمُه أَن يَأْمُرهُ ؛ لأَنَّه لا يستطيع ذلك ، بل قد يَحْرُم عليه الكَفّ حينئذ .

وقال بعض العلماء :- بل يَجِبُ عليه الصَّبر والأَمْر وإن تَضَرَّر بِذَلك مَالَم يَصِل إلى حَدّ القتل ولكن القول الأَول أَوْلَىٰ لأَن هذا الآمر إذا لَحِقَهُ الضَّرر بِحَبْسٍ ونحوه فَإِنَّه يَحْرُم غيره مَا يَقُوم به من الأَمْر بِالمَعْرُوف والنَّهى عن المنكر ، وربما يَسْتمر غيره فى الأَمر بالمعروف والنَّهى عن المنكر حتى فى حال لا يُخشىٰ منها ذلك الضَّرر ، وهذا مَا لم يَصِل الأَمر إلى حَدّ يكون الأَمْر بالمعروف من جنس الجِهاد كما لو أَمَر بِسُنَّة ونَهَىٰ عن بِدْعة ولو سكت لاستطال أَهل البِدْعة على أهل السُّنَّة ففى هذه الحال يجب إِظْهَار السُّنَّة وبَيَان البِدْعة لأَنَّه من الجهاد فى سبيل الله ولا يُعذر من تَعَيَّن عليه بالخوف على نفسه .

الشَّرط الرابع : أن لا يَتَرَتَّب على الأَمر بالمعروف والنَّهى عن المنكر مَفْسَدة أَعظم من السُّكوت فإن تَرَتَّب عليها ذلك ، فإِنَّه لا يلزمه بل لا يجوز له أَن يَأْمُر بالمعروف أَو ينهى عن المنكر . ولهذا قال العلماء :- إن إنكار المنكر ينتج منه إِحدى حال من أربع :

إِمَّا أن يَتَحوَّل إلى ضِدّه أو إلى أَخَفّ منه أو إلى مِثْله أو إلى أَعظم منه .

أَمَّا فى الحال الأولىٰ والثَّانية فالإنكار وَاجِب أَمَّا فى الثالثة فهى مَحَلّ نظر أَمَّا فى الرَّابعة فهنا لا يجوز الإنكار لأَنَّ المقصود بإنكار المنكر إِزَالَتُه .

مثال ذلك :- إذا أَرَادَ أَن يأْمر شَخْصًا بِفعل إحسان لكن يستلزم فعل هذا الإحسان أَلَّا يُصَلِّى مع الجماعة فهنا لا يَجُوز الأَمْر بهذا المعروف لأَنَّه يُؤَدى إلى ترك واجب من أَجْل فِعْل مُسْتَحب ، وكذلك فى المنكر لو كان

إذا نَهَىٰ عن هذا المنكر تحوّل الفَاعل له إلى فعل مُنْكَر أَعظم فإنَّه فى هذه الحال لا يجوز أن ينهىٰ عن هذا المنكر دفعًا لأَعْلَى المَفْسَدتين بِأَدْنَاهُما وَيُدلُّ لهذا قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ فَيَسبُّوا آللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْم ﴾ [الأنعام : ١٠٨] فإِنَّ سَبَّ آلهة المشركين لاشَكَّ أَنَّه أَمْرٌ مطلوب لكن لما كان يَتَرَتَّب عليه أَمْرٌ مَحْظُور أَعظم من المَصْلَحة التى تكون بِسَبِّ آلهة المشركين وهو سَبُّهم لله تعالى عَدْوًا بغير علم نَهَىٰ الله عنه سَبّ آلهة المشركين فى هذه الحال . ولو وجدنا رَجُلاً يَشْرب الخمر وشُرْبُ الخَمْر مُنْكَرٌ فَلَوْ نَهَيْنَاهُ عن شُرْبه لَذَهَب يَسْرق أموال النَّاس ويَسْتحِل أَعراضهم فهنا لا نَنْهَاهُ عن شُرْب الخَمر لأَنه يترتَّب عليه مَفْسدة أعظم .

فهذه أَرْبعة شُروط منها اثْنان للجواز وهما الأَوَّل والرَّابع ، وواحد للوجوب وهو الثَّالث وقد نبين الخلاف فى الثَّانى ولا يشترط أن لا يكون من أُصول الآمر أو الناهى كأبيه أو أُمه أو جدّه أو جِدّته بل ربما نقول أَنّ هذا يتأَكَّد أكثر لأَن من بِرّ الوَالِدين أن ينهاهما عن فِعل المَعَاصِى وَيَأْمُرهما بفعل الطَّاعات قد يقول : أَنا إِذا نَهيْتُ أَبِى غَضِبَ عَلَّى وَزَعِل وَهَجرنى فَماذا أَصْنَع ؟ نقول : اصْبر عَلَىٰ هذا الذى يَنَالُكُ بِغَضَب أَبيك وَهَجْره والعَاقِبة للمُتَّقين .

* * *

● **قال المؤلف : « وَيَرَوْنَ إِقامة الحج والجِهَاد والجُمَع والأَعْيَاد مَعَ الأُمَرَاء أَبْرَارًا كَانُوا أَوْ فُجَّاراً » .**

الأَبرار جمع بَرّ وهو كثير الطَّاعة وَالفُجَّار جمع فاجر وهو العاصى كثير المعصية . أَهل السُّنَّة رحمهم الله يُخَالفون أَهْل البدع تمامًا فَيَرَوْنَ إقامة الحج

مع الأَمِير وإن كان من أَفْسَق عِبَادِ الله . وكان النَّاس فيما سبق يجعلون على الحج أَمِيرًا كما جعل النَّبى ﷺ أَبَا بَكر أَمِيرًا عَلَى الحج فى العام التَّاسع من الهجرة وَمَازَالَ النَّاس على ذلك يَجْعَلون للحج أَمِيرًا قَائِدًا يَدْفَعُون بِدَفْعِه وَيقِفُونَ بِوُقُوفِهِ وَهذَا هو المَشروع ؛ لأَنَّ المُسْلمين يحتاجون إلى إمَام يَقْتَدُونَ به ، أَمَّا كون كُلّ إنسان عَلَى رَأْسه فإنَّه يَحْصُل فَوْضَى واختلاف كما هو الواقع الآن . هم يَرَوْن إقامة الحج مع الأُمَرَاء وإن كانوا فُسَّاقًا حتى وإن كانوا يَشْربون الخمر فى الحج لا يَقُولون هذا إمامٌ فَاجِر لا نَقْبل إِمَامَتُه لأَنَّهم يَرَوْنَ أن طَاعَة وَلِى الأَمر وَاجِبة وإن كان فَاسِقًا بِشَرْط أن لا يُخْرجه فِسْقُه إلى الكُفر البَوَاح الذى عندنا فيه من الله بُرْهَان فهذا لا طَاعَة لَهُ . ويجب أَن يُزَال عن تَوَلِّى أُمور المُسْلمين لكن الفجور الذى دُون الفِسق مهما بلغ فإنَّ الوِلَاية لَهُ ثَابِتة والطَّاعة وَاجِبة فى غير المَعْصِية خِلافًا للخَوَارِج الذين يَرَوْنَ أَنَّه لاطَاعَة للإمام والأَمِير إذا كان عَاصِيًا لأَن مِن قَاعِدتهم : أَنَّ الكَبِيرة تُخْرِج من الْمِلَّة. وَخِلافًا للرَّافضة الَّذين يَقُولون أَنَّه لا إِمَام إِلَّا المعصوم وأَنَّ الأُمَّة الإسْلامية مُنذُ غَابَ من يَزْعُمون أَنَّه الإمام المنتظر ليست على إمام ولا تبعًا لإمام بل هى تَمُوت مِيتة جَاهِلِيّة من ذلك الوقت إلى اليوم . ويقولون أَنَّه لا إمام إلا الإمام المعصوم ولا حجّ ولا جِهاد مع أى أمير كان لأَنَّ الإمام لم يَأْت بعد لكن أَهل السُّنة والجماعة يقولون نحن نرى إقامة الحج مع الأُمراء سَواءٌ كان أَبرارًا أم فُجّارًا . وكذلك إقَامة الجِهَاد مَعَ الأَمير ولو كان فَاسِقًا ويُقيمون الجهاد مع أَمير لا يُصَلِّى معهم الجماعة بل يُصَلِّى فى رَحْله . فأهل السُّنة والجماعة لديهم بُعْدُ نَظَر لأَن المُخَالَفات فى هذه الأُمور تَجُرُّ إلى فِتَن عظيمة . فما الذى فتح باب الفِتَن والقِتَال بين المسلمين والاخْتِلاف فى الآرَاء إِلَّا الخُروج على الأَئمة ؟ فيرى أهل السُّنة والجماعة وُجُوب إقامة الحج والجهاد مع الأُمراء وإن كَانُوا فُجّارًا ولكن هذا لا يَعْنى أَنَّ أَهل السُّنَّة

والجماعة لا يَرَوْنَ أَن فِعْل الأَمير مُنْكَر بل يَرَوْنَ أَنَّه منكر وأَنَّ فِعْل الأَمير للمُنْكَر قد يَكُون أَشَدُّ مِن فِعْل عامَّة الناس لأَن فِعْل الأَمير للمنكر يَلزَم منه مَحْذُوران عظيمان :

الأَوَّل : اقتداء النَّاس به .

والثانى : أن الأمير إذا فَعل المنكر سَيَقِلُّ فى نَفْسِه تغيير هذا المُنْكَر . لكن أهل السُّنَّة والجماعة يقولون حتى مع هذا الأَمر المُسْتلزم لهذين المحذورين أو لغيرهما فإِنَّه يجب علينا طاعة ولاة الأُمُور وإِن كانوا عُصَاةً فنقيم معهم الحج والجهاد وكذلك أيضًا « الجُمَع » نُقيمها مع الأُمَراء ولو كانوا فُجّارًا . فالأَمير إذا كان يَشْرب الخمر مَثَلاً ويظلم النَّاس بِأَمْوَالِهم نُصَلِّى خَلْفَه الجمعة وَتَصّح الصَّلاة ، حتى أَنَّ أَهْل السُّنَّة والجماعة يَرَوْنَ صِحّة الجمعة حتَّى خَلْف المُبْتَدِع إذا لم يصل بِدْعَتُه إلى الكُفر لأَنهم يَرَوْنَ أَنَّ الخلاف فى مثل هذه الأُمُور شَرّ ولكن لا يَلِيق بالأَمير الذى له إمامة الجمعة أن يَفْعَل هذه المنكرات . وكذلك أيضًا إِقَامة « الأَعْياد » مع الأُمراء الذين يُصَلُّون بهم .

بهذه الطَّريق الهادئة يَتَبيَّن أَن الدِّين الإِسلامى وَسَطٌ بَيْن الغَالى فيه وَالجَافِى عَنْهُ ، فقد يقول قائل كيف نُصَلِّى خلف هؤلاء ونتابعهم فى الحج والجهاد والجمع والأعياد ؟ فنقول لأنهم أئمتنا وَنَدِين لهم بالسَّمع والطَّاعة امتثالاً لِأَمْر الله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُواْ أَطِيعُواْ الله وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِى الْأَمْر مِنكُم ﴾ [النساء : ٥٩] ولو تخلّفنا عن مُتَابَعَتهم وعن الإِجتماع بهم لَشَقَقْنَا عَصَا الطَّاعة الذى يترتَّب عليه أُمور عظيمة . وَالأُمور التى فيها تأْويل واختلاف بين العُلَماء إذا ارتكبها وُلَاة الأُمور لا يحلُّ لنا مُنَابَذَتِهم وَمُخَالفتهم لكن يجب علينا مُنَاصحتهم بقدر المُسْتطاع فيما خالفوا فيه مما لا يَسُوغ فيه الاجتهاد.

وأمَّا ما يسوغ فيه الاجتهاد فنبحث معهم فيه لِنبيّن لهم الحق لا عَلَى سبيل الانتقاد لهم والانتصار للنفس ، وأمَّا مُنَابَذتهم وعَدم طَاعَتِهم فهذا لَيْس من طريق أهل السُّنة والجماعة .

* * *

● **قال المؤلف : « وَيُحَافِظُونَ عَلَى الجَمَاعَات » .**

أى يُحَافِظ أَهْل السُّنَّة والجَمَاعة عَلَى الجماعات أى عَلَى إقامة الجَمَاعة فى الصَّلوات الخمس يُحَافِظُون عليها مُحَافظة تَامَّة بحيث إذا سَمِعُوا النِّداء أَجابوا وَصلُّوا مع المُسْلمين . فمن لم يُحَافظ على الصَّلوات الخمس فقد فَاتَهُ من صِفَات أَهل السُّنَّة والجماعة مَا فَاتَهُ من هذه الجَمَاعات .

* * *

● **قال المؤلف : « وَيَدِينُونَ بِالنَّصِيحَة لِلأُمَّة » .**

يَدِينُونَ أَى يَتَعَبَّدون لله عزَّ وجل بالنَّصيحة للأُمَّة . والنُّصح للأُمّة قد يكون الحامل عليه غير التَّعَبُّد لله قد يكون الحامل عليه الغَيْره وقد يكون الخوف من العُقُوبات وقد يكون الحَامِل عَلَيْه أَن يتخلّق بالأَخلاق الفاضلة التى يُرِيد بها نَفْع المُسْلمين إلى غير ذلك من الأَسْباب لكن هؤلاء يَنصَحون لِلأُمَّة طَاعَةً لله تَعَالَى وَتَدَيُّنًا لَهُ حتَّى قال الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام فى حديث تَمِيم بن أَوْسٍ الدَّارِى : « الدينُ النَّصِيحة الدِّينُ النَّصِيحة الدِّينُ النَّصِيحة » قالوا : لِمَنْ يَا رَسُول الله ؟ قال : لله ولِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئمَّة المُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهم »(١) فالنَّصيحة لله صِدْقُ الطلب فى الوُصُول إليه

(١) رواه مسلم (٥٥) (٩٥) من حديث تميم الدارى رضى الله عنه .

والنَّصيحة للرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام صِدْقُ الإتِّباع لَهُ ويَسْتلزم ذلك الذَّوْد عن دِين الله عز وجل الَّذى جَاءَ بِهِ رَسُوله ﷺ ولهذا قال « وَلِكِتَابِهِ » فَيَنْصح للقرآن بإشَاعة أَنَّه كلام الله وأَنَّه مُنَزَّل غير مَخْلُوق وأَنَّه يجب تَصْدِيق خَبَره وامْتِثَال أَحْكَامُه وهو كذلك يَعْتَقِده فى نَفْسه « أَئِمة المُسْلمين » كُلُّ مَنْ وَلَّاه الله أَمرًا من أُمور المسلمين فهو إمام فى ذلك الأمر فهناك إمامٌ عَام كَرَئِيس الدَّولة وهناك إمامٌ خَاصٌّ كالأمير والوَزِير والمدير .

ومن أعظم أئمة المسلمين : العُلَمَاء والنَّصِيحة لِعُلَماء المُسْلمين هو الحِرْصُ على مَوَافَقَتِهم فى الصَّواب بحيث يُرْشِدهم إذا أَخطَأُوا وَيُبَيِّن لهم الخطأ على وَجْه لا يَخْدِش كَرَامَتهم ولا يَحُطُّ مِن قَدْرهم لأَن تخطئة العلماء عَلَىٰ وَجْه يَحُطّ من قَدْرهم ضَرَرٌ عَلَىٰ عُمُوم الإسلام لأَنّ العامَّة إذا رَأَوا العلماء يُضَلِّل بَعْضهم بَعْضًا سَقَطُوا من أَعْيُنهم وقالوا كُلّ هؤلاء رادٌّ ومردودٌ عليه فلا ندرى من الصَّواب مَعه فلا يأخذون بقول أى واحد منهم لكن إذا احترم العُلماء بعضهم بعضًا وَصَار كُلُّ واحد يرشد أَخَاهُ سِرًّا إذا أخطأ وَيُعلن للناس القول الصَّحيح .

فإن هذا من أَعظم النَّصيحة لِعُلماء المُسْلمين . وقول المؤلف « للأُمَّة » يَشمل الأئمة والعَامة فأهل السُّنة والجماعة يدينون بالنَّصيحة للأُمَّة أَئِمّتهم وعَامَّتهم وكان مِمّا يُبَايع الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام أَصْحابه : « النَّصيحة لِكُلِّ مُسْلم »(١) .

فإذا قال قائل : مَا هُو مِيزان النَّصيحة ؟ فالميزان هو مَا أَشَار إليه النَّبى عليه الصَّلاة والسَّلام بقوله : « لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى يُحِبّ لِأَخِيه مَا يُحِبّ لِنَفْسِهِ »(٢) فإذا عَامَلْت النَّاس هذه المعاملة فهذا هو تمام النَّصيحة . قبل أن

(١) البخارى (٥٧) ومسلم (٥٦) (٩٧) من حديث جرير بن عبدالله رضى الله عنه .

(٢) البخارى (١٣) ومسلم (٤٥) (٧٢) من حديث أنس رضى الله عنه .

تُعامل صَاحِبك بنوع من المُعَاملة فكِّر هل ترضى أن يُعَاملك شخصٌ بها ؟ فإن كنت لا ترضى فلا تُعَامله !!

* * *

● **قال المؤلف : « وَيَعْتَقِدُون مَعْنى قوله ﷺ : المُؤْمِنُ لِلمُؤْمِن كَالبُنْيَان يَشُدُّ بَعْضُه بَعْضًا » وَشَبَّكَ بَيْن أَصَابِعه »**[1] .

الأَصابع المُتَفَرِّقة فيها ضَعْف فإذا اشتبكت قوى بَعْضها بَعْضًا . فإذًا المؤمن للمُؤْمن كالبنيان يَشُدُّ بعضه بَعْضًا . فالبنيان يَمْسك بعضه بعضًا كذلك المُؤمن مع أَخِيه إذا صَار فى أَخيه نَقْص فإن هذا يكمّله فهو مِرآة أَخِيه إذا وُجِد فيه النَّقص كمَّله إذا احتاج أُخوه سَاعَده إذا مرض أُخوه عَادَه وهكذا فى كل الأَحوال فأهل السُّنة والجماعة يَعْتَقِدون هذا المَعْنى وَيُطَبِّقونه عَمَلاً .

* * *

● **قال المُؤَلِّف : « وقوله ﷺ : « مَثَلُ المُؤْمِنين فِى تَوَادِّهم وَتَرَاحُمِهم وَتَعَاطُفِهم كَمَثَل الجَسَدِ إذا اشْتَكَىٰ مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ الجَسَد بالحُمَّى وَالسَّهر »**[2] .

مَثَلُ المؤمنين فى « تَوَادِّهم » أى مَوَدّة بَعْضِهم بَعْضاً . « وَتَرَاحُمِهم » رَحْمة بَعْضِهم بَعْضًا « وَتَعَاطُفهم » عطف بَعْضهم عَلَى بَعْض . « كَالجَسَدِ الوَاحِد » أى أَنَّهم يَشْتركون فى الآمَال والآلاَم فَيَرْحَم بَعْضُهم بَعْضاً فإذا احْتَاجَ أَزَالَ حَاجَتَه . وَيَعْطِف بعضهم على بَعْض باللِّين والرِّفق وغير ذلك .

(١) البخارى (٦٠٢٦) ومسلم (٢٥٨٥) (٦٥) من حديث أبى موسى رضى الله عنه .

(٢) البخارى (٦٠١١) ومسلم (٢٥٨٦) (٦٦) من حديث النعمان ابن بشير رضى الله عنه .

ويَوَدّ بَعْضُهم بَعْضًا حتي أَنَّ الوَاحِد منهم إذا رَأَىٰ فى قَلْبه بَغْضَاء لِأَحد من إِخْوَانه المسلمين حَاوَلَ أَن يُزِيله وأن يَذْكُر من مَحَاسنه مَا يُوجب زَوَال هَذِهِ البَغْضَاء . الجَسَد الوَاحِد إِذا اشْتَكى مِنْهُ عضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الجَسَد فإِذَا أَوْجَعَك أُصْبُعك الخُنْصرُ الَّذى هو من أَصْغَر الأَعْضَاء فإِنَّ الجَسَد كُلّهُ يَتَألَّم . إذا أَوْجَعَتْك الأُذُن تَألَّم الجَسَد كُلُّه وإذا أَوْجَعَتْكَ العَيْن تَألَّم الجَسَد كُلُّه وغير ذلك . فهذا المَثَل الذى ضَرَبَه النَّبى عليه الصَّلاة والسَّلام مَثَلٌ مُصَوِّرٌ للمَعْنى ومُقَرِّبٌ له غاية التَّقْريب .

* * *

● **قال المؤلف رحمه الله : « وَيَأْمُرون بالصَّبر عند البَلاء والشُّكْر عنْد الرَّخاء والرِّضا بِمُرِّ القَضَاء » .**

« يَأْمُرون » قد يُقَال إنَّ هذه الكلمة تَشْمل أَمر نُفوسهم لقوله تعالى : ﴿ وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْس لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ [يوسف : ٥٣] فهم يَأْمُرون حتى أَنْفُسهم .

« بالصَّبر عند البلاء » والبلاء المَصَائب قال الله تعالىٰ : ﴿ وَبَشِّر الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ ﴾ [البقرة : ١٥٥ ، ١٥٦] فالصَّبر يكون عند البلاء . وَأَفْضَلُه وأَعْلَاهُ الصَّبر عند الصَّدمة الأُولى وهذا هو عنوان الصَّبر الحقيقى كما قاله النبى ﷺ للمَرأة الَّتِى مَرَّ بِهَا وَهِي تَبْكِي عَلَى قَبْرٍ فَقَالَ لها : اتَّق الله وآصْبِرى فَقَالت : دُونَكَ ! إِنَّه لم يُصِبْكَ الَّذى أَصَابَنى وهِى لَمْ تَعْلَم أَنَّه رَسُول الله . فَلَمَّا عَلِمَت جَاءَت إِليه تَعْتَذر مِنْهُ فقال : « إِنَّما الصَّبر عِنْد الصَّدْمَةِ الأُولَى »[1] أَمَّا بعد أَن تَبْرد الصَّدمة فإِن الصَّبر يكون سهلا ولا يَنال

(١) البخارى (١٢٨٣) ومسلم (٩٢٦) (١٥) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

به كمال الصَّبر فأَهل السُّنَّة والجماعة يَأْمُرون بالصَّبر عند البَلاء . وَمَا مِن إنسان إلا يُبْتَلى إما فى نَفْسه وإمَّا فى أَهْله وإمَّا فى مَالِه وإمَّا فى صَحْبه وإمَّا فى بَلَدِهِ وإمَّا فى المُسْلمين عَامَّة .

وَيَكُون ذلك إمَّا فى الدُّنيا وإمَّا فى الدِّين . والمصيبة فى الدِّين أَعْظَمُ بكثير من المُصِيبة فى الدُّنيا . فَأَهْلُ السُّنة والجماعة يَأْمُرون بالصَّبر عِند البلاء فى الأَمْرين .

ويأمرون كذلك « بالشُّكْرِ عِنْد الرَّخاء » الرَّخاء : السِّعة فى العَيْش والأَمْن فى الوَطَن فَيَأْمُرون بالشُّكر . وأَيُّهما أَشَق الصَّبر على البلاء أَوْ الشُّكْر عند الرَّخاء ؟

اختلف العلماء فى ذلك فقال بعضهم إنَّ الصَّبر على البلاء أَشَق وقال آخرون الشكر عند الرَّخاء أَشَق لأَن الله عز وجل قال : ﴿ وَلَئِن أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَات عَنِّى إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ [هود : ٩ ، ١٠] فإذا نظرنا إلى الآيتين قلنا هما سواء الصَّبر عند البلاء والشُّكر عند الرَّخاء وكلاهما شاق .

إننى الآن لا أستطيع أَن أُميِّز بينهما أو أقول هذا أَشدّ أَو هذا أَشدّ لكن كلٌّ منهما قد يهوِّنه بعض التَّفكير . فالمُصَاب إذا فكر وقال إن جزعى لا يَرُدُّ المُصِيبة ولا يَرْفَعها فإمَّا أن أصبر صَبْر الكرام وإما أَن أَسْلُو سلو البهائم فهان عليه الصَّبر وكذلك الَّذى فى رخاء وَرَغد . لكن أهل السُّنة والجماعة يَأْمُرون بِهَذا وهَذَا الصَّبر عند البلاء والشُّكر عند الرَّخاء .

وقوله : « والرِّضاء بِمُرِّ القَضَاء » الرِّضاء أعلى من الصَّبر . ومُرُّ القضاء : هو مَا لاَ يُلائم طَبيعة الإنسان ولهذا عبّر عنه بالمُرِّ فإذا قضى الله قَضَاءً لا يُلائم طَبِيعة البَشَر وتَأَذَّى به سُمِّى ذلك مُر القضاء فهو لَيس لذيذًا

ولا حلوًا بل هو « مُرّ » فهم يَأْمُرون بالرِّضاء بِمُرِّ القضاء . واعلم أَنَّ مُر القَضَاء لَنَا فيه نَظَران : النَّظر الأول : باعْتباره فعلاً واقعًا من الله . والنَّظر الثانى : باعتباره مَفْعُولاً له . فباعتبار كونه فعلاً من الله يجب علينا أَن نَرْضَىٰ به وأَلَّا نعترض على رَبّنا به ؛ لأَنَّ هذا من تمام الرِّضى بالله ربًّا . وأَمَّا باعتباره مَفْعُولاً له فهذا يُسَنُّ الرِّضى به ويجب الصَّبر عليه . فالمَرض باعتبار كون الله قَدَّرَهُ حُكْمُ الرِّضىٰ به وَاجِب وباعتبار المَرَض نَفْسهُ يُسَنُّ الرِّضى به وأَمَّا الصَّبر عليه فهو واجب . والشُّكر عليه مُسْتحب ولهذا نقول : المُصَابون لهم تجاه المَصَائِب أَرْبَعة مَقَامات :

المقام الأَوَّل : الجزع ، والثَّانى : الصَّبر ، والثَّالث : الرِّضا ، والرَّابع : الشكر .

– **أَمَّا الجزع** : فحرام مثل أن يَقُول يَا ثُبوراه ، أو يدعو على نفسه بالهلاك وغير ذلك قال النبى ﷺ : « لَيْسَ مِنَّا مَنْ شَقَّ الجيُوب ولَطَمَ الخُدود وَدَعَا بِدَعْوَىٰ الجَاهِلِيّة »(١) .

الثانى : **الصَّبر** : بأَنْ يَحْبس نفسه قَلْبًا ولِسَانًا وجَوَارح عن التَّسخُّط فهذا وَاجب .

الثَّالث : **الرِّضا** : والفَرْق بينه وبين الصَّبر أَن الصَّابر يتجرّع المر لكن لا يستطيع أَن يَتَسخط إلا أَن هذا الشَّىء فى نفسه صعبٌ وَمُر ويتمثل بقول الشَّاعر :

والصَّبْرُ مِثْلُ اسْمِه مرٌّ مَذَاقَتُه   لَكِن عَوَاقِبُه أَحْلَى مِن العَسل

لكن الرَّاضى لا يَذُوق هَذَا مُرّاً بل هُو مُطْمَئِنٌ وَكَأَنَّ هذا الشَّىء الذى

(١) البخارى (١٢٩٦) ومسلم (١٠٤) (١٦٧) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

أصابه لا شيء . وجُمهور العلماء على أن الرِّضاء بالمَقْضى مُسْتحب وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية وهو الصَّحيح .

الرَّابع : الشُّكر وهو أن يقول بِلِسَانِه وَحَالِه « الحمد لله » ويرى أن هذه المُصيبة نعمة - لكن هذا المُقَام - قد يقول قَائِل كيف يكون ؟

نقول : يكون لمن وَفَّقه الله تعالى لأَنَّه إذا عَلم أَنَّ هذه المصيبة كَفَّارة للذَّنب وأَنَّ العقوبة على الذَّنب فى الدُّنيا أَهون من تأخير العُقُوبة فى الآخرة صَارت هذه المصيبة عنده نعمة يُشْكَر الله عَلَيها .

وثانيًا : أَنَّ هذه المصيبة إذا صبر عليها أُثيب لقوله تعالى : ﴿ إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَاب ﴾ [الزمر : ١٠] فيشكر الله على هذه المُصِيبة الموجبة للأَجرِ .

وثالثا : أَن الصَّبر من المقامات العَالِية عند أَرباب السُّلوك لا يُنال إلا بِوُجود أَسْبَابه فَيشْكُر الله عَلَى نَيْل هذا المقام ويُذْكر أَن بَعْض العَابدات أُصِيبَت فى أُصْبُعها فَشكَرَت الله فَقِيل لَها فِى ذلك فَقَالت : إِنَّ حَلاَوة أَجْرَهَا أَنْسَتْنِى مَرَارَة صَبْرها » فَأَهْلُ السُّنَّة والجماعة رحمهم الله يَأْمُرون بالصَّبر عَلَى البَلاء والشُّكر عند الرَّخاء والرِّضا بِمُرّ القَضَاء ، وَالمُؤَلِّف لم يُعَرِّف الشُّكر ! فنقول الشُّكر هو القِيام بِطَاعَة المُنْعِم اعْتِقَادًا بالقَلْب وَثَنَاءً باللِّسان وَطَاعة بالأَرْكان ولهذا قال الشَّاعر :

أَفَادَتْكُم النَّعْمَاء مِنِّى ثَلاثَـة   يَدِى وَلِسَانِى والضَّمِير المحجبا

فمتعلّق الشُّكر أَعَمُّ من مُتَعَلّق الحَمْد وَسَبَبُ الحَمْد أَعَمَّ من سَبَب الشُّكر ومتعلقهما أَخصُّ وذلك أَنَّ سبب الحمد الإِنْعام وكَمَال المَحْبوب . والشُّكر سَبَبه الإِنْعَام فَقَط فهو أَخصُّ من الحمد من حيث السَّبب والحمد

يكون باللِّسان فقط ، وهو وَصْفُ المحمود بالكمال . والشُّكر يكون باللِّسان والقَلْب والجَوارِح فهو من حيث المُتَعَلِّق أَعمّ .

* * *

● **قال المؤلف : « وَيَدْعُونَ إلى مَكارِم الأَخْلَاق وَمَحَاسِنِ الأَعْمَال » .**

« مَكَارِم الأَخْلَاق » : أى أَطايبها والكَرِيم مِنْ كُلِّ شىء هو الطَّيب منه بحسب ذلك الشَّىء ومنه قول الرسول ﷺ لِمُعَاذ « إِيَّاكَ وَكَرَائِم أَمْوَالِهِم »(١) .

والأَخلاق : جَمْعُ خُلُق وهو الصُّورة البَاطِنة فى الإنسان يعنى السَّجايا والطَّبائع فهم يَدْعُون إلى هذا أَن يكون الإنسان سَرِيرتُه كَرِيمة مثل الكرم والشَّجاعة والتَّحمل من النَّاس والصَّبر وأن يُلاقى النَّاس بِوَجْه طَلْق وَصَدْرٍ مُنْشَرِحٍ وَنَفْسٍ مُطْمَئِنة كُلُّ هذه من مكارم الأَخلاق .

وأَمَّا محاسن الأَعمال فهى مِمَّا يَتَعَلَّق بِالجَوَارِح وَيَشمل الأَعْمَال التَّعَبُّدية والأَعمال غير التَّعَبُّدية مثل البَيْع والشِّراء والإجارة حَيْثُ يُحَسِّنونها تمامًا ويُعَاملون النَّاس بالنُّصح والبَيان ويَتَجَنَّبُون الكَذِب والخِيانة .

* * *

● **قال المؤلف : « وَيعتقدون مَعْنى قوله ﷺ « أَكْمَلُ المُؤْمِنين إيمَانًا أَحْسَنُهم خُلُقًا »(٢) .**

---

(١) البخارى (١٤٩٦) ومسلم (١٩) (٢٩) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما .

(٢) **حَدِيثٌ صَحِيحٌ** : رواه أحمد (٤٧٢/٢) وأبو داود (٤٦٨٢) والترمذى (١١٦٢) وقال : « حسن صحيح » وابن حبان (١٣١١– موارد) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه وهو حديث صحيح وقد صحَّحه الألبانى فى صحيح الترمذى (٨٨٦/٣) .

هَذَا الحَدِيث يَنْبَغى للإنسان أَن يكون دَائِمًا نُصْب عَيْنى المؤمن « فَأَكمل المُؤْمنين إِيمانًا أَحْسَنهم خُلُقًا » مع الله وَمَعَ عِبَاد الله .

أَمَّا حُسْن الخُلُق مع الله فأن تَتَلَقَّى أَوَامِره بالقَبول والإِذْعان والإِنْشِراح وَعَدَم المَلَل والضَّجر وأَن تَتَلَقَّى أحكامه الكونية بالصَّبر والرِّضى وَمَا أَشْبه ذلك .

أَمَّا حُسْن الخُلق مَعَ الخَلْق فقيل هو : « بَذْلُ النَّدَىٰ وَكَفُّ الأَذَىٰ وَطَلَاقَة الوَجْه » بَذْلُ النَّدىٰ يعنى الكرم وليس خَاصًّا بالمال بل بالمَال والجَاه والنَّفس وكل هذا مِن بَذْل النَّدى . وطَلَاقَة الوَجْه ضِدّه العبُوس وكذلك كَفّ الأَذىٰ .

* * *

● **قال المؤلف : « وَيَنْدِبُونَ إِلى أَنْ تَصِل مَنْ قَطَعَكَ ، وَتُعْطِى مَنْ حَرَمَكَ وَتَعْفُو عَمَّن ظَلَمَكَ » .**

« أَنْ تَصِل مَنْ قَطَعَكَ » : مِنْ الأَقَارِب مِمَّن تَجِبُ صِلَتُهم عَلَيْك إِذا قَطَعُوك فَصلْهم لا تَقُل مَنْ وَصَلَنِى وَصَلْتُه فإِنَّ هذا لَيْس بصِلة كما قال النَّبى عليه الصَّلاة والسَّلام « لَيْس الوَاصِل بِالمُكَافِىء إِنَّما الوَاصِل مَن إذا قُطِعَت رَحِمُه وَصَلَهَا »[١] فالوَاصِل هو الَّذِى إِذا قُطِعت رحمه وَصَلَها وسأَل النبى ﷺ رَجُل فقال : يَا رَسُول الله إِنَّ لى أَقَارب أَصِلُهم وَيَقْطَعُونَنِى وَأُحْسِن إِليهم وَيُسيئون إِلى . فقال النبى عليه الصَّلاة والسَّلام : « إِنْ كَانَ كَمَا قُلت فَكَأَنَّما تُسفّهم المَلّ ولَا يَزَال مَعَك مِن الله ظَهِير عَلَيهم »[٢] . تسفهم

(١) رواه البخارى (٥٩٩١) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه .

(٢) رواه مسلم (٢٥٥٨) (٢٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . =

المَلّ : أى كأنما تَضَع التُّراب الحار فى أَفْوَاهِهم . فأهل السُّنة يَنْدبون إلى أَن تَصِل مَنْ قَطَعَكَ وَأَن تَصِل مَنْ وَصَلك ، لأَن من وَصَلَكَ وهو قريب صَار له حقَّان حقّ القرابة ، وحقّ المكافأة لقول النَّبى عليه الصَّلاة والسَّلام : « مَنْ صَنَعَ إِلَيْكُم مَعْرُوفًا فَكَافِئُوه »[1].

وكذلك « وَتُعْطِى مَنْ حَرَمَك » من سَعَىٰ إلى أن يَمْنَع الرِّزق عنك فَأَعْطِه فإذا وَجَدت إنسانًا يحسُدُك ويحاول أَن لا يَرْزقك الله فأنت أعطه . ولا تقول « هذا يسعى فى حِرْمانى الخير سَأَكل لَهُ الصَّاع صَاعَيْن » وكذلك : « وَتَعْفُو عَمَّن ظَلَمَك » أى من انْتَقَصَك حَقَّك إمَّا بِالعدوان وإمَّا بعدم القِيام بالوَاجِب . فالظُّلم يَدُور على أَمرين : اعْتِدَاءٌ وجُحود إمَّا أن يَعْتدى عليك بالضَّرب وأَخْذ المال وَهَتْك العِرْض . وَإمَّا أَن يَجْحدك فَيَمْنَعك حَقّك . وكمال الإنْسَان أَن يعفو عَمَّن ظَلَمه ولكن العَفْو إنَّما يكون عند القُدْرة على الانتقام . فأنت تَعْفو مع قُدْرتك على الإنتقام .

أولاً : رجاءً لمغفرة الله عزَّ وجلَّ وَرَحْمَته فإن من عَفَا وأَصْلَح فأَجْرُه عَلَى الله .

ثانيًا : أَن تُصْلح الوُد بينك وبين صَاحِبك لأَنَّك إذا قَابَلت إسَاءَته بإسَاءَة اسْتمرت الإساءة بينكما.وإذا قَابَلت إساءته بإحسان عَادَ إلى الإحسان إليك وَخجل . قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى الحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئة ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيم ﴾ [فصلت : ٣٤] فإذا العفو

= المَلُّ : بفتح الميم الرماد الحار . وتُسِفُّهُمْ : بضم التاء وكسر السين وتشديد الفاء : تطعمهم . ظهير : أى معين ، ودَافِع لأذاهم .

(١) **حَدِيثٌ صَحِيحٌ** : وهو جزء من حديث ابن عمر مرفوعًا أوله : « مَنْ استعاذكم بالله فأعيذوه ومَنْ سألكم بالله فأعطوه ، ومَنْ صَنَع معروفًا فكافئوه » الحديث . رواه أبو داود (١٦٧٢) والنسائى (٥/٨٢) بإسنادٍ صحيح وقد صحَّحه الألبانى فى الصحيحة (٢٥٤) .

عند المَقْدرة من سِمَات أَهل السُّنة والجماعة لكن بشرط أن يكون العَفْو إصلاحًا فإن تضمَّن العَفو إساءة فإنهم لا يَنْدبون إلى ذلك ؛ لأَن الله اشترط فقال : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ ﴾ [الشورى : ٤٠] أى كان فى عفوه إصلاح أَمَّا من كان فِى عَفْوه إساءة أو كان سَبَبًا للإساءة فهنا نقول لا تَعْفُ مِثْل أن يَعْفو عن مجرم ويكون عَفْوه هذا سَبَبًا لاستمرار هذا المُجرم فى إجرامه فَتَرْك العَفْو هنا أَفْضَل وَرُبَّما يجب تَرْك العَفْو حينئذ .

* * *

● **قال المؤلف : « وَيَأْمُرونَ ببِرِّ الوَالِدَيْن ، وَصِلة الأَرْحَام ، وَحُسْن الجِوَار والإِحْسَان إلى اليَتامَى وَالمسَاكِين ، وَابْنُ السَّبِيل ، وَالرِّفْقِ بالمَمْلُوك » .**

قوله : وَيَأْمُرونَ بِبرِّ الوَالِدَيْن وَصِلة الأَرْحَام » .

لم يجعل الله لِأَحدٍ حقًّا بَعْد حَقِّه وَرَسُوله إلَّا للوالدين . فقال : ﴿ وَاعْبُدُواْ اللهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [النساء : ٣٦] وحقّ الرسول فى ضِمن الأَمرِ بِعبَادة الله لأَنه لاتتحقّق العبادة حتى يقوم بحقّ الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام ولهذا كان دَاخلاً فى قوله : ﴿ وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا ﴾ [النساء : ٣٦] وكيف يُعْبد الله إلا مِنْ طَرِيق الرَّسول ﷺ وإذَا عبد الله عَلَى مُقْتَضَىٰ شَرِيعة الرَّسول فَقَد أَدَّى حَقَّه . ثم يأتى حَقّ الوَالدين . الوَالِدان تعبا عَلَى الوَلد ولا سيّما الأُم قال الله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْه إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّه كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ [الأحقاف : ١٥] وفى آية أخرى ﴿ ووصَّيْنا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْه حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْن ﴾ [لقمان : ١٤] والأُم تَتْعب فى الحمل وعند الوَضْع وبَعْد الوَضْع وترحم صبيِّها أَشَدّ من رَحْمة

الوَالِد له ولهذا كانت أحقّ النَّاس بحسن الصُّحبة والبِرّ حتى من الأَب « قال رَجُل يَا رَسُول الله مَن أَحَقُّ النَّاس بِحُسن صَحَابتى ؟ قال : أُمُّك ! قال : ثُمَّ مَن ؟ قال : أُمّك قَال ثُمَّ مَن ؟ قال : أُمُّك ثم قال فى الرَّابعة ثم أَبُوك »(١) . والأَب أَيضًا يَتْعَب فى أَولاده . ويَضْجر بِضَجَرهم ويَفْرح لِفَرَحهم ويَسْعى بكل الأَسباب التى فيها رَاحَتهم وطمأنينتهم وحُسْن عَيْشهم. يَضْرب الفَيَافى والِقفَار من أَجْل تحصيل العَيْش له وَلِأَوْلَادِه . فكلٌّ منهم لَه حَقٌّ مهما عملت من العمل لن تَقْضى حقَّهم ولهذا قال الله عز وجل : ﴿ وَقُل رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ [الإسراء : ٢٤] فحقُّهم سَابِق حيث رَبَّيَاك صَغِيرًا حين لا تَمْلك لِنَفْسك نَفْعًا ولا ضرّاً أبدًا . فواجبهما البِرّ .

والبِرّ فَرْضُ عَيْن بالإِجماع على كل واحد من النَّاس ولهذا قدّمه النَّبى ﷺ عَلَى الجِهاد فى سَبِيل الله كما فى حديث ابن مَسْعود قال : « قُلْت يَا رَسُول الله أَىُّ العَمل أَحَبُّ إِلى الله ؟ قال : الصَّلاة عَلَى وَقْتِها قُلْتُ : ثُمَّ أَىّ ؟ قال : بِرُّ الوَالِدَيْن قلت : ثمَّ أَىّ ؟ قال : الجِهَادُ فى سَبِيل الله »(٢) والوَالِدان هما الأَبُ والأُم أَمَّا الجِدّ والجِدّة فلهما بِرٌّ لكنه لا يُسَاوى بِرُّ الأُم والأَب ؛ لأَنَّ الجد والجدة لم يَحْصُل لهما مَا حَصَل لِلأُم والأَب من التَّعب والرِّعاية والملاحظة . فكان بِرُّهُما واجبًا من باب الصِلة لكن هما أَحَقُّ الأَقارِب بالصِّلة . أَمَّا البر فإنه للأَب والأُم لكن مَا مَعْنَى البِرّ ؟ البِرّ : إيصال الخير بِقَدْر مَا تَسْتطيع وكَفّ الشَّر . إيصال الخَيْر بِالمال إيصال الخير بالخدمة وبكل مَا فِيه رَاحتهما . ولهذا كان القَول الراجح وُجُوب خِدْمة الأَب والأُم عَلَى الأَوْلَاد إذا لم يَحْصل على الوَلد ضَرَر فإن كان عَلَيْه ضَرَرٌ لم يَجب عَلَيه خِدْمَتُهما اللَّهُمَّ إِلَّا عند الضَّرورة ولهذا نَقُول إن طاعتهما وَاجبة فيما فيه نَفْعٌ لَهُما

(١) البخارى (٥٩٧١) ومسلم (٢٥٤٨) (١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) البخارى (٥٢٧) ومسلم (٨٥) (١٣٩) من حديث ابن مسعود رضى الله عنه .

ولاضَرَر عليك فيه أَمَّا مَا فِيه ضَرَرٌ عليك سواءٌ كان ضَرَرًا دِينيًّا كأن تُخِلّ بواجب من أجلهما أَو ضررًا بَدَنيًا فلا يجب عَلَيك . أَمَّا المال فيجب عليك أَن تَبرهما بِبَذْلِه وَلَو كَثُر والأَب خاصّة له أن يأخذ من مالك ما شاء مَا لَم يَضُرَّك . وإذا تَأَمَّلنا فى أحوال النَّاس اليوم وجدنا أن كثيرًا منهم لا يَبَرّ بوالديه بل هو عَاقٌّ تجده يُحْسن إلى أَصْحابه ولا يَمَلّ الجُلوس معهم لكن لو يجلس إلى أَبيه أَو أُمه ساعة من نهار لَوَجَدته متَمَلْمِلاً كأنما هُو على الجمر فهذا ليس بِبَارّ بل البَار من يَنْشَرح صَدْره لأُمّه وَأَبيه وَيَخْدمهما عَلَى أَهْدَاب عَيْنَيْه وأن يحرص غاية الحرص عَلَى رِضَاهُما بكل مَا يَسْتطيع وَكَما قَالَت العَامّة « البر أسْلاف » فإن البر مَعَ كَوْنه يَحصل البار به عَلَى ثَوَاب عَظِيم فى الآخرة فإنَّه يُجَازى به فى الدُّنيا . فالبِرّ والعُقُوق كما يقول العَوام « أَسْلاف » أَقْرِض تَسْتوفى إن قدّمت البِرّ برّك أَولادك وهنا حكايات كثيرة فى أَن مِن النَّاس مَن برّ والديه فبرّ به أولاده كما بر بوالديه . وكذلك العُقوق يعقُّك ولدك ، وفيه حكايات تَدُلُّ على أَنَّ الإنسان عَقّه أولاده كما عَقّ هو آباءه فأهل السنة والجماعة يَأْمُرون بِبِرِّ الوالدين .

وكذلك يأمرون « بِصِلَة الأَرْحَام » ففرق بين الوَالِدين وَالأَقارب الآخرين . الأَقَارب لهم الصِّلة والوَالِدان لهما البِرُّ والبِرُّ أَعلى من الصِّلة لأَن البِرّ كَثْرة الخَيْر والإِحْسَان لكن الصِّلة ألا يُقْطع . ولهذا يُقال فى تَارِك البر إنَّه عَاقّ ويقال فيمن لم يصل أَنَّه قاطع . فَصِلَةُ الأَرحام وَاجبة وقطعها سَبَبٌ لِلَّعنة والحرمان من دخول الجنة قال الله تعالى : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُم أَن تُفسِدُواْ فى الأَرْضِ وَتُقَطِّعُواْ أَرْحَامَكُمْ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ الله فَأَصمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُم ﴾ [محمد : ٢٢-٢٣]وقال النبى عليه الصَّلاة والسَّلام : « لا يَدْخُل الجنة قَاطِع »(١) أى : قَاطِع رَحم . والصِّلة جَاءَت فى القرآن

(١) البخارى (٥٩٨٤) ومسلم (٢٥٥٥) (١٩) من حديث جبير بن مُطْعِم رضى الله عنه .

والسُّنة مُطْلقة .

وكل مَا جَاء ولم يُحَـدَّد بالشرع كالحرز فبالعرف أَحدِد

فمادامت جَاءَت مُطلقة فإنَّه يُرجع إلى العرف فيها فما سمَّاه النَّاس صِلة فهو صلة وَمَا سمَّاه قَطِيعة فهو قَطِيعة . وهذه تختلف باختلافْ الأحوال والأَزمان والأَمْكِنة والأُمم . فإذا كان النَّاس فى حالة فَقْر وأَنت غَنِى وأَقاربك فقراء فَصِلتهم أَن تُعْطِيهم بِقَدْر حَالِكَ إذا كان الناس أَغنياء وكلهم فى خير فيمكن أَن الذِّهاب إليهم فى الصَّباح أَو المساء يعَدُّ صِلة . وفى مثل زماننا هذا حقيقة الأَمر أَن الصِّلة بين النَّاس قليلة ، وذلك لانشغال النَّاس فى حوائجهم وانشغال بعضهم عن بعض . والصلة التامّة أن تبحث عن حالهم وكيف أَولادهم وترى مَشَاكِلهم ولكن هذه مع الأَسف مَفْقُودة كما أن البر التَّام مَفْقُود عند كثير من الناس .

قال المؤلف : « وَحُسْنِ الجِوَار » أى وَيَنْدبون أيضًا إلى حُسْن الجوار مع الجيران والجيران هم الأَقارب فى المنزل وأَدْنَاهم أَولاهـم بالإحسان والإكرام قال الله تعالى : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالمَسَاكِين وَالْجَارِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَالجَارِ الجُنُبِ ﴾ [النساء : ٣٦] فأَوصى الله بالإحسان إلى الجار القريب والجار البعيد وقال النبى ﷺ : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَاليومِ الآخِرِ فَلْيُكْرِم جَارَه »(١) وقال : « إذا طَبَخْت مَرَقَة فَأَكْثِر مَاءَها وَتَعَاهد جِيرَانَك »(٢) وقال : « مَازَال جِبْرِيل يُوصِينى بِالجَار حَتَّى ظَنَنْت أَنَّه سَيُوَرِّثُه »(٣) وقال : « وَٱللهِ لا يُؤْمِن وَٱللهِ لا يُؤْمِن وَٱللهِ لا يُؤْمِن

(١) البخارى (٦٠١٨) ومسلم (٤٨) (٦٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) رواه مسلم (٢٦٢٦) (١٤٢) من حديث أبى ذر رضى الله عنه .

(٣) رواه البخارى (٦٠١٤) ، (٦٠١٥) ومسلم (٢٦٢٤) (١٤٠) (١٤١) من حديث عائشة وابن عمر رضى الله عنهما .

مَنْ لا يَأْمَن جَارُه بَوَائِقُه »(١) إلى غير ذلك من النُّصوص الدالة على العِناية بالجَار والإحسان إليه وإكرامه . والجار إن كان مُسْلمًا قريبًا كان له ثَلاثة حُقوق : حَقُّ الإسلام ، وحقُّ القَرابة ، وحَقُّ الجوار .

وإن كان قريبًا جَارًا فله حقان : حَقُّ القَرَابة ، وحَقُّ الجِوار .

وإن كان مسلمًا غير قريب وهو جار : فله حقَّان : حَقُّ الإسلام وَحقُّ الجوار وإن كان جَارًا كافرًا بَعِيدًا فَله حَقٌّ واحد ، وهو حَقُّ الجوار .

فأهل السُّنَّة والجماعة يَنْدِبون بِحُسْن الجوار مُطْلقًا أيًّا كان . ومن كان أقرب فهو أَوْلى ومن المؤسف أَن بعض النَّاس اليوم يُسِيئون إلى الجَار أَكثر مِمَّا يُسِيئون إلى غَيْره فَتجدُه يَعْتَدِى عَلَى جَارِه بِالأَخْذ من مُلْكِه وإزْعَاجِه وقد ذَكَر الفُقَهاء رحمهم الله فى آخر باب الصُّلح فى الفِقه شَيْئًا من أحكام الجِوار فَلْيرجع إليه .

قال المؤلف : « والإحْسَان إلى اليَتَامَى وَالمَسَاكِين وَابْن السَّبِيل » كذلك يَنْدِبُون إلى الإحسان إلى هؤلاء الأَصْنَاف الثَّلاثة . اليَتَامى جمع يَتِيم وهو الذى مَاتَ أَبوه قَبْل بُلوغه وقد أَمر الله تعالىٰ بالإحسان إلى اليتامىٰ وكذلك النَّبى ﷺ حَثَّ عليه فى عدَّة أحاديث . وَوجْهُ ذلك أَن اليتيم قد انكَسَر قَلْبُه بِفَقْد أَبيه فهو فى حَاجة إلى العِنَاية والرِّفق ولهذا حثَّ الشَّرع على العِنَاية بِه . والإحْسان إلى اليتامى يكون بِحَسب الحال . والمساكين : هم الفقراء وهو هنا شَامِلٌ للمسكين والفَقير فالإحسان إليهم مِمَّا أَمَر به الشَّرع فى آيات مُتَعددة من القرآن وجَعَل لهم حُقوقًا خاصّة فى الفَيء وغيره . وَوَجْهُ الإحسان إليهم أَن الفَقْر أَسْكَنَهم وأَضْعَفَهُم وكَسَر قُلوبهم فكان من مَحَاسن الإسلام أن نُحْسن إليهم جبرًا لِمَا حَصَل لهم من النَّقص والإنْكِسار .

(١) رواه البخارى (٦٠١٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنهما .

والإحسان إلى المَسَاكِين يكون بِحَسَب الحَال فإذا كان مُحْتَاجًا إلى طَعَام فالإحسان إليه بأن تُطْعمه إذا كان مُحْتاجًا إلى كسْوة فالإحسان إليه بأن تكْسُوه وإلى اعْتِبار بأن تُوليه اعْتبارًا فإذا دخل المجلس تُرَحِّب به وتُقَدِّمه لِأَجْل أن ترفع من مَعْنَويّته . فمن أجل هذا النَّقص الذى قدَّره الله عزَّ وجل بحكمته أمرنا عز وجل أن نحسن إليهم كذلك «ابن السَّبيل» وهو المُسَافر وهو هنا المُسَافر الذى انقطع به السفر أو لم ينقطع بخلاف الزَّكاة . لأن المُسَافر غريب والغَرِيب مُسْتَوحش فإذا آنَسْته بإكْرامه والإحسان إليه فإنَّ هذا مِمَّا يَأْمر به الشَّرع . إذا نزل بك ضَيْفًا فَمِن إكْرَامه أن تُكْرِم ضِيَافَته لكن قال بَعْض العُلَماء إنَّه لا يجب إكرامه بِضِيافَتُه إلا فى القُرَىٰ دون الأَمْصَار ونحن نقول بل هى وَاجبة فى القرى والأَمْصار إلَّا أن يكون هناك سَبَبٌ كَضِيق البيت مثلاً أو أَسباب أُخرى تمنع أن تُضِيف هذا الرَّجل لكن على كل حال يَنْبغى إذا تعذر أن تحسن الرَّد .

قال المؤلف : « والرِّفق بالممْلُوك » يعنى أن أَهْل السُّنَّة والجَمَاعة يَنْدِبون إلى الرِّفق بالمملوك وهذا يشمل الآدمى والبهيم ، والرِّفق بالمملوك الآدمى تُطْعِمه إذا طَعِمْت ولا تَحْرمه من الطَّعام . الرِّفق بالمملوك أيضًا من البهائم سواءٌ كانت مِمّا تركب أو تحلب أو تقتنى ، والرِّفق بها يختلف بحسب مَا تَحْتاج إليه ففى الشِّتاء يُجْعل فى الأماكن الدَّافئة إذا كانت لا تَتَحَمَّل البَرد . وفى الصَّيف فى الأماكن الباردة إذا كانت لا تتحمل الحَرّ ويُؤْتى لها بالطَّعام وبالشَّراب إن لم تَحْصُل عليه بنفسها بالرعى ، وإذا كانت مما تحمل فلا تحمل ما لا تَطيق وهذا يَدُلُّ على كمال الشَّرع وإنه لم يَنْس حتى البهائم .

* * *

● **قال المؤلف : « وَيَنْهَوْنَ عن الفَخْر والخُيَلاء والبَغْى والاسْتِطَالة عَلَى الخَلْق بِحَقٍّ أَوْ بغَيْر حَقٍّ » .**

الفَخْر بالقول والخُيلاء بالفعل والبَغى : العدوان. والإستطالة: الترفع والاستعلاء. فيَنْهَون عن الفَخْر أن يَتَفاخر الإنسان عَلَى غَيْره بقوله فيقول : أنا العالم أنا الغنى أنا الشُّجاع ، وإن زاد على ذلك أن يَسْتطيل على الآخرين ويقول : ماذا أنْتم عندى فيكون هذا فيه بَغْىٌ واسْتطالة على الخلق.الخيلاء بالأفعال . قال النبى ﷺ : « مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلاء » يَتخَايل فى مَشْيته وَفِى وَجْهه وَفِى رَفْع رَأْسُه وَرَقَبَتُه إذا مَشَى كأنه وصل إلى السماء والله عز وجل وبّخ مَن هذا فعله وقال : ﴿ وَلَا تَمْشِ فى الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الجِبَالَ طُولاً ﴾ [الإسراء : ٣٧] فأهل السُّنَّة والجماعة يَنْهون عن هذا ويَقُولون كُنْ مُتَواضعًا فى القول وفى الفعل حتى فى القول لاتُثْن على نَفْسك بِصِفاتك الحميدة إِلَّا حيث دَعَت الضَّرورة أوْ الحاجة إلى ذلك كقول ابن مسعود رضى الله عنه : « لَوْ أَعْلَم أَنَّ أَحَدًا أَعْلَمُ مِنِّى بِكِتَاب الله تَبْلُغه الإبل لَرَحَلْتُ إليه »(١) فإنَّه رضى الله عنه قَصَدَ بذلك أمْرَين :

الأوَّل : حَثُّ النَّاس على تَعَلُّم كتاب الله تعالى .

والثَّانى : دَعْوتهم للتَّلقِّى عنه ، والإنسان ذُو الصِّفات الحميدة لا يُظَنُّ أن النَّاس تخفى عليهم خِصَالُه أَبدًا سَواءً ذكَرها للنَّاس أمْ لم يَذكرها بل إن الرَّجل إذا صَار يُعدِّد صِفاته الحميدة أمام النَّاس سَقَط من أَعْيُنِهم فاحْذَر هذا الأمر !

والبَغْى : العُدْوان على الغَير وَمَواقِعه ثلاثة بيَّنها الرَّسول ﷺ فى قوله : « إِنَّ دِمَاءَكُم وَأَمْوَالكم وَأَعْراضَكُم عَلَيْكُمْ حَرَامٌ »(٢) فالبَغْى عَلَى الخلق بالأَمْوال والدِّماء والأَعراض .

---

(١) البخارى (٥٠٠٢) ومسلم (٢٤٦٣) .

(٢) مسلم (١٢١٨) (١٤٧) من حديث جابر الطويل فى سياق صفة حجته ﷺ .

فى الأَموال يدّعى مَا لَيْس لَهُ أَوْ يُنْكِر مَا كان عليه أَوْ يَأْخُذ مَا لَيْس له فهذا بغىٌ على الأَمْوال .

الدِّماء : القَتْل فما دونه يَعْتدى على الإنسان بالضَّرب بالجرح بالقَتل .

الأعراض : يحتمل أَن يُرَاد بها الأعراض يعنى السُّمعة فيعتدى عليه بالغِيبة التى يُشَوِّه بها سُمْعته ، ويحتمل أن يُرَاد بها الزِّنى وما دونه والكل محَرَّم فأهل السُّنَّة والجماعة يَنْهَون عن الإعتداء عَلَى الأَمْوال والدِّماء والأَعراض .

وكذلك الاستطالة على الخَلْق : يعنى الإسْتِعلاء عليهم بِحَقّ أَوْ بغير حَقّ والاستعلاء على الخلق ينهى عنه أَهل السُّنَّة والجَمَاعة سواءٌ كان بحق أو بغير حق والاستعلاء هو أن الإنسان يترفَّع وإن كان أَرْفع من غيره . وحَقِيقة الأَمر أَن من شُكْر نِعمة الله عليك أَنَّ الله إِذَا مَنَّ عَلَيْك بِفَضْل عَلَى غيرك من مَالٍ أَوْ جاه أَو سِيادة أو عِلْم أو غير ذلك أَنَّه يَنْبَغِى أَن تَزْداد تَوَاضعًا حَتّى تُضيف إلى الحُسْن حُسْنى ؛ لأَنَّ الذى يَتَواضع فى مَوْضع الرِّفعة هو المُتَوَاضِع حقيقة ومعنى قوله « بحقّ » أى حتى لو كان لَهُ الحَقُّ فى بيان أَنَّه عال مُتَرَفِّع فإِنَّهم ينهون عن الإستعلاء والتَّرفع أو يقال إن مَعْنَى قوله : « الإِسْتِطالَة بحق » أن يكون أصل اسْتِطالَته حَقّاً بأَنْ يكون قد اعْتَدى عليه إنْسان فيعتدى عَلَيْه أكثر فأهل السُّنَّة والجماعة رحمهم الله يَنْهون عن الإستطالة والإِسْتعلاء عَلَى الخلق سَواءٌ كَانَ ذلك بحقّ أَو بغير حَقّ .

* * *

● **قال المؤلف : « وَيَأْمُرونَ بِمَعَالِى الأَخْلَاق ، وَيَنْهَون عَن سِفْسَافِها » .**

هَذِه جُمْلة عامَّة . كُلُّ الأَخلاق العَالِية أَهْلُ السُّنَّة والجماعة يَأْمُرون بِها وَالسِّفْسَاف : السَّاقط يَنْهون عَنْه كذلك .

* * *

● **قال المؤلف : « وَكُلُّ مَا يَقُولُونَهُ وَيَفْعَلُونَهُ مِن هَذَا وَغَيْره فَإِنَّما هُم فِيه مُتَّبِعُونَ لِلكِتَاب والسُّنَّة وَطريقَتُهم هِي دِين الإِسْلَام الَّذى بَعَثَ الله بِهِ مُحمّدًا ﷺ » .**

كُلّ مَا يَقُولونه أَهْل السُّنة والجماعة من هذا وغيره فإنما هم فِيه مُتَّبِعُون للكِتَاب والسُّنة وهذه حال يَنْبغى أَن يُتَنَبَّه لها وهو أَنَّنا كل ما نقول وكل ما نَفْعل نَشْعر حال قوله أو فِعْله أَنَّنا نَتَّبع فيه الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام مع الإخلاص لله لتكون أَقوالنا وأَفعالنا كلها عِبَادات لله عَزَّ وجل ولهذا يُقَال إن عِبَادات الغَافِلِين عَادَات وَعَادَات المُنْتَبِهين عِبَادَات . فالإنسان المُوَفَّق يمكن أَن يُحَوِّل العَادَات إلى عِبَادات والإنسان الغَافِل يجعل عِبَادَاته عَادَات ، فَلْيَحْرِص المُؤمن عَلَى أَن يَجْعل أَقْواله وأَفْعَاله كلها تَبَعًا لِكِتَاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ لِيَنَال بِذَلِك الأَجْر وَيَحْصُل بِه كَمَال الإيمَان والإنَابة إلى الله عَزَّ وَجل .

* * *

من مَزَايـا أهْل السُّنَّة والجماعـة

٣٢٠ - لَكِن لَمَّا أَخبَر النَّبى ﷺ « أَنَّ أُمَّتَهُ سَتَفْتَرِق عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِين فِرْقَه كُلَّها فى النَّار إِلَّا وَاحِدة وهى الجماعة » .

٣٢١ - وَفِى حديث عنه أَنَّه قال : « هُمْ مَنْ كَانَ عَلَى مِثْل مَا أَنَا عَلَيْه اليَوم وَأَصْحَابِى » . صَارَ المُتَمَسِّكُون بِالإِسْلَام المَحْض الخَالِص عن الشَّوب هم أَهْلُ السُّنَّة وَالجَمَاعة .

٣٢٢ - وفيهم الصِّدِّيقون والشُّهداء والصَّالحون .

٣٢٣ - ومنهم أَعْلَام الهُدَىٰ وَمَصابِيح الدُّجَى أُولوا المَنَاقِب المَأْثُورة وَالفَضَائِل المَذْكُورة .

٣٢٤ - وَفِيهم الأَبْدَال .

٣٢٥ - وَفِيهم أَئِمّة الدِّين الَّذِين أَجْمَع المُسْلِمُون عَلَى هِدَايتهِم .

٣٢٦ - وهُم الطَّائفة المَنْصُورة الَّذِين قال فيهم النَّبى ﷺ : « لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِن أُمَّتِي عَلَى الحَقّ مَنْصُورة لا يَضُرُّهم مَنْ خَالَفَهُم ، وَلَا مَنْ خذلَهُم حَتَّى تَقُوم السَّاعَة » .

الشـــرح

● **قال المؤلف : « لَكِن لَمَّا أَخبَر النَّبى ﷺ أَنَّ أُمَّتَهُ سَتَفْتَرِق عَلَى**

ثَلاثٍ وَسَبْعين فِرْقَة كُلّها فِى النَّار إِلَّا وَاحِدَة وهى الجماعة »[1] .

« أَنَّ أُمَّتَهُ » : يَعْنى أُمَّة الإِجابة لا أُمَّة الدَّعوة لأَن أُمة الدَّعوة يَدْخل فيها اليهود والنَّصارى وهم مُفْتَرِقُون فاليهُود عَلَى إِحْدَىٰ وَسَبْعين فِرقةً والنَّصارى على اثْنتين وسَبْعين فِرْقة وهذه الأُمَّة عَلَى ثَلاث وَسَبْعِين كُلَّها تَنسِبُ نَفْسَها إِلى الإِسلام واتِّباع رَسُول الله ﷺ .

وقوله : « كُلّها فِى النَّار إِلَّا وَاحِدة » لا يَلْزَم من ذلك الخُلُود فى النَّار وإِنَّما يَلْزَم أَن عملها مِمَّا تَسْتحق به دُخول النَّار .

وهذه الثَّلاث والسَّبعون فرقة هل وقعت الآن وتمت أَوْ هى فى المَنْظور ؟ أَكْثر الَّذِين تَكلَّموا على هذا الحديث قالوا إِنَّها وَقَعَت وانتهت وصاروا يُقسِّمون أهل البدع إِلى خمسة أصول رَئِيسية ثم هذه الخمسة الأُصول يُفَرِّعون عنها فرقًا حتى أَوْصَلُوها إِلى اثْنَتَين وَسَبْعين فِرقة وأَبْقوا فِرقة واحدة وهى أَهل السُّنَّة والجماعة . وقال بعض العلماء إِنَّ الرسول عليه الصَّلاة والسَّلام أَبهم هذه الفِرق ولا حاجة أَن نَتَكَلَّم فَنُقَسِّم البدع الموجودة الآن إِلى خمسة أُصول ثُم نُقَسِّم هذه الأُصول إِلى فُرُوع حتى أَنَّنا نَجْعَل أَحيانًا فِرقة تَامَّة من أجل مُخَالفتها فى فَرْع واحد فإِن هذا لا يُعْتَبر فِرقة مُسْتقلَّة . فَالأَولى أَن نَقُول إِنَّ هذه الفِرق غير معلومة لنا ولكننا نقول بِلَاشَكّ أَنَّها فِرَق خرجت عن الصِّراط المُسْتقيم ، مِنها مَا خَرج فَأَبْعَد ومنها مَا خَرَج خُروجًا مُتَوَسِّطًا ، ومنها مَا خَرج خُروجًا قَرِيبًا ، ولا نُلْزم بِحَصْرها لأَنَّه رُبَّما يخرج فِرق تَنْتَسِب لِلأُمة الإِسْلامية غير التى عَدَّها العلماء كما هو الواقع فقد خرج

---

(١) **حَدِيثٌ صَحِيحٌ** : رواه أبو داود (٤٥٩٦) وأحمد (٢/٣٣٣) والترمذى (٢٧٧٨) وابن ماجة (٣٩٩١) وابن أبى عاصم فى السنة (٦٠) والحاكم (١/١٢٨) من حديث أبى هريرة وللحديث شواهد كثيرة وقد صحَّحه غير واحد من أهل العلم وراجع الصحيحة للألبانى (٢٠٤) .

فرق تَنْتَسِب إلى الإسلام من غير الفِرق التى كانت قد عدّت فى عهد العلماء السَّابقين . وعلى كل حال فالرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام أَخْبَر أَن أُمَّته أُمَّة الإجابة سَتَفْتَرِق عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِين فِرقة كُلُّها ضَالَّة وَفِى النَّار إِلَّا وَاحِدة وَهِى : قال « وَهِى الجَمَاعَة » يَعْنى التى اجْتَمَعت عَلَى الحَقّ وَلَم تَتفرّق فيه .

* * *

● **قال المؤلف : « وَفِي حَدِيثٍ عَنْه أَنَّه قال : « هُمْ مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْه اليَوْمَ وَأَصْحَابِي » صَارَ المُتَمَسِّكُون بالإِسْلام المَحْضِ الخَالِصِ عَنِ الشَّوب هُم أَهْلُ السُّنَّة وَالجَمَاعَة » .**

قال : وفى حَدِيثٍ عَنْه أَنَّه قَال : « هُم مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْه اليَوْم وَأَصْحَابى »(١) والَّذين كانوا على مَا كَانَ عَلَيه الرَّسول ﷺ وأَصْحَابه هم الجماعة الَّذين اجتمعوا على شريعته وهم الذين امْتَثَلُوا مَا وَصَّى الله بِهِ : ﴿ أَنْ أَقِيمُواْ الدِّينَ وَلَا تَتفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى : ١٣] فهم لم يَتَفَرَّقُوا بل كَانُوا جَمَاعة وَاحِدة قَال : « صَارَ المُتَمَسِّكُونَ بِالإِسْلَام المَحْض الخَالِص عَنِ الشَّوب هُم أَهْلُ السُّنَّة وَالجَمَاعَة » فَإِذا سُئِلْنا مَنْ أَهْلُ السُّنَّة وَالجَمَاعَة ؟ فنقول هم المُتَمَسِّكُون بالإِسلام المَحْض الخَالِص عن الشَّوب. وهذا التَّعْرِيف مِن شَيْخ الإِسلام ابن تيمية يَقْتَضِى أَنَّ الأَشَاعِرة والمَاتردية ونحوهم ليسوا من أهل السُّنَّة والجماعة لأن تمسُّكهم مَشوبٌ بما أَدْخَلُوا فِيهِ مِن البِدَع . وَهَذَا هو الصَّحيح أَنَّه لايُعَدُّ الأَشَاعرة والماتردية فيما ذَهَبُوا إليه فى أَسْمَاء الله وَصِفَاته

(١) **حَدِيثٌ صَحِيحٌ** : رواه التِّرمذى (٢٧٧٩) والحاكم (١/١٢٩) من حديث ابن عمرو وفى إسناده عبدالرحمن بن زياد بن أنعم ضعيف إلا أن للحديث شواهد كثيرة يصح بها وراجع الصَّحيحة (٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ١٤٩٢) .

مِن أَهل السُّنة والجماعة وكيف يُعَدُّون من أَهْل السُّنَّة والجماعة مع مُخَالفتهم لِأَهل السُّنة والجماعة لأَنه يُقال إما أَن يكون الحق فيما ذَهَب إليه هَؤُلاء الأَشَاعرة والماتردية أو الحق فيما ذهب إليه السَّلف . فإذا كان الحق فيما ذَهَب إليه السَّلف وَهَؤُلاء يُخَالِفونهم صاروا لَيْسُوا من أهل السُّنَّة والجماعة لأَن السلف هم أَحَقُّ النَّاس بهذا الوَصْف من الصِّدق . وَجَاء بهذه الصِّيغة للمُبَالغة وهو الذى جاء بالصِّدق وصَدَّق به كما قال تعالىٰ : ﴿ وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَٰئِكَ هُمُ المُتَّقُون ﴾ [الزمر : ٣٣] فهو صَادِق فى قَصْدِه وَصَادِق فى قَوْله وَصَادِقٌ فى فِعْله . أَمَّا صِدْقُه فى قَصْدِهِ فعنده تَمَام الإِخْلاص لله عزَّ وجلَّ وتمام المُتَابَعة للرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام قد جرَّد الإِخلاص والمُتَابعة فلم يَجْعَل لِغير الله تعالىٰ شِركًا فى العَمَل. ولم يَجْعل لِغير سُنَّة الرَّسول ﷺ اتِّباعًا فى عَمَله فلا شِرْك عنده ولا ابْتداع . صَادِقٌ فى قوله لا يَقُول إِلَّا صِدقًا وقد ثبتَ عن النَّبى عليه الصَّلاة والسَّلام أَنَّه قال : « عَلَيْكُم بالصِّدْق فَإِنَّ الصِّدْق يَهْدِى إلى البر وَإِنَّ البِرّ يَهْدِى إلى الجَنَّة وَلَا يَزَال الرَّجُل يَصْدُق وَيَتَحَرَّىٰ الصِّدْق حَتىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ الله صِدِّيقًا »[1] . صَادِقٌ فى فِعْله بِمَعْنَىٰ أنّ فِعْلُه لا يُخَالِفُ قَوْله ، فإذا قال فَعَلَ وبهذا يَخْرُجُ مَن فِيه شَبهٌ من المُنَافِقين الَّذين يقولون مَالَا يَفْعَلُون . وأَيْضًا يُصدِّق بما قامت البَيِّنة على صِدْقه فَلَيْس عِنْده رَدٌّ للحق ولا احْتِقَارٌ للخلق ولهذا كان أَبو بكر أَوَّل من سُمِّى الصِّديق مِن هذه الأُمّة لأنه لما أُسْرِى بالنَّبى عليه الصَّلاة والسَّلام وَجَعَل يَتَكَلَّم أَنَّه أُسْرِىَ بِه إلى بَيْت المَقْدِس وَعُرِجَ بِهِ إلى السَّمَاء صَارَ الكُفَّار يَضْحَكُون به وَيُكَذِّبُونه ويقولون : كيف تَذْهب يا مُحمد فى لَيْلة وتصل فى لَيْلة إلى مَا وَصلت إليه

---

(١) البخارى (٦٠٩٤) ومسلم (٢٦٠٧) (١٠٥) من حديث ابن مسعود بلفظ : « إن الصدق يهدى ... » وفى رواية لمسلم (٢٦٠٧) (١٠٥) : « عليكم بالصدق ... الحديث » وهى التى ذكرها الشيخ هنا .

فى السَّماء ونحن إذَا ذَهَبْنَا إلى الشَّام نَبْقى شَهْرًا لم نَصِلْه وَشَهرًا للرُّجوع . فاتَّخَذُوا مِنْ هذا سُلَّما لِيُكَذِّبوا الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام ولما وصلوا إلى أبى بكر وقالوا : إنَّ صَاحِبك يُحَدِّث وَيَقُول كذا وكذا قال : إنْ كَانَ قَالَ ذَلِك فَقَد صَدَقَ[1] فَمِن ذَلك اليوم سُمِّى الصِّديق .

فيهم أيضًا : « الشُّهَداء » جمع شَهِيد بمعنى شَاهِد فمن هم الشُّهداء : قيل هم العُلماء ؛ لأَن العالم يَشْهد بشَرْع الله ويَشْهد عَلَى عِباد الله بأَنَّها قامت عليهم الحُجَّة ولهذا يُعْتَبر العالم مُبَلِّغًا عن الله عز وجل ورسوله شريعته التى جاء بها رَسُوله محمد ﷺ فيكون شَاهِدًا على الخلق وقيل : إنَّ الشَّهيد مَن قُتِل فى سَبِيل الله والصَّحيح أَن الآية عامة لهذا ولهذا .

وفيهم أيضًا : « الصَّالحون » والصَّالح هو ضِد الفَاسِد وهو الَّذى قام بحقّ الله وحقّ عِبادِه وهو غير المُصْلح . فالإصْلَاح وَصْفٌ زَائِد على الصّلاح .

* * *

● **قال المؤلف : « وَفِيهم الصِّدِّيقُون وَالشُّهَداء وَالصَّالِحُون » .**

فى أَهل السُّنَّة والجماعة الصِّديقون والشُّهداء والصَّالحون . وأَعْلَى من فيهم من الصِّديقين أبوبكر رضى الله عنه فإنّه ليس أَحدٌ من الصِّديقين فى منزلة كَمَنْزلة أبى بكر . والصِّديق فعِّيل فَلَيْس كل صَالح مُصْلحًا فإنَّ من الصَّالحين من همُّه همّ نفسه ولا يهتم بغيره وتمام الصّلاح بالإصْلاح .

* * *

---

(١) راجع تفسير ابن كثير (٥/١١-١٣) والخصائص الكبرى للسيوطى (١/٣٨٣-٣٨٧) حيث ورد فى رواية لابن أبى حاتم فى تفسيره ، فى قصة المعراج ، وفى إسنادها لخالد بن يزيد بن عبدالرحمن بن أبى مالك وهو ضعيف ، وقد جاء وصفه بالصديقية فى حديث أنس عند البخارى (٣٦٧٥) عندما رجف جبل أُحُد بالنبىّ ﷺ وأبى بكر وعمر وعثمان فقال ﷺ : « اثبت أحد فإنما عليك نبى وصديق وشهيدان » .

● **قال المؤلف : «ومنهم أَعْلَامُ الهُدَىٰ ومَصَابِيح الدُّجَىٰ أُولوا المَناقِب المَأْثورة وَالفضَائِل المَذْكُورَة » .**

قال المؤلف : « وَمِنْهُم أَعْلَامُ الهُدَىٰ وَمَصَابِيح الدُّجَىٰ » .

الأَعْلام : جَمْع عَلَم وهو فى الأَصْل الجَبَل قال الله تعَالىٰ ﴿ وَمِن آيَاتِهِ الجَوارِ فى الْبَحْرِ كَالْأَعْلَام ﴾ [الشورى : ٣٢] ﴿ ولَهُ الجَوارِ المُنْشآت فِى الْبَحْرِ كَالْأَعْلَام ﴾ [الرحمن : ٢٤] يعنى الجبال . وسُمِّى الجَبَل عَلَمًا لأَنَّه يُهتدى به ويُسْتدل بِهِ . وأَعلام الهدىٰ الذين يُسْتَدَلُّ النَّاس بهم ويَهْتَدون بِهَدْيهم وهُم العُلماء فإنَّهم هم الهُدَاة وهم أَعلام الهُدَىٰ كذلك هم مَصَابِيح الدُّجَىٰ والمَصَابيح جمع مِصْبَاح وهو مَا يُسْتصبح به للإِضَاءَة والدُّجىٰ جمع دُجْيه وهى الظُّلْمة أى هُم مَصَابيح الظّلم يَسْتضىءُ بهم النَّاس ويَمْشُون على نُورهم .

قال المؤلف : « أُولُوا المَنَاقِب المَأْثورة وَالفَضَائِل المَذْكُورة » المَنَاقِب : جمع مَنْقَبة وهى المَرْتَبة أى ما يبلغه الإِنسان من الشَّرف والسُّؤْدد ، وأَمَّا الفَضَائل فهى جمع فَضِيلة وهى الخصال الفَاضِلة التى يَتَّصِفُ بها الإِنسان من العِلْم والعِبادة والزُّهد والكَرَم وغير ذلك فَالفَضَائِل سُلَّمٌ للمَنَاقِب .

* * *

● **قال المؤلف : « وَفِيهِم الأَبْدَال » .**

الأَبْدَال : جَمْعُ بَدل وهم الَّذين تميّزوا عَن غَيْرهم بِالعِلم والعِبادة . وسُمُّوا أَبدالاً إِمَّا لأَنَّهم كلما مَات مِنْهم وَاحِدٌ خَلفه بَدَله أو أَنهم كانوا يبدلون سَيِّئَاتهم حَسَنات . أو أَنهم كانوا لِكَوْنهم أُسْوة حَسَنة كانوا يُبَدِّلُونَ أَعمال النَّاس الخَاطِئة إِلى أَعْمَالٍ صَائِبة .

* * *

● **قال المؤلف : « وَفِيهم أَئِمَّة الدِّين الَّذِين أَجْمَع المُسْلِمُون عَلَى هِدَايَتِهم » .**

الإِمَام : هو القُدوة . وفى أَهل السُّنة والجماعة أَئِمة الدِّين الَّذين أَجمع المسلمون على هِدَايتهم مثل الإمام أحمد والشَّافعى وَمَالك وأبى حنيفة وسفيان الثَّورى ، والأَوزاعى ، وغيرهم من الأئمة المَشْهُورين المعروفين شيخ الإسلام ابن تيمية وشيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب . أَمَّا أئمة الضَّلال من أهل البدع فهؤلاء لَيْسُوا من أهلِ السُّنة والجماعة بَلْ هم على خِلاف أَهل السُّنة والجماعة وهم وإن سُمُّوا أَئمة فإن من الأئمة أئمة يَدْعون إلى النَّار كما قال تعالى عن آل فرعون : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ القِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [القصص : ٤١] .

* * *

● **قال المؤلف : « وَهُم الطَّائِفَة المَنْصُورة الَّذين قال فيهم النَّبى ﷺ : « لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِن أُمَّتِى عَلَى الحَقِّ مَنْصُورة لَا يَضُرُّهُم مَنْ خَالَفَهُم ، وَلَا مَنْ خَذَلَهُم حَتَّى تَقُوم السَّاعَة »(١) .**

قال : « وَهُم الطَّائِفَةُ المَنْصُورة » أَهْلُ السُّنَّة وَالجَمَاعة هُم الطَّائِفَةُ المَنْصُورة التى نَصَرَها الله عز وجل لأَنهم دَاخلون فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُواْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَاد ﴾ [غافر : ٥١] فهم مَنْصُورون وَالعَاقِبَةُ لهم وَلَكِن لابُدَّ قبل النَّصر من مُعَانَاة وَتَعَب وَجِهاد لأَن النَّصر يَقْتَضِى مَنْصُورًا ، وَمَنْصُورًا عَلَيه إِذًا : فلابد من مُغَالبة ولابد من

---

(١) رواه البخارى (٣٦٤١) ومسلم (١٠٣٧) (١٧٤) من حديث معاوية رضى الله عنه وهو حديث متواتر كما نص على ذلك السيوطى فى قطف الأزهار المتناثرة (٨١) .

مِحْنة ، ولكن كما قال ابن القيم رحمه الله :

الحَقُّ مَنْصُورٌ وَمُمتحنٌ فَلا تَعْجَب فَهَذِى سُنَّة الرَّحْمن[١] .

لا يَلْحقك العَجْزُ والكَسَل إذا رَأَيْتَ أَنَّ الأُمور لم تتم لك بأَوَّل مَرّة بل اصبر وكَرِّر مرة بعد أُخرى واصبر على مَا يُقَال فيك من استهزاء وسُخْرية لأَن أَعداء الدِّين كثيرون . لا يُثْنِى عَزْمُك أن ترى نَفْسك وحِيدًا فى الميدان فأنت الجماعة وإن كنت وَاحِدًا مَادُمْت مع الحق . ولهذا ثِق بأَنَّك منصور إمَّا فى الدُّنيا وإمَّا فى الآخرة . ثم إن النَّصر ليس نَصْر الإنسان بِشَخْصِهِ النَّصر الحقيقى أَن يَنْصُر الله تَعَالَى مَا يَدْعو إليه من الحق أَمَّا إذا أُصِيب هو بِذُلّ فى الدُّنيا فإن ذلك لا يُنَافِى النَّصر أبدًا فالنَّبى عليه الصَّلاة والسَّلام أُوذِى إيذاءً عَظِيمًا لَكِن كان فى النِّهاية إن انْتَصر عَلَى مَنْ آذاه وَدَخل مَكّة مَنْصُورًا مُؤَزّرًا ظافرًا بَعْد أَن خَرجَ مِنها خائفًا .

قَالَ المؤلف : « الَّذِينَ قَالَ فيهم النَّبى ﷺ: « لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِن أُمَّتِى عَلَى الحَقِّ مَنْصُورة لَا يَضُرُّهُم مَنْ خَالَفَهُم وَلَا مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى تَقُوم السَّاعة »[٢] .

قوله : « لا تَزَال » هَذَا من أَفْعَال الاستمرار وأَفعال الاستمرار أربعة وهى : فَتِيء وانفك وَبَرِحَ وَزَالَ إذا دَخَلَ عَليها النَّفى أَوْ شَبَهه . يقول : « لاَ تزالُ طَائِفَةٌ مِن أُمَّتِى عَلَى الحَقِّ » يعنى تستمر على الحق . وهذه الطَّائفة غير مَحْصُورةٍ بِعَدَد ولا بمكان ولا بِزَمَان . يمكن أن تَكُون بمَكَان تنصر فيه فى شىء من أُمُور الدِّين وفى مكان آخر تنصر فيه طائفة أُخرى وبمجموع الطَّائفتين يكون الدِّين بَاقِيًا مَنْصُورًا مُظَفّراً . يقول : « لا يَضُرُّهم » ولم يَقُل

---

(١) الكافية الشافية لابن القيم (٥٧/١) بشرح هراس .

(٢) تقدم تخريجه .

لا يُؤْذِيهم والأَذِيّة قد تَحْصُل لكن لاَ تضُرّ وفرقٌ بين الضَّرر والأَذَى ولهذا قال الله تعالى فى الحديث القُدْسى : « يَا عِبَادِى إِنَّكُم لَنْ تَبْلُغوا ضَرِّى فَتَضُرُّونِى »(١) وقال سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُم آللهُ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرة ﴾ ، وفى الحديث القدسى : « يؤذينى ابْنُ آدَم يَسُبُّ الدَّهْر وَأَنَا الدَّهْر »(٢) يقول : « حَتَّى تَقوم السَّاعة » هَذَا فِيه إِشْكال لأَنَّه قد ثبت فى الصَّحيح أَنَّها لا تَقُوم السَّاعة حَتَّى لا يُقَال الله – الله »(٣) أى حتَّى يُمْحَىٰ الإسلام كُلُّه ولا يَبْقَى مَنْ يَعْبد الله أبدًا فكيف قال هنا « حَتَّى تَقُوم السَّاعة » ؟ أَجَابَ عنه العُلَمَاء بِأَحَد جَوَابين : إِمَّا أَن يكون المراد حَتَّى قُرْب قِيام السَّاعة والشَّىء قد يُعبَّر به عَمَّا قَرُب مِنْهُ إِذا كَانَ قَرِيبًا جدًا وَكَأَنَّ هؤلاء المَنْصُورون إذا مَاتُوا فإن السَّاعة تكون قَرِيبة جدًا ، أَوْ يُقَال أَن المراد « بالساعة » سَاعَتِهم ولكن القول الأَوَّل أَصَحّ لأَنَّه إِذا قَال « حَتَّى تَقُوم سَاعَتِهم » فقد تَقُوم سَاعتهم قبل السَّاعة الأَخيرة بِأَزْمِنة طَوِيلة . وَظَاهر الحَدِيث أَنَّ هذا النَّصر سَيَمْتد إلى آخر الدُّنيا . فالصَّواب أَنَّ المراد بذلك إلى قُرْب قِيام السَّاعة .

* * *

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧) (٥٥) من حديث أبى ذر رضى الله عنه .

(٢) البخارى (٧٤٩١) ومسلم (٢٢٤٦) (٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٣) مسلم (١٤٨) (٢٣٤) من حديث أنس رضى الله عنه .

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين وسلم تسليمًا وتم التعليق على هذا الكتاب النافع المبارك فى صباح يوم الجمعة الموافق من شهر شوال ١٤١٣ هـ بمصر . مدينة الإسماعيلية على يد الفقير إلى عفو ربه أبو محمد أشرف بن عبدالمقصود بن عبدالرحيم غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين آمين .

الخاتمـــــة

٣٢٨ - فَنسْأَل الله أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْهم وَأَن لا يُزِيغ قُلُوبَنَا بَعْد إِذْ هَدَانا وَأَنْ يَهِبَ لَنَا مِن لَدُنه رَحْمَة إِنَّهُ هُوَ الوَهَّاب وَصَلَّى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسيمًا .

الشـــرح

وبهذا الدُّعاء خَتَم المؤلف رَحِمه الله هَذِه الرِّسالة القَلِيلة الَّلفظ ، الكثيرة المَعْنَىٰ ، وهى تُعْتَبر خُلَاصة مَذْهب أَهل السُّنَّة والجَمَاعة وفيها فَوَائِد عظيمة يَنْبَغى لِطَالب العِلْم أَنْ يَحْفَظها .

والحمد لله ربِّ العالمين على الإتمام ونَسْأَل الله أَن يُتِمّ ذلك بالقبول والثَّواب وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين ..

أمـلاه شيخنا وانتهى منـــه
فى يوم الجمعة ١٤٠٩/١/٢٨ هـ
الجامـع الكبير بعنـيزة

المناظرة فى

العقيدة الواسطية

بين شيخ الإسلام ابن تيمية وعلماء عصره

فى مجلس نائب السلطنة الأفرم

بدمشق سنة ٧٠٥ هـ

قال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية - رحمه الله تعالى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين * الرَّحمن الرَّحيم * مَلك يَوْم الدِّين .

وأَشْهد أَن لا إِله إلا الله وَحْدَهُ لا شَرِيك له ولا ظَهِير له ، ولا مُعين .

وأشهد أَنَّ محمدًا عبده ورَسُوله ؛ الذى أَرْسَلَهُ إِلى الخلق أجمعين ، صَلَّى الله عليه وعلى آله وصَحْبه وَسلّم تسليمًا كثيرًا ، وعلى سائر عباد الله الصَّالحين .

أما بعد : فقد سُئِلْتُ غير مرة ، أن أكتب مَا حَضَرنى ذكره ، مِمَّا جَرَىٰ فى المجالس الثَّلاثة ، المعقودة للمُنَاظرة ، فى أمر الإعتقاد بِمُقْتَضَىٰ ما وَرَدَ به كتاب السُّلْطان ، من الدِّيار المصرية إلى نائبه أَمير البِلاد . لما سعى إليه قوم من الجهمية ؛ والإتِّحادية ؛ والرَّافضة ؛ وغيرهم من ذَوِي الأَحْقَاد .

فأَمَرَ الأَمِير بجمع القُضَاة الأَرْبَعة ؛ قُضَاة المَذَاهِب الأَرْبَعة ؛ وغيرهم من نُوَّابِهم : والمُفْتِين وَالمَشَائِخ ؛ مِمَّن له حُرْمَة وبه اعْتِداد . وهم لا يَدْرُون ما قصد بجمعهم فى هذا الميعاد ، وذلك يوم الإثنين ثَامِن رجب المبارك ، عام خمس وسبعمائة .

● فقال لى : هذا المجلس عُقِدَ لَكَ ؛ فقد ورد مَرْسُوم السُّلْطان بأن أسألك عن اعْتِقَادِك ، وعمَّا كَتَبت به إلى الدِّيار المصرية، من الكتب التى تدعو بها الناس إلى الإعْتِقاد . وأظنه قال : وأَن أَجْمَع القُضَاة ، والفُقَهاء ، وتَتَبَاحَثُون فى ذلك .

● فقلت : أَمَّا الاعتقاد : فلا يُؤْخَذُ عنِّي ، ولا عَمَّن هو أَكْبَرُ منِّي ؛ بل

يُؤْخَذُ عن الله ، وَرَسوله ﷺ ، وَمَا أَجْمَعَ عَلَيه سَلَفُ الأُمَّة ؛ فما كان فى القرآن وَجَبَ اعْتِقَادُه ، وكذلك ما ثَبُتَ فى الأَحَادِيث الصَّحيحة ، مثل صَحيح البُخَارِي ، ومُسْلِم .

وأما الكُتُب فما كتبت إلى أحد كتابًا ابتداء أَدْعُوه به إلى شىء من ذلك ، ولكنى كَتَبْتُ أَجْوِبة أجبت بها من يَسْأَلُنى : من أهل الدِّيار المَصْرِية وغيرهم ، وكان قد بَلَغَنِى أَنَّه زوّر عَلَيّ كِتَاب إلى الأمير رُكْن الدِّين الجاشنكير ، استاذ دار السُّلطان ، يتضمَّن ذكر عَقِيدة مُحَرَّفة ، ولم أعلم بحقيقته ؛ لكن عَلِمْتُ أَنَّه مَكْذُوب .

وكان يَرِدُ عَلَيَّ من مِصر وغيرها من يَسْأَلُني عن مَسَائل فى الإعتقاد وغيره فَأُجِيبه بالكتاب والسُّنَّة ، وما كان عليه سَلَفُ الأُمة .

● فقال : نُرِيد أن تَكْتُب لنا عَقِيدَتَك . فقلت : اكْتُبوا . فأمر الشيخ كمال الدِّين : أن يكتب ؛ فكتب له جمل الإعتقاد فى أبواب الصِّفات والقدر، وَمَسَائِل الإيمان والوَعِيد ، والإمامة والتَّفضيل .

● وهو : أنَّ اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة : الإيمَانُ بما وَصَفَ الله به نَفْسه ، وبما وَصَفَهُ به رَسُوله ﷺ ، مِن غَيْر تَحْرِيفٍ ولا تعطيلٍ ولا تَكْيِيفٍ ولا تَمْثِيلٍ ، وأَنَّ القرآن كَلَامُ الله غَيْرُ مَخْلُوق ، مِنه بَدَأَ وإِلَيه يَعُود .

والإيمان بأَنَّ الله خَالِقُ كُلِّ شيء من أَفْعال العِباد وغيرها ، وأَنَّه ما شاء الله كان ومَا لَم يَشَأْ لم يكن ، وأَنَّه أَمَرَ بالطَّاعة ، وأَحَبَّها وَرَضِيَهَا؛ ونَهَىٰ عن المَعْصِية وكَرِهَها . والعبد فاعل حَقِيقة ، والله خَالِقُ فعله ، وأَنَّ الإيمان والدِّين قَوْلٌ وعملٌ ، يَزِيدُ وَيَنْقُص ، وأن لا نُكَفِّر أحدًا مِن أهل القِبْلَة بالذّنوب ولا نُخَلِّد فى النَّار من أهل الإيمان أَحدًا ، وأَنَّ الخلفاء بَعْد رَسُول الله ﷺ أَبُو بَكْرٍ ، ثُمَّ عُمَر ، ثمَّ عُثْمان ، ثم على ، وأَنَّ مَرْتَبتهم فى الفَضْل

كَتَرْتِيبِهِم فى الخِلافة ، ومن قَدَّم عليًا على عُثْمان : فقد أَزْرَىٰ بالمهاجرين والأنصار وَذَكرتُ هذا أو نحوه ؛ فإنى الآن قد بعد عهدى ، ولم أَحْفظ لفظ مَا أمليتُه ؛ لكنه كتب إذ ذاك .

● ثم قلت للأمير والحاضرين : أَنا أَعْلَمُ أَنَّ أقوامًا يَكْذِبُون عَلَىّ ؛ كما قد كَذَبُوا علىَّ غير مرة . وإن أَمْلَيْتُ الإعْتِقاد من حِفْظِى : رُبَّما يقولون كَتَم بعضه ؛ أَوْ دَاهَنَ ودَارَىٰ ؛ فأنا أحضر عَقِيدة مكتوبة ؛ من نحو سَبْع سِنين قبل مجىء التَّتَر إلى الشَّام .

● وقلت قبل حضورها كَلَامًا قد بَعُد عَهْدى به ، وغَضبْتُ غَضبًا شَديدًا ؛ لكنِّي أَذْكُر أَنِّي قلت : أنا أعلم أن أقوامًا كَذَبُوا على وقالوا للسُّلْطان أشياء وتكلمت بكلام احتجت إليه ؛ مثل أن قلت : من قام بالإسلام أَوْقَات الحاجة غيرى ؟ ومن الَّذي أَوْضَحَ دَلائِله وبينه ؟ وَجَاهد أَعْدَاءه وأَقَامَهُ لما مَالَ ؟ حين تخلَّىٰ عنه كل أحد ؛ ولا أحد يَنْطِق بحجته ولا أحد يُجَاهد عنه وقمت مظهرًا لحجته مُجاهدًا عنه مرغبًا فيه ؟

فإذا كان هؤلاء يَطْمَعُون فى الكلام فىَّ فكيف يَصْنعون بغيري ؟! ولو أن يَهُوديًا طلب من السُّلطان الإنصاف : لَوَجَبَ عَلَيْه أَن يُنْصِفه ؛ وأنا قد أعفو عن حَقِّي وقد لا أَعْفُو ؛ بل قد أَطْلُب الإنصاف منه ، وأن يحضر هؤلاء الذين يَكْذبون ؛ ليوافقوا على افترائهم ، وقلت كلامًا أَطْول من هذا الجنس ؛ لكن بَعُدَ عَهْدي به . فأشار الأمير الى كاتب الدرج محيى الدِّين : بأن يكتب ذلك .

● وقلت أيضًا : كُلُّ من خالفنى فى شَىءٍ مما كَتَبْتُه فأنا أعلم بمذهبه مِنْهُ ، وما أَدْرِى هل قلت هذا قبل حضورها أو بعده ؛ لكننى قلت أيضًا بعد حضورها وقرائتها : ما ذكرت فيها فصلًا : إلَّا وفِيه مُخَالِف من المُنْتَسِبين إلى القبلة ، وكل جملة فيها خِلاف لِطَائفة من الطَّوائف ، ثم أَرْسَلْتُ من

أَحْضَرها.، ومعها كَرَاريس بِخَطِّى من المنزل ، فحضرت « العقيدة الوَاسِطِيّة » .

● وقلت لهم : هذه كان سَبَب كِتَابَتُها أَنَّه قدم على من أَرْض وَاسِط بعض قُضَاة نَوَاحيها – شيخ يقال له « رَضِيّ الدِّين الوَاسِطى » من أَصحاب الشَّافعى – قدم علينا حَاجّاً ، وكان من أهل الخير والدِّين ، وشكا ما النَّاس فيه بتلك البلاد ، وفى دولة التَّتر من غلَبة الجهل ، والظُّلم ، ودُرُوس الدِّين والعلم ، وَسَأَلَنِى أَن أَكْتُب له عقيدة تكون عُمْدَة لَهُ وَلِأَهْل بَيْته ، فاستعفيت من ذلك ، وقلت : قد كتب الناس عَقَائِد مُتَعَدِّدة ؛ فخذ بعض عقائد أئمة السُّنة . فألح فى السُّؤَال وقال : مَا أُحِبُّ إِلَّا عقيدة تَكْتُبها أَنْتَ ، فكتبت له هذه العَقِيدة ، وَأَنَا قَاعِدٌ بعد العَصْر ، وقد انتشرت بها نُسَخٌ كثيرة ؛ فى مِصر ؛ والعِراق ؛ وغيرهما .

فَأَشَار الأَمير بأَنْ لا أَقْرَأُها أَنَا لِرَفْع الرِّيبة ، وأَعْطَاها لِكَاتِبه الشَّيخ كمال الدِّين ، فقرأها على الحاضرين حَرْفًا حَرْفًا ، والجماعة الحاضرون يَسْمَعُونها ، ويُورد المورد منهم ما شاء ، ويُعَارض فيما شاء . والأمير أيضًا : يَسْأَلُ عن مواضع فيها ، وقد عَلِم النَّاس ما كان فى نفوس طائفة من الحاضرين ، من الخِلاف والهَوَىٰ ، ما قد علم الناس بعضه ، وبعضه بِسَبب الإعتقاد ، وبعضه بغير ذلك .

ولا يمكن ذكر مَا جَرَىٰ من الكلام ، والمُنَاظَرات : فى هذه المجالس ، فإنه كثير لا يَنْضَبط ؛ لكن أَكْتُب مُلَخَّص مَا حَضَرَنى من ذلك ، مع بُعْد العهد بذلك ، ومع أَنَّه كان يجرى رَفْعُ أَصْوَاتٍ وَلَغَط لا يَنْضَبط .

فكان مِمَّا اعْترض علَّى بعضهم - لما ذكر فى أَوَّلها « وَمِن الإِيمَانُ باللهِ : الإِيمَانُ بِمَا وَصَفَ به نَفْسُه ، وَوَصَفه بِه رَسُولُه ، مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيل ، وَلَا تَكْيِيفٍ وَلَا تمْثِيل » .

فقال : - مَا المُراد بالتَّحريف والتَّعطيل ؟ ومَقْصُوده أَنَّ هذا يَنْفِى التَّأويل ، الذى أَثْبَتَه أَهل التَّأْويل ، الذى هو صَرْفُ اللَّفظ عن ظاهره ؛ إمَّا وُجُوبًا ، وإمَّا جَوَازًا .

فقلت : تَحْرِيفُ الكَلم عن مَوَاضِعه كما ذمَّه الله تَعَالَىٰ فى كتابه ، وهو إزَالة اللَّفظ عَمَّا دَلَّ عليه من المَعْنَىٰ ، مثل تَأْويل بعض الجَهْمية لقوله تعالى : ﴿ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء : ١٦٤] أى جَرَّحَهُ بأَظَافِير الحِكْمة تجريحًا ، ومثل تأويلات القَرامطة ، والبَاطِنية وغيرهم : من الجهمية ، والرَّافضة ، والقَدَرية ، وغيرهم . فَسكت وفى نفسه ما فيها .

وذَكَرْتُ فى غير هذا المجلس : أَنِّي عَدَلْتُ عن لَفْظِ التَّأْويل إلى لفظ التَّحْريف ؛ لأَنَّ التَّحريف اسم جاء القرآن بِذَمِّه ، وأَنَا تَحَرَّيت فى هذه العقيدة اتِّباع الكتاب والسُّنة ، فَنَفَيْتُ مَا ذَمَّه الله من التَّحريف ، ولم أذكر فيها لفظ التَّأْويل بِنَفْيٍ ولا إِثْبات ؛ لأَنَّه لَفْظٌ له عِدَّةُ مَعَان ، كما بَيَّنْتُه فى موضعه من القَوَاعد .

فإِنَّ معنى لفظ « التَّأْويل » فى كِتَاب الله: غير معنى لَفْظ التَّأْويل فى اصْطِلاح المُتَأَخِّرين ؛ من أهل الأُصول والفِقه ، وغير معنى لفظ التَّأْويل ، فى اصطلاح كثير من أهل التَّفْسير والسَّلف ؛ لأَن من المعانى التى قد تُسَمَّىٰ

تأويلاً ما هو صَحِيحٌ ، مَنْقُول عن بعض السَّلَف ؛ فلم أَنْف مَا تَقُومُ الحُجَّة على صِحَّته ؛ فإذا مَا قَامَت الحُجَّة على صِحَّتِه وهو مَنْقُول عن السَّلف : فليس من التَّحريف .

وقلت له أيضًا : ذكرت فى النَّفي التَّمْثِيل ، ولم أَذْكُر التَّشْبِيه ؛ لأَنَّ التَّمثيل نَفَاهُ الله بِنَصٍّ كِتَابِهِ حيث قال : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : ١١] وقال : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم : ٦٥] وَكان أَحبّ إِلَيّ من لفظ ليس فى كتاب الله ، ولا فى سُنَّة رسوله ﷺ وإِنْ كَانَ قَدْ يُعْنَىٰ بنفيه مَعْنًى صَحِيح ، كما قد يُعْنَىٰ به مَعْنًى فَاسِد .

● ولما ذَكَرْتُ أَنَّهم لا يَنْفُون عنه مَا وَصَفَ به نفسه ، ولا يُحَرِّفون الكَلِمَ عن مَوَاضعه ، ولا يُلْحِدُون فى أسماء الله وآياته : جَعَل بَعْضُ الحاضرين يَتَمَعَّض من ذلك ؛ لاسْتِشْعَارِه ما فى ذلك من الرَّد الظَّاهر عليه ؛ ولكن لم يَتَوَجَّه له مَا يَقُوله ؛ وَأَرَادَ أن يَدُور بالأسئلة التى أَعْلَمُها : فلم يَتَمَكَّن لِعِلْمِه بالجواب .

● ولما ذكرت آية الكُرْسي : أَظُنّه سأل الأمير عن قولنا : لا يَقْرَبهُ شَيْطَان حَتّى يُصْبِح . فذكرت حديث أبى هريرة فى الَّذى كان يَسْرِق صَدَقة الفِطْر ، وَذَكَرْت أَنَّ البُخَارِي رَوَاه فى صحيحه[1] ، وأَخَذُوا يذكرون نفى التَّشبيه والتَّجسيم ، ويطنبون فى هذا ، ويُعَرِّضون لما ينسبه بعض النَّاس إلينا من ذلك .

فقلت : قَوْلى من غير تَكْيِيف ولا تَمْثِيل : يَنْفِى كُلّ بَاطِل وإِنَّما اخترت هذين الإِسْمين ؛ لأَن التَّكْيِيف مَأْثُورٌ نَفْيه عن السَّلف كما قال ربيعة ؛

---

(١) البخارى (٢٣١١) .

ومالك ، وابن عيينة وغيرهم – المقالة التى تلقاها العلماء بالقبول – الإسْتِوَاء مَعْلُوم ، والكَيْفُ مَجْهُول والإيمَانُ بِهِ وَاجِب ، والسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعة »[1] .

فاتَّفق هؤلاء السَّلف : على أنَّ التَّكْيِيف غير مَعْلُوم لنا ، فنفيت ذلك اتِّباعًا لسلف الأمة .

وهو أيضًا مَنْفِيٌّ بالنَّص ، فإنَّ تأويل آيات الصِّفات يدخل فيها حقيقة المَوْصُوف ، وحَقِيقة صِفَاته . وهذا من التَّأْويل الذى لا يَعْلَمُه إلَّا الله ، كما قد قَرَّرْتُ ذلك فى قاعدة مُفْرَدة ، ذكرتها فى التَّأْويل والمعنى ، والفرق بين علمنا بمعنى الكَلام وبين عِلمنا بتَأْويله .

وكذلك التَّمثيل : مَنْفِيٌّ بالنَّص ، والإجماع القديم ، مع دِلالة العَقْل على نَفْيه ، ونَفْىُ التَّكْييف ؛ إذ كُنْه البَارى غَير مَعْلوم للبَشَر ؛ وذكرت فى ضمن ذلك كلام الخَطَّابى الذى نقل أَنَّه مَذْهب السَّلف ، وهو إجْرَاء آيات الصِّفات ، وأَحَاديث الصِّفات على ظَاهرها ، مع نَفْي الكَيْفِيَّة والتَّشْبيه عنها ؛ إذ الكلام فى الصِّفات فَرْعٌ على الكلام فى الذَّات ؛ يحتذى فيه حُذوه ، ويتبع فيه مثاله ، فإذا كان إثبات الذَّات : إثبات وجود لا إثْبات تَكْييف ، فكذلك إثبات الصِّفات : إثْبات وُجُود لا إثْبَات تَكْيِيف .

فقال أحد كبار المُخَالفين : فحينئذ يَجُوز أَن يُقال : هو جِسْمٌ لا كالأَجْسام ، فقلت له أَنَا وبعض الفُضلاء الحاضرين : إنَّما قيل إنَّه يُوصف الله بما وَصَفَ به نَفْسُه ، وَبِما وصَفَه به رَسُوله ﷺ ، وليس فى الكتاب والسُّنة أَنَّ الله جِسْمٌ ، حتى يلزم هذا السُّؤال .

---

(١) الأثر تقدم تخريجه

وأخذ بعض القُضَاة الحَاضِرين ، والمعروفين بالدِّيانة : يُريد إظهار أَن يَنْفى عنا ما يقول ويَنْسِبُه البعض إلينا ، فجعل يَزِيد فى المبالغة فى نفى التَّشبيه ، والتَّجسيم ، فقلت : ذكرت فيها فى غير مَوْضع من غير تَحْريف ولا تَعْطِيل ، ومن غير تَكْيِيف ولا تَمْثيل ، وقلت فى صدرها : « وَمِن الإيمان بالله الإيمان بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفسُه فِى كِتَابه ، وَبِما وَصَفَهُ بِهِ رَسُوله محمد ﷺ مِنْ غَيْر تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ ، وَمِن غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيل » .

● ثمَّ قلت : « وَمَا وَصَفَ الرَّسول به ربَّه من الأَحاديث الصِّحاح ، التى تَلَقَّاها أَهْلُ المَعْرِفة بالقَبُول ، وَجَبَ الإيمان بها كذلك » ، إلى أَنْ قُلْت : « إلى أَمْثَال هَذِه الأَحَادِيث الصِّحاح ، التى يُخْبِرُ فيها رَسُول الله ﷺ ، بِمَا يُخْبِرُ به ، فإِنَّ الفِرْقة النَّاجية ، أهل السُّنَّة والجَمَاعة : يُؤْمِنُون بذلك ، كما يُؤمِنُون بِما أَخْبَرَ الله فى كِتَابه ، مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيل ، وَمِن غَيْر تَكْيِيف وَلَا تَمْثيل ، بَلْ هُم وَسَطٌ فى فِرَقِ الأُمَّة ، كما أَنَّ الأُمَّة هى الوَسَطُ فى الأُمَم فهم وَسَطٌ فى باب صِفَات الله بين أَهْل التَّعْطِيل الجَهْمِيَّة ، وبين أَهْل التَّمْثِيل المُشَبِّهة » .

ولما رأى هذا الحاكم العدل : مُمَالاتهم ، وتَعَصُّبهم ، وَرَأَى قِلَّة العارف النَّاصر ، وخافهم قال : أَنْتَ صَنَّفت اعتقاد الإمام أَحْمد ، فتقول هذا اعتقاد أَحمد ، يَعْنى والرَّجل يُصنّف على مذهبه فلا يعترض عليه ، فإِنَّ هذا مذهب مَتْبُوع ، وغرضه بذلك قطع مُخَاصمة الخُصوم .

● فقلت : مَا جَمَعْتُ إِلَّا عَقِيدة السَّلف الصَّالح جَمِيعهم ، ليس للإمام أَحمد اخْتِصَاصٌ بهذا ، والإمام أحمد إِنَّما هو مُبَلِّغ العلم الذى جاء به النبى ﷺ ، ولو قال أحمد من تِلْقَاء نَفْسه ما لم يَجِىء بِهِ الرَّسول لم نَقْبَلُه ، وهذه عَقِيدةُ محمد ﷺ !!

● وقلت مَرّات : قد أَمْهَلْتُ كل مِن خَالفَنى فى شَىْءٍ مِنها ثَلاث سِنِين ، فإن جَاءَ بِحَرْفٍ وَاحِدٍ عن أحد من القُرون الثَّلاثة – التى أثنى عليها النبى ﷺ ، حَيْثُ قال : « خَيْرُ القُرُون القَرْن الَّذى بُعِثْتُ فيه ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونهم »(١) – يخُالِفُ ما ذَكَرْتُه فأَنَا أَرْجِعُ عن ذلك ، وعلَّى أن آتى بِنُقُول جميع الطَّوائف – عن القُرون الثَّلاثة ، تُوَافِق ما ذكرته – من الحَنفية ؛ والمالكية ؛ والشَّافعية ؛ والحنبلية ؛ والأَشْعَرية ؛ وأهل الحديث ؛ والصُّوفية ؛ وغيرهم .

وقلت أيضًا : فى غير هذا المجلس : الإمام أَحمد – رحمه الله – لما انتهى إليه من السُّنَّة ، ونُصُوص رسول الله ﷺ ، أكثر مِمَّا انتهىٰ إلى غيره ، وابْتُلِى بالمحنة ، والرَّد على أهل البدع ، أكثر من غيره : كَان كَلَامُه وعلمُه فى هذا الباب أكثر من غيره ، فصار إمامًا فى السُّنَّة أظهر من غيره ، وإلَّا فالأمر كما قاله بعض شيوخ المغاربة – العلماء الصُّلحاء – قال : المَذْهَب لِمالك والشَّافعي ، والظُّهور لِأَحْمد بن حنبل . يعنى أن الذى كان عليه أحمد عليه جميع أَئمة الإسلام ، وإنْ كان لبعضهم من زِيادة العلم والبيان ، وإظْهَار الحق ودَفْع البَاطِل مَا لَيْس لبعض .

● ولما جاء فيها : « وما وصف به النبى ﷺ ربه فى الأحاديث الصِّحاح : التى تَلَقَّاها أهل العلم بالقَبُول . ولما جاء حديث أبى سعيد – المُتَّفق عليه فى الصَّحيحين عن النبى ﷺ ، يقول الله يوم القيامة : « يَا آدم فيقول : لَبيك وَسَعْدَيْك . فَيُنَادِي بِصَوْتٍ : إنَّ الله يَأْمُرك أَنْ تَبْعَث بَعْثًا إلى النَّار » الحديث – سَأَلهُم الأَمِير هل هذا الحديث صَحِيحٌ ؟ فقلت : نعم . هو فى الصَّحيحين(٢) ، ولم يُخَالف فى ذلك أَحد ، واحتاج المُنَازِع إلى

(١) تقدم تخريجه ص (٦٩٠) بلفظ « خير الناس قرني ... » .

(٢) تقدم تخريجه ص (٤٥٥) من حديث عدى بن حاتم .

الإقرار به ، وَوَافق الجماعة على ذلك .

● وطلب الأمير الكلام فى مَسْأَلة الحرف والصَّوت ؛ لأَن ذلك طُلِب منه .

فقلت : هذا الذى يَحْكيه كثير من النَّاس ، عن الإِمام أحمد وأَصْحابه ، أن صَوْت القَارِئين ، ومِدَادُ المصاحف قَدِيم أَزَلِّي - كما نقله مجد الدِّين ابن الخطيب وغيره - كَذِبٌ مُفْتَرىٰ ، لم يقل ذلك أُحمد ، ولا أحد من عُلَماء المُسْلمين ؛ لا من أَصحاب أَحمد ولا غيرهم .

وأَخْرَجْتُ كَرّاسًا قد أَحْضَرته مع العَقِيدة ، فيه أَلْفَاظ أَحمد ، مماذكره الشَّيخ أبوبكر الخَلَّال، فى كتاب السُّنَّة عن الإمام أحمد ، وما جَمَعَه صاحبه أبو بكر المَرْوذي من كلام الإمام أَحمد ، وكلام أئمة زَمَانِهِ وسائر أصحابه : « أَنَّ مَنْ قَالَ لَفْظِي بِالقُرْآن مَخْلُوق : فَهُو جَهْمِي . ومَنْ قَال غَيْرُ مَخْلُوق : فَهُو مُبْتَدِع »(١).

قلت : وهذا هو الذى نَقَلَه الأَشْعرى ، فى كتاب المَقَالات ، عن أهل السُّنَّة ، وأَصْحَاب الحَدِيث . وقال : إِنَّه يَقُول به .

قُلْتُ : فكيف بمن يقول : لَفْظِى قَدِيم ؟ فَكَيف بِمَن يَقُول : صَوْتِى غير مَخْلُوق ؟ فكيف بمن يقول : صَوْتِى قَدِيم ؟

ونُصُوص الإمام أحمد فى الفرق بين تَكَلُّم الله بِصَوْتٍ ، وبين صَوْت العبد - كما نقله البخارى صَاحِب الصَّحيح فى كتاب خَلْق أَفعال العِباد(٢) وغيره من أَئِمة السُّنَّة .

---

(١) راجع ص (٣٧٩) من هذا الكتاب .

(٢) راجع : خلق أفعال العباد ص (٦٠ : ٦٢) .

وأَحْضَرت جواب مَسْأَلة كنت سُئِلت عنها قديمًا ؛ فيمن حَلَف بالطَّلاق ، فى مسألة « الحَرْف والصَّوت » ومسألة « الظَّاهر فى العَرْش » فذكرت من الجَوَاب القديم فى هذه المسألة ، وتَفْصِيل القوْل فيها ، وأن إطْلاَق القَول أن القرآن هو الحَرْف والصَّوت ، أو ليس بحرف ولا صَوْت : كِلاهما بِدْعة ، حَدَثَت بعد المائة الثَّالثة . وقُلْتُ : هذا جَوَابى !

وكانت هذه المسألة : قد أُرْسَل بها طائفة من المُعَاندين المُتَجَهِّمة ، ممن كان بعضهم حَاضِرًا فى المجلس ، فلما وَصَل إليهم الجواب أَسْكَتَهم ، وكانوا قد ظَنُّوا أَنِّى إن أَجَبْتُ بِما فى ظَنِّهم أن أهل السُّنة تَقُوله : حَصَلَ مَقْصُودهم من الشَّنَاعة ، وإِن أَجَبْتُ بما يقولونه هم : حَصَل مَقْصُودهم من المُوَافقة ؛ فلما أُجِيبوا بالفرقان الذى عليه أهل السُّنة ، وليس هو مَا يَقُولونه هم ، ولا مَايَنْقِلُونه عن أَهْل السُّنة ؛ إِذْ قَدْ يَقُوله بعض الجُهَّال بهِتُوا لذلك ؛ وفيه : أَنَّ القرآن كُلّه كلام الله حُرُوفه وَمعَانِيه ، ليس القرآن اسْمًا لمجرد الحُروف ، ولا لمجرد المَعَانِى .

وقلت فى ضمن الكلام لِصَدْر الدِّين ابن الوكيل – لبيان كثرة تناقضه ، وأنه لا يَسْتَقِرُّ على مَقَالةٍ وَاحدة ، وإنما يسعى فى الفِتَن والتَّفريق بين المسلمين – عندى عقيدة للشيخ أَبِى البَيَان . فيها : « أَنَّ مَنْ قال : إِنَّ حَرْفًا مِن القُرْآن مَخْلُوق فَقَد كَفَر » .

وقد كَتَبت عليها بِخَطِّك ، أَنَّ هذا مذهب الشَّافعي ، وأَئِمة أَصْحابه ، وأَنَّك تَدِين الله بها فاعترف بذلك ، فأَنْكَر عليه الشَّيخ كمال الدِّين بن الزَّملكانى ذلك .

فقال ابن الوكيل : هذا نَصُّ الشَّافعى . وراجعه فى ذلك مِرَارًا ، فلما اجتمعنا فى المجلس الثَّانى : ذكر لابن الوكيل أَنَّ ابن درباس نقل فى كتاب

الانتصار عن الشَّافعى مثل ما نَقَلت ، فلما كان فى المجلس الثَّالث : أعاد ابن الوكيل الكلام فى ذلك .

فقال الشَّيخ كمال الدين لِصَدْر الدِّين ابن الوكيل : قد قُلْت فى ذلك المجلس للشَّيخ تقى الدِّين : « أَنَّه من قال إِنَّ حَرْفًا مِن القرآن مَخْلوق فهُو كَافِر » ؛ فأعاده مرارًا فغضب هنا الشَّيخ كمال الدِّين غَضَبًا شديدًا ، وَرَفَع صوته . وقال : هذا يُكَفِّر أَصْحابنا المُتَكَلِّمين الأَشْعَرِية ، الذين يقولون : إِنَّ حُرُوف القرآن مخلوقة مثل إمام الحَرَمين وغيره ، وَمَا نَصْبِرُ على تَكْفِير أصحابنا .

فَأَنْكَر ابن الوَكيل أنه قال ذلك . وقال : مَا قُلت ذلك ؛ وإِنَّما قلت أن من أَنْكَر حَرْفًا من القرآن فَقَد كَفَر . فردَّ ذلك عليه الحاضرون وقالوا : ما قلت إلا كذا وكذا ، وقالوا : مَا يَنْبَغِى لك أن تقول قَوْلا وتَرْجع عنه . وقال بعضهم : مَا قَال هَذا . فلما حرَّفوا : قال ما سَمِعْنَاهُ قال هذا ؛ حتى قال نائب السُّلطان : واحد يكذب ، وآخر يَشْهد ، والشَّيخ كمال الدِّين مغضب ! فالتَفَتَ إلى قاض القضاة ، نجم الدِّين الشَّافعي ، يَسْتَصْرِخُه للإنتصار على ابن الوكيل ، حيث كفر أصحابه . فقال القاضي نجم الدين : مَا سَمِعت هذا . فغضب الشَّيخ كمال الدين ، وقال كلامًا لم أَضْبط لَفْظَهُ ، إِلَّا أَنَّ معناه : أن هذا غَضَاضَة على الشَّافعي ، وعَار عليهم أن أئمتهم يُكَفَّرُون ، ولا يُنْتَصَرُ لهم .

ولم أسمع من الشَّيخ كمال الدِّين ما قال فى حق القاضى نجم الدِّين ، واستثبت غيرى ممن حضر هل سَمِعَ منه فى حقِّه شيئًا ؟ فقالوا : لا . لكن القاضى اعتقد أَنَّ التَّعيير لأجله ، ولكونه قاضي المَذْهَب ، ولم ينتصر لأصحابه ، وأن الشيخ كمال الدين قَصَدَهُ بذلك . فغضب قاضى القضاة نجم الدِّين . وقال اشهدوا على أَنِّي عَزَلْت نَفْسِى ، وأخذ يذكر مَا يَسْتَحِقُّ به

التَّقديم ، والإستحقاق ، وعفته عن التَّكلُّم فى أعراض الجماعة ، ويَسْتَشْهد بنائب السُّلطان فى ذلك . وقلت له كلامًا مَضْمُونه تعظيمه ، واسْتِحقَاقه ؛ لدوام المباشرة فى هذه الحال .

● ولما جاءت مَسْأَلة القرآن : « وَمِن الإِيمَانُ بِهِ الإِيمَانُ بأَنَّ القُرآن كَلَامُ آللهِ . غَيْرُ مَخْلُوق ، مِنْهُ بَدَأَ وَإليه يَعُود » : نَازَع بعضهم فى كَوْنه منه بَدَأَ وإليه يَعُود ، وطلبوا تَفْسِير ذلك .

فقلت : أَمَّا هذا القول : فهو المأثور ، الثَّابت عن السَّلف ، مثل ما نقله عَمرو بن دينار ، قال : « أَدْركت النَّاس مُنْذُ سَبْعِين سَنَة ، يَقُولون : الله الخالق ، وما سِوَاهُ مَخْلُوق ؛ إِلَّا القرآن فإِنَّه كلام الله غير مَخْلُوق ، مِنْهُ بَدَأَ وإليه يَعُود » .

وقد جمع غير واحد ما فى ذلك من الآثار عن النَّبى ﷺ والصَّحابة والتابعين ، كالحافظ أَبِى الفَضْل بن ناصر ، والحافظ أبى عبدالله المَقْدِسى[1] ، وأَمَّا معناه : فإن قولهم : « مِنْهُ بَدَأَ » . أى هو المُتَكَلِّم به ، وهو الذى أَنْزله من لَدُنه ، ليس هو كما تَقُول الجهمية : أَنَّه خلق فى الهوى أو غيره ، أو بدأ من عند غيره .

وأَمَّا « إِلَيْهِ يَعُود » : فإِنَّه يُسْرىٰ به فى آخر الزَّمان ، من المَصَاحِف والصُّدور ، فلا يَبْقَىٰ فى الصُّدور منه كلمة ، ولا فى المَصَاحِف مِنْه حَرْفٌ ، وَوَافَق على ذلك غالب الحاضرين ، وسَكَتَ المُنَازِعون .

وخاطبت بعضهم فى غير هذا المجلس ، بأن أَرَيْته العَقِيدة التى جمعها الإمام القَادِري ، التى فيها أَنَّ القرآن كَلَامُ الله ، خَرَجَ مِنه ، فتوقَّف فى هذا

---

(١) راجع فى ذلك ما ألفه ابن قدامة المقدسي مثل : « البرهان فى القرآن » وكذا لمعة الاعتقاد وشرحها لابن عثيمين بتحقيقنا ص (٧٠ : ٨٥) .

اللفظ . فقلت : هكذا قال النبى ﷺ : « مَا تَقَرَّب العِبَادُ إلى آللهِ بِمِثْلِ مَا خَرَجَ مِنْهُ » يَعْنِى القُرْآن »(١) ، وقال خَبّاب بن الأرت : « يا هَنتاه ! تَقَرَّب إلى الله بِمَا اسْتَطَعْت ، فَلَن يُتَقَرَّب إليه بِشَىءٍ أَحَبّ إليه مِمّا خَرَجَ مِنْهُ » .

وقال أبو بكر الصديق – لما قرأ قرآن مُسَيْلَمة الكَذَّاب – إنَّ هذا الكلام لم يَخْرج من إل – يعنى ربّ – .

● وجاء فيها : « وَمِنَ الإيمَانُ بِهِ : الإِيمَانُ بِأَنَّ القُرْآن كَلَامُ آللهِ ، مُنَزَّل غير مَخْلُوق ، مِنْهُ بَدَأَ وإِلَيْه يَعُود ، وأَنَّ الله تَكَلَّم به حقيقة ، وأن هذا القرآن – الذى أَنْزَلَهُ الله على محمد ﷺ – هو كَلَامُ آللهِ حَقِيقة ، لا كلام غيره ، ولا يَجُوز إِطْلَاق القَوْل بأَنَّه حِكَاية عن كلام الله ، أو عِبارة ؛ بل إذا قَرَأَهُ النَّاس ، أو كَتَبُوه فى المَصَاحِف : لم يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله ؛ فإِنَّ الكلام إِنَّما يُضَافُ حقيقة إلى مَنْ قَالَهُ مبتدأ ، لا إلى من قَاله مُبَلِّغًا مُؤَدِّيًا ، فتمَعَّضَ بعضهم من إِثْبَات كونه كلام الله حَقِيقة ، بعد تَسْلِيمه أَنَّ الله تعالى تَكَلَّم به حقيقة .

ثم إِنَّه سلم ذلك لما بين له أَنَّ المجاز يصح نفيه ، وهذا لا يَصِحُّ نفيه ، ولما بيّن له أَنَّ أقوال المتقدمين المَأْثُورة عنهم ، وشِعْرُ الشُّعراء المُضَاف إليهم : هو كَلَامُهم حَقِيقة ، فلا يكون نِسْبَة القرآن إلى الله بأَقَلّ من ذلك .

فوافق الجماعة كلهم على مَا ذُكِر فى مسألة القرآن ، وأَنَّ الله تَكَلَّم حقيقة ، وأن القرآن كلام الله حَقِيقة لا كلام غيره .

● ولما ذُكِر فيها : « أَنَّ الكلام إِنَّما يُضَافُ حَقِيقَةً إلى مَنْ قَالَهُ مُبْتَدِئًا ،

---

(١) رواه الترمذى (٢٩١٢) بسند منقطع ووصله الحاكم (١/٥٥٥) والبيهقي فى الأسماء والصفات (٢٣٦) من حديث أبى ذر . وقوّاه الألبانى بشواهده فى الصحيحه (٩٦١) .

لا إلى مَنْ قَالَهُ مُبَلِّغًا مُؤَدِّيًا » : استَحسنوا هذا الكلام وعَظَّمُوه ، وأخذ أكبر الخصوم يُظْهر تَعْظِيم هذا الكلام ، كابن الوكيل وغيره ، وأظهر الفَرَح بهذا التَّلْخيص ، وقال : إنَّك قد أَزَلْتَ عنَّا هذه الشُّبهة ، وشَفِيت الصُّدور ، ويذكر أشياء من هذا النَّمط .

● ولما جاء مَا ذُكِر من الإيمان باليَوْم الآخِر ، وتَفْصِيله ونَظْمُه : اسْتَحْسَنُوا ذَلِك وعَظَّمُوه .

● وكذلك لما جاء ذِكْرُ الإيمان بالقَدَر وَأَنَّه على درجتين ، إلى غير ذلك مما فيها من القواعد الجليلة .

● وكذا لما جاء ذِكْرُ الكلام فى الفَاسِق المِلِّى ، وفى الإيمان ؛ لكن اعترضه على ذلك بما سأذكره .

وكان مجموع ما اعترض به المُنَازِعُون ، المُعَاندون بعد انقضاء قراءة جميعها ، والبحث فيها عن أَرْبعة أسئلة :-

الأَوَّل : قولنا ومن أُصول الفِرْقة النَّاجية : أَنَّ الإيمان والدِّين قول وعمل ، يَزِيد وينقص ، قَوْلُ القَلْب واللِّسان ، وعَمَلُ القلب واللِّسان والجوارح .

قالوا : فإذا قيل إنَّ هذا من أُصُول الفِرْقة النَّاجية ، خرج عن الفرقة الناجية من لم يَقُل بذلك : مثل أَصْحابنا المُتَكَلِّمين ، الذين يَقُولون إنَّ الإيمان هو التَّصديق ، ومن يقول الإيمان هو التَّصديق والإقرار ، وإذا لم يكونوا من النَّاجين : لَزِمَ أن يكونوا هَالِكين .

● **وأَمَّا الأسئلة الثلاثة** : وهى التى كانت عمدتهم فأوردوها على قولنا : « وقد دَخَل فيما ذَكَرْنَاهُ من الإيمان بالله : الإيمَانُ بما أَخْبَرَ الله فى كِتابه ،

وتواتر عَن رَسُول الله ﷺ ، وَأَجْمَع عَلَيْه سَلَف الأُمَّة ؛ من أَنَّه سبحانه فَوْق سَمَواته عَلَى عَرْشِهِ ، عَلِيٌّ عَلَى خَلْقِه ، وهو مَعَهُم أَيْنما كَانُوا يعلم ما هم عَامِلُون ، كما جمع بين ذلك فى قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَٱلأَرْض فِي ستَّة أَيَّام ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى العَرْش يَعْلَمُ مَا يلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِن السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيها وَهُو مَعَكُم أَيْنَما كُنْتُم وَٱللَّه بِمَا تَعْمَلُون بَصِير ﴾ [الحديد : ٤] وليس معنى قوله : ﴿ وَهُو مَعَكُم ﴾ : أَنه مُخْتَلِطٌ بالخلق ، فإن هذا لا تُوجبه اللغة ، وهو خِلَاف مَا أَجْمَع عليه سَلَفُ الأُمَّة ، وخلَاف مَا فطَر الله عَليه الخَلْق ، بل القَمَر آية من آيات الله من أَصْغَر مَخْلُوقاته ، وهو مَوْضُوعٌ فى السَّماء ، وهو مَعَ المُسَافِر أَينما كان ، وغير المُسَافر ؛ وَهُو سُبْحَانه فوق العَرْش ، رَقِيبٌ على خَلْقِهِ ، مُهَيْمِنٌ عَلَيهم ، مُطَّلع إليهم ، إلى غَيْر ذَلكَ مِن مَعَانِى رُبُوبيَّته . وكل هذا الكَلَام الذى ذَكَرَهُ الله تَعَالَىٰ من أَنَّه فوق العَرْش ، وأَنَّه معنا حَقٌّ على حَقِيقته ، لا يَحْتَاجُ إِلى تَحْرِيف ؛ ولكن يُصَانُ على الظُّنون الكَاذِبة » .

● السُّؤال الثَّانى : قال بعضهم : نُقرُّ باللَّفظ الوَارد ، مثل حديث العباس ، حَدِيث الأَوْعال : « ... وَٱللَّه فَوْق العَرْش » ؛ ولا نَقُول فوق السَّمٰوات ، ولا نقول عَلَى العَرْش . وقالوا أيضًا : نقول : ﴿ الرَّحْمَٰنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾ [طه : ٥] ولا نقول الله عَلَى العَرْش اسْتَوَىٰ ، ولا نقول مُسْتَو ؟ وأَعَادُوا هذا المعنى مرارا ؛ أى أن اللَّفظ الذى وَرَدَ ، يقال اللَّفظ بِعَيْنه، ولايُبَدَّل بِلَفْظٍ يُرَادِفُه ، ولا يُفْهم له معنى أَصْلا . ولا يقال : إِنَّه يَدُلُّ على صِفَة لله أَصْلا ؛ ونبسط الكلام فى هذا فى المجلس الثَّانى كما سنذكره إِنْ شاء الله تعالىٰ .

● السُّؤال الثَّالث : قالوا : التَّشْبِيهُ بالقمر فيه تَشْبِيه كَوْن الله فى السَّماء ، بكون القَمَر فى السَّماء ؟!

● السُّؤال الرابع : قالوا : قَوْلَك « حَقٌّ عَلَى حَقِيقته » ، الحقيقة هى المعنى الُّلغوى ، ولا يُفْهَم من الحَقِيقة الُّلغوية إِلَّا اسْتِواء الأَجْسَام وفَوْقِيَّتها ؛ ولم تَضَع العرب ذلك إِلَّا لَهَا ؛ فإِثْبَاتُ الحَقِيقة هو مَحْضُ التَّجْسِيم ، ونَفْى التَّجسيم مع هذا تَنَاقض أو مُصَانَعة ؟!

فَأَجبتهم عن الأسئلة ، بأَنَّ . قولى « اعْتِقَادُ الفِرْقة النَّاجية هى الفرقة التى وَصَفَها النَّبى ﷺ بالنَّجاة ، حيث قال : « تَفْتَرِقُ أُمَّتِى عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِين فِرْقَة ، اثْنَتَانِ وَسَبْعُونَ فِى النَّار وَوَاحِدة فِى الجَنَّة ، وَهِى مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْه اليَوْمَ وَأَصْحَابِى » [(1)].

فهذا الإعتقاد : هو المَأْثُور عن النَّبى ﷺ ، وَأَصْحَابُه رضى الله عنهم ، وهُم ومَنْ اتَّبعهم الفِرْقَةُ النَّاجية ، فإِنَّه قد ثَبُتَ عن غير واحد من الصَّحابة أَنَّه قال : « الإِيمَانُ يَزِيدُ وَيَنْقُص » ، وكل مَا ذَكَرْتُه فى ذلك فإِنَّه مَأْثُورٌ عن الصَّحابة بالأَسَانِيد الثَّابتة لَفْظهُ ومَعْنَاهُ ، وإِذا خَالَفَهُم مَنْ بَعْدَهم لم يَضُرَّ فى ذلك .

ثمَّ قلت لهم : وليس كُلُّ مَنْ خَالَف فِى شَىءٍ مِن هذا الإعتقاد يجب أَنْ يكون هَالِكًا ، فإِنَّ المُنَازِع قَدْ يَكُون مُجتهدًا مُخْطِئًا يَغْفِرُ الله خَطَأَهُ ، وقد لا يَكُون بَلَغَهُ فى ذلك من العِلْم مَا تَقُوم به عليه الحُجَّة ، وقد يكون له من الحَسَنَات مَا يَمْحُو الله به سَيِّئاته ؛ وإِذا كانت أَلْفَاظُ الوَعِيد المُتَنَاوِلة له لا يجب أَنْ يَدْخُل فيها المُتَأَوِّل ، والقَانِت ، وذُو الحَسَنَات الماحية ، والمَغْفُور له وغير ذلك : فهذا أَوْلَى ؛ بل مُوجِب هذا الكلام أَنَّ من اعتقد ذلك نَجَا

(١) تقدم تخريجه ص (٧٤٨ ، ٧٤٩) من هذا الكتاب .

فى هذا الاعتقاد ، ومن اعْتَقَد ضِدَّه فقد يكون نَاجِيًا ، وقد لا يكون نَاجِيًا ، كما يقال « مَنْ صَمَتَ نَجَا » .

وأَمَّا السُّؤَالُ الثَّانى : فَأَجَبْتُهم أَوّلاً بأَنَّ كُلّ لَفْظٍ قُلْتَهُ فهو مأثور عن النبى ﷺ ، مثل « لَفْظ فَوْقَ السَّمٰوات » ، وَلَفْظ « عَلَى العَرْش وَفوْقَ العرش »[1] ، وقلت : اكْتُبوا الجواب ، فأخذ الكَاتِب فى كِتَابَته ؛ ثم قال بعض الجماعة : قد طال المجلس اليوم ، فيُؤَخّر هذا إلى مجلس آخر ، وتَكْتُبون أَنْتم الجواب ، وتُحْضِرُونَهُ فى ذلك المجلس .

فَأَشَار بعض المُوَافِقين بأن يُتَمِّم الكلام بكتابة الجواب ؛ لِئَلّا تَنْتَشِر أَسْئِلَتهم واعْتِراضهم وكان الخُصُوم لهم غرض فى تأخير كِتَابة الجواب ؛ ليستعدوا لِأَنْفُسِهم ، ويُطَالِعوا ، ويُحْضِرُوا مَنْ غَابَ مِن أَصْحَابِهم ، وَيَتَأَمَّلوا العقيدة فيما بَيْنهم ؛ لِيَتَمَكَّنوا من الطَّعن والإعتراض ؛ فحصل الإتِّفاق على أن يكون تمام الكَلام يوم الجمعة ، وقُمنا على ذلك .

وقد أَظْهر الله من قيام الحجة ، وَبيَان المَحَجَّة : مَا أَعَزَّ الله به السُّنَّة والجماعة ، وأَرْغَم به أَهْلُ البِدْعَة والضَّلالة ، وَفِي نُفُوس كثير من النَّاس أُمور لما يحدث فى المجلس الثَّانى ، وأخذوا فى تلك الأَيام يَتَأَمَّلونها ، وَيَتَأَمَّلُون مَا أَجَبْتُ بِهِ فِى مَسَائل تَتَعَلّق بالإعْتقاد ، « مِثْل المَسْأَلة » الحَمَوية فى الإسْتِواء ، والصِّفات الخَبَرية وغَيْرها .

---

(١) راجع ص (٣٤٩) من هذا الكتاب .

فصـــــل

فلما كان المَجْلِسُ الثَّانى يوم الجمعة فى اثنى عشر رَجَب ، وقد أحضروا أَكْثَر شُيُوخهم مِمَّن لم يكن حَاضِرًا ذلك المجلس ، وأَحْضَرُوا معهم زيادة « صفى الدِّين الهِنْدي » وقالوا : هذا أَفْضَل الجماعة وشَيْخَهم فى علم الكلام ، وبَحَثُوا فيما بينهم ، وَاتَّفَقُوا وَتَواطَئُوا ، وحَضَرُوا بِقُوَّة واسْتِعْدَاد غير ما كانوا عليه ؛ لأن المجلس الأَوَّل أَتَاهُم بَغْتَة ، وإن كان أيضًا بَغْتَة للمُخَاطِب ، الَّذى هو المَسْؤُول والمُجيب والمُنَاظر .

فلما اجتمعنا : وقد أَحْضَرْتُ مَا كَتَبْتُه من الجواب عن أَسْئِلَتِهم المُتَقَدِّمة ، الذى طَلَبوا تَأْخيره إلى اليوم : حَمِدْتُ الله بِخُطْبَةِ الحَاجَة؛ خُطْبة ابن مسعود رضى الله عنه [1] ، ثمَّ قلت : إنَّ الله تَعَالَىٰ أَمَرَنَا بِالجَماعة والإِئْتِلاف ، ونَهَانا عن الفِرْقَة والإِخْتِلاف .

وقال لنا فى القرآن : ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ [آل عمران : ١٠٣] وقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُم وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُم فِي شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : ١٦٥] وقال : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَٱخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُم البَيِّنَات ﴾ [آل عمران : ١٠٥] .

وربنا وَاحِد ، وكِتَابنَا واحِد ، ونَبِيّنا وَاحِد ؛ وأُصول الدِّين لا تحتمل التَّفَرُّق والإختلاف ؛ وأَنَا أَقُول مَا يُوجب الجَمَاعة بين المسلمين ، وهو مُتَّفَق عليه بين السَّلف ؛ فإنْ وَافَق الجماعة فالحمد لله ؛ وإلا فَمَن خَالَفَني بعد

---

(١) رواها أبو داود (٢١١٨) والترمذي (١١٠٥) والنسائي (٣٢٧٧) وابن ماجة (١٨٩٢) قال النووى فى الأذكار ص (٤٥٠) : « بالأسانيد الصحيحة » .

ذلك : كَشَفْتُ له الأَسْرار ، وهَتَكْتُ الأَسْتار ، وبَيَّنتُ المَذَاهب الفَاسِدة ، التى أَفْسَدَت الملل والدُّول ؛ وأنا أذهب إلى سُلْطَان الوَقْت على البَرِيد ، وأُعَرِّفُه من الأُمُور ما لا أَقُوله فى هذا المجلس ، فإنَّ للسِّلم كَلَامًا ، وللحَرْب كلامًا .

● وقلت : لاشك أَنَّ النَّاس يَتَنَازَعُون ؛ يقول هذا أَنَا حَنْبلى ، ويقول هذا أَنَا أَشْعَرِي ، ويَجْرِى بَيْنَهم تَفَرُّق وفِتَن ، واخْتِلاف على أُمور لا يَعْرِفُون حَقِيقتها .

وأَنَا قد أَحْضَرْتُ مَا يُبَيِّن اتِّفاق المَذَاهب فيما ذكرته ، وأَحْضَرْتُ « كِتَاب تَبْيِين كَذِب المُفْتَرِى ، فِيما يُنْسَبُ إلى الشَّيْخ أَبِى الحَسَن الأَشْعَرِى رحمه الله » تأَلِيف الحافظ أبى القاسم ابن عساكر رحمه الله .

● وقلت : لم يُصَنَّف فى أَخْبَار الأَشْعَرى المحمودة كِتَابٌ مثل هذا ؛ وقد ذكر فيه لفظه الذى ذكره فى كتابه « الإبانة » .

فلما انْتَهيت إلى ذكر المعتزلة : سَأَل الأَمير عن مَعْنى المعتزلة ، فقلت : كان النَّاس في قديم الزَّمان قد اختلفوا فى الفَاسِق المِلِّى ، وهو أَوَّل اختلاف حدث فى المِلَّة ، هَلْ هُوَ كَافِر أَوْ مُؤْمِن ؟ فقالت الخوارج : إنَّه كافر . وقالت الجماعة : إنَّه مؤمن . وقالت طَائِفة : نَقُول هو فَاسِقٌ ، لا مُؤْمِن ولا كَافِر ، نُنْزِلُه مَنْزلة بين المَنْزِلَتينْ ، وخَلَّدُوه فى النَّار ؛ واعتزلوا حلقة الحسن البَصْرِى وأَصْحابه – رحمه الله تعالى – فَسُمُّوا مُعْتزلة .

وقال الشَّيخ الكبير بجبته وَرِدائه : ليس كَمَا قلت ؛ ولكن أَوَّل مسألة اختلف فيها المُسلِمُون مَسْأَلة الكَلام ، وسُمِّى المُتَكَلِّمون مُتكَلِّمين لِأَجْل تَكَلُّمِهم فى ذَلك ، وكان أَوَّل من قالها عَمرو بن عُبيد ، ثم خَلَفه بعد مَوْته عَطَاء بن وَاصِل ، هكذا قال وذكر نحوًا من هذا .

فغضبت عليه وقلت : أَخْطَأت ؛ وهذا كَذِبٌ مُخَالف للإجماع . وقلت له : لا أَدَب ولا فَضِيلة ؛ لا تَأَدَّبت مَعِي فى الخِطَاب ، ولا أَصَبْتَ فى الجواب ؟!

● ثم قلت : النَّاس اختلفوا فى مَسْأَلة الكلام فى خِلافة المأمون ، وبعدها فى أَوَاخِر المِائة الثَّانية ، وأَمَّا المعتزلة فقد كانوا قبل ذلك بِكَثِير ، فى زمن عمرو بن عُبيد بعد مَوْت الحَسن البَصْري ، فى أوائل المائة الثَّانية ، ولم يكن أولئك قد تَكَلَّموا فى مسألة الكلام ، ولا تَنَازَعُوا فيها ، وإِنَّما أَوَّل بدعتهم تَكَلُّمِهم فى مَسَائل الأَسْماء والأَحْكَام والوَعيد .

● فقال : هذا ذَكَره الشَّهِرِسْتَانى فى كتاب المِلل والنِّحل . فقلت : الشَّهرستانِى ذكر ذلك فى اسم المتكلمين ، لم سُمُّوا مُتَكَلِّمين ؟ لم يذكره فى اسم المعتزلة ، والأمير إِنَّما سأل عن اسم المعتزلة ، وأَنْكَر الحاضرون عليه ؛ وقالوا : غلطت !! وقلت : فى ضِمْن كَلامى أَنَا أَعْلَمُ كُلُّ بِدْعَةٍ حَدَثَت فى الإِسلام ، وَأَوَّل من ابْتَدَعها ، وَمَا كَان سَبَبُ ابْتِداعها .

وأيضا فما ذكره الشَّهرستاني ليس بِصَحِيحٍ فى اسم المُتَكَلِّمين ، فإِن المُتَكَلِّمين كانوا يُسَمّون بهذا الإِسم ، قبل مُنَازَعتهم فى مسألة الكلام ، وكانوا يقولون عن وَاصِل بن عطاء أَنَّه مُتَكَلِّم ، ويَصِفُونه بالكلام ، ولم يكن الناس اختلفوا فى مسألة الكلام .

وقلت : أَنَا وغيرى إِنَّما هو وَاصِلُ بن عطاء ؛ أى : لا عَطَاء بن واصل كما ذَكَرَهُ المعترض ، قلت : وَوَاصل لم يكن بَعْد مَوْت عَمرو بن عبيد وإنما كان قَرِينُه .

وقد رُوى أَنَّ وَاصِلا تَكَلَّم مَرَّةً بكلام ، فقال عمرو بن عبيد : « لو بُعِثَ نَبِيٌّ مَا كَانَ يَتَكَلَّم بِأَحْسَنَ مِنْ هَذَا » ؛ وفصاحته مشهورة ، حتى قِيل

إنَّه كان ألثغ ، وكان يَحْتَرِزُ عن الرَّاء ، حتى قيل له : أَمَرَ الأَمِيرُ أَنْ يُحْفَرَ بِئْر . فقال : أَوْعَزَ القَائِد أَن يُقَلّب قَليب في الجَادّة .

● ولما انتهى الكلام إلى مَا قَاله الأَشْعَري قال الشَّيخ المُقَدَّم فيهم : لا ريب أَنَّ الإمام أَحمد إِمَامٌ عظيم القَدْر ، ومِنْ أَكْبر أئمة الإسلام ، لكن قد انتسب إليه أُنَاس ابْتَدَعُوا أشياء .

فقلت : أَمَّا هذا فحق ، وليس هذا من خَصَائص أحمد ، بل ما من إمام إلَّا وقد انْتَسَب إليه أَقْوَام هُو مِنْهم بَرىءٌ : قد انْتَسَبَ إلى مالك أُنَاس مَالِكٌ بَرِىءٌ منهم ، وانْتَسَبَ إلى الشَّافِعى أُنَاسٌ هو بَرِىءٌ مِنْهُم ، وانْتَسَب إلى أَبِى حنيفة أُنَاس هو بَرِىءٌ مِنهم ، وقد انتسب إلى موسىٰ عليه السَّلام أُنَاس هو منهم بَرِىءٌ ، وانتسب إلى عيسى عليه السَّلام أُنَاسٌ هو منهم بَرِىءٌ ، وقد انْتَسَب إلى على بن أبى طالب أُنَاسٌ هو بَرِىءٌ منهم ، ونبينا ﷺ قد انتسب إليه من القَرَامِطة والبَاطِنِيّة وغيرهم من أَصْنَاف الملحدة والمنافقين ، مَنْ هُو بَرِىءٌ مِنهم !!

وذكر فى كلامه؛ أَنَّه انتسب إلى أحمد نَاسٌ من الحَشَوِيّة والمُشَبِّهة ، ونحو هذا الكلام .

فقلت : المُشَبِّهة والمُجَسِّمة فى غير أَصْحَاب الإمام أَحْمد أَكْثَر مِنهم فيهم ؛ هؤلاء أَصْنَاف الأَكْرَاد كُلّهم شَافِعيّة ، وفيهم من التَّشْبية وَالتَّجْسِيم ما لا يُوجد فى صنف آخر ، وأهل جِيلان فيهم شَافِعِيّة وحَنْبلية . قلت : وأَمَّا الحنبلية المَحْضَة فليس فيهم من ذلك ما فى غيرهم .

وكان من تمام الجواب أَنَّ الكَرّامية المُجَسِّمة كلهم حَنَفِيّة ، وتَكَلّمت على لفظ الحَشَوية – ما أدري جوابًا عن سُؤَال الأَمير أو غيره ، أو عن غير جواب – فقلت : هذا اللَّفظ أَوَّل من ابْتَدَعه المعتزلة ؛ فإنَّهم يُسَمُّون الجماعة

والسَّواد الأعظم الحَشْو ؛ كما تُسَمِّيهم الرَّافضة الجمهور ، وحَشْو النَّاس هم عموم النَّاس وجُمهورهم ، وهم غير الأَعْيان المُتَمَيِّزين يقولون هذا من حَشْو النَّاس كما يقال هذا من جمهورهم .

وأَوَّل من تَكَلَّم بهذا عَمْرُو بن عُبيد ، وقال : كَان عَبْدُ الله بن عمر رَضِى الله عنه حَشَوِيّاً : فالمعتزلة سَمُّوا الجماعة حَشوا ، كما تُسَمِّيهم الرَّافضة الجمهور .

وقلت - لا أَدْرى فى المجلس الأَوَّل أَوْ الثَّانى - أَوَّل مَنْ قَالَ إِنَّ الله جِسْم هُشَام بن الحكم الرَّافضى .

وقلت لهذا الشَّيخ : مَنْ فِي أَصْحاب الإمام أَحْمد رحمه الله حَشَوي بالمعنَى الذى تُريده؟ الأَثْرم ، أَبو دَاود ، المِرْوُذِي ، الخلّال ، أَبو بكر عبدالعزيز ، أَبو الحَسَن التَّميمي ، ابن حامد ، القَاضى أَبو يَعْلَىٰ ، أبو الخطاب ، ابن عقيل ؟ وَرَفَعْتُ صَوْتي وقلت : سَمِّهم ، قُلْ لِي مِنهم ؟ من هم ؟ .

أَبِكَذِب ابْن الخَطِيب وافْتِرَائِه على النَّاس فى مَذَاهِبهم تَبْطُل الشَّريعة ، وتَنْدرس مَعَالم الدِّين ؟ كما نقل هو وغيره عنهم أَنَّهم يقولون : إِنَّ القرآن القديم هو أَصْوَاتُ القَارِئِين ، ومدادُ الكَاتِبين ، وأَنَّ الصَّوت والمِدَادُ قَدِيمٌ أَزَلِى ؟ مَنْ قَالَ هَذا ؟ وَفِى أَىِّ كِتَابٍ وُجِد هَذَا عَنْهُم ؟ قُلْ لِى !

وكما نقل عنهم : أَنَّ الله لا يُرَىٰ فى الآخرة باللُّزوم الَّذي ادَّعاه ، والمقدمة التى نَقَلها عنهم ؛ وأَخَذْتُ أَذْكُر مَا يَسْتَحِقُّه هذا الشَّيخ ، مِنْ أَنَّه كبير الجماعة وَشَيْخهم ، وأَنَّ فيه من العقل والدِّين مَا يَسْتَحِقُّ أن يُعَامَل بِمُوجبه ؛ وأَمَرْتُ بِقِراءة العَقِيدة جَمِيعها عليه ؛ فإِنَّه لم يكن حَاضِرًا فى المَجْلس الأَوَّل ، وإِنما أَحْضَروه فى الثَّاني انتصارًا به .

وحَدَّثنى الثِّقة عنه بعد خُروجه من المجلس ، أنَّه اجتمع به وقال له : أخْبِرني عن هذا المجلس ، فقال : مَا لِفُلان ذَنْب وَلَا لِي ، فإنَّ الأمير سأل عن شَيءٍ فَأَجَابه عَنْهُ فظَنَنْتُه سَأَلَ عَن شيءٍ آخر .

وقال : قُلْتُ لهم أَنْتُم مَا لَكم على الرَّجل اعْتِراض ، فإنَّه نَصَر تَرْك التَّأويل ، وَأَنْتُم تَنْصُرون قول التَّأويل ، وهما قولان للأَشْعَرى .

وقال : أنا أَخْتَار قول تَرْك التأويل ، وأَخْرَج وَصِيَّته التى أَوْصَىٰ بها ، وفيها قول تَرْك التَّأْويل .

قال الحاكى لي : فقلت له : بَلَغَنِى عنك أَنَّك قلت فى آخر المجلس – لما أشهد الجماعة على أنفسهم بالموافقة – لا تَكْتُبوا عَنِّى نَفْيًا ولا إثباتًا فلم ذاك ؟ فقال : لوجهين :–

أحدهما : أنِّي لم أَحْضر قِراءة جَمِيع العَقِيدة فى المَجْلِس الأَوَّل .

والثانى : لأَنَّ أَصْحَابِى طَلَبُونِى لِيَنْتَصِرُوا بِي ، فما كان يَلِيقُ أَن أُظْهِرَ مُخَالَفَتَهم ، فسكت عن الطَّائِفتين .

وَأَمَرْتُ غير مَرّة أَن يُعَاد قِراءة العَقِيدة جَمِيعها على هذا الشَّيخ فرأى بعض الجماعة أن ذلك تَطْويل ، وأَنَّه لا يُقْرَأ عليه إلَّا المَوْضِع الذى لهم عليه سُؤَال ، وَأَعْظَمُه « لَفْظُ الحقيقة » فَقَرءُوه عَلَيْه ؛ فذكر هو بَحْثًا حَسَنًا يَتَعلّق بِدِلالة اللَّفظ ، فَحَسَّنْتُه ومَدَحْتُه عليه ، وقلت : لا ريب أَنَّ الله حَيٌّ حقيقة ، عَلِيمٌ حَقِيقة ، سَمِيعٌ حَقِيقة ، بَصِيرٌ حَقِيقة وهذا مُتَّفق عليه بين أهل السُّنة والصِّفاتية من جميع الطَّوائف ؛ ولو نَازَع بعض أَهْل البِدع فى بعض ذلك : فلا ريب أَنَّ الله مَوْجُود والمَخْلُوق مَوْجُود ، ولَفْظُ الوجود سَوَاء كان مَقُولاً عَلَيْهما بطريق الإشتراك اللَّفظي فقط ، أو بطريق التَّواطىء المُتَضَمِّن للإشتراك لَفْظًا ومعنًى ، أو بالتَّشْكِيك الذى هو نَوْعٌ من التَّواطىء .

فعلى كل قول : فالله مَوْجُود حَقِيقة ، والمَخلُوق مَوْجُود حَقِيقة ، ولا يَلْزم من إطْلاق الإسم على الخَالق والمَخْلُوق بِطَرِيق الحَقِيقَة مَحْذُور ، و لم أُرَجِّح فى ذلك المقام قولاً من هذه الثَّلاثة على الآخر ؛ لأَنَّ غرضى تَحَصَّل على كل مَقْصُودي .

وكان مَقْصُودي : تقرير ما ذكرته على قول جميع الطَّوائف ، وأَن أُبَيِّن اتِّفاق السَّلف ومَنْ تَبعَهُم عَلَى مَا ذَكَرْت ، وأَنَّ أَعْيَان المَذَاهب الأَرْبعة ، والأَشْعَرِى ، وَأَكَابِر أَصْحَابه عَلَى مَا ذَكَرْتُه ؛ فَإِنَّه قبل المجلس الثَّانى : اجتمع بِى من أَكَابِر عُلَمَاء الشَّافعية ، والمُنْتَسِبين إلى الأَشْعَرِيَّة والحَنَفِيّة وغيرهم مِمَّن عَظُم خَوْفُهم من هذا المجلس وخَافُوا انْتِصار الخُصُوم فيه وخَافُوا على نُفُوسهم أَيضًا من تَفَرُّق الكَلِمة فلو أُظْهِرت الحُجَّة التى ينتصر بها ما ذكرته أو لم يكن من أئمة أصحابهم من يُوَافقها لَصَارت فِرْقة ولَصَعب عليهم أن يُظْهروا فى المجالس العامَّة الخروج عن أَقْوال طَوَائِفهم بما فى ذلك من تَمَكّن أَعْدَائُهم من أغراضهم .

فإن كان من أَئمة مَذَاهِبهم من يقول ذلك ، وقَامَت عليه الحُجَّة ، وبان أَنَّه مَذْهَبُ السَّلف : أَمْكَنَهم إظهار القول به مع مَا يَعْتَقِدُونه فى البَاطن . من أنه الحق ، حتى قال لي بعض الأَكابر من الحَنَفية – وقد اجتمع بي – لو قلت هذا مَذْهَب أَحْمد وثَبتَّ على ذلك لا نْقَطعَ النِّزاع .

ومَقْصُوده أَنَّه يحصل دَفْع الخصوم عَنْك بأَنَّه مَذْهب مَتْبُوع ، ويستريح المُنْتَصِر والمُنَازِع من إظْهار المُوَافقة .

فقلت : لَا وَآلله ؛ ليس لِأَحْمد بن حنبل فى هذا الخْتِصاص ، وإِنَّما هذا اعْتِقَادُ سَلَف الأُمَّة وأَئِمّة أَهْل الحَدِيث : وقُلْتُ أيضًا هذا اعْتِقَادُ رَسُول الله ﷺ ، وَكُلّ لَفْظٍ ذَكَرْتُه فَأَنَا أَذْكُر بِه آية ، أَوْ حَدِيثًا ، أَوْ إِجْمَاعًا سَلَفِيًّا ،

وَأَذْكُر مَنْ يَنْقُل الإِجْمَاع عن السَّلف مِنْ جَمِيع طَوَائِف المُسْلمين ، والفقهاء الأربعة ، والمُتَكَلِّمين ، وأَهْل الحديث ، والصُّوفية .

● وقلت لمن خاطبني من أكابر الشَّافعية - لِأُبيِّن أَنَّ مَا ذَكرته هو قول السَّلف ، وقول أَئِمّة أَصْحاب الشَّافعي ، وأَذْكُر قَوْل الأَشْعرى ، وأَئِمّة أَصْحَابه التى ترد على هؤلاء الخُصُوم ، وَلينتصرنَّ كُلُّ شَافِعِي، وكل من قال بقول الأَشْعري الموافق لمذهب السَّلف ، وَأُبيِّن أن القول المحكى عنه فى تَأْويل الصِّفات الخبرية قولا لا أَصْل له فى كلامه ، وإِنَّما هو قول طَائِفَة من أَصْحابه ، فِللأَشْعَرية قولان ليس للأَشعرى قولان .

● فلما ذكرت فى المجلس : أَنَّ جميع أَسْماء الله التى سَمَّى بها المخلوق كَلَفْظ الوُجُود الذى هو مَقُول بالحَقِيقة على الوَاجِب ، والممكن ،على الأَقوال الثلاثة : تَنَازع كبيران ، هل هو مَقُول بالإِشتراك أَوْ بالتَّواطىء ؟

فقال أَحدهما : هو مُتَوَاطِىء وقال الآخر هو مُشْتَرك ؛ لِئَلّا يَلْزَم التَّركيب .

وقال هذا : قَدْ ذَكَر فخر الدِّين : أَنَّ هذا النِّزاع مَبْنِّى على أَنَّ وجُوده هل هو عَيْنُ مَاهِيّتهُ أَم لا ؟ . فمن قال إِنَّ وجود كل شيء عَيْنُ مَاهِيّتهُ ، قال : إِنَّه مَقُول بالاشتراك ، ومَنْ قَال إِن وُجُوده قَدْرٌ زَائِد على مَاهِيَّتهُ ، قال : إِنه مَقُول بالتَّواطىء .

فأخذ الأَوَّل يُرَجِّح قَوْل مَنْ يَقُول : إِنَّ الوُجُود زَائِد عَلى الماهية ؛ لِيَنْصُر أَنَّه مَقُول بالتَّواطىء .

فقال الثَّانى : ليس مَذْهب الأَشعرى وأهل السُّنة أَنَّ وجوده عين ماهيته ، فَأَنْكَر الأَوَّل ذلك .

فقلت : أَمَّا مُتَكَلِّموا أهل السُّنَّة فعندهم أَنَّ وجود كل شيء عَيْن مَاهِيَّته ؛ وَأَمَّا القول الآخر فهو قول المعتزلة أَنَّ وجود كل شيء قَدْرٌ زائد على ماهيته ، وكل مِنْهُما أَصَاب مِن وَجْه ، فإِنَّ الصَّواب أَنَّ هذه الاسماء مَقُولة بالتَّواطيء ، كما قد قَرَّرْتُه فى غير هذا المَوْضِع ، وَأَجَبْتُ عن شُبْهة التَّركيب بالجَوَابَيْن المَعْرُوفين .

وأما بناء ذلك على كون وُجُود الشَّيء عين مَاهِيَّته أَوْ لَيْس عَيْنهُ : فهو من الغَلَط المُضَاف إلى ابن الخطيب ، فَإِنَّا وإن قُلْنا إِنَّ وُجُود الشَّيء عين ماهيته : لا يَجِبُ أَنْ يَكُون الإسم مَقُولاً عليه وعلى نظيره بالإشتراك اللَّفظي فقط ، كما فى جميع أسماء الأجناس .

فإن اسم السَّواد مَقُول على هذا السَّواد وهذا السَّواد بالتَّواطيء ، وليس عَيْن هذا السَّواد هو عين هذا السَّواد ، إذ الإسم دَالٌّ على القَدْرِ المُشْتَرك بينهما ، وهو المُطْلق الكُلِّي ؛ لكنه لا يُوجد مُطْلقًا بِشَرْط الإِطْلاق إِلَّا فى الذِّهن ، ولا يَلْزَم من ذلك نَفْىُ القَدْر المشترك بين الأَعيان الموجودة فى الخارج ، فإنه على ذلك تَنْتَفِي الأَسْماء المُتَوَاطِئة ، وهى جمهور الأَسماء الموجودة ، فى الغالب (وَهِى أَسْمَاء الأَجْناس الدنوية) وهو الاسم المُطْلق على الشَّيء ، وعلى كل ما أشبهه سَوَاءٌ كَانَ اسْمُ عَينٍ أَوْ اسْمُ صِفَةٍ ، جَامِدًا أو مُشْتَقّاً ، وسَواء كان جنسًا مَنْطقيًا أو فِقْهيًاأو لم يكن . بل اسْمُ الجِنْس فى اللُّغة يَدْخُل فيه الأَجناس ، والأَصناف ، والأَنواع ، ونحو ذلك . وكلها أَسْماء مُتَوَاطئة ، وأعيان مُسَمّياتها فى الخارج مُتَمَيِّزة .

وطلب بعضهم إِعَادة قِرَاءة الأَحاديث المذكورة فى العَقِيدة ؛ ليطعن فى بعضها ، فعرفت مَقْصُوده . فقلت : كَأَنَّك قد استَعْدَدت للطَّعن فى حديث الأَوعال : حديث العَبَّاس بن عبدالمُطَّلب – وكانوا قد تَعَنَّتوا حتى ظفروا بما

تَكَلَّم به زَكِي الدِّين عبدالعظيم ، من قَوْل البخارى فى تَأْرِيخه : عبدالله بن عُميرة لا يُعْرَف له سَمَاعٌ من الأَحْنَف - فقلت : هذا الحَدِيث مع أنَّه رواه أهل السُّنن كأَبِى داود ، وابْن ماجه ، والتِّرمذى ، وغيرهم : فهو مَرْوِىٌّ من طريقين مَشْهُورين ، فالقَدْحُ فى أَحَدِهما لا يقدَحُ فى الآخر .

فقال : أَلَيْسَ مَدَارُه عَلَى ابْنُ عُميرة ، وقد قال البخاري : لا يُعْرَفُ لَه سَمَاعٌ من الأَحْنَف ؟!(١) .

فقلت : قد رَوَاهُ إِمَامُ الأَئِمة ابن خزيمة ، فى كتاب التَّوحيد ، الذى اشْتَرَط فيه أَنَّه لايحتج فيه إِلَّا بما نقله العَدْل عن العَدْل ، مَوْصُولاً إِلى النبى ﷺ ؛ قُلْتُ والإثبات مُقَدَّم على النَّفى ، والبُخَارِى إِنَّما نَفَى مَعْرِفة سَمَاعُه من الأَحنف ، لم يَنْف مَعْرِفَةُ النَّاس بهذا ، فإذا عرف غيره - كإمام الأئمة ابن خزيمة - ما ثَبَت به الإِسناد : كَانت مَعْرِفَتُه وإِثْبَاتُه مُقَدَّمًا على نَفْى غيره وعَدَم مَعْرِفَتُه .

وَوَافق الجماعة على ذلك، وأخذ بعض الجماعة يذكر من المدح مَا لاَ يَلِيقُ أَن أَحْكِيه ، وَأَخَذُوا يُنَاظِرُون فى أَشْياء لم تكن فى العَقِيدة ، ولكن لها تَعَلُّق بما أَجَبْتُ به فى مَسَائل ، ولها تَعَلُّق بما قد يَفْهَمُونَهُ من العَقيدة . فأحضر بعض أَكَابرهم « كتاب الأَسْماء والصِّفات » للبيهقى - رحمه الله تعالى - فقال : هَذَا فيه تأْوِيل الوَجه عن السَّلف ، فقلت : لَعَلَّك تَعْنِى قوله تعالى : ﴿ وَللهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللهِ ﴾ [البقرة : ١١٥]

---

(١) الحديث ليس فيه هذه العلة فقط وإنما فيه علل أخرى خاصة بالسند وبالمتن أيضًا وقد فصَّلها أتم تفصيل الأخ المكرم عبدالله بن يوسف الجديع فى تعليقه على رسالة « فتيا وجوابها فى ذكر الاعتقاد وذم الاختلاف . لابن العطار » وراجع تعليقنا على شرح لمعة الاعتقاد لابن عثيمين ص (٦٢ ، ٦٣) .

فقال : نعم . قد قال مُجاهد والشّافعى يعنى قِبْلَة الله . فقلت : نعم : هذا صَحِيحٌ مُجَاهد والشّافعى وَغَيْرهما ، وهَذَا حَقٌّ ، وليست هذه الآية من آيات الصِّفات .

ومن عدَّها فى الصفات فقد غَلَط ، كما فعل طائفة ؛ فإن سياق الكلام يَدُلُّ على المُراد حَيْثُ قال : ﴿ وَلله المَشْرِقُ وَٱلمَغْرِبُ فَأَيْنما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللهِ ﴾ [البقرة : ١١٥] والمَشْرِق والمَغْرب الجهات .

والوَجْهُ هو الجِهة : يقال : أَىُّ وَجْه تُرِيده ؟ أى أَىُّ جهة ، وَأَنَا أُريد هذا الوجه أى هذه الجِهة ، كما قال تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُو مُوَلِّيها ﴾ [البقرة : ١٤٨] وَلِهَذا قال : ﴿ فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللهِ ﴾ [البقرة : ١١٥] أى تَسْتَقْبِلُوا وَتَتَوَجَّهوا ، وَٱلله أعلم . وصلى الله على محمد .

* * *

ونقل الشيخ علم الدين :

أن الشيخ قدس الله روحه قال :

فى مجلس نائب السَّلْطَنة الأفرم - لما سأله عن اعْتِقاده وكان الشَّيخ أَحْضَر عَقِيدته « الوَاسِطية » قال - هَذِه كَتَبْتُها من نَحو سَبْع سِنِين ، قبل مَجِيء التَّتار إلى الشَّام ؛ فَقُرِئت فى المجلس.

● ثم نقل علم الدِّين عن الشَّيخ أَنَّه قال : « كان سَبَبُ كِتَابتها أَنَّ بعض قُضَاة وَاسِط من أهل الخير والدِّين شكى ما النَّاس فيه - ببلادهم فى دولة التَّتر - من غلبة الجهل ، والظُّلم ، ودُرُوس الدِّين والعلم ؛ وسألنى أن أَكْتب له « عقيدة » فقلت له : قد كتب النَّاس عقائد أَئِمّة السُّنَّة ؛ فَأَلَحَّ فى السُّؤَال ، وقال : مَا أُحِبُّ إِلَّا عَقِيدة تَكْتُبها أَنْت . فكتبت له هذه العقيدة - وَأَنا قَاعِد بعد العصر ، فَأَشَارَ الأَمير لكاتبه فَقَرَأَها على الحاضرين حَرْفًا حَرْفًا فاعترض بعضهم على قولى فيها : وَمِن الإيمَانُ بِآلله الإيمَانُ بِما وَصَف بِه نَفْسُه ، وَوَصَفَهُ بِه رَسُوله : مِن غَيْر تَحْرِيفٍ ، ولا تَعْطِيلٍ ، ولا تَكْيِيف ، ولاتَمْثِيل . ومَقْصُوده أن هذا يَنْفِى التَّأْويل الذى هو صَرْفُ اللَّفظ عن ظَاهِره : إِمَّا وُجُوبًا وإِمَّا جَوازًا .

● فقلت : إِنِّى عَدَلْتُ عن لفظ « التَّأْويل » إلى لفظ « التَّحْرِيف » ؛ لأَنَّ التَّحْريف اسْمٌ جاءَ القرآنُ بذمّه ، وَأَنَا تَحَرَّيْتُ فى هذه العَقِيدة اتِّباع الكِتَابُ والسُّنَّة ، فنفيت مَا ذَمَّه الله مِن التَّحْرِيف ، ولم أذكر فيها لفظ التَّأْوِيل ؛ لأَنَّه لَفْظٌ لَهُ عِدّة مَعَان ؛ كما بَيَّنْتهُ فى مَوْضِعه من القَوَاعد .

فإِنَّ مَعْنَى لَفْظ التَّأْويل فى كتاب الله غَيْر لَفْظ التَّأْوِيل فى اصْطلاح المُتَأَخِّرين من أَهل الأُصول والفقه . وغير معنى لفظ التَّأْويل فى اصْطِلاح

كثير من أَهْل التَّفْسِير والسَّلَف .

● وقلت لهم ذكرت فى النَّفى التَّمثيل ، ولم أذكر التَّشْبيه ؛ لأَنَّ التَّمْثيل نفاه الله بِنَصٍّ كِتَابه حيث قال : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِه شَىْءٌ ﴾ [الشورى : ١١] .

وأخذوا يذكرون نفى التَّشْبِيه والتَّجْسِيم ، ويطنبون فى هذا ، ويعرضون بما ينسبه بعض الناس إلينا من ذلك .

● فقلت قولى من غير تَكْيِيف وَلَا تَمْثِيل يَنْفِى كُلَّ بَاطِل ؛ وإِنَّما اخْتَرْتُ هَذَيْن الإِسْمَين : لأَنَّ التَّكْيِيف مَأْثُورٌ نَفْيُه عنِ السَّلف كما قال ربيعة ، ومالك ، وابن عيينة ، وغيرهم المقالة – التى تَلَقَّاها العُلَمَاء بالقَبُول – الإستواء مَعْلُوم ، والكَيْف مَجْهُول ، والإِيمَانُ به وَاجِب ، والسُّؤال عنه بِدْعَة فاتفقَ هؤلاء السَّلَف على أَنَّ الكَيْف مَعْلُومٌ لَنا ؛ فَنفَيْتُ اتِّباعًا لسلف الأُمة .

وهو أيضًا مَنْفِىٌّ بالنَّص ؛ فإِن تأويل آيات الصِّفات يدخل فيها حقيقة الموصوف . وحَقِيقة صِفَاتِه غير مَعْلُومة ، وهذا من التَّأْويل الذى لا يعلمه إِلَّا الله ، كما قَررت ذلك فى قاعدة مُفْرَدة ذكرتها فى « التَّأْويل والمعنى » والفرق بين عِلْمُنا بِمعنى الكَلَام وبين عِلْمُنا بِتَأْوِيله .

وكذلك التَّمْثِيل مَنْفِىٌّ بالنَّص والإجماع القَديم مع دِلالة العقل على نفيه، ونَفْى التَّكييف ؛ إِذ كُنْه البَارِي غير مَعْلُومٌ للبَشَر .

وذكرت فى ضِمن ذلك كلام الخَطَّابى الذى نقل أَنَّه مذهب السَّلف : وهو « إِجْرَاء آيات الصِّفات ، وَأَحَادِيثها عَلَى ظَاهِرهَا مَعَ نَفْى الكَيْفِيّة والتَّشْبيه عنها ؛ إِذْ الكلام فى الصِّفات فَرْع الكلام فى الذَّات : يُحْتَذَىٰ حُذْوه ويتبع فيه مثاله فإِذا كان إِثْبَاتُ الذَّات إِثْبات وُجُود لا إِثْبَاتُ تَكْيِيف ؛ فكذلك إِثْبَات الصِّفات إِثْبَات وُجُود لا إِثْبَات تَكْيِيف » .

فقال أَحَد كُبراء المُخَالفين فحينئذ يَجوز أَنْ يُقَال هو جِسْمٌ ؛ لا كالأَجْسَام . فقلت له أَنَا وبعض الفُضَلاء إِنَّما قيل : إِنَّه يُوصف الله بما وَصَفَ به نفسه ، وَبِما وَصَفَه به رسوله ؛ وَلَيْسَ فى الكِتَابِ والسُّنَّة أَنَّ الله جِسْمٌ حتى يَلْزَم هذا . وَأَوَّل من قال إِنَّ الله جِسْمٌ: هُشام بن الحكم الرَّافضي .

وأما قولنا: فهم الوَسَط فى فرق الأُمَّة كما أن الأمة هى الوَسَطُ فى الأمم . فهم وَسَطٌ فى باب صِفَات الله بين أهل التَّعطيل الجَهْمية ، وأهل التمثيل المُشَبِّهة فقيل لى أنت صَنَّفت اعتقاد الإمام أَحْمد ، وأرادوا قطع النزاع لكونه مذهبًا مَتْبوعًا .

● فقلت : ما خَرّجت إِلَّا عقيدة السَّلف الصَّالح جميعهم ؛ ليس للإمام أَحمد اخْتِصَاصٌ بهذا . وقلت : قد أَمْهَلْتُ مَنْ خَالَفَنِى فى شيء منها ثَلاث سِنين فإن جَاءَ بِحَرْفٍ وَاحِدٍ عن القرون الثَّلاثة يُخَالف ما ذكرته فَأَنَا أَرْجِعُ عن ذلك ، وعلى أن آتى بنقول جميع الطَّوائف عن القرون الثَّلاثة يوافق ما ذكرته من الحنفية والمالكية والشَّافعية والحَنْبَلِيّة والأَشْعرية ، وأهل الحديث وغيرهم .

● ثم طلب المُنَازِع الكلام فى (مسألة الحرف والصَّوت) . فقلت : هذا الذى يحكى عن أحمد وأصحابه أن صَوْت القارئين ، ومِدَاد المصاحف قَدِيمٌ أَزَلى كَذِبٌ مُفْتَرَىٰ ، لم يَقُل ذلك أحمد ، ولا أَحَد من عُلماء المسلمين .

وأَخرجت كَرّاسًا وفيه ما ذكره أبو بكر الخلال فى « كتاب السُّنَّة » عن الإمام أحمد ، ومَا جَمَعَهُ صاحبه أبو بكر المروذى من كلام أَحمد ، وكلام أئمة زمانه فى أَنَّ مَنْ قال : لَفْظِي بالقرآن مُخْلُوق فهو جَهْمِيٌّ ، ومن قال : غير مخلوق فهو مُبتدع . قلت : فكيف بمن يقول لفظي أَزَلى ؟! فكيف بمن

يقول صَوْتى قديم ؟!

فقال المنازع : إنَّه انتسب إلى أَحمد أُنَاس من الحشوية والمُشَبِّهة ، ونحو هذا الكلام فقلت : المُشَبِّهة والمُجَسِّمة فى غير أَصْحَاب الإمام أحمد أكثر منهم فيهم : فهؤلاء أصناف الأكراد كلهم شَافِعية ، وفيهم من التَّشْبيه والتَّجْسيم ما لا يوجد فى صنف آخر ، وأهل جِيلان فيهم شَافِعية وحنبلية ؛ وأَمَّا الحنبلية المحضة فليس فيهم من ذلك مَا فِي غيرهم ، والكَرَّامية المُجَسِّمَة كلهم حنفية .

● وقلت له : مَنْ فى أصحابنا حَشَوي بالمعنى الذى تُريده ؟ الأَثْرَم ، أَبُو داود المروذى ، الخلال ، أبو بكر عبدالعزيز ، أَبُو الحسن التَّميمى ، ابن حامد ، القاضى أَبُويَعْلَىٰ ، أبو الخطاب ، ابن عقيل ؛ ورفعت صوتى وقلت : سَمِّهم قُلْ لِي مَنْ مِنهم ؟ .

أَيكَذِبِ ابن الخطيب وافترائه على النَّاس فى مذاهبهم تَبْطُل الشَّريعة ، وتَنْدَرِس مَعَالم الدين كما نقل هو وغيره عنهم أنهم يقولون : القرآن القديم هو أَصْوَات القارئين ، ومِدَاد الكاتبين ؛ وأن الصَّوت والمداد ، قديم أزلى . من قال هذا ؟ وفى أى كتاب وُجِدَ عنهم هذا ؟ قُلْ : لي . وكما نقل عنهم أَنَّ الله لا يُرَىٰ فى الآخرة بالُّلزوم الذى ادَّعاه ، والمقدمة التى نقلها عنهم .

● ولما جاءت « مَسْأَلة القرآن » وأنه كلام الله غير مخلوق ، مِنْه بَدَأ وإليه يَعُود : نازع بعضهم فى كونه منه بدأ وإليه يَعُود وطلبوا تفسير ذلك ، فقلت : أما هذا القول : فهو المأثور والثَّابت عن السلف . مثل ما نقله عمرو بن دينار قال : أَدْرَكْتُ النَّاس مُنْذُ سَبْعين سَنَة يَقُولون الله الخالق وَمَا سِوَاه مخلوق ؛ إِلَّا القرآن فإنَّه كلام الله غير مخلوق منه بدأ وإليه يَعُود . ومعنى « منه بدأ » أى هو المُتَكَلِّم به ، وهو الذى أَنْزَلَهُ من لدنه ، ليس هو كما تَقُوله الجهمية أَنه خلق فى الهواء أو غيره ، وبدأ من غيره .

وأما « إليه يعود » فإنَّه يُسْرَىٰ به فى آخر الزَّمان من المَصَاحِف والصُّدور فلا يبقى فى الصُّدور منه كلمة ، ولا فى المَصَاحف منه حَرْف .
ووافق على ذلك غالب الحاضرين . فقلت : هكذا قال النبى ﷺ : « مَا تَقَرَّب العِبَاد إلى الله بِمثلِ مَا خَرجَ مِنْهُ » : يعنى القرآن . وقال خباب ابن الأرت: يا هنتاه تقرَّب إلى الله بما استطعت ؛ فَلَن يُتَقَرّب إلى الله بِشَىءٍ أَحَبّ إليه مِمّا خَرَجَ مِنْهُ » .

● وقلت : وأَنَّ الله تكلم به حقيقة ، وأَنَّ هذا القرآن الذى أنزله الله على محمد ﷺ هو كلام الله حقيقة ؛ لا كَلَام غيره ، ولا يجوز إطلاق القول بأَنَّه حكاية عن كلام الله أَوْ عِبارة ؛ بل إذا قرأ الناس القرآن ، أو كتبوه فى المَصَاحِف لم يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله تعالى حَقِيقة . فإن الكلام إنما يُضَاف حَقِيقة إلى مَنْ قَالَهُ مُبْتَدِئًا . لا إلى مَنْ قَالَهُ مُبَلِّغًا مُؤَدِّيًا .

فَامْتَعَضَ بعضهم من إثبات كونه كلام الله حقيقة ، بعد تَسْلِيمُه أَنَّ الله تكلم به حقيقة ثم إنَّه سلم ذلك لما بين له أن المجاز يَصِحُّ نفيه ؛ وهذا لا يَصِحُّ نفيه . وأَنَّ أَقْوَال المُتَقَدِّمين المَأْثورة عنهم ، وشِعْرُ الشُّعراء المُضَاف إليهم هو كلامهم حقيقة .

● ولما ذكرت فيها أَنَّ الكلام إِنَّما يُضَافُ حقيقة إلى مَنْ قَالَهُ مبتدئا لا إلى مَنْ قَالَهُ مُبَلِّغا استحسنوا هذا الكلام وعظَّموه .

● وذكرت ما أَجْمَع عليه سلف الأمة من أَنَّه سبحانه فوق العرش ، وأنه معنا حَقٌّ على حقيقته ؛ لا يحتاج إلى تحريف ، ولكن يُصَانُ عن الظُّنون الكاذبة ، وليس معنى قوله ﴿ وَهُو مَعَكُم أَيْنما كُنْتُم ﴾ أَنَّه مُخْتَلِطٌ بِالخَلْقِ ، فإِنَّ هَذَا لا تُوجِبُه اللُّغة ، وهو خِلاف ما أَجْمَع عليه سَلَفُ الأُمَّة ، وخلاف مَا فَطَر الله عليه الخلق ، بل القمر آية من آيات الله من أَصْغَر مخلوقاته ، وهو

مَوْضُوع فى السماء وهو مع المسافر أينما كان .

● ولما ذكرت : أَنَّ جميع أسماء الله التى يُسَمَّىٰ بها المخلوق – كلفظ « الوجود » : الذى هو مَقُول بالحقيقة على الواجب والممكن : تنازع كبيران هل هـو مقول بالإشتراك ، أو بالتَّواطىء ؟ فقال أحدهما هو مُتَواطىء . وقال آخر هو مشترك لئلا يلزم التركيب .

وقال هذا : قد ذكر فخر الدِّين أن هذا النِّزاع مبنى على أن وجوده هل هو عين ماهيته أم لا ؟ فمن قال : إنَّ وجُود كل شىء عَيْن ماهيته قال : إنَّه مقول بالإشتراك ومن قال إنَّ وجوده قدر زائد على ماهيته قال : إنه مقول بالتواطىء فأخذ الأول يُرَجِّح قول من يقول : إنَّ الوجود زائد على الماهية لينصر أَنَّه مقول بالتَّواطىء فقال الثانى : مذهب الأشعرى وأهل السُّنَّة أن وُجُوده عين ماهيته ؛ فأنكر الأَوَّل ذلك .

● فقلت : أَمَّا مُتَكَلِّموا أَهل السُّنَّة فعندهم أن وجود كل شىء عين ماهيته ؛ وأما القول الآخر : فهو قول المعتزلة : أن وجود كل شىء قَدْرٌ زائد على ماهيته . وكل منهما أصاب من وجه ؛ فإن الصَّواب أن هذه الأسماء مقولة بالتَّواطىء . كما قد قَرَّرته فى غير هذا الموضع .

وَأَمَّا بِناءُ ذلك على كون وُجُود الشَّىء عين ماهيته ، أو ليس [عين وجود مَاهِيَّته] فهو من الغلَط المُضَاف إلى ابن الخطيب ، فإنَّا وإنْ قُلْنَا إنَّ وجود الشَّىء عَيْن ماهيته : لا يجب أن يكون الإسم مَقُولا عليه ، وعلى غيره بالإشتراك اللَّفظى فقط ؛ كما فى جميع أسماء الأجناس : فإن اسم السَّواد مقول على هذا السَّواد وهذا السَّواد بالتَّواطىء ؛ وليس عين هذا السَّواد هو عين هذا السواد ؛ إذ الإسم دال على القدر المشترك بينهما وهو المُطْلَق الكلى ؛ لكنه لا يوجد مطلقا بشرط الإطلاق إلا فى الذِّهن .

ولا يَلْزم من ذلك نفى القدر المشترك بين الأعيان الموجودة فى الخارج ، فإنه على ذلك تنتفى «الأسماء المُتَوَاطِئة» وهى جمهور الأَسماء الموجودة فى اللغات وهى «أسماء الأجناس اللُّغوية» وهو الإسم المعلق على الشىء وما أشبهه – سواء كان اسم عين أو اسم صفة ، جامدًا أو مُشْتَقّاً وسواء كان جنسًا منطقيًا ، أو فقهيًا ، أو لم يكن .

بل اسم الجنس فى اللُّغة تدخل فيه الأَجْنَاس والأَصْنَاف والأَنْواع . ونحو ذلك . وكلها أسماء مُتواطئة ، وأَعْيَانٌ مُسَمَّياتها فى الخارج متميزة .

قال الذهبى : ثم وقع الإتِّفاق على أَنَّ هذا مُعْتَقَدٌ سَلَفِىٌّ جَيِّد .

* * *

وكتب عبدالله بن تيمية

لأخيه زين الدين :-

بسم الله الرحمن الرحيم

من أخيه « عَبْدُ الله بن تيمية » إلى الشَّيخ الإمام العالم الفاضل الصَّدر الكبير « زين الدين » زينه الله تعالى بحلية أولياءه ، وأَكْرَمَهُ فى الدُّنيا والآخرة بكرامة أصفيائه ، وجعل له البُشْرَىٰ بالنَّصر الأكبر على أعدائه ، وأَوْزَعَهُ شكر النَّعماء ؛ خُصُوصًا أفضل نعمائه : بما مَنَّ الله به سبحانه من النَّصر العزيز للإسلام ، وللسُّنة وأهلها على حزب الشَّيطان وأوليائه .

أما بعد فإنِّى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، وهو للحمد أهل ، وأُصَلِّى على نبيه محمد عليه أفضل الصلاة والسلام .

وأُعَرِّفُه بما مَنَّ الله سبحانه علينا وعلى المسلمين أجمعين . بالنَّصر الأكبر ، والفتح المبين . وهو وإن كانت العقول تَعْجَز عن دركه على التَّفْضيل ، والألْسُن عن وصفه عن التَّكميل . لكن نَذْكُر منه ما يَسَّر الله سبحانه مُلَخّصًا خاليًا عن التَّطويل .

وهو أنه - لما كان يوم الإثنين ثامن من رجب - جمع نائب السُّلطان القُضَاة الأربعة ، ونُوَّابهم ، والمفتين والمشايخ : نجم الدِّين ، وشمس الدِّين ، وتقى الدِّين ؛ وجمال الدِّين ، وجلال الدِّين نائب نجم الدِّين ، وشمس الدين ابن العز نائب شمس الدِّين ، وعز الدِّين نائب تقى الدِّين ، ونجم الدِّين نائب جمال الدِّين ، والشيخ كمال الدِّين بن الزملكانى ؛ والشيخ كمال الدِّين بن الشَّرشى ، وابن الوكيل من الشَّافعية ، والشَّيخ برهان الدِّين بن عبدالحق من

الحنفية ، والشيخ شمس الدِّين الحريرى من المالكية ، والشيخ شهاب الدِّين المجد من الشافعية ، والشيخ محمد بن قوام ، والشَّيخ محمد بن إبراهيم الأرموي .

ثم سأل نائب السُّلطان عن الإعتقاد . فقال : لَيْسَ الإعْتِقَادُ لِي ولا لِمَنْ هو أَكْبَر مني ؛ بل الاعتقاد يُؤْخَذُ عن الله سبحانه وتعالىٰ ، ورسوله ﷺ ، وَمَا أَجْمَعَ عَلَيه سَلَفُ الأُمَّة . يُؤْخَذُ من كتاب الله تعالىٰ ومن أحاديث البُخَاري وَمُسْلم وغيرهما من الأحاديث المعروفة ، وما ثَبَتَ عن سَلَف الأُمَّة .

فقال الأمير نريد أن تكتب لنا صُورة الإعْتِقاد ، فقال الشيخ إذا قلت السَّاعة شيئًا من حِفْظِي : قد يقول الكَذَّابون قد كتم بعضه ، أو دَاهَنَ . بل أنا أحضر ما كتبته قبل هذا المجلس بسنين متعددة قبل مجيء التتار . فأحضرت « الوَاسِطِية » وسبب تَسْمِيتها بذلك : أَنَّ الذى طَلَبها من الشَّيخ رجل من قضاة واسط – من أَصْحاب الشَّافعي – قَدِمَ حاجّاً من نحو عشر سنين ، وكان فيه صلاح كبير ، ودِيانة كبيرة ، فالتمس من الشَّيخ أن يكتب له عَقِيدة ، فقال له الشَّيخ : الناس قد كتبوا فى هذا الباب شيئًا كثيرًا ، فخذ بعض عقائد أهل السُّنَّة فقال : أحب أن تكتب لي أَنت . فكتب له – وهو قاعد فى مجلسه بعد العصر هذه « العقيدة » .

ذكر الشَّيخ للأمير معنى هذا الكلام ، ثم قُرِئَت على الحاضرين من أولها إلى آخرها ، كَلِمة ، كَلِمة ، وبُحِثَ فى مَوَاضع منها . وفيهم مَنْ فى قَلْبه من الشيخ ما لا يَعْلَمُه إِلَّا الله ، وكان ظَنّهم أنهم اذا تكلّموا معه فى هذا الكتاب أظهروا أنه يُخَالف ما عليه أهل السُّنَّة والجماعة .

وأوردوا ثلاثة أسئلة – فى ثلاث مَواضع :–

١ – وهى « تَسْمِيتها باعتقاد أَهْل الفرقة النَّاجية » .

٢ – وقول : « اسْتَوَىٰ حَقِيقة » .

٣ - وقول : « فوق السَّمٰوات » .

فقال الشيخ للكاتب الذى أقعده نائب السُّلطان وهو الشيخ كمال الدين ابن الزملكانى: اكتب جوابها - وكان المجلس قد طال من الضُّحى إلى قريب العصر - فأشاروا بتأخير ذلك إلى مجلس ثان - وهو يوم الجمعة ثانى عشر رجب - فاجتمعوا هم وحضر معهم الصَّفى الهندى ، وحضرت أنا المجلس الثَّانى ؛ وما علمت بالمجلس الأول حين حَضَروا - وقد كانوا بحثوا فى تلك الأيام بالفُصُوص وطالعوه - واتفقوا على أنهم لا يبقوا ممكناً .

فلما حضرت بعد صلاة الجمعة ، واستقر المجلس : أثنى النَّاس على الصَّفى الهندى وقال جماعة منهم هو شيخ الجماعة وكبيرهم فى هذا ؛ وعليه اشتغل الناس فى هذا الفن واتَّفَقُوا على أنه يَتَكَلَّم مع الشَّيخ وحده فإذا فرغ تَكَلَّم وَاحِدٌ بعد وَاحِد .

فخطب الشَّيخ فَحَمِدَ الله وأثنىٰ عليه بخطبة ابن مسعود رضى الله عنه ؛ ثم قال : إنَّ الله تعالى أَمَرَنا بالجماعة والإئتلاف ، ونَهَىٰ عن الفُرْقَة والإختلاف وَربُّنا واحد ، وَرَسُولُنا واحد ، وكِتَابُنا وَاحِد ، وَدِيننا وَاحِد ؛ وأُصول الدِّين ليس بين السَّلف وأئمة الإسلام فيها خِلَاف ؛ ولا يَحِلُّ فيها الافتراق لأن الله تعالى يقول : ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ [آل عمران : ١٠٣] ويقول : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُم وَكَانُواْ شيعًا لَسْتَ مِنْهُم فِى شَىء ﴾ [الأنعام : ١٦٥] .

وهذا الباب قد تَنَازع النَّاس فيه ؛ ويقول هذا : أَنَا حَنْبلي ، ويقول هذا : أنا أَشْعَري ، وقد أحضرت كتب الأَشْعَرى ، وكتب أَكَابر أَصحابه : مثل كتب أَبى بكر بن الباقلاني ، وأحضرت أيضًا من نَقَل مذاهب السَّلف : من المالكية ، والشَّافعية ، والحنبلية ، وأهل الحديث ، وشيوخ الصُّوفية ، وأنهم

كلهم مُتَّفِقون على اعْتِقَادٍ واحدٍ .

وكذلك أحضر نَقْل شيوخ أصحاب أبى حنيفة : مثل محمد بن الحسن ، والطَّحاوى وما ذكروه من الصِّفات وغيرها فى أُصُول الدِّين ، وقرأ « فصل » مما ذكره الحافظ ابن عساكر فى كتابه « الأبانة » وأنَّه يقول بقول الإمام أحمد . وأحضر « كتاب التَّمهيد » للقاضى أبى بكر بن الباقلاني . وأحضر « النُّقول » عن مالك وأكابر أصحابه : مثل ابْن أَبِي زَيد ، والقاضى عبدالوهاب ، وغيرهما من كبار أَصْحاب مَالك بِتَصْرِيحهم أَن الله مُسْتَوٍ بِذَاتِه على العرش .

وقال أما الذى أذكره فهو مذهب السَّلف ، وأحضر ألفاظهم وأَلفاظ من نَقَل مذاهبهم من الطَّوائف الأربعة ، وأهل الحدِيث ، والمُتَكَلِّمين والصُّوفية ، وأذكر موافقة ذلك من الكتاب والسُّنَّة ، وأَنَّه ليس فى ذلك ما ينفيه العقل .

وإن كان الله تعالى يجمع قلوب الجماعة على ذلك فالحمد لله رب العَالمين ؛ وإن خَالَف مُخَالف لذلك كان فى كلام الآخر [ما] أقوله ، وأَكْشِف الأسرار ، وأهتك الأَستار ، وأُبَيِّن ما يحتاج إليه بيانه ، وأجتمع بالسُّلطان ، وأقول له كلامًا آخر .

وكان يومًا عظيمًا مَشْهودًا بين فيه للحاضرين من البَحْث والنَّقل أَمْرٌ عظيم وبحث عن أشياء خارجة عن « العقيدة الوَاسِطِيّة » لما أحضر لهم جوابه : فى مسألة القرآن ، ومسألة الإستواء – لما سئل عنها قديما من نحو اثنى عشر سنة – وقرأ عليهم من ذلك الجواب ، وسَأَلُوه عن ألفاظ فى المسألة « الحموية » وأوردوا عليه جميع ما فى أنفسهم من الأجوبة ، وقالوا هذا سُؤَالُنا وما بقى فى أنفسنا شىء .

فلما أجاب الشَّيخ عن أسئلتهم وافقوه وانفصل المجلس على ذلك ، وكان قال لهم كل من خَالَف شيئا مِمَّا قلته فَلْيَكْتُب بخطه خلافه ، ولينقل فيما خالف فى ذلك من السَّلف ؛ أَوْ يكتب كل شخص عقيدة ، وتعرض هذه العقائد على ولاة الأمور ، ويعرف أَيُّها الموافق للكتاب والسُّنة . وقال أيضًا من جاء بحرفٍ واحد عن السَّلف بخلاف ما ذكرت فَأَنَا أَصِير إليه ، وأنا أحضر نقل جميع الطَّوائف أنهم ذكروا مذهب السَّلف كما وضعته ، وأنا مُوافق السلف ، ومُنَاظِر على ذلك ؛ وجميع أئمة الطَّوائف من الحنفية والمالكية والشَّافعية والحنبلية والأشعرية وأهل الحديث والصُّوفية مُوافقون ما أقوله .

وسألوه عن الظَّاهر هل هو مُوافق أم لا ؟ فقال هذا ليس فى « العقيدة » وأنا أتبرع بالجواب عن أكثر من حكى مذهب السلف - كالخطَّابي ، وأبى بكر الخطيب ، والبغوي ، وأبى بكر وأبى القاسم التميمي ، وأبى الحسن الأشعري ، وابن الباقلاني ، وأبى عثمان الصَّابوني ، وأبى عمر بن عبدالبر ، والقاضي أبى يعلى ، والسيف الآمدي وغيرهم فى نفى الكيفية ، والتَّشبيه عنها ، وأن الكلام فى الصِّفات فرع على الكلام فى الذَّات : يُحْتَذَىٰ فيه حذوه ، ويتبع فيه مثاله ؛ فإذا كان إثبات الذَّات إثبات وجود لا إثبات كيفية ؛ فكذلك إثبات الصِّفات : إثبات وجود لا إثبات كيفية .

وقد نقل طائفة أن مذهب السَّلف أن الظَّاهر غير مراد . قال : والجمع بين النَّقلين أن الظَّاهر لفظ مشترك ؛ فالظَّاهر الذى لا يَلِيقُ إلَّا بالمخلوق غير مراد وأما الظَّاهر اللَّائق بجلال الله تعالىٰ وعظمته فهو مُرَادٌ : أنه هو المراد فى أسماء الله تعالى وصِفَاته مثل الحى والعليم والقَدِير والسَّميع والبَصِير ؛ وجرت بحوث دَقِيقة لا يَفْهمها إلَّا قليل من الناس .

وبيّن أَنَّ الله تعالى فوق عرشه على الوجه الذى يَلِيق بجلاله ؛ ولا أَقُول فوقه كالمخلوق على المخلوق كما تقوله المُشَبِّهة ، ولا يقال إنَّه لا فَوْق السَّمٰوات ولا على العرش رَبّ كما تقوله المُعَطِّلة الجهمية ، بل يقال إنه فوق سمواته ، على عرشه ، بائن من خلقه .

وتكلّم على لفظ الجهة ؛ وأَنَّه معنى مشترك ، وعلى لفظ الحقيقة .

وسُئِل عن مَسْأَلة القرآن والصَّوت فأجاب بالتَّفصيل وكان أجاب به قديمًا – فقال : من قال أن صوت العبد بالقرآن ، ومداد المُصْحَف قَدِيم فهو مُخْطىء ضَال ، ولم يقل بهذا أَحَدٌ من علماء أصحاب الإمام أحمد ولا غيرهم .

وما نقل عنهم أنهم يقولون ليس القرآن إلا الصَّوت المَسْمُوع من القارىء والمداد الذى فى المُصْحف ، وهو مع ذلك قديم فهذا كذب مفترى . ما قاله أحمد ، وأحضر نُصوص الإمام أحمد وأصحابه ، وأصحاب مالك ، والشافعي ؛ والأشعري ، وغيرهم : أنَّ من قال لَفْظِى بالقُرآن غير مَخْلُوق فهو مبتدع فكيف بمن يقول صَوْتى به غير مخلوق ، أو يَقُول صَوْتى به قديم ، وحرَّر الكلام فيها وأن إطلاق القول بنفى الحرف بدعة : لم يتكلَّم به الإمام أحمد ولا غيره من الأئمة المتبوعين .

بل مذهب السَّلف أَنَّ القرآن كلام الله : حُرُوفه ومَعَانيه ؛ والكلام يُضَاف حقيقة إلى من قاله مبتدءا ؛ لا إلى من قاله مُبَلِّغًا مُؤَدِّيًا ، وأن الله تكلَّم بصوت ، وذكر حديث أبى سعيد رضى الله عنه الذى فى الصَّحيحين(١) ، فأخذ نائب المالكى يقول : أنت تقول : إن الله يُنَادِى بِصَوْتٍ ، فقال له

---

(١٣) تقدم تخريجه

الشيخ : هكذا قال نَبِيّك إنْ كُنْتَ مُؤْمِنًا به وهكذا قال محمد بن عبدالله إنْ كَان رَسُولاً عندك .

وجعل نائب السُّلطان كلما ذكر حديثًا وعزاه إلى الصَّحيحين يقول لهم : هكذا قاله النبى ﷺ يقولون نعم . فيقول فمن قال بقول النبى ﷺ أى شىء يُقَالُ لَهُ . وقال له كل شىء قلته من عندك قلته ؟ فقال بل أنقله جميعًا عن نبى الأمة ﷺ ، وأُبَيِّن أن طَوَائف الإسلام تنقله عن السَّلف كما نقلته ، وأن أئمة الإسلام عليه ، وأنا أُنَاظِر عليه ، وأعلم كل من يُخَالِفنى بمذهبه .

وانزعج الشَّيخ انزعاجًا عظيمًا على نائب المالكى ، والصَّفى الهندى ، وأسكتهما سكوتا لم يَتَكَلّما بعده بما يذكر . وجُزْئيات الأمور لا يتسع لها هذا الورق .

وبعد المجلس حمل بعض الشَّافعية النَّقل من تفسير القُرطبى بأن السَّلف لم ينكر أحد منهم أَنَّ الله تعالى استوى على العرش حَقِيقة ، وأنهم لا يقولون بنفى الجهة ، ولا يَنْطِقون إلَّا بما أخبرت به رسله ، وخص العرش بذلك لأَنَّه أعظم المخلوقات ، وإنما جهلوا كيفية الإستواء ، وأَنَّه لا تعلم حقيقته ؛ كما قال مالك رحمه الله : « الإسْتِوَاءُ مَعْلُوم - يعنى فى اللغة - والكَيْفُ مَجْهُول ، والإيمان به وَاجِب ، والسُّؤَالُ عنه بدعة »[1] فقال المالكى ما كنا نعرف هذا .

وبعد المجلس حصل من ابن الوكيل ، وغيره : من الكَذِب ، والاختلاق والتَّناقض بما عليه [الحال] ما لا يُوصف .

---

(١) الأثر تقدم تخريجه

فجميع ما يرد إليك مما يناقض ما ذكرت : من الأَكاذيب ؛ والإختلاقات فتعلم ذلك .

ولم ندر إلى الآن كيف وَقَع الأَمْرُ فى مصر ؛ إلَّا ما فى كتاب السُّلطان أنه بلغنا أن الشيخ فلانا كتب عقيدة يَدْعُو إليها وأن بعض الناس أنكرها فليعقد له مجلس لذلك ، ولتطالع ما يقع ، وتكشف أنت ذلك كشفًا شافيًا ، وتعرفنا به .

والسَّلام عليك ورحمة الله وبركاته ، وعلى الشَّيخ الإمام الكبير العالم الفاضل قرة العين عز الدِّين أفضل السَّلام ، وكذلك كل فرد من الأهل والأصحاب والمعارف والسَّلام .

* * *

الفهارس

١ - فهرس الآيات القرآنية

* * *

الآيـــة	رقمها	الصفحة
« سورة الفاتحة »		
بسم الله الرحمٰن الرحيم .	١	٢١
الحمد لله ربّ العالمين .	٢	٣٦٦
مالك يوم الدين .	٤	٦٣٦
إيّاك نعبد وإيّاك نستعين .	٥	١٤٦ ، ٣٦٦
اهدنا الصراط المستقيم صراط	٦ ، ٧	١١٩
« سورة البقرة »		
وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا	١٤	٢٩١ ، ٢٩٢
الله يستهزىء بهم .	١٥	٢٩٢
على كل شىء قدير .	٢٠	٦١٤
يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم	٢١ ، ٢٢	٣٢٦
فلا تجعلوا لله أندادًا .	٢٢	٧٥ ، ٨١، ٣٠٩،٣١٠،٣١٢
فلا تجعلوا لله أندادًا وأنتم تعلمون .	٢٢	٩٧ ، ٣٠٥ ، ٣٢٦
وأنتم تعلمون .	٢٢	٣٠٩
وإن كنتم فى ريب ممّا نزّلنا علىٰ	٢٣	٣٢٠
وقودها الناس والحجارة .	٢٤	٤٥٠
ثم استوىٰ إلىٰ السماء فسوّاهن	٢٩	٣٤٤
أقيموا الصلاة .	٤٣	٤٢٨
آتوا الزكاة .	٤٣	٤٢٩
أتأمرون الناس بالبرّ وتنسون	٤٤	٧٢٤

« سورة آل عمران »

« سورة الأنعام »

« سورة الأنفال »

« سورة التوبة »

« سورة يونس »

« سـورة النحـل »

« سورة الإسراء »

« سـورة القصـص »

« سـورة الزخـرف »

« سـورة الدخـان »

* * *

٢ - فهرس الأحاديث والآثار

الحديث أو الأثر	الراوي	الصفحة
إن رحمتي سبقت غضبي .	أبو هريرة	٥٩٢
أن الروح إذا قبض تبعه البصر .	أم سلمة	٥٢
أن السماوات السبع والأرضين	أبو ذر	١٣٤
أن قتادة بن النعمان لما جرح		٦٩٩
إن كان قال ذلك فقد صدق .	أبو بكر ★	٧٥٢
إن كان كما قلت فكأنما تسفّهم		٧٣٧
إن لكل نبيّ حوضًا .	سمرة بن جندب	٥٧٤
إن المشركين قالوا للرسول		١٢٣
أن المصلي إذا قام يصلي فإن الله	ابن عمر	٢٤٣
أن مع كل واحد سبعين ألفًا .		٥٦٩
إن من أمنِّ الناس عليَّ في ماله	أبو سعيد الخدري	٦٦٠
أن الناس يحشرون فيها حفاة		٥٤٧
أن النبيّ ﷺ رأى أمته ومعهم	ابن عباس	٥٦٩
إن هذا البيت المعمور يطوف	أنس	٤١
إن هذا الناموس الذي كان ينزل	عائشة	٦٨١
إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه	النواس بن سمعان	٥٣٠
أنا أوّل شفيع .	أنس	٥٨١
أنا أوّل من يقرع .	أنس	٥٨١
أنت أوّل رسول أرسله الله	أبو سعيد الخدري	٤٤
أنت رحمتي أرحم بك من أشاء .	أبو هريرة	٣٠٠ ، ٤٦٠
أنتم أصحابي وإخواني قوم	أبو هريرة	٦٥٧
إنكم تفتنون في قبوركم مثل	أسماء	٥٣٠
إنكم سترون ربكم كما ترون	جرير بن عبدالله	٧٧ ، ٧٨ ، ٤١٥، ٤٧٥
إنما الصبر عند الصدمة الأولى .		٧٣٢
إننا نجد أن الله يجعل السماوات	عبدالله بن مسعود	٦٠
إنه أعور وإن ربكم ليس		٢٦٦

« حرف التاء »

« حـرف اليـاء »

* * *

٣ - فهرس الموضوعات .

الموضوع	الصفحة
مقدمة التحقيق .	٣
ترجمة مؤلف العقيدة الواسطية : شيخ الإسلام ابن تيمية .	
ترجمة شارح العقيدة الواسطية : الشيخ محمد الصالح العثيمين .	
مقدمة الشارح .	٣
شرح مقدمة ابن تيمية .	٢١
أصول الإيمان الستة .	٣٥
موقف أهل السنة والجماعة من الإيمان بصفات الله .	٦١
فصل : آيات الصِّفات	١٢١
الجمع بين علوه وقربه وأزليته وأبديته فى القرآن الكريم .	١٤١
إحاطة علمه بجميع مخلوقاته فى القرآن الكريم .	١٥٠
إثبات السمع والبصر لله سبحانه فى القرآن الكريم .	١٦١
إثبات المشيئة والإرادة لله سبحانه فى القرآن الكريم .	١٦٦
إثبات محبة الله ومودته لأوليائه على ما يليق بجلاله فى القرآن الكريم .	١٧٧
إثبات اتصافه بالرحمة والمغفرة سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم .	١٩٦
إثبات اتصافه بالرضى سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم .	٢٠٧
إثبات اتصافه سبحانه وتعالى بالمجىء والإتيان فى القرآن الكريم .	٢٢٦
إثبات صفة الوجه لله سبحانه فى القرآن الكريم .	٢٣٧
إثبات صفة اليدين لله تعالى فى القرآن الكريم .	٢٤٦
إثبات العينين لله تعالى فى القرآن الكريم .	٢٦٢
إثبات السمع والبصر لله تعالى فى القرآن الكريم .	٢٧٦
إثبات المكر والكيد لله تعالى على ما يليق به فى القرآن الكريم .	٢٨٦
وصف الله بالعفو والمغفرة والرحمة والعزة والقدرة فى القرآن الكريم .	٢٩٥
إثبات الإسم لله ونفى المِثْل عنه فى القرآن الكريم .	٣٠٥

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضــوع	الصفحــة
	٨٠٥

مجالس الربانيين

شرح

رياض الصالحين

من كلام سيد المرسلين

للإمام الحافظ الفقيه أبي زكريا محيي الدين يحيى النووي

شرحه وأملاه

سماحة الشيخ محمد الصالح العثيمين

حقق نصوصه وخرج أحاديثه واعتنى به

أبو محمد أشرف بن عبد المقصود بن عبد الرحيم

الجزء الأول

مكتبة طبرية

الرياض : ت ٢٣٢١٠٤٥١

ايداع رقم ٥٢٩٣ / ٩٣

دار الجيل للطباعة ١٤ قصر اللؤلؤة - الفجالة
جمهورية مصر العربية - تليفون ٩٠٤٣٤٢